قصص الأنبياء

للإمام أبي الفداء

ابن كثير

٧٠١-٧٧٤ هـ

طبعة جديدة

تحقيق

سعيد اللحام

قدم له

عبد الرحمن الجوزو

منشورات دار ومكتبة الحياة
بيروت - لبنان

قصص الأنبياء

قصص الأنبياء

للإمام أبي الفداء
ابن كثير
٧٠١-٧٧٤ هـ

طبعة جديدة

تحقيق
سعيد اللحام

قدّم له
عبد الرحمن الجوزو

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال تعالى : ﴿ إنا أوحَيْنا إليْكَ كَمَا أوْحَيْنا إلى نُوحٍ والنّبيِّينَ مِنْ بَعدِهِ ، وأوْحَيْنا إلى إبْراهيمَ وإسْماعِيلَ وَإسْحَاقَ وَيَعقوبَ والأسْباطِ وَعِيسىٰ وَأيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارونَ وَسُلَيمانَ وَآتَيْنا دَاوُدَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾

[سورة النساء الآيتان ١٦٣ ـ ١٦٤]

وبعد ،

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، والصلاة والسَّلام على افضلِ الخلق ورسولِ الحقِّ سيدِنا مُحمَّدٍ خاتم الأنبياء والمرسلين

لقد خلق الله هذا الكون ، وَخَلَقَ الإنسان وسائر الموجوداتِ في هذا العالمِ اللانهائي لحكمةٍ قدَّرها وشاءَها سبحانَهُ وتعالى . هذا الكون بجميع كائناته ونُظمِهِ الدقيقة لمْ يُوجدْ صدفة ودون هدفٍ محدودٍ ، بل إنما خلقه الله تعالى لغايةٍ أرادها هُوَ وحده ، قال تعالى : ﴿ أفحسبتُمْ أنَّما خلقناكُمْ عَبَثاً وأنَّكُمْ الينا لا تُرْجَعُونَ ﴾

[سورة المؤمنون الآية ١١٥]

لقد خُلِقَ هذا الكونُ بجميعِ كائناتِهِ ـ ومنها الإنسان بالطبع ـ لغرضٍ معيَّنٍ ، ونتيجةٍ محتومةٍ ، لقدْ شاء الله ، ـ ولا رادَّ لمشيئتِهِ ـ أنْ يَخْلُقَ كلَّ هؤلاءِ مِنْ أجلِ عبادتِهِ وحدَهُ ، فهو الفردُ الصمدُ ، الواحدُ الأحدُ الَّذي لا معبودَ سواهُ ولا خالقَ غيرَهُ ، قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلَّا ليَعْبُدونِ * مَا أُريدُ مِنْهُمْ مِنْ رزقٍ وَمَا أُرِيدُ أنْ يَطعِمُونِ ﴾ .

[سورة الذاريات ـ الآيتان ٥٦ ـ ٥٧]

وهكـذا حدَّدَ الله تعـالى الهدف من خلقِـهِ هذا الكـونَ ، وكانَ لَا بـدَّ مِنْ وسيلةٍ تصلُ بهـا مشيئته وإرادتُهُ في إخـلاصِ العِبادةِ لَـه إلى البشرِ ، ليعلموا أنَّ لهـذا الكَوْنِ خـالقاً ، وأنَّ هـذا الخالقَ القادر حريٌّ بالعبادةِ ، وأنَّ هذه العبادةَ لا بدَّ أن تتّسِمَ بَقواعدَ ونُظمٍ لا يجوزُ الخروجُ عليهـا أو مخالفتُهـا لما يستتبعُ ذلك مِنْ حسـابٍ وعقـابٍ ، ولكن كيف يتَسَنّى لـلإنسـان عـلى ضعفِـهِ ، أنْ يَعلمَ كلَّ هـذِهِ الأمُورِ ، وهـلْ يعقَلُ أن يحُاسبَ الخـالقُ الحكيمُ النّـاسَ دونَ أنْ يُـرسلَ إليْهم من يهـديهِمْ ويرشـدُهُمْ إلى سُبُلِ الحقِّ ، ويعلّمُهُمْ أصـولَ العبادةِ والإيمـانِ بالله تعـالى ؟ مِنْ هنـا شـاءتِ الحكمـةُ الإلٰهيـةُ أنْ يبعثَ الله رسُلَهُ وانبيـاءَهُ إلى البشرِ ينقلون إليهم بلغتِهم كـلامَ اللهِ مبشرينَ بحسنِ عـاقبةِ المؤمنـين العابـدين ، ومنذرين بسـوء عاقبـة المكذّبـين الكافرين ، قال تعالى :

﴿ وما كُنَّا معذبينَ حتَّى نَبْعَثَ رسولاً ﴾ .

[سورة الإسراء الآية ـ ١٥]

وقال أيضاً :

﴿ وَمـا نرسـلُ المرسلينَ إلاَّ مبشِّـرِينَ ومُنذِرِينَ ، فَمنْ آمنَ وأصْلَحَ فـلا خـوفٌ عليهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * والَّذِينَ كَذّبوا بآياتِنَا يَمَسُّهُمُ العذابُ بما كانوا يفسقُونَ ﴾ .

[سورة الانعام ـ الآيتان ٤٨ ـ ٤٩]

إنَّ الله أراد أَنْ يعلِّمَ الناسَ أُمورَ دينِهِمْ ، ودنياهُمْ ، ووسـائلَ معاشِهِم ومحيـاهُمْ ، فلا بـدَّ أن يصطفيَ مِنْ بين عبـادِهِ النُّخبةَ المميَّـزة ، والنُّفوسَ الـطاهرة ، والعقـول النيِّـرَة ، والقلوبَ الصَّـافيةَ ، أشخـاصاً لم تشبْ حيـاتَهم شائبـةٌ في علاقـاتِهم مع النَّـاسِ ومـع أنفْسِهم ، هؤلاء المصطفونَ الأبرارُ يختارُهُمُ الله تعالى بحكمتِهِ وإرادتِهِ ليكونـوا رسُلَهُ لهدايـةِ النَّاسِ ، وتعليمِهِمْ وإرشـادِهم ، هؤلاءِ الأخيـارُ منْ بني البشرِ هُمْ انبيـاءُ اللهِ وأَحِبَّـاؤهُ ، هُمْ حـاملو لـواءِ الحقِّ ، ومشاعِلِ الهِدايةِ ، قال تعالى :

﴿ الله يَصْطَفي مِنَ الملائكةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ، إنَّ الله سميعٌ بصيرٌ ﴾ .

[سورة الحج ـ الآية ٧٥]

وقال أيضاً :

﴿ إنَّ اللهَ اصطفى آدمَ ونُوحـاً وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمـرانَ على العالمين * ذُرِّيَّـةً بعضُها مِنْ بعضٍ والله سميعٌ عليمٌ ﴾ .

[سورة آل عمران ـ الآيتان ٣٣ ـ ٣٤]

إنّ الله تعالى ، وقدِ اختارَ رُسلهُ إلى النَّاسِ ، أيَّـدَهُمْ وَزوّدهم بكلِّ مـا يحتاجـونَهُ لتـأدية رسـالاتِهِمْ مِنْ معجزاتٍ وخـوارقَ إلٰهيةٍ ، وهيَّـأَ لهُمُ الأسباب ، وَحَفِـظَهُمْ مِنْ كُـلِّ مكـروهٍ ، وذلك بما يناسبُ كلَّ مجموعةٍ مِنَ البـشـرِ وكلَّ زمانٍ ومكانٍ .

لَمْ تكُنْ مَهَمَّـةُ الرُّسُـلِ والأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسـلامه عليهم بـالْمَهَمَّةِ الهيِّنـةِ ، بل كـانَتْ طُرُقُهُمْ مزروعةً بالصِّعـابِ الناشئـةِ عن جهلِ بعضِ البشـرِ للأهـدافِ الساميـة التي يدعـونَ إليهـا ، وتشبُّثِ البعض الآخرِ بمـا ورثوه عنِ آبـائهم وأجدادِهم من عبـاداتٍ وعاداتٍ تتنـافى والعقـلَ السليمِ ، وغطرسـةِ وجبروتِ الحُكّـام وأولي الأمـرِ خـوفـاً على سلطانِهم وملكِهِمْ الزائل ، وقدِ ابتلى الله رُسُلَهُ ليثبِّتَ إيمانَهُمْ وليكونوا قدوَةً صالحةً للمؤمنين

هؤلاء الأنبيـاءُ والـرسـلُ ذكَـرَهُمُ الله في كتـابـهِ العـزيـز ، منهم مَن وردَ ذكـره بشيءٍ من التفصيـل ومنهم من ذُكِرَ بشكـلٍ عابـرٍ في آياتٍ بينـاتٍ ، ومنهم من أخبر عن وجـودِهِمْ دونَ أن يسمِّيَهُمْ أو يَقُصَّ شيئاً عن حياتهم أو شعوبهم ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَـدْ أَرْسَلْنَـا رُسُـلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصصنـا عَلَيْـكَ وَمِنْـهُمْ مَـنْ لَم نَـقصُصْ عَلَيْكَ ﴾ .

[سورة غافر ـ الآية ٧٨]

وفي مـطلقِ الأحـوال فـإن قَصَص الأنبيـاءِ الـواردةَ في القـرآنِ الكـريمِ جـاءت لتـؤدِّيَ الحكمةَ مِنْ ذِكْرِهـا ، ولتبينَ سيرة هؤلاء الأنبياءِ والرُّسُـل لتكون نبـراساً يضيءُ الـطريقَ إلى الهـدى والإيمـانِ ، دونَ تفصيـلٍ ممـلٍّ أو ذكـرِ حـوادثَ غيـر مفيـدة ، لكـلِّ هـذا انبـرى المحققون وكتّاب السِّيَرِ والمؤرّخون لكتـابةِ قصصِ هؤلاءِ الأنبيـاءِ مستقـاةً من تـواترِ اخبـارٍ ، ومـا وجدُوه في طيّـاتِ التّاريـخِ وفي الكتب السَّمـاويَّـةِ ، ونـظراً للظروفِ التي كـانَتْ تُحيطُ بحيـاتِهِمْ جـاءَتْ بعضُ هـذِهِ القصص المكتـوبـةِ مشـوبـةً ببعض الأخـطاءِ أحيـانـاً وببعض المبالغات أحياناً أخـرى ، وببعض التحريف المقصـود من بعضِ الكتَّاب ، لـذا كانَ لا بـدَّ لنا ونحن نقرأ سيرة هؤلاءِ الأنبياء والرسل مِنْ أنْ نعـرضها على كتـابِ اللهِ العزيـز ، فما جـاء متفقاً وتعاليمه أخذنا به ، وما لا يتفق وهذه التعاليم نبذناه .

وكغيـرهم من كتّاب السِّيـر انبرى الكتّـاب المسلمون ، يـدلـونَ دلاءهم في كتـابـةِ سِيـر الأنبيـاء والمـرسلين ، وهي وإنْ كـانت أقـربَ إلى الصـوابِ مِنْ غيـرِهـا فـإنَّ بعضهـا اتَّسم ببعض الأخـطاء الناتجة عن النَّقلِ عن أهـلِ الكتـاب ، الَّـذينَ حـرَّفـوا التَّـوراة والإنجيـل وحـرَّفوا كـذلـك قصص أنبيـائهم ، وإنَّ أهم مـا يشـوبُ هـذه القصص تلك المـأخـوذة عن اليهودِ وهو مـا اصطلح على تسميتـه بالاسـرائيليات ، والّتي نقلهـا الينا بعضُ أهـلِ الكتاب الّذين أسْلمَوا وبقي في نفوسِهِمْ شيءُ من تعاليمهمُ القديمةِ ، فـأدْخلُوها في قصصِ الأنبيـاءِ عن قصـدٍ أو غيـر قصـدٍ ، وانتشـرتْ هـذهِ القصصُ بين العـامـةِ مِن النـاسِ عن جهـلٍ بـالواقـعِ ، ولم يقتصرِ الأمـرُ على العامـةِ فقطْ بل انتقـلَ الأمرُ إلى بعضِ الكتّـاب الذينَ لـم يكلّفُوا انفسَهُمْ عبءَ البحث عن الحقيقة .

وبعد ،

فهـذا كتاب قصص الأنبيـاء للإمـام أبي الفداء اسمـاعيل بن كثيـر وهو في الأصـلِ جزءٌ مِنْ كتابِهِ البدايةُ والنهايةُ ، فُصِلَ عن الأصلِ ونشـرَ في كتابٍ مستقـلٍ ، يبحثُ في قِصَصِ الأنبياءِ والرُّسلِ عليهمُ السَّلامُ .

لقد جاء هـذا الكتاب شـاملاً لحيـاةِ انبياء اللهِ ورسلهِ المعـروفين بأسلوبٍ وإن اتَّسَمَ بمـا تتسِمُ بـه كتب الأقدمين من نـاحية اسلوب السَّـردِ والرِّوايـة ، إلاّ أنَّه لم يَكتفِ بنقـل الروايـة فقط بل أنه عالج هـذه الروايـة ، ونبّه إلى مصـادرها مقـارناً إيـاها بغيـرها مبيناً مقدار قـوتها وضعفهـا ، ومع أن الكـاتب ينقل عن أهـل الكتاب إلا أنَّـه لا يأخـذ الروايـة على علاتهـا ، وإنمـا ينْقُدُهـا وينبِّه على مـا في هذه الـرواية من آثـار أهـل الكتـاب ويـأخـذ منهـا مـا يتفق والحقيقة والرأي السديد .

يتناول الكاتب القصـة من مختلف مصادرهـا في النصوص القـرآنية ويجمعهـا في القصة الواحدة .

وإنـنـا في هـذه الـدار ، وقـد آلينـا على أنفسنـا أن نقـدم للقـارىء أنفس مـا في تـراثنـا الاسـلامي ، يسرنـا أن نقدم هـذا السفر الجليـل ، لنضيف إلى صـرح مكتبتنـا لبنـة مضيئـة وهامة تمثل ركيزة من ركائز هذا التراث العريق .

والله من وراء القصد .

ترجمة المؤلف

هـو اسماعيـل بن عمر بن كثيـر بن ضو بن درع القـرشي البصـروي ثم الـدمشقي ، أبـو الفداء عماد الدين .

وُلـد في قريـة المجدل ـ وفي روايـة الجنـدل ـ من أعمـال بصـرى الشـام سنـة ٧٠٠ هـ الموافق سنة ١٣٠٠ م وقيـل سنـة ٧٠١ هـ المـوافق سنـة ١٣٠٢ م ، وتـوفي في دمشق في ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤ هـ الموافق ١٣٧٣ م .

انتقل الى دمشق مع أخيـه عبد الـوهاب واشتغـل بالعلم على يـديه ، واجتهـد في طلب العلم على ايـدي كبار علمـاء عصـره ، وحفظ القـرآن الكـريم ، تفقـه على الشيـخ بـرهـان الـدين الفزاري والشيـخ كمال الـدين ابن قاضي شهبـة ، ولازم الحافظ الكبيـر أبـا الحجـاج المزي وصاهـرَهُ ، وكان المصنف من مـدرسة شيـخ الاسلام ابن تيميـة ، وقد أوصى بـدفنه في تربته في مقبرة الصوفية خارج باب النصر من دمشق .

كان عالماً موسـوعياً في التـاريخ والسنـة ، خبيراً بـالأسانيـد والمتونِ وَعِلَلِهـا ، وعارفـاً بالرِّجالِ ، ومستوى كلٍّ منهُمْ في الرِّواية والدِّراسة . وكذلك كان خبيراً بأقـوال أهل الكتـابِ يـوردُ ما في كتبِهِمْ مِنَ القِصص ويقـارِنُ بينها وبين الـرواية الاسـلامية وينبـه إلى ما في هـذه الرواية من آثار أهل الكتاب .

قـال عنه العـلامة العيني كمـا جاء في النجـوم الزاهـرة لابن تغري بردي : « كان قـدوة العلمـاء والحفـاظ ، وعمـدة أهـل المعـاني والألفـاظ ، وسمـع وجمـع ، وصنف ودرس ، وحدث وألّف ، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ . . . »

وقال عنه ابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة : « اشتغـل بالحـديث مطالعـه في متونـه ورجـاله ، وكـان كثير الاستحضـار وحسن المفاكهـة ، سارت تصـانيفه في حيـاتـه ، وانتفـع الناس بها بعد وفاته . . . » .

مصنفاته :

صنف ابن كثير عدداً من الكتب منها :

ـ التفسير ـ البداية والنهاية ـ السيرة النبوية (مطولة) ـ السيرة النبوية (مختصرة) ـ اختصار علوم الحديث ـ جامع المسانيد والسنن ـ التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل ـ رسالة في الجهاد ـ طبقات الشافعية ـ اختصار كتاب « المدخل الى كتاب السنن » للبيهقي ـ كتاب المقدمات ـ تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فروع الشافعية ـ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب في الأصول ـ شرح صحيح البخاري ـ كتاب الأحكام .

مصادر ترجمته :

ـ البداية والنهاية .
ـ طبقات الحفاظ للحسيني والسيوطي (ذيلاهما) .
ـ شذرات الذهب ٦/٢٣١ .
ـ البدر الطالع ١/١٥٣ .
ـ تذكرة الحفاظ للذهبي .
ـ الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي .
ـ الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ١/٣٧٣ .
ـ آداب اللغة ٣/١٩٣ .
ـ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة .
ـ النجوم الزاهرة لابن بردي .
ـ ترجمته للشيخ أحمد شاكر (عمدة التفاسير)
ـ ترجمته للشيخ محمد عبد الرزاق حمزة (الباعث الحثيث)
ـ الرد الوافر لابن ناصر الدين .

باب ما ورد في خلق ادم عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نُسبِّح بحمدك ونقدِّس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم آسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌّ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حينٍ * فتلقىٰ آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدىً فمن تبع هُداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثم قال له كُن فيكون ﴾(٢)

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً وإتقوا اللهالذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(٣) .

كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبيرٌ ﴾(٤) .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٣٠ ـ ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

(٣) سورة النساء الآية ١ .

(٤) سورة الحجرات الآية ١٣ .

وقـال تعالى : ﴿ هـو الذي خلقكم من نفسٍ واحـدة وجعل منهـا زوجهـا ليسكُن إليهـا ﴾(1) الآية . . . .

وقـال تعالى : ﴿ ولقـد خلقناكم ثم صـورناكم ثم قلنـا للملائكـة اسجـدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس لم يكن من السـاجدين * قـال : ما منعـك ألاَّ تسجد إذ أمـرتك قـال أنا خـيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ * قال فاهبط منها فـما يكون لـك أن تتكبَّر فيهـا فآخـرج إنك من الصـاغرين * قـال أنظرني إلى يـوم يبعثون * قـال إنك من المُنـظَرين * قـال فبـما أغـويتني لأقعـدنَّ لهم صـراطـك المستقيم * ثم لآتينَّهم من بـين أيـديهم ومن خلفهم وعن أيمـانهم وعن شمـائلهم ولا تجـد أكثـرهم شاكرين * قال آخرج منها مذؤومـاً مدحـوراً لمن تبعك منهم لأمـلأنَّ جهنم منكم أجمعين * ويـا آدم اسكن أنت وزوجـك الجنة فكـلا من حيث شئتما ولا تقـربـا هـذه الشجـرة فتكـونـا من الـظالمـين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُرِيَ عنهما من سوءتهما وقـال : ما نهاكـما ربكما عن هـذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن النـاصحين * فـدلَّاهُما بغـرورٍ فلما ذاقـا الشجرة بـدت لهما سـوآتهما وطفقـا يخصفان عليهـما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجـرة وأقل لكـما إن الشيطان لكـما عدوٌّ مبـينٌ * قالا ربنـا ظلمنا أنفسنـا وإن لم تغفر لنـا وترحمنـا لنكـوننَّ من الخـاسـرين * قـال اهبـطوا بعضكم لبعضٍ عـدوٌّ ولكم في الأرض مستقـرٌ ومتـاعٌ إلى حينٍ * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾(2) .

كما قال في آية أخرى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدُكم ومنها نخرجكم تارةً أُخرى ﴾(3)

وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسـان من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ * والجـان خلقناه من قبـل من نـار السموم * وإذ قـال ربك للمـلائكة إني خـالقٌ بشـراً من صلصـالٍ من حمإٍ مسنـونٍ * فـإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا لـه ساجـدين * فسجد المـلائكة كلهم أجمعـون * إلا إبليس أبىٰ أن يكـون مع السـاجدين * قـال يا إبليس مـا لك ألا تكـون مع السـاجدين * قـال لم أكن لأسجـد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ مِن حمإٍ مسنونٍ * قـال فآخـرج منها فـإنك رجيمٌ * وإن عليـك اللعنة إلى يوم الدِّين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فـإنك من المنـظرين * إلى يوم الـوقت المعلوم *

---

(1) سورة الأعراف الآية ١٨٩ .

(2) سورة الأعـراف الآيات ١١ ـ ٢٥ .

(3) سورة طه الآية ٥٥ .

قال ربِّ بما أغـويتني لأزيننَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعـين * إلا عبادك منهم المخلصـين * قال : هـذا صراطٌ عـليَّ مستقيمٌ * إن عبـادي ليس لـك عليهم سلطانٌ إلا من آتبعـك من الغـاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قلنـا للملائكـة اسجدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس قال أأسجـد لمن خلقت طيناً * قال : أرأيتك هذا الذي كرَّمت عـليَّ لئن أخَّرتني إلى يـوم القيامـة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليـلاً * قـال آذهب فمن تبعـك منهم فـإن جهنم جـزاؤكم جـزاءً مـوفـوراً * وآستفـزز من استـطعت منهم بصـوتـك وأجلب عليهم بخيلك ورجلِكَ وشـاركهم في الأمـوال والأولاد وعـدهم ومـا يعـدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ وكفى بربك وكيلاً ﴾(٢) .

وقـال تعالى : ﴿ وإذ قلنـا للمـلائكـة اسجـدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس كـان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بدلاً ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولقـد عهدنـا إلى آدم من قبل فنسي ولـم نجـد له عـزما * وإذ قلنـا للملائكـة اسجـدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنـا يا آدم إن هـذا عدوٌّ لـك ولزوجـك فلا يخـرجنكما من الجنة فتشقىٰ * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعـرى * وأنك لا تـظمأُ فيهـا ولا تضُحىٰ * فوسـوس إليه الشيـطان قال يـا آدم هل أدلـك على شجـرة الخلد ومُلكٍ لا يبلى * فـأكلا منهـا فبـدت لهـما سـوآتهـما وطفقا يخصفان عليهـما من ورق الجنة وعصىٰ آدم ربـه فغوى * ثم اجتبـاه ربه فتـاب عليه وهـدىٰ * قـال اهبطا منهـا جميعاً بعضكم لبعض عـدوٌّ فإمـا يأتينكم منِّي هـدىً فمن اتبع هُـدايَ فـلا يضـل ولا يشقى * ومن أعـرض عن ذكري فـإن له معيشـةً ضنكاً ونحشـره يـوم القيـامـة أعمى * قـال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ قل هو نبأٌ عظيمٌ * أنتم عنه معرضـون * ما كـان لي من علم بالمـلإِ الأعلى إذ يختصمـون * إن يوحى إليَّ إلاَّ أنمـا أنا نـذيرٌ مبـينٌ * إذ قال ربـك للمـلائكـة إني خـالقٌ بشـراً من

---

(١) سورة الحجر الآيات ٢٦ ـ ٤٤ .

(٢) سورة الاسراء الآيات ٦١ ـ ٦٥ .

(٣) سورة الكهف الآية ٥٠ .

(٤) سورة طه الآيات ١١٥ ـ ١٢٦ .

طينٍ * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديَّ أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ * قال فاخرج منها فإنك رجيمٌ * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقتِ المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين * قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين * إن هو إلاَّ ذكرٌ للعالمين * ولتعلمنَّ نبأه بعد حينٍ ﴾[1] .

[صدق الله العظيم]

* * *

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن ، وقد تكلمنا على ذلك كله في التفسير ، ولنذكر ها هنا مضمون ما دلت عليه هذه الآيات الكريمات ، وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله ﷺ والله المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم : ﴿ **إني جاعلٌ في الأرض خليفة** ﴾[2] اعلم بما يريد أن يخلق من آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾[3] وقال : ﴿ **ويجعلكم خلفاء الأرض** ﴾[4] فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته ، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة ، لا على وجه الاعتراض والتنقص لبني آدم والحسد لهم ، كما قد يتوهمه بعض الجهلة المفسرين ، قالوا : ﴿ **أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾[5] .

قيل : علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن والبن . قاله قتادة .

وقال عبد الله بن عمر : كانت الجن قبل آدم بألفي عام فسفكوا الدماء ، فبعث الله اليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور . وعن ابن عباس : نحوه . وعن الحسن : ألهموا ذلك .

---

(١) سورة ص الآيات ٦٧ ـ ٨٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٥

(٤) سورة النمل الآية ٦٣ .

(٥) سورة البقرة الآية ٣٠

وقيل : لما أطلعوا عليه من اللوح المحفوظ ، فقيل : أطلعهم عليه هاروت وماروت عن ملك فوقهما يقال له السجل . رواه ابن أبي حاتم عن أبي جعفر الباقر[1] . وقيل : لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالباً[2] .

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ أي نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد ، فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فها نحن لا نفتر ليلاً ولا نهاراً .

﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هؤلاء ما لا تعلمون ، أي سيوجد منهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء .

ثم بيّن لهم شرف آدم عليهم في العلم فقال ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ . قال ابن عباس : هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : انسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

وفي رواية : علمه اسم الصحفة ، والقدر ، حتى الفسوة والفسية .

وقال مجاهد : علمه اسم كل دابة ، وكل طير وكل شيء . وكذا قال سعيد بن جبير وقتادة وغير واحد .

وقال الربيع : علمه اسماء الملائكة . وقال عبد الرحمن بن زيد : علمه أسماء ذريته . والصحيح : أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها مكبرها ومصغرها ، كما أشار اليه ابن عباس رضي الله عنهما .

وذكر البخاري هنا ما رواه هو ومسلم عن طريق سعيد وهشام عن قتادة ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا ، فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء » وذكر تمام الحديث[3] .

﴿ ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾

قال الحسن البصري : لما أراد الله خلق آدم ، قالت الملائكة : لا يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه . فابتلوا بهذا . وذلك قوله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ وقيل غير ذلك كما بسطناه في التفسير[4]

(١) رواية التفسير فيها أن السجل أسر ذلك الى هاروت وماروت فقالا : (اتجعل فيها من يفسد فيها) استطالة على الملائكة . قال ابن كثير في التفسير ١/٧١ : (وهو أثر غريب وفيه نكارة توجب رده ، لأن مقتضاه أن القائل اثنان) ووجه الرفض أن الفعل الوارد (قالوا) يفيد الجمع لا التثنية .

(٢) قال ابن جريج : قالوا ذلك بعد ما أعلمهم انه كائن من بني آدم (تفسير ابن كثير ١ / ٧١) .

(٣) البخاري ٤/٢٧٩ . وفيه (يجمع الله البشر) .

(٤) أنظر تفسير ابن كثير ١/ ٧٤ .

قالوا : ﴿ **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنـك أنت العليم الحكيم** ﴾ . أي سبحـانك أن يحيط أحـد بشيء من علمـك من غـير تعليمـك ، كـما قـال : ﴿ **ولا يحيـطون بشيء من علمـه إلا بمـا شاء** ﴾[1] .

﴿ **قـال يـا آدم أنبئهم بـأسمـائهم ، فلما أنبأهم بـأسمـائهم قـال ألم أقـل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبـدون وما كنتم تكتمـون** ﴾[2] . أي اعلم السر كما أعلم العـلانيـة . وقيـل : إن المراد بقـوله : ﴿ **أعلم مـا تبدون** ﴾ مـا قالـوا[3] : ﴿ **أتجعـل فيهـا من يفسـد فيهـا** ﴾ ، وبقوله : ﴿ **وما كنتم تكتمون** ﴾ المراد بهذا الكـلام إبليس حين أسرَّ الكبـر والخيرة[4] عـلى آدم عليه السلام . قالـه سعيد بن جبير ومجاهـد والسدي والضحـاك والثوري واختـاره ابن جريـر . وقال أبـو العـالية والـربيع والحسن وقتـادة : ﴿ **وما كنتم تكتمـون** ﴾ قولهم : لن يخلق ربنـا خلقاً إلا كنـا أعلم منه وأكرم عليه منه .

قـوله : ﴿ **وإذ قلنـا للملائكـة اسجدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس أبى واستكبـر** ﴾ هـذا إكـرام عظيم من الله لآدم حين خلقه بيده ونفـخ فيه من روحـه ، كـما قال : ﴿ **فـإذا سويتـه ونفخت فيه من روحي فقعـوا له سـاجدين** ﴾[5] فهـذه أربع تشـريفات : خلقـه لـه بيـده الكـريمـة[6] ، ونفخـه من روحه ، وأمْرُه الملائكة بالسجود له ، وتعليمه أسماء الأشياء .

ولهـذا قال لـه موسى الكلـيم حـين اجتمع هـو وإياه في المـلأ الأعلى وتنـاظرا كـما سيأتي : أنت آدم أبـو البشر الذي خلقـك الله بيده[6] ، ونفـخ فيك من روحـه ، وأسجد لـك ملائكتـه ، وعلمك أسماء كل شيء . وهكذا يقول أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم ، وكما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وقـال في الآية الأخـرى : ﴿ **ولقـد خلقنـاكم ثم صورنـاكم ثم قلنـا للمـلائكـة اسجـدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس لم يكن من الساجـدين * قال مـا منعك ألا تسجـد إذ أمرتـك قال أنـا خيرٌ منـه خلقتني من نارٍ وخلقته من طينٍ** ﴾[7] .

قـال الحسن البصري : قـاس إبليس وهو أول من قـاس . وقـال محمـد بن سيـرين : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس رواهـا ابن جـريـر .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ٣٣ .

(٣) أي قولهم .

(٤) وروي : التكـثير والتخيرية وقد يكون ذلك من خطأ الناقلين ونرى أن المعنى يحتمل كما ذكرنا .

(٥) سورة الحجر الآية ٢٩ ، وسورة ص الآية ٧٢ .

(٦) لفظة اليد هنا مجازية ، فالله سبحانه منزه عن الشكل

(٧) سورة الأعراف الآيتان ١١ ، ١٢

ومعنى هذا أنه نظر إلى نفسه بطريق المقايسة بينه وبين ادم ، فرأى نفسه أشرف من ادم فامتنع من السجود له ، مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلاً بالنص كان فاسد الاعتبار . ثم هو فاسد في نفسه ، فإن الطين أنفع وخير من النار ، لأن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق(١) .

ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه ، ولهذا أمر الملائكة بالسجودله ، كما قال : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس ما لكألَّا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** ﴾(٢) . استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به وترفعه عليه مخالفة الأمر الإلهي ، ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين .

وشرع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً ، وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى في سورة سبحان(٣) : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً * قال : أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجِلِك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً** ﴾(٤) .

وقال في سورة الكهف : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني** ﴾(٥) أي خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره ، وما ذلك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان اليها ، فإنه مخلوق مِّن نار كما قال وكما قررنا ، كما جاء في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله

---

(١) التفضيل إنما جاء بناءً على أمر الله تعالى لا لفضل الأشياء على بعضها ، فكلها مخلوقة بكلمة « كن » ولم تختر لنفسها النوع ولا الصفات

(٢) سورة الحجر الأيات ٢٨ ـ ٣٥ .

(٣) سورة الاسراء

(٤) سورة الإسراء الأيات ٦١ ـ ٦٥

(٥) سورة الكهف الأية ٥٠ .

ﷺ قال : « خلقت الملائكة من نور (العـرش)[1] ، وخلق الجان من مـارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط .

قـال شهـر بن حـوشب : كـان من الجن ، فلما أفسـدوا في الأرض بعث الله اليهم جنـداً من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جـزائر البحـار ، وكان إبليس ممن أسر فـأخذوه معهم إلى السـماء فكان هناك . فلما أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه[2] .

وقال ابن مسعود وابن عبـاس وجماعـة من الصحابـة وسعيد بن المسيب وآخـرون : كان إبليس رئيس الملائكة بالسماء الدنيا .

قال ابن عباس : وكان اسمه عزازيل ، وفي رواية عنه : الحارث .

قال النقاش : وكنيته أبو كردوس .

قال ابن عباس : وكان من حي من الملائكة يقال لهم الجن ، وكـانوا خـزان الجنان[3] ، وكـان من أشرفهم وأكثرهم علماً وعبادة ، وكان من أولي الأجنحة الأربعة فمسخه الله شيطاناً رجيماً .

وقـال في سـورة ص : ﴿ **إذ قـال ربـك للمـلائكـة إني خـالقٌ بشـراً من طـينٍ * فـإذا سـويتـه ونفخت فيـه من روحي فقعوا لـه ساجـدين * فسجد المـلائكـة كلهم أجمعـون * إلا إبليس آستكبـر وكـان من الكافـرين * قال يـا إبليس ما منعـك أن تسجـد لمـا خلقتُ بيـدي أستكبـرت أم كنت من العالين * قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نـارٍ وخلقته من طـينٍ * قال فـآخرج منهـا فإنـك رجيمٌ * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال رب فانظرني إلى يـوم يبعثون * قـال فإنـك من المنظرين * إلى يـوم الـوقت المعلوم * قال فبعـزتك لأغـوينهم أجمعين * إلا عبـادك منهم المخلصـين * قـال فـالحق والحق أقول * لأملأنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾[4] .

وقـال في سورة الاعـراف : ﴿ **قال فبـما أغويتني لأقعـدن لهم صراطـك المستقيم * ثم لآتينهم من بـين أيـديهم ومن خلفهم وعن أيمـانهم وعن شمـائلهم ولا تجـد أكثـرهم شـاكـرين** ﴾[5] . أي بسبب إغـوائك إيـاي لأقعدن لهم كـل مرصـد ، ولآتينهم من كل جهـة منهم ، فالسعيـد من خـالفـه والشقي من اتبعه .

---

(١) زيادة من التفسير ٢ / ٣٠٣ . من رواية ابن مردويه عن عائشة .

(٢) هذه المسألة فيها خلاف أما الحقيقة فعلمها عند الله وحده .

(٣) وقيل كانوا خزان الأرض .

سورة ص الآيات ٧١ ـ ٨٥ .

(٥) سورة الأعراف الآيتان ١٦ ، ١٧

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو عقيل ـ هو عبد الله بن عقيل الثقفي ـ حدثنا موسى بن المسيب ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن سبرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان يقعد لابن آدم بأطرقه » وذكر الحديث كما قدمناه في صفة إبليس .

* * *

وقد اختلف المفسرون في الملائكة المأمورين بالسجود لآدم : أهم جميع الملائكة كما دل عليه عموم الآيات ؟ وهو قول الجمهور ، أم المراد بهم ملائكة الأرض ؟ كما رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس ، وفيه انقطاع ، وفي السياق نكارة ، وإن كان بعض المتأخرين قد رجحه . ولكن الأظهر من السياقات الأول ، ويدل عليه الحديث : « وأسجد لك ملائكته » وهذا عموم أيضاً والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **فاهبط منها** ﴾[1] . و﴿ **اخرج منها** ﴾[2] دليل على أنه كان في السماء فأمر بالهبوط منها ، والخروج من المنزلة والمكانة اللتين كان قد نالها بعبادته ، وتشبهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذءوماً مدحوراً . وأمر الله آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال : ﴿ **وقلنا يا ادم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾[3] .

وقال في الأعراف : ﴿ **قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين * ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىٰ * فقلنا يا آدم إن هذا عدوٌّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقىٰ * إن لك ألَّا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأُ فيها ولا تضحىٰ** ﴾[5]

وسياق هذه الآيات يقتضي أن خلق حواء كان قبل دخول آدم الجنة لقوله : ﴿ **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ وهذا قد صرح به إسحاق بن يسار وهو ظاهر هذه الآيات .

ولكن حكى السدي عن أبي صالح وأبي مالك عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨ .

(٣) سورة البقرة الآية ٣٥ .

(٤) سورة الأعراف الآيتان ١٨ ـ ١٩

(٥) سورة طه الآيات ١١٦ ـ ١١٩

مسعود ، وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا : أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة ، فكان يمشي فيها وحشياً[1] ليس له فيها زوج يسكن اليها ، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه . فسألها : من أنت ؟ قالت : امرأة . قال : ولِمَ خلقت ؟ قالت : لتسكن إليَّ ، فقالت له الملائكة - ينظرون ما بلغ من علمه - : ما اسمها يا آدم ؟ قال : حواء ، قالوا : ولِمَ كانت حواء ؟ قال : لأنها خلقت من شيء حي . وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحماً .

ومصداق هذا في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً** ﴾[2] .

وفي قوله : ﴿ **هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرَّت به** ﴾[3] . وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى

وفي الصحيحين من حديث زائدة ، عن ميسرة الأشجعي ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً » . لفظ البخاري[4] .

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ فقيل : هي الكرم ، وروي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والشعبي ، وجعدة بن هبيرة ، ومحمد بن قيس ، والسدي في رواية عن ابن عباس ، وابن مسعود وناس من الصحابة . قال : وتزعم يهود أنها الحنطة ، وهذا مروي عن ابن عباس ، والحسن البصري ، ووهب بن منبه ، وعطية العوفي ، وابي مالك ، ومحارب بن دثار ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

قال وهب : والحبة منه ألين من الزبد وأحلى من العسل .

وقال الثوري عن أبي حصين ، عن أبي مالك : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ هي النخلة .

وقال ابن جريج عن مجاهد : هي التينة ، وبه قال قتادة ، وابن جريج .

---

(١) في المطبوعة (وحشي) خطأ .

(٢) سورة النساء الآية ١ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٩ .

(٤) البخاري ٣/٢٥٧ . وفي أوله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره . . . » الحديث .

وقال أبو العالية : كانت شجرة من أكل منها أحدث ، ولا ينبغي في الجنة حدث .

وهذا الخلاف قريب ، وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها ، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود الينا لعينها لنا كما في غيرها من المحال ، التي تبهم في القرآن .

وإنما الخلاف الذي ذكروه في أن هذه الجنة التي أدخلها آدم : هل هي في السماء أو في الأرض ، هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه .

والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى، لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى : ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي ، وإنما تعود على معهود ذهني[1] ، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى ، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام : « علام أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ . . . » الحديث كما سيأتي الكلام عليه .

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي ـ واسمه سعد بن طارق ـ عن أبي حازم سلمة بن دينار ، عن أبي هريرة ، وأبو مالك عن ربعي ، عن حذيفة قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة . فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ » وذكر الحديث بطوله[2] .

وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى ، وليست تخلو عن نظر .

وقال آخرون : بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد ، لأنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولأنه نام فيها وأخرج منها ، ودخل عليه ابليس فيها ، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى .

وهذا القول محكي عن أُبي بن كعب ، وعبدالله بن عباس ، ووهب بن منبه ، وسفيان بن عيينة ، واختاره ابن قتيبة في المعارف ، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره وأفرد له مصنفاً على حدة . وحكاه عن أبي حنيفة الإمام وأصحابه رحمهم الله . ونقله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ابن خطيب الري في تفسيره عن أبي القاسم البلخي وأبي مسلم الأصبهاني . ونقله القرطبي في تفسيره عن المعتزلة والقدرية . وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب .

وممن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في الملل والنحل ، وأبو محمد بن

---

(١) المعهود الذهني هو صورة شيء معروف في الذهن قبل وضع اللفظ الذي يعينه .

(٢) صحيح مسلم ١٧ / ٨٥ .

عطية في تفسيره ، وأبو عيسى الرماني في تفسيره ـ وحكى عن الجمهور الأول ـ وأبو القاسم الراغب والقاضي الماوردي في تفسيره فقال : « واختلف في الجنة التي أسكناها ـ يعني آدم وحواء ـ على قولين : أحدهما أنها جنة الخلد . الثاني جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء ، وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء » .

ومن قال بهذا اختلفوا على قولين : أحدهما أنها في السماء لأنه أهبطهما منها ، وهذا قول الحسن ، والثاني أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار وهذا قول ابن يحيى ، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم ، والله أعلم بالصواب من ذلك . وهذا كلامه فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة ، وأشعر كلامه أنه متوقف في المسألة .

ولقد حكى أبو عبدالله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال : هذه الثلاثة التي أوردها الماوردي ، ورابعها الوقف . وحكى القول بأنها في السماء وليست جنة المأوى ، عن أبي علي الجبائي .

وقد أورد أصحاب القول الثاني[(١)] سؤالاً يحتاج مثله إلى جواب ، فقالوا : لا شك أن الله سبحانه وتعالى طرد إبليس حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية ، وأمره بالخروج عنها والهبوط منها وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية بحيث يمكن مخالفته ، وإنما هو أمر قدري لا يخالف ولا يمانع ، ولهذا قال : ﴿ **اخرج منها مذؤوماً مدحوراً** ﴾[(٢)] . وقال : ﴿ **فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾[(٣)] . وقال : ﴿ **فاخرج منها فإنك رجيمٌ** ﴾[(٤)] . والضمير عائدٌ إلى الجنة أو السماء أو المنزلة .

وأياً ما كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدراً في المكان الذي طرد عنه وأبعد منه ، لا على سبيل الاستقرار ولا على سبيل المرور والاجتياز . قالوا : ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له : ﴿ **هل أدلك على شجرة الخلد ومُلكٍ لا يبلى** ﴾[(٥)] . وبقوله : ﴿ **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور** ﴾[(٦)] الآية . وهذا ظاهر في اجتماعه معهما في جنتهما .

---

(١) الذين قالوا بأن جنة آدم كانت في الأرض .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٣ .

(٤) سورة الحجر الآية ٣٤ .

(٥) سورة طه الآية ١٢٠ .

(٦) سورة الأعراف الآيات ٢٠ ـ ٢٢ .

وقد أجيبوا عن هذا بأنه : لا يمتنع أن يجتمع بهما في الجنة على سبيل المرور فيها لا على سبيل الاستقرار بها ، وأنه وسوس لهما وهو على باب الجنة أو من تحت السماء . وفي الثلاثة نظر[1] ، والله أعلم .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة : ما رواه عبد الله بن الإمام أحمد في الزيادات عن هدبة ابن خالد ، عن حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن الحسن البصري ، عن يحيى بن ضمرة السعدي ، عن أبي بن كعب ، قال : إن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من عنب الجنة ، فانطلق بنوه ليطلبوه له ، فلقيتهم الملائكة فقالوا : أين تريدون يا بني آدم ؟ فقالوا : إن أبانا اشتهى قطفاً من عنب الجنة . فقالوا لهم : ارجعوا فقد كفيتموه . فانتهوا اليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه ، وصلى عليه جبريل ومن خلفه الملائكة ودفنوه ، وقالوا : هذه سنتكم في موتاكم . وسيأتي الحديث بسنده ، وتمام لفظه عند ذكر وفاة آدم عليه السلام .

قالوا : فلولا أنه كان الوصول الى الجنة التي كان فيها آدم التي اشتهى منها القطف ممكناً ، لما ذهبوا يطلبون ذلك ، فدل على أنها في الأرض لا في السماء والله تعالى أعلم .

قالوا : والاحتجاج بأن الألف واللام في قوله : ﴿ **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ لم يتقدم عهد يعود عليه فهو المعهود الذهني مسلم ، ولكن ما هو دل عليه سياق الكلام ، فإن آدم خلق من الأرض ولم ينقل أنه رفع إلى السماء[2] ، وخلق ليكون في الأرض ، وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال : ﴿ **إني جاعلٌ في الأرض خليفةً** ﴾ .

قالوا : وهذا كقوله تعالى : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة** ﴾[3] . واللام ليس للعموم ، ولم يتقدم معهود لفظي ، وإنما هي للمعهود الذهني الذي دلَّ عليه السياق وهو البستان .

قالوا : وذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء ، قال الله تعالى : ﴿ **قيل يا نوح اهبط بسلامٍ منا وبركاتٍ عليك وعلى أُممٍ ممن معك** ﴾[4] . وإنما كان في السفينة حين استقرت على الجودي ونضب الماء من وجه الأرض ، أمر أن يهبط اليها هو ومن معه مباركاً عليه وعليهم . وقال تعالى : ﴿ **آهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم** ﴾[5] الآية .

وقال تعالى : ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾[6] الآية . وفي الأحاديث واللغة من هذا كثير .

---

(١) لأن طرد الله له من الجنة أمر لا يحتمل العصيان ولا المخالفة ولذا فوسوسته لهما لا تفرض بالتالي وجوده معهما في الجنة .

(٢) لم ينقل لنا حديث أو ذكر لنقله من الأرض الى السماء .

(٣) سورة القلم الآية ١٧ .

(٤) سورةهود الآية ٤٨ .

(٥) سورة البقرة الآية ٦١ .

(٦) سورة البقرة الآية ٧٤ .

قالوا : ولا مانع ـ بل هو الواقع ـ أن الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ، ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم ونضرة وسرور ، كما قال تعالى : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾[1] . أي لا يذل باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعري ﴿ **وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾[1] أي لا يمس باطنك حر الظمأ ولا ظاهرك حر الشمس ، ولهذا قرن بين هذا وهذا ، وبين هذا وهذا ، لما بينهما من الملاءمة . فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نهي عنها ، أهبط إلى أرض الشقاء والتعب والنصب والكدر والسعي والنكد ، والابتلاء والاختبار والامتحان ، واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالاً ، وقصوداً وإرادات وأقوالاً وأفعالاً ، كما قال تعالى : ﴿ **ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين** ﴾[2] ولا يلزم هذا أنهم كانوا في السماء كما قال : ﴿ **وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ، فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً** ﴾[3] ، ومعلوم أنهم كانوا فيها ولم يكونوا في السماء .

قالوا : وليس هذا القول مفرعاً على قول من ينكر وجود الجنة والنار اليوم ولا تلازم بينهما ، فكل من حكي عنه هذا القول من السلف وأكثر الخلف ، ممن يثبت وجود الجنة والنار اليوم ، كما دلت عليه الآيات والأحاديث الصحاح . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وقوله تعالى : ﴿ **فأزلهما الشيطان عنها** ﴾ أي عن الجنة ، ﴿ **فأخرجهما مما كانا فيه** ﴾[4] أي من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد ، وذلك بما وسوس لهما وزينه في صدورهما ، كما قال تعالى : ﴿ **فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُوري عنهما من سوأتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾[5] .

يقول : ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، أي لو أكلتما منها لصرتما كذلك ﴿ **وقاسمهما** ﴾ أي حلف لهما على ذلك ﴿ **إني لكما لمن الناصحين** ﴾[5] ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلكٍ لا يبلى** ﴾[6] أي هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم واستمررت في ملك لا يبيد ولا ينقضي ؟ وهذا من التغرير والتزوير والاخبار بخلاف الواقع .

---

(١) سورة طه الآيتان ١١٨ ، ١١٩ .
(٢) سورة البقرة الآية ٣٦ .
(٣) سورة الاسراء الآية ١٠٤ .
(٤) سورة البقرة الآية ٣٦ .
(٥) سورة الأعراف الآيتان ٢٠ ، ٢١
(٦) سورة طه الآية ١٢٠ .

والمقصود أن قوله شجرة الخلد التي إذا أكلت منها خلدت . وقد تكون هي الشجرة التي قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا شعبة ، عن أبي الضحاك ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، شجرة الخلد » .

وكذا رواه أيضاً عن غندر وحجاج ، عن شعبة . ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده عن شعبة أيضاً به . قال غندر : قلت لشعبة : هي شجرة الخلد ؟ قال : ليس فيها هي . تفرد به الإمام أحمد .

وقوله : ﴿ **فدلاهما بغرورٍ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾[1] .

كما قال في طه : ﴿ **فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان**[2] **عليهما من ورق الجنة** ﴾[3] . وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم ، وهي التي حضته على أكلها والله أعلم .

وعليه يحمل الحديث الذي رواه البخاري : حدثنا بشر بن محمد ، حدثنا عبد الله ، أنبأنا معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه : « لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم[4] ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » .

تفرد به من هذا الوجه ، وأخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة به ، ورواه أحمد ومسلم عن هارون بن معروف ، عن أبي وهب ، عن عمرو ابن حارث عن أبي يونس ، عن أبي هريرة به .

وفي كتاب التوراة التي بين أيدي أهل الكتاب : أن الذي دل حواء على الأكل من الشجرة هي الحية ، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها[5] ، فأكلت حواء عن قولها وأطعمت آدم عليه السلام ، وليس فيها ذكر لإبليس ، فعند ذلك انفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان ، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر . وفيها : أنهما كانا عريانين . وكذا قال وهب بن منبه : كان لباسهما نوراً على فرجه وفرجها .

وهذا الذي في هذه التوراة التي بأيديهم غلط منهم ، وتحريف وخطأ في التعريب ؛ فإن نقل الكلام من لغة الى لغة لا يكاد يتيسر لكل أحد ، ولا سيما ممن لا يعرف كلام العرب جيداً ، ولا

(١) سورة الأعراف الآية ٢٢ .

(٢) يلصقان منه على جسميهما ليسترا عورتهما .

(٣) سورة طه الآية ١٢١ .

(٤) يخنز اللحم : يفسد .

(٥) هذه الأقوال تعارض ما جاء في كتاب الله من أن إبليس هو الذي وسوس لهما .

يحيط علماً بفهم كتابه أيضاً ، فلهذا وقع في تعريبهم لها خطأ كثير لفظاً ومعنى . وقد دل القرآن العظيم على أنه كان عليهما لباس في قوله: ﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ﴾[1] فهذا لا يرد لغيره من الكلام . والله تعالى أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن بن أسكاب ، حدثنا علي بن عاصم ، عن سعيد ابن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم رجلا طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق ، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه ، فأول ما بدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة ، فأخذت شعره شجرة فنازعها ، فناداه الرحمن عز وجل : يا آدم مني تفر ؟ فلما سمع كلام الرحمن قال : يا رب لا ، ولكن استحياء » .

وقال الثوري عن ابن أبي ليلى ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ ورق التين .

وهذا إسناد صحيح إليه ، وكأنه مأخوذ من أهل الكتاب ، وظاهر الآية يقتضي أعم من ذلك ، وبتقدير تسليمه فلا يضر ، والله تعالى أعلم .

وروى الحافظ ابن عساكر عن طريق محمد بن اسحاق ، عن الحسن بن ذكوان ، عن الحسن البصري عن أُبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ، ستون ذراعاً ، كثير الشعر مواري العورة ، فلما أصاب الخطيئة في الجنة بدت له سوأته ، فخرج من الجنة ، فلقيته شجرة فأخذت بناصيته ، فناداه ربه : أفراراً مني يا آدم ؟ قال : بل حياء منك والله يا رب مما جئت به » .

ثم رواه من طريق سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن يحيى بن ضمرة ، عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ بنحوه . وهذا أصح ، فإن الحسن لم يدرك أُبيّاً[2] . ثم أورده أيضاً من طريق خيثمة بن سليمان الأطرابلسي ، عن محمد بن عبد الوهاب أبي مرصافة العسقلاني ، عن آدم بن أبي أياس ، عن سنان ، عن قتادة عن أنس مرفوعاً بنحوه .

﴿ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌ مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[3] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

(٢) أُبي بن كعب .

(٣) سورة الأعراف الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة ، وتذلل وخضوع واستكانة ، وافتقار اليه تعالى في الساعة الراهنة ، وهذا السر ما سرى في أحد من ذريته إلا كانت عاقبته الى خير في دنياه وأخراه .

﴿ **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حينٍ** ﴾(١) .

وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس ، قيل والحية معهم(٢) . أمروا أن يهبطوا من الجنة في حال كونهم متعادين متحاربين . وقد يستشهد لذكر الحية معهما بما ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه أمر بقتل الحيات ، وقال : « ما سالمناهن منذ حاربناهن . . »

وقوله في سورة طه : ﴿ **قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌ** ﴾(٣) هو أمر لآدم وإبليس . واستتبع آدم حواء وإبليس الحية . وقيل : هو أمر لهم بصيغة التثنية كما في قوله تعالى : ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾(٤) . والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلا بين اثنين مدعٍ ومدعى عليه ، قال : وكنا لحكمهم شاهدين .

وأما تكريره الإهباط في سورة البقرة في قوله : ﴿ **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قُلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هُداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾(٥) .

فقال بعض المفسرين : المراد بالاهباط الأول : الهبوط من الجنة الى السماء الدنيا ، وبالثاني : من السماء الدنيا إلى الأرض . وهذا ضعيف لقوله تعالى : ﴿ **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حينٍ** ﴾ فدل على أنهم اهبطوا الى الأرض بالإهباط الأول والله أعلم .

والصحيح : أنه كرره لفظاً وإن كان واحداً ، وناط مع كل مرة حكماً ؛ فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم ، وبالثاني الاشتراط عليهم أن من تبع هداه الذي ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ، ومن خالفه فهو الشقي ، وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الحكيم(٦).

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٤ .

(٢) سبق أن ذكرنا رأينا في رواية الحية .

(٣) سورة طه الآية ١٢٣ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٧٨ .

(٥) سورة البقرة الآيات ٣٦ ، ٣٩ .

(٦) لأن الحكم في الآية الأولى لم يكن شاملاً لمن يأتي بعد آدم عليه السلام فشمله بالقول الثاني وفتح باب التوبة والإيمان لمن أراد ذلك من العباد .

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال : أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره ، فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وتعلق به غصن ، فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة ، فنكس رأسه يقول : العفو العفو ، فقال الله : فراراً مني ؟ قال : بل حياء منك يا سيدي !

وقال الأوزاعي عن حسان ـ هو ابن عطية ـ : مكث آدم في الجنة مائة عام ، وفي رواية ستين عاماً ، وبكى على الجنة سبعين عاماً ، وعلى خطيئته سبعين عاماً ، وعلى ولده حين قتل أربعين عاماً . رواه ابن عساكر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن سعيد ، عن ابن عباس قال : أهبط آدم عليه السلام الى أرض يقال لها : « دحنا » بين مكة والطائف .

وعن الحسن قال : أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، وإبليس بدستميان من البصرة على أميال ، وأهبطت الحية بأصبهان[1] . رواه ابن أبي حاتم أيضاً .

وقال السدي : نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الاسود وبقبضة من ورق الجنة ، فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك .

وعن ابن عمر قال : أهبط آدم بالصفا ، وحواء بالمروة . رواه ابن أبي حاتم أيضاً .

وقال عبد الرازق : قال معمر : أخبرني عوف ، عن قسامة بن زهير ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : إن الله حين أهبط آدم من الجنة الى الأرض علمه صنعة كل شيء ، وزوده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير .

وقال الحاكم في مستدركه : أنبأنا أبو بكر بن بالويه ، عن محمد بن أحمد بن النضر ، عن معاوية بن عمرو ، عن زائدة ، عن عمار بن أبي معاوية البجلي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس . ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وفي صحيح مسلم من حديث الزهري عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » . وفي الصحيح من وجه آخر : « وفيه تقوم الساعة » .

---

(١) سبق ذكر الرأي بموضوع الحية .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن مصعب ، حدثنا الأوزاعي ، عن أبي عمار ، عن عبد الله بن فروخ ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة » . على شرط مسلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن عساكر من طريق أبي القاسم البغوي ، حدثنا محمد بن جعفر الوركاني ، حدثنا سعيد بن ميسرة ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « هبط آدم وحواء عريانين جميعاً ، عليهما ورق الجنة ، فأصابه الحر حتى قعد يبكي ويقول لها : يا حواء قد آذاني الحر ، قال : فجاءه جبريل بقطن ، وأمرها أن تغزل وعلمها ، وأمر آدم بالحياكة وعلمه أن ينسج » ، وقال : « كان آدم لم يجامع امرأته في الجنة ، حتى هبط منها للخطيئة التي أصابتهما بأكلهما من الشجرة » ، قال : « وكان كل واحد منهما ينام على حدة ؛ وينام أحدهما في البطحاء والآخر من ناحية أخرى ، حتى أتاه جبريل فأمره أن يأتي أهله » . قال : وعلمه كيف يأتيها ، فلما أتاها جاءه جبريل فقال : كيف وجدت امرأتك ؟ قال : صالحة »[1] .

فإنه حديث غريب ورفعه منكر جداً . وقد يكون من كلام بعض السلف وسعيد بن ميسرة هذا هو أبو عمران البكري البصري ، قال فيه البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن حبان : يروي الموضوعات ، وقال ابن عدي : مظلم الأمر .

وقوله : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾[2] قيل هو قوله : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[3] . روي هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن بن أسكاب ، حدثنا علي بن عاصم ، عن سعيد ابن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أُبي بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « قال آدم عليه السلام : أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة ؟ قال : نعم » فذلك قوله : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه ﴾ . وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع[4]

---

(١) هذه الحكاية ظاهرة الوضع لوضوح الآية ١٨٩ من سورة الأعراف واتصال المعنى : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾ .

(٢) سورة البقرة الآية ٣٧ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٣ .

(٤) منقطع لأن الحسن لم يدرك أُبي بن كعب والتوبة الوارد ذكرها في الآية إنما تعني وقف العقوبة بالعذاب فقط لأن ما ورد في أمر الخروج من الجنة إنما هو أمر آلهي ولا يعود إلى الجنة إلا يوم تقوم الساعة وتحاسب كل نفس على ما جنت

وقـال ابن أبي نجيح ، عن مجـاهـد قـال : الكلمـات « اللهم لا إلـه إلا أنت سبحـانـك وبحمدك ، رب اني ظلمت نفسي فاغفـر لي إنك خـير الـراحمـين ، اللهم لا إلـه إلا أنت سبحـانـك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم » .

وروى الحـاكم في مستدركـه عن طـريق سعيـد بن جبـير ، عن ابن عبـاس : **﴿فتلقـى آدم مـن ربـهكلماتٍ فتاب عليه﴾** قـال : قال آدم : يـا رب ألم تخلقني بيدك ؟ قيـل له : بـلى ، ونفخت فيَّ من روحك ؟ قيل لـه : بلى ، وعـطستُ فقلت : يرحمـك الله وسبقت رحمتك غضبـك ؟ قيل لـه : بلى ، وكتبت عـليَّ أن أعمل هـذا ؟ قيل لـه : بلى ، قـال : أفـرأيت إن تبت هـل أنت راجعي إلى الجنـة ؟ قال : نعم . ثم قال الحاكم : صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

وروى الحـاكم أيضاً والبيهقي وابن عسـاكر من طـريق عبـد الـرحمن بن زيـد بن أسلم ، عن أبيه عن جده عن عمـر بن الخطاب قـال : قال رسـول الله ﷺ : « لما اقتـرف آدم الخطيئـة قال : يـا رب أسألك بحق محمـد أن تغفر لي » . فقـال الله : « فكيف عرفت محمـداً ولم أخلقه بعـد ؟ فقال : يـا رب لأنك لما خلقتني بيدك ، ونفخت فيَّ من روحـك ، رفعت رأسي فـرأيت عـلى قـوائم العـرش مكتـوبـاً : لا إلــه إلا الله محمـد رســول الله ، فعلمت أنـك لم تضف إلى اسمــك إلا أحب الخلق إليـك . فقال الله : صـدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إليَّ ، وإذ سألتني بحقـه فقـد غفـرت لـك ، ولولا محمد ما خلقتك» . قـال البيهقي : تفرد بـه عبد الـرحمن بن زيد بن أسلم من هـذا الوجـه وهو ضعيف . والله أعلم (١) .

وهــذه الآيـة كقــولـه تعـــالى : **﴿ وعصى آدم ربـه فغـوى * ثم اجتبـاه ربـه فتـاب عليـه وهــدى ﴾**(٢) .

---

(١) كيف قرأ ما هو مكتوب قبل أن يعلمه الله ؟ فإن تعليمه حسبما جاء في الآيات كان فيما بعد هذا

(٢) سورة طه الآيتان ١٢١ ـ ١٢٢ .

ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا أيوب بن النجار ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي مسلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : حاجَّ[1] موسى آدمَ عليهما السلام فقال له : أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم .

قال آدم : يا موسى : أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني ، أو قدَّره عليَّ قبل أن يخلقني ؟ » .

قال رسول الله ﷺ : « فحجَّ[2] آدمُ موسى » .

وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد ، والنسائي عن محمد بن عبد الله بن يزيد ، عن أيوب ابن النجار به . قال أبو مسعود الدمشقي : ولم يخرجا عنه[3] في الصحيحين سواه .

وقد رواه أحمد ، عن عبد الرازق عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريره ، ورواه مسلم عن محمد بن رافع ، عن عبد الرازق به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا ابراهيم ، حدثنا أبو شهاب ، عن حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة ؟ فقال له آدم : وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومني على أمر قدر عليَّ قبل أن أخلق ؟ قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى مرتين » .

قلت : وقد روى هذا الحديث البخاري ومسلم من حديث الزهري ، عن حميد بن عبد

(١) جادل وناقش بالحجة والبرهان .

(٢) غلبه بالحجة .

(٣) يعني عن ايوب بن النجار .

الرحمن ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا زائدة ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، أغويت الناس ، وأخرجتهم من الجنة » . قال : فقال آدم : « وأنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل أعمله ، كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض » ؟ قال : فحج آدم موسى » .

وقد رواه الترمذي والنسائي جميعاً عن يحيى بن حبيب بن عدي ، عن معمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الأعمش به . قال الترمذي : وهو غريب من حديث سليمان التيمي عن الأعمش . قال : وقد رواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد . قلت : هكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده ، عن محمد بن مثنى ، عن معاذ بن أسد ، عن الفضل بن موسى ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي سعيد .

ورواه البزار أيضاً : حدثنا عمرو بن علي الفلاس ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، أو أبي سعيد عن النبي ﷺ فذكر نحوه .

وقال أحمد : حدثنا سفيان عن عمرو سمع طاووساً ، سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة . فقال له آدم : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله بكلامه ـ وقال مرة : برسالته ـ وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ » قال : « حج آدم موسى ، حج آدم موسى ، حج آدم موسى » .

وهكذا رواه البخاري عن علي بن المديني ، عن سفيان ، قال : حفظناه عن عمرو عن طاووس ، قال : سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قال : احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة . فقال آدم : يا موسى : اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومني على أمر قدَّره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى هكذا ثلاثاً .

قال سفيان : حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ مثله .

وقد رواه الجماعة إلا ابن ماجه من عشر طرق ، عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن طاووس ، عن أبيه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد ، عن عمار ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لقي آدم موسى فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك

الجنة ، ثم فعلت ما فعلت ؟ فقال : أنت موسى الذي كلمك الله واصطفاك برسالته ، وأنزل عليك التوراة ، أنا أقدم أم الذكر ؟ قال : لا بل الذكر . فحج آدم. موسى »

قال أحمد : وحدثنا عفان ، حدثنا حمادة ، عن عمار بن أبي عمار عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، وحميد عن الحسن عن رجل ـ قال حماد أظنه جنْدب بن عبد الله البجلي ـ عن النبي ﷺ قال : «لقي آدم موسى » فذكر معناه .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا حسين ، حدثنا جرير ـ هو ابن حازم ـ عن محمد ، هو ابن سيرين ، عن ابي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقي آدم موسى فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، وأسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، ثم صنعت ما صنعت ؟ قال آدم لموسى : أنت الذي كلمه الله ، وأنزل عليه التوراة ؟ قال : نعم ، قال : فهل تجده مكتوباً عليَّ قبل أن أخلق ؟ قال : نعم . قال : « فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » .

وكذا رواه حماد بن زيد ، عن أيوب ، وهشام بن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة رفعه .

وكذا رواه علي بن عاصم ، عن خالد، وهشام، عن محمد بن سيرين وهذا على شرطهما ومن هذه الوجوه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني أنس بن عياض ، عن الحارث بن أبي ذياب ، عن يزيد بن هرمز ، سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ، ثم أهبطت الناس الى الأرض بخطيئتك ؟ قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجيا ؟ فَبِكَمْ وَجَدْتَ الله كَتَبَ التَّوراة ؟ قال موسى : بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدت فيها **﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾** ؟ قال : نعم ، قال : أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة » ؟ قال : قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى » .

قال الحارث : وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ .

وقد رواه مسلم عن إسحاق بن موسى الأنصاري ، عن أنس بن عياض ، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب ، عن يزيد بن هرمز والأعرج ، كلاهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ؛ عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى لآدم : يا آدم أنت الذي أدخلت ذريتك النار . فقال آدم : يا موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، وأنزل عليك التوراة ، فهل وجدت أن أهبط ؟ قال : نعم ، قال : فحجه آدم » .

وهذا على شرطهما ولم يخرجاه من هذا الوجه ، وفي قوله : أدخلت ذريتك النار ، نكارة[1] .

فهذه طرق هذا الحديث عن أبي هريرة ، رواه عنه حميد بن عبد الرحمن ، وذكوان أبو صالح السمان ، وطاووس بن كيسان ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وعمار بن أبي عمار ، ومحمد بن سيرين ، وهمام بن منبه ، ويزيد بن هرمز ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن .

وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : حدثنا الحارث بن مسكين المصري ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرني هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عمر بن الخطاب ، عن النبي ﷺ قال : « قال موسى عليه السلام : يا رب أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة . فأراه آدم عليه السلام ، فقال : أنت آدم ؟ فقال له آدم : نعم . فقال : أنت الذي نفخ الله فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك الأسماء كلها ؟ قال : نعم . قال : فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ . فقال له آدم : من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال: أنت موسى نبي بني اسرائيل ؟ أنت الذي كلمك الله من وراء الحجاب ، فلم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه ؟ قال : نعم . قال : تلومني على أمر قد سبق من الله عز وجلَّ القضاء به قبل ؟! قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » .

ورواه أبو داود عن أحمد بن صالح المصري ، عن ابن وهب به .

قال أبو يعلى : وحدثنا محمد بن المثني ، حدثنا عبد الملك بن الصباح المسمعي ، حدثنا عمران ، عن الرديني ، عن أبي مجلز عن يحيى بن يعمر ، عن ابن عمر ، عن عمر - قال أبو محمد : أكبر ظني أنه رفعه - قال : « التقى آدم وموسى ، فقال موسى لآدم : أنت أبو البشر ، أسكنك الله جنته ، وأسجد لك ملائكته ، قال آدم : يا موسى أما تجده عليَّ مكتوباً ؟ قال : فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى » . وهذا الإسناد أيضاً لا بأس به ، والله أعلم .

وقد تقدم رواية الفضل بن موسى لهذا الحديث عن الأعمش ، عن أبي صالح عن أبي سعيد ، ورواية الإمام أحمد له عن عفان ، عن حماد بن سلمة عن حميد ، عن الحسن عن رجل ،

---

(١) لأن العبد لا يدخل النار إلا بعصيانه الشخصي فإن كان من الصالحين التائبين القانتين حُرِّم جسده على النار وكانت الجنة مثواه .

قال حماد : أظنه جندب بن عبد الله البجلي ، عن النبي ﷺ : « لقي آدم موسى » فذكر معناه .

وقد اختلفت مسالك الناس في هذا الحديث :

فرده قوم من القدرية لما تضمن من إثبات القدر السابق .

واحتج به قوم من الجبرية ، وهو ظاهر لهم بادي الرأي حيث قال : فحج آدم موسى ، لما احتج عليه بتقديم كتابه ، وسيأتي الجواب عن هذا .

وقال آخرون : إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

وقيل : إنما حجه لأنه أكبر منه وأقدم . وقيل : لأنه أبوه . وقيل : لأنهما في شريعتين متغايرتين . وقيل : لأنهما في دار البرزخ وقد انقطع التكليف فيما يزعمون .

والتحقيق : أن هذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى ، وفيه نظر[1] .

ومدار معظمها في الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة ، فقال له آدم : أنا لم أخرجكم ، وإنما أخرجكم الذي رتب الاخراج على أكلي من الشجرة ، والذي رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق ، هو الله عز وجل ، فأنت تلومني على أمر ليس له نسبة إليَّ أكثر من أني نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها ، وكون الإخراج مترتباً على ذلك ليس من فعلي ، فأنا لم أخرجكم ولا نفسي من الجنة ، وإنما كان هذا من قدر الله وصنعه ، وله الحكمة في ذلك . فلهذا حج آدم موسى .

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند ؛ لأنه متواتر عن أبي هريرة رضي الله ، وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً .

ثم هو مروي عن غيره من الصحابة كما ذكرنا .

ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفاً ، فهو بعيد من اللفظ والمعنى ، وما فيهم من هو أقوى مسلكاً من الجبرية .

وفيما قالوه نظر من وجوه :

أحدها : أن موسى عليه السلام لا يلوم على أمر قد تاب عنه فاعله .

الثاني : أنه قد قتل نفساً لم يؤمر بقتلها ، وقد سأل الله في ذلك بقوله : ﴿ **رب إني ظلمت**

---

(١) وهذا هو الأصح .

نفسي فٱغفر لي فغفر له ﴾[1] .

الثالث : أنه لو كان الجواب عن اللوم على الـذنب بالقـدر المتقدم كتـابته عـلى العبد ، لانفتـح هـذا لكل من ليم عـلى أمر قـد فعله ، فيحتج بـالقدر السـابق فينسد بـاب القصاص والحـدود . ولو كـان القدر حجـة لاحتج بـه كل أحـد على الأمـر الذي ارتكبـه في الأمـور الكبـار والصغـار ، وهـذا يفضي الى لـوازم فظيعـة . فلهذا قـال من قال من العلماء ، بـأن جواب آدم إنمـا كان احتجـاجاً عـلى المصيبة لا المعصية[2] .

والله تعالى أعلم .

(١) سورة القصص الآية ١٦ .

(٢) لأن آدم لم ينف ارتكابه المعصيه ولكنه نفى الخروج من الجنة فقط لأن ذلك كان بأمر الله وليس بأمره هو .

ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم عليه السلام

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ومحمد بن جعفر ، حدثنا عوف ، حدثني قسامة بن زهير ، عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وبين ذلك .

ورواه أيضاً عن هوذة ، عن عوف ، عن قسامة بن زهير ، سمعت الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك » .

وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه ، من حديث عوف بن أبي جميلة الأعرابي ، عن قسامة بن زهير المازني البصري ، عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن النبي ﷺ بنحوه . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد ذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مُرّة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : فبعث الله عز وجل جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت الأرض : أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني[1] ، فرجع ولم يأخذ ، وقال : رب إنها عاذت بك فأعذتها .

فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل : فبعث ملك الموت فعاذت منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلطه ، ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين .

---

(١) تسيء إليّ أو تقبحني .

فصعد به فبل التراب حتى عاد طيناً لازباً . واللازب : هو الذي يلزق بعضه ببعض ، ثم قال للملائكة : ﴿ **إني خالقٌ بشراً من طينٍ * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾[1] .

فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه ، فخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فزعاً إبليس ، فكان يمر به فيضربه ، فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة ، فذلك حين يقول : ﴿ **من صلصالٍ كالفخار** ﴾[2] ويقول : لأمر ما خلقت ، ودخل من فيه وخرج من دبره ، وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف ، لئن سلطت عليه لأهلكنه .

فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح ، قال للملائكة : إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس ، فقالت الملائكة قل : الحمد لله ، فقال : الحمد لله ، فقال له الله : رحمك ربك ، فلما دخلت الروح في عينيه نظر الى ثمار الجنة ، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح الى رجليه عجلان الى ثمار الجنة[3] ، وذلك حين يقول الله تعالى : ﴿ **خُلق الإنسان من عجلٍ** ﴾[4] ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾[5] وذكر تمام القصة .

ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث ، وإن كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات[6] .

فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس أن النبي ﷺ قال : « **لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك** » .

وقال ابن حبان في صحيحه : حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا حماد ابن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « **لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقال له تبارك وتعالى : يرحمك الله** » .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يحيى بن محمد بن السكن ، حدثنا حبان بن هلال ،

---

(١) سورة (ص) الآيتان ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) سورة الرحمن الآية ١٤ .

(٣) كيف يثب ولم تصل الحياة إلى رجليه بعد ؟ أما الآية اللاحقة فهي صفة للإنسان بأنه عجول ولا علاقة لها بهذه الرواية الظاهرة الضعف والأرجح أنها اسرائيلية .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٣٧ .

(٥) سورة الحجر الآيتان ٣٠ ـ ٣١ .

(٦) وهذا هو الأصح لأن اليهود أدخلوا أشياء كثيرة من عندياتهم في قصص الدين الإسلامي وأكثر ما نقلوه لا صحة له .

حدثنا مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله ، عن حبيب ، عن حفص ـ هو ابن عاصم بن عبيد الله ابن عمر بن الخطاب ـ عن أبي هريرة رفعه قال : لما خلق الله آدم عطس ، فقال : الحمد لله ، فقال له ربه : رحمك ربك يا آدم » . وهذا الإسناد لا بأس به ولم يخرجوه .

وقال عمر بن عبد العزيز : لما أمرت الملائكة بالسجود كان أول من سجد منهم اسرافيل ، فآتاه الله أن كتب القرآن في جبهته . رواه ابن عساكر .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا عمرو بن محمد ، عن اسماعيل بن رافع ، عن المقبري ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم من تراب ، ثم جعله طيناً ثم تركه ، حتى إذا كان حمأ مسنوناً خلقه الله وصوره ثم تركه ، حتى إذا كان صلصالاً كالفخار قال : فكان إبليس يمر به فيقول : لقد خلقت لأمر عظيم .

ثم نفخ الله فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه ، فعطس فلقاه الله رحمة به ، فقال الله : يرحمك ربك ، ثم قال الله : يا آدم اذهب إلى هؤلاء النفر فقل لهم[1] فانظر ماذا يقولون ؟ فجاء فسلم عليهم فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقال : يا آدم : هذا تحيتك وتحية ذريتك . قال : يا رب ، وما ذريتي ؟ قال : اختر (إحدى) يدي يا آدم ، قال : أختار يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين ، فبسط كفه فإذا من هو كائن من ذريته في كف الرحمن ، فإذا رجال منهم أفواههم النور ، وإذا رجل يعجب آدم نوره ، قال : يا رب من هذا ؟ قال : ابنك داود ، قال : يا رب ، فكم جعلت له من العمر ؟ قال : جعلت له ستين ، قال : يا رب فأتم له من عمري حتى يكون له من العمر مائة سنة ، ففعل الله ذلك ، وأشهد على ذلك .

فلما نفذ عمر آدم بعث الله ملك الموت ، فقال آدم : أو لم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال له الملك : أو لم تعطها ابنك داود ؟ فجحد ذلك ، فجحدت ذريته ، ونسي فنسيت ذريته ! »[2] .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار والترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث صفوان بن عيسى ، عن الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب ، عن أبي سعيد المقبري ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . وقال الترمذي : حديث حسن غريب من هذا الوجه . وقال النسائي : هذا حديث منكر . وقد رواه محمد بن عجلان ، عن أبيه عن أبي سعيد المقبري ، عن عبد الله بن سلام[3] .

(١) كذا في الأصل ساقط منه المقول، وهو السلام عليكم أو نحوه .

(٢) هذه القصة كلها من الاسرائيليات ولا صحة لها من أساسها ، فكيف يرى آدم ربه وكيف يصير لله يدين ، استغفر الله من هذا البهتان العظيم .

(٣) وهنا الدليل على ما ذكرنا آنفاً لأن عبد الله بن سلام يهودي أسلم وأدخل كثيراً من القصص الاسرائيلية على أنها إسلامية .

وقال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد ابن أسلم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم مسحَ ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل انسان منهم وبيصاً من نور[1] ، ثم عرضهم على آدم فقال : أي ربُّ مَنْ هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، فرأى رجلاً فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أي رب من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود ، قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أي رب زده من عمري أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت ، قال : أولم يبق من عمري أربعون سنة ؟ قال : أو لم تعطها ابنك داود ؟ قال : فجحد فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته »[2] .

ثم قال الترمذي : حسن صحيح . وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وروى ابن أبي حاتم من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة مرفوعاً فذكره وفيه : « ثم عرضهم على آدم فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يا رب لم فعلت هذا بذريتي ؟ قال : كي تشكر نعمتي » . ثم ذكر قصة داود . وستأتي من رواية ابن عباس أيضاً .

وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا أبو الربيع عن يونس بن ميسرة ، عن أبي ادريس ، عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم حين خلقه فضرب كتفه اليمنى ، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدر ، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم ، فقال للذي في يمينه : إلى الجنة ولا أُبالي ، وقال للذي في كتفه اليسرى : الى النار ولا أُبالي »[3] .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا الحكم بن سنان ، عن حوشب ، عن الحسن قال : خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى ، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فألقوا على وجه الأرض ؛ منهم الأعمى والأصم والمبتلي . فقال آدم : يا رب ألا سويت بين ولدي ؟ فقال : يا آدم إني أردت أن أشكر . . .

---

(١) قبساً من نور .

(٢) سبق الرأي في هذه القصة .

(٣) الحديث الشريف يقول : « لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى » . هذا يظهر بوضوح أن القصة موضوعة .

وهكذا روى عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة عن الحسن بنحوه .

وقد رواه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه فقال : حدثنا محمد بن اسحاق بن خزيمة ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس ، فقال الحمد لله . فحمد الله بإذن الله ، فقال له ربه : يرحمك ربك يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فسلم عليهم ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : وعليكم السلام ورحمة الله . ثم رجع إلى ربه فقال : هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم . وقال الله ويداه مقبوضتان : اختر أيهما شئت ، فقال : اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة ، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته ، فقال : أي رب ما هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك ، وإذا كل إنسان منهم مكتوب عمره بين عينيه ، وإذا فيهم رجل أضوؤهم - أو من أضوئهم - لم يكتب له إلا أربعون سنة ، قال : يا رب من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود . وقد كتب الله عمره أربعين سنة . قال : أي رب زد في عمره ، فقال : ذاك الذي كتب له ، قال : فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة ، قال : أنت وذاك . أسكن الجنة . فسكن الجنة ما شاء الله ثم هبط منها ، وكان آدم يعد لنفسه . فأتاه ملك الموت فقال له آدم : قد عجلت ، قد كتب لي ألف سنة . قال : بلى ، ولكنك جعلت لابنك داود منها ستين سنة ، فجحد آدم فجحدت ذريته ، ونسي فنسيت ذريته ، فيومئذٍ أمر بالكتاب والشهود » هذا لفظه[1] .

وقد قال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام ابن منبه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم قال : إذهب فسلم على أولئك (النفر) من الملائكة ، فاستمع ما يجيبونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله . فزادوه ورحمة الله . فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

وهكذا رواه البخاري في كتاب الاستئذان ، عن يحيى بن جعفر ، ومسلم ، عن محمد بن رافع ، كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان طول آدم ستين ذراعاً في سبع أذرع عرضاً » . انفرد به أحمد .

---

(١) تنزه الله سبحانه وتعالى عن الشكل والمكان والجهة ولا تختلف هذه القصة عن الأولى ، إلا بجعل عمر داوود عليه السلام أربعون عاماً بدل ستون وعمر آدم ألفاً بدل مائة والوضع ظاهر في كلتا الروايتين .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، قال : « لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم ، إن أول من جحد آدم ، إن أول من جحد آدم . إن الله لما خلق آدم مسح ظهره ، فأخرج منه ما هو ذارىء الى يوم القيامة ، فجعل يعرض ذريته عليه ، فرأى فيهم رجلاً يزهر ، قال : أي رب من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود ، قال : أي رب كم عمره ؟ قال : ستون عاماً . قال : أي رب زد في عمره . قال : لا ، إلا أن ازيده من عمرك ، وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً . فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة . فلما احتضر آدم أتته الملائكة لقبضه ، قال : أنه قد بقي من عمري أربعون عاماً . فقيل له : إنك قد وهبتها لابنك داود ، قال : ما فعلت ، وأبرز الله عليه الكتاب وشهدت عليه الملائكة » .

وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف ابن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أن أول من جحد آدم - قالها ثلاث مرات - إن الله عز وجل لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه ، فرأى فيهم رجلاً يزهر ، فقال : أي رب زد في عمره . قال : لا ، إلا أن تزيده أنت من عمرك ، فزاده أربعين سنة من عمره . فكتب الله تعالى عليه كتاباً وأشهد عليه الملائكة : فلما أراد أن يقبض روحه قال : أنه بقي من أجلي أربعون سنة ، فقيل له : إنك قد جعلتها لابنك داود . قال : فجحد . قال : فأخرج الله الكتاب ، وأقام عليه البينة ، فأتمها لداود مائة سنة ، وأتم لآدم عمره ألف سنة . تفرد به أحمد وعلي بن زيد ، في حديثه نكارة[1] .

ورواه الطبراني عن علي بن عبد العزيز ، عن حجاج بن منهال ، عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس وغير واحد ، عن الحسن قال : لما نزلت آية الدَّيْن قال رسول الله ﷺ : « إن أول من جحد آدم ثلاثاً » وذكره .

وقال الإمام مالك بن أنس في موطئه عن زيد بن أبي أنيسة ، أن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب ، أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾[2] . الآية ، فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال : « إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون » . فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ قال

---

(١)تعليق المؤلف قد سبق تعليقنا على هذه القصة .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

رسـول الله ﷺ : « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهـل الجنة ، حتى يمـوت على عمـل من أعمـال أهل الجنـة فيدخـل به الجنـة ، وإذا خلق الله العبد للنـار ، استعمله بعمـل أهـل النـار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار » .

وهكـذا رواه الإمام أحمـد وأبو داود والترمذي والنسـائي وابن جـريـر و ابن أبي حـاتم ، وأبـو حاتم بن حبان في صحيحه من طرق ، عن الإمام مالك به .

وقـال الترمـذي : هذا حـديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمـع عمر . وكـذا قال أبـو حاتم وأبو زرعة . زاد أبو حاتم : وبينهما نعيم بن ربيعة .

وقـد رواه أبو داود عن محمـد بن مصفى ، عن بقية[1] ، عن عمـر بن جثعم عن زيـد بن أبي أنيسة ، عن عبد الحميـد بن عبد الـرحمن بن زيد بن الخـطاب ، عن مسلم بن يسار ، عن نعيم بن ربيعة ، قال : كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث .

قال الحافظ الدارقطني : وقد تابع عمر بن جثعم أبـو فروة بن يـزيد بن سنـان الرهـاوي ، عن زيد بن أبي أنيسة قال : وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

وهـذه الأحاديث كلهـا دالـة عـلى استخـراجـه تعـالى ذريـة آدم من ظهـره كـالـذر ، وقسمتهم قسمين : أهل اليمين وأهل الشمال ، وقال : هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أُبالي .

فـأما الإشهاد عليهم واستنطاقهم بـالاقرار بـالـوحـدانيـة ؛ فلم يجيء في الأحـاديث الثـابتـة . وتفسير الآية التي في سورة الأعراف وحملها على هذا فيه نظر كما بينـاه هناك وذكـرنا الأحـاديث والآثار مستقصاة بأسانيدها وألفاظ متونها ، فمن أراد تحريره فليراجع ثَمَّ . والله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه أحمد : حدثنا حسين بن محمـد ، حدثنـا جريـر ـ يعني ابن حازم ـ عن كلثـوم بن جبر ، عن سعيـد بن جبير ، عن ابن عبـاس ، عن النبي ﷺ قـال : إن الله أخـذ الميثـاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخـرج من صلبه كـل ذرية ذرأهـا فنثرهـا بين يـديه ثم كلمهم قبلاً قال : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامـة إنا كنـا عن هذا غـافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾[2] .

فهو بإسناد جيد قـوي على شـرط مسلم ، رواه النسائي وابن جـرير والحـاكم في مستدركـه من

---

(1) بقية بن الوليد يدلس في الحديث . قالـوا : إذا روى عن الشاميـين فحديثـه صحيح (الضعفـاء لابن الجوزي حـرف البـاء خط وهذا بالاضافة الى الانقطاع في الرواية السابقة يحملنا على الشك والله أعلم .

(2) سورة الأعراف الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ .

حديث حسين بن محمد المروزي به . وقال الحاكم : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، إلا أنه اختلف فيه على كلثوم بن جبر فروي عنه مرفوعاً وموقوفاً ، وكذا روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً . وهكذا رواه العوفي والوالبي والضحاك وأبو جمرة ، عن ابن عباس من قوله . وهذا أكثر وأثبت والله أعلم . وهكذا روي عن عبد الله بن عمر موقوفاً ومرفوعاً ، والموقوف أصح

واستأنس القائلون بهذا القول ـ وهو أخذ الميثاق على الذرية وهم الجمهور ـ بما قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثني شعبة ، عن أبي عمران الجوني ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول نعم ، فيقول : قد أردت منك ما هو أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بي » . أخرجاه من حديث شعبة به .

وقال أبو جعفر الرازي : عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، في قوله تعالى :﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾ الآية والتي بعدها . قال : فجمعهم له يومئذٍ جميعا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة ، فخلقهم ثم صورهم ،ثم استنطقهم فتكلموا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهد عليهم أنفسهم : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ الآية

قال : فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم ، أن لا تقولوا يوم القيامة : لم نعْلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ، ولا تشركوا بي شيئاً ، وإني سأرسل اليكم رسلاً ينذرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتابي . قالوا : نشهد أنك ربنا والهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك . فأقروا له يومئذٍ بالطاعة .

ورفع أباهم آدم فنظر إليهم ، فرأى فيهم الغني والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يا رب لو سويت بين عبادك ؟ فقال : إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، فهو الذي يقول الله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾[1] وهو الذي يقول : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾[2] . وفي ذلك قال : ﴿ **هذا نذيرٌ من النذر الأولى** ﴾[3] ، وفي ذلك قال : ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾[4] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧ .

(٢) سورة الروم الآية ٣٠ .

(٣) سورة النجم الآية ٥٦ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٠٢ .

رواه الأئمة : عبد الله بن أحمد ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وابن مردويه ، في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر . وروي عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، وقتادة ، والسدي ، وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث .

وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، امتثلوا كلهم الأمر الإلهي ، وامتنع إبليس من السجود له حسداً وعداوة له ، فطرده الله وأبعده ، وأخرجه من الحضرة الإلهية ونفاه عنها ، وأهبطه إلى الأرض طريداً ملعوناً شيطاناً رجيماً .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ويعلى ومحمد ابنا عبيد ، قالوا : حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله ، أمر ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمرتُ بالسجود فعصيت فلي النار » .

ورواه مسلم من حديث وكيع وأبي معاوية عن الأعمش به .

ثم لما أسكن آدم الجنة التي أسكنها ، سواء أكانت في السماء أم في الأرض على ما تقدم من الخلاف فيه ، أقام بها هو وزوجته حواء عليهما السلام ، يأكلان منها رغداً حيث شاءا ، فلما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها ، سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا الى الأرض . وقد ذكرنا الاختلاف في مواضع هبوطه منها .

واختلفوا في مقدار مقامه في الجنة : فقيل بعض يوم من أيام الدنيا ، وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : « وخلق آدم في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة » وتقدم أيضاً حديثه عنه ، وفيه - يعني يوم الجمعة - خلق آدم ، وفيه أخرج منها .

فإن كان اليوم الذي خلق فيه ، فيه أُخرج - وقلنا أن الأيام الستة كهذه الأيام - فقد لبث بعض يوم من هذه . وفي هذا نظر . وإن كان إخراجه في غير اليوم الذي خلق فيه ، أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف سنة ، كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير ، فقد لبث هناك مدة طويلة .

قال ابن جرير : ومعلوم أنه خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة ، والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فمكث مصوراً طيناً قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة ، وأقام في الجنة قبل أن يهبط ثلاثاً وأربعين سنة وأربعة أشهر ، والله تعالى أعلم .

وقد روى عبد الرزاق ، عن هشام بن حسان ، عن سوار خبر عطاء بن أبي رباح : أنه كان لما أهبط رجلاه في الأرض ورأسه في السماء ، فحطه الله إلى ستين ذراعاً . وقد روي عن ابن عباس نحوه

وفي هذا نظر ، لما تقدم من الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » وهذا يقتضي أنه خلق كذلك لا أطول من ستين ذراعاً ، وأن ذريته لم يزالوا يتناقص خلقهم حتى الآن .

وذكر ابن جرير عن ابن عباس : أن الله قال : يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي ، فانطلق فابن لي فيه بيتاً ، فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي ، وأرسل الله له ملكاً فعرفه مكانه وعلمه المناسك ، وذكر أن موضع كل خطوة خطاها آدم صارت قرية بعد ذلك .

وعنه : أن أول طعام أكله آدم في الأرض ، أن جاءه جبريل بسبع حبات من حنطة ، فقال : ما هذا ؟ قال : هذا من الشجرة التي نهيت عنها فأكلت منها فقال : وما أصنع بهذا ؟ قال : أبذره في الأرض ، فبذره . وكان كل حبة منها زنتها أزيد من مائة ألف ، فنبتت فحصده ، ثم درسه ثم ذراه ، ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ، فأكله بعد جهد عظيم وتعب ونكد ، وذلك قوله تعالى : ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾[1] .

وكان أول كسوتهما من شعر الضأن : جزاه ثم غزلاه ، فنسج آدم له جبة ، ولحواء درعاً وخماراً .

واختلفوا : هل ولد لهما بالجنة شيء من الأولاد ؟ فقيل : لم يولد لهما إلا في الأرض ، وقيل : بل ولد فيها ، فكان قابيل وأخته ممن ولد بها . والله أعلم .

وذكر أنه كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى ، وأمر أن يزوج كل ابن أخت أخيه التي ولدت معه[2] ، والآخر بالأخرى وهلم جرا ، ولم يكن تحل أخت لأخيها الذي ولدت معه .

---

(١) سورة طه الآية ١١٧ .

(٢) في نسخة (اخته من البطن الآخر) .

ذكر قصة ابني آدم : قابيل وهابيل

قال الله تعالى : ﴿ وأتلُ عليهم نبأ إبني آدم بالحق إذ قربا قُرباناً فتُقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك إني أخافُ الله رب العالمين * إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاءُ الظالمين * فطوَّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غراباً يبحثُ في الأرض ليريه كيف يُواري سوأة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأُواري سوأة اخي فأصبح من النادمين ﴾[1] .

وقد تكلمنا على هذه القصة في سورة المائدة في التفسير بما فيه كفاية . ولله الحمد .

ولنذكر هنا ملخص ما ذكره أئمة السلف في ذلك .

فذكر السدي عن أبي مالك وأبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة وعن ابن مسعودوعن ناس من الصحابة ، أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى البطن الآخر ، وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل ، وكان أكبر من هابيل ، وأخت قابيل أحسن ، فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى . فأمرهما أن يقربا قرباناً ، وذهب آدم ليحج إلى مكة ، واستحفظ السماوات على بنيه فأبين ، والأرضين والجبال فأبين ، فتقبل قابيل بحفظ ذلك[2] .

فلما ذهب قربا قربانهما ؛ فقرب هابيل جذعة سمينة ، وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من رديء زرعه ، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال : إنما يتقبل الله من المتقين .

وروي عن ابن عباس من وجوه أُخر ، وعن عبد الله بن عمرو . وقال عبد الله بن عمرو : وأيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ، ولكن منعه التحرج أن يبسط اليه يده!

---

(١) سورة المائدة الآيات ٢٧ ـ ٣١ .

(٢) وفي ذلك قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ الأحزاب الآية ٧٢ .

وذكر أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشراً لتقريبهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل ، فقال قابيل لآدم : إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لي . وتوعد أخاه فيما بينه وبينه .

فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل في الرعي ، فبعث آدم قابيل لينظر ما أبطأ به ، فلما ذهب إذا هو به ، فقال له : تقبل منك ولم يتقبل مني . فقال : إنما يتقبل الله من المتقين . فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله . وقيل : إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته . وقيل : بل خنقه خنقاً شديداً وعضه كما تفعل السباع فمات . والله أعلم .

وقوله لما توعده بالقتل : ﴿ **لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين** ﴾ دل على خلق حسن ، وخوف من الله تعالى وخشية منه ، وتورع أن يقابل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله .

ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال ﷺ : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

وقوله : ﴿ **إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاءُ الظالمين** ﴾ أي أني أريد ترك مقاتلتك وإن كنت أشد منك وأقوى ، إذ قد عزمت على ما عزمت عليه ، أن تبوء بإثمي وإثمك ، أي تتحمل إثم مقاتلتي مع ما لك من الآثام المتقدمة قبل ذلك . قاله مجاهد والسدي وابن جرير وغير واحد .

وليس المراد أن آثام المقتول تتحول بمجرد قتله إلى القاتل كما قد توهمه بعض من قال ؛ فإن ابن جرير حكى الاجماع على خلاف ذلك .

وأما الحديث الذي يورده بعض من لا يعلم عن النبي ﷺ أنه قال : « ما ترك القاتل على المقتول من ذنب » فلا أصل له ، ولا يعرف في شيء من كتب الحديث بسند صحيح ولا حسن ولا ضعيف أيضاً .

ولكن قد يتفق في بعض الأشخاص يوم القيامة ، أن يطالب المقتول القاتل فتكون حسنات القاتل لا تفي بهذه المظلمة ، فتحول من سيئات المقتول الى القاتل ، كما ثبت به الحديث الصحيح في سائر المظالم ، والقتل من أعظمها والله أعلم . وقد حررنا هذا كله في التفسير ولله الحمد .

وقد روى الامام أحمد وأبو داود والترمذي ، عن سعد بن أبي وقاص ، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة ؛ القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي » . قال : أفرأيت ان دخل على بيتي فبسط يده إليَّ ليقتلني . قال : « كن كآبن آدم » .

ورواه ابن مردويه عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً : كن كخير ابني آدم . وروى مسلم وأهل السنن إلا النسائي عن أبي ذر نحو هذا .

وأما الآخر فقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع ، قالا : قال حدثنا الأعمش ، عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن ابن مسعود ، قال رسول الله ﷺ : « لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه كان أول من سن القتل » .

ورواه الجماعة سوى أبي داود من حديث الأعمش به . وهكذا رُوي عن عبدالله بن عمرو ابن العاص وابراهيم النخعي أنهما قالا مثل هذا سواء .

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم ، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها ، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب فالله أعلم بصحة ذلك(١) .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير ـ وقال أنه كان من الصالحين ـ أنه رأى النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل ، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له ، وذكر أنه سأل الله تعالى أن يجعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء ، فأجابه الى ذلك ، وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ ، وقال : أنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس . وهذا منام لو صح عن أحمد بن كثير هذا ، لم يترتب عليه حكم شرعي . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال : يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين** ﴾ . ذكر بعضهم أنه لما قتله حمله على ظهره سنة ، وقال آخرون حمله مائة سنة ، ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين . قال السدي بإسناده عن الصحابة : أخوين ، فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر ، فلما قتله عمد إلى الأرض يحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه ، فلما رآه يصنع ذلك ، ﴿ **قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي** ﴾ ؟ ففعل مثل ما فعل الغراب فواراه ودفنه .

وذكر أهل التواريخ والسير أن آدم حزن على ابنه هابيل حزناً شديداً ، وأنه قال في ذلك شعراً ، وهو قوله فيما ذكره ابن جرير عن ابن حميد :

تغيرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه المليح(٢)

---

(١) هذا من الإسرائيليات .

(٢) لقد روى ابن جرير كما نرى كثيراً من الإسرائيليات فمن أين وصل اليهم شعر آدم عليه السلام بلغة قريش .

فأجيب آدم :

أبـا هـابيـل قـد قتـلا جميعـاً   وصـار الحي كـالميت الـذبيـح
وجـاء بـشـرة قـد كـان منهـا   عـلى خـوف فجـاء بها يصيـح(١)

وهـذا الشعر فيـه نظر ، وقـد يكون آدم عليـه السلام قـال كلاماً يتحـزن بـه بلغتـه ، فـألفـه بعضهم الى هذا ، وفيه أقوال والله أعلم . وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل بالعقـوبة يـوم قتل أخـاه ؛ فعلقت سـاقه الى فخـذه ، وجعل وجهـه الى الشمس كيفما دارت ، تنكيـلاً به وتعجيـلاً لذنبـه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه(٢) .

وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنـه قال : « مـا من ذنب أجدر أن يعجـل الله عقوبتـه في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » .

[والذي رأيته في الكتـاب الذي بـأيدي أهـل الكتاب الـذين يزعمـون أنه التـوراة : أن الله عز وجـل أجله ونظره ، وأنـه سكن في أرض « نود » في شـرقي عدن وهم يسمـونه قنـين ، وأنه ولـد لـه خنـوخ ، ولخنوخ عنـدر ، ولعندر محـوايل ، ولمحـوايل متـوشيل ، ولمتـوشيـل لامـك . وتـزوج هـذا امرأتين ، عدا وصلا . فولدت « عدا » ولداً اسمـه ابل ، وهـو أول من سكن القباب واقتنى المـال ، وولـدت أيضاً نـوبل ، وهـو أول من أخذ في ضـرب الونـج والصنج(٣). وولدت « صلا » ولداً اسمه توبلقين ، وهو أول من صنع النحاس والحديد ، وبنتاً اسمها « نعمى » .

وفيهـا أيضاً : أن آدم طـاف على امـرأته فـولدت غـلاماً ودعت اسمـه « شيث » وقـالت : من أجل أنه قد وهب لي خلفاً من هابيل الذي قتله قابيل . وولد لشيث أنوش .

قالوا : وكان عمر آدم يوم ولد له شيث مائة وثلاثين سنة ، وعـاش بعد ذلـك ثمانمـائة سنـة ، وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمساً وستين ، وعاش بعد ذلك ثمانمـائة سنـة وسبع سنـين . وولد له بنون وبنات غير أنوش .

فولد لأنوش « قينان » وله من العمر تسعون سنة ، وعاش بعد ذلـك ثمانمـائة سنـة وخمس عشرة سنة ، وولد له بنون وبنات .

فلما كـان عمر قينـان سبعين سنـة ولد لـه مهلاييـل ، وعاش بعـد ذلك ثمـانمائـة سنة وأربعـين

---

(١) سبق تعليقنا على الصفحة السابقة ، وكل هذا الكلام موضوع ولا أساس له ولا سند .

(٢) لم يرد ذكر ذلك في القرآن الكريم ولا الحديث النبوي الشريف .

(٣) الونج : آلة وترية ، والصنج : قطعتان من نحاس تضرب إحداهما بالأخرى .

سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنة ولد له « يرد » وعاش بعد ذلك ثمانمائة وثلاثين سنة وولد له بنون وبنات .

فلما كان ليرد مائة سنة واثنتان وستون سنة ولد له « خنوخ » وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وولد له بنون وبنات .

فلما كان لخنوخ خمس وستون سنة ولد له متوشلخ ، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان لمتوشلخ مائة وسبع وثمانون سنة ولد له « لامك » وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنة وولد له بنون وبنات .

فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنة ولد له « نوح » وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمساً وتسعين سنة ، وولد له بنون وبنات . فلما كان لنوح خمسمائة سنة ولد له بنون : سام وحام ويافث][1] .

هذا مضمون ما في كتابهم صريحاً .

وفي كون هذه التواريخ محفوظة فيما نزل من السماء نظر ، كما ذكره غير واحد من العلماء طاعنين عليهم في ذلك . والظاهر أنها مقحمة فيها ، ذكرها بعضهم على سبيل الزيادة والتفسير . وفيها غلط كثير كما سنذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه عن بعضهم : أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً . قاله ابن اسحاق وسماهم . والله تعالى أعلم .

وقيل : مائة وعشرين بطناً في كل واحد ذكر وأنثى ، أولهم قابيل وأخته قليما ، واخرهم عبد المغيث وأخته أمة المغيث .

ثم انتشر الناس بعد ذلك وكثروا ، وامتدوا في الأرض ونموا ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً** ﴾[2] الآية .

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة ، والله أعلم[3] .

---

(١) من الإسرائيليات وموجود فيما يسمونه العهد القديم وهي أسفار كتبها أحبارهم والمذكور هنا من سفر التكوين .

(٢) سورة النساء الآية ١ .

(٣) من هم أهل التاريخ هؤلاء الذين ينقل عنهم ؟ .

وقال تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما أتاهما فتعالى الله عما يشركون ﴾(١) . الآيات .

فهذا تنبيه أولاً بذكر آدم ، ثم استطرد إلى الجنس . وليس المراد بهذا ذكر آدم وحواء ، بل لما جرى ذكر الشخص استطرد الى الجنس كما في قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ﴿ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾(٣) ومعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ، وإنما استطرد من شخصها إلى جنسها .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عمر بن ابراهيم ، حدثنا قتادة عن الحسن ، عن سمرة ، عن النبي ﷺ قال : « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سميه عبد الحارث فإنه يعيش . فسمته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره » .

وهكذا رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه في تفاسيرهم عند هذه الآية ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، كلهم من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث به ، فقال الحاكم : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وقال الترمذي : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن ابراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه .

فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفاً على الصحابي وهذا أشبه والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات ، وهكذا روي موقوفاً عن ابن عباس . والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار(٤) وذويه . والله أعلم .

وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا ، فلو كان عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه إلى غيره . والله أعلم .

وأيضاً فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر ، وليبث منهما رجالاً كثيراً ونساء . فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر في هذا الحديث إن كان محفوظاً ؟!

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ١٢ ، ١٣ .

(٣) سورة الملك الآية ٥ .

(٤) رأس احبار اليهود وقد أسلم ونقل في رواياته كثيراً من الإسرائيليات .

والمظنون بل المقطوع به أن رفعه الى النبي ﷺ خطأ ، والصواب وقفه والله أعلم . وقد حررنا هذا في كتابنا التفسير ولله الحمد .

ثم قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا ؛ فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته .

وقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال: « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » . قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير» . قلت : يا رسول الله من كان أولهم ؟ قال ﷺ : آدم . قلت : يا رسول الله نبي مرسل ؟ قال ﷺ : نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً » .

وقال الطبراني : حدثنا ابراهيم بن نائلة الأصبهاني ، حدثنا شيبان بن فروخ ، حدثنا نافع بن هرمز ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل الملائكة : جبريل وأفضل النبيين آدم ، وأفضل الأيام يوم الجمعة ، وأفضل الشهور شهر رمضان ، وأفضل الليالي ليلة القدر ، وأفضل النساء مريم بنت عمران » .

وهذا إسناد ضعيف ، فإن نافعاً أبا هرمز كذبه ابن معين ، وضعفه أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم . والله أعلم .

[وقال كعب الأحبار : ليس أحد في الجنة له لحية إلا آدم ، لحيته سوداء إلى سرته . وليس أحد يكنى في الجنة إلا آدم ؛ كنيته في الدنيا أبو البشر وفي الجنة أبو محمد][1] .

وقد روى ابن عدي من طريق شيخ بن أبي خالد ، عن حماد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار ، عن جابر بن عبد الله مرفوعاً : «أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد » .

ورواه ابن عدي أيضاً من حديث علي بن أبي طالب ، وهو ضعيف من كل وجه . والله أعلم .

وفي حديث الإسراء الذي في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما مر بآدم وهو في السماء الدنيا ، قال له : مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ، قال . وإذا عن يمينه أسودة[2] وعن يساره أسودة ، فإذا نظر عن يمينه ضحك ، وإذا نظر عن شماله بكى فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا آدم وهؤلاء نسم[3] بنيه ، فإذا نظر قبل أهل اليمين ـ وهم أهل الجنة ـ ضحك ، وإذا نظر

---

(١) ليس في هذا الموضوع حديث ولا نص من كتاب الله وكعب الأحبار كثير الوضع .

(٢) الأسودة : يكنى بها عن العدد الكثير .

(٣) النسم : جمع نسمة ، وهي الروح .

قبل أهل الشمال ـ وهم أهل النار ـ بكى .

وهذا معنى الحديث .

وقال أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثني يزيد بن هارون ، أنبأنا هشام بن حسان بن الحسن قال : كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده .

وقال بعض العلماء في قوله ﷺ : « فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شَطْرَ الحُسن » قالوا : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام . وهذا مناسبٌ ، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة ، ونفخ فيه من روحه ، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشباه .

وقد روينا عن عبد الله بن عمر وابن عمر أيضاً موقوفاً ومرفوعاً : إن الله تعالى لما خلق الجنة ، قالت الملائكة : يا ربنا اجعل لنا هذه ، فإنك خلقت لبني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له : كن فكان .

وقد ورد الحديث المروي في الصحيحين وغيرهما من طرق : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم على صورته » وقد تكلم العلماء على هذا الحديث فذكروا فيه مسالك كثيرة ليس هذا موضع بسطها . والله أعلم[1] .

(١) تنزه الله عن الشبيه فليس كمثله شيء ولا هو قبل شيء وهو بكل شيء محيط ، إنما هذا من الإسرائيليات حيث يقولون : وخلق الله الانسان على صورته ومثاله .

ذكر وفاة آدم ووصيته إلى
ابنه شيث عليه السلام

ومعنى شيث : هبة الله ، وسمياه بذلك لأنهما رزقاه بعد أن قتل هابيل .

قال أبو ذر في حديثه عن رسول الله ﷺ : « ان الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف ، على شيث خمسين صحيفة » .

قال محمد بن اسحاق : ولما حضرت آدم الوفاة عهد الى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار ، وعلمه عبادات تلك الساعات ، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك .

قال : ويقال أن أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي الى شيث ، وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا . والله أعلم .

ولما توفي آدم عليه السلام ـ وكان ذلك يوم الجمعة ـ جاءته الملائكة بحنوط ، وكفن من عند الله عز وجل من الجنة ، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام . قال ابن اسحاق : وكسفت الشمس والقمر سبعة أيام بلياليهن .

وقد قال عبدالله ابن الإمام أحمد : حدثنا هدبة بن خالد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن الحسن ، عن يحيى ـ هو ابن ضمرة السعدي ـ قال : رأيت شيخاً بالمدينة يتكلم فسألت عنه فقالوا : هذا أُبي بن كعب ، فقال : إن آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أي بني ، إني أشتهي من ثمار الجنة . قال : فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ، ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل[1] ، فقالوا لهم : يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون ؟ أو ما تريدون وأين تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة ، فقالوا لهم : ارجعوا فقد قضى

(١) أدوات الحفر والدفن .

أبوكم . فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلاذت بآدم ، فقال : إليك عني فإني إنما أتيت من قبلك ، فخلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل . فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه ، وحفروا له ولحدوه وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضعوه في قبره ، ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يا بني آدم هذه سنتكم . إسناد صحيح إليه .

وروى ابن عساكر عن طريق شيبان بن فروخ ، عن محمد بن زياد ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « كبرت الملائكة على آدم أربعاً ، وكبر أبو بكر على فاطمة أربعاً ، وكبر عمر على أبي بكر أربعاً ، وكبر صهيب على عمر أربعاً » .

قال ابن عساكر : ورواه غيره عن ميمون فقال : عن ابن عمر .

واختلفوا في موضع دفنه : فالمشهور أنه دفن عند الجبل الذي أهبط عليه في الهند ، وقيل : بجبل أبي قبيس بمكة . ويقال أن نوحاً عليه السلام لما كان زمن الطوفان حمله هو وحواء في تابوت ، فدفنهما ببيت المقدس . حكى ذلك ابن جرير .

وروى ابن عساكر عن بعضهم أنه قال : رأسه عند مسجد ابراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس[1] وقد ماتت بعده حواء بسنة واحدة .

واختلف في مقدار عمره عليه السلام : فقدمنا في الحديث عن ابن عباس وأبي هريرة مرفوعاً : أن عمره اكتتب في اللوح المحفوظ ألف سنة .

وهذا لا يعارضه ما في التوراة من أنه عاش تسعمائة وثلاثين سنة ، لأن قولهم هذا مطعون فيه مردود ، إذ خالف الحق الذي بأيدينا مما هو المحفوظ عن المعصوم .

وأيضاً فإن قولهم هذا يمكن الجمع بينه وبين ما في الحديث ؛ فإن ما في التوراة - إن كان محفوظاً - محمول على مدة مقامه في الأرض بعد الاهباط ، وذلك تسعمائة سنة وثلاثون سنة شمسية ، وهي بالقمرية تسعمائة وسبع وخمسون سنة ، ويضاف الى ذلك ثلاث وأربعون سنة مدة مقامه في الجنة قبل الاهباط على ما ذكره ابن جرير وغيره ، فيكون الجميع ألف سنة .

وقال عطاء الخراساني : لما مات آدم بكت الخلائق عليه سبعة أيام ، رواه ابن عساكر .

فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام وكان نبياً بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه ، عن أبي ذر مرفوعاً :أنزل عليه خمسون صحيفة .

فلما حانت وفاته أوصى الى ابنه أنوش فقام بالأمر بعده ، ثم بعده ولده قينن ثم من بعده

---

(١) هذا يعني ، لو صح ولا نظن ذلك ، أن طوله عشرات ألوف الأمتار .

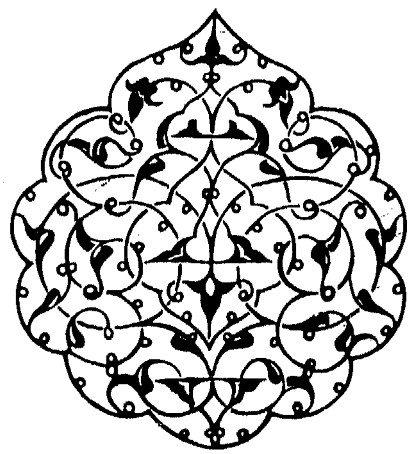
ابنه مهلاييل ، وهو الـذي يزعم الأعـاجم من الفرس أنـه ملك الأقاليم السبعـة ، وأنه أول من قـطع الأشجار ، وبنى المدائن والحصون الكبار . وأنه هو الـذي بنى مدينـة بابـل ومدينـة السوس الأقصى . وأنـه قهر إبليس وجنـوده وشردهم عن الأرض إلى أطـرافها وشعـاب جبالهـا وأنه قتـل خلقاً من مـردة الجن والغيلان ، وكان له تاج عظيم ، وكان يخطب الناس ودامت دولته أربعين سنة .

فلما مات قام بالأمر بعـده ولده يـرد فلما حضرتـه الوفـاة أوصى الى ولده أخنـوخ ، وهو إدريس عليه السلام على المشهور[1] .

---

(١) كل الأسماء الواردة بعد شيث هي مما ورد في كتب العهد القديم اليهوديـة والله وحده يعلم مدى صحة ما ورد فيها .

ذكر إدريس عليه السلام



قال الله تعالى : ﴿ وأذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً ﴾[١] فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية ، وهو أخنوخ هذا . وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب .

وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام .

وذكر ابن اسحاق أنه أول من خط بالقلم ، وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين[٢] ، وقد قال طائفة من الناس أنه المشار اليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال : « إنه كان نبي يخط به فمن وافق خطه فذاك » .

ويزعم كثير من علماء التفسير والأحكام أنه أول من تكلم في ذلك ، ويسمونه هرمس الهرامسة[٣] ، ويكذبون عليه أشياء كثيرة كما كذبوا على غيره من الأنبياء والعلماء والحكماء والأولياء .

وقوله تعالى : ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ هو كما ثابت في الصحيحين في حديث الإسراء : أن رسول الله ﷺ مر به وهو في السماء الرابعة .

وقد روى ابن جرير عن يونس عن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، وعن جرير بن حازم ، عن الأعمش ، عن شمر بن عطية ، عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له : ما قول الله تعالى لإدريس ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ ؟ فقال كعب : أما ادريس فإن الله أوحى اليه : إني أرفع لك كل يوم مثل جميع عمل بني آدم ـ لعله من أهل زمانه ـ فأحب أن يزداد عملاً ، فأتاه خليل له من الملائكة ، فقال (له) : إن الله أوحى إليَّ كذا وكذا فكلم ملك الموت حتى أزداد عملاً ، فحمله بين جناحيه ثم صعد به إلى السماء ، فلما كان في السماء الرابعة تلقاه ملك الموت منحدراً ، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس ، فقال : وأين إدريس ؟ قال : هو ذا على ظهري ، فقال ملك الموت : يا للعجب ! بعثت[٤] وقيل لي اقبض روح ادريس في

(١) سورة مريم الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) أيضاً وأيضاً من الإسرائيليات . وابن اسحاق هذا كان يهودياً .

(٣) واضح من التسمية فارسية هذا القول ولا يبعد أن يكون من كلام يهود فارس أو مجوسهم .

(٤) أرسلت .

السماء الرابعة ، فجعلت أقول : كيف روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض ؟! فقبض روحه هناك . فذلك قول الله عز وجل ﴿ **ورفعناه مكاناً علياً** ﴾

ورواه ابن أبي حاتم عند تفسيرها . وعنده فقال لذلك الملك : سل لي ملك الموت كم بقي من عمري ؟ فسأله وهو معه : كم بقي من عمره ؟ فقال : لا أدري حتى أنظر ، فنظر فقال : إنك لتسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين ، فنظر الملك الى تحت جناحه الى ادريس فإذا هو قد قبض وهو لا يشعر . وهذا من الإسرائيليات ، وفي بعضه نكارة .

وقول ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله : ﴿ **ورفعناه مكاناً علياً** ﴾ قال : إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى . إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففي هذا نظر ، وإن أراد أنه رفع حياً إلى السماء ثم قبض هناك ، فلا ينافي ما تقدم عن كعب الأحبار . والله أعلم .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ **ورفعناه مكاناً علياً** ﴾ : رفع إلى السماء السادسة فمات بها ، وهكذا قال الضحاك .

والحديث المتفق عليه من أنه في السماء الرابعة أصح ، وهو قول مجاهد وغير واحد .

وقال الحسن البصري : ﴿ **ورفعناه مكاناً علياً** ﴾ قال : إلى الجنة ، وقال قائلون : رفع في حياة أبيه يرد بن مهلاييل والله أعلم . وقد زعم بعضهم أن ادريس لم يكن قبل نوح بل في زمان بني اسرائيل .

قال البخاري : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن الياس هو ادريس ، واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الاسراء : أنه لما مر به عليه السلام قال له : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قالوا : فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قالا له .

وهذا لا يدل ولا بد ، قد لا يكون الراوي حفظه جيداً ، أو لعله قاله على سبيل الهضم والتواضع ، ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر ، وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن ، وأكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين .

قصة نوح عليه السلام

(هـو نوح بن لامـك بن متوشلخ بن خنـوخ ـ وهو إدريس ـ بن يـرد بن مهلاييـل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام)[1] .

وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة ، فيما ذكره ابن جرير وغيره .

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مـولد نـوح وموت آدم مـائة وست وأربعـون سنة ، وكان بينهما عشرة قرون كـما قال الحـافظ أبو حـاتم بن حبان في صحيحـه : حدثنـا محمد بن عمـر بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، حدثنا أبو تـوبة ، حـدثنا معـاوية بن سـلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، سمعت أبا سـلام سمعت أبا أمـامة : أن رجـلاً قال : يـا رسول الله أنبي كـان آدم ؟ قالَ : نعم مكلم . قال : فكم كان بينه وبـين نوح ؟ قـال : عشرة قـرون . قلت : وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه .

وفي صحيـح البخـاري عن ابن عبـاس قـال : كـان بـين آدم ونـوح عشـرة قـرون كلهم عـلى الاسلام .

فـإن كان المـراد بالقـرن مائـة سنة ـ كـما هو المتبـادر عند كثـير من الناس ـ فبينهـما ألف سنـة لا محـالة ، لكن لا ينفي أن يكـون أكثر بـاعتبار مـا قيد بـه ابن عباس بـالاسـلام ، إذ قـد يكـون بينهـما قـرون أُخر متـأخرة لم يكـونـوا عـلى الاسـلام ، لكن حـديث أبي أمـامـة يـدل عـلى الحصر في عشـرة قرون ، وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الاسلام .

وهذا يرد قول من زعم من أهل التـواريخ وغيـرهم من أهل الكتـاب : أن قابيـل وبنيه عبـدوا النار . والله أعلم .

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قولـه تعالى : **﴿ وكـما أهلكنا من القرون من بعـد نـوح ﴾**[2] وقولـه : **﴿ ثم أنشأنـا من بعدهم قرنا آخـرين ﴾**[3] وقال تعـالى : **﴿ وقرونـاً بـين ذلـك**

---

(١) من العهد القديم ـ سفر التكوين وابن جرير كما سبق وذكرنـا ، ينقل الكثـير من الاسرائيليـات وما يهمنـا كمسلمين ليس كم عاش ، بل الرسالة التي أمره الله بها وطاعته ربه .

(٢) سورة الأسراء الآية ١٧ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ٣١ .

كثيراً ﴾[1] .وقال : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرنٍ ﴾[2] وكقوله عليه السلام : « خير القرون قرني » . الحديث . فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة ، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين . والله أعلم .

وبالجملة ، فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس في الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة .

وكان قومه يقال لهم بنو راسب[3] فيما ذكره ابن جبير وغيره .

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث ، فقيل كان ابن خمسين سنة ، وقيل ابن ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقيل ابن أربعمائة وثمانين سنة حكاها ابن جرير ، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة ، في غير ما موضع من كتابه العزيز ؛ ففي الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت[4] ، وأنزل فيه سورة كاملة .

فقال في سورة الأعراف : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره إني أخافُ عليكم عذاب يومٍ عظيم * قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلالٍ مبينٍ * قال يا قوم ليس بي ضلالةٌ ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين * أُبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أوَعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون * فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمِينَ ﴾[5] .

وقال تعالى في سورة يونس : ﴿ واتلُ عليهم نبأ نوحٍ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبُر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلتُ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمةً ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجرٍ إنْ أجري إلا على الله وأُمرتُ أن أكون من المسلمين * فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾[6] .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٣٨ .

(٢) سورة مريم الآيتان ٧٤ ، ٩٨ .

(٣) هذا القول غير معروف المصدر ويذكرنا بنادرة أشعب عن بني راسب وبني طفاوة .

(٤) إلقمر .

(٥) سورة الأعراف الآيات ٥٩ ـ ٦٤ .

(٦) سورة يونس الآيتان ٧١ ـ ٧٣ .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبينٌ * أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضلٍ بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينةٍ من ربي وآتاني رحمةً من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون * ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلاَّ على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم مُلاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملكٌ ولا أقول للذين تزدري أعيُنُكم لن يؤتيهم الله خيراً اللهُ أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين * قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتِنَا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين * ولا ينفعكم نُصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هُو ربكم وإليه تُرجعون * أم يقولون آفتراه قُلْ إن آفتريتُهُ فعليَّ إجرامي وأنا بريءٌ مما تُجرمون * وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون * وآصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تُخاطبني في الذين ظلموا انهم مُغرقون * ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنَّا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخزيه ويحلُّ عليه عذابٌ مقيمٌ * حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا آحمل فيها من كلٍّ زوجين آثنين وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليلٌ * وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومُرساها إن ربي لغفورٌ رحيمٌ * وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ونادىٰ نوحُ آبنه وكان في معزلٍ يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المُغرقين * وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماءُ وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين * ونادى نُوحُ ربه فقال ربِّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غير صالحٍ فلا تسألنِ ما ليس لك به علمٌ إني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إني أعوذُ بك أن أسألك ما ليس لي به علمٌ وإلاَّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين * قيل يا نوح آهبط بسلامٍ منا وبركاتٍ عليك وعلى أُممٍ ممن معك وأُممٌ سنمتعهم ثم يمسهم منا عذابٌ أليمٌ * تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فآصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[1] .

---

(١) سورة هود الآيات ٣٥ ـ ٤٩ .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهم أجمعين ﴾(١) .

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم آعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضَّل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكةً ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين * إن هو إلَّا رجلٌ به جنةٌ فتربَّصوا به حتى حينٍ * قال رب آنصرني بما كذَّبونِ * فأوحينا إليه أن آصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فآسلك فيها من كلٍّ زوجين آثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تُخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون * فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلني منزلاً مُباركاً وأنت خيرُ المنزلين * إنَّ في ذلك لآياتٍ وإن كنا لُمبتلين ﴾(٢) .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم نوحٍ المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوحٌ ألا تتقون * إني لكم رسولٌ أمينٌ * فآتقوا الله وأطيعونِ * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على ربِّ العالمين * فآتقوا الله وأطيعونِ * قالوا أنؤمن لك وآتبعك الأرذلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطاردِ المؤمنين * إن أنا إلَّا نذيرٌ مبينٌ * قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين * قال ربِّ إن قومي كذَّبونِ * فآفتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين * فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحونِ * ثم أغرقنا بعد الباقين * إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٣) .

وقال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آيةً للعالمين ﴾(٤) .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ ولقد نادانا نوحٌ فلنِعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين * وتركنا عليه في الآخرين * سلامٌ على نوحٍ في

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) سورة المؤمنون الآيات ٢٣ ـ ٣٠ .

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٠٥ ـ ١٢٢ .

(٤) سورة العنكبوت الآيتان ١٤ ، ١٥ .

العالمين * إنَّا كذلك نجْزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين ﴾(1) .

وقال تعالى في سورة اقتربت(2) : ﴿ كذبت قبلهم قومُ نوحٍ فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وآزدجر * فدعا ربه إني مغلوبٌ فآنتصر * ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمرٍ * وفجرّنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدر * وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسرٍ * تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كفرَ * ولقد تركناه آية فهل من مُدَّكرٍ * فكيف كان عذابي ونُذُر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكرٍ ﴾(3) .

وقال تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذابٌ أليمٌ * قال يا قوم إني لكم نذيرٌ مبينٌ * أن آعبدوا الله وآتقوه وأطيعونِ * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجلٍ مُسمىً إنَّ أجل الله إذا جاء لا يؤخَّر لو كنتم تعلمون * قال رب إنِّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً * فلم يزدهم دعائي إلا فِراراً * وإني كُلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا وآستكبروا آستكباراً * ثم إني دعوتهم جِهَاراً * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً * فقلت آستغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يُرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً * ما لكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً * ألم تروا كيف خلق الله سبع سماواتٍ طِباقاً * وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سِراجاً * والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً * والله جعل لكم الأرض بساطاً * لتسْلكوا منها سُبُلاً فجاجاً * قال نوحُ ربِّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً * ومكروا مكراً كُبَّاراً * وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرنّ ودّاً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ولا تزدِ الظالمين إلاَّ ضلالاً * مما خطيئاتهم أُغرقوا فأُدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً * وقال نوحُ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديَّاراً * إنك إن تذرهم يُضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً * رب آغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزدِ الظالمين إلاَّ تباراً ﴾(4) .

---

(1) سورة الصافات الآيات ٧٥ ـ ٨٢ .

(2) سورة القمر .

(3) سورة القمر الآيات ٩ ـ ١٢ .

(4) سورة نوح .

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير ، وسنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه الأماكن المتفرقة ، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار .

وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه وذم من خالفه ، فقال تعالى في سورة النساء :﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورُسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورُسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليماً * رُسلاً مُبشرِّين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرُّسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(١) .

وقال في سورة الانعام : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاء إن ربك حكيمٌ عليمٌ * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كُلًّا هدينا ونوحاً هدينا من قبلُ ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكُلًّا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾(٢) .

وتقدمت قصته في الاعراف(٣) .

وقال في سورة براءة(٤) : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوحٍ وعادٍ وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رُسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٥) .

وتقدمت قصته في يونس وهود(٦) .

وقال في سورة ابراهيم : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبيناتِ فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنَّا لفي شكٍ مما تدعوننا إليه مُريبٍ ﴾(٧) .

---

(١) سورة النساء الآيات ١٦٣ ـ ١٦٥ .
(٢) سورة الأنعام الآيات ٨٣ ـ ٨٧ .
(٣) في الآيات ٥٩ ـ ٦٤ .
(٤) سورة التوبة .
(٥) سورة التوبة الآية ٧٠ .
(٦) في يونس الآيات ٧١ ـ ٧٣ وفي هود الآيات ٢٥ ـ ٤٩ .
(٧) سورةابراهيم الآية ٩

وقال في سورة سبحان : ﴿ ذرية من حملنا مع نوحٍ إنه كان عبداً شكوراً ﴾[1] . وقال فيها أيضاً : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوحٍ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾[2] .

وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت .[3]

وقال في سورة الأحزاب : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾[4] .

وقال في سورة ص : ﴿ كذبت قبلهم قومُ نوحٍ وعادٌ وفرعون ذو الأوتادِ * وثمودُ وقوم لوطٍ وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كُلٌّ إلَّا كذَّبَ الرسل فحقَّ عِقاب ﴾[5] .

وقال في سورة غافر : ﴿ كذبت قبلهم قومُ نوحٍ والأحزاب من بعدهم وهمَّت كل أُمةٍ برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقابِ * وكذلك حقت كلمةُ ربك على الذين كفروا أنهم أصحابُ النار ﴾[6] .

وقال في سورة الشورى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّين ولاتتفرقوا فيه كبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي اليه من يشاء ويَهدي إليه من يُنيبُ ﴾[7] .

وقال تعالى في سورة ق : ﴿ كذبت قبلهم قومُ نوحٍ وأصحاب الرَّسِّ وثمودُ * وعادٌ وفرعون وإخوان لوطٍ * وأصحاب الأيكة وقوم تُبعٍ كل كذب الرسل فحقَّ وعيد ﴾[8] .

وقال في الذاريات : ﴿ وقوم نوحٍ من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[9] .

وقال في النجم : ﴿ وقومُ نوحٍ من قبل إنهم كانوا هُم أظلم وأطغىٰ ﴾[10] .

---

(١) سورة الاسراء الآية ٣ .

(٢) سورة الاسراء الآية ١٧ .

(٣) في الأنبياء الآيات ٧٦ ، و٧٧ والمؤمنون ٢٣ ـ ٣٠ والشعراء الآيات ١٠٥ ـ ١٢٢ والعنكبوت الآيتان ١٤ ، ١٥ .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٧ .

(٥) سورة ص الآيات ١٢ ـ ١٤ .

(٦) سورة غافر الآيتان ٥ ، ٦ .

(٧) سورة الشورى ١٣ .

(٨) سورة ق الآيات ١٢ ـ ١٤

(٩) سورة الذاريات الآية ٤٦

(١٠) سورة النجم الآية ٥٢

وقدمت قصته في سورة اقتربت الساعة[١] .

وقال تعالى في سورة الحديد : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثيرٌ منهم فاسقون** ﴾[٢] .

وقال تعالى في سورة التحريم : ﴿ **ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ كانتا تحت عبدين من عِبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيلَ ادخلا النار مع الداخلين** ﴾[٣] .

* * *

وأما مضمون ماجرى له مع قومه مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار ، فقد قدمنا عن ابن عباس : أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ، رواه البخاري . وذكرنا أن المراد بالقرن الجيل أو المدة على ما سلف .

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان الى عبادة الأصنام .

وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء ، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسْراً** ﴾[٤] .

قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عبدت .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد .

وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن اسحاق .

وقال ابن جرير في تفسيره : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا

(١) سورة القمر الآيات ٩ ـ ١٧ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٦ .

(٣) سورة التحريم الاية ١٠

(٤) سورة نوح الاية ٢٣ .

ذكرناهم ، فصوروهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر . فعبدوهم .

وروى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال : ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر ، أولاد آدم ، وكان « ود » أكبرهم وأبرهم به[1] .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسى ؛ حدثنا يعقوب عن أبي المطهر ، قال : ذكروا عند أبي جعفر ـ هو الباقر ـ وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب ، أما إنه قتل في أول أرض عبد فيها غير الله تعالى . قال : ذكر وداً قال : كان رجلاً صالحاً ، وكان محبباً في قومه ، فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة إنسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا : نعم . فصور لهم مثله ، قال : فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ليكون له في بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم . قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به . قال : وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد غير الله « ود » الصنم الذي سموه وداً .

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس . وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان ، جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم ، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل . ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً قد ذكرنا في مواضعها من كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة ، تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة ، ويقال لها مارية ، وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها قال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل »[2] .

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض ، وعم البلاد بعبادة الأصنام فيها ، بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام ، يدعو الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه .

---

(١) من أين جاء بهذا وأبناء آدم قابيل وهابيل وشيث ؟ .

(٢) التمثال المقصود هو تمثال السيدة مريم العذراء عليها السلام إذ يضع المسيحيون لها وللسيد المسيح عليه السلام تماثيل يضعونها في كنائسهم وكذا يصنعون بالقديسين .

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث الشفاعة ، قال : « فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن شجرة فعصيت ، نفسي نفسي . اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح .

فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا الى ربك عز وجل ؟ فيقول : ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، نفسي نفسي . وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح .

فلما بعث الله نوحاً عليه السلام ، دعاهم الى افراد عبادة الله وحده لا شريك له ، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً وأن يعترفوا بوحدانيته ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته ، كما قال تعالى : ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾[1] . وقال فيه وفي ابراهيم : ﴿ **وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب** ﴾[2] أي كل نبي من بعد نوح فمن ذريته . وكذلك ابراهيم .

قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن آعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ **وآسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فآعبدون** ﴾[5]

ولهذا قال نوح لقومه : ﴿ **أعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم** ﴾[6] وقال : ﴿ **أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليمٍ** ﴾[7] . وقال : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره أفلا تتقون** ﴾[8] .

---

(١) سورة الصافات الآية ٧٧ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٦ .

(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .

(٤) سورة الزخرف الآية ٤٥ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

(٦) سورة الأعراف الآية ٥٩ .

(٧) سورة هود الآية ٢٦ .

(٨) سورة المؤمنون الآية ٢٣ .

وقـال : ﴿ **قال يـا قوم إني لكم نـذيرٌ مبـينٌ * أن اعبدوا الله واتقـوه وأطيعـون** ﴾[1] . إلى : ﴿ **وقد خلقـكم أطواراً** ﴾[2] . الآيات الكريمات .

فذكر أنهم دعاهم إلى الله بأنـواع الدعـوة في الليل والنهـار ، والسر والإجهار ، بـالترغيب تـارة والتـرهيب أخرى ، وكـل هذا لم ينجـح فيهم ، بل استمـر أكثرهم عـلى الضلالـة والـطغيـان وعبـادة الأصنـام والأوثـان . ونصبـوا لـه العـداوة في كـل وقت وأوان ، وتنقصـوه وتنقصـوا من آمن بـه ، وتوعدوهم بالرجم والإخراج ، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم .

﴿ **قال الملأ من قومه** ﴾ أي السادة الكبراء منهم : ﴿ **إنا لنراك في ضلالٍ مبين** ﴾ .

﴿ **قال يا قوم ليس بي ضلالةٌ ولكني رسـول من رب العالمـين** ﴾ أي لست كما تـزعمون من أني ضـالٍ ، بـل عـلى الهـدى المستقيم رسـول من رب العـالمين ، أي الـذي يقـول للشيء كن فيكـون ﴿ **أبلغكم رسـالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مـا لا تعلمون** ﴾[3] . وهـذا شـأن الـرسـول أن يكون بليغاً ، أي فصيحاً ناصحاً ، أعلم الناس بالله عز وجل .

وقالوا لـه فيما قـالوا : ﴿ **مـا نراك إلا بشـراً مثلنا ومـا نراك اتبعـك إلا الذين هم أراذلنـا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضلٍ بل نظنكم كاذبين** ﴾[4] .

تعجبوا أن يكون بشراً رسولاً ، وتنقصوا من اتبعه ، ورأوهم أراذلهم . وقـد قيل : أنهم كـانوا من أفناد الناس ، وهم ضعفاؤهم ، كما قال هرقـل : وهم أتباع الـرسل ، ومـا ذاك إلا لأنه لا مـانع لهم من اتباع الحق [5] .

وقولهم ﴿ **بـادي الـرأي** ﴾ أي بمجرد مـا دعوتهم استجـابوا لـك من غير نـظر ولا روية . وهـذا الـذي رموهم بـه هو عـين ما يمـدحون بسببـه رضي الله عنهم ، فإن الحق الـظاهر لا يحتـاج الى روية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر .

ولهذا قال رسول الله ﷺ مادحاً للصدِّيق : « مـا دعوت أحـداً إلى الإسلام إلا كـانت له كبـوة غـير أبي بكر ، فـإنه لم يتلعثم »[6] . ولهـذا كانت بيعتـه يوم السقيفـة أيضاً سـريعة من غـير نـظر ولا

---

(١) سورة نوح الآيتان ٢ ، ٣ .

(٢) سورة نوح الآية ١٤ .

(٣) سورة الأعراف الآيات ٦٠ - ٦٢ .

(٤) سورة هود الآية ٢٧ .

(٥) لأن الخوف على الجاه والمال والسلطة تمنع أصحابها من الإيمان فهم متعلقون بالـدنيا . أمـا الفقراء فـلا خوف لـديهم ولا هم يحزنون على متاع الدنيا .

(٦) ذكره ابن إسحاق عن عبد الله بن الحصين التميمي . أنظر البداية والنهاية ٣/٢٦ ، ٢٧

روية ، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم . ولهذا قال رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب الكتاب الذي أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه ، قال : « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » [1] رضي الله عنه .

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به : ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ أي لم يظهر لكم أمرٌ بَعْدَ إتصافكم بالإيمان ولا مرية علينا ﴿ **بل نظنكم كاذبين * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمةً من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾[2] .

وهذا تلطف في الخطاب معهم ، وترفق بهم في الدعوة إلى الحق ، كما قال تعالى : ﴿ **فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى** ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ **آدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[4] . وهذا منه .

يقول لهم : ﴿ **أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده** ﴾ أي النبوة والرسالة ، ﴿**فعميت عليكم** ﴾ أي فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ﴿ **أنلزمكموها** ﴾ أي أنغصبكم بها ونجبركم عليها ، ﴿ **وأنتم لها كارهون** ﴾ ؟ أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه . ﴿ **ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله** ﴾[5] . أي لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم ، أن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي ، وأبقى مما تعطونني أنتم .

وقوله : ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون** ﴾[5] كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك ، فأبى عليهم ذلك وقال : ﴿ **إنهم ملاقوا ربهم** ﴾ أي : فأخاف ان طردتهم ، أفلا تذكرون .

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ﷺ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين ، كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم ، نهاه الله عن ذلك[6] ، كما بيناه في سورتي الأنعام والكهف .

---

(١) البداية والنهاية ٣/٢٨ .

(٢) سورة هود الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) سورة طه الآية ٤٤ .

(٤) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٥) سورة هود الآية ٢٩ .

(٦) جاء في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾ [الأنعام : الآية ٥٢] .

﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملكٌ ﴾ أي بل أنا عبد رسول ، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ، ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه ، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . ﴿ ولا أقول للذين تزدري أعينكم ﴾ يعني من أتباعه ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين ﴾[1] . أي لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة ، الله أعلم بهم ، وسيجازيهم على ما في نفوسهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كما قالوا في المواضع الأخر : ﴿ أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذيرٌ مبينٌ ﴾[2] .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : ﴿ فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾[3] أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم .

وكان كلما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به ، ومحاربته ومخالفته . وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه ، وصاه فيما بينه وبينه : ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ، ودائماً ما بقي .

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان وإتباع الحق ، ولهذا قال : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾[4] .

ولهذا ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾[5] . أي إنما يقدر على ذلك الله عز وجل ، فإنه لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر ، بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون . ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾[6] ، أي من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته ، هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد ، وهو العزيز الحكيم ، العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

* * *

(١) سورة هود الآية ٣١ .
(٢) سورة الشعراء الآيات ١١١ ـ ١١٥ .
(٣) سورة العنكبوت الآية ١٤ .
(٤) سورة نوح الآية ٢٧ .
(٥) سورة هود الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .
(٦) سورة هود الآية ٣٤ .

﴿ وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ تسلية له عما كان منهم إليه ﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾(١) وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه إنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، أي لا يسوأنك ما جرى فإن النصر قريب والنبأ عجيب .

﴿ وآصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون ﴾(٢)

وذلك أن نوحاً عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنهم لا خير فيهم ، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق ، من فعال ومقال ، دعا عليهم دعوة غضب(٣) . فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال الله تعالى : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾(٤) . وقال تعالى : ﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فآستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾(٥) . وقال تعالى : ﴿ قال ربِّ إن قومي كذبونِ * فآفتح بيني وبينهم فتحاً ونجّني ومن معي من المؤمنين ﴾(٦) . وقال تعالى : ﴿ فدعا ربه إني مغلوبٌ فآنتصر ﴾(٧) . وقال تعالى : ﴿ قال ربِّ انصرني بما كذبونِ ﴾(٨) . وقال تعالى : ﴿ مما خطيآتهم أُغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾(٩) .

فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم .

فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك ، وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها .

وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره ، وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه ؛ فإنه لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم ، فإنه ليس الخبر كالمعاينة ، ولهذا قال : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾(١٠)

﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأٌ من قومه سخروا منه ﴾ أي يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما

---

(١) سورة هود الآية ٣٦ .

(٢) سورة هود الآية ٣٧ .

(٣) طلب من الله تعالى أن ينزل غضبه بهم .

(٤) سورة الصافات الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٧٦ .

(٦) سورة الشعراء الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .

(٧) سورة القمر الآية ١٠ .

(٨) سورة المؤمنون الآيات ٢٦ ، ٣٩ .

(٩) سورة نوح الآيات ٢٥ ـ ٢٧ .

(١٠) سورة هود الآية ٣٧ .

توعدهم بـه ، ﴿ **قال إن تسخـروا منا فـإنا نسخـر منكم كما تسخـرون** ﴾[١] أي نحن الذين نسخـر منكم ونتعجب منكم في استمـراركم على كفـركم وعنادكم الـذي يقتضي وقوع العـذاب بكم وحلوله عليكم ﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلُّ عليه عذابٌ مقيمٌ** ﴾[٢] .

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الـدنيا ، وهكـذا في الآخرة فـإنهم يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول .

كما قال البخـاري : حدثنـا موسى بن اسمـاعيل ، حـدثنا عبـد الـواحـد بن زيـاد ، حـدثنـا الأعمش ، عن أبي صـالح ، عن أبي سعيـد قال : قـال رسول الله ﷺ : « يجيء نـوح عليه السـلام وأُمتـه ، فيقـول الله عـز وجـل : هـل بلغت ؟ فيقـول : نعم أي رب . فيقـول لأمتـه هـل بلغكم ؟ فيقولون : لا ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من شهد لـك ؟ فيقول محمـد وأُمته ، فتشهـد أنه قـد بلغ » وهو قوله تعالى :﴿**وكذلك جعلنـاكم أمةً وسـطاً لتكونـوا شهداء على الناس ويكـون الرسـول عليكم شهيداً** ﴾[٣] .

والـوسط العدل . فهـذه الأمة تشهـد على شهـادة نبيها الصـادق المصدوق ، بـأن الله قـد بعث نوحاً بـالحق ، وأنزل عليـه الحق وأمره بـه ، وأنه بلغـه إلى أُمته عـلى أكمل الـوجوه وأتمهـا ، ولم يدع شيئاً ممـا ينفعهم في دينهم إلا وقـد أمـرهم بـه ، ولا شيئـاً ممـا قـد يضـرهم إلا وقـد نهاهم عنـه ، وحذرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل ، حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال . وإن كـان لا يتوقـع خروجـه في زمانهم ؛ حذراً عليهم وشفقة ورحمة بهم .

كما قال البخـاري : حدثنـا عبدان ، حـدثنا عبـدالله ، عن يونس ، عن الـزهري ، قـال سالم قال ابن عمر : قـام رسول الله ﷺ في النـاس فأثنى عـلى الله بما هـو أهله ، ثم ذكر الـدجال فقـال : « إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا وقد أنـذره قـومه . لقد أنـذره نوح قـومِه ، ولكني أقـول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه : تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور » .

وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً من حـديث شيبان بن عبـد الرحمن عن يحيى بن أبي كثـير ، عن أبي سلمـة بن عبد الـرحمن ، عن أبي هـريـرة عن النبي ﷺ قـال : « ألا أحـدثكم عن الـدجـال حديثاً ما حدث به نبي قومه ؟ إنه أعـور ، وأنه يجيء معـه بمثال الجنـة والنار والتي يقـول عليها الجنـة

(١) سورة هود الآية ٣٨ .

(٢) سورة هود الآية ٣٩ .

(٣) سورةالبقرة الآية ١٤٣ .

هي النار ، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه » . لفظ البخاري[1] .

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب الله له ، أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة ، فغرسه وانتظره مائة سنة ، ثم نجره في مائة أخرى ، وقيل في أربعين سنة . والله أعلم .

قال محمد بن إسحاق عن الثوري : وكانت من خشب الساج ، وقيل من الصنوبر وهو نص التوراة .

قال الثوري : وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً ، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار ، وأن يجعل لها جؤجؤاً[2] أزور يشق الماء .

وقال قتادة : كان طولها ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين ذراعاً . وهذا الذي في التوراة على ما رأيته . وقال الحسن البصري : ستمائة في عرض ثلاثمائة ، وعن ابن عباس : ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ذراع وقيل : كان طولها ألفي ذراع ، وعرضها مائة ذراع[3] .

قالوا كلهم : وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ، وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للناس ، والعليا للطيور . وكان بابها في عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ **قال رب انصرني بما كذبون * فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾[4] ، أي بأمرنا لك ، وبمرأى منا لصنعتك لها ، ومشاهدتنا لذلك ، لنرشدك إلى الصواب في صنعتها .

﴿ **فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾[5] .

فتقدم اليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه ، أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات ، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل

(١) تحذير الأنبياء لقومهم من الدجال دليل وجوده وأنه من علامات قيام الساعة لا ريب فيها وقول الرسول ﷺ أنه أعور دليل على أنه شخص بعينه لا صفة لكل ضال مضل كما زعم بعض المحققين .

(٢) جؤجوا أزور : صدراً مدبباً .

(٣) كل هذا إنما هو على وجه التقريب والتقدير لا أكثر ولا أقل .

(٤) سورة المؤمنون الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) سورة المؤمنون الآية ٢٧ .

معـه أهله ، أي أهل بيتـه ، إلا من سبق عليه القـول منهم ، أي إلا من كان كـافراً فـإنه قـد نفذت فيـه الدعـوة التي لا ترد ، ووجب عليـه حلول البأس الـذي لا يرد ، وأمـر أنـه لا يـراجعـه فيهم إذا حل بهم ما يعـانيه من العـذاب العظيم ، الـذي قد حتمـه عليهم الفعال لما يريـد . كما قـدمنا بيـانه قبل .

والمراد بالتنـور عند الجمهـور وجه الأرض ، أي نبعت الأرض من سـائر أرجـائهـا حتى نبعت التنـانير التـي هي محـال النار . وعن ابن عبـاس : التنور عـين في الهند ، وعن الشعبي بـالكوفـة ، وعن قتادة بالجزيرة(١) .

وقـال علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه : المراد بـالتنـور فلق الصبح وتنـويـر الفجـر ، أي إشراقه وضياؤه . أي عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وهذا قول غريب(٢) .

وقوله تعـالى : ﴿ **حتى إذا جاء أمـرنا وفـار التنورقلنـا احمل فيهـا من كل زوجـين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ومـا آمن معه إلا قليـلٌ** ﴾(٣) هذا أمـر بأنـه عند حلول النقمـة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

وفي كتـاب أهل الكتـاب : أنه أمـر أن يحمل من كـل مـا يؤكـل سبعـة أزواج ، ومـا لا يؤكـل زوجين ذكر وأنثى .

وهذا مغاير لمفهوم قوله تعـالى في كتابنـا الحق : « اثنين » إن جعلنـا ذلك مفعـولاً به ، وأمـا إن جعلناه توكيداً لزوجين والمفعول به محذوف فلا ينافي . والله أعلم(٤)

وذكـر بعضهم ـ ويروى عن ابن عبـاس ـ : أن أول مـا دخـل من الـطيـور الـدرة ، وآخـر مـا دخل من الحيوانات الحمار . ودخل إبليس متعلقاً بذنب الحمار .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حـدثنا عبـد الله بن صالـح ، حدثني الليث ، حـدثني هشام ابن سعـد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيـه ، أن رسول الله ﷺ قـال : « لما حمـل نـوح في السفينـة من كـل زوجين اثـنين ، قال أصحـابه : وكيف نـطمئن ؟ أو كيف تطمئن المـواشي ومعنا الأسـد ؟ فسلط الله عليه الحمى ، فكانت أول حمى نـزلت في الأرض . ثم شكوا الفـأرة ، فقالـوا : الفويسقـة تفسد

---

(١) كما سبق وذكرنا ، كل هذا على وجه التقدير والظن فقط .

(٢) ونـظن أن هذا أقـرب للصواب والاشـراق والاضاءة هنـا قد تكـون من البروق والـرعود كمقـدمـة لهـطول الأمـطار وفيضـان الينابيع .

(٣) سورة هود الآية ٤٠ .

(٤) هـذا يستلزم أن حجمها كـان كبيراً جـداً ولذا قضى الأعـوام الطوال في صنعهـا إذ لم يساعـده أحـد أو إلا قليـل من الـذين آمنوا والله أعلم .

علينا طعامنا ومتاعنا . فأوحى الله إلى الأسد فعطس ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها». هذا مرسل (١) .

وقوله : ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول ﴾ .أي من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر ، فكان منهم ابنه « يام » الذي غرق كما سيأتي بيانه .

﴿ ومن آمن ﴾ أي واحمل فيها من آمن بك من أمتك . قال الله تعالى : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ، ودعوتهم الأكيدة ليلاً ونهاراً ، بضروب المقال ، وفنون التلطفات ، والتهديد والوعيد تارة ، والترغيب والوعد أخرى .

وقد اختلف العلماء في عدة من كان معه في السفينة :

فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً معهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة . وقيل : إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع بامرأة « يام » الذي انخذل وانعزل ، وتسلل (٢) عن طريق النجاة فما عدل إذ عدل .

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية ، بل هي نص في أنه قد ركب معه من غير أهله طائفة ممن آمن به ، كما قال : ﴿ ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ .

وقيل : كانوا سبعة .

وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم وهم : حام وسام ، ويافث ويام ، ويسميه أهل الكتاب كنعان (٣) وهو الذي غرق ، وعابر ، فقد ماتت قبل الطوفان ، وقيل أنها غرقت مع من غرق ، وكانت ممن سبق عليه القول لكفرها .

وعند أهل الكتاب أنها كانت في السفينة ، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك ، أو أنها أنظرت ليوم القيامة ، والظاهر الأول لقوله : ﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من

(١) هذا خبر ظاهر النكارة ، وليس من منطق النبوة لأن الله وحده سبحانه خالق الخلق لا عطسة الاسد ولا غير ذلك .

(٢) فر وترك طريق النجاة .

(٣) كيف يكون كنعان وقد غرق ومن أين جاء الكنعانيون ؟ إن هذا إلا باطل الاسرائيليات وعداوتهم لبني كنعان والعرب لاتهامهم بالكفر وأنهم وحدهم أصحاب الرسالات ، كذبوا وخابوا وساؤوا سبيلاً ، وكنعان كما هو معروف من أبناء سام .

القوم الظالمين * وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾(١) .

أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة ، فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه ، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه ، كما قال تعالى : **﴿ والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾**(٢) .

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور : أن يكون على الخير والبركة ، وأن تكون عاقبته محمودة ، كما قال تعالى لرسوله ﷺ حين هاجر : **﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدقٍ وأخرجني مخرج صدقٍ واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾**(٣) .

وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية وقال : **﴿ اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفورٌ رحيم ﴾**(٤). أي على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤه **﴿ إن ربي لغفورٌ رحيم ﴾** أي وذو عقاب أليم ، مع كونه غفوراً رحيماً ، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره .

قال الله تعالى : **﴿ وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ﴾**(٥) وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده ، كان كأفواه القرب ، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها . كما قال تعالى : **﴿ فدعا ربه إني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر * وحملناه على ذات ألواحٍ ودسرٍ ﴾** والدسر المسامير . **﴿ تجري بأعيننا ﴾** أي بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها **﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾**(٦)

وقد ذكر ابن جرير وغيره : أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حساب القبط .

وقال تعالى : **﴿ أنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾** أي السفينة **﴿ لنجعلها لكم تذكرةً وتعيها أُذنٌ واعيةٌ ﴾**(٧) .

قال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً ، وهو

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) سورة الزخرف الآيات ١٢ ـ ١٤ .

(٣) سورة الاسراء الآية ٨٠ .

(٤) سورة هود الآية ٤١ .

(٥) سورة هود الآية ٤٢ .

(٦) سورة القمر الآيات ١٠ ـ ١٤ .

(٧) سورة الحاقة الآيتان ١١ ، ١٢ .

الـذي عند أهـل الكتاب . وقيـل : ثمانـين ذراعـاً ، وعم جميـع الأرض طـولهـا والعـرض ، سهلهـا وحزنها ، وجبالها وقفارها ورمالهـا ، ولم يبق على وجـه الأرض ممن كان بهـا من الأحياء عـين تطرف ، ولا صغير ولا كبير .

قال الإمام مالك عن زيد بن أسلم : كان أهل ذلك الـزمان قـد ملأوا السهـل والجبل . وقـال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها مالك وحائز[١] . رواهما ابن أبي حاتم .

﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنـا ولا تكن مع الكـافرين * قـال سآوي إلى جبـلٍ يعصمني من الماء قـال لا عاصم اليـوم من أمر الله إلا من رحم وحـال بينهـما المـوج فكـان من المغرقين ﴾[٢] .

وهذا الابن هو « يام » أخو سـام ويافث ، وقيـل : اسمه كنعـان[٣] . وكان كـافراً عمـل عملاً غير صالح ، فخالف أبـاه في دينه ومـذهبه ، فهلك مـع من هلك . هذا وقـد نجا مـع أبيه الأجـانب في النسب ، لما كانوا موافقين في الدين والمذهب .

﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سـماء أقلعي وغيض الماء وقُضي الأمـر وآستوت عـلى الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾[٤] .

أي لما فرغ من أهـل الأرض ، ولما يبق بهـا احد ممن عبـد غير الله عـز وجل ، أمـر الله الأرض أن تبتلع ماءها ، وأمر السماء أن تقلع أي تمسـك عن المطر ،**﴿ وغـيـض المـاء ﴾** أي نقص عما كـان ، **﴿ وقضي الأمر ﴾** أي وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره ؛ من إحلاله بهم ما حل بهم .

﴿ وقـيـل بـعـداً للقوم الظالمين ﴾ أي نـودي عليهم بلسـان القـدرة : بعـداً لهم من الـرحمـة والمغفرة .

كما قال تعالى : **﴿ فكذبوه فأنجينـاه والذين معـه في الفلك وأغرقنـا الذين كـذبوا بـآياتنـا إنهم كانوا قوماً عمِين ﴾**[٥] .

وقال تعالى : **﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغـرقنا الـذين كذبـوا بآياتنا فأنظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾**[٦] .

---

(١) لعل المقصود الأرض المسكونة يومذاك .

(٢) سورة هود الآيتان ٤٣ ـ ٤٤ .

(٣) سبق قولنا في هذا الأمر وكونه من دس اليهود .

(٤) سورة هود الآية ٤٤ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٦٤ .

(٦) سورة يونس الآية ٧٣ .

وقال تعالى : ﴿ ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهم أجمعين ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آيةً للعالمين ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾[4] .

وقال : ﴿ ولقد تركناها آيةً فهل من مُدكرٍ * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكرٍ ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ مما خطيئآتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً * وقال نوحٌ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾[6] .

وقد استجاب الله تعالى ـ وله الحمد والمنة ـ دعوته ، فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من طريق يعقوب ابن محمد الزهري ، عن قائد مولى عبيدالله بن أبي رافع ، أن ابراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي ! » .

قال رسول الله ﷺ : « مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة ـ يعني إلا خمسين عاماً ـ وغرس مائة سنة الشجر ، فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم قطعها ثم جعلها سفينة ، ويمرون عليه ويسخرون منه ، ويقولون : تعمل سفينة في البر ؟ كيف تجري ؟ قال : سوف تعلمون .

فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً . وخرجت به الى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي ! » .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٧ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ١١٩ ـ ١٢٢ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ١٥ .

(٤) سورة الشعراء الآية ٦ .

(٥) سورة القمر الآيات ١٥ ـ ١٧ .

(٦) سورة نوح الآيات ٢٥ ـ ٢٧ .

وهذا حديث غريب . وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد ، شبيه لهذه القصة . وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفاً متلقى عن مثل كعب الأحبار[1] ، والله أعلم .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين ديارا .

فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق ـ ويقال ابن عناق ـ كان موجوداً قبلُ نوح الى زمان موسى ؟ ويقولون كان كافراً متمرداً جباراً عنيداً ؟ ويقولون : كان لغير رشدة ، بل ولدته أمه بنت آدم من زنا ، وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس[2] ، وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة : ما هذه القصعة التي لك ؟ ويستهزىء به . ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلثاً إلى غير ذلك من الهذيانات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس ، لما تعرضنا لحكايتها ، لسقاطتها وركاكتها . ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول .

أما المعقول : فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره ، وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان ، ولا يهلك عوج بن عنق ، ويقال عناق ، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا ؟

وكيف لا يرحم الله منهم أحداً ولا أم الصبي ولا الصبي ، ويترك هذا الدعي الجبار العنيد الفاجر ، الشديد الكافر ، الشيطان المريد على ما ذكروا .

وأما المنقول فقد قال الله تعالى : ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ وقال : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً** ﴾ .

ثم هذا الطول الذي ذكروه مخالف لما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿ **إن هو إلا وحيٌ يوحى** ﴾ أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، أي لم يزل الناس في نقصان في طولهم من آدم الى يوم إخباره بذلك وهلم جرا الى يوم القيامة . وهذا يقتضي أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه .

فكيف يترك هذا ويذهل عنه ، ويصار الى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب ، الذين بدلوا كتب الله المنزلة وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله ، أو يؤتمنون عليه ، وهم الخونة والكذبة ، عليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة ، وما

---

(١) ومن كان معها طالما لم يبق على الأرض عين تطرف ، هذه رواية من الإسرائيليات .

(٢) من الإسرائيليات .

أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقاً من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء . والله أعلم .

***

ثم ذكر الله تعالى مناشدة نوح ربه في ولده ، وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف .

ووجه السؤال : إنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق ؟

فأجيب بأنه ليس من أهلك ، أي الذين وعدت بنجاتهم ، أي إنا قلنا لك : ﴿ **وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم** ﴾ فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق بكفره ، ولهذا ساقته الأقدار الى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان ، فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان .

ثم قال تعالى : ﴿ **قيل يا نوح اهبط بسلامٍ منا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممن معك وأممٌ سنمتعهم ثم يمسهم منا عذابٌ أليمٌ** ﴾[1] .

هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض ، وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها ، أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي ، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور ، ﴿ **بسلامٍ منا وبركاتٍ** ﴾ أي اهبط سالماً مباركاً عليك ، وعلى أمم ممن سيولد بعد ، أي من أولادك ، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح عليه السلام . قال تعالى : ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾[2] . فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ، ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم : سام ، وحام ، ويافث .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة ، أن النبي ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » .

ورواه الترمذي عن بشر بن معاذ العقدي ، عن يزيد بن زريع ، عن سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة مرفوعاً نحوه .

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وقد روي عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ مثله . قال : والمراد بالروم هنا الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث

---

(١) سورة هود الآية ٤٨ .

(٢) سورة الصافات الآية ٧٧ .

ابن نوح عليه السلام .

ثم روي من حديث اسماعيل بن عياش ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : ولد نوح ثلاثة : سام ويافث وحام ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة ، فولد سام : العرب وفارس والروم . وولد يافث : الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج . وولد حام : القبط والسودان والبربر .

قلت : وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا ابراهيم بن هانيء ، وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قال : حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي ، حدثني أبي عن يحيى ابن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولد لنوح : سام وحام ويافث ، فولد لسام : العرب وفارس والروم والخير فيهم . وولد ليافث : يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم . وولد لحام : القبط والبربر والسودان » .

ثم قال : لا نعلم يروى مرفوعاً إلا من هذا الوجه . تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه ، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه . ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلاً ولم يسنده ، وإنما جعله من قول سعيد .

قلت : وهذا الذي ذكره أبو عمر ، هو المحفوظ عن سعيد قوله ، وهكذا روي عن وهب ابن منبه مثله والله أعلم . ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه .

وقد قيل أن نوحاً عليه السلام لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان ، وإنما ولد له قبل السفينة كنعان(١) الذي غرق ، وعابر مات قبل الطوفان .

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة . وقد ذكر أن « حاماً » واقع امرأته في السفينة ، فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته ، فولد له ولد أسود وهو كنعان(١) بن حام جد السودان . وقيل : بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه ، فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته ، وأن يكون أولاده عبيداً لأخوته(٢) .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير من طريق علي بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها . قال : فانطلق بهم حتى أتى الى كثيب من تراب ، فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه ، وقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا كعب بن حام بن

---

(١) سبقت ملاحظتنا حول كنعان .

(٢) احتار اليهود بكنعان لعداوتهم للكنعانيين فوصفوه بكل مثلبة وهذا دس محض منهم .

نوح . قال : وضـرب الكثيب بعصاه وقـال : قم بإذن الله ، فـإذا هو قـائم ينفض التراب عن رأسـه قـد شاب . فقـال لـه عيسى عليـه السـلام : هكـذا هلكت ؟ قـال : لا . ولكني مت وأنـا شـاب ، ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت .

قال : حدثنا عن سفينة نوح . قال : كـان طولهـا ألف ذراع ومائتي ذراع ، وعرضها ستمـائة ذراع ، وكـانت ثلاث طبقـات : فطبقـة فيها الـدواب والوحش ، وطبقـة فيها الأنس ، وطبقـة فيهـا الـطير . فلما كثر أرواث الـدواب أوحى الله عز وجـل إلى نوح عليـه السـلام أن أغمـز ذنب الفيـل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة ، فأقبلا على الروث . ولمـا وقع الفـأر يخرز السفينـة بقرضـه ، أوحى الله عز وجل الى نـوح عليه السـلام : أن اضرب بين عيني الأسـد ، فخرج من منخـره سنور وسنـورة فأقبلا على الفأر . فقال له عيسى : كيف علم نـوح عليه السـلام أن البلاد قـد غرقت ؟ قـال : بعث الغراب يأتيه بالخـبر فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت[1] .

قـال : ثم بعث الحمامـة فجاءت بـورق زيتون بمنقـارها وطـين بـرجلهـا ، فعلم أن البـلاد قـد غرقت فطوقها الخضرة التي في عنقها ، ودعا لهـا أن تكون في أنس وأمـان ، فمن ثم تألف البيـوت . قال : فقالـوا : يا رسـول الله ، ألا ننطلق بـه إلى أهلينا فيجلس معنـا ويحدثنـا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال : فقال له : عد بإذن الله . فعاد تراباً .

وهذا أثر غريب جداً .

وروى علبـاء بن أحمـر ، عن عكـرمـة ، عن ابن عبـاس ، قـال : كـان مـع نـوح في السفينـة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم ، وأنهم كانوا في السفينة مـائة وخمسـين يومـاً ، وإن الله وجه السفينـة الى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ، ثم وجههـا الى الجودي فـاستقرت عليـه ، فبعث نوح عليـه السلام الغـراب ليأتيه بخبر الأرض ، فـذهب فوقـع على الجيف فـأبطأ عليـه ، فبعث الحمامـة فأتتـه بـورق الزيتون ولطخت رجليها بـالطين ، فعـرف نوح أن المـاء قد نضب ، فهبط إلى أسفـل الجودي فـابتنى قرية وسماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم عـلى ثمانـين لغة ، احـداها العـربية . وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض ، فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

وقال قتادة وغيـره : ركبوا في السفينـة في اليوم العـاشر من شهر رجب ، فسـاروا مائـة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجـودي شهراً . وكـان خروجهم من السفينـة في يوم عـاشوراء من المحـرم . وقد روى ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا ، وأنهم صاموا يومهم ذلك .

وقـال الإمام أحمـد : حدثنـا أبـو جعفـر ، حـدثنـا عبـد الصمـد بن حبيب الأزدي ، عن أبيـه

---

(١) إنما الخلق من اختصاص الخالق وحده وقدرته وحده وهذا كله من أساطير الأولين .

حبيب بن عبد الله ، عن شبل ، عن أبي هريرة قال : مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا الصوم ؟ فقالوا : هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى وبني اسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون ، وهذا اليوم استوت فيه السفينة على الجودي ، فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل ، فقال النبي ﷺ : « أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم » وقال لأصحابه : « من كان منكم أصبح صائماً فليتم صومه ، ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه » .

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر ، والمستغرب ذكر نوح أيضاً . والله أعلم .

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ، ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها ، وطحنوا الحبوب يومئذٍ ، واكتحلوا بالأثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا في ظلمة السفينة ، فكل هذا لا يصح فيه شيء ، وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بني اسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها . والله أعلم .

وقال محمد بن اسحاق : لما أراد الله أن يكف ذلك الطوفان ، أرسل ريحاً على وجه الأرض ، فسكن الماء وأنسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر ، وكان استواء الفلك ـ فيما يزعم أهل التوراة ـ في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه . وفي أول يوم من الشهر العاشر رئيت رؤوس الجبال . فلما مضي بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع اليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعاً ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع ، فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة ، فعلم نوح ان الماء قد قل عن وجه الأرض . ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين ، برز وجه الأرض ، وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك .

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التي بأيدي أهل الكتاب[1] .

وقال ابن إسحاق : وفي الشهر الثاني من سنة اثنين في ست وعشرين ليلة منه ﴿ **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ .

وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحاً قائلاً له : اخرج من الفلك انت وامرأتك وبنوك

---

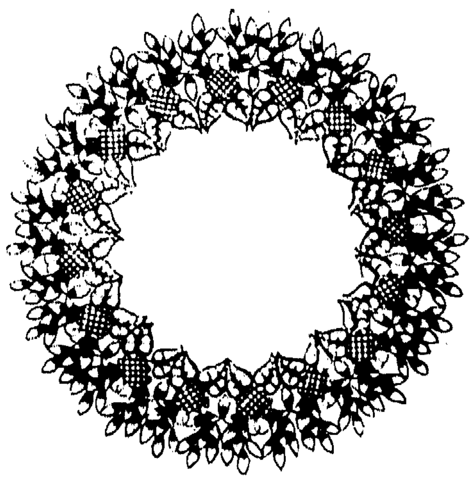
(١) فيما يرويه ابن اسحاق الكثير من الاسرائيليات والله أعلم .

ونساء بنيك معك ، وجميع الـدواب التي معك ، ولينمـوا وليكثروا في الأرض . فخـرجوا وابتنى نـوح مذبحاً لله عز وجل وأخـذ من جميع الـدواب الحلال والـطير الحلال فـذبحها قـربانـاً الى الله عز وجـل وعهد الله إليه أن لا يعيـد الطوفـان على أهـل الأرض . وجعل تـذكاراً لميثـاقه إليـه القوس الـذي في الغمام ، وهو قوس قزح الذي روي عن ابن عباس أنـه أمان من الغـرق . قال بعضهم : فيـه اشارة الى أنه قوس بلا وتر ، أي أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة .

وقـد أنكرت طـائفة من جهلة الفـرس وأهل الهند وقوع الـطوفان ، واعتـرف به آخـرون منهم وقالوا : إنما كان بـأرض بابـل ولم يصل إلينـا . قالـوا : ولم نزل نتـوارث الملك كابـراً عن كابـر ، من لدن كيومرث ـ يعنون آدم ـ إلى زماننا هذا .

وهذا قاله من قالـه من زنادقـة المجوس عبـاد النيران ، وأتبـاع الشيطان . وهـذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ، ومكابرة للمحسوسات ، وتكذيب لرب الأرض والسماوات .

وقـد أجمع أهـل الأديـان النـاقلون عن رسـل الـرحمن ، مـع مـا تـواتـر عنـد النـاس في سـائـر الأزمان ، على وقوع الطوفان ، وأنه عم جميـع البلاد ، ولم يبق الله أحـداً من كفرة العبـاد ؛ إستجابـة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم ، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم .



ذكر شيء من أخبار نوح عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾[1] . قيل : إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو أسامة ، حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها » .

وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبي أسامة .

والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية ؛ فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

* * *

ذكر صومه عليه السلام

وقال ابن ماجه :(باب صيام نوح عليه السلام) : حدثنا سهل بن أبي سهل حدثنا سعيد بن أبي مريم ، عن ابن لهيعة ، عن جعفر بن ربيعة ، عن أبي فراس ، أنه سمع عبدالله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى » .

وهكذا رواه ابن ماجه عن طريق عبدالله بن لهيعة باسناده ولفظه .

(١) سورة الاسراء الآية ٣

وقد قال الطبراني : حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج ، حدثنا عمر بن خالد الحراني ، حدثنا ابن لهيعة ، عن أبي قتادة ، عن يزيد عن رباح أبي فراس ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى ، وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر » .

ذكر حجه عليه السلام

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبي ، عن زمعة ـ هو ابن أبي صالح ـ عن سلمة بن دهران ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادي عسفان قال : « يا أبا بكر أي وادٍ هذا ؟ » قال : هذا وادي عسفان قال ﷺ : « لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكران لهم حمر خطمهم الليف ، أزرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق » . فيه غرابة .

***

ذكر وصيته لولده عليه السلام

قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن الصقعب بن زهير ، عن زيد بن أسلم ، قال حماد : أظنه عن عطاء بن يسار ، عن عبدالله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيجان مزرورة بالديباج فقال : « ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس ، و قال : يريد أن يضع كل فارس ابن فارس ، ورفع كل راعٍ ابن راع » . قال : فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته وقال : « ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ! » ثم قال : « إن نبي الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك وصية ؛ آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله . ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله ، وبسبحان الله وبحمده . فإن بها صلات كل شيء ، وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن الشرك والكبر » قال : قلت ـ أو قيل ـ يا رسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر ؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ قال : « لا » قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال ﷺ : « لا » قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ قال ﷺ : « لا » . قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال: « لا » ، قلت ـ أو قيل ـ : يا رسول الله فما الكبر ؟ قال ﷺ : « سفه الحق وغمط الناس »[1] .

---

(١) غمط الناس : تنقصهم واحتقارهم .

وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « كان في وصية نوح لابنه : أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين » فذكر نحوه .

وقد رواه أبو بكر البزار عن ابراهيم بن سعيد ، عن أبي معاوية الضرير عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن دينار ، عن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، عن النبي ﷺ بنحوه . والظاهر أنه عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، كما رواه أحمد والطبراني ، والله أعلم .

ويزعم أهل الكتاب أن نوحاً عليه السلام لما ركب في السفينة كان عمره ستمائة سنة . وقدمنا عن ابن عباس مثله ، وزاد : وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة ، وفي هذا القول نظر . ثم إن لم يكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض . فإن القرآن يقتضي أن نوحاً مكث في قومه بعد البعثة وقبل الطوفان ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك ؟

فإن كان ما ذكر محفوظاً عن ابن عباس ـ من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ـ فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

وأما قبره عليه السلام : فروى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سابط أو غيره من التابعين مرسلاً ، أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام .

وهذا أقوى وأثبت من الذي يذكره كثير من المتأخرين ، من أنه ببلدة بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح ، وهناك جامع قد بني بسبب ذلك فيما ذكر . والله أعلم[1] .

* * *

---

(١) القرية المذكورة ما تزال موجودة إلى اليوم والقبر ما زال على حاله ، وإن كان المسجد المقام قد أصابه القدم وتحول الى مقام ومزار فقط . إذ أقيم جامع آخر غير بعيد عنه ، والقرية تابعة لمدينة زحلة في لبنان ولا تبعد عنها أكثر من ألفي متر وقد زرنا المقام المذكور فوجدنا القبر يزيد عن خمسة أمتار وأهل القرية يقولون أن القبر هو لكرك بن نوح وليس لنوح عليه السلام والله أعلم .

قصة هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

ويقال أن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، ويقال : هود بن عبدالله ابن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام . ذكره ابن جرير .

وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوص بن سام بن نوح . وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف ـ وهي جبال الرمل ـ وكانت باليمن بين عُمان وحضرموت ، بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر ، واسم واديهم مغيث .

وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ * إرم ذات العمادِ** ﴾ أي عاد ارم وهم عاد الأولى . وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتي بيان ذلك في موضعه . وأما عاد الأولى فهم عاد ﴿ **إرم ذات العِمادِ * التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾[1] أي مثل القبيلة ، وقيل : مثل العمد . والصحيح الأول كما بيناه في التفسير .

ومن زعم أن « أرم » مدينة تدور في الأرض ، فتارة في الشام ، وتارة في اليمن وتارة في الحجاز ، وتارة في غيرها ، فقد أبعد النجعة ، وقال ما لا دليل عليه ، ولا برهان يعول عليه ، ولا مستند يركن إليه .

وفي صحيح ابن حبان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه : « منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك يا أبا ذر » .

ويقال أن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية . وزعم وهب بن منبه : أن أباه أول من تكلم بها . وقال غيره : أول من تكلم بها نوح . وقيل : آدم وهو الأشبه ، وقيل غير ذلك . والله أعلم .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام ، العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة ، منهم : عاد ، وثمود ، وجرهم ، وطسم ، وجديس ، وأميم ، ومدين ، وعملاق ، وعبيل ، وجاسم ، وقحطان ، وبنو يقطن ، وغيرهم .

(١) سورة الفجر الآيتان ٧ ، ٨ .

وأما العرب المستعربة فهم من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل . وكان اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى ، ولكن أنطقه الله بها في غاية الفصاحة والبيان . وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ .

والمقصود أن عاداً ـ وهم عاد الأولى ـ كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وكانت أصنامهم ثلاثة : صد ، وصمودا ، وهرا .

فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح ، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بي سفاهةٌ ولكني رسولٌ من رب العالمين * أُبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصحٌ أمينٌ * أوعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوحٍ وزادكم في الخلق بسطةً فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجسٌ وغضبٌ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزَّل الله بها من سلطانٍ فانتظروا إني معكم من المنتظرين * فأنجيناه والذين معه برحمةٍ منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾[1] .

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره إن أنتم إلا مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلَّا على الذي فطرني أفلا تعقلون * ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولَّوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئتنا ببينةٍ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا أعتراك بعض آلهتنا بسوءٍ قال إني أُشهد الله واشهدوا أني بريءٌ مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها إن ربي على صِراطٍ مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أُرسلت به إليكم ويَستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظٌ * ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا ونجيناهم من عذابٍ غليظٍ * وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كُلِّ جبارٍ عنيدٍ * وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بُعداً لعادٍ قوم هودٍ ﴾[2] .

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٦٥ ـ ٧٢ .

(٢) سورة هود الآيات ٥٠ ـ ٦٠ .

وقال تعالى في سورة « قد أفلح المؤمنون » بعد قصة قوم نـوح : ﴿ ثم أنشأنـا من بعدهم قـرناً آخـرين * فأرسلنـا فيهم رسولاً منهم أن آعبـدوا الله ما لكم من إلـهٍ غيره أفـلا تتقون * وقـال المـلأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأتـرفناهم في الحيـاة الدنيـا ما هـذا إلا بشرٌ مثلكم يأكـل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربـون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخـاسرون * أيعـدكم أنكم إذا مِتُّمْ وكنتم تراباً وعِظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعـدون * إن هي إلا حياتنـا الدنيـا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجـلٌ آفترى عـلى الله كذبـاً وما نحن لـه بمؤمنين * قـال ربِّ آنصرني بما كذَّبونِ * قال عمَّا قليلٍ ليصبحُنَّ نادمين * فأخـذتهم الصيحة بـالحق فجعلناهم غثـاءً فبُعداً للقوم الظالمين ﴾[١] .

وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضـاً : ﴿ كذبت عـادُ المرسلين * إذ قـال لهم أخوهم هودٌ ألا تتقون * إني لكم رسولٌ أمـينٌ * فاتقـوا الله وأطيعون * ومـا أسألكم عليـه أجراً إن أجري إلا على ربِّ العالمين * أتبنـون بكل ريـعٍ آيةً تعبثـون * وتتخذون مصـانع لعلكم تخلدون * وإذا بـطشتم بطشتم جبـارين * فاتقـوا الله وأطيعونِ * وآتَّقـوا الذي أمـدكم بما تعلمـون * أمـدكم بأنعامٍ وبنين * وجناتٍ وعيونٍ * إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيمٍ * قالـوا سواءٌ علينـا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هـذا إلا خلق الأولين * ومـا نحن بمعذبـين * فكذبـوه فأهلكنـاهم إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٢] .

وقـال تعالى في سـورة حم السجدة : ﴿ فـأمَّا عـاد فـآستكبـروا في الأرض بغـير الحق وقـالـوا من أشد منا قوةً أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قـوةً وكانـوا بآيـاتنا يجحـدون * فأرسلنـا عليهم ريحـاً صرصـراً في أيامٍ نحسـاتٍ لنذيقهم عـذاب الخـزي في الحيـاة الـدنيـا ولعـذاب الآخـرة أخزىٰ وهم لا ينصرون ﴾[٣] .

وقال تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ وآذكـر أخا عـادٍ إذ أنذر قـومه بـالأحقاف وقـد خلت النذر من بـين يديـه ومن خلفه ألا تعبـدوا إلا الله إني أخاف عليكم عـذاب يـومٍ عـظيمٍ * قـالـوا أجئتنـا لتـأفكنا عن آلهتنـا فأتنـا بمـا تعـدنـا إن كنت من الصـادقـين * قـال إنمـا العلم عنـد الله وأُبلغكم مـا أُرسـلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضاً مُستقبل أوديتهم قـالوا هـذا عارضٌ ممطرنا بـل هو مـا آستعجلتم به ريحٌ فيها عـذابٌ أليمٌ * تُدمـر كل شيء بـأمر ربهـا فأصبحـوا لا يـرى إلا

(١) سورة المؤمنون الآيات ٣١ ـ ٤١ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٢٣ ـ ١٤٠ .

(٣) سورة فصلت الآيتان : ١٥ ١٦ .

مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾[1] .

وقال تعالى في الذاريات : ﴿ وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾[2] .

وقال تعالى في النجم : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى * وثموداً فما أبقى * وقوم نوحٍ من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأي آلاءِ ربك تتمارىٰ ﴾[3] .

وقال تعالى في سورة اقتربت : ﴿ كذبت عادٌ فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمرٍ * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخلٍ منقعرٍ * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدكرٍ ﴾[4] .

وقال في الحاقة : ﴿ وأما عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ * سخرَّها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً فترى القوم فيها صرعىٰ كأنهم أعجاز نخلٍ خاويةٍ * فهل ترى لهم من باقيةٍ ﴾[5] .

وقال في سورة الفجر : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ * إرم ذات العماد * التي لم يخلقُ مثلها في البلادِ * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد ﴾[6] .

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة[7] وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة ص ، وفي سورة ق[8] .

ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه السياقات ، مع ما يضاف الى ذلك من الأخبار .

---

(١) سورة الأحقاف الآيات ٢١ ـ ٢٥ .

(٢) سورة الذاريات الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(٣) سورة النجم الآيات ٥٠ ـ ٥٥ .

(٤) سورة القمر الآيات ١٨ ـ ٢٢ .

(٥) سورة الحاقة الآيات ٦ ـ ٨ .

(٦) سورة الفجر الآيات ٦ ـ ١٤

(٧) هي سورة التوبة .

(٨) في سورة التوبة ٧٠ ، وإبراهيم ٩ ، الفرقان ٣٨ ، والعنكبوت ٣٨ ، وص ١٢ ، وق ١٣

وقد قدمنا أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان . وذلك بين في قوله لهم : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوحٍ وزادكم في الخلق بسطةً** ﴾[١] . أي جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش . وقال في سورة المؤمنون : ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين** ﴾[٢] . وهم قوم هود على الصحيح .

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله : ﴿ **فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء** ﴾[٣] . قالوا : وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة ﴿ **وأما عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ** ﴾[٤] . وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة ، فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات . ثم لا خلاف أن عاداً قبل ثمود .

والمقصود أن عاداً كانوا جفاة كافرين ، عتاة متمردين في عبادة الأصنام ، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والاخلاص له ، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة ، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة ﴿ **قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهةٍ** ﴾[٥] . أي هذا الأمر الذي تدعونا اليه سفه بالنسبة الى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك .

﴿ **قال يا قوم ليس بي سفاهةٌ ولكني رسولٌ من رب العالمين** ﴾ ، أي ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون ﴿ **أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصحٌ أمينٌ** ﴾[٦] ، والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه ، ويستلزم أداءه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب .

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم ، والحرص على هدايتهم ، لا يبتغي منهم أجراً ، ولا يطلب منهم جعلاً ؛ بل هو مخلص لله عز وجل في الدعوة إليه ، والنصح لخلقه ، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله ، فإن خير الدنيا والآخرة كله في

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٣١ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ٤١ .

(٤) سورة الحاقة الآية ٦ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٦٦ .

(٦) سورة الأعراف الآيتان ٦٧ ، ٦٨

يـديـه ، وأمـره إليـه ، ولهـذا قـال : ﴿ **يـا قـوم لا أسـألكم عليـه أجـراً إن أجـري إلا عـلى الـذي فطرني أفلا تعقلون** ﴾[1] ، أي أما لكم عقل تميزون به وتفهمون أني أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فـطركم التي خلقتم عليها ، وهـو دين الحق الذي بعث الله بـه نوحـاً وهلك من خـالفـه من الخلق . وها أنا أدعـوكم ولا أسألكم أجـراً عليه ، بـل ابتغي ذلك عنـد الله مالـك الضر والنفع . ولهـذا قال مؤمن « يس » : ﴿ **اتبعـوا من لا يسألكم أجـراً وهم مهتدون * ومـا لي لا أعبد الـذي فطرني وإليـه ترجعون** ﴾[2] .

وقال قوم هود له فيما قالوا : ﴿ **قالوا يا هـود ما جئتنـا ببينةٍ ومـا نحن بتاركي آلهتنـا عن قولـك وما نحن لك بمؤمنين * ان نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾[3] . يقولون : ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به ، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قـولك ؛ بـلا دليل أقمتـه ولا برهان نصبته ، وما نظن إلا أنك مجنـون فيما تـزعمه . وعنـدنا أنـه إنما أصـابك هـذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنـون بسبب ذلك . وهـو قولهم : ﴿ **إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ﴾ .

﴿ **قـال إني أشهـد الله واشهـدوا أني بـريء ممـا تشـركـون * من دونـه فكيـدوني جميعـاً ثم لا تنظرون** ﴾[4]

وهـذا تحدٍ منه لهم ، وتبرأ من آلهتهم وتنقص منه لهـا ، وبيـان أنها لا تنفـع شيئـاً ولا تضر ، وأنها جمـاد حكمـها حكمـه وفعلها فعله . فـإن كانت كـما تزعمـون من أنها تنصر وتنفع وتضر فهـا أنا بريء منها لاعن لها ﴿ **فكيدوني جميعاً ثم لا تنظـرون** ﴾ أنتم جميعـاً بجميع مـا يمكنكم أن تصلوا اليه وتقـدروا عليه ، ولا تؤخـروني ساعـة واحدة ولا طـرفة عـين فإني لا أبـالي بكم ولا أفكر فيكم ، ولا أنـظر إليكم . ﴿ **إني توكلت عـلى الله ربي وربكم مـا من دابـةٍ إلا هـو آخـذٌ بنـاصيتهـا إن ربي عـلى صراط مستقيمٍ** ﴾[5] أي أنا متـوكل عـلى الله ومتأيـد به ، وواثق بجنـابه الـذي لا يضيع من لاذ بـه واستند إليه ، فلست أُبالي مخلوقاً سواه ، لست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه .

وهذا وحده برهان قاطع على أن هوداً عبد الله ورسولـه ، وأنهم على جهـل وضلال في عبـادتهم غـير الله ؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسـوء ولا نالـوا منه مكـروهـاً . فـدل عـلى صـدقـه فيـما جـاءهم بـه ، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا اليه .

---

(١) سورة هود الآية ٥١ .

(٢) سورة يس الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة هود الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .

(٤) سورة هود الآيتان ٥٤ ، ٥٥

(٥) سورة هود الآية ٥٦ .

وهـذا الدليـل بعينه قـد استدل بـه نوح عليـه السلام قبله في قـوله : ﴿ يـا قـوم إن كـان كبـر عليكم مقـامي وتذكيـري بآيـات الله فعلى الله تـوكلت فأجمعـوا أمركم وشـركاءكم ثم لا يكن أمـركم عليكم غمة ثم اقضوا إليَّ ولا تنظرون ﴾(١) .

وهكذا قال الخليـل عليه السـلام : ﴿ ولا أخاف مـا تشركـون به إلا أن يشـاء ربي شيئاً وسـع ربِّي كـل شيءٍ علماً أفلا تتـذكرون * وكيف أخـاف ما أشـركتم ولا تخافـون أنكم أشركتم بـالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بـالأمن إن كنتم تعلمون * الـذين آمنوا ولم يلبسـوا إيمانهم بظلـم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومـه نرفـع درجاتٍ من نشـاء إن ربك حكيمٌ عليمٌ ﴾(٢) .

﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكـذبوا بلقـاء الآخرة وأتـرفناهم في الحيـاة الدنيـا ما هـذا إلا بشرٌ مثلكم يـأكل ممـا تـأكلون منـه ويشـرب ممـا تشـربـون * ولئن أطعتم بشـراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً إنكم مُخرجون ﴾(٣) .

استبعـدوا أن يبعث الله رسولاً بشـرياً . وهـذه الشبهـة أدلى بهـا كثـير من جهلة الكفـرة قـديمـاً وحديثاً ، كما قال تعـالى : ﴿ أكان للنـاس عجباً أن أوحينـا إلى رجلٍ منهم أن أنـذر الناس ﴾(٤) . وقـال تعالى : ﴿ ومـا منع النـاس أن يؤمنوا إذ جـاءهم الهدى إلا أن قـالوا أبعث الله بشـراً رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾(٥)

ولهـذا قال لهم هـود عليه السـلام : ﴿ أوَعجبتم أن جاءكم ذكـرٌ من ربكم عـلى رجـلٍ منكم لينذركم ﴾(٦) أي ليس هذا بعجيب ؛ فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقـوله : ﴿ أيعـدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظامـاً انكم مخرجـون * هيهـات هيهـات لمـا توعدون * إن هي إلا حياتنا الـدنيا نمـوت ونحيا ومـا نحن بمبعوثـين * إن هو إلا رجـل افترى عـلى الله كذباً ومـا نحن له بمؤمنـين * قال ربي انصـرني بما كـذبون ﴾(٧) . استبعـدوا الميعاد وأنكـروا قيام

---

(١) سورة يونس الآية ٧١ .
(٢) سورة الأنعام الآيات ٨٠ ـ ٨٣ .
(٣) سورة المؤمنون الآيات ٣٣ ـ ٣٥ .
(٤) سورة يونس الآية ٢ .
(٥) سورة الإسراء الآيتان ٩٤ ، ٩٥ .
(٦) سورة الأعراف الآية ٦٣ .
(٧) سورة المؤمنون الآيات ٣٥ ـ ٣٩ .

الأجساد بعد صيرورتها تراباً وعظاماً ، وقالوا : ﴿ هيهات هيهات ﴾ ، أي بعيد بعيد هذا الوعد ، ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ أي يموت قوم ويحيا آخرون . وهذا هو اعتقاد الدهرية ، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة : أرحام تدفع وأرض تبلع .

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون الى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة .

وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال ، وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل ، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون ، كما قال تعالى : ﴿ ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾[1] .

وقال لهم فيما وعظهم به : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾[2] . يقول لهم : أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها ، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه ، وما ذاك إلا لأنهم يسكنون الخيام ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * ارم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾[3] فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام[4] .

ومن زعم أن « إرم » مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل في البلاد ، فقد غلط وأخطأ ، وقال ما لا دليل عليه .

وقوله : ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ قيل : هي القصور ، وقيل : بروج الحمام ، وقيل : مآخذ الماء : ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ أي رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدور أعماراً طويلة ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[5] .

وقالوا له مما قالوا : ﴿ أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فآتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾[6] أي أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه ؟ فإن كنت صادقاً فيما جئت به فآتنا بما تعدنا من العذاب والنكال ، فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك . . .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١٣ .

(٢) سورة الشعراء الآيتان ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٣) سورة الفجر الآيات ٦ ـ ٨ .

(٤) لعل ذلك خطأ من النقلة والأصل يسكنون الخيام التي تحمل أو تحملها الأعمدة وقد يكون القصد المباني العالية التي حفروها في الصخور وجعلوها على مداخلها : ستاراً كأنها الخيام والله أعلم .

(٥) سورة الشعراء الآيات ١٣٠ ـ ١٣٥ .

(٦) سورة الاعراف الآية ٧٠ .

كما قالوا : ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين ﴾[١] . أما على قراءة فتح الخاء[٢] ، فالمراد به اختلاق الأولين ، أي أن هذا الذي جئت به إلا اختلاق منك ، أخذته من كتب الأولين . هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين . وأما على قراءة ضم الخاء واللام ـ فالمراد به الدين ، أي أن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الآباء والأجداد من الأسلاف ، ولن نتحول عنه ولا نتغير ، ولانزال متمسكين به .

ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ .

قال : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجسٌ وغضبٌ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطانٍ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾[٣] . أي قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله ، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم ؟ اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ، ما نزل الله بها من سلطان . أي لم ينزل على ما ذهبتم اليه دليلاً ولا برهاناً . وإذ أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل ، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا ، فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم ، وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد .

* * *

وقال تعالى : ﴿ قال رب انصرني بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعداً للقوم الظالمين ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾[٥] .

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٣٦ ـ ١٣٨ .

(٢) إذا تليت خلق بضم الخاء فهذا بمعنى عادة من سبقهم وانتقل اليهم وإذا تليت بفتح الخاء فهو على ما يذكر المؤلف

(٣) سورة الأعراف الآية ٧١ .

(٤) سورة المؤمنون الآيات ٣٩ ـ ٤١ .

(٥) سورة الأحقاف الآيات ٢٢ ـ ٢٥ .

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً ، كقوله : ﴿ **فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين** ﴾(١) .

وكقوله : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظٍ * وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبارٍ عنيدٍ * وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا آن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود** ﴾(٢) .

وكقوله : ﴿ **فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعداً للقوم الظالمين** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾(٤) .

وأما تفصيل إهلاكهم فكما قال تعالى : ﴿ **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ** ﴾(٥) . كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب ، أنهم كانوا ممحلين مسنتين(٦) ، فطلبوا السقيا فرأوا عارضاً في السماء وظنوه سقيا رحمة ، فإذا هو سقيا عذاب . ولهذا قال تعالى : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به** ﴾ أي من وقوع العذاب وهو قولهم : ﴿ **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾(٧) . ومثلها في الأعراف(٨).

وقد ذكر المفسرون وغيرهم ها هنا الخبر الذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار قال : فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل ، أمسك عنهم القطر ثلاث سنين ، حتى جهدهم ذلك ، قال : وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان فطلبوا من الله الفرج منه إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته . وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان ، وبه العماليق مقيمون ، وهم من سلالة عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال أنه معاوية بن بكر ، وكانت أمه من قوم عاد واسمها جلهدة ابنة الخيبري . قال : فبعث عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستسقوا لهم عند الحرم ، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة ، فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً ، يشربون الخمر ،

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٢ .

(٢) سورة هود الآيات ٥٨ ـ ٦٠ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ٤١ .

(٤) سورة الشعراء الآيتان ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٥) سورة الأحقاف الآية ٢٤ .

(٦) كانت سنتهم سنة محل وقحط وجفاف .

(٧) سورة هود الآية ٣٢ .

(٨) سورة الأعراف الآية ٧٠ .

وتغنيهم الجرادتان ، قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا اليه في شهر . فلما طال مقامهم عنده ، وأخذته شفقة على قومه ، واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف ، عمل شعراً يعرض لهم فيه بالانصراف ، وأمر القينتين أن تغنيهم به ، فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يمنحنا غماما
فيسقي أرض عاد ان عاداً ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش يأتيهم جهاراً ... ولا يخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم ها هنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما (١)

قال : فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له ، فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم ، فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز ، فأنشأ الله سحابات ثلاثاً : بيضاء وحمراء وسوداء ، ثم ناداه منادٍ من السماء : اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب ، فقال : اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء ، فناداه منادٍ : اخترت رماداً رمدداً ، لا تبقي من عاد أحداً ، لا والداً يترك ولا ولداً إلا جعلته همداً إلا بني اللوذية الهمدا . قال : وهم بطن من عاد كانوا مقيمين بمكة ، فلم يصبهم ما أصاب قومهم . قال : ومن بقي من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة .

قال : وساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد ، حتى تخرج عليهم من وادٍ يقال له المغيث ، فلما رأوها استبشروا ، وقالوا : هذا عارض ممطرنا ، فيقول تعالى : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ * تدمر كل شيء بأمر ربها** ﴾ أي تهلك كل شيء أُمرت به(٢) .

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيها يذكرون امرأة من عاد يقال لها « مهد » ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت . فلما أفاقت قالوا : ما رأيت يا مهد ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها ، فسخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ،

---

(١) لا ندري من أين جاء الراوي بهذا الشعر الذي يناسب المقام حرفياً وبلغة قريش مع أن لغة العرب في ذلك الحين لم تكن هي اللغة كما وصلت الينا .

(٢) إذا كان الأمر كذلك فإن الصدفة والاختيار هو الذي حمل اليهم الدمار وهذا غير صحيح لأن ما أصابهم كانت جزاء وفاقاً وبناء على ما فعلوه وما أنكروه من رسالة هود عليه السلام والنص القرآني واضح وما هذه القصص إلا من وضع المتأخرين .

والحسوم الدائمة ؛ فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك .

قال : واعتزل هود عليه السلام - فيما ذكر لي - في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود ، وتلذ الأنفس ، وأنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة . وذكر تمام القصة .

وقد روى الإمام أحمد حديثاً في مسنده يشبه هذه القصة فقال : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي ، حدثنا عاصم بن أبي النجود ، عن أبي وائل ، عن الحارب - وهو ابن حسان - ويقال ابن زيد البكري ، قال : خرجت أشكو العلاء ابن الحضرمي الى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة ، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة ، فهل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً .

قال : فجلست ، قال : فدخل منزله - أو قال رحله - فاستأذنت عليه فأذن لي ، فدخلت ، فسلمت فقال : « هل كان بينكم وبين بني تميم شيء ؟ » فقلت : نعم . وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها إليك ، وها هي بالباب . فأذن لها فدخلت ،فقلت :يا رسول الله ، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً ، فاجعل الدهناء ، فإنها كانت لنا ، قال : فحميت العجوز واستوفزت وقالت : يا رسول الله ، فإلى أين يضطر مضطرك ؟ قال : فقلت : إن مثلي ما قال الأول : « معزى حملت حتفها » حملت هذه الأمة ولا أشعر أنها كانت لي خصماً ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ، قال : هيه وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث مني ولكن يستطعمه . قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قيل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر خرج الى جبال تهامة ، فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أجيء الى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه . فمرت به سحابات سود . فنودي منها : اختر . فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها : خذها رماداً رمدداً ، لا تبقي من عاد أحداً . قال : فما بلغني أنه بعث عليهم من الريح إلا كقدر ما يجري في خاتمي هذا من الريح حتى هلكوا .

قال أبو وائل : وصدق ، وكانت المرأة والرجل إذا بعثا وافداً لهما قالا : لا تكن كوافد عاد .

وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد ، عن زيد بن الحباب به . ورواه النسائي من حديث سلام أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة ، ومن طريقه رواه ابن ماجة . وهكذا أورد هذا الحديث وهذه القصة عند تفسير هذه القصة غير واحد من المفسرين كابن جرير وغيره .

وقد يكون هذا السياق لاهلاك عاد الآخرة ؛ فإن فيما ذكره ابن اسحاق وغيره ذكر لمكة ، ولم

تبن إلا بعد ابراهيم الخليل ، حين أسكن فيها هاجر وابنه اسماعيل فنزلت جرهم عندهم كما سيأتي وعاد الأولى قبل الخليل ، وفيه ذكر معاوية بن بكر وشعره ، وهو من الشعر المتأخر عن زمان عاد الأولى ، ولا يشبه كلامه المتقدمين . وفيه أن في تلك السحابة شرر نار ، وعاد الأولى إنما أهلكوا بريح صرصر . وقد قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين : هي الباردة ، والعاتية الشديد الهبوب .

﴿ **سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً** ﴾(١) أي كوامل متتابعات . قيل : كان أولها الجمعة ، وقيل : الأربعاء .

﴿ **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾(٢) شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها ، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ؛ ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس ، كما قال : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمرٍ** ﴾(٣) أي في يوم نحس عليهم ، مستمر عذابه عليهم .

﴿ **تنزع الناس كأنهم أعجاز نخلٍ منقعرٍ** ﴾(٤)، ومن قال أن اليوم النحس المستمر هويوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم ، فقد أخطأ وخالف القرآن ؛ فإنه قال في الآية الأخرى : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيامٍ نحساتٍ** ﴾ ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات ، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة ، وهذا لا يقوله أحد ، وإنما المراد في أيام نحسات ، أي عليهم .

وقال تعالى : ﴿ **وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** ﴾(٥) أي التي لا تنتج خيراً ، فإن الريح المفردة لا تثير سحاباً ولا تلقح شجراً ، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها ، ولهذا قال : ﴿ **ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾(٦) أي كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية .

وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » .

وأما قوله تعالى : ﴿ **واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين**

(١) سورة الحاقة الآية ٧ .

(٢) سورة القمر الآية ١٩ .

(٣) سورة القمر الآية ٢٠ .

(٤) سورة فصلت الآية ١٦ .

(٥) سورة الذاريات الآية ٤١ .

(٦) سورة الذاريات الآية ٤٢ .

يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[١] فالظاهر أن عاداً هـذه هي عاد الأولى ؛ فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية . ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتي من الحديث عن عائشة رضي الله عنها .

وأما قوله : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا ﴾ فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشيء في الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر ، فإذا هو سحاب عذاب . اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر . قال الله تعالى : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ أي من العذاب ، ثم فسره بقوله : ﴿ ريح فيها عذاب أليم ﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب ، التي استمرت عليهم سبع ليالٍ بأيامها الثمانية فلم تبق منهم أحداً ، بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم ، وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة ، فكما منوا بشدتهم وبقوتهم وقالوا : من أشد منا قوة ؟ سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة ، وأقدر عليهم ، وهو الريح العقيم .

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ، ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم ، فأرسلها الله عليهم شرراً وناراً ، كما ذكره غير واحد . ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين ، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار ، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة ، مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون[٢] . والله أعلم .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس . حدثنا ابن فضيل عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح التي أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد ، الريح وما فيها ﴿ قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة » .

وقد رواه الطبراني عن عبدان بن أحمد ، عن اسماعيل بن زكريا الكوفي ، عن أبي مالك ، عن مسلم الملائي ، عن مجاهد وسعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فتح الله على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ، ثم أرسلت عليهم البدو الى الحضر ، فلما رآها أهل الحضر قالوا : هذا عارض ممطرنا مستقبل أوديتنا . وكان أهل البوادي فيها ، فألقي أهل البادية على أهل الحاضرة حتى هلكوا » .

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٢١ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٤١ . ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء ﴾ .

قال : عتت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب . قلت : وقال غيره : خرجت بغير حساب .

والمقصود أن هذا الحديث في رفعه نظر . ثم اختلف فيه على مسلم الملائي ، وفيه نوع اضطراب والله أعلم .

وظاهر الآية أنهم رأوا عارضاً والمفهوم منه لغة السحاب ، كما دل عليه حديث الحارث بن حسان البكري ، إن جعلناه مفسراً لهذه القصة .

وأصرح منه في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه حيث قال : حدثنا أبو بكر الطاهر ، حدثنا ابن وهب قال : سمعت ابن جريج حدثنا عن عطاء بن أبي رباح ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » قالت : « وإذا غيبت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر . فإذا أمطرت سرى عنه ، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : « لعله يا عائشة كما قال قوم عاد : ﴿ **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا** ﴾ »[1] .

رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، من حديث ابن جريج .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، أنبأنا عبدالله بن وهب ، أنبأنا عمرو - وهو ابن الحارث - أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار ، عن عائشة أنها قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسم وقالت : كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه ، قالت : يا رسول الله ، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ؟ فقال : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ! قد عذب قوم نوح بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا » فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً . فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية وتكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى ، والله أعلم بالصواب .

وهكذا رواه مسلم عن هارون بن معروف ، وأخرجه البخاري وأبو داود من حديث ابن وهب .

وقدمنا حج هود عليه السلام عند ذكر حج نوح عليه السلام . وروي عن أمير المؤمنين علي

---

(١) أخرجه ابن السني وأحمد والترمذي والنسائي .

ابن أبي طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام في بلاد اليمن . وذكر آخرون أنه بدمشق ، وبجامعها مكان في حائطه القبلي يزعم بعض الناس أنه قبر هود عليه السلام . والله أعلم .

قصة صالح عليه السلام
نبي ثمود

وهم قبيلة مشهورة ، يقال لهم ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس ، وهما ابنا عاثر بن ارم ابن سام بن نوح .

وكانوا عرباً من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك[1] وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين .

وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك .

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو عبدالله ورسوله : صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن ارم بن نوح فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئاً . فآمنت به طائفة منهم ، وكفر جمهورهم ، ونالوا منه بالمقال والفعال ، وهموا بقتله ، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

كما قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم آعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره قد جاءتكم بينةٌ من ربكم هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليمٌ * وآذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عادٍ وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فآذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين * قال الملأ الذين آستكبروا من قومه للذين آستضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مُرسلٌ من ربه قالوا إنا بما أُرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوايا صالح آئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارِهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾[2] .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فآستغفروه ثم توبوا إليه ان ربي قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب * قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن**

(١) وإلى اليوم فإن آثارهم ما زالت باقية لتكون عبرة لمن يعتبر وتسمى مدائن صالح .

(٢) سورة الأعراف الآيات ٧٣ ـ ٧٩ .

عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير * ويا قوم هـذه ناقـة الله لكم آية فـذروها تـأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قـريب * فعقروهـا فقال تمتعـوا في داركم ثلاثـة أيام ذلـك وعد غـير مكذوب * فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منـا ومن خزي يـومئذٍ ، إن ربـك هو القوي العزيز * وأخذ الـذين ظلموا الصيحـة فأصبحـوا في ديارهم جاثمـين * كأن لم يغنـوا فيها ألا أن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾[1] .

وقـال تعالى في سـورة الحجر : ﴿ ولقـد كذب أصحـاب الحجـر المرسلين * وآتينـاهم آيـاتنـا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبـال بيوتـاً آمنين * فـأخذتهم الصيحـة مصبحين * فـما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾[2] .

وقـال سبحانـه في سورة سبحـان : ﴿ وما منعنـا أن نرسـل بالآيـات إلا أن كذب بهـا الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾[3] .

وقـال تعالى في سـورة الشعراء : ﴿ كـذبت ثمود المـرسلين * إذ قـال لهم أخـوهم صـالـح ألا تتقـون * إني لكم رسـول أمـين * فاتقـوا الله وأطيعون * ومـا أسألكم عليـه من أجـر ان أجـري إلا عـلى رب العالمـين * أتتركـون في مـا هـا هنـا آمنـين * في جنـاتٍ وعيـون * وزروع ونخـل طلعهـا هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشرٌ مثلنا فأتِ بآيةٍ إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[4] .

وقـال تعالى في سـورة النمل : ﴿ ولقـد أرسلنا إلى ثمـود أخاهم صـالحاً أن اعبـدوا الله ، فـإذا هم فريقان يختصمون * قال يـا قوم لم تستعجلون بـالسيئة قبـل الحسنة ، لـولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قـالوا اطَّيَّرنا بـك وبمن معك ، قـال طائـركم عند الله بـل أنتم قـوم تفتنـون * وكـان في المـدينة تسعـة رهط يفسـدون في الأرض ولا يصلحـون * قـالـوا تقـاسمـوا بـالله لنبيتنـه وأهله ، ثم لنقـولن لـوليـه مـا شهـدنـا مهلك أهله وإنـا لصـادقـون * ومكـروا مكـراً ومكـرنـا مكـراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عـاقبة مكـرهم أنا دمـرناهم وقـومهم أجمعين * فتلك بيـوتهم خاويـة بما ظلموا ، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[5] .

وقال تعالى في سورة حم السجدة : ﴿ وأمـا ثمود فهـديناهم فـاستحبوا العمى عـلى الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[6] .

---

(1) سورة هود الآيات ٦١ ـ ٦٨ .

(2) سورة الحجر الآيات ٨٠ ـ ٨٤ .

(3) سورة الأسراء الآية ٥٩ .

(4) سورة الشعراء الآيات ١٤١ ـ ١٥٩ .

(5) سورة النمل الآيات ٤٥ ـ ٥٣ .

(6) سورة فصلت الآيتان ١٧ ، ١٨

وقال تعالى في سورة اقتربت : ﴿ كذبت ثمود بالنذر * فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا أذن لفي ضلال وسعر * أألقي الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشر * إنا مرسلواالناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ آنبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾[2] .

وكثيرا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود ، كما في سورة براءة[3] وابراهيم والفرقان ، وسورة ص ، وسورة ق ، والنجم والفجر[4].

ويقال ان هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب ، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة . ولكن في القرآن ما يدل على ان موسى أخبر عنهما ، كما قال تعالى في سورة ابراهيم : ﴿ وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾[5] الآية . الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ، ولكن لما كان هاتان الأمتان مَن العرب لم يضبطوا خبرهما جيداً ، ولا اعتنوا بحفظه ، وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى عليه السلام . وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير مستقصى . ولله الحمد والمنة .

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم ، وكيف نجى الله نبيه صالحاً عليه السلام ومن آمن به ، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ، ومخالفتهم رسولهم عليه السلام .

وقد قدمنا أنهم كانوا عرباً ، وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم . ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ، وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾[6] أي إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم ، وتعملوا بخلاف عملهم . وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾[7] أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها . فقابلوا نعمة الله بالشكر

(١) سورة القمر الآيات ٢٣ ـ ٣٢ .
(٢) سورة الشمس الآيات ١١ ـ ١٥ .
(٣) في السور التالية : التوبة الآية ٧٠ ، وابراهيم الآية ٩ ، والنجم الآية ٥١ ، والفجر الآيتان ٨ ، ٩، وق الآية ١٢ ، والفرقان الآية ٣٨ ،وص الآيتان ١٢ ، ١٣
(٤) سورة براءة هي سورة التوبة .
(٥) سورة ابراهيم الآيتان ٨ ، ٩ .
(٦) سورة الأعراف الآيتان ٧٣ ، ٧٤ .
(٧) سورة الشعراء الآية ١٤٩ .

والعمل الصالح ، والعبادة له وحده لا شريك له ، وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته ، فإن عاقبة ذلك وخيمة .

ولهذا وعظهم بقوله : ﴿ أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾(١) أي متراكم كثير حسن بهي ناضج . ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾(٢)

وقال لهم أيضاً : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾(٣) أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض ، وجعلكم عُمَّارُها ، أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار ، فهو الخالق الرزاق ، وهو الذي يستحق العبادة وحده لا ما سواه . ﴿ فأستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ أي أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته ، فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ إن ربي قريبٌ مجيبٌ ﴾(٤)

﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾(٥) أي قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة ، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة ، وترك ما كنا نعبده من الأنداد ، والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا : ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شكٍّ مما تدعونا إليه مريب ﴾(٦) .

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمةً فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسيرٍ ﴾(٧) .

وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب ، وحسن تأت في الدعوة لهم الى الخير . أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ؟ ماذا عذركم عند الله ؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته ؟ وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب عليَّ ، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني . فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له ، حتى يحكم الله بيني وبينكم .

وقالوا له أيضاً : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾(٨) أي من المسحورين ، يعنون مسحوراً لا

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٤٦ ـ ١٤٨
(٢) سورة الشعراء الآيات ١٤٩ ـ ١٥٢
(٣) سورة هود الآية ٦١ .
(٤) سورة هود الآية ٦١
(٥) سورة هود الآية ٦٢ .
(٦) سورة هود الاية ٦٢ .
(٧) سورة هود الآية ٦٣ .
(٨) سورة الشعراء الآية ١٥٣ .

تـدري ما تقـول في دعائـك إيانـا إلى إفراد العبـادة لله وحـده ، وخلع مـا سـواه من الأنـداد . وهـذا القول عليه الجمهـور ، وهو أن المـراد بالمسحـرين المسحورين . وقيـل : من المسحرين ، أي ممن لـه سحر ـ وهو الرئي[1] ـ كأنهم يقولون إنمـا أنت بشرٌ له سحـر . والأول أظهر لقـولهم بعد هـذا : ﴿ ما أنت إلا بشـر مثلنا ﴾ وقـولهم : ﴿ فأْتِ بـآيةٍ إن كنت من الصـادقين ﴾[2] . سـألـوا منـه أن يـأتيهم بخارق يدل على صدق مـا جاءهم بـه . قال : ﴿ هـذه ناقـة لها شـرب ولكم شرب يـوم معلوم * ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾[3] . كما قال : ﴿ قـد جاءتكم بينـةٌ من ربكم هذه ناقة الله لكم آيـةً فذروهـا تأكـل في أرض الله ولا تمسوهـا بسوءٍ فيـأخذكم عـذابٌ أليمٌ ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرةً فظلموا بها ﴾[5]

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم ، فجـاءهم رسول الله صـالح فـدعاهم إلى الله ، وذكـرهم وحذرهم ووعـظهم وأمرهم ، فقـالوا لـه : إن أنت أخرجت لنـا من هـذه الصخـرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة ، من صفتها كيت وكيت وذكـروا أوصافـاً سموهـا ونعتوهـا ، وتعنتوا فيها ، وأن تكون عشـراء ، طويلة ، من صفتهـا كذا وكـذا ، فقال لهم النبي صـالح عليـه السلام : أرأيتم ان أجبتكم إلى مـا سألتم ، عـلى الوجـه الذي طلبتم ، أتؤمنـون بما جئتكم بـه وتصدقـوني فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم . فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك .

ثم قـام الى مصلاه فصـلى لله عز وجـل ما قـدر له ، ثم دعـا ربـه عـز وجـل أن يجيبهم إلى مـا طلبوا ، فأمـر الله عز وجـل تلك الصخرة أن تنفـطر عن ناقـة عظيمـة عشراء ، عـلى الوجـه المطلوب الذي طلبوا ، أو على الصفة التي نعتوا .

فلما عاينوها كذلك ، رأوا أمراً عظيماً ، ومنظراً هائلاً ، وقدرة باهرة ، ودليلاً قاطعـاً ، وبرهـاناً ساطعاً ، فآمن كثير منهم ، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم . ولهـذا قال : ﴿ فظلموا بهـا ﴾ أي جحدوا بها ، ولم يتبعوا الحق بسببها ، أي أكثرهم . وكـان رئيس الذين آمنـوا : جندع بن عمرو بن محلاة بن لبيد بن جواس . وكان من رؤسائهم . وهم بقيـة الأشراف بـالإسلام ، فصـدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والحباب ، صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعـر بن جلمس ، ودعا جنـدع ابن عمه شهاب بن خليفة ، وكان من أشرافهم ، فهمّ بالاسـلام فنهاه أولئـك ، فمال اليهم فقـال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله :

وكـانت عصبـة من آل عـمـرو   إلى ديـن النبـي دعـوا شـهـابـا

(١) الرئي : تابع من الجن يزعم السحرة أنهم يستخدمونه بالرقي والطلاسم والتعاويذ فيطلعهم على ما يريدون .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٥٤ .

(٣) سورة الشعراء الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٧٣ .

(٥) سورة الإسراء الآية ٥٩ .

عـزيـز ثـمـود كـلـهـم جـمـيعـاً   فـهـم بـأن يجـيـب ولـو أجـابـا
لأصبـح صـالـح فينـا عـزيـزاً   ومـا عـدلـوا بصـاحبهم ذؤابـا
ولـكـن الـغـواة مـن آل حـجـر   تـولـوا بعـد رشـدهم ذبـابـا(1)

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام : ﴿هذه ناقة الله﴾ أضافها الله سبحانه وتعالى اضافة تشريف وتعظيم ، كقوله بيت الله وعبد الله ﴿ لكم آية ﴾ أي دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ قريب ﴾ .

فاتفق الحالُ على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ، ترعى حيث شاءت من أرضهم ، وترد الماء يوماً بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم . ويقال أنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ، ولهذا قال : ﴿ لها شربٌ ولكم شرب يومٍ معلومٍ ﴾ .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنةً لهم ﴾(2) أي اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون ؟ والله أعلم بما يفعلون . ﴿ فارتقبهم ﴾ أي انتظر ما يكون من أمرهم ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية . ﴿ ونبئهم أن الماء قسمةٌ بينهم كلُّ شربٍ محتضر ﴾(2)

فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع أمرهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ، ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم . قال الله تعالى : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾(3) .

وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم : قدار بن سالف بن جندع ، وكان أحمر أزرق أصهب . وكان يقال أنه ولد زانية ، ولد على فراش سالف ، وهو ابن رجل يقال له صيبان . وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم ، فلهذا نسب الفعل الى جميعهم كلهم .

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين : أن امرأتين من ثمود اسم احداهما « صدوقة » ابنة المحيا بن زهير بن المختار . وكانت ذات حسب ومال ، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته ، فدعت ابن عم لها يقال له « مصرع » بن مهرج بن المحيا ، وعرضت عليه نفسها ان هو عقر الناقة . واسم الأخرى « عنيزة » بنت غنيم بن مجلز ، وتكنى أم غنمة ، وكانت عجوزاً كافرة ، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء ، فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف ، إن

---

(1) ضلالاً

(2) سورة القمر الأيتان ٢٧ ، ٢٨ .

(3) سورة الأعراف الآية ٧٧ .

هـو عقر النـاقة فله أي بنـاتها شـاء ، فانتـدب هذان الشـابـان لعقـرهـا وسعـوا في قـومهم بـذلـك ، فـاستجاب لهم سبعـة آخرون فصـاروا تسعة . وهم المـذكورون في قـوله تعـالى : ﴿ وكان في المـدينة تسعة رهطٍ يفسدون في الأرض ولا يصلـحون ﴾[1] . وسعوا في بقيـة القبيلة وحسنوا لهم عقـرهـا ، فأجابوهـم إلى ذلك وطاوعوهـم في ذلـك . فانـطلقوا يـرصدون النـاقة ، فلما صـدرت من وردها كمن لها « مصرع » فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها ، وجـاء النساء يـذمرن[2] القبيلة في قتلهـا ، وحسرن عن وجـوههن ترغيبـاً لهم في ذلـك فـابتـدرهم قـدار بن سـالف ، فشـد عليهـا بـالسيف فكشف عن عـرقوبهـا فخرت سـاقطة الى الأرض . ورغت رغـاة واحدة عـظيمة تحـذر ولدهـا ، ثم طعن في لبتها فنحرها ، وانطلق سقبها ـ وهو فصيلها ـ فصعد جبلاً منيعاً ورغا ثلاثاً .

وروى عبـد الرزاق ، عن معمـر ، عمن سمع الحسن أنـه قال : يـا رب أين أمي ؟ ثم دخـل في صخرة فغاب فيها . ويقال : بل اتبعوه فعقروه أيضاً .

قال الله تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعـاطى فعقر * فكيف كـان عذابي ونـذر ﴾[3] . وقال الله تعـالى : ﴿ إذ انبعث أشقاهـا * فقال لهم رسـول الله ناقـة الله وسقياهـا ﴾ أي احذروهـا ﴿ فكذبـوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها * ولا يخاف عقباها ﴾[4] .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالله بن نمـير ، حدثنـا هشام ـ أبـو عروة ـ عن أبيـه عن عبدالله بن زمعـة قال : خـطب رسول الله ﷺ فـذكر النـاقة وذكـر الذي عقـرها فقـال : « إذ انبعث اشقـاهـا : انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه ، مثل أبي زمعة » .

أخـرجاه من حـديث هشـام بـه . عـارم : أي شهم . عـزيـز ، أي : رئيس . منيـع ، أي : مطاع في قومه .

وقـال محمد بن إسحـاق : حدثني يـزيد بن محمـد بن خثيم ، عن محمد بن كعب ، عن محمـد ابن خثيم بن يـزيد ، عن عمـار بن ياسر قـال : قـال رسـول الله ﷺ لعـلي : « ألا أحـدثـك بـأشقى الناس ؟ قال : بلى . قال ﷺ : رجلان ، أحدهما أحيمر ثمود الذي عقـر الناقـة ، والذي يضـربك يا علي على هذا ـ يعني قرنه ـ حتى تبتل منه هذه ـ يعني لحيته » .

رواه ابن أبي حاتم .

---

(١) سورة النمل الآية ٤٨ .

(٢) يشجعن ويرغبن .

(٣) سورة القمر الآيتان ٢٩ ، ٣٠ .

(٤) سورة الشمس الآيات ١٢ ـ ١٥ .

وقال تعالى : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾[1] فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه :

منها : أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية .

ومنها : أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فأستحقوه من وجهين : أحدهما الشرط عليهم في قوله : ﴿ ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ قريبٌ ﴾[2] وفي آية ﴿ عظيمٍ ﴾[3] وفي الأخرى : ﴿ أليمٌ ﴾[4] . والكل حق . والثاني استعجالهم على ذلك .

ومنها : أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه ، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم . قال الله تعالى : ﴿ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيامٍ ذلك وعدٌ غير مكذوبٍ ﴾[5] .

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف ، لعنه الله ، فعرقبها فسقطت الى الأرض ، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها فلما عاين ذلك سقبها ـ وهو ولدها ـ شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ، ورغا ثلاث مرات .

فلهذا قال لهم صالح﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيامٍ ﴾أي غير يومهم ذلك ، فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد ، بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا ـ فيما يزعمون ـ أن يلحقوه بالناقة . ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ أي لنكبسنه[6] في داره مع أهله فلنقتلنه ، ثم نجحدن قتله ولننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه ، ولهذا قالوا : ﴿ ثم لنقولنَّ لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴾[7] .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٧ .

(٢) سورة هود الآية ٦٤ .

(٣) الشعراء الآية ١٥٦ . وفيها ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٧٣ .

(٥) سورة هود الآية ٦٥ .

(٦) لنهاجمه .

(٧) سورة النمل الآية ٤٩ .

مكرهم أنَّا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآيةً لقومٍ يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[1] .

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم فأهلكهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم ، وأصبحت ثمود يوم الخميس ـ وهو اليوم الأول من أيام النظرة ـ ووجوههم مصفرة ، كما أنذرهم صالح عليه السلام . فلما أمسوا نادوا بأجمعهم : ألا قد مضى يوم من الأجل . ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل ـ وهو يوم الجمعة ـ ووجوههم محمرة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى يومان من الأجل . ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع ـ وهو يوم السبت ـ ووجوههم مسودة ، فلما أمسوا نادوا : ألا قد مضى الأجل .

فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة ، لا يدرون كيف يفعل بهم ؟ ولا من أي جهة يأتيهم العذاب .

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ، ورجفة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس ، وسكنت الحركات ، وخشعت الأصوات ، وحقت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين ، جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها . قالوا : ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها « كلبة » بنت السلق ـ ويقال لها الذريعة ـ وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها ، فقامت تسعى كأسرع شيء ، فأتت حياً من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء ، فلما شربت ماتت .

قال الله تعالى : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء ؛ ﴿ ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾[2] أي نادى عليهم لسان القدر بهذا .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، حدثنا عبدالله بن عثمان بن خثيم ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال : « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، فكانت ـ يعني الناقة ـ ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها . وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله » فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال ﷺ : هو أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » .

وهذا الحديث على شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة . والله تعالى أعلم .

وقد قال عبد الرزاق أيضاً : قال معمر : أخبرني اسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي

(١) سورة النمل الآيات ٥٠ ـ ٥٣ .

(٢) سورة هود الآية ٦٨ .

رغال ، فقال : « أتدرون من هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال ﷺ : « هذا قبر أبي رغال ، رجل من ثمود ، كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن ها هنا ، ودفن معه غصن من ذهب . فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم ، فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » . قال عبد الرزاق : قال معمر : قال الزهري : أبو رغال أبو ثقيف . . . هذا مرسل من هذا الوجه .

وقد جاء من وجه آخر متصلاً كما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة عن اسماعيل بن أمية ، عن بجير بن أبي بجير ، قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا معه الى الطائف ، فمررنا بقبر ، فقال ﷺ : « إن هذا قبر أبي رغال ، وهو أبو ثقيف ، وكان من ثمود ، وكان بهذا الحرم يدفع عنه ، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه ، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب ، ان أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه . فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن » . وهكذا رواه أبو داود من طريق محمد بن إسحاق به . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي رحمه الله : هذا حديث حسن عزيز .

قلت : تفرد به بجير بن أبي بجير هذا ، ولا يعرف إلا بهذا الحديث ، ولم يروِ عنه سوى اسماعيل بن أمية . قال شيخنا : فيحتمل أنه وهم في رفعه ، وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه[1] . والله أعلم .

قلت : لكن في المرسل الذي قبله وفي حديث جابر أيضاً شاهد له . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾[2] أخبار عن صالح عليه السلام ، أنه خاطب قومه بعد هلاكهم ، وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ﴾ أي : جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني ، وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي .

﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ أي : لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده ، فلهذا صرتم الى ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، المستمر بكم المتصل الى الأبد ، وليسَ لي فيكم حيلة ، ولا لي بالدفع عنكم يدان . والذي وجب عليَّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته ، وبذلته لكم ، ولكن الله يفعل ما يريد .

وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليالٍ : وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال ﷺ : « يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد

(١) أصاب عبد الله بن عمرو حمل ناقتين (زاملتين) من علوم أهل الكتاب كان يحدث منها .

(٢) سورة الأعراف الآية ٧٩ .

وجـدت مـا وعـدني ربي حقـاً » . وقـال لهم ﷺ فيـما قـال : « بئس عشيـرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني النـاس ، وقاتلتمـوني ونصرني النـاس ، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم »(١) . فقـال لـه عمـر : يـا رسـول الله تخـاطب أقـوامـاً قـد جيفـوا ؟ قـال ﷺ : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يجيبون » .

ويقال أن صالحاً عليه السلام انتقل الى حرم الله فأقام به حتى مات .

قـال الإمام أحمـد : حدثنـا وكيـع ، حـدثنـا زمعـة بن صـالـح ، عن سلمـة بن وهـرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما مر النبي ﷺ بوادي عسفان حـين حج قـال : « يا أبـا بكر أي وادٍ هـذا ؟ » قال : وادي عسفـان . قال ﷺ : « لقـد مر بـه هود وصـالح عليهـما السـلام عـلى بكـرات خطمها الليف ، أزرهم العباء ، وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق » .

اسنـاد حسن . وقد تقـدم في قصة نـوح عليه السـلام من رواية الـطبـراني ، وفيـه نـوح وهـود وابراهيم .

ذكر مرور النبي ﷺ بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد : حدثنـا عبد الصمـد ، حدثنـا صخر بن جـويريـة عن نافـع ، عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك ، نـزل بهم الحجر عنـد بيوت ثمـود ، فاستقى النـاس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منهـا ونصبوا القـدور ، فأمـرهم رسول الله فـأهراقـوا القـدور ، وعلفوا العجـين الأبل ، ثم ارتحـل بهم حتى نـزل بهم عـلى البئـر التي كـانت تشـرب منهـا الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القـوم الذين عـذبوا فقـال : « إني أخشى أن يصيبكم مثل مـا أصابهم فلا تدخلوا عليهم » .

وقال أحمد أيضاً : حدثنـا عفان ، حـدثنا عبـد العزيـز بن مسلم ، حدثنـا عبد الله بن دينـار ، عن عبد الله بن عمر قـال : قال رسـول الله ﷺ وهو بـالحجر : « لا تـدخلوا على هؤلاء المعـذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم » .

أخرجاه في الصحيحين من غير وجه .

وفي بعض الروايات : أنه عليه السلام لما مـر بمنازلهم قنـع رأسه ، وأسـرع راحلته ، ونهى عن دخول منازلهم ، إلا أن يكونوا بـاكين . وفي روايـة : « فإن لم تبكـوا فتباكـوا خشية أن يصيبكم مثـل ما أصابهم » . صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) أخرجه الترمذي عن عمر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا المسعودي ، عن اسماعيل بن أوسط ، عن محمد بن أبي كبشة الأنباري عن أبيه ـ واسمه عمرو بن سعد ويقال عامر بن سعد رضي الله عنه قال : لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس : « الصلاة جامعة » . قال : فأتيت النبي ﷺ وهو ممسك بعيره وهو يقول : « ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل : نعجب منهم يا رسول الله ! قال ﷺ : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسددوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً » . إسناد حسن ولم يخرجوه .

وقد ذكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلة ، فكانوا يبنون البيوت من المدر(١) فتخرب قبل موت الواحد منهم ، فنحتوا لهم بيوتاً في الجبال .

وذكروا أن صالحاً عليه السلام لما سألوه آية ، فأخرج الله لهم الناقة من الصخرة ، أمرهم بها وبالولد الذي كان في جوفها ، وحذرهم بأس الله إن هم نالوها بسوء ، وأخبرهم أنهم سيعقرونها ، ويكون سبب هلاكهم ذلك . وذكر لهم صفة عاقرها ، وأنه أحمر أزرق أصهب ، فبعثوا القوابل في البلد متى وجدوا مولوداً بهذه الصفة يقتلنه ، فكانوا على ذلك دهراً طويلاً .

وانقرض جيل ، وأتى جيل آخر . فلما كان في بعض الأعصار(٢) خطب رئيس من رؤسائهم على ابنه بنت آخر مثله في الرئاسة ، فزوجه ، فولد بينهما عاقر الناقة ، وهو قدار بن سالف ، فلم تتمكن القوابل من قتله لشرف أبويه وجده فيهم ، فنشأ نشأة سريعة ، فكان يشب في الجمعة كما يشب غيره في شهر ، حتى كان من أمره أن خرج مطاعاً فيهم رئيساً بينهم ، فسولت له نفسه عقر الناقة واتبعه على ذلك ثمانية من أشرافهم ، وهم التسعة الذين أرادوا قتل صالح عليه السلام .

فلما وقع من أمرهم ما وقع من عقر الناقة ، وبلغ ذلك صالحاً عليه السلام ، جاءهم باكياً عليها ، فتلقوه يعتذرون اليه ، ويقولون : ان هذا لم يقع عن ملأ منا . وإنما فعل هذا هؤلاء الأحداث فينا . فيقال أنه أمرهم باستدراك سقبها(٣) حتى يحسنوا اليه عوضاً عنها ، فذهبوا وراءه فصعد جبلاً هناك ، فلما تصاعدوا فيه وراءه تعالى الجبل حتى ارتفع ، فلا يناله الطير ، وبكى الفصيل حتى سالت دموعه . ثم استقبل صالحاً عليه السلام ورغا ثلاثاً ، فعندها قال صالح : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعدٌ غير مكذوب ﴾ وأخبرهم انهم يصبحون من غدهم صفراً ، ثم تحمر وجوههم في الثاني ، وفي اليوم الثالث تسود وجوههم . فلما كان في اليوم الرابع

(١) المدر : الطين يجعل في قوالب ويجفف في الشمس ويسمى إذا حرق في النار الطابوق لأنه يصبح فخّارياً أي مفخوراً .

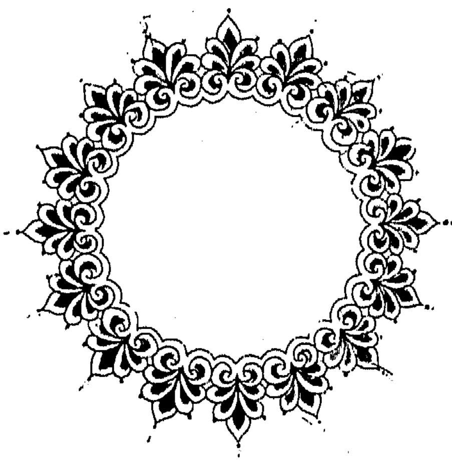
(٢) ج عصر وهو الجيل .

(٣) سقبها : ولدها .

أتتهم صيحة فيها صوت كل صاعقة ، فأخذتهم فأصبحوا في دارهم جاثمين .

وفي بعض هذا السياق نظر ومخالفة لظاهر ما يفهم من القرآن[1] في شأنهم وقصتهم كما قدمنا . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

(١) ومن ذلك : أن الناقة كانت حبلى (عشراء) ؛ وأخبارهم أنهم سيعقرونها ، وأمرهم أن يحسنوا إلى فصيلها ليتداركوا فعلهم ، إلى غير ذلك .



قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ[1] « ٢٥٠ » بن ناحور « ١٤٨ » بن ساروغ « ٢٣٠ » بن راغو « ٢٣٩ » ابن فالغ « ٤٣٩ » بن عابر « ٤٦٤ » بن شالح « ٤٣٣ » بن أرفخشذ « ٤٣٨ » بن سام « ٦٠٠ » ابن نوح عليه السلام[2] .

هذا نص أهل الكتاب في كتابهم ، وقد أعلمت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي[3] كما ذكروه من المدد وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته .

وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة ابراهيم الخليل من تاريخه عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب « المبتدأ » ، أن اسم أم ابراهيم « أميلة » . ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة وقال الكلبي : اسمها « بونا » بنت كربتا بن كرثي ، من بني أرفخشذ بن سام بن نوح .

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : كان ابراهيم عليه السلام يكنى « أبا الضيفان » .

قالوا : ولما كان عمر تارخ خمساً وسبعين سنة ولد له ابراهيم عليه السلام ، و « ناحور » و« هاران » وولد لهاران « لوط » .

وعندهم أن ابراهيم عليه السلام هو الأوسط ، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها ، وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل .

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار ، وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر ، بعد ما روى من طريق هشام بن عمار ، عن الوليد ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن

---

(١) الاسم مُصَحَّف عن العهد القديم لأنه تارح (بالحاء) وفي القرآن الكريم أن اسمه آزر سورة الأنعام الآية ٦٣ ، ٧٤ .

(٢) الأرقام هي أعمارهم على ما جاء في العهد القديم .

(٣) لأن هذه الأرقام هي الأرقام الهندية أما الأرقام العربية فهي ما يستعمله الفرنجة في أيامنا كما تستعملها بعض البلاد العربية .

مكحول ، عن ابن عباس قال : ولد ابراهيم بغوطة دمشق ، في قرية يقال لها برزة ، في جبل يقال له قاسيون . ثم قال : والصحيح أنه ولد ببابل . وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معيناً للوط عليه السلام .

قالوا : فتزوج ابراهيم سارة ، وناحور « ملكا » ابنة هاران يعنون ابنة أخيه . قالوا : وكانت سارة عاقراً لا تلد .

قالوا : وانطلق تارخ بابنه ابراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران ، فخرج بهم من أرض الكلدانيين الى أرض الكنعانيين ، فنزلوا حران ، فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة . وهذا يدل على أنه لم يولد بحران ، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها[1] .

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين ، وهي بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحران وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً . وكانوا يعبدون الكواكب السبعة . والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين ، يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال . ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ، ويعملون لها أعياداً وقرابين .

وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفاراً ، سوى ابراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام .

وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور ، وأبطل به ذاك الضلال ، فإن الله سبحانه وتعالى أتاه رشده في صغره ، وابتعثه رسولاً ، واتخذه خليلاً في كبره ، قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾[2] . أي كان أهلاً لذلك .

---

(١) وهذا معارض لما جاء في القرآن الكريم في أن أبا إبراهيم عليه السلام كان حياً عندما بعث ابراهيم عليه السلام نبياً وأنه كان يعبد الأصنام مع قومه وهذا حدث في بابل وليس في حران ، وكل هذه الروايات هي من الاسرائيليات . وهذا وارد في سفر التكوين الفصل الحادي عشر من العدد ٢٧ إلى العدد ٣٢ ـ طبعة المرسلين اليسوعيين في بيروت سنة (١٨٧٩) ـ ولم يكتف اليهود بهذا فانظر ماذا يقولون في الفصل السادس عشر أن ملاك الرب قد قال عن سيدنا إسماعيل عليه السلام : « ويكون رجلاً وحشياً يده على الكل ويد الكل عليه وأمام جميع أخوته يسكن » العدد ١٣ .
وكذلك قصة الفداء لإسماعيل عليه السلام يجعلونها لإسحاق كما ورد ذلك في الفصل الثاني والعشرين من سفر التكوين نفسه وهم لا يكتفون بذلك بل كلما ذكر إسحاق عليه السلام عند نبي الله ابراهيم عليه السلام يسبقوه بابنك الوحيد ، أو وحيدك وكيف يكون وحيداً وله قبله اسماعيل عليه السلام .
وفي قصة النبي لوط عليه السلام سنورد قصصهم أيضاً . استغفر الله العظيم مما يأفكون .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥١ .

وقـال تعـالى : ﴿ وإبـراهيم إذ قـال لقـومـه آعبـدوا الله وآتقـوه ذلكم خـيرٌ لكم إن كنتم تعلمـون * إنما تعبـدون من دون الله أوثانـاً وتخلقون إفكـاً إن الذين تعبـدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فآبتغوا عند الله الرزق وآعبدوه وآشكروا له إليه ترجعـون * وإن تكذبـوا فقد كـذب أُممٌ من قبلكم ومـا على الـرسول إلا البـلاغ المبين * أوَ لم يـروا كيف يُبديءُ الله الخلق ثم يعيـده إن ذلك عـلى الله يسيرٌ * قـل سِيروا في الأرض فـآنظروا كيف بـدأ الخلق ثم الله يُنشيء النشأة الآخـرة إن الله عـلى كلِّ شيءٍ قـديرٌ * يُعـذب من يشـاء ويـرحم من يشـاء وإليـه تقلبـون * ومـا أنتم بمعجـزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من وليٍّ ولا نصـيرٍ * والذين كفـروا بـآيـات الله ولقـائـه أولئـك يئسوا من رحمتي وأولئـك لهم عـذابٌ أليمٌ * فـما كـانَ جـواب قـومـه إلا أن قـالـوا آقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيـاتٍ لقومٍ يؤمنـون * وقـال إنمـا آتخذتم من دون الله أوثـاناً مودة بينكم في الحياة الـدنيا ثم يوم القيامـة يكفر بعضكم ببـعضٍ ويلعن بعضكم بعضـاً ومـأواكـم النـار وما لكم من نـاصرين * فـآمن له لـوط وقال إني مهـاجـرٌ إلى ربي إنـه هـو العـزيـز الحكيم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنـا في ذريته النبـوة والكتاب وآتينـاه أجره في الـدنيا وإنـه في الآخرة لمن الصالحين ﴾[1]

ثم ذكر تعالى مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

* * *

وكان أول دعوته لأبيه ، وكـان أبوه ممن يعبـد الأصنام ، لأنـه أحق الناس بـاخلاص النصيحـة له كما قال تعالى : ﴿ وآذكر في الكتاب ابـراهيم إنه كـان صديقـاً نبياً * إذ قـال لأبيه يـا أبتِ لِمَ تعبد مـا لا يسمع ولا يُبصر ولا يغني عنـك شيئاً * يـا أبتِ إني قد جـاءني من العلم مـا لم يـأتـك فـآتبعني أهدِك صراطاً سوياً * يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيـطان كان للرحمـن عصيا * يـا أبتِ إني أخاف أن يمسـك عذابٌ من الـرحمن فتكون للشيـطان وليًّا * قـال أراغبٌ أنت عن آلهتي يـا إبـراهيم لئن لم تنتـهِ لأرجمنك وآهجـرني مليًّا * قـال سلامٌ عليـك سأستغفـر لك ربي إنـه كان بي حفيًّـا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيًّا * ﴾[2] .

فذكر تعالى ما كـان بينه وبـين أبيه من المحـاورة والمجادلـة ، وكيف دعا أبـاه إلى الحق بالـلطف عبارة وأحسن إشارة ، بيّن له بـطلان ما هـو عليّه من عبـادة الأوثان التي لا تسمـع دعاء عـابدهـا ولا تبصر مكانه ، فكيـف تغني عنه شيئاً ، أو تفعـل به خيـراً من رزق أو نصر ؟ ثم قال لـه منبهاً عـلى ما

---

(١) سورة العنكبوت الآيات ١٦ ـ ٢٧ .

(٢) سورة مريم الآيات ٤١ ـ ٤٨ .

أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر سناً من أبيه : ﴿ **يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً** ﴾[١] أي مستقيماً واضحاً ، سهلاً حنيفاً ، يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخراك .

فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه ، لم يقبلها منه ، ولا أخذها عنه ، بل تهدده وتوعده قال : ﴿ **أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك** ﴾ قيل بالمقال وقيل بالفعال . ﴿ **واهجرني ملياً** ﴾[٢] أي واقطعني وأطل هجراني .

فعندها قال له ابراهيم : ﴿ **سلامٌ عليك** ﴾ أي لا يصلك مني مكروه ولا ينالك مني أذى ، بل أنت سالم من ناحيتي . وزاده خيراً فقال : ﴿ **سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً** ﴾[٣] . قال ابن عباس وغيره : أي لطيفاً ، يعني في أن هداني لعبادته والاخلاص له . ولهذا قال : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً** ﴾[٤] .

كما قال تعالى : ﴿ **وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواهٌ حليمٌ** ﴾[٥] .

وقال البخاري : حدثنا اسماعيل بن عبد الله ، حدثني أخي عبد الحميد ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول ابراهيم : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك ؟ فينظر ، فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » . هكذا رواه في قصة ابراهيم منفرداً .

وقال في التفسير : وقال ابراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري ، عن أبيه عن أبي هريرة .

وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن حفص بن عبد الله ، عن أبيه ، عن ابراهيم بن طهمان

---

(١) سورة مريم الآية ٤٣ .

(٢) سورة مريم الآية ٤٦ .

(٣) سورة مريم الآية ٤٧ .

(٤) سورة مريم الآية ٤٨ .

(٥) سورة التوبة الآية ١١٤ .

به . وقد رواه البزار عن حديث حماد بن سلمة عن أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، وفي سياقه غرابة . ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهةً إني أراك وقومك في ضلالٍ مبينٍ ﴾(١) . هذا يدل على أن اسم أبي ابراهيم آزر ، وجمهور أهل النسب ، منهم ابن عباس ، على أن اسم أبيه تارح . وأهل الكتاب يقولون تارخ بالخاء المعجمة . فقيل : إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر . وقال ابن جرير : والصواب أن اسمه آزر . ولعل له اسمان علمان ، أو أحدهما لقب والآخر علم ، وهذا الذي قاله محتمل . والله أعلم(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من المُوقنين * فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفلَ قال لا أُحب الآفلين * فلما رأى القمر قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضَّالين * فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال : أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيءٍ علماً أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاء إن ربك حكيمٌ عليمٌ ﴾(٣) .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم ان هذه الاجرام المشاهدة من الكواكب النيرة ، لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوا ل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب لذلك قيل هو الزهرة ، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها ، وأبهى من حسنها ، ثم ترقى الى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٤ .

(٢) ما يقوله ابن جرير محاولة للتسوية بين ما جاء من الصدق في كتاب الله وما جاء في أسفار اليهود التي ليست هي التوراة أبداً بل هي كتب تاريخ كتبها أحبارهم الذين لعنهم الله في كتابه لأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه .

(٣) سورة الأنعام الآيات ٧٥ ـ ٨٣ .

وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مقدرة مربوبة ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[1] .

ولهذا قال : ﴿ **فلما رأى الشمس بازغةً** ﴾ أي طالعة ﴿ **قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجهُ قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدانِ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً** ﴾[2] . أي لست أُبالي هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله ، فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل ، بل هي مربوبة مسخرة كالكواكب أو نحوها ، أو مصنوعة منحوتة منجورة .

والظاهرة أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران ، فإنهم كانوا يعبدونها . وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيراً ، كما ذكره ابن إسحاق وغيره وهو مستند الى أخبار اسرائيلية لا يوثق بها ، ولا سيما إذا خالفت الحق .

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم ، وأهانها وبيّن بطلانها ، كما قال تعالى : ﴿ **وقال إنما اتخذتم من دون الله اوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعضٍ ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾[3] .

وقال في سورة الأنبياء : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مبينٍ * قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم ربُّ السماوات والأرض الذي فطرهنَّ وأنا على ذلكم من الشاهدين * وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جُذاذاً إلّا كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يُقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون * فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم * أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون * قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قُلنا**

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٧ .

(٢) سورة الأنعام الآيات ٧٨ ـ ٨٠ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٢٥ .

يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾[1] .

وقال في سورة الشعراء : ﴿ واتلُ عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدوٌّ لي إلا رب العالمين * الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذي يُميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين * ربِّ هب لي حُكماً وألحقني بالصالحين ﴾[2] .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلبٍ سليمٍ * إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون * أئفكاً آلهةً دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين * فنظر نظرةً في النجوم * فقال إني سقيمٌ * فتولَّوا عنه مدبرين * فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضرباً باليمين * فأقبلوا إليه يزفون * قال أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون * قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾[3] .

يخبر الله تعالى عن ابراهيم خليله عليه السلام ، أنه انكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها عندهم وصغرها وتنقصها ، فقال :﴿ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون ﴾[4] أي معتكفون عندها وخاضعون لها ، قالوا : ﴿ وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾[5] . ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد .

﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مبين ﴾ [6] كما قال تعالى : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون * أئفكاً آلهةً دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين ﴾[7] قال قتادة : فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٥١ ـ ٧٠ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٦٩ ـ ٨٣ .

(٣) سورة الصافات الآيات ٨٣ ـ ٩٣ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٥٢ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٥٣ .

(٦) سورة الأنبياء الآية ٥٤ .

(٧) سورة الصافات الآيات ٨٥ ـ ٨٧

وقال لهم : ﴿ **هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾(١) سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا تنفع ولا تضر شيئاً ، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال . ولهذا قال لهم : ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدوٌ لي إلا رب العالمين** ﴾(٢) وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام ، لأنه تبرأ منها ، وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر لأثرت فيه .

﴿ **قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾(٣) ويقولون : هذا الكلام الذي تقوله لنا وتتنقص به آلهتنا ، وتطعن بسببه في آبائنا أتقوله محقاً جاداً فيه أم لاعباً ؟

﴿ **قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين** ﴾ (٤) يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً ، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، ربكم ورب كل شيء ، فاطر السماوات والأرض ، الخالق لهما على غير مثال سبق . فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وأنا على ذلكم من الشاهدين .

وقوله : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾(٥) أقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن يولوا مدبرين إلى عيدهم .

قيل : إنه قال هذا خفية في نفسه . وقال ابن مسعود : سمعه بعضهم .

وكان لهم عيد يذهبون اليه في كل عام مرة الى ظاهر البلد ، فدعاه أبوه ليحضره فقال : إني سقيم . كما قال تعالى : ﴿ **فنظر نظرةً في النجوم * فقال إني سقيمٌ** ﴾(٦) عرض لهم في الكلام حتى توصل الى مقصوده من إهانة أصنامهم ، ونصرة دين الله الحق ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الاهانة .

فلما خرجوا الى عيدهم ، واستقر هو في بلدهم ﴿ **فراغ إلى آلهتهم** ﴾(٧) أي ذهب اليها مسرعاً مستخفياً ، فوجدها في بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً اليها فقال لها على سبيل التهكم والازدراء : ﴿ **ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضرباً**

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٧٢ ـ ٧٤ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٧٥ ـ ٧٧ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٥٥ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٥٦ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٥٧ .

(٦) سورة الصافات الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

(٧) سورة الصافات الآية ٩١ .

باليمين ﴾[1] لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر ، فكسرها بقدوم في يده كما قال تعالى : ﴿ **فجعلهم جذاذاً** ﴾[2] أي حطاماً ، كسرها كلها ﴿ **إلّا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون** ﴾[2] . قيل : إنه وضع القدوم في يد الكبير ، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار !

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم: ﴿ **قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾[3] .

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون ، وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها ، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم : ﴿ **من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين** ﴾ .

﴿ **قالوا سمعنا فتى يذكرهم يُقال لهم إبراهيم** ﴾[4] أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها ، فهو المقيم عليها والكاسر لها . وعلى قول ابن مسعود ، أي يذكرهم بقوله : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾[5] .

﴿ **قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** ﴾[6] أي في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد ، لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه .

وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم ، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ **موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحىً** ﴾[7]

* * *

فلما اجتمعوا وجاؤوا به كما ذكروا : ﴿ **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ . قيل معناه : هو الحامل لي على تكسيرهم ، وأنما عرض لهم في القول : ﴿ **فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾[8] .

---

(١) سورة الصافات الآيات ٩١ ـ ٩٣ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٥٨ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٥٩ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٦٠ .

(٥) سورة الأنبياء الآية ٥٧ .

(٦) سورة الأنبياء الآية ٦١

(٧) سورة طه الآية ٥٩ .

(٨) سورة الأنبياء الآيتان ٦٢ ، ٦٣

وإنما أراد بقوله هذا أن يبادر الى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات .

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ﴾(١) أي فعادوا على أنفسهم بالملامة ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون . أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها .

﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾(٢) . قال السدي : أي ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلى هذا يكون قوله : ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾(٣) أي في عبادتها .

وقال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء . أي فأطرقوا ثم قالوا : ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾(٤) أي لقد علمت يا ابراهيم أن هذه لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها !!

فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام : ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم * أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾(٥) .

كما قال : ﴿ فأقبلوا إليه يزفون ﴾(٦) قال مجاهد : يسرعون . ﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ أي كيف تعبدون أصناماً أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾(٦) .

وسواء كانت : « ما » مصدرية أو بمعنى الذي ، فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون ، وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله ؟ فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم . وهذا باطل ، فالآخر باطل للتحكم ، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له .

* * *

﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾(٧) .

عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلاَّ استعمال قوتهم وسلطانهم ، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم ، فكادهم الرب جل جلاله ، وأعلى

(١) سورة الأنبياء الآية ٦٤ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٦٥ .

(٣) سورة الأنبياء الآية ٦٤ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٦٥ .

(٥) سورة الأنبياء الآيتان ٦٦ ، ٦٧ .

(٦) سورة الصافات الآيات ٩٤ ـ ٩٦ .

(٧) سورة الصافات الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .

كلمته ودينه وبرهانه . كما قال تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾[1] .

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق ابراهيم . ثم عمدوا إلى جوبة[2] عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار ، فاضطربت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم ير مثله قط .

ثم وضعوا ابراهيم عليه السلام في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له « هيزن » وكان أول من صنع المجانيق ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك ، لا شريك لك .

فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم القوه منه إلى النار قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها ابراهيم حين أُلقي في النار ، وقالها محمد حين قيل له : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوءٌ ﴾[3] الآية .

وقال أبو يعلى : حدثنا أبو هشام الرفاعي ، حدثنا إسحاق بن سليمان ، عن أبي جعفر الرازي ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : قال ﷺ : « لما أُلقي ابراهيم في النار قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك » .

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا !

ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنه قال : جعل ملك المطر يقول : متى أومر فأرسل المطر ؟ فكان أمر الله أسرع .

﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٦٨ ـ ٧٠ .

(٢) الجوبة : الحفرة العظيمة ، أو المنخفض الكبير .

(٣) سورة آل عمران ١٧٣ ، ١٧٤ .

أي لا تضربه .

وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله قال : ﴿ وسلاماً على إبراهيم ﴾ لآذى ابراهيم بردها .

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أهل الأرض يومئذٍ بنار ، ولم تحرق منه سوى وثاقه .

وقال الضحاك : يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره .

وقال السدي : كان معه أيضاً ملك الظل ، وصار ابراهيم عليه السلام في ميل الجوبة حوله نار وهو في روضة خضراء ، والناس ينظرون اليه لا يقدرون على الوصول ، ولا هو يخرج إليهم .

فعن أبي هريرة أنه قال : أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم ، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال : نعم الرب ربك يا إبراهيم !

وروى ابن عساكر عن عكرمة ، أن أم ابراهيم نظرت الى ابنها عليه السلام فنادته : يا بني أريد أن أجيء إليك فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك ، فقال : نعم . فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر النار ، فلما وصلت اليه اعتنقته وقبلته ثم عادت .

وعن المنهال بن عمرو أنه قال : أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً ، وأنه قال : ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها ، ووددت أن عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها . صلوات الله وسلامه عليه .

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا ، قال الله تعالى : ﴿ **وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ ، وفي الآية الأخرى ﴿ **الأسفلين** ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا . أما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ، ولا يلقون تحية ولا سلاماً ، بل هي كما قال تعالى : ﴿ **إنها ساءت مستقراً ومقاماً** ﴾[1] .

قال البخاري : حدثنا عبد الله بن موسى ، أو ابن سلام عنه ، أنبأنا ابن جريج ، عن عبد الحميد بن جبير ، عن سعيد بن المسيب ، عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ[2] وقال : « كان ينفخ على ابراهيم » .

ورواه مسلم من حديث ابن جريج . وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن

(١) سورة الفرقان الآية ٦٦ .

(٢) الوزغ : زاحفة صغيرة يقال لها أبو بريص لونها أبرص وقيل إذا مرت على الملح وبالت فيه أصابت من يأكل منه بداء البرص وهي تقتات من أكل الحشرات الصغيرة كالأرضة والبعوض .

عيينة ، كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة به .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ابن جريج ، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية ، أن نافعاً مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على ابراهيم » . قال : فكانت عائشة تقتلهن .

وقال أحمد : حدثنا اسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع ، ان امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت : ما هذا الرمح ؟ فقالت : نقتل به الأوزاغ ، ثم حدثت عن رسول الله ﷺ : « أن ابراهيم لما ألقي في النار جعلت الدواب كلها تطفىء عنه إلا الوزغ ، فإنه جعل ينفخها عليه » .

تفرد به أحمد من هذين الوجهين .

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا جرير ، حدثنا نافع ، حدثتني سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة ، قالت : دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً ، فقلت : يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ قالت : هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به ، فإن رسول الله ﷺ حدثنا : « أن ابراهيم حين أُلقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلَّا تطفىء عنه النار ، غير الوزغ كان ينفخ عليه ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله » .

ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد عن جرير بن حازم به .

ذكر مناظرة ابراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع العظيم الجليل في العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية ، وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويُميت قال : أنا أحيي وأُميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبُهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾[1] .

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد . الذي ادعى لنفسه الربوبية ، فأبطل الخليل عليه دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الحجة ، وأوضح له طريق المحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هو ملك بابل ، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح . قاله مجاهد . وقال غيره : نمرود بن فالح بن عابر ابن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

قال مجاهد وغيره : وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان ، والكافران : النمرود ، وبختنصر .

وذكروا أن نمرود[2] هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة ، وكان طغى وبغى ، وتجبر وعتا ، وآثر الحياة الدنيا .

ولما دعاه ابراهيم الخليل الى عبادة الله وحده لا شريك له ، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على انكار الصانع ، فحاج ابراهيم الخليل في ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية . فلما قال الخليل : ﴿ **ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت** ﴾ .

قال قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق : يعني أنه إذا أتي بالرجلين قد تحتم قتلهما ، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر .

وهذا ليس بمعارضة للخليل ، بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة ، ليس بمنع ولا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

(٢) آثار النمرود باقية في العراق الى يومنا هذا أما من أين جاء. الراوي بهذا العمر فالله أعلم

بمعارضة ، بل هو تشغيب محض ، وهو انقطاع في الحقيقة ؛ فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها ، على وجود فاعل ، ذلك الذي لا بد من استنادها الى وجوده ، ضرورة عدم قيامها بنفسها . ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة ، من خلقها وتسخيرها ، وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر ، وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة ، ثم اماتتها . ولهذا قال ابراهيم : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ .

فقول هذا الملك الجاهل : ﴿ أنا أُحيي وأُميت ﴾، إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند . وإن عنى ما ذكره قتادة والسدي ومحمد بن إسحاق، فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل ؛ إذ لم يمنع مقدمة ، ولا عارض الدليل .

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع ، وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة .

قال : ﴿ فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب ﴾ أي هذه الشمس مسخرة كل يوم ، تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها ، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء ، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ، ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ، ودان له كل شيء . فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت . وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها .

فبيّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه ، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به ، بل انقطع وسكت ولهذا قال : ﴿ فبُهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين ابراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ، ولم يكن اجتمع به يومئذٍ ، فكانت بينهما هذه المناظرة .

وقد روى عبد الرزاق عن معمر ، عن زيد بن أسلم ، أن النمرود كان عنده طعام ، وكان الناس يفدون اليه للميرة ، فوفد ابراهيم في جملة من وفد للميرة ، ولم يكن اجتمع به إلا يومئذٍ ، فكانت بينهما هذه المناظرة ، ولم يعط ابراهيم من الطعام كما أعطي الناس ، بل خرج وليس معه شيء من الطعام .

فلما قرب من أهله عمد الى كثيب من التراب ، فملأ منه عدليه وقال : أشغل أهلي إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام ، فقامت امرأته سارة الى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً ، فعملت منه طعاماً . فلما استيقظ ابراهيم وجد الذي قد أصلحوه ، فقال :

إنى لكم هذا ؟ قالت : من الذي جئت به ، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل .

قال زيد بن أسلم : وبعث الله الى ذلك الملك الجبار ، ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ، ثم دعاه الثانية فأبى عليه ، ثم دعاه الثالثة فأبى عليه وقال : اجمع جموعك وأجمع جموعي .

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس ، فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاماً بادية ، ودخلت واحدة منها في منخر الملك فمكثت في منخره أربعمائة سنة[1] ، عذبه الله تعالى بها . فكان يضرب رأسه بالمرازب في هذه المدة كلها ، حتى أهلكه الله عز وجل بها .

***

(١) إذا مكثت في منخره هذه المدة فكم عاش ؟ وقد ذكر في البداية أن هذه المدة هي كل عمره

ذكر هجرة الخليل عليه السلام إلى بلاد الشام
ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

قال الله تعالى : ﴿ **فآمن له لوط وقال إني مهاجرٌ إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين * ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلةً وكُلًّا جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فِعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين** ﴾(٢) .

لما هجر قومه في الله ، وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت امرأته عاقرا لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر ، وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب . فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده ، فعلى أحد نسله وعقبه ، خلعة من الله وكرامة له ، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه ، وهاجر الى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ، ودعوة الخلق اليه

والأرض التي قصدها بالهجرة أرض الشام ، وهي التي قال الله عز وجل : ﴿ **إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين** ﴾ .

قاله أُبي بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم .

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الأنبياء الآيات ٧١ - ٧٣ .

وروى العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ مكة ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ إن أول بيتٍ وُضع للناس للذي ببكة مُباركاً وهُدىً للعالمين ﴾[1] وزعم كعب الأحبار أنها حران [2]

وقد قدمنا عن نقل أهل الكتاب : أنه خرج من أرض بابل هو وابن أخيه لوط ، وأخوه ناجور ، وامرأة ابراهيم سارة ، وامرأة أخيه « ملكا » فنزلوا حران ، فمات تارح أبو ابراهيم بها .

وقال السدي : انطلق ابراهيم ولوط قبل الشام ، فلقي ابراهيم سارة ـ وهي ابنة ملك حران ـ وقد طعنت على قومها في دينهم ، فتزوجها على أن لا يغيرها . رواه ابن جرير وهو غريب .

والمشهور أنها ابنة عمه هاران الذي تنسب اليه حران .

ومن زعم أنها ابنة أخيه هاران أخت لوط ، كما حكاه السهيلي عن القتيبي والنقاش ، فقد أبعد النجعة ، وقال بلا علم .

ومن ادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً فليس له على ذلك دليل . ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت ـ كما هو منقول عن الربانيين من اليهود [3] فإن الأنبياء لا تتعاطاه . والله أعلم .

ثم المشهور ان ابراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده كما تقدم . والله أعلم .

وذكر أهل الكتاب أنه لماقدم الشام أوحى الله اليه : « إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك »[4] فابتنى ابراهيم مذبحاً لله شكراً على هذه النعمة ، وضرب قبته شرقي بيت المقدس ثم انطلق مرتحلاً ، الى التيمن ، وأنه كان جوع ، أي قحط وشدة وغلاء ، فارتحلوا إلى مصر .

وذكروا قصة سارة مع ملكها ، وأن ابراهيم قال لها : قولي أنا أخته . وذكروا إخدام الملك إياها هاجر . ثم أخرجهم منها فيرجعوا الى بلاد التيمن ، يعني أرض بيت المقدس وما والاها ، ومعه دواب وعبيد وأموال[4] .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب عن محمد ، عن ابي هريرة قال : « لم يكذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات : اثنتان منهن في ذات الله ، قوله : ﴿ إني

---

(١) سورة آل عمران ٩٦ .

(٢) لأن كعب الأحبار ينقل عن أسفار اليهود .

(٣) اليهود في أسفارهم جعلوا ابن سليمان يتزوج أخته .

(٤) من الإسرائيليات .

سقيم ﴾ ، وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ ، وقال : بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل اليه وسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختي . فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، وإن هذا سألني فأخبرته أنك اختي فلا تكذبيني .

فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : ادعى الله لي ولا أضرك » فدعت الله فأطلق .ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال : « أدعي الله لي ولا أضرك »، فدعت فأطلق . فدعا بعض حجبته فقال : إنكم لم تأتوني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر .

فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده : مهيم ؟ فقالت : رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره ، وأخدم هاجر .

قال أبو هريرة :« فتلك أمكم يا بني ماء السماء » .

تفرد به من هذا الوجه موقوفاً .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار ، عن عمرو بن علي الفلاس ، عن عبد الوهاب الثقفي ، عن هشام بن حسام ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن ابراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات ، كل ذلك في ذات الله ، قوله : « إني سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » ، وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً ، فأتى الجبار فقيل له : انه قد نزل ها هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل اليه فسأله عنها فقال : إنها أختي ، فلما رجع اليها قال : إن هذا سألني عنك فقلت إنك أختي ، وأنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك ، وأنك أختي فلا تكذبيني عنده .

فأنطلق بها ، فلما ذهب يتناولها أخذ ، فقال : « ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل فذهب يتناولها فأخذ مثلها أو أشد منها ، فقال : ادعي الله لي ولا أضرك ، فدعت فأرسل ، ثلاث مرات ، فدعا أدنى حشمه فقال : إنك لم تأتني بإنسان ولكن أتيتني بشيطان ، أخرجها وأعطها هاجر .

فجاءت وإبراهيم يصلي . فلما أحس بها انصرف ، فقال : مهيم ؟ فقالت : كفى الله كيد الظالم . وأخدمني هاجر » .

وأخرجاه من حديث هشام . ثم قال البزار : لا يعلم أسنده عن محمد عن أبي هريرة إلا هشام . ورواه غيره موقوفاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن حفص ، عن ورقاء - هو أبو عمر اليشكري - عن أبي

كذبات : قوله حين دُعي الى آلهتهم ، فقال : « إني سقيم » ، وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » ، وقوله لسارة : « إنها أختي » .

قال : ودخل ابراهيم قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة ، فقيل : دخل ابراهيم الليلة بامرأة من أحسنِ الناس ، قال : فأرسل اليه الملك أو الجبار : من هذه معك ؟ قال : أختي ، قال : فأرسِل بها[1] ، قال فأرسَل بها إليه ، وقال : لا تكذبي قولي ، فإني قد أخبرته أنك أختي ، إن ما على الأرض مؤمن غيري وغيرك .

فلما دخلت عليه قام اليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم إن كنت تعلم إني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلط عليَّ الكافر . قال : فغط حتى ركض برجله .

قال أبو الزناد : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنها قالت : اللهم ان يمت يقال هي قتلته . قال : فأرسل .

قال : ثم قام إليها ، قال : فقامت تتوضأ وتصلي وتقول : اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي ، فلا تسلط عليَّ الكافر . قال : فغط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد : وقال أبو سلمة عن أبي هريرة أنها قالت : اللهم ان يمت يقال هي قتلته ، قال : فأرسل .

قال : فقال في الثالثة أو الرابعة : ما أرسلتم إليَّ إلا شيطاناً ، أرجعوها إلى ابراهيم وأعطوها هاجر .

قال : فرجعت ، فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة ! تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح .

وقد رواه البخاري عن أبي اليمان ، عن شعيب بن أبي حمزة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ به مختصراً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سفيان ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ في كلمات ابراهيم الثلاث التي قال فيها : « ما منها كلمة إلا ماحل[2] بها عن دين الله ؛ فقال : إني سقيم ، وقال : بل فعله كبيرهم هذا وقال

---

(١) فأرسل : بكسر السين : فابعث بها ، والثانية : بفتحها أي فبعث بها .

(٢) ماحل : جادل ودافع .

للملك حين أراد امرأته : هي أختي » .

فقوله في الحديث : « هي أختي » أي في دين الله . وقوله لها : « أنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك » يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك . ويتعين حمله على هذا لأن لوطاً كان معهم وهو نبي عليه السلام .

وقوله لها لما رجعت اليه : مهيم ؟ معناه : ما الخبر . فقالت : إن الله رد كيد الكافرين . وفي رواية : الفاجر ـ وهو الملك ـ وأخدم جارية .

وكان ابراهيم عليه السلام من وقت ذُهب بها إلى الملك ، قام يصلي لله عز وجل ، ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء . وهكذا فعلت هي أيضاً . فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها ، ودعت الله عز وجل بما تقدم من الدعاء العظيم . ولهذا قال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾[1] فعصمها الله لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله ابراهيم عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة ، وأم موسى ومريم عليهن السلام . والذي عليه الجمهور أنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن .

ورأيت في بعض الآثار ان الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين ابراهيم عليه السلام وبينها ، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه . وكان مشاهداً لها وهي عند الملك ، وكيف عصمها الله منه ، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينه وأشد لطمأنينته ، فإنه كان يحبها حباً شديداً ، لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر ، فإنه قد قيل : أنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها ، أحسن منها ، رضي الله عنها . ولله الحمد والمنة[2] .

وذكر بعض أهل التواريخ أن فرعون مصر هذا كان أخا للضحاك الملك المشهور بالظلم ، وكان عاملاً لأخيه على مصر . ويقال كان اسمه سنان بن علوان بن عبيد بن عويج بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح . وذكر ابن هشام في التيجان : أن الذي أرادها عمرو بن امرىء القيس بن مايلون بن سبأ ، وكان على مصر . نقله السهيلي والله أعلم .

ثم ان الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر الى أرض التيمن ، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها ، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية .

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٥ .

(٢) وقد استغل اليهود هذه الواقعة في الطعن على خليل الرحمن عليه السلام ، كما طعنوا غيره من الأنبياء وسيرد تعليقنا في مواضعه وقد وافقهم قسس المسيحيين على هذا الطعن باعتبارهم أن أسفار اليهود هي العهد القديم من الكتاب المقدس وأنها كل لا يتجزأ وقضوا بصحة ما جاء فيها .

الغور ، المعروف بغور زغر ؛ فنزل بمدينة سدوم وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان ، وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً .

وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل ، فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك الى آخر الدهر ، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض .

وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة ، بل ما كملت ولا كانت أعظم منها في هذه الأمة المحمدية .

ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أُمتي ما زوى لي منها »[١] .

قالوا : ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عليه السلام فأسروه ، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه فلما بلغ الخبر ابراهيم الخليل سار اليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً عليه السلام واسترجع أمواله ، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل الى شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزة[٢] ، وأظن مقام ابراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل . والله أعلم .

ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده ، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين ، واستقر ببلاده . صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

---

(١) أخرجه الطبراني عن سلمان وجابر بن عبد الله .

(١) في سفر الخروج من أسفار أحبار اليهود التي يدعون أنها التوراة أو العهد القديم من الكتاب المقدس : أن إبراهيم هزم جيوش ملك عيلام واسترد لوطاً والشعب وكان ملك سدوم هارباً في الجبال فعرض على ابراهيم أن يأخذ الغنائم ويدع الأسرى فقال : رفعت يدي الى الرب الإله العلي لا آخذ خيطاً ولا شراك نعل من كل ما هو لك لئلا تقول : أنا أغنيت أبرام .

ذكر مولد إسماعيل عليه السلام من هاجر

قال أهل الكتاب : أن ابراهيم عليه السلام سأل الله ذرية طيبة وإن الله بشره بذلك . وأنه لما كان لابراهيم ببلاد المقدس عشرون سنة قالت سارة لابراهيم عليه السلام : إن الرب قد حرمني الولد ، فادخل على أمتي هذه لعل الله يرزقني منها ولداً .

فلما وهبتها له دخل بها ابراهيم عليه السلام ، فحين دخل بها حملت منه . قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها[1] . فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى ابراهيم ، فقال لها : إفعلي بها ما شئت ، فخافت هاجر فهربت فنزلت عند عين هناك . فقال لها ملك من الملائكة : لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابناً وتسميه اسماعيل . ويكون وحش الناس ، يده على الكل ، ويد الكل عليه[2] ، ويملك جميع بلاد إخوته ، فشكرت الله عز وجل على ذلك .

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه ؛ فإنه الذي به سادت العرب ، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً ، وأتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم ، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل ، وبركة رسالته ويمن بشارته وكماله فيما جاء به ، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض .

ولما رجعت هاجر وضعت اسماعيل عليه السلام .

(١) لم تكن هاجر أمة بل كانت أميرة مصرية أحبت صحبة سارة فوهبها لها عزيز مصر والقصة قصة الغيرة الأبدية بين النساء ، إنما كل ما يروى خلاف ذلك فهو من الإسرائيليات .

(٢) في الأصل « به » وهو خطأ النقل وقد أوردنا نص العبارة كاملة وصحيحة في بداية قصة ابراهيم الخليل عليه السلام ، كما وردت في سفر التكوين .

قـالوا : وولـدته ولابـراهيم من العمر ست وثمـانون سنـة ، قبل مـولد إسحـاق بثلاث عشـرة سنة .

ولما ولد اسماعيل أوحى الله إلى ابـراهيم يبشره بـاسحاق من سـارة ، فخر لله سـاجداً ، وقـال لـه : وقد استجبت لـك في اسماعيـل وباركت عليـه وكثرتـه ونميته جـداً كثيراً ، ويـولد لـه اثنا عشر عظيماً ، وأجعله رئيساً لشعب عظيم(١) .

وهـذه أيضاً بشـارة بهذه الأمـة العظيمـة ، وهؤلاء الأثنا عشر عـظيماً هم الخلفـاء الـراشـدون الأثنـا عشر ، المبشر بهم في حـديث عبـد الملك بن عمـير ، عن جـابـر بن سمــرة ، عن النبي ﷺ قال : « يكون اثنا عشر أميراً » . ثم قـال كلمة لم أفهمهـا ، فسألت أبي مـا قال : قـال : « كلهم من قريش » . أخرجاه في الصحيحين (٢) .

وفي رواية : « لا يزال هـذا الأمر قـائماً - وفي روايـة عزيـزاً - حتى يكون اثنـا عشر خليفة كلهم من قريش » .

فهؤلاء منهم الأئمـة الأربعة : أبـو بكـر وعمـر وعثمـان وعـلي ، ومنهم عمـر بن عبـد العـزيـز أيضـاً ، ومنهم بعض بني العبـاس . وليس المـراد أنهم يكـونـوا اثني عشر نسقـاً بـل لا بـد من وجودهم .

وليس المراد الأئمة الاثني عشر الـذين يعتقد فيهم الـرافضة ، الـذين أولهم علي بن أبي طـالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامراء - وهو محمد بن الحسن العسكري فيـما يزعمـون - فإن أولئـك لم يكن فيهم انفع من علي وابنـه الحسن بن علي ، حـين ترك القتـال وسلم الأمر لمعـاوية ، وأخمـد نار الفتنـة وسكن رحى الحـرب بين المسلمـين ، والباقـون من جملة الرعـايا لم يكن لهم حكم عـلى الأمـة في أمـر من الأمور . وأما ما يعتقدونه بسرداب سامراء ، فـذلك هـوس في الرؤوس ، وهـذيان في النفـوس ، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر .

والمقصود أن هاجـر عليها السـلام لما ولـد لها اسمـاعيل ، واشتـدت غيرة سـارة منها ، وطلبت من الخليـل أن يغيب وجهها عنهـا ، فـذهب بها وبـولـدها ، فسـار بهـما حتى وضعهـما حيث مكـة اليوم .

ويقال إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً .

فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت اليـه هاجـر وتعلقت بثيابـه ، وقالت : يـا إبراهيم أين

(١) وإما إسماعيل فقد سمعت قـولك فيـه ها أنـذا أباركـه وأنميه وأكثـره جداً جـداً ويلد اثني عشر رئيساً واجعله أمـة عظيمـة (سفر التكوين الفصل ١٧ عدد ٢١) .

(٢) كل هذا اسرائيليات .

تـذهب وتدعنـا ها هنـا وليس معنا مـا يكفينا ؟ فلم يجبهـا فلما ألحت عليه وهـو لا يجيبها قـالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : فإذن لا يضيعنا .

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله في كتاب النـوادر : أن سارة غضبت عـلى هاجـر فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها ، فأمرها الخليل أن تثقب أذنيها ، وأن تختنها فتبر قسمها .

قـال السهيـلي : فكـانت أول من اختتن من النسـاء ، وأول من ثقبت أذنـاً منهن ، وأول من طولت ذيلها[1] .

(١) ثوبها .

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه اسماعيل وأُمه هاجر
إلى جبال فاران وهي أرض مكة ، وبنائه البيت العتيق

قال البخاري : قال عبدالله بن محمد ـ هو أبو بكر بن أبي شيبة ـ حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة ، يزيد أحدهما عن الآخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل ، إتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة ، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذٍ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء .

ثم قفى[1] ابراهيم منطلقاً فتبعته أم اسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا يضيعنا . ثم رجعت .

فانطلق ابراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ **ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فآجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وآرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾[2]

وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال يتلبط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً . فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها ، ثم

(١) قفى : أراد العودة من حيث أتى .

(٢) سورة ابراهيم الآية ٣٧ .

سعت سعي الانسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها ، ونظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فلذلك سعى الناس بينهما » .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ، تريد نفسها . ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث . فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا . وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف .

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم اسماعيل ! لو تركت زمزم ـ أو قال لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً » قال : فشربت وأرضعت ولدها . فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة ، فإن ها هنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً[1] ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا .

قال : وأم اسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم . ولكن لا حق لكم في الماء عندنا . قالوا : نعم .

قال عبد الله بن عباس : قال النبي ﷺ : فألفى ذلك أم أسماعيل وهي تحب الأنس . فنزلوا وأرسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم .

وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم[2] وأعجبهم حين شب . فلما أدرك زوجوه امرأة منهم .

وماتت أم اسماعيل ، فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، وشكت اليه . قال : فإذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه .

فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم جاءنا شيخ

---

(١) عائفاً : باحثاً عن الماء .

(٢) أنفسهم : ملأ نفوسهم حباً به .

كذا كذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني : كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك غيّر عتبة بابك . قال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم أخرى ، ولبث عنهم ابراهيم ما شاء الله . ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل . فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : « اللهم بارك لهم في اللحم والماء » .

قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذٍ حب[1] ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه » قال : فهما لا يخلو عليهما أحد[2] بغير مكة إلا لم يوافقاه .

قال : فإذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم . هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة . أمرني أن أمسكك .

ثم ما لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً . وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها

قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له . فقام عليه وهو يبني واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[3] .

قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ .

ثم قال : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا ابراهيم ابن نافع ، عن كثير بن كثير ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما كان بين ابراهيم وبين أهله ما كان ، خرج بإسماعيل وأم اسماعيل ومعهم شنة[4] ، فيها ماء . وذكر تمامه بنحو ما

---

(١) الحب بكسر الحاء : أناء من فخار يحفظ فيه الماء .

(٢) أي لا يتخذهما وحدهما طعاماً ، وهما : اللحم والماء .

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٧ .

(٤) الشنة : القربة البالية .

تقدم .

وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه ، وفي بعضه غرابة ، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الإسرائيليات ، وفيه أن اسماعيل كان رضيعاً إذ ذاك .

وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده اسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم . وذلك بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره ، فيكون عمر اسماعيل يومئذٍ ثلاث عشرة سنة . وهذا امتثال لأمر الله عز وجل في أهله ، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب . ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال ، كما هو مقرر في موضعه .

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن القرشي ، عن أبي الزناد عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « اختتن ابراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم » .

تابعه عبد الرحمن بن اسحق عن أبي الزناد ، وتابعه عجلان ، عن أبي هريرة ، ورواه محمد ابن عمرو عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة . وهكذا رواه مسلم عن قتيبة به .

وفي بعض الألفاظ : « اختتن ابراهيم بعد ما أتت عليه ثمانون سنة واختتن بالقدوم » والقدوم هو الآلة ، وقيل موضع .

وهذا اللفظ لا ينافي الزيادة على الثمانين . والله أعلم ، لما سيأتي من الحديث عند ذكر وفاته ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اختتن ابراهيم وهو ابن مائة وعشرين سنة . وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » . رواه ابن حبان في صحيحه .

وليس في هذا السياق ذكر قصة الذبيح وأنه اسماعيل ، ولم يذكر في قدمات[1] ابراهيم عليه السلام إلا ثلاث مرات : أولاهن بعد أن تزوج إسماعيل بعد موت هاجر ، وكيف تركهم من حين صغر الولد ـ على ما ذكر ـ إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم ، وقد ذكر أن الأرض كانت تطوى له . وقيل : أنه كان يركب البراق إذا سار إليهم ، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة ؟!

وكأن بعض هذه السياق متلقى من الإسرائيليات ومطرز بشيء من المرفوعات ، ولم يذكر فيه قصة الذبيح . وقد دللنا على أن الذبيح هو اسماعيل على الصحيح في سورة الصافات[2] .

---

(١) قدمات ابراهيم : عدد مرات قدومه إلى ولده .

(٢) من التفسير . وسيأتي الكلام عليه في الفصل التالي .

قصة الذبيح

قال الله تعالى : ﴿ وقال إني ذاهبٌ إلى ربي سيهدين * ربِّ هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلامٍ حليمٍ * فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام إني أذبحك فأنظر ماذا ترى ؟ قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين * إنَّ هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبحٍ عظيمٍ * وتركنا عليه في الآخرين * سلامٌ على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبينٌ ﴾ (١) .

يذكر تعالى عن خليله ابراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه ، سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فبشره الله تعالى بغلام حليم ، وهو اسماعيل عليه السلام ؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل . وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل ، لأنه أول ولده وبكره .

وقوله : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾(٢) أي شب وصار يسعى في مصالحه كأبيه ، قال مجاهد : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل .

فلما كان هذا ، رأى ابراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا . وفي الحديث عن ابن عباس مرفوعاً : « رؤيا الأنبياء وحي » قاله عبيد بن عمير أيضاً .

---

(١) سورة الصافات الآيات ٩٩ـ ١١٣ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٠٢ . وقد جاء في سفر التكوين أن الذبيح هو اسحق كراهة أن يكون الخير في سواهم فكذبوا وصدق الله رب العالمين .

وهـذا اختبار من الله عـز وجل لخليله في أن يـذبح هـذا الولـد العزيـز الذي جاءه على كبـر ، وقـد طعن في السن ، بعـد مـا أمـر بـأن يسكنـه هـو وأمـه في بـلاد قفـر ، ووادٍ ليس بـه حسيس ولا أنيس ، ولا زرع ولا ضرع . فامتثـل أمر الله في ذلـك ، وتركهـما هنـاك ثقـة بـالله وتـوكـلاً عليـه ، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً ، ورزقهما من حيث لا يحتسبان .

ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده هذا الذي قد أفرده عن أمـر ربه ، وهـو بكره ووحيـده الذي ليس له غيره ، أجاب ربه وامتثل أمره ، وسارع إلى طاعته .

ثم عـرض ذلك عـلى ولده ليكـون أطيب لقلبه وأهـون عليه من أن يـأخـذه قسـراً . ويـذبحـه قهراً : ﴿ **قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فأنظر ماذا ترى** ﴾ .

فبادر الغلام الحليم ، سر والـده الخليل ابـراهيم ، فقال : ﴿ **يـا أبتِ افعل مـا تؤمر ستجـدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾(١) . وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد .

قال الله تعالى : ﴿ **فلما أسلمـا وتله للجبين** ﴾(٢) قيـل : أسلما : أي استسلما لأمـر الله وعـزمـا عـلى ذلك . وقيـل : وهـذا من المقـدم والمؤخـر ، والمعنى : (تله للجبـين) أي ألقـاه عـلى وجهـه . قيل : أراد أن يذبحـه من قفاه لئلا يشاهـده في حال ذبحـه ، قالـه ابن عباس ومجـاهد وسعيـد بن جبير وقتادة والضحاك . وقيل : بل أضجعه كما تضجع الـذبائـح وبقي طرف جبينـه لاصقاً بـالأرض (وأسلما) أي سمي ابراهيم وكبر ، وتشهـد الولـد للموت . قـال السدي وغيـره : أمر السكـين على حلقه فلـم تقطع شيئاً . ويقال : جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس . والله أعلم .

فعند ذلك نودي من الله عز وجل : ﴿ **أن يا إبراهيم * قـد صـدقت الـرؤيـا** ﴾(٣) أي قـد حصـل المقصـود من اختبارك وطـاعتك ، ومبـادرتك الى أمـر ربك ، وبذلـت ولـدك للقربـان ، كما سمحت ببدنك للنيران ، وكما مـالك مبـذول للضيفان ! ولهـذا قال تعـالى : ﴿ **إن هـذا لهو البـلاء المبين** ﴾(٤) أي الاختبار الظاهر البين .

وقـوله : ﴿ **وفـديناه بـذبحٍ عظيمٍ** ﴾(٥) أي وجعلنا فـداء ذبح ولـده ما يسـره الله تعالى لـه من العوض عنه .

والمشهور عند الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن ، رآه مربـوطاً بسمـرة في ثبير . قـال الثوري

---

(١) سورة الصافات الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٠٣ .

(٣) سورة الصافات الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

(٤) سورة الصافات الآية ١٠٦ .

(٥) سورة الصافات الآية ١٠٧ .

عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً . وقال سعيد بن جبير : كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير ، وكان عليه عهن[1] أحمر . وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه ، وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه . رواه ابن أبي حاتم .

قال مجاهد : فذبحه بمنى ، وقال عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام .

فأما ما روي عن ابن عباس أنه كان وعلاً وعن الحسن أنه كان تيساً من الأروى واسمه جرير ، فلا يكاد يصح عنهما .

ثم غالب ما ها هنا من الآثار مأخوذ من الاسرائيليات . وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم والاختبار الباهر ، وأنه فدي بذبح عظيم ، وقد ورد في الحديث أنه كان كبشاً .

قال الامام أحمد : حدثنا سفيان ، حدثنا منصور ، عن خاله نافع عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله ﷺ الى عثمان ابن طلحة ، وقالت مرة : أنها سألت عثمان : لِمَ دعاك رسول الله ﷺ ؟ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما[2] فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي »[3] .

قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا .

وكذا روي عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس .

وهذا وحده دليل على أن الذبيح اسماعيل ؛ لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره والله أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو اسماعيل ؛ لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين** ﴾[4] . ومن جعله حالاً[5] فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحاق إنما هو اسرائيليات . وكتابهم فيه تحريف ، ولا سيما ها هنا قطعاً لا محيد عنه ، فإن عندهم أن الله أمر ابراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة من المعربة بكره

---

(١) العهن : الصوف .

(٢) تخمرهما : تغطيهما

(٣) حديث موضوع .

(٤) سورة الصافات الآية ١١٢ .

(٥) يعني من جعل كلمة (نبيا) حال من اسحاق فيكون التبشير به تبشيراً بنبوته لا بولادته .

إسحاق، فلفظة إسحاق ها هنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر ، إنما ذاك اسماعيل .

وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن اسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ ،وإسحاق والد يعقوب ـ وهو إسرائيل - الذي ينتسبون إليه ، فأرادوا أن يجروا هذا الشرف اليهم ، فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم ، وإنما أخذوه ـ والله أعلم ـ من كعب الأحبار ، أو من صحف أهل الكتاب .

وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم بل المنطوق بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل .

وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظي على أنه اسماعيل وليس بإسحاق من قوله : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب**﴾[1] قال : فكيف تقع البشارة باسحاق وأنه سيولد له يعقوب ، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له ؟

هذا لا يكون ، لأنه يناقض البشارة المتقدمة . والله أعلم .

وقد اعترض السهيلي على هذا الاستدلال بما حاصله أن قوله :﴿ **فبشرناها بإسحاق** ﴾ جملة تامة ، وقوله : ﴿ **ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ جملة أخرى ليست في حيز البشارة . قال : لأنه لا يجوز من حيث العربية أن يكون مخفوضاً إلا أن يعاد معه حرف الجر ، فلا يجوز أن يقال مررت بزيد ومن بعده عمرو ، حتى يقال من بعده بعمرو . وقال : فقوله : ﴿ **ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره : ووهبنا لاسحاق يعقوب .

وفي هذا الذي قاله نظر .

ورجح أنه إسحاق؛ واحتج بقوله : ﴿**فلما بلغ معه السعي** ﴾ قال : وإسماعيل لم يكن عنده ، إنما كان في حال صغره هو وأمه بجبال مكة فكيف يبلغ معه السعي ؟

وهذا أيضاً فيه نظر ، لأنه قد روي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق الى مكة ، يطلع على ولده وابنه ثم يرجع . والله تعالى أعلم .

فممن حكي القول عنه بأنه إسحاق كعب الأحبار . وروي عن عمر والعباس وعلي وابن مسعود ، ومسروق وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ، وعطاء والشعبي ومقاتل وعبيد بن عمير ،

(١) سورة هود الآية ٧١ .

وأبي ميسرة وزيد بن أسلم وعبدالله بن شقيق ، والزهري والقاسم وابن أبي بردة ومكحول ، وعثمان بن حاضر والسدي والحسن وقتادة ، وأبي الهذيل وابن سابط . وهو اختيار ابن جرير ، وهذا عجب منه وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس .

ولكن الصحيح عنه ـ وعن أكثر هؤلاء ـ انه إسماعيل عليه السلام . قال مجاهد وسعيد والشعبي ويوسف بن مهران وعطاء وغير واحد عن ابن عباس : هو اسماعيل عليه السلام .

وقال ابن جرير : حدثني يونس ؛ أنبأنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن قيس ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن ابن عباس أنه قال : المفدى اسماعيل ، وزعمت اليهود أنه اسحاق وكذبت اليهود .

وقال عبدالله ابن الامام أحمد عن أبيه : هو اسماعيل . وقال ابن أبي حاتم : سألت أبي عن الذبيح فقال : الصحيح أنه اسماعيل عليه السلام .

قال ابن أبي حاتم : وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة ، وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ، ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب ، وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح أنهم قالوا : الذبيح هو اسماعيل عليه السلام . وحكاه البغوي أيضاً عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء .

قلت : وروي عن معاوية ، وجاء عنه : أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : يا ابن الذبيحين ؛ فضحك رسول الله ﷺ .

واليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن اسحاق بن يسار ، وكان الحسن البصري يقول : لا شك في هذا .

وقال محمد بن اسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي ، عن محمد بن كعب : انه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام ـ يعني استدلاله بقوله بعد ذكر القصة ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ ـ فقال له عمر : إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت .

ثم أرسل الى رجل كان عنده بالشام ، كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم . قال : فسأله عمر بن عبد العزيز : أي ابني ابراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : اسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وان اليهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكره الله منه ، لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ، ويزعمون أنه إسحاق ، لأن إسحاق أبوهم .

وقد ذكرنا هذه المسألة مستقصاة بأدلتها وآثارها في كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

ذكر مولد إسحاق عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسنٌ وظالم لنفسه مبينٌ ﴾(١) .

وقد كانت البشارة به من الملائكة لابراهيم وسارة لما مروا بهما مجتازين ذاهبين الى مدائن قوم لوط ، ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم ، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذٍ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوطٍ * وامرأته قائمةٌ فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيءٌ عجيبٌ * قالوا أتعجبين من امر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيدٌ ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنَّا منكم وجلون * قالوا لا تَوْجَل إنا نبشرك بغلامٍ عليمٍ * قال أبشرتموني على أن مسّني الكبر فبِم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قومٌ منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجلٍ سمينٍ * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفةً قالوا لا تخف وبشروه بغلامٍ عليمٍ * فأقبلت امرأته في صرةٍ فصكت وجهها وقالت عجوزٌ عقيمٌ * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾(٤) .

---

(١) سورة الصافات الآيتان ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) سورة هود الآيات ٦٩ ـ ٧٣ .

(٣) سورة الحجر الآيات ٥١ ـ ٥٦ .

(٤) سورة الذاريات الآيات ٢٤ ـ ٣٠ .

يذكر تعالى : أن الملائكة ـ قالوا : وكانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل واسرافيل ـ لما وردوا على الخليل حسبهم أولاً أضيافاً ، فعاملهم معاملة الضيوف ، وشوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره ، فلما قربه اليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة الى الأكل بالكلية ، وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام فنكرهم إبراهيم وأوجس منهم خيفة : ﴿ **قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾[1] أي لندمر عليهم . فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم ، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم . فلما ضحكت استبشاراً بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾[2] أي بشرتها الملائكة بذلك ﴿ **فأقبلت امرأته في صرةٍ** ﴾ أي في صرخة ﴿ **فصكت وجهها** ﴾[3] أي كما يفعل النساء عند التعجب وقالت : ﴿ **يا ويلتي أألدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً** ﴾ أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيم أيضاً ، وهذا بعلي ، أي زوجي ، شيخاً ؟ تعجبت من وجود ولد والحالة هذه . ولهذا قالت : ﴿ **إن هذا لشيءٌ عجيبٌ * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيدٌ** ﴾[5] .

وكذلك تعجب ابراهيم عليه السلام استبشاراً بهذه البشارة وتثبيتاً لها وفرحاً بها ، ﴿ **قال أبشرتموني على أن مسّني الكبر فبِم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين** ﴾[6] . أكدوا الخبر بهذه البشارة وقرروه معه ، فبشروهما ﴿ **بغلامٍ عليمٍ** ﴾ ، وهو إسحاق أخو إسماعيل ، غلامٍ عليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر . وقال في الآية الأخرى : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ [7]

وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو اسماعيل ، وإن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

وعند أهل الكتاب أنه أحضر مع العجل الحنيذ ، وهو المشوي ، رغيفاً من مكة فيه ثلاثة أكيال وسمن ولبن . وعندهم أنهم أكلوا . وهذا غلط محض . وقيل : كانوا يرون أنهم يأكلون والطعام يتلاشى في الهواء .

---

(١) سورة هود الآية ٧٠ .

(٢) سورة هود الآية ٧١ .

(٣) سورة الذاريات الآيات ٢٩ .

(٤) سورة هود الآية ٧٢ .

(٥) سورة هود الآيتان ٧٢ ، ٧٣ .

(٦) سورة الحجر الآيتان ٥٤ ، ٥٥

(٧) سورة الحجر ٥٣ .

وعندهم أن الله تعالى قال لابراهيم : أما ساراي امرأتك فلا يدعى اسمها ساراي ولكن اسمها سارة ، وأُبارك عليها وأُعطيك منها ابناً ، وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه . فخر ابراهيم على وجهه ـ يعني ساجداً ـ وضحك قائلاً في نفسه : أبعد مائة سنة يولد لي غلام ؟ أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة ؟!

وقال ابراهيم لله تعالى : ليت اسماعيل يعيش قدامك . فقال الله لابراهيم : بحق ان امرأتك سارة تلد لك غلاماً وتدعو اسمه إسحاق الى مثل هذا الحين من قابل ، وأوثقه ميثاقي الى الدهر ولخلفه من بعده . وقد استجبت لك في اسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جداً كثيراً ، ويولد له اثنا عشر عظيماً وأجعله رئيساً لشعب عظيم[1] .

وقد تكلمنا على هذا بما تقدم . والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ، ثم من بعده يولد ولده يعقوب . أي يولد في حياتهما لتقر اعينهما به كما قرت بولده . ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة . ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله . وقال تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا** ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾[3] .

وهذا إن شاء الله ظاهر قوي . ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن ابراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه ، عن أبي ذر ، قال : قلت يا رسول الله : أي مسجد وضع أول ؟ قال ﷺ : « المسجد الحرام » . قلت : ثم أي ؟ قال ﷺ : « المسجد الأقصى » قلت : كم بينهما ؟ قال ﷺ : « أربعون سنة » . قلت : ثم أي ؟ قال ﷺ : « ثم حيث أدركت الصلاة فصلِّ فكلها مسجد » .

وعند أهل الكتاب : أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى ، وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله .

وهذا متجه . ويشهد له ما ذكرناه من الحديث ، فعلى هذا يكون بناء يعقوب عليه السلام وهو ـ اسرائيل ـ بعد بناء الخليل وابنه اسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء . وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق ؛ لأن ابراهيم عليه السلام لما دعا ، قال في دعائه كما قال تعالى : ﴿ **وإذ**

---

(١) راجع الملاحظة السابقة ص ١٥٨

(٢) سورة الانعام الاية ٨٤ .

(٣) سورة مريم الآية ٤٩ .

قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفورٌ رحيمٌ * ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون * ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نُعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء * الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إنَّ ربي لسميع الدعاء * رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لي ولوالديَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾[١] .

وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالاً ثلاثاً ـ كما ذكرناه عند قوله : ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي ﴾[٢] . وكما سنورده في قصته ـ فالمراد من ذلك والله أعلم ، أنه جدد بناءه ، كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ، ولم يقل أحد أن بين سليمان وابراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه . وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق اليه .

---

(١) سورة ابراهيم الآيات ٣٥ ـ ٤١

(٢) سورة ص الآية ٣٥ .

ذكر بناية البيت العتيق

قال الله تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والرُّكع السجود * وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍّ عميقٍ ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ إن أول بيتٍ وضع للناس للذي ببكة مُباركاً وهُدىً للعالمين * فيه آياتٌ بيناتٌ مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنيٌ عن العالمين ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ وإذ آبتلى إبراهيم ربه بكلماتٍ فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين * وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً وآتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى ابراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والرُّكع السجود * وإذ قال إبراهيم ربِّ آجعل هذا بلداً آمناً وآرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأُمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذابِ النار وبئس المصير * وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مُسلمةً لك وأَرِنا مناسكنا وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾(٣) .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ابراهيم عليه السلام أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس ، يعبدون الله فيه . وبوأ الله مكانه ، أي أرشده اليه ودله عليه .

وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره : أنه أرشد اليه بوحي من الله عز

(١) سورة الحج ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) سورة البقرة الآيات ١٢٤ ـ ١٢٩ .

وجل . وقد ذكرنا في صفة خلق السماوات : أن الكعبة بحيال البيت المعمور ، بحيث أنه لو سقط لسقط عليها ، وكذلك معابد السماوات السبع ، كما قال بعض السلف : أن في كل سماء بيتاً يعبد الله به أهل كل سماء ، وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض .

فأمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام أن يبني له بيتاً يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السماوات ، وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له ، المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض ، كما ثبت في الصحيحين : « ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة » .

ولم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام . ومن تمسك في هذا بقوله : ﴿ **مكان البيت** ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر ، لأن المراد مكانه المقدر في علم الله ، المقرر في قدره ، المعظم عند الأنبياء موضعه ، من لدن آدم إلى زمان ابراهيم .

وقد ذكرنا ان آدم نصب عليه قبة ، وأن الملائكة قالوا له : قد طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن السفينة طافت به أربعين يوماً أو نحو ذلك . ولكن كل هذه الأخبار عن بني اسرائيل . وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها ، فأما إن ردها الحق فهي مردودة .

وقد قال الله : ﴿ **إن أول بيتٍ وضع للناس للذي ببكة مُباركاً وهدىً للعالمين** ﴾[1] . أي أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى ، البيت الذي ببكة . وقيل محل الكعبة ﴿ **فيه آياتٌ بينات** ﴾[2] أي على أنه بناء الخليل ، والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده ، الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته . ولهذا قال : ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾[2] أي الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته ، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ، ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء . كما ذكر في حديث ابن عباس الطويل .

وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان الى أيام عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ؛ فأخره عن البيت قليلاً ، لئلا يشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت ، واتبع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذا ، فإنه قد وافقه ربه في أشياء : منها قوله لرسوله ﷺ : لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى ، فأنزل الله : ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلىً** ﴾[3] . وقد كانت آثار قدمي الخليل باقية في الصخرة الى أول الإسلام . وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٦ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٥ .

وثــور ومــن أرسى ثبيــراً مكــانــه	وراق لــيــرقــى في حــراء ونــازل
وبـالبيت حق البيت من بـطن مكـة	وبـالله ان الله لــيس بــغــافــل
وبـالحجـر المســود إذ يمسحــونــه	إذ اكتنفــوه بــالضحى والأصــائــل
ومـوطىء ابـراهيم في الصخـر رطبة	عــلى قـدميـه حـافيـاً غـير نـاعــل

يعني أن رجله الكـريمة غـاصت في الصخرة فصـارت على قـدر قدمـه حـافيـة لا منتعلة . ولهـذا قـال تعالى : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل** ﴾ أي في حال قولهما : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[1] فهما في غاية الإخلاص والطاعة لله عز وجل ، وهما يسألان من الله عز وجل السميع العليم أن يتقبل منهما ماهما فيه من الطاعة العظيمة والسعي المشكور : ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمةً مُسلمةً لك وأرِنا مناسكنا وتُب علينا إنك أنت التوَّابُ الرحيم** ﴾[1] .

***

والمقصـود أن الخليـل بنى أشـرف المسـاجـد في أشـرف البقـاع ، في وادٍ غـير ذي زرع ، ودعـا لأهلهـا بالبـركة ، وأن يـرزقوا من الثمـرات ، مع قلة الميـاه وعدم الأشجـار والزروع والثمـار ، وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً .

فاستجاب الله وله الحمد له مسألته ، ولبى دعوتـه ، وآتاه طلبتـه ، فقال تعـالى : ﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنـاً ويتخطف النـاس من حولهم** ﴾[3] . وقـال تعالى : ﴿ **أو لم نمكن لهم حَرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيءٍ رِزقاً من لدنا** ﴾[4]

وسـأل الله أن يبعث فيهم رسـولاً منهم ، أي من جنسهم ؛ وعـلى لغتهم الفصيحة البليغـة النصيحة ؛ لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية ، سعادة الأولى والآخرة .

وقـد استجاب الله لـه : فبعث فيهم رسولاً وأي رسـول ! ختم به أنبيـاءه ورسله ، وأكمل لـه من الـدين مـا لم يؤت أحـداً قبله ، وعمَّ بـدعـوتـه أهـل الأرض عـلى اختـلاف أجنـاسهم ولغــاتهم

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٨ .

(٣) سورة العنكبوت الآية ٦٧ .

(٤) سورة القصص الآية ٥٧ .

وصفاتهم ؛ في سائر الأقطار والأمصار والأعصار الى يوم القيامة ، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء ، لشرفه على نفسه وكمال ما أرسل به ، وشرف بقعته وفصاحة لغته ، وكمال شفقته على أُمته ، ولطفه ورحمته ، وكريم محتده ، وعظيم مولده ، وطيب مصدره ومورده .

ولهذا استحق ابراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض ، أن يكون منصبه ومحله وموضعه ، في منازل السماوات ورفيع الدرجات ، عند البيت المعمور ، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور ، الذي يدخله كل يوم سبعين ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون اليه الى يوم البعث والنشور .

وقد ذكرنا في التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت ، وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار بما فيه الكفاية ، فمن أراد فليراجعها ثم . ولله الحمد .

فمن ذلك ما قاله السدي : لما أمر الله ابراهيم واسماعيل أن يبنيا البيت لم يدريا أين مكانه ، حتى بعث الله ريحاً يقال له الخجوج لها جناحان ورأس في صورة حية ، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول ، وأتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس . وذلك حين يقول تعالى : ﴿ **وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت** ﴾[1] . . .

فلما بلغا القواعد وبنيا الركن ، قال ابراهيم لاسماعيل : يا بني اطلب لي حجراً حسناً أضعه ها هنا . قال : يا أبت ، إني كسلان تعب . قال : على ذلك . فانطلق ، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة[2] . وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس فجاءه اسماعيل بحجر فوجده عند الركن . فقال : يا أبت من جاءك بهذا ؟ قال : جاء به من هو أنشط منك . فبنيا وهما يدعوان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾ .

وذكر ابن أبي حاتم أنه بناه من خمسة أجبل ، وأن ذا القرنين - وكان ملك الأرض إذ ذاك مرَّ بهما وهما يبنيانه فقال : من أمركما بهذا ؟ فقال ابراهيم : الله أمرنا به . فقال : وما يدريني بما تقول ؟

فشهدت خمسة أكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق . وذكر الأزرقي : أنه طاف مع الخليل بالبيت[3] .

وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ، ثم بعد ذلك بنتها قريش ، فقصرت بها عن قواعد

(١) سورة الحج الآية ٢٦ .

(٢) الثغامة : نبت أبيض شديد البياض.

(٣) نرجح أنها قصة موضوعة .

ابراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام على ما هي عليه اليوم .

وفي الصحيحين من حديث مالك ، عن ابن شهاب ، عن سالم : أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر عن ابن عمر ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : « ألم تر أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد ابراهيم ؟ » فقلت : يا رسول الله : ألا تردها على قواعد ابراهيم ؟ فقال : « لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت » . وفي رواية « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ، أو قال : بكفر ، لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر » .

وقد بناها ابن الزبير رحمه الله في أيامه على ما أشار اليه رسول الله ﷺ حسبما أخبرته به خالته عائشة ، أم المؤمنين عنه ، فلما قتله الحجاج في سنة ثلاث وسبعين كتب الى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك ، فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه . فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحجر ، ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة ، فارتفع بابها الشرقي وسدوا الغربي بالكلية ، كما هو مشاهد الى اليوم .

ثم لما بلغهم ان ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا ، وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك .

ثم لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الامام مالك بن أنس في ردها على الصفة التي بناها ابن الزبير فقال له : إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة . يعني كلما جاء ملك بناها على الصفة التي يريد . فاستقر الأمر على ما هي عليه اليوم .

ذكر ثناء الله ورسوله الكريم
على عبده وخليله ابراهيم

قال الله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلماتٍ فأتمهنَّ قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾(١) . لما وفى ما أمره به ربه من التكاليف العظيمة ، جعله للناس إماما يقتدون به ويأتمون بهديه . وسأل الله أن تكون هذه الامامة متصلة بسببه ، وباقية في نسبه ، وخالدة في عقبه ، فأجيب الى ما سأل ورام ، وسلمت إليه الامامة بزمام ، واستثني من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون . كما قال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاًّ هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين * وإسماعيل وأليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾(٣) .

فالضمير في قوله ﴿ ومن ذريته ﴾ عائد على ابراهيم على المشهور ، ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليبا ، وهذا هو الحامل للقائل الآخر أن الضمير على نوح كما قدمنا في قصته . والله أعلم

وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾(٤) الآية . فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد ابراهيم الخليل ، فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لا تضاهى، ومرتبة علية لا تباهى . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران

(١) سورة البقرة الآية ١٢٤ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢٧ .

(٣) سورة الأنعام الآيات ٨٤ ـ ٨٧ .

(٤) سورة الحديد الآية ٢٦ .

عظيمان : اسماعيل من هاجر ، ثم إسحاق من سارة ، وولد له يعقوب ـ وهو اسرائيل ـ الذي ينتسب اليه سائر أسباطهم ، فكانت فيهم النبوة ، وكثروا جداً ، بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم ، واختصهم بالرسالة والنبوة ، حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني اسرائيل .

وأما اسماعيل عليه السلام ، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ، كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى . ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الاطلاق ، وسيدهم ، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، المكي ثم المدني . صلوات الله وسلامه عليه .

فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف[1] سوى هذه الجوهرة الباهرة ، والدرة الزاهرة ، وواسطة العقد الفاخرة ، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع ، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة .

وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كما سنورده أنه قال : « سأقوم مقاماً يرغب إلي الخلق كلهم حتى ابراهيم » .

فمدح ابراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق ، ودلَّ كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق ، في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق[2] .

وقال البخاري : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن منصور عن المنهال ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ بهما اسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » .

ورواه أهل السنن[3] من حديث منصور به .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تُحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعةً من الطير فصرهُنَّ إليك ثم اجعل على كلِ جبلٍ منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيزٌ حكيم** ﴾[4] ذكر المفسرون لهذا السؤال أسباباً بسطناها في التفسير وقررناها بأتم تقرير .

---

(١) العظيم .

(٢) يوم تقوم القيامة .

(٣) ابو داوْد والنسائي وسواهما .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٠

والحاصل : أن الله عز وجل أجابه الى ما سأل ، فأمره أن يعمد الى أربعة من الطيور . واختلفوا في تعيينها على أقوال ، والمقصود حاصل على كل تقدير ، فأمره أن يمزق لحومهن وريشهن ، ويخلط ذلك بعضه في بعض ، ثم يقسمه قسماً ويجعل على كل جبل منهن جزءاً ففعل ما أمر به . ثم أمره أن يدعوهن بإذن ربهن ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير الى صاحبه ، وكل ريشة تأتي الى أختها ، حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه ، وهو ينظر الى قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون . فأتين اليه سعياً ، ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيراناً .

ويقال أنه أمر أن يأخذ رؤوسهن في يده ، فجعل كل طائر يأتي فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان . فلا إله إلا الله .

وقد كان ابراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على احياء الموتى علماً يقيناً لا يحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ، ويترقى من علم اليقين الى عين اليقين ! فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله[1] .

* * *

وقال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لِمَ تُحاجون في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علمٌ فلِم تحاجون فيما ليس لكم به علمٌ والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين آتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين** ﴾[2] .

ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين ، كون الخليل على ملتهم وطريقتهم ، فبرأه الله منهم ، وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله : ﴿ **وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده** ﴾ أي فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده بمدد متطاولة ؟ ولهذا قال : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين** ﴾ .

---

(١) سؤال ابراهيم عليه السلام كان ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ إذاً السؤال لم يكن لليقين ، إذ كان موقناً ، بل كان لرؤية الكيفية التي يتم بها إحياء الموتى والله أعلم .

(٢) سورة آل عمران الآيات ٦٥ ـ ٦٨ .

فبين أنه كان على دين الله الحنيف ، وهو القصد الى الاخلاص ، والانحراف عمداً عن الباطل الى الحق الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية .

كما قال تعالى : ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مُسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون * تلك أُمةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسألون عما كانوا يعملون * وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قُل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قولوا آمنا بآلله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد آهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاقٍ فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم * صبغة الله ومن أحسن من الله صبغةً ونحن له عابدون * قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون * أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادةً عنده من الله وما آلله بغافلٍ عما تعملون * تلك أُمةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسئلون عما كانوا يعملون** ﴾[١] .

فنزه الله عز وجل خليله عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً ، وبيّن أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين . ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه** ﴾[٢] ، يعني الذين كانوا على ملته من أتباعه في زمانه ، ومن تمسك بدينه من بعدهم ، ﴿ **وهذا النبي** ﴾[٢] يعني محمداً ﷺ . فإن الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل ، وكمله الله تعالى له ، وأعطاه ما لم يعط نبياً ولا رسولاً من قبله ، كما قال تعالى : ﴿ **قل إنني هداني ربي إلى صراطٍ مستقيمٍ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أُمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لانعمه آجتباه وهداه إلى صراطٍ مستقيمٍ * وآتيناه في الدنيا حسنةً وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم**

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٣٠ ـ ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٨ .

(٣) سورة الأنعام الآيات ١٦١ ـ ١٦٣ .

أوحينا إليك أن آتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[1] .

وقال البخاري : حدثنا ابراهيم بن موسى ، حدثنا هشام ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت . ورأى ابراهيم واسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : « قاتلهم الله ! والله إن استقسما بالأزلام قط ! » . لم يخرجه مسلم .

وفي بعض ألفاظ البخاري : « قاتلهم الله ! لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط » .

وقوله : ﴿ **أمة** ﴾ . أي قدوة إماماً مهتدياً داعياً إلى الخير ، يقتدى به فيه ﴿ **قانتاً لله** ﴾ أي خاشعاً له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿ **حنيفاً** ﴾ أي مخلصاً على بصيرة ، ﴿ **ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه** ﴾ أي قائماً بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ﴿ **اجتباه** ﴾ أي اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته . وإتخذه خليلاً وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة .

وقال تعالى : ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو مُحسنٌ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً** ﴾[2] يرغب تعالى في اتباع ابراهيم عليه السلام ، لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم وقد قام بجميع ما أمره به ربه ، ومدحه تعالى بذلك فقال : ﴿ **وإبراهيم الذي وفى** ﴾[3] . وإتخذه الله خليلاً ، والخلة هي غاية المحبة كما قال بعضهم :

قد تخللت مسلك الروح مني   وبذا سمي الخليل خليلا

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أيها الناس ، إن الله آتخذني خليلاً » .

وقال أيضاً في آخر خطبة خطبها : « أيها الناس . . . لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » .

أخرجاه من حديث أبي سعيد .

وثبت أيضاً من حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس وابن مسعود . وروى البخاري في

(١) سورة النحل الآيات ١٢٠ ـ ١٢٣ .
(٢) سورة النساء الآية ١٢٥ .
(٣) سورة النجم الآية ٣٧ .

صحيحه : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا شعبة ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن عمرو بن ميمون ، قال : إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ : ﴿ **واتخذ الله ابراهيم خليلاً** ﴾ فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم ابراهيم !

وقال ابن مردويه : حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم ، حدثنا اسماعيل بن أحمد بن أسيد ، حدثنا ابراهيم بن يعقوب الجوزجاني بمكة ، حدثنا عبدالله الحنفي ، حدثنا زمعة بن صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه ، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول : عجباً أن الله اتخذ من خلقه خليلاً ! فإبراهيم خليله ، وقال آخر : ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً . وقال آخر : فعيسى روح الله وكلمته . وقال آخر : آدم اصطفاه الله . فخرج عليهم ﷺ فسلم وقال : « قد سمعت كلامكم وعجبكم أن ابراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى كليمه وهو كذلك ، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ، ألا وإني حبيب الله ولا فخر ، ألا واني أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلقة باب الجنة فيفتحه الله فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وله شواهد من وجوه أُخر والله أعلم[1] .

وروى الحاكم في مستدركه من حديث قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : أتنكرون أن تكون الخلة لابراهيم ؟ والكلام لموسى ؟ والرؤية لمحمد ؟ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمود بن خالد السلمي ، حدثنا الوليد ، عن اسحاق بن يسار قال : لما اتخذ الله ابراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجل حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير في الهواء .

وقال عبيد بن عمير : كان ابراهيم عليه السلام يضيف الناس ، فخرج يوماً يلتمس انساناً يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه ، فرجع إلى داره فوجد فيها رجلاً قائماً ، فقال : يا عبد الله ما أدخلك داري بغير إذني ؟ قال : دخلتها بإذن ربها . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ملك الموت ، أرسلني ربي الى عبد من عباده ، أبشره بأن الله قد اتخذه خليلاً . قال : من هو ؟ فوالله إن

---

(١) قال النعماني في السراج الوهاج : والمحبة أرفع درجة من الجنة ، وثبت أن محمداً حبيب الله . والخليل يطمع في المغفرة ، والحبيب يغفر له قبل أن يطلب . قال الخليل : ﴿ **والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** ﴾ [الشعراء : الآية ٨٢] . وقيل لمحمد : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ [الفتح : الآية ٢] . وساق عدداً من الآيات يدل على قوله .

أخبرتني به ثم كـان بأقصى البلاد لآتينـه ، ثم لا أبرح لـه جاراً ، حتى يفـرق بيننا المـوت . قال : ذلـك العبد أنت . قـال : أنا ! قـال : نعم . قال : فبم اتخـذني ربي خليلاً ؟ قـال : **بـأنـك تعـطي** الناس ولا تسألهم .

رواه ابن أبي حاتم .

وقـد ذكره الله تعـالى في القرآن كثيـراً في غير مـا موضـع بالثنـاء عليه والمـدح له ، فقيـل : إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً ، منها خمسة عشر في البقرة وحدها .

وهو أحد أولي العـزم الخمسة المنصـوص على أسمـائهم تخصيصاً من بـين سائـر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى ، وهما قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنـك ومن نوحٍ وإبـراهيم ومـوسى وعيسى ابن مريم وأخـذنا منهم ميثـاقاً غليـظاً** ﴾[1] . وقولـه : ﴿ **شـرع لكم من الـدين مـا وصى بـه نوحـاً والذي أوحينـا إليك ومـا وصينـا بـه ابـراهيم ومـوسى وعيسى أن أقيمـوا الـدين ولا تتفرقوا** ﴾[2] الآية .

ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ .

وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السـابعة مسنـداً ظهره بـالبيت المعمور الـذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون اليه آخـر ما عليهم . ومـا وقع في حـديث شريـك بن أبي نمير عن أنس في حديث الاسـراء ؛ من أن ابراهيم في السـادسة ومـوسى في السابعـة ، فمما انتقـد على شريك في هذا الحديث . والصحيح الأول .

وقـال احمد : حـدثنا محمـد بن بشر ، حدثنـا محمد بن عمـرو ، حـدثنـا أبـو سلمـة ، عن أبي هـريرة قـال : قال رسـول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكـريم ابن الكريم ابن الكـريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم خليل الرحمن » .

تفرد به أحمد .

ثم مما يدل على أن ابراهيم أفضـل من موسى الحـديث الذي قـال فيه : « وأخـرت الثالثـة ليوم يرغب إلي الخلق كلهم حتى ابراهيم » . رواه مسلم منْ حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

وهذا هو المقـام المحمود الـذي أخبـر عنـه صلوات الله وسلامـه عليه بقـوله : « أنـا سيد ولـد آدم يوم القيامـة ولا فخر » . ثم ذكـر استشفاع النـاس بآدم ، ثم بنـوح ، ثم ابراهيم ، ثم مـوسى ،

(١) سورة الأحزاب الآية ٧ .

(٢) سورة الشورى الآية ١٣ .

ثم عيسى ، فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمداً ﷺ : فيقول : « أنا لها ، أنا لها » الحديث بتمامه .

وقال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبيد الله ، حدثني سعيد ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله من أكرم الناس ؟ قال : « أكرمهم أتقاهم » فقالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم . قال : « فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا »(١) .

وهكذا رواه البخاري في مواضع أُخر ، ومسلم والنسائي من طرق ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن عبيدالله ـ وهو ابن عمر ـ العمري به .

ثم قال البخاري : قال أبو أسامة ومعتمر عن عبيد الله ، عن سعيد ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

قلت : وقد أسنده في موضع آخر من حديثهما ، وحديث عبدة بن سليمان . والنسائي من حديث محمد بن بشر ، أربعتهم عن عبيدالله بن عمر ، عن سعيد ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولم يذكروا أباه .

وقال أحمد : حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :« ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم خليل الله » . تفرد به أحمد .

وقال البخاري : حدثنا عبدة ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم » .

تفرد به من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر به .

فأما الحديث الذي رواه الامام أحمد : حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثني مغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ : « يحشر الناس عراة غرلاً ، فأول من يكسى ابراهيم عليه السلام » ثم قرأ : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ فأخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما عن مغيرة بن النعمان النخعي

---

(١) أي الذين كانت أخلاقهم أخلاق الخير في الجاهلية فإذا أضيف إلى كل هذه الشمائل من الكرم والشجاعة والنخوة الخ أخلاق الاسلام وفقه الدين فقد اكتملت أخلاقهم .

الكوفي ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به .

وهذه الفضيلة المعينة لا تقتضي الأفضلية بالنسبة الى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود ، الذي يغبطه به الأولون والآخرون .

وأما الحديث الآخر الذي قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وأبو نعيم ، حدثنا سفيان ـ وهو الثوري ـ عن مختار بن فلفل ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رجل للنبي ﷺ : يا خير البرية . فقال ﷺ : « ذاك ابراهيم » فقد رواه مسلم من حديث الثوري وعبد الله بن ادريس ، وعلي بن مسهر ومحمد بن فضيل ، أربعتهم عن المختار بن فلفل .

وقال الترمذي : حسن صحيح .

وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل عليه السلام كما قال : « لا تفضلوني على الأنبياء » . وقال : « لا تفضلوني على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ؟ » .

وهذا كله لا ينافي ما ثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه من أنه سيد ولد آدم يوم القيامة . وكذلك حديث أُبي بن كعب في صحيح مسلم : « وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى ابراهيم » .

ولما كان ابراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، أمر المصلي أن يقول في تشهده ، ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة وغيره ، قال : قلنا يا رسول الله ، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم ، إنك حميد مجيد » .

وقال الله تعالى : ﴿ **وإبراهيم الذي وفى** ﴾[1] قالوا : وفى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الايمان وشعبه ، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار .

قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر ، عن ابن طاووس عن أبيه ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن** ﴾[2] قال : ابتلاه الله بالطهارة : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد . في الرأس قص الشارب ، والمضمضة ، والسواك ، والاستنشاق ، وفرق

---

(١) سورة النجم الآية ٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٤ .

الرأس . وفي الجسد : تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء ، رواه ابن أبي حاتم .

وقال : وروي عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك .

قلت : وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الفطرة خمس : الختان ، والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظفار ، ونتف الابط » .

وفي صحيح مسلم وأهل السنن من حديث وكيع ، عن زكريا بن أبي زائدة ، عن مصعب ابن شيبة العبدري [1] المكي الحجبي ، عن طلق بن حبيب العتري ، عن عبدالله بن الزبير ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم [2] ، ونتف الإبط وحلق العانة ، وانتقاص الماء يعني الاستنجاء » .

وسيأتي في ذكر مقدار عمره والكلام على الختان .

والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يشغله القيام بالاخلاص لله عز وجل وخشوع العبادة العظيمة ، عن مراعاة مصلحة بدنه ، وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الاصلاح والتحسين ، وإزالة ما يشين ، من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح [3] أو وسخ .

فهذا من جملة قوله تعالى في حقه من المدح العظيم : ﴿ وابراهيم الذي وفى ﴾ .

* * *

---

(١) من بني عبد الدار من قريش .

(٢) جمع برجمة ، وهي مفاصل الأصابع من ظهر الكف وما بين الظفر واللحم .

(٣) القلح : صفرة الأسنان وسوادها .

ذكر قصره في الجنة

قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن سنان القطان الواسطي ومحمد بن موسى القطان قال : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن سماك عن عكرمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة قصراً - أحسبه قال من لؤلؤة - ليس فيه فصم ولا وهي أعده الله لخليله ابراهيم عليه السلام نزلاً » . قال البزار : وحدثنا أحمد بن جميل المروزي ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن سماك عن عكرمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

ثم قال : وهذا الحديث لا نعلم من رواه عن حماد بن سلمة فأسنده إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل ، وغيرهما يرويه موقوفاً . قلت : لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح . ولم يخرجوه .

ذكر صفة ابراهيم عليه السلام

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس وحجين قالا : حدثنا الليث ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عرض عليَّ الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم فإذا أقرب من رأيت شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيت ابراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية » . تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه وبهذا اللفظ .

وقال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا اسرائيل ، عن عثمان - يعني ابن المغيرة - عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عيسى بن مريم وموسى وابراهيم ؛ فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم » . قالوا : فإبراهيم ؟ قال : « أنظروا إلى صاحبكم» يعني نفسه .

وقال البخاري : حدثنا بنان بن عمرو ، حدثنا النضر ، أنبأنا ابن عون ، عن مجاهد ، أنه سمع ابن عباس ، وذكروا له الدجال وأنه مكتوب بين عينيه كافر أو « ك ف ر » فقال : لم أسمعه ، ولكنه قال : قال ﷺ : « أما ابراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فجعد آدم على جمل أحمر مخطوم بخلبة[1] كأني أنظر اليه انحدر في الوادي » .

ورواه البخاري أيضاً ومسلم ، عن محمد بن المثنى ، عن ابن أبي عدي ، عن عبد الله بن عون به . وهكذا رواه البخاري أيضاً في كتاب الحج وفي اللباس ، ومسلم ، جميعاً عن محمد بن المثني عن ابن أبي عدي ، عن عبد الله بن عون به .

* * *

(١) الخطام للجمل هو كالرسن للدابة والخلبة حبل من ليف .

ذكر وفاة ابراهيم الخليل وما قيل في عمره

ذكر ابن جرير في تاريخه : أن مولده كان في زمن النمرود بن كنعان ، وهو - فيما قيل - الضحاك الملك المشهور ، الذي يقال أنه ملك ألف سنة ، وكان في غاية الغشم والظلم .

وذكر بعضهم أنه من بني راسب الذين بعث اليهم نوح عليه السلام ، وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا ، وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر ، فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود ، فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك ، فقالوا : يولد مولود في رعيتك يكون زوال ملكك على يديه . فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء ، وأن يقتل المولودون[1] من ذلك الحين ، فكان مولد ابراهيم الخليل في ذلك الحين، فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار ، شب شاباً باهراً وأنبته الله نباتاً حسناً ، حتى كان من أمره ما تقدم .

وكان مولده بالسوس ، وقيل ببابل ، وقيل بالسواد من ناحية كوثي . وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقي دمشق . فلما أهلك الله نمرود على يديه هاجر الى حران ، ثم إلى أرض الشام ، وأقام ببلاد ايليا كما ذكرنا . وولد له اسماعيل وإسحاق، وماتت سارة قبله بقرية حبرون[2] التي في أرض كنعان ، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب . فحزن عليها ابراهيم عليه السلام ، ورثاها رحمها الله ، واشترى من رجل من بني حث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربعمائة مثقال ، ودفن فيها سارة هنالك .

قالوا : ثم خطب ابراهيم على ابنه إسحاق فزوجه « رفقا » بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح ، وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجواريها على الابل .

قالوا : ثم تزوج ابراهيم عليه السلام « قنطورا » فولدت له : زمران ، ويقشان ، ومادان ،

---

(١) في بعض النسخ : أن يقتل الذكور .

(٢) التي تسمى الخليل (في فلسطين) وقبرها وقبر سيدنا ابراهيم عليه السلام في مغارة المكيفلة في نفس المدينة .

ومدين ، وشياق ، وشوح . وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا .

وقد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف ، عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت الى ابراهيم عليه السلام أخباراً كثيرة الله أعلم بصحتها ، وقد قيل أنه مات فجأة ، وكذا داود وسليمان . والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك .

قالوا : ثم مرض ابراهيم عليه السلام ، ومات عن مائة وخمس وسبعين ، وقيل : وتسعين سنة ، ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيثي ، عند امرأته سارة التي في مزرعة عفرون الحيثي ، وتولى دفنه اسماعيل واسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتي سنة كما قاله ابن الكلبي .

فقال أبو حاتم ابن حبان في صحيحه : أنبأنا المفضل بن محمد الجندي بمكة ، حدثنا علي بن زياد اللخمي ، حدثنا أبو قرة ، عن ابن جريج ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « اختتن ابراهيم بالقدوم وهو ابن عشرين ومائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة » .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق عكرمة بن ابراهيم وجعفر بن عون العمري ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد ، عن أبي هريرة موقوفاً .

ثم قال ابن حبان : ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن رفع هذا الخبر وهم : أخبرنا محمد ابن عبد الله بن الجنيد ، حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن ابن عجلان ، عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « اختتن ابراهيم حين بلغ عشرين ومائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، واختتن بقدوم » .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن سعيد ، عن ابن عجلان ، عن أبيه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ .

ثم روى ابن حبان عن عبد الرزاق ، أنه قال : القدوم اسم القرية .

قلت : الذي في الصحيح أنه اختتن وقد أتت عليه ثمانون سنة . وفي رواية وهو ابن ثمانين سنة ، وليس فيهما تعرض لما عاش بعد ذلك والله أعلم .

وقال محمد بن اسماعيل الحساني الواسطي زاد في تفسير وكيع عنه فيما ذكره من الزيادات ، حدثنا أبو معاوية ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : كان ابراهيم أول من تسرول ، وأول من فرق ، وأول من استحد ، واول من اختتن بالقدوم ، وهو ابن عشرين ومائة سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة ، وأول من قرى الضيف ، وأول من شاب .

هكذا رواه موقوفاً . وهو أشبه بالمرفوع خلافاً لابن حبان والله أعلم .

وقال مالك عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال : كان ابراهيم أول من أضاف الضيف ، وأول الناس اختتن ، وأول الناس قص شاربه ، وأول الناس رأى الشيب ، فقال : يا رب ما هذا ؟ فقال الله : « وقار » فقال : يا رب زدني وقاراً .

وزاد غيرهما : وأول من قص شاربه ، وأول من استحد ، وأول من لبس السراويل .

فقبره وقبر ولده إسحاق وقبر ولد ولده يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داود عليه السلام ببلد « حبرون » ، وهو البلد المعروف بالخليل اليوم . وهذا متلقى بالتواتر أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، من زمن بني اسرائيل وإلى زماننا هذا : أن قبره بالمربعة تحقيقاً . فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم . فينبغي أن تراعى تلك المحلة ، وأن تحترم احترام مثلها ، وأن تبجل ، وأن تجل أن يداس في أرجائها ، خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد أولاد الأنبياء عليهم السلام تحتها .

وروى ابن عساكر بسنده الى وهب بن منبه قال : وجد عند قبر ابراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة :

الهى جهولاً أمله يموت من جا أجله
ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وكيف يبقى آخراً من مات عنه أوله
والمرء لا يصحبه في القبر إلا عمله

ذكر أولاد ابراهيم الخليل

أول من ولـد له : اسمـاعيل من هـاجر القبـطية المصـرية ، ثم ولـد له اسحـاق من سارة بنت عم الخليل . ثم تزوج بعدها « قنطورا » بنت يقطن الكنعـانية فـولدت لـه ستة : مـدين ، وزمران ، وسرج ، ويقشان ، ونشق ، ولم يسم السادس ، ثم تزوج بعدها « حجون » بنت أمين ، فـولدت لـه خمسة : « كيسان ، وسورج ، وأميم ، ولوطان ، ونافس [1] . .

هكذا ذكره أبو القاسم السهيلي في كتابه : « التعريف والأعلام » .

(١) اسرائيليات .

قصة لوط عليه السلام

ومما وقع في حياة ابراهيم الخليل من الأمور العظيمة : قصة قوم لوط عليه السلام ، وما حل بهم من النقمة العميمة .

وذلك أن لوطاً بن هاران بن تارح ـ وهو آزر كما تقدم ـ ولوط ابن أخي ابراهيم الخليل فابراهيم وهاران وناحور أخوة كما قدمنا ، ويقال : أن هاران هذا هو الذي بنى حران . وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب والله تعالى أعلم .

وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له واذنه ، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر ، وكان أم[1] تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة اليها . ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوإهم طوية ، وأردإهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم اليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين .

فدعاهم لوط الى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات ، والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم ، وجعلهم مثلة في العالمين ، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين .

ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع في كتابه المبين . فقال تعالى في سورة الأعراف : **﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قومٌ مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أُناسٌ يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾**[2] .

---

(١) أمّ : قصد
(٢) سورة الأعراف الآيات ٨٠ ـ ٨٤ .

وقال تعالى في سورة هود : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذٍ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنّا أُرسلنا إلى قوم لوطٍ * وامرأته قائمةٌ فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب * قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيءٌ عجيبٌ * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميدٌ مجيدٌ * فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوطٍ * إن إبراهيم لحليمٌ أواهٌ منيبٌ * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذابٌ غير مردودٍ * ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يومٌ عصيبٌ * وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تُخزوني في ضيفيَّ أليس منكم رجلٌ رشيدٌ * قالوا : لقد علمت ما لنا في بناتك من حقٍّ وإنك لتعلم ما نُريد * قال لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ * قالوا : يا لوط إنَّا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسرِ بأهلك بقطعٍ من الليل ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريبٍ * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجيلٍ منضودٍ * مُسوَّمةً عند ربك وما هي من الظالمين ببعيدٍ ﴾(1) .

وقال تعالى في سورة الحجر : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنَّا منكم وجلون * قالوا لا تَوْجَل إنا نبشرك بغلامٍ عليم * قال : أبشرتموني على أن مسني الكبر فبِمَ تبشرون ؟ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضَّالون * قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين * إلاَّ آل لوطٍ إنَّا لمنجُّوهم أجمعين * إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين * فلما جاء آل لوطٍ المرسلون * قال إنكم قومٌ منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق وإنَّا لصادقون * فأسرِ بأهلك بقطعٍ من الليل واتَّبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحدٌ وامضوا حيث تُؤمرون * وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوعٌ مُصبحين * وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحونِ * واتقوا الله ولا تخزونِ * قالوا أوَ لم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيلٍ * إن في ذلك لآياتٍ للمتوسمين * وإنها لبسبيلٍ مقيمٍ * إن في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾(2) .

---

(1) سورة هود الآيات ٦٩ ـ ٨٣ .

(2) سورة الحجر الآيات ٥١ ـ ٧٧ .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم لوطٍ المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوطٌ ألا تتقون * إني لكم رسولٌ أمينٌ * فاتقوا الله وأطيعونِ * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلاَّ على ربِّ العالمين * أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قومٌ عادون * قالوا لئن لم تنتهِ يا لوط لتكونن من المخرجين * قال إني لعملكم من القالين * ربِّ نجني وأهلي مما يعملون * فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين * إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(١) .

وقال تعالى في سورة النمل : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قومٌ تجهلون * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوطٍ من قريتكم إنهم أُناسٌ يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾(٢) .

وقال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين * أإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال ربِّ انصرني على القوم المفسدين * ولما جاءت رُسلنا إبراهيم بالبشرىٰ قالوا إنَّا مُهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رُسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لا تخف ولا تحزن إنَّا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنَّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آيةً بينةً لقومٍ يعقلون ﴾(٣) .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وإن لوطاً لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلاَّ عجوزاً في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وإنَّكم لتمرُّون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾(٤) .

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٦٠ ـ ١٧٥ .

(٢) سورة النمل الآيات ٥٤ ـ ٥٨ .

(٣) سورة العنكبوت الآيات ٢٨ ـ ٣٥ .

(٤) سورة الصافات الآيات ١٣٣ ـ ١٣٨

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف ابراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم : ﴿ **قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارةً من طينٍ * مسوَّمةً عند ربك للمسرفين * فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين * وتركنا فيها آيةً للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾[1] .

وقال في سورة القمر : ﴿ **كذبت قوم لوط بالنُّذر * إنَّا أرسلنا عليهم حاصباً إلَّا آل لوطٍ نجيناهم بسحرٍ * نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونُذُر * ولقد صبحهم بُكْرةً عذابٌ مُستقرٌ * فذوقوا عذابي ونُذُرِ * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكرٍ** ﴾[2] .

وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السور في التفسير .

وقد ذكر الله لوطاً وقومه في مواضع أُخر من القرآن ؛ تقدم ذكرها مع نوح وعاد وثمود .

والمقصود الآن ايراد ما كان من أمرهم ، وما أحل الله بهم ، مجموعاً من الآيات والآثار . وبالله المستعان .

وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش ، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ، ولم يتركوا ما عنه نهوا . بل استمروا على حالهم ، ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم ، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم . واستضعفوه وسخروا منه ، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم ـ إذ كانوا لا يعقلون ـ إلا أن قالوا : ﴿ **أخرجوا آل لوط من قريتكم ، انهم أناس يتطهرون** ﴾[3] فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضي الاخراج ! وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج .

فطهره الله وأهله إلا امرأته ، وأخرجهم منها أحسن إخراج ، وتركهم في محلتهم خالدين ، لكن بعد ما صيرها عليهم بحرة منتنة ذات أمواج ، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج ، وحر يتوهج ، وماؤها ملح أجاج .

وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى ، والفاحشة الكبرى ، التي لم يسبقهم

(١) سورة الذاريات الآيات ٣١ ـ ٣٧ .
(٢) سورة القمر الآيات ٣٣ ـ ٤٠ .
(٣) سورة النمل الآية ٥٦ .

اليها أحد من أهل الدنيا . ولهذا صاروا مثلة فيها ، وعبرة لمن عليها .

وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ، ويخونـون الرفيق ، ويـأتون في نـاديهم ـ وهو مجتمعهم ومحل حـديثهم وسمرهـم ـ المنكـر من الأقوال والأفعـال عـلى اختـلاف أصنـافـه . حتى قيـل : إنهم كـانـوا يتضارطون في مجـالسهم ، ولا يستحون من مجـالسيهم ، وربما وقـع منهم الفعلة العظيمـة في المحافـل ولا يستنكفون ، ولا يرعوون لوعظ واعظ ، ولا نصيحة من عاقـل . وكانـوا في ذلك وغيـره كالأنعـام بل أضل سبيلاً ، ولم يقلعوا عما كانـوا عليه في الحـاضر ، ولا ندمـوا على مـا سلف من الماضي ، ولا راموا في المستقبل تحويلاً ، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً .

وقـالوا لـه فيها قـالوا : ﴿ **ائتنـا بعذاب الله إن كنت من الصـادقين** ﴾[1] فـطلبوا منـه وقـوع مـا حذرهم عنه من العذاب الأليم ، وحلول البأس العظيم .

فعنـد ذلك دعـا عليهم نبيهم الكريم ، فسـأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصـره عـلى القوم المفسدين .

فغـار الله لغيرتـه ، وغضب لغضبته ؛ واستجـاب لدعـوته ، وأجـابه الى طلبتـه ، وبعث رسله الكرام ، وملائكته العظام ، فمروا على الخليل ابراهيم وبشـروه بالغـلام العليم ، وأخبروه بمـا جاءوا له من الأمر الجسيم والخطب العميم : ﴿ **قال فما خطبكم أيها المرسلون * قـالوا إنـا أرسلنا إلى قـوم مجـرمين * لنـرسل عليهم حجـارةً من طينٍ * مسومةً عنـد ربك للمسـرفين** ﴾[2] . وقـال : ﴿ **ولمـا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكـو أهل هـذه القريـة إن أهلها كـانوا ظـالمين * قـال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلاَّ امرأته كانت من الغابرين** ﴾[3] .

وقـال الله تعـالى : ﴿ **فلما ذهب عن إبـراهيم الـروع وجـاءتـه البشـرى يجـادلنـا في قـوم لوطٍ** ﴾[4] . وذلك أنه كان يرجو أن يجيبـوا أو ينيبوا ويسلمـوا ويقلعوا ويـرجعوا ، لهـذا قال تعـالى : ﴿ **إن إبـراهيم لحليمٌ أواهٌ منيبٌ * يا إبـراهيم أعرض عن هـذا إنه قـد جـاء أمـر ربـك وإنهم آتيهم عـذابٌ غـير مـردودٍ** ﴾ . أي أعـرض عن هـذا وتكلم في غيـره ؛ فـإنـه قـد حتم أمـرهم ، ووجب عـذابهم وتدميـرهم وهلاكهم ﴿ **إنـه قد جـاء أمر ربـك** ﴾ أي قد أمـر به من لا يـرد أمره . ولا يـرد بأسه ، ولا معقب لحكمه . ﴿ **وإنهم آتيهم عذابٌ غير مردودٍ** ﴾ .

وذكر سعيد بن جبير والسدي وقتادة ومحمد بن إسحاق: أن ابراهيم عليه السـلام جعل يقـول :

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٢٩ .

(٢) سورة الذاريات الآيات ٣١ ـ ٣٤ .

(٣) سورة العنكبوت الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

(٤) سورة هود الآية ٧٤ .

أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : فمائتا مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال : فأربعة عشر مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال ابن اسحاق : إلى أن قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا : لا . ﴿ **قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها** ﴾ . الآية .

وعند أهل الكتاب أنه قال : يا رب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلاً صالحاً ؟ فقال الله : « لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحاً » . ثم تنازل إلى عشرة فقال الله : « لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون »[1] .

قال الله تعالى : ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يومٌ عصيبٌ** ﴾[2] . قال المفسرون : لما فصلت الملائكة من عند ابراهيم - وهم جبريل وميكائيل واسرافيل - أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم ، في صور شبان حسان ، اختباراً من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم . فتضيفوا لوطاً عليه السلام وذلك عند غروب الشمس ، فخشي ان لم يضفهم أن يضيفهم غيره ، وحسبهم بشراً من الناس ، و﴿ **سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يومٌ عصيبٌ** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن اسحاق : شديد بلاؤه . وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم ، كما كان يصنع بهم في غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً ، ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه .

وذكر قتادة : أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها ، فتضيفوا فاستحيا منهم ، وانطلق أمامهم ، وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية ، وينزلون في غيرها ، فقال لهم فيما قال : والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشى قليلاً ، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال : وكانوا قد أُمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقال السدي : خرجت الملائكة من عند ابراهيم نحو قرية لوط ، فأتوها نصف النهار ، فلما بلغوا سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها ، وكانت له ابنتان : اسم الكبرى « ريثا » والصغرى « زغرتا » . فقالوا لها : يا جارية ، هل من منزل ؟ فقالت لهم : نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت[3] عليهم من قومها فأتت أباها فقالت : يا أبتاه ، أرادك فتيان على باب المدينة . ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم ، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا : خل عنا فلنضف الرجال .

(١) سفر التكوين الإصحاح ١٨ من العدد ٢٤ الى العدد ٣٣ وهم يجعلون حديث ابراهيم عليه السلام مع الله سبحانه وليس مع الملائكة وهذا كله بهتان .

(٢) سورة هود الآية ٧٧ .

(٣) فرقت عليهم : خافت عليهم

فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ؛ فقالت : إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط . فجاءه قومه يهرعون إليه .

وقوله : ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾(1) أي هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ، ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هنَّ أطهر لكم ﴾(1) يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعاً ؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، كما ورد في الحديث ، وكما قال تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أُمهاتهم ﴾(2)، وفي قول بعض الصحابة والسلف : وهو أب لهم . وهذا كقوله : ﴿ أتأتونَ الذكران من العالمين * وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون ﴾(3) .

وهذا هو الذي نص عليه مجاهد وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحاق ، وهو الصواب .

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب ، وقد تصحف عليهم ، كما أخطأوا في قولهم : إن الملائكة كانوا اثنين ، وأنهم تعشوا عنده . وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطاً عظيماً .

وقوله :﴿ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجلٌ رشيدٌ ﴾(4) نهى لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة ، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير ، بل الجميع سفهاء ، فجرة أقوياء ، كفرة أغبياء .

وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه .

فقال قومه ، عليهم لعنة الله الحميد المجيد ، مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد : ﴿ لقد علمت ما لنا في بناتك من حقٍ وإنك لتعلم ما نريدُ ﴾(5) يقولون ـ عليهم لعائن الله ـ لقد علمت يا لوط أنه لا أربَ لنا في نسائنا ، وأنك لتعلم مرادنا وغرضنا من غير النساء .

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ، ولم يخافوا سطوة العظيم ، ذي العذاب الأليم . ولهذا قال عليه السلام : ﴿ قال لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ ﴾(6) ود أن لو كان له بهم قوة ، أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ، ليحلَّ بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب .

---

(1) سورة هود الآية ٧٨ .

(2) سورة الأحزاب الآية ٦ .

(3) سورة الشعراء الآيتان ١٦٥ ، ١٦٦

(4) سورة هود الآية ٧٨ .

(5) سورة هود الآية ٧٩ .

(6) سورة هود الآية ٨٠ .

وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً : « نحن أحق بالشك من ابراهيم ، ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي الى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » .

ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة .

وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط ، كان يأوي الى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده نبي إلا في ثروة من قومه »[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون * قالوا أولم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين** ﴾[2] . فأمرهم بقربان نسائهم ، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم .

هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون ، بل كلما نهاهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون ، ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم اليه صائرون وصبيحة ليلتهم اليه منقلبون .

ولهذا قال تعالى مقسماً بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ **لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر * ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** ﴾[4] .

ذكر المفسرون وغيرهم : أن نبي الله لوطاً عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرومون فتحه وولوجه ، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب ، وكل ما لهم في الحاح وإنحاح ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال : ﴿ **لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ** ﴾ لأحللت بكم النكال .

قالت الملائكة : ﴿ **يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك** ﴾[5] وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم ، فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم ، حتى قيل : أنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر ، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان ، ويتوعدون رسول الرحمن ، ويقولون : إذا كان الغد كان لنا وله شأن ! .

---

(١) الدر المنثور ٢/١٨٥ .

(٢) سورة الحجر الآيات ٦٧ - ٧١ .

(٣) سورة الحجر الآية ٧٢ .

(٤) سورة القمر الآيات ٣٦ - ٣٨ .

(٥) سورة هود الآية ٨١ .

قـال الله تعالى : ﴿ ولقـد راودوه عن ضيفـه فـطمسنـا أعينهم فـذوقـوا عـذابي ونـذر * ولقـد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾[(١)] .

فذلك أن الملائكة تقدمت الى لوط ، عليـه السلام ، آمـرين له بـأن يسري هـو وأهله من آخر الليل . ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ ، يعني عنـد سماع صـوت العذاب إذا حـل بقومـه . وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالساقة لهم .

وقـوله : ﴿ إلا امـرأتك ﴾ عـلى قراءة النصب : يحتمـل أن يكون مستثنى من قـوله : ﴿ فـأسر بـأهلك ﴾كأنه يقول إلا امـرأتك فـلا تسري بهـا ، ويحتمل أن يكـون من قولـه : ﴿ ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا امـرأتـك ﴾[(٢)] أي فإنها ستلتفت فيصيبهـا ما أصـابهم . ويقوي هـذا الاحتمال قـراءة الرفـع ولكن الأولى أظهر في المعنى . والله أعلم .

قال السهيلي : واسم امرأة لوط « والهة »[(٣)] ، واسم امرأة نوح « والغة »[(٣)] .

وقـالوا لـه مبشرين بهـلاك هؤلاء البغاة العتـاة ، الملعونـين النظراء والأشبـاه الـذين جعلهم الله سلفاً لكل خائب مريب : ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريبٍ ﴾[(٤)]

فلما خرج لوط عليه السلام بأهله ، وهم ابنتاه ، لم يتبعـه منهم رجل واحـد ، ويقال أن امـرأته خرجت معه . فالله أعلم .

فلما خلصـوا من بلادهم وطلعت الشمس فكـانت عند شـروقهـا ، جـاءهم من أمـر الله مـا لا يرد ، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد .

وعنـد أهل الكتـاب : أن الملائكـة أمروه أن يصعـد الى رأس الجبل الـذي هناك فـاستبعـده ، وسـأل منهم أن يذهب الى قـرية قـريبة منهم ، فقـالوا : إذهب فـإنا ننتـظرك حتى تصير اليهـا وتستقر فيها ، ثـم نحل بهم العذاب . فذكروا أنه ذهب إلى قرية « صـوعر » التي يقـول الناس : غـور زغر ، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب .

قـال الله تعالى :﴿ فلما جـاء أمرنـا جعلنا عـاليها سـافلها وأمـطرنا عليهـا حجـارةً من سجيـلٍ منضودٍ * مسومةً عند ربك وما هي من الظالمين ببعيدٍ ﴾[(٤)] .

قـالوا : اقتلعهن جبـريل بـطرف جناحـه من قرارهن ـ وكن سبـع مدن ـ بمن فيهن من الأمم ،

---

(١) سورة القمر الآيتان ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) هود الآية ٨١ .

(٣) هذا التوازن بين الأسمين يظهر وكأن الوضع قد نال حظه منه .

(٤) سورة هود الآيتان ٨٢ ، ٨٣ .

فقالوا إنهم كانوا أربعمائة نسمة ، وقيل : أربعة آلاف نسمة ، ومـا معهم من الحيوانـات ، وما يتبـع تلك المـدن من الأراضي والأمـاكن والمعتمـلات . فـرفـع الجميـع حتى بلغ بهن عنـان السـماء ، حتى سمعت الملائكة أصـوات ديكتهم ونباح كـلابهم ، ثم قلبها عليهم ، فجعـل عاليهـا سافلهـا . قـال مجاهد : فكان أول ما سقط منها شرفاتها[1] .

﴿ **وأمـطرنا عليهم حجـارة من سجيل** ﴾ . والسجيـل فـارسي معـرب وهـو الشـديـد الصلب القوي . ﴿ **منضود** ﴾ أي يتبع بعضها بعضـاً في نزولهـا عليهم من السماء . ﴿ **مسـومة** ﴾ أي معلمـة مكتـوب على كـل حجر اسم صـاحبه الـذي يهبط عليه فيـدمغه . كـما قال : ﴿ **مسـومةً عنـد ربك للمسـرفين** ﴾[2]وكما قال تعالى﴿ **وأمـطرنـا عليهم مـطراً فسـاء مـطر المنـذرين** ﴾[3] ، وقال تعـالى : ﴿ **والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأي آلاء ربك تتمارى** ﴾[4] يعني قلبهـا فأهـوى بها منكسـة عاليها سافلها ، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل ، متتابعة ، مسومة مرقـومة عـلى كل حجـر اسم صاحبه الذي سقط عليه ، من الحاضرين منهم في بلدهم ، والغـائبين عنهـا من المسافـرين والنازحـين والشاذين منها .

ويقـال ان امرأة لـوط مكثت مع قـومها ، ويقـال انها خرجت مـع زوجها وبنتيهـا ، ولكنها لمـا سمعت الصيحـة وسقوط البلدة ، التفتت الى قـومها وخـالفت أمر ربهـا قـديمـاً وحـديثـاً ، وقـالت : واقوماه ! فسقط عليهـا حجر فـدمغها والحقهـا بقومهـا ؛ إذ كانت عـلى دينهم ، وكانت عينـاً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان .

كما قال تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامـرأة لوط كـانتا تحت عبـدين من عبادنا صـالحين ، فخانتاهـا فلم يغنيا عنهـا من الله شيئاً ، وقيـل آدخلا النـار مع الـداخلين** ﴾[5] أي خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه . وليس المراد أنهما كـانتا عـلى فاحشـة ـ حاشـا وكلا ولمـا فإن الله لا يقـدر على نبي قط أن تبغي امـرأته ، كـما قال ابن عبـاس وغيـره من أئمـة السلف وا لخلف : مـا بغت امرأة نبي قط . ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيراً .

قال الله تعالى في قصة الإفك ، لمـا أنزل بـراءة أم المؤمنين عـائشة بنت الصـديق ، زوج رسول الله ﷺ ، حين قال لها أهل الإفك ما قـالوا فعـاتب الله المؤمنين وأنب وزجـر ، ووعظ وحذر قـال فيها

---

(١) استنتاج منطقي لكنه ليس رواية مثبتة .

(٢) سورة الذاريات الآية ٣٤ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١٧٣ ، والنمل الآية ٥٨ .

(٤) سورة النجم ٥٣ ـ ٥٥ .

(٥) سورة التحريم الآية ١٠ .

قال : ﴿ **إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بـأفواهكم مـا ليس لكم به علمٌ وتحسبـونه هينـاً وهو عنـد الله عـظيمٌ * ولولا إذ سمعتمـوه قلتم ما يكـون لنا أن نتكلم بهـذا سبحانـك هذا بهتـانٌ عظيمٌ** ﴾[1] أي سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة .

وقـوله هنـا : ﴿ **وما هي من الـظالمين ببعيـد** ﴾ أي ومـا هـذه العقـوبـة ببعيـدة ممن أشبههم في فعلهم .

ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يـرجم ، سواء كـان محصناً أو لا . ونص عليـه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة .

واحتجـوا أيضـاً بمـا رواه الإمـام أحمـد وأهـل السنن من حـديث عمـرو بن أبي عمـرو ، عن عكـرمة ، عن ابن عبـاس . أن رسول الله ﷺ قـال : « **من وجدتمـوه يعمل عمـل قوم لـوط فـاقتلوا الفاعل والمفعول به** » .

وذهب أبـو حنيفة الى أن الـلائط يلقى من شاهق جبـل ويتبع بـالحجارة كـما فعل بقـوم لوط ، لقوله تعالى : ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ [2]

وجعل الله مكان تلك البـلاد بحرة منتنـة لا ينتفع بمـائها ، ولا بمـا حولهـا من الأراضي المتاخمة لفنائها ، لرداءتها ودناءتها فصـارت عبرة ومثلة وعـظة وآية عـلى قدرة الله تعـالى وعظمتـه ، وعزتـه في انتقامه ممن خالف أمره ، وكذب رسله ، واتبع هواه وعصى مولاه ، ودليـلاً على رحمتـه بعباده المؤمنـين في إنجائه إياهم من المهلكات ، وإخراجه إياهم من الظلمـات الى النور ، كـما قال تعـالى : ﴿ **إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[3]

وقـال الله تعالى : ﴿ **فـأخذتهم الصيحـة مشرقـين * فجعلنا عـاليهـا سـافلهـا وأمـطرنـا عليهم حجـارةً من سجيلٍ * إن في ذلـك لآيـاتٍ للمتـوسمـين * وإنها لبسبيـلٍ مقيمٍ * إن في ذلـك لآيـةً للمؤمنين** ﴾[4] أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم ، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها ، وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة .

كما روى الترمذي وغيره مرفوعاً : « إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قـرأ : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ .

وقـوله : ﴿ **وإنها لبسبيـل مقيم** ﴾ أي لبـطريق مهيـع مسلوك الى الآن . كـما قـال : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون** ﴾[5] . وقال تعـالى : ﴿ **ولقد تـركنا منهـا آية بينـة**

---

(1) سورة النور الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(2) سورة هود الآية ٨٣ .

(3) سورة الشعراء الآيتان ٨ ، ٩ .

(4) سورة الحجر الآيات ٧٣ ، ٧٧ .

(5) سورة الصافات الآيتان ، ١٣٧ ، ١٣٨ .

لقوم يعقلون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين * وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾[2] .

أي تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة ، وخشي الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه ، وخاف أن يشابه قوم لوط . ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه ؛ كما قال بعضهم :

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم   فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه ، يمتثل ما أمره الله به عز وجل ، ويقبل ما أرشده اليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال ، والجواري من السراري ذوات الجمال ، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد ، فيحق عليه الوعيد ، ويدخل في قوله تعالى : ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾[3] .

---

(1) سورة العنكبوت الآية ٣٥ . (2) سورة الذاريات الآيات ٣٥ ـ ٣٧ .

(3) أما ما جاء في أسفار اليهود عن نبي الله لوط عليه السلام أن الملاكين مرا قرب لوط ، قام للقائهما وسجد بوجهه إلى الأرض (هل يسجد نبي لغير الله) وقال : « يا سيديَّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ثم تبكران وتمضيان في سبيلكما فقال: لا بل في الساحة نبيت ، فألح عليهما جداً فمالا اليه ودخلا منزله » وهكذا عكس ما جاء في القرآن الكريم عن أنهم أولاً ثلاثة وليس اثنين وأنه سيء بهم ، لأنه كان يعلم أخلاق قومه وعادتهم .

وفوق ذلك فإنهم يتابعون الرواية إساءة قائلين بأنه خرج إلى قومه لما أحاطوا بالدار قائلاً : « هاأنذا لي ابنتان ما عرفتا رجلاً أخرجهما اليكم فاصنعوا بهما ما حسن عندكم » وهل عندهم حسن ، وهل يعقل أن يدفع نبي بابنتيه إلى الزنى ، حاشا الله ، إنهم يأتون فيما كتبوا من الأمر منكراً .

« وقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا أصهارك وبنيك وبناتك وجميع من لك في المدينة أخرجهم من هذا الموضع » .

« فخرج لوط وكلَّم أصهاره متخذي بناته وقال لهم: قوموا واخرجوا من هذا الموضع لأن الرب مهلك المدينة . فكان كمازح في أعين أصهاره » .

فتارة ليس له إلا البنتان اللتان لم تعرفا رجلاً وطوراً له ابناء وبنات وأصهار ؟؟؟ .

ولا يكتفون بهذا فانظر ماذا يقولون عما حدث بعد ذلك :

« وصعد لوط من صوعر وأقام في الجبل هو وابنتاه معه إذ خاف أن يقيم في صوعر ، فأقام في المغارة هو وابنتاه ، فقالت الكبرى للصغرى ، إن أبانا قد شاخ وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها . تعالي نسقي أبانا خمراً ونضاجعه ونقيم من أبينا نسلاً . فسقتا أباهما خمراً تلك الليلة وجاءت الكبرى فضاجعت أباها ولم يعلم بنيامها ولا قيامها . فلما كان الغد قالت الكبرى للصغرى ها أنذا ضاجعت أمس أبي فلنسقه خمراً الليلة أيضاً وتعالي أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلاً . فسقتا أباهما تلك الليلة أيضاً وقامت الصغرى فضاجعته ولم يعلم بنيامها ولا قيامها » .

كل هذا جاء حرفياً في سفر التكوين الفصل (الإصحاح) التاسع عشر . استغفر الله العظيم ، لقد جعلوا نبي الله سكيراً وجعلوا البنتين الطاهرتين اللتين أنجاهما الله مما أصاب سدوم وعمورة تسقيان أباهما الخمر وتأتيان الخنى فلو كانتا فعلاً كذلك لما أنجاهما الله ولأصابهما ما أصاب قومهما .

إنهم يفترون على الله الكذب ، فبئس ما قالوا وبئس ما فعلوا ، لم يتركوا نبياً من أنبياء الله إلا أساؤوا إليه ونسبوا له الموبقات ولأسرته أيضاً وسنرى ذلك في ما يأتي من قصص الأنبياء » .

قصة مدين

قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم آعبدوا الله ما لكم من إلٰهٍ غيره قد جاءتكم بينةٌ من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين * ولا تقعدوا بكلِّ صراطٍ توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً وآذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم وآنظروا كيف كان عاقبة المفسدين * وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلت به وطائفةٌ لم يؤمنوا فآصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خيرُ الحاكمين * قال الملأ الذين آستكبروا من قومه لنخرجنك يا شُعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا قال أوَ لو كنا كارهين * قد آفترينا على الله كذباً إن عُدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء آلله ربنا وسع ربنا كلَّ شيءٍ علماً على الله توكلنا ربنا آفتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين * وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن آتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * آلذين كذَّبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسىٰ على قومٍ كافرين ﴾[1] .

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضاً : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم آعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخيرٍ وإني أخافُ عليكم عذاب يومٍ محيطٍ * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بقية الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظٍ * قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاءُ إنَّك لأنت الحليم الرشيد *

(١) سورة الأعراف الآيات ٨٥ ـ ٩٣ .

قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينةٍ من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أُريدُ إلاَّ الإصلاح ما آستطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب * ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوحٍ أو قوم هودٍ أو قوم صالحٍ وما قوم لوطٍ منكم ببعيدٍ * وآستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيمٌ ودودٌ * قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيزٍ * قال يا قوم أرهطي أعزُّ عليكم من الله وآتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيطٌ * ويا قوم آعملوا على مكانتكم إني عاملٌ سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ومن هو كاذبٌ وآرتقبوا إني معكم رقيبٌ * ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾(١) .

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضاً : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لبإمامٍ مُبينٍ ﴾(٢) .

وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيبٌ ألا تتقون * إني لكم رسولٌ أمينٌ * فآتقوا الله وأطيعونِ * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على ربِّ العالمين * أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * وآتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين * قالوا إنما أنت من المسحَّرين * وما أنت إلا بشرٌ مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين * قال ربي أعلم بما تعملون * فكذبوه فأخذهم عذابُ يوم الظلة إنه كان عذاب يومٍ عظيمٍ * إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٣) .

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم « مدين » التي هي قريبة من أرض معان(٤) من أطراف الشام ، مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط ، وكانوا بعدهم بمدة قريبة . ومدين مدينة عرفت بالقبلية وهم من بني مدين بن مديان بن ابراهيم الخليل .

---

(١) سورة هود الآيات ٨٤ ـ ٩٥ .

(٢) سورة الحجر الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٧٦ ـ ١٩١ .

(٤) في الأردن .

وشعيب نبيهم هو ابن ميكيل بن يشجن ، ذكره ابن إسحاق .

قال : ويقال له بالسريانية يترون ، وفي هذا نظر . ويقال شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب ويقال : شعيب بن نويب بن عيفا بن مدين بن ابراهيم ، ويقال : شعيب بن صيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن ابراهيم ، وقيل غير ذلك في نسبه .

قال ابن عساكر : ويقال جدته ؛ ويقال أمه ، بنت لوط .

وكان ممن آمن بابراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق .

وعن وهب بن منبه أنه قال : شعيب وملغم ممن آمن بابراهيم يوم أحرق بالنار ، وهاجرا معه إلى الشام ، فزوجهما بنتي لوط عليه السلام . ذكره ابن قتيبة . وفي هذا كله نظر . والله أعلم .

وذكر أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة سلمة بن سعد العنزي : أنه قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وانتسب الى عنزة ، فقال : « نعم الحي عنزة ؛ مبغي عليهم منصورون قوم شعيب وأختان موسى »[(1)] .

فلو صح هذا لدل على أن شعيباً صهر موسى وأنه من قبيلة من العرب العاربة يقال لهم عنزة ، لا أنهم من عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فإن هؤلاء بعده بدهر طويل . والله أعلم .

وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال : « أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر » .

وكان بعض السلف يسمي شعيباً خطيب الأنبياء . يعني لفصاحته وعلو عبارته ، وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته .

وقد روى ابن اسحاق بن بشر عن جويبر و مقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال : « ذاك خطيب الأنبياء » .

وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ، ويعبدون الأيكة ، وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها .

وكانوا من أسوأ الناس معاملة ؛ يبخسون المكيال والميزان ، ويطففون فيهما ، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص .

---

(١) الختن : الصهر وليس بالضرورة زوج البنت فقد يكون زوج الأخت أو بنت العم الخ .

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم ، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم ، حتى أحل الله بهم البأس الشديد . وهو الولي الحميد .

كما قال تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰهٍ غيره قد جاءتكم بينةٌ من ربكم** ﴾(1) أي دلالة وحجة واضحة ، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني ، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم تنقل إلينا تفصيلاً ، وان كان هذا اللفظ قد دلَّ عليها إجمالاً .

﴿ **فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾(1)

أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم ، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال : ﴿ **ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين * ولا تقعدوا بكل صراطٍ** ﴾ أي طريق ﴿ **توعدون** ﴾ أي تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس وغير ذلك وتخيفون السبل .

قال السدي في تفسيره عن الصحابة : ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراطٍ توعدون** ﴾(2) أنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة .

وقال اسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : كانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق ، يبخسون الناس ، يعني يعشرونهم . وكانوا أول من سن ذلك .

﴿ **وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا** ﴾(2) نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية ، والمعنوية الدينية .

﴿ **وأذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾(2) ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة ، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه . كما قال لهم في القصة الأخرى : ﴿ **ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يومٍ محيطٍ** ﴾(3) . أي لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمرون فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم ، ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم .

وهذا مضاف الى عذاب الآخرة ، ومن جمع له هذا وهذا ، فقد باء بالصفقة الخاسرة .

(1) سورة الأعراف الآية ٨٥ .

(2) سورة الأعراف الآية ٨٦ .

(3) سورة هود الآية ٨٤ .

فنهاهم أولاً عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وحذرهم سلب نعمة الله عليهم في دنياهم ، وعذابه الأليم في أخراهم ، وعنفهم أشد تعنيف .

ثم قال لهم آمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً : ﴿ **ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بقية الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظٍ** ﴾(1) .

قال ابن عباس والحسن البصري : ﴿ **بقية الله خير لكم** ﴾ أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس . وقال ابن جرير : ما فضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان ، خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف . قال : وقد روي هذا عن ابن عباس .

وهذا الذي قاله وحكاه الحسن ، وهو شبيه بقوله تعالى : ﴿ **قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾(2) يعني أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام ، فإن الحلال مبارك وإن قل ، والحرام ممحوق وإن كثر . كما قال تعالى : ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات** ﴾(3) .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل » . رواه أحمد . أي إلى قلة .

وقال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل ، والحرام لا يجدي وإن كثر . ولهذا قال نبي الله شعيب : ﴿ **بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ أي افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه ، لا لأراكم أنا وغيري .

﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾(4) يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم : أصلاتك هذه التي تصليها ، هي الآمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك ؟ ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون ؟ أو أنا لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت ، ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها ؟

---

(1) سورة هود الأيتان ٨٥ ، ٨٦ .

(2) سورة المائدة الآية ١٠٠ .

(3) سورة البقرة الآية ٢٧٦ .

(4) سورة هود الآية ٨٧ .

﴿ **إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير : يـقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء .

﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينةٍ من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أُريد أن أُخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أُريد إلّا الإصلاح ما آستطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب** ﴾(١) .

هذا تلطف معهم في العبارة ، ودعوة لهم الى الحق بأبين إشارة .

يقول لهم : ﴿ **أرأيتم** ﴾ أيها المكذبون ﴿ **إن كنت على بينةٍ من ربي** ﴾ أي على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني إليكم ، ﴿ **ورزقني منه رزقاً حسناً** ﴾ يعني النبوة والرسالة ، يعني وعمي عليكم معرفتها ، فأي حيلة لي فيكم ؟

وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء .

وقوله : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾، أي لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له ، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه .

وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة ، وضدها هي المردودة الذميمة ، كما تلبس بها علماء بني اسرائيل في آخر زمانهم ، وخطباؤهم الجاهلون . قال الله تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾(٢) وذكرنا عندها في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه ـ أي تخرج أمعاؤه من بطنه ـ فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار فيقولون : يا فلان ما لك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى . كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » .

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء . فأما السادة من النجباء ، والألباء من العلماء ، الذين يخشون ربهم بالغيب ، فحالهم كما قال نبي الله شعيب : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أُريد إلّا الإصلاح ما استطعت** ﴾ أي ما أريد في جميع أمري إلا الاصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي .

﴿ **وما توفيقي** ﴾ أي في جميع أحوالي ﴿ **إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيبُ** ﴾ أي عليه أتوكل في سائر الأمور ، وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري . وهذا مقام ترغيب .

ثم انتقل إلى نوعٍ من الترهيب فقال : ﴿ **ويا قومِ لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما**

---

(١) سورة هود الآية ٨٨ .

(٢) سورة البقرة الآية ٤٤ .

أصاب قوم نوحٍ أو قوم هودٍ أو قوم صالحٍ وما قوم لُوطٍ منكم ببعيدٍ ﴾[1] .

أي لا يحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على الاستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم ، فيحل الله بكم من العذاب والنكال ، نظير ما أحله بنظرائكم وأشباهكم ، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين .

وقوله ﴿ وما قوم لوطٍ منكم ببعيدٍ ﴾ ، قيل معناه : في الزمان ، أي ما بالعهد من قدم ، مما قد بلغكم ما أحل بهم على كفرهم وعتوهم . وقيل معناه : وما هم منكم ببعيد في المحلة والزمان . وقيل : في الصفات والأفعال المستقبحات ، من قطع الطريق ، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات .

والجمع بين هذه الأقوال ممكن : فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات .

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيمٌ ودودٌ ﴾[2] . أي أقلعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، فإنه رحيم بعباده ، أرحم بهم من الوالدة بولدها ، « ودود » وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده ، ولو من الموبقات العظام .

﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾[3] .

روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا : كان ضرير البصر . وقد روي في حديث مرفوع : أنه بكى من حب الله حتى عمي ، فرد الله عليه بصره ، وقال : « يا شعيب أتبكي خوفاً من النار ؟ أو من شوقك إلى الجنة ؟ فقال : بل من محبتك ، فإذا نظرت إليك فلا أُبالي ماذا يصنع بي . فأوحى الله اليه : هنيئاً لك يا شعيب لقائي ، فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي » .

رواه الواحدي عن أبي الفتح محمد بن علي الكوفي ، عن علي بن الحسن بن بندار ، عن عبد الله محمد بن إسحاق الرملي عن هشام بن عمار ، عن اسماعيل بن عباس ، عن يحيى بن سعيد ، عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ بنحوه .

وهو غريب جداً ، وقد ضعفه الخطيب البغدادي .

---

(١) سورة هود الآية ٨٩ .

(٢) سورة هود الآية ٩٠ .

(٢) سورة هود الآية ٩١ .

وقـولهم : ﴿ ولولا رهـطك لرجمنـاك وما أنت علينـا بعزيـزٍ ﴾[1] هذا من كفـرهم البليـغ ، وعنادهم الشنيع ، حيث قالوا : ﴿ ما نفقـه كثيراً ممـا تقول ﴾ أي ما نفهمـه ولا نعقله ، لأنه لا نحبـه ولا نريده ، وليس لنا همة إليه ، ولا إقبال عليه .

وهو كما قال كفار قريش لرسول الله ﷺ : ﴿ وقالـوا قلوبنا في أكنـةٍ مما تـدعونـا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجابٌ فاعمل إننا عاملون ﴾[2] .

وقولهم : ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ أي مضطهداً مهجورا . ﴿ ولـولا رهطك ﴾ أي قبيلتـك وعشيرتك فينا ﴿ لرجمناك وما أنت علينا بعزيزٍ ﴾ .

﴿ قال يا قوم أرهطي أعـزُّ عليكم من الله ﴾[3] أي تخافـون قبيلتي وعشيرتي وتـراعوني بسببهم ، ولا تخـافـون عـذاب الله ؟ ولا تـراعـوني لأني رسـول الله ؟ فصـار رهـطي أعـز عليكم من الله ﴿ واتخذتمـوه وراءكم ظهريًـا ﴾ [3] أي جـانب الله وراء ظهـوركم ﴿ إن ربي بما تعملون محيطٌ ﴾[4] أي هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه ، محيط بذلك وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه .

﴿ ويـا قوم اعملوا عـلى مكانتكم إني عاملٌ سوف تعلمـون من يأتيـه عذابٌ يخـزيـه ومن هـو كاذبٌ وارتقبوا إني معكم رقيبٌ ﴾[4] .

هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد ، بأن يستمروا عـلى طريقتهم ومنهجهم وشـاكلتهم ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، ومن يحل عليه الهلاك والبوار ﴿ من يأتيه عذابٌ يخزيه ﴾ أي في هذه الحياة الـدنيا ﴿ ويحـل عليه عـذاب مقيم ﴾ أي في الأخرى ﴿ ومن هو كاذبٌ ﴾ أي مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر .

﴿ وارتقبوا إني معكم رقيبٌ ﴾ هذا كقوله : ﴿ وإن كان طائفـةٌ منكم آمنوا بـالذي أُرسلت بـه وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾[5] .

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قـومه لنخـرجنك يـا شعيب والذين آمنـوا معك من قـريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا قال أو لو كنـا كارهـين * قد افتـرينا عـلى الله كذبـاً إن عدنـا في ملتكم بعد إذ نجـانا الله منهـا وما يكـون لنا أن نعـود فيها إلا أن يشـاء الله ربنا وسـع ربنا كـل شيءٍ علماً على الله تـوكلنـا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين ﴾[6]

(١) سورة هود الآية ٩١ .

(٢) سورة فصلت الآية ٥ .

(٢) سورة هود الآية ٩٢ .

(٤) سورة هود الآية ٩٣ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٨٧ .

(٦) سورة الأعراف الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم ، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال : ﴿ أو لو كنا كارهين ﴾ أي هؤلاء لا يعودون اليكم اختياراً ، وإنما يعودون اليكم إن عادوا ، اضطرارا مكرهين ؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد ، ولا يرتد أحد عنه ، ولا محيد لأحد منه .

ولهذا قال : ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا ﴾ . أي فهو كافينا ، وهو العاصم لنا وإليه ملجأنا في جميع أمرنا .

ثم استفتح على قومه ، واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه اليهم فقال : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين ﴾ أي الحاكمين . فدعا عليهم ، والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ، ورسوله خالفوه .

ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون ، وبه متلبسون : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾[1] .

قال الله تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾[2] . ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة ، أي رجفت بهم أرضهم ، وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها ، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها ، وأصبحت جثثهم جاثية ؛ لا أرواح فيها ولا حركات بها ، ولا حواس لها .

وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات ، وصنوفاً من المثلات ، وأشكالاً من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات ، وصيحة عظيمة خمدت الأصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات .

ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها ؛ في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه ، وتوعدوهم بالاخراج من قريتهم ، أو ليعودن في ملتهم راجعين . فقال تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ فقابل الإرجاف بالرجفة ، والإخافة بالخيفة ، وهذا مناسب هذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود : فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص : ﴿ أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾[3] فناسب أن يذكر الصيحة التي هي

---

(١) سورة الأعراف الآية ٩٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٩١ .

كالزجر عن تعاطي هـذا الكلام القبيح ، الذي واجهـوا به هـذا الرسـول الكريم الأمـين الفصيح ، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم .

وأما في سورة الشعراء : فذكـر أنه أخـذهم عذاب يـوم الظلة ، وكـان ذلك إجـابة لما طلبوا ، وتقـريباً إلى مـا إليه رغبوا ، فإنهم قـالوا : ﴿ **إنمـا أنت من المسحرين * ومـا أنت إلا بشرٌ مثلنـا وإن نـظنك لمن الكـاذبين * فـأسقط علينا كسفـاً من السماء إن كنت من الصـادقـين * قـال ربي أعلم بمـا تعملون** ﴾[1] .

قـال الله تعالى وهـو السميع العليم : ﴿ **فكـذبوه فـأخذهم عـذاب يوم الـظلة إنه كـان عذاب يومٍ عظيمٍ** ﴾[2] .

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره : أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهـل مدين ، فقـوله ضعيف .

وإنمـا عمدتهم شيئـان : أحدهمـا أنه قـال : ﴿ **كذب أصحـاب الأيكة المرسلين * إذ قـال لهم شعيب** ﴾ ولم يقل أخوهم كما قال : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً** ﴾ .

والثاني : أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة ، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة .

والجـواب عن الأول : أنه لم يـذكر الأخـوة بعد قـوله : ﴿ **كـذب أصحاب الأيكـة المرسلين** ﴾ لأنـه وصفهم بعبادة الأيكـة ، فلا ينـاسب ذكـر الأخـوة هـا هنـا . ولمـا نسبهم الى القبيلة سـاغ ذكـر شعيب بأنه أخوهم .

وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة .

وأما احتجاجهم بيوم الظلة ؛ فإن كان دليـلاً بمجرده عـلى أن هؤلاء أمة أخـرى ، فليكن تعداد الانتقام بالـرجفة والصيحـة دليلاً عـلى أنهما أمتان أخـريان ، وهـذا لا يقولـه أحد يفهم شيئـاً من هذا الشأن .

فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكـر في ترجمـة النبي شعيب عليه السـلام ، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، عن أبيه ، عن معـاوية بن هشـام ، عن هشام بن سعـد ، عن شفيق ابن أبي هـلال ، عن ربيعة بن سيف ، عن عبـد الله بن عمرو مـرفوعـاً : « إن قوم مـدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليهما شعيباً النبي عليه السلام » .

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٨٥ ـ ١٨٨ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٨٩ .

فإنه حديث غريب ، وفي رجاله من تكلم فيه[١] . والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو ، مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني اسرائيل[٢] . والله أعلم .

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان ، فدل على أنهم أمة واحدة ، أهلكوا بأنواع من العذاب . وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب .

وقوله :﴿ **فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ ذكروا أنهم أصابهم حر شديد ، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام ، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ، ولا دخولهم في الاسراب ، فهربوا من محلتهم الى البرية ، فأظلتهم سحابة ، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها ، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء ، فأزهقت الأرواح ، وخربت الأشباح .

﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين** ﴾[٣] ونجى الله شعيباً ومن معه من المؤمنين ، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود** ﴾[٤]

وقال تعالى : ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين** ﴾[٥] وهذا في مقابلة قولهم : ﴿ **لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذن لخاسرون** ﴾ .

* * *

ثم ذكر تعالى عن نبيهم : أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخاً ومؤنباً ومقرعاً ، فقال تعالى : ﴿ **فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾[٦] .

---

(١) أي في رواته من تحدث محققو الحديث بكذبهم ووضعهم أو تضعيفهم لأسباب .

(٢) وهذا أيضاً غير بعيد لأن في الاسرائيليات الكثير من اللغو والباطل .

(٣) سورة الأعراف الآيتان ٩١ ، ٩٢ .

(٤) سورة هود الآيتان ٩٤ ، ٩٥ .

(٥) سورة الأعراف الآيات ٩٠ ـ ٩٢ .

(٦) سورة الأعراف الآية ٩٣ .

أي أعرض عنهم مولياً عن محلتهم بعد هلكتهم قائلاً : ﴿**وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحتُ لكم**﴾ . أي قد أديت ما كان واجباً عليَّ من البلاغ التام والنصح الكامل ، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل اليه ، فلم ينفعكم ذلك ، لأن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ، فلست أتأسف بعد هذا عليكم ، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة ، ولا تخافون يوم الفضيحة .

ولهذا قال : ﴿ **فكيف آسىٰ** ﴾ أي أحزن ﴿ **على قومٍ كافرين** ﴾ اي لا يقبلون الحق ولا يرجعون اليه ولا يلتفتون إليه فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدفع ولا يمانع ، ولا محيد لأحد أريد به عنه ، ولا مناص عنه .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس : أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام . وعن وهب بن منبه : أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين ، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم[1] .

(١) لا نظن هذا لأنه في كلام وهب بن منبه الكثير من لغو الإسرائيليات وباطلهم ، وخصوصاً أنه كان يهودياً أصلاً وادخل الكثير من قصص اليهود في قصص الأنبياء ، والله أعلم .

باب ذكر ذرية ابراهيم
عليه الصلاة والتسليم

قد قدمنا قصته مع قومه وما كان من أمرهم ، وما آل إليه أمره عليه الصلاة والسلام والتحية والإكرام .

وذكرنا ما وقع في زمانه من قصة قوم لوط ، وأتبعنا ذلك بقصة مدين قوم شعيب عليه السلام ، لأنها قرينتها في كتاب الله عز وجل في مواضع متعددة ؛ فذكر تعالى بعد قصة قوم لوط ، قصة مدين ، وهم أصحاب الأيكة على الصحيح كما قدمنا ؛ فذكرناها تبعاً لها اقتداء بالقرآن العظيم .

ثم نشرع الآن في الكلام على تفصيل ذرية ابراهيم عليه السلام ، لأن الله جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبي أرسل بعده فمن ولده .

* * *

ذكر اسماعيل عليه السلام

وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا ، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان ، أسنهما وأجلهما : الذي هو الذبيح على الصحيح ـ اسماعيل بكر ابراهيم الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل .

ومن قال : ان الذبيح هو إسحاق، فإنما تلقاه من نقلة بني اسرائيل الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والانجيل ، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل ، فإن ابراهيم أمر بذبح ولده البكر ، وفي رواية : الوحيد .

وأياً ما كان فهو اسماعيل بنص الدليل ، ففي نص كتابهم : ان اسماعيل ولد ولابراهيم من

العمـر ست وثمانـون سنة ، وإنما ولد إسحاق بعـد مضي مائـة سنة من عمر الخليل ، فإسماعيل هو البكر لا محالة ، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة[1] .

أما في الصورة ، فلأنه كـان ولده أزيـد من ثلاث عشرة سنة ، وأمـا أنه وحيـد في المعنى ، فإنـه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هـاجر ، وكـان صغيراً رضيعـاً - فيما قيـل - فوضعهـما في وهاد جبـال فـاران ، وهي الجبال التي حـول مكة نعم المقيـل ، وتركهـما هنـالـك ليس معهـما من الـزاد والماء إلا القليـل ، وذلك ثقـة بالله وتـوكلاً عليـه ، فحاطهـما الله تعالى بعنـايته وكفـايته فنعم الحسيب والكـافي والوكيل والكفيل .

فهـذا هو الـولد الـوحيد في الصـورة والمعنى ، ولكن أين من يتفطن لهـذا السر ؟ وأين من يحل بهذا المحل ؟ والمعنى لا يدركه ويحيط بعلمه إلا كل نبيه نبيل ![2] .

وقـد أثنى الله تعالى عليـه فوصفـه بالحلم والصبـر وصدق الـوعد ، والمحـافظة عـلى الصـلاة ، والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب ، مع مـا كان يـدعو اليـه من عبادة رب الأربـاب ، قال الله تعـالى : ﴿ **فبشرناه بغلامٍ حليمٍ * فلما بلغ معه السعي قـال يا بني إني أرى في المنـام أني أذبحك فـانظر مـاذا تـرى قال يـا أبتِ افعل مـا تؤمر ستجـدني إن شاء الله من الصـابرين** ﴾[3] فـطاوع أباه عـلى مـا إليـه دعاه ، ووعده بأنه سيصبر ، فوفى بذلك وصبر على ذلك .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صـادق الوعـد وكان رسـولاً نبياً * وكـان يـأمر أهله بـالصلاة والـزكاة وكـان عند ربـه مرضيـاً** ﴾[4] وقال تعـالى : ﴿ **واذكـر عبادنا ابـراهيم وإسحاق ويعقوب أُولي الأيدي والأبصار * إنا أخلصناهم بخـالصةٍ ذكـرى الدار * وإنهم عنـدنا لمن المصطفين الأخيار * واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾[5] .

وقـال تعالى : ﴿ **واسمـاعيل وإدريس وذا الكفـل كلٌ من الصـابرين * وأدخلنـاهم في رحمتنـا إنهم من الصـالحين** ﴾[6] وقـال تعالى : ﴿ **إنـا أوحينا إليـك كما أوحينـا إلى نوحٍ والنبيـين من بعده ، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط** ﴾[7] . . . الآية .

---

(١) وهذا هو الصحيح أما اليهود فقد غيروا الاسم كراهة بالعرب كراهة أن يكون الفضل في غيرهم وهذه عادتهم .

(٢) أنهم يعرفون ويحرفون .

(٣) سورة الصافات الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ .

(٤) سورة مريم الآيتان ٥٤ ، ٥٥ .

(٥) سورة ص الآيات ٤٥ - ٤٨ .

(٦) سورة الأنبياء الآيتان ٨٥ ، ٨٦ .

(٧) سورة النساء الآية ١٦٣ .

وقال تعالى : ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط** ﴾[1] الآية . ونظيرتها من السورة الأخرى ، وقال تعالى : ﴿ **أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله** ﴾[2] .

فذكر الله عنه كل صفة جميلة ، وجعله نبيه ورسوله ، وبرأه من كل ما نسب إليه الجاهلون ، وأمر بأن يؤمن بما أنزل عليه عباده المؤمنون .

وذكر علماء النسب وأيام الناس : أنه أول من ركب الخيل وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها . وقد قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه : حدثنا شيخ من قريش ، حدثنا عبد الملك ابن عبد العزيز ، عن عبدالله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « إتخذوا الخيل واعتقبوها فإنها ميراث أبيكم اسماعيل »[3] .

وكانت هذه العراب وحوشاً فدعا لها بدعوته التي كان أعطي فأجابته . وأنه أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة ، وكان قد تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جرهم والعماليق وأهل اليمن ، من الأمم المتقدمين من العرب قبل الخليل[4] .

قال الأموي : حدثني علي بن المغيرة، حدثنا أبو عبيدة ، حدثنا مسمع بن مالك عن محمد بن علي بن الحسين ، عن آبائه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « أول من فتق لسانه بالعربية البينة اسماعيل ، وهو ابن أربع عشرة سنة » ، فقال له يونس : صدقت يا أبا سيار ، هكذا أبو جري حدثني .

وقد قدمنا أنه تزوج لما شب امرأة من العماليق ، وأن أباه أمره بفراقها ففارقها . قال الأموي : هي عمارة بنت سعدبن أسامة بن أكيل العماليقي .ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها ، فاستمر بها ، وهي السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، وقيل هذه ثالثة ، فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً ، وقد سماهم محمد بن إسحاق رحمه الله وهم : نابت ، وقيذر ، وأزبل ، وميشي ، ومسمع ، وماش ، ودوصا ، وأرر ، ويطور ، ونبش ، وطيما ، وقيذما . وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم . وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيماً المبشر بهم ، المتقدم ذكرهم . وكذبوا في تأويلهم ذلك .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٤٠ .

(٣) هذا لا يعني بالضرورة أن أول من ركب الخيل كان اسماعيل عليه السلام ، فقد يكون قد نقل هذه العادة الى الجزيرة إذ كانت معروفة في البلاد الأخرى .

(٤) لغة جرهم .

وكـان اسماعيـل عليه السـلام رسولاً إلى أهـل تلك الناحيـة وما والاهـا ؛ من قبـائـل جـرهم والعماليق وأهل اليمن ، صلوات الله وسلامه عليـه . ولما حضـرته الـوفاة أوصى الى أخيـه اسحاق ، وزوج ابنتـه « نسمـة » من ابن أخيـه « العيص » بن إسحاق، فـولـدت لـه الـروم ، ويقـال لهم بنـو الأصفـر ؛ لصفـرة كـانت في العيص . وولـدت لـه اليـونـان في أحـد الأقـوال . ومن ولـد العيص الأشبان قيل منهما أيضاً . وتوقف ابن جرير رحمه الله[١] .

ودفن نبي الله اسماعيل بالحجر مـع أمه هـاجر ، وكـان عمره يـوم مات مـائة وسبعاً وثلاثـين سنة .

وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : شكـا اسماعيـل عليه السـلام الى ربه عـز وجل حـر مكة ، فأوحى الله إليه : إني سأفتـح لك بـاباً إلى الجنـة الى الموضـع الذي تـدفن فيه ، يجـري عليك روحها[٢] إلى يوم القيامة .

وعرب الحجاز كلهم ينتسبون الى ولديه : تابت ، وقيذار .

* * *

ذكر اسحاق بن ابراهيم الكريم بن الكريم عليهما الصلاة والسلام .

قد قدمنا أنه ولد ولأبيه مـائة سنـة ، بعد أخيـه اسماعيـل بأربـع عشرة سنـة . وكان عمـر أمه سارة حين بشرت به تسعين سنة .

قـال الله تعالى : ﴿ **وبشـرناه بإسحاق نبياً من الصـالحين * وبـاركنـا عليـه وعـلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾[٣] .

وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير ما آية من كتابه العزيز .

وقـدمنا في حـديث أبي هريـرة عن رسول الله ﷺ : « ان الكـريم ابن الكريم ابن الكـريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » .

وذكر أهل الكتاب ان اسحاق لما تزوج « رفقا » بنت بتوايـل في حياة أبيـه ، كان عمـره أربعين

(١) كلها أقوال موضوعة ولا صحة لها .

(٢) نسيمها .

(٣) سورة الصافات الآيات ١١٢ ، ١١٣ .

سنة ، وأنها كانت عـاقراً فـدعا الله لهـا فحملت ، فولـدت غلامـين توأمـين : أولهما اسمـه « عيصو » وهو الذي تسميه العرب « العيص » ، وهو والد الروم . والثاني خـرج وهو آخـذ بعقب أخيه فسمـوه « يعقوب » وهو اسرائيل الذي ينتسب اليه بنو اسرائيل .

قالوا : وكان اسحاق يحب عيصـو أكثر من يعقـوب ؛ لأنه بكـره ، وكانت أمهـا « رفقا » تحب يعقوب أكثر ؛ لأنه الأصغر(١) .

قـالوا : فلما كبـر اسحاق وضعف بصـره اشتهى على ابنـه العيص طعـامـاً ، وأمـره أن يـذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ؛ ليبارك عليه ويدعو له . وكان العيص صـاحب صيد ، فـذهب يبتغي ذلـك ، فأمـرت « رفقا » ابنهـا يعقوب أن يـذبح جـديين من خيـار غنمه ، ويصنـع منها طعـامـاً كـما اشتهاه أبوه ، ويأتي اليه به قبل أخيه ليدعو له ، فقامت فـألبسته ثيـاب أخيه ، وجعلت عـلى ذراعيه وعنقه من جلد الجديين ؛ لأن العيص كان أشعر الجسد ويعقـوب ليس كذلـك . فلما جاء بـه وقربـه اليـه قـال : من أنت ؟ قـال : ولـدك . فضمـه اليـه وجسـه وجعـل يقـول : أمـا الصــوت فصـوت يعقوب ، وأما الجس والثياب فالعيص . فلما أكل وفرغ دعا له أن يكـون أكبر أخـوته قـدراً ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده ، وأن يكثر رزقه وولده(٢) .

فلما خـرج من عنده جـاء أخوه العيص بمـا أمره بـه والده فقـربه اليـه ، فقال لـه : ما هـذا يـا بني ؟ قـال : هذا الـطعام الـذي اشتهيته ، فقـال : أما جئتني بـه قبل السـاعـة وأكلت منـه ودعـوت لـك ؟ فقال : لا والله ، وعـرف أن أخاه قـد سبقه الى ذلـك ، فوجـد في نفسه عليـه وجـداً كثيـراً . وذكروا أنه تواعده بالقتـل إذا مـات أبوهمـا ، وسأل أبـاه فدعـا له بـدعوة أخـرى ، وأن يجعل لـذريته غليظ الأرض ، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم .

فلما سمعت أمهـا ما يتواعـد بـه العيص أخـاه يعقـوب ، أمـرت ابنهـا يعقـوب أن يـذهب إلى أخيهـا « لابان » الـذي بأرض حـران ، وأن يكون عنـده الى حين يسكن غضب أخيـه ، وأن يتـزوج من بناته . وقالت لزوجها إسحاق أن يأمره بذلك ويوصيه ويدعو له ، ففعل .

فخـرج يعقوب عليـه السلام من عنـده من آخر ذلـك اليوم ، فـأدركه المسـاء في مـوضـع فنـام فيـه ، وأخذ حجـراً فوضعـه تحت رأسه ونـام ، فرأى في نـومه ذلـك معراجـاً منصوبـاً من السـماء الى الأرض ، وإذا المـلائكة يصعـدون فيه وينـزلون ، والـرب تبارك وتعـالى يخـاطبـه ، ويقـول لـه : إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك ، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك(٣) .

---

(١) كيف يكون بنيها أصغر وأكبر إذا كانا توأمان ، يمكن أن يقال الأول والثاني .

(٢) وهـل يقبل الله احتيـال المحتالـين ، لو صح ذلك ، وهـل يقبل الـدعاء لهم أم يصـل الـدعـاء لأهله . كـل هـذه روايـات اسرائيلية ويقولون أن عيسو باع بكريته أي كونه البكر بطعام من العدس فهل تباع البكرية .

(٣) كل هذا ترتيب اسرائيـلي لتبرر الـطمع في فلسـطين لأن الوعـد إنما كـان لإبراهيم عليـه السلام وإسمـاعيل وأبنـائه من نسـل ابراهيم لكنه توكيد مرة أخرى على ما ذكروه من أن العهد يكون مع إسحاق ونسله فقط .

فلما هب من نومه فرح بما رأى ، ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالماً ليبنين في هذا الموضع معبداً لله عز وجل ، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عشره .

ثم عمد الى ذلك الحجر فجعل عليه دهناً يتعرفه به ، وسمي ذلك الموضع : « بيت أيل » أي بيت الله . وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك كما سيأتي .

قالوا : فلما قدم يعقوب على خاله أرض حران ، إذا له ابنتان : أسم الكبرى « ليا » واسم الصغرى : « راحيل » وكانت أحسنهما وأجملهما فطلب يعقوب الصغرى من خاله فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى على غنمه سبع سنين . فلما مضت المدة على خاله « لابان » صنع طعاما وجمع الناس عليه ، وزف اليه ابنته الكبرى « ليا » وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر . فلما أصبح يعقوب إذا هي « ليا » فقال لخاله : لِمَ غدرت بي ؟ وأنت إنما خطبت اليك راحيل . فقال : إنه ليس من سنتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى ، فإن أحببت اختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها .

فعمل سبع سنين وأدخلها عليه مع أختها . وكان ذلك سائغاً في ملتهم ، ثم نسخ في شريعة التوراة . وهذا وحده دليل كافٍ على وقوع النسخ[1] ، لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا وإباحته ، لأنه معصوم . ووهب « لابان » لكل واحدة من ابنتيه جارية ؛ فوهب لليا جارية اسمها : « زلفى » ، ووهب لراحيل جارية اسمها : « بلهى » .

وجبر الله تعالى ضعف « ليا » بأن وهب لها أولاداً ، فكان أول من ولدت ليعقوب ، روبيل ، ثم شمعون ، ثم لاوي ، ثم يهوذا ، فغارت عند ذلك « راحيل » وكانت لا تحبل ، فوهبت ليعقوب جاريتها « بلهى » فوطئها فحملت ، وولدت له غلاماً سمته « دان » ، وحملت وولدت غلاماً آخر سمته « نيفتالي » . فعمدت عند ذلك « ليا » فوهبت جاريتها « زلفى » من يعقوب عليه السلام فولدت له : جاد ، وأشير ، غلامين ذكرين ثم حملت « ليا » أيضاً فولدت غلاماً خامساً منها وسمته « ايساخر » ثم حملت وولدت غلاماً سادساً سمته « زابلون » . ثم حملت وولدت بنتاً سمتها « دينار » فصار لها سبعة من يعقوب .

ثم دعت الله تعالى « راحيل » وسألته أن يهب لها غلاماً من يعقوب ، فسمع الله نداءها وأجاب دعاءها ، فحملت من نبي الله يعقوب ، فولدت له غلاماً عظيماً شريفاً حسناً جميلاً سمته « يوسف » .

كل هذا وهم مقيمون بأرض حران ، وهو يرعى على خاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى ، فصار مدة مقامه عشرين سنة .

---

(١) وهذا رد على اليهود الذين يحيلون وقوع النسخ في الشرائع .

فطلب يعقوب من خاله « لابان » أن يسرحه ليمر إلى أهله ، فقال له خاله : إني قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت . فقال : تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع[1] ، وكل حمل ملمع أبيض بسواد ، وكل أملح[2] ببياض ، وكل أجلح[3] أبيض من المعز ، فقال : نعم .

فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس ، لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات . وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم .

قالوا : فعمد يعقوب عليه السلام الى قضبان رطبة بيض من لوز ولب ، فكان يقشرها بلقاً ، وينصبها في مساقي الغنم من المياه ، لتنظر الغنم اليها فتفزع وتتحرك أولادها في بطونها ، فتصير ألوان حملانها كذلك .

وهذا يكون من باب خوارق العادات ، وينتظم في سلك المعجزات .

فصار ليعقوب عليه السلام أغنام كثيرة ودواب وعبيد ، وتغير له وجه خاله وبنيه ، وكأنهم انحصروا منه .

وأوحى الله تعالى الى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ، ووعده بأن يكون معه ، فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين الى طاعته ، فتحمل بأهله وماله ، وسرقت راحيل أصنام أبيها .

فلما جاوزوا وتحيزوا عن بلادهم ، لحقهم « لابان » وقومه ، فلما اجتمع لابان بيعقوب عاتبه في خروجه بغير علمه ، وهلا أعلمه فيخرجهم في فرح ومزاهر وطبول ، وحتى يودع بناته وأولادهن ، ولم أخذوا أصنامه معهم ؟

ولم يكن عند يعقوب علم من أصنامه ، فأنكر أن يكون أخذوا له أصناماً . فدخل بيوت بناته وأمهاتهن يفتش فلم يجد شيئاً ، وكانت راحيل قد جعلتهن في برذعة الجمل وهي تحتها ، فلم تقم ، واعتذرت بأنها طامث . فلم يقدر عليهن .

فعند ذلك تواثقوا على رابية هناك يقال لها « جلعاد » على أنه لا يهين بناته ، ولا يتزوج عليهن ، ولا يجاوز هذه الرابية الى بلاد الآخر ، لا لابان ولا يعقوب ، وعملا طعاماً وأكل القوم معهم وتودع كل منهما من الآخر . وتفارقوا راجعين الى بلادهم .

فلما اقترب يعقوب من أرض « ساعير » تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم وبعث يعقوب البرد[4]

---

(١) الأبقع : ما فيه بقع بيض وسود .

(٢) الأملح : ما يخالط بياضه سواد .

(٣) الأجلح : ما لا قرن له .

(٤) العيون : وما نسميه اليوم رجال الاستطلاع .

الى أخيه العيص يترفق له ويتواضع له . فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب اليك في أربعمائة رجل .

فخشي يعقوب من ذلك ، ودعا الله عز وجل وصلى له ، وتضرع إليه وتمسكن لديه ، وناشده عهده ووعده الذي وعده به . وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص . وأعد لأخيه هدية عظيمة هي : مائتا شاة ، وعشرون تيساً ومائتا نعجة ، وعشرون كبشاً ، وثلاثون لقحة[1] ، وأربعون بقرة ، وعشرة من الثيران وعشرون أتاناً[2] وعشرة من الحمر . وأمر عبيده أن يسوقوا كلا من هذه الأصناف وحده . وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة ، فإذا لقيهم العيص فقال للأول : لمن أنت ؟ ولمن هذه معك ؟ فليقل : لعبدك يعقوب ، أهداها لسيدي العيص وليقل الذي بعده كذلك وكذلك الذي بعده وكذا الذي بعده ، ويقول كل منهم : وهو جاء بعدنا .

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الأحد عشر . بعد الكل بليلتين ، وجعل يسير فيهما ليلاً ويكمن نهاراً . فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية ، تبدى له ملك من الملائكة في صورة رجل ، فظنه يعقوب رجلاً من الناس ، فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه ، فظهر عليه يعقوب فيما يرى ، إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب . فلما أضاء الفجر قال له الملك : ما اسمك ؟ قال : يعقوب . قال : لا ينبغي أن تدعى بعد اليوم إلا اسرائيل . فقال له يعقوب : من أنت ؟ وما اسمك ؟ فذهب عنه . فعلم أنه ملك من الملائكة ، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله . فلذلك لا يأكل بنو اسرائيل عرق النسا ![3] .

ورفع يعقوب عينيه فإذا أخوه عيصو قد أقبل في أربعمائة راجل ، فتقدم أمام أهله . فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات ، وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان . وكان مشروعاً لهم ؛ كما سجدت الملائكة لآدم تحية وكما سجد أخوة يوسف وأبواه له كما سيأتي .

فلما رآه العيص تقدم اليه واحتضنه وقبله وبكى ، ورفع العيص عينيه ونظر إلى النساء والصبيان فقال : من أين لك هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء الذين وهب الله لعبدك ، فدنت الأمتان وبنوهما فسجدوا له . ودنت « ليا » وبنوها فسجدوا له . ودنت « راحيل » وابنها يوسف فخرا سجداً له . وعرض عليه أن يقبل هديته وألح عليه فقبلها .

---

(١) اللقحة : الناقة ذات اللبن .

(٢) الأتان : أنثى الحمار أو البقر .

(٣) فخذ الذبيحة وكلها رواية اسرائيلية لأنهم يزعمون أن يعقوب قد صارع الله (استغفر الله) . « وسأله يعقوب وقال عرفني اسمك . فقال لِمَ سؤالك عن اسمي ، وباركه هناك ، وسميّ يعقوب الموضع فنوئيل قائلاً : إني قد رأيت الله وجهاً إلى وجه ونجت نفسي » .

سفر التكوين الفصل ٣٣ العدد (٣٠ - ٣١)

ورجع العيص فتقدم أمامه ، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال « ساعير » .

فلما مر بساحور ابتنى له بيتاً ، ولدوابه ظلالاً ، ثم مر على أورشليم قرية شخيم[1] فنزل قبل القرية ، واشترى مزرعة شخيم[1] بن جمور بمائة نعجة ، فضرب هنالك فسطاطه ، وابتنى ثم مذبحاً فسماه « ايل » إله اسرائيل وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه . وهو بيت المقدس اليّوم ، الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام : وهو مكان الصخرة التي علمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك ، كما ذكرنا أولاً .

وذكر أهل الكتاب هنا قصة « دينا » بنت يعقوب بنت « ليا » وما كان من أمرها مع شخيم ابن جمور الذي قهرها على نفسها ، وأدخلها منزله ثم خطبها من أبيها وأخوتها ، فقال أخوتها : إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا ، فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً ، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم . فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان ، مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم ، وقتلوا شخيماً وأباه جمور لقبيح ما صنعوا اليهم ، مضافاً الى كفرهم ، وما كانوا يعبدونه من أصنامهم ، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة .

ثم حملت راحيل فولدت غلاماً هو « بنيامين » إلا أنه جهدت في طلقها به جهداً شديداً وماتت ، عقيبه فدفنها يعقوب في « أفراث » . وهي بيت لحم ، وصنع يعقوب على قبرها حجراً ، وهي الحجارة المعروفة بقبر راحيل الى اليوم ، وكان أولاد يعقوب الذكور آثني عشر رجلاً . فمن ليا : روبيل ، وشمعون ، ولاوي ، ويهودا ، وايساخر ، وزابلون . ومن راحيل : يوسف ، وبنيامين . ومن أمة راحيل : دان ، ونيفتالي . ومن أمة ليا : جاد ، وأشير ، عليهم السلام .

وجاء يعقوب إلى أبيه اسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث كان يسكن ابراهيم . ثم مرض اسحاق ومات عن مائة وثمانين سنة : ودفنه ابناه : العيص ويعقوب مع أبيه ابراهيم الخليل في المغارة التي اشتراها . كما قدمنا .

***

---

(١) في سفر التكوين شكيم .

ذكر ما وقع من الأمور العجيبة في حياة اسرائيل

فمن ذلك :

قصة يوسف بن راحيل

وقد أنزل الله عز وجل في شأنه وما كان من أمره سورة من القرآن العظيم ، ليتدبر ما فيها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * آلر تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾[1] .

قد تكلمنا على الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة ، فمن أراد تحقيقه فلينظره ثم ، وتكلمنا على هذه السورة مستقصى في موضعها من التفسير . ونحن نذكر ها هنا نبذاً مما هناك على وجه الايجاز والنجاز .

وجملة القول في هذا المقام : أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ، بلسان عربي فصيح ، بين واضح جلي ، يفهمه كل عاقل ذكي زكي . فهو أشرف كتاب نزل من السماء ، أنزله اشرف الملائكة على أشرف الخلق في أشرف زمان ومكان ، بأفصح لغة وأظهر بيان .

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها ، وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ، ودمغ الباطل وزيفه ورده .

وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج ، وأبين حكمة وأعدل حكماً .

فهو كما قال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً** ﴾[2]

يعني صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي .

ولهذا قال تعالى :﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بماأوحيناإليك هذا القرآن وإن كنت من**

---

(١) سورة يوسف الآيات ١ ـ ٣ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥ .

قبله لمن الغافلين ﴾ أي بالنسبة إلى ما أوحي إليك فيه .

كما قال تعالى : **﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ * صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾**[1] .

وقال تعالى : **﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾**[2] .

يعني من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد . كما قال في الحديث المروي في المسند والترمذي عن أمير المؤمنين علي ، مرفوعاً وموقوفاً : « من ابتغى الهدي في غيره أضله الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج بن النعمان ، حدثنا هشام ، أنبأنا خالد عن الشعبي ، عن جابر : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : أتتهوكون[3] فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » . إسناد صحيح .

ورواه أحمد من وجه آخر عن عمر وفيه : فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

وقد أوردت طرق هذا الحديث وألفاظه في أول سورة يوسف . وفي بعضها : أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال في خطبته : « أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا ، ولا يغرنكم المتهوكون » . ثم أمر بتلك الصحيفةفمحيت حرفاً حرفاً .

﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي

---

(١) سورة الشورى الأيتان ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سورة طه الآيات ٩٩ - ١٠١ .

(٣) تهوك : تحير وتردد وتهور أي أنكم تترددون بين إتباع ما جئتكم به ، وبين إتباع اليهود وما يدعونه . والدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده كما ورد في الحديث التالي .

ساجدين * قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبينٌ * وكذلك يجتبيك ربك ويُعلمك من تأويل الأحاديث ويُتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إنَّ ربك عليمٌ حكيمٌ ﴾(١) .

قد قدمنا أن يعقوب كان له من البنين اثنا عشر ولداً ذكراً وسميناهم ، واليهم تنسب أسباط بني اسرائيل كلهم ، وكان أشرفهم وأجلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام .

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنه لم يكن فيهم نبي غيره ، وباقي أخوته لم يوح اليهم .

وظاهر ما ذكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصة يدل على هذا القول .

ومن استدل على نبوتهم بقوله : **﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾**(٢) وزعم أن هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي ، لأن المراد بالأسباط شعوب بني اسرائيل وما كان يوجد فيهم من الأنبياء الذين ينزل عليهم الوحي من السماء والله أعلم(٣).

ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين أخوته بالرسالة والنبوة ، أنه ما نص على واحد من أخوته سواه ، فدل على ما ذكرناه .

ويستأنس لهذا بما قال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن ، عن عبد الله ابن دينار ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم » .

انفرد به البخاري ، فرواه عن عبد الله بن محمد وعبدة عن عبد الصمد بن عبد الوارث به وقد ذكرنا طرقه في قصة ابراهيم بما أغنى عن إعادته هنا . ولله الحمد والمنة .

قال المفسرون وغيرهم : رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم ، كأن أحد عشر كوكباً ، وهم اشارة الى بقية اخوته ، والشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه ، قد سجدوا له ، فهاله ذلك .

فلما استيقظ قصها على أبيه ، فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة ، بحيث يخضع له أبواه وأخوته فيها . فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على أخوته ؛ كيلا

---

(١) سورة يوسف الآيات ٤ ـ ٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٣٦ .

(٣) أي الأقوام الذين يتبعونهم وليسوا من سلالتهم فليس كل اليهود من إسحاق والسبط عند اليهود كالقبيلة عند العرب .

يحسدوه ويبغوا له الغوائل ويكيدوه بأنواع الحيل والمكر .

وهذا يدل على ما ذكرناه .

ولهذا جاء في بعض الآثار : « استعينوا على قضاء حوائجكم بكتمانها فإن كل ذي نعمة محسود » .

وعند أهل الكتاب أنه قصها على أبيه وأخوته معاً . وهو غلط منهم .

﴿ **وكذلك يجتبيك ربك** ﴾ أي وكما أراك هذه الرؤيا العظيمة ، فإذا كتمتها ﴿**يجتبيك ربك**﴾ أي يخصك بأنواع اللطف والرحمة ، ﴿ **ويعلمك من تأويل الأحاديث** ﴾ أي يفهمك من معاني الكلام وتعبير المنام ما لا يفهمه غيرك .

﴿ **ويتم نعمته عليك** ﴾ أي بالوحي إليك ﴿ **وعلى آل يعقوب** ﴾ أي بسببك ، ويحصل لهم بك خير الدنيا والآخرة . ﴿ **كما أتمَّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق** ﴾ أي ينعم عليك ويحسن إليك بالنبوة ، كما أعطاها أباك يعقوب ، وجدك إسحاق ، ووالد جدك إبراهيم الخليل ، ﴿ **إن ربك عليمٌ حكيمٌ** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[1]

ولهذا قال رسول الله ﷺ لما سئل : أي الناس أكرم ؟ قال : « يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » .

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما ، وأبو يعلى والبزار في مسنديهما ، من حديث الحكم بن ظهير ـ وقد ضعفه الأئمة ـ عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر قال : أتى النبي ﷺ رجل من اليهود يقال له : بستانة اليهودي ، فقال : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها ؟ قال : فسكت النبي ﷺ فلم يجبه بشيء ونزل جبريل عليه السلام بأسمائها ، قال : فبعث اليه رسول الله فقال : « هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها ؟ » قال : نعم . فقال : هي : جريان ، والطارق ، والذيال ، وذو الكتفان ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفيلق ، والمصبح ، والضروح ، وذو الفرع ، والضياء ، والنور » .

فقال اليهودي : اي والله إنها لأسماؤها ، وعند أبي يعلى : فلما قصها على أبيه قال : هذا أمر مشتت يجمعه الله ، والشمس أبوه والقمر أمه .

﴿ **لقد كان في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عصبةٌ إن أبانا لفي ضلالٍ مبينٍ * آقتلوا يوسف أو آطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين * قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابةِ الجب يلتقطه**

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾[1] .

ينبه تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم ، والدلالات والمواعظ والبينات . ثم ذكر حسد أخوة يوسف له على محبة أبيه له ولأخيه ـ يعنون شقيقه لأمه بنيامين ـ أكثر منهم ، وهم عصبة أي جماعة يقولون : فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين ﴿ **إن أبانا لفي ضلال مبين** ﴾ أي بتقديمه حبهما علينا .

ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى ارض لا يرجع منها ، ليخلو لهم وجه أبيهم أي لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم ، وأضمروا التوبة بعد ذلك .

فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿ **قال قائلٌ منهم** ﴾ قال مجاهد : هو شمعون . وقال السدي : هو يهوذا ، وقال قتادة ومحمد بن إسحاق هو أكبرهم روبيل[2] : ﴿ **لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السَّيارة** ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿ **إن كنتم فاعلين** ﴾ ما تقولون لا محالة ، فليكن هذا الذي أقول لكم ، فهو أقرب حالاً من قتله أو نفيه وتغريبه .

فأجمعوا رأيهم على هذا ، فعند ذلك ﴿ **قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون * أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون * قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبةٌ إنا إذاً لخاسرون** ﴾[3] . طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم ، وأن يلعب وينبسط ، وقد أضمروا له ما الله به عليم .

فأجابهم الشيخ ، عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم : يا بني يشق عليَّ أن أفارقه ساعة من النهار ، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم وما أنتم فيه فيأتي الذئب فيأكله ، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه .

﴿ **قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون** ﴾ أي لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة ، إنا إذن لخاسرون ، أي عاجزون هالكون .

وعند أهل الكتاب : أنه أرسله وراءهم يتبعهم ، فضلَّ عن الطريق حتى أرشده رجل اليهم . وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم في التعريب ؛ فإن يعقوب عليه السلام كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم ، فكيف يبعثه وحده .

---

(١) سورة يوسف الآيات ٧ ـ ١٠ .

(٢) الله أعلم وكل هذه أقاويل والقرآن الكريم قال : ﴿ **قال قائل منهم** ﴾ ولو أراد الله لسماه لنا .

(٣) سورة يوسف الآيات ١١ ـ ١٤ .

﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابةِ الجب وأوحينا إليه لتُنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون * وجاءوا أباهم عشاءً يبكون * قالوا يا أبانا إنَّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين * وجاءوا على قميصه بدمٍ كذِبٍ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون ﴾[1] .

لم يزالوا بأبيهم حتى بعثه معهم ، فما كان إلا أن غابوا عن عينيه ، فجعلوا يشتمونه ويهينونه بالفعال والمقال ، وأجمعوا على القائه في غيابة الجب ، أي في قعره على راعونته ، وهي الصخرة التي تكون في وسطه يقف عليها المائح ، وهو الذي ينزل ليملأ الدلاء إذا قل الماء والذي يرفعها بالحبل يسمى الماتح .

فلما ألقوه فيه ، أوحى الله اليه : أنه لا بد لك من فرج ومخرج من هذه الشدة التي أنت فيها ، ولتخبرن أخوتك بصنيعهم هذا في حال أنت فيها عزيز ، وهم محتاجون اليك خائفون منك » ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : وهم لا يشعرون بإيحاء الله اليه ذلك . عن ابن عباس : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ أي لتخبرنهم بأمرهم هذا في حال لا يعرفونك فيها رواه ابن جرير عنه .

فلما وضعوه فيه ورجعوا عنه ، أخذوا قميصه فلطخوه بشيء من الدم ، ورجعوا الى أبيهم عشاء وهم يبكون ، أي على أخيهم ، ولهذا قال بعض السلف : لا يغرنك بكاء المتظلم فرب ظالم وهو باكٍ ، وذكر بكاء أخوة يوسف وقد جاؤوا أباهم عشاء يبكون ، أي في ظلمة الليل ؛ ليكون أمشى لغدرهم لا لعذرهم .

﴿ **قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا** ﴾ أي ثيابنا ﴿ **فأكله الذئب** ﴾ أي في غيبتنا عنه في استباقنا . وقولهم ﴿ **وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين** ﴾ أي وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك من أكل الذئب له ، ولو كنا غير متهمين عندك . فكيف وأنت تتهمنا في هذا ؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب ، وضمنا لك أن لا يأكله لكثرتنا حوله ، فصرنا غير مصدقين عندك ، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه .

﴿ **وجاؤوا على قميصه بدمٍ كذبٍ** ﴾ أي مكذوب مفتعل ؛ لأنهم عمدوا الى سخلة ذبحوها ، فأخذوا من دمها فوضعوه على قميصه ، ليوهموه أنه أكله الذئب . قالوا : ونسوا أن يخرقوه[2] ،

---

(١) سورة يوسف الآيات ١٥ ـ ١٨ .

(٢) أي يمزقوه لأنه لو كان الذئب قد أكله لكانت أظفاره وأسنانه قد مزقت القميص .

وآفة الكذب النسيان ! ولما ظهرت عليهم علائم الريبة لم يرج صنيعهم على أبيهم ؛ فإنه كان يفهم عداوتهم له ، وحسدهم إياه على محبته له من بينهم أكثر منهم ، لما كان يتوسم فيه من الجلالة والمهابة التي كانت عليه في صغره ، لما يريد الله أن يخصه به من نبوته . ولما راودوه عن أخذه فبمجرد ما أخذوه أعدموه ، وغيبوه عن عينيه وجاؤوا وهم يتباكون ، وعلى ما تمالأوا يتواطأون .

ولهذا : ﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون** ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أن روبيل أشار بوضعه في الجب ليأخذه من حيث لا يشعرون ويرده إلى أبيه ، فغافلوه وباعوه لتلك القافلة . فلما جاء روبيل آخر النهار ليخرج يوسف لم يجده . فصاح وشق ثيابه ، وعمد أولئك الى جدي فذبحوه ، ولطخوا من دمه جبة يوسف ، فلما علم يعقوب شق ثيابه ، ولبس مئزراً أسود وحزن على ابنه أياماً كثيرة .

وهذه الركاكة جاءت من خطئهم في التعبير والتصوير .

* * *

﴿ **وجاءت سيارةٌ فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بُشرى هذا غلامٌ وأسروه بضاعةً والله عليمٌ بما يعملون * وشروه بثمن بخسٍ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين * وقال الذي آشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ولما بلغ أشدَّه آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين** ﴾

يخبر تعالى عن قصة يوسف حين وضع في الجب : أنه جلس ينتظر فرج الله ولطفه به ، فجاءت سيارة ، أي مسافرون . قال أهل الكتاب : كانت بضاعتهم من الفستق والصنوبر والبطم قاصدين ديار مصر من الشام ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدلى أحدهم دلوه تعلق به يوسف .

فلما رآه ذلك الرجل﴿ **قال يا بشرى** ﴾ أي يا بشارتي ﴿ **هذا غلامٌ وأسروه بضاعةً** ﴾ أي أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ﴿ **والله عليمٌ بما يعملون** ﴾ أي هو عالم بما تمالأ عليه أخوته ، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم . ومع هذا لا يغيره تعالى ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة والقدر السابق والرحمة بأهل مصر ؛ بما يجري الله على يدي هذا الغلام الذي

---

(١) سورة يوسف الآيات ١٩ ـ ٢٢ .

يدخلها في صورة أسير رقيق ، ثم بعد هذا يملكه أزمة الأمور وينفعهم الله به في دنياهم وأخراهم ، بما لا يحد ولا يوصف .

ولما استشعر أخوة يوسف بأخذ السيارة له لحقوهم ، وقالوا هذا غلامنا أبق منا ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، أي قليل نزر ، وقيل هو الزيف **﴿ دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾**

قال ابن مسعود وابن عباس ونوف البكالي والسدي وقتادة وعطية العوفي : باعوه بعشرين درهماً ، اقتسموها درهمين[1] . وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً . وقال عكرمة ومحمد بن إسحاق : اربعون درهماً . والله اعلم .

﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لآمرأته أكرمي مثواه ﴾ أي احسني إليه **﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾** ، وهذا من لطف الله به ورحمته وإحسانه إليه ، بما يريد أن يؤهله له ويعطيه من خيري الدنيا والآخرة .

قالوا : وكان الذي اشتراه من أهل مصر عزيزها وهو الوزير بها ، الذي تكون الخزائن مسلمة اليه . قال ابن إسحاق : واسمه قطفير بن روحيب قال : وكان ملك مصر يومئذٍ الريان بن الوليد ، رجل من العماليق . قال : واسم امرأة العزيز « راعيل » بنت رعاييل . وقال غيره : كان اسمها « زليخا » والظاهر أنه لقبها . وقيل : « فكا » بنت ينوس ، رواه الثعلبي عن ابن هشام الرفاعي .

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن السائب ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس : كان اسم الذي باعه بمصر ـ يعني الذي جلبه إليها ـ مالك بن زعر بن نويب بن عفقا بن مديان بن ابراهيم . فالله أعلم[2] .

وقال ابن إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : **﴿ أكرمي مثواه ﴾** والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى : **﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾**[3] ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ثم قيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً ، وقيل بوزنه مسكاً ووزنه حريراً ووزنه ورقاً . فالله أعلم .

---

(١) لكلٍ منهم .

(٢) كل هذه الروايات والأسماء غير معروفة المصدر والمرجح أنها روايات اسرائيلية

(٣) سورة القصص الآية ٢٦ .

وقوله : ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف في الأرض** ﴾ . أي وكما قيضنا هذا العزيز وامرأته يحسنان إليه ويعتنيان به مكنا له في أرض مصر ﴿ **ولنعلمه من تأويل الأحاديث** ﴾ أي فهمها ، وتعبير الرؤيا من ذلك . ﴿ **والله غالب على أمره** ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنه يقيض له أسباباً واموراً لا يهتدي إليها العباد . ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين** ﴾. فدل على أن هذا كله كان وهو قبل بلوغ الأشد ، وهو حد الأربعين الذي يوحي الله فيه الى عباده النبيين ، عليهم الصلاة والسلام من رب العالمين .

وقد اختلفوا في مدة العمر الذي هو بلوغ الأشد : فقال مالك وربيعة وزيد بن أسلم والشعبي : هو الحلم . وقال سعيد بن جبير : ثماني عشرة سنة . وقال الضحاك : عشرون سنة . وقال عكرمة : خمس وعشرون سنة . وقال السدي : ثلاثون سنة . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . وقال الحسن : أربعون سنة . ويشهد له قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة** ﴾[1] .

* * *

﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثوايَ إنه لا يفلح الظالمون * ولقد همت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين * وآستبقا الباب وقدت قميصه من دبرٍ وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذابٌ أليمٌ * قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصه قُدَّ من قُبلٍ فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قُدَّ من دُبرٍ فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قُدَّ من دبرٍ قال إنه من كيدكنَّ إن كيدكنَّ عظيمٌ * يوسف أعرض عن هذا وآستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾[2] .

يذكر تعالى ما كان من مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام عن نفسه وطلبها منه ما لا يليق بحاله ومقامه ، وهي في غاية الجمال والمال . والمنصب والشباب . وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه ، وتهيأت له وتصنعت . ولبست أحسن ثيابها وأفخر لباسها ، وهي مع هذا كله امرأة الوزير . قال ابن إسحاق : وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر .

---

(١) سورة الأحقاف الآية ١٥ .

(٢) سورة يوسف الآيات ٢٣ ـ ٢٩ .

وهـذا كله مع أن يـوسف عليه السـلام شاب بـديع الجمـال والبهاء : إلا أنـه نبي من سـلالـة الأنبيـاء ، فعصمه.ربـه عن الفحشاء ، وحمـاه عن مكر النسـاء ، فهو سيـد السادة النجبـاء ، السبعـة الأتقياء المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء ، في قـوله عليـه الصلاة والسـلام من رب الأرض والسماء : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عـادل ورجل ذكـر الله خاليـاً ففاضت عيناه ، ورجل معلق قلبه بالمسجد إذا خرج منـه حتى يعود اليـه ، ورجلان تحـابا في الله اجتمعـا عليه وتفـرقا عليـه ، ورجل تصـدق بصدقـة فأخفـاها حتى لا تعلمَ شمـاله مـا تنفق يمينه ، وشـاب نشأ في عبادة الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله » .

والمقصـود أنها دعته اليهـا وحرصت عـلى ذلك أشـد الحرص ، فقـال : ﴿ **معـاذ الله إنـه ربي** ﴾ يعني زوجهـا صاحب المنـزل سيدي ﴿ **أحسن مثواي** ﴾ أي أحسن إليَّ وأكرم مقـامي عنده ﴿ **إنـه لا يفلح الـظالمون** ﴾ وقـد تكلمنا عـلى قولـه تعـالى : ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ بما فيه كفاية ومقنع في التفسير .

وأكثر أقوال المفسرين ها هنا متلقى من كتب أهل الكتاب ، فالإعراض عنه أولى بنا .

والذي يجب أن يعتقد : أن الله تعالى عصمه وبـرأه ، ونزهـه عن الفاحشـة وحماه عنهـا وصانـه منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ .

﴿ **واستبقـا البـاب** ﴾ أي هـرب منهـا طـالبـاً البـاب ليخـرج منـه فـراراً منهـا فـاتبعتـه في أثـره ﴿ **وألفيـا** ﴾ أي وجـدا ﴿ **سيــدهـا** ﴾ أي زوجهـا ﴿ **لــدى البـاب** ﴾ فبـدرتـه بـالكـلام وحـرضتـه عليـه ، ﴿ **قـالت مـا جـزاء من أراد بـأهلك سـوءاً إلا أن يسجن أو عــذابٌ أليمٌ** ﴾ اتهمتـه وهي المتهمـة ، وبرأت عـرضها ونـزهت ساحتهـا . فلهذا قـال يوسف عليـه السلام : ﴿ **هي راودتني عن نفسي** ﴾ احتاج إلى أن يقول الحق عند الحاجة(١) .

﴿ **وشهـد شاهـد من أهلهـا** ﴾ . قيـل : كان صغيـراً في المهد . قـاله ابن عبـاس وروي عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن البصـري وسعيد بن جبـير والضحاك . واختـاره ابن جريـر ، وروى فيه حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ، ووقفه غيره عنه .

قيل : كان رجـلاً قريبـاً إلى « قطفـير » بعلها ، وقيـل قريبـاً إليها . وممن قـال أنه كـان رجلاً : ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن اسحاق وزيد بن أسلم(٢) .

فقـال : ﴿ **إن كان قميصـه قدَّ من قبـلٍ فصـدقت وهـو من الكـاذبـين** ﴾ أي لأنـه يكـون قـد

---

(١) لأن حياته كانت في الميزان فالعبد الـذي يسيء لعرض سيـده يقتل ويمثـل به ولأنـه يرفض أن يُسـاء إلى شرفـه وكرامـة نبوتـه بتهمة كهذه .

(٢) وهذه الرواية عن ابن عباس أصح وأحسن من رواية ابن جرير .

راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه ﴿ وإن كان قميصه قدَّ من دبرٍ فكذبت وهو من الصادقين ﴾ أي لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك ، وكذلك كان . ولهذا قال تعالى : ﴿ فلما رأى قميصه قدَّ من دبرٍ قال إنه من كيدكن إن كيدكنَّ عظيمٌ ﴾ أي هذا الذي جرى من مكركن ، أنت راودتيه عن نفسه ، ثم اتهمتيه بالباطل .

ثم أضرب بعلها عن هذا صفحاً فقال : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أي لا تذكره لأحد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن وأمرها بالاستغفار لذنبها الذي صدر منها ، والتوبة الى ربها ، فإن العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه .

وأهل مصر وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أنهم يعلمون أن الذي يغفر الذنوب ويؤاخذ بها هو الله وحده لا شريك له في ذلك . ولهذا قال لها بعلها ، وعذرها من بعض الوجوه ؛ لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله ، إلا أنه عفيف نزيه بريء العرض سليم الناحية فقال :﴿ واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾[1]

* * *

﴿ وقال نسوةٌ في المدينة آمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلالٍ مبينٍ * فلما سمعت بمكرهنَّ أرسلت إليهن وأعتدت لهن مُتكأً وأتت كل واحدةٍ منهن سكيناً وقالت آخرج عليهنَّ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقُلن حاشا للهِ ما هذا بشراً إن هذا إلاَّ ملكٌ كريمٌ * قالت فذلكنَّ الذي لُمتنَّني فيه ولقد راودته عن نفسه فآستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجننَّ وليكونن من الصاغرين * قال ربِّ السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه وإلاَّ تصرف عني كيدهنَّ أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين * فآستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾[2]

يذكر تعالى ما كان من قبل نساء المدينة ، من نساء الأمراء وبنات الكبراء في الطعن على امرأة العزيز وعيبها ، والتشنيع عليها في مراودتها فتاها ، وحبها الشديد له ، وهو لا يساوى هذا ؛ لأنه مولى من الموالي وليس مثله أهلاً لهذا . ولهذا قلن ﴿ إنا لنراها في ضلالٍ مبينٍ ﴾ أي في وضعها الشيء في غير محله .

﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ أي بتشنيعهن عليها والتنقص لها . والاشارة اليها بالعيب والمذمة

(١) سورة يوسف الآية ٢٩ .

(٢) سورة يوسف الآيات ٣٠ ـ ٣٤ .

بحب مولاها وعشق فتاها ، فأظهرن ذماً وهي معذورة في نفس الأمر ، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن ، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ، ولا من قبيل ما لديهن ، فأرسلت اليهن فجمعتهن في منزلها ، وأعتدت لهن ضيافة مثلهن ، وأحضرت في جملة ذلك شيئاً مما يقطع بالسكاكين ، كالأترج[1] ونحوه ، وأتت كل واحدة منهن سكيناً ، وكانت قد هيأت يوسف عليه السلام ، وألبسته أحسن الثياب وهو في غاية طراوة الشباب وامرته بالخروج عليهن بهذه الحالة ، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة .

﴿ **فلما رأينه أكبرنه** ﴾ أي أعظمنه وأجللنه وهبنه ، وما ظنن أن يكون مثل هذا في بني آدم ، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن ، وجعلن يحززن في أيديهن بتلك السكاكين ولا يشعرن بالجراح ، ﴿ **وقلنَ حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملكٌ كريم** ﴾ .

وقد جاء في حديث الإسراء : « فمررت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر[2] الحسن » . قال السهيلي وغيره من الأئمة : معناه أنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، لأن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، فكان في غاية نهايات الحسن البشري . ولهذا يدخل أهل الجنة الجنة على طول آدم وحسنه . ويوسف كان على النصف من حسن آدم . ولم يكن بينهما أحسن منهما ؛ كما أنه لم تكن أنثى بعد حواء أشبه بها من سارة امرأة الخليل عليه السلام .

قال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البرق ، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه . وقال غيره : كان في الغالب مبرقعاً لئلا يراه الناس . ولهذا لما قام عذرن امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور ، وجرى لهن وعليهن ما جرى ؛ من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين ، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته .

﴿ **قالت فذلكنَّ الذي لمتنَّني فيه** ﴾ ثم مدحته بالعفة التامة[3] فقالت : ﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ أي امتنع ﴿ **ولئن لم يفعل ما آمرُه ليسجنن وليكونن من الصاغرين** ﴾ .

وكان بقية النساء حرضنه على السمع والطاعة لسيدته ، فأبى أشد الإباء ، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعا فقال في دعائه لرب العالمين : ﴿ **رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهنَّ أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾ يعني إن وكلتني إلى نفسي ، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف ، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله . فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني ، وأحطتني بحولك وقوتك .

---

(١) البرتقال .

(٢) الشطر النصف أي أعطي نصف ما في الدنيا من جمال .

(٣) أي رفضه للغواية .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فآستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنّ إنه هو السميع العليم * ثم بدا لهم من بعدِ ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حينٍ * ودَخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين * قال لا يأتيكما طعامٌ تُرزقانه إلاَّ نبَّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علَّمني ربي إني تركت ملة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * وآتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نُشرك بالله من شيءٍ ذلك من فضل آلله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * يا صاحبي السجن أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلاَّ أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطانٍ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك آلدِّين آلقيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربَّه خمراً وأمَّا الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان** ﴾ (1)

يذكر تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم ، أي ظهر لهم من الرأي بعد ما علموا براءة يوسف أن يسجنوه الى وقت ؛ ليكون ذلك أقل لكلام الناس في تلك القضية ، وأحمد لأمرها ، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها ، فسجنوه ظلماً وعدواناً .

وكان هذا ما قدر الله له ، ومن جملة ما عصمه به ؛ فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم .

ومن ها هنا استنبط بعض الصوفية ما حكاه عنهم الشافعي : أن من العصمة أن لا تجد ! . . .

قال الله : ﴿ **ودخل معه السجن فتيان** ﴾ : قيل : كان أحدهما ساقي الملك واسمه فيما قيل : « نبوا » والآخر خبازه ، يعني الذي يلي طعامه ، وهو الذي يقول له الترك : « الجاشنكير » واسمه فيما قيل : « مجلث » وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما . فلما رأيا يوسف في السجن أعجبهما سمته وهديه ، ودله وطريقته ، وقوله وفعله ، وكثرة عبادته ربه ، وإحسانه إلى خلقه ، فرأى كل واحد منهما رؤيا تناسبه .

قال أهل التفسير : رأيا في ليلة واحدة . أما الساقي فرأى كأن ثلاثة قضبان من حبلة وقد أورقت وأينعت عناقيد العنب ، فأخذها فاعتصرها في كأس الملك وسقاه ، ورأى الخباز على رأسه ثلاث سلال من خبز ، وضواري الطيور تأكل من السل الأعلى .

---

(1) سورة يوسف الآيات ٣٤ ـ ٤١ .

فقصاها عليه وطلبا منه أن يعبرها لهما وقالا : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ فأخبرهما أنه عليم بتعبيرها خبير بأمرها ، ﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ . قيل : معناه مهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكم قبل وقوعه فيكون كما أقول . وقيل : معناه إني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً وحامضاً ، كما قال عيسى : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴾[1]

وقال لهما : إن هذا من تعليم الله إياي ، لأني مؤمن به موحد له ، متبع ملة آبائي الكرام : إبراهيم الخليل ، وإسحاق ويعقوب ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا ﴾ أي بأن هدانا لهذا ، ﴿ وعلى الناس ﴾ أي بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونرشدهم وندلهم عليه . وهو في فطرهم مركوز ، وفي جبلتهم مغروز[2] ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

ثم دعاهم الى التوحيد وذم عبادة ما سوى الله عز وجل ، وصغر أمر الأوثان وحقرها ، وضعف أمرها فقال : ﴿ يا صاحبي السجن أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله ﴾ أي المتصرف في خلقه الفعال لما يريد ، الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ أي وحده لا شريك له و﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي المستقيم والصراط القويم ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فهم لا يهتدون إليه مع وضوحه وظهوره .

وكانت دعوته لهما في هذه الحال في غاية الكمال ؛ لأن نفوسهما معظمة له ، منبعثة على تلقي ما يقول بالقبول ، فناسب أن يدعوهما الى ما هو الأنفع لهما مما سألا عنه وطلبا منه .

ثم لما قام بما وجب عليه وأرشد إلى ما أرشد اليه قال : ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ قالوا وهو الساقي ﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ قالوا وهو الخباز ﴿ قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ أي وقع هذا لا محالة ، ووجب كونه على كل حالة . ولهذا جاء في الحديث : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ؛ فإذا عبرت وقعت » .

وقد روي عن ابن مسعود ومجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهما قالا : لم نر شيئاً فقال لهما : ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ .

﴿ وقال للذي ظنَّ أنَّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك[3] فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴾[4]

---

(١) سورة آل عمران الآية ٤٩ .

(٢) أي أن الإيمان بالله موجود في ذات الإنسان ، عقله وقلبه لكن رغبته في الدنيا تمنعه من اتباع أوامر ربه .

(٣) سيدك .

(٤) سورة يوسف الآية ٤٢ .

يخبر تعالى أن يوسف قال للذي ظنه ناجياً منهما وهو الساقي : ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ . يعني آذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك . وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب ، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب .

وقوله ﴿ **فأنساه الشيطان ذكر ربه** ﴾أي فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصاه به يوسف عليه السلام . قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد . وهو الصواب ، وهو منصوص أهل الكتاب .

﴿ **فلبث** ﴾ يوسف ﴿ **في السجن بضع سنين** ﴾ . والبضع : ما بين الثلاث الى التسع ، وقيل إلى السبع ، وقيل : إلى الخمس ، وقيل ما دون العشرة حكاها الثعلبي . ويقال بضع نسوة وبضعة رجال .

ومنع الفراء[١] استعمال البضع فيما دون العشر . قال : وإنما يقال نيف وقال الله تعالى : ﴿ **فلبث في السجن بضع سنين** ﴾وقال تعالى : ﴿ **في بضع سنين** ﴾[٢] . وهذا رد لقوله .

قال الفراء : ويقال بضعة عشر وبضعة وعشرون إلى التسعين ، ولا يقال : بضع ومائة ، وبضع وألف . وخالف الجوهري[٣] : فيما زاد على بضعة عشر ، فمنع أن يقال بضعة وعشرون الى تسعين . وفي الصحيح : « الايمان بضع وستون شعبة ، وفي رواية : وسبعون شعبة ، وأعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » .

ومن قال أن الضمير في قوله : ﴿ **فأنساه الشيطان ذكر ربه** ﴾ عائد على يوسف فقد ضعف ما قاله ، وإن كان قد روي عن ابن عباس وعكرمة[٤] .

والحديث الذي رواه ابن جرير في هذا الموضع ضعيف من كل وجه . تفرد بإسناده ابراهيم ابن يزيد الخوزي المكي وهو متروك . ومرسل الحسن وقتادة لا يقبل ، ولا ها هنا بطريق الأولى والأحرى . والله أعلم .

فأما قول ابن حبان في صحيحه ، عند ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث : أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي ، حدثنا مسدد بن مسرهد ، حدثنا خالد بن عبد الله ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رحم الله يوسف لولا الكلمة التي قالها : ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ ما لبث في السجن ما لبث ، ورحم الله

(١) من كبار علماء اللغة العربية .

(٢) سورة الروم الآية ٢ .

(٣) من علماء اللغة العربية أيضاً .

(٤) أي تذكير سيده والمعنى عائد إلى الساقي ، ولا يهم الرواية وحدها لأن المهم راويها فقد ينسبها إلى من يشاء وهي ليست منهم .

لـوطـاً إن كـان ليـأوي الى ركن شـديـد ، إذ قـال لقـومـه : ﴿ لـو أن لي بكم قـوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾[1] ، قال : فما بعث الله نبياً بعده إلا في ثروة من قومه » .

فـإنه حـديث منكر من هـذا الوجـه . ومحمد بن عمـرو بن علقمة لـه أشيـاء ينفـرد بهـا وفيهـا نكارة . وهذه اللفظة من أنكرها وأشدها والذي في الصحيحين يشهد بغلطها . والله أعلم .

* * *

﴿ **وقال الملك إني أرى سبع بقـراتٍ سمانٍ يـأكلهنَّ سبعٌ عجـافٌ وسبع سنبـلاتٍ خضرٍ وأُخر يـابساتٍ يـا أيها الملأ أفتوني في رؤيـاي إن كنتم للرؤيا تعبـرون * قالـوا أضغاث أحـلامٍ ومـا نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذي نجا منهما وآدَّكر بعـد أُمَّةٍ أنـا أُنبئكم بتأويله فـأرسلون * يوسف أيُّهـا الصديق أفتنـا في سبعِ بقـراتٍ سمانٍ يـأكلهنَّ سبعٌ عجـافٌ وسبع سُنبـلاتٍ خُضرٍ وأخر يابسـاتٍ لعلي أرجـع إلى الناس لعلهم يعلمـون * قـال تـزرعون سبـع سنين دأبـاً فـما حصـدتم فـذروه في سنبله إلاَّ قليـلاً مما تـأكلون * ثم يأتي من بعـد ذلك سبـعٌ شدادٌ يـأكلن مـا قـدمتم لهنَّ إلاَّ قليلاً مما تحصنون * ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾[2] .

هـذا كـان من جملة أسبـاب خـروج يـوسف عليـه السـلام من السجن عـلى وجـه الاحتـرام والاكـرام ، وذلك أن ملك مصر ، وهـو الريـان بن الوليـد بن ثروان بن أراشـة بن فاران بن عمـرو ابن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح ، رأى هذه الرؤيا .

قـال أهل الكتـاب : رأى كأنـه على حـافة نهر ، وكـأنه قـد خرج منـه سبـع بقـرات سمـان ، فجعلن يرتعن في روضة هناك ، فخرجت سبـع هزال ضعـاف من ذلك النهـر ، فرتعن معهن ثم ملن عليهن فأكلنهن ، فاستيقظ مذعوراً . ثم نـام فرأى سبـع سنبلات خضر في قصبـة واحدة ، وإذ سبـع أُخر دقاق يابسات فأكلنهن فاستيقظ مذعوراً .

فلما قصهـا على ملئـه وقومـه لم يكن فيهم من يحسن تعبيرهـا ، بل ﴿ **قـالوا أضغـاث أحـلام** ﴾ أي أخـلاط أحلام من الليـل ، لعلها لا تعبـير لها ، ومـع هذا فـلا خبرة لنـا بذلـك ، ولهذا قـالوا : ﴿ **وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين** ﴾ فعند ذلك تذكر الناجي منهما : الـذي وصاه يـوسف بأن يـذكره عند ربه فنسيه الى حينه هذا ، وذلك عن تقـدير الله عـز وجل لـه الحكمة في ذلـك . فلما سمع رؤيـا الملك ، ورأى عجز الناس عن تعبيرها ، تذكر أمر يوسف ، وما كان أوصاه به من التذكار .

---

(١) سورة هود الآية ٨٠ .
(٢) سورة يوسف الآيات ٤٣ ـ ٤٩ .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **وقال الذي نجا منهما وادّكر** ﴾ أي تذكر ﴿ **بعد أُمةٍ** ﴾ أي بعد مدة من الزمان ، وهو بضع سنين . وقرأ بعضهم كما حكي عن ابن عباس وعكرمة والضحاك : ﴿ **وادكر بعد أمة** ﴾ أي بعد نسيان . وقرأها مجاهد : ﴿ **بعد أمه** ﴾ أي بإسكان الميم وهو النسيان أيضاً . يقال : أمه الرجل يأمه أمها وأمها ، إذا نسي . قال الشاعر :

أمهت وكنت لا أنسي حديثاً ... كذاك الدهر يزري بالعقول

فقال لقومه وللملك : ﴿ **أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون** ﴾ أي فأرسلوني إلى يوسف فجاءه فقال : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون** ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أن الملك لما ذكره له الساقي ، استدعاه الى حضرته ، وقص عليه ما رآه ففسره له . وهذا غلط . والصواب ما قصه الله في كتابه القرآن لا ما عربه هؤلاء الجهلة الثيران ؛ من فرىً[1] وهذيان .

فبذل يوسف عليه السلام ما عنده من العلم بلا تأخر ولا شرط ، ولا طلب الخروج سريعاً ؛ بل أجابهم الى ما سألوا ، وعبر لهم ما كان من منام الملك ، الدال على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع جدب ﴿ **ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاث الناس** ﴾ يعني يأتيهم الغيث والخصب والرفاهية ﴿ **وفيه يعصرون** ﴾ يعني ما كانوا يعصرونه من الأقصاب والأعناب والزيتون والسمسم وغيرها .

فعبر لهم وعلى الخير دلهم ، وأرشدهم إلى ما يعتمدونه في حالتي خصبهم وجدبهم ، وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السبع الأول في سنبله ، إلا ما يرصد بسبب الأكل ، ومن تقليل البذر في سني الجدب في السبع الثانية ، إذ الغالب على الظن أنه لا يرد البذر من الحقل ، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأي والفهم .

﴿ **وقال الملك أئتوني به فلما جاءه الرسول قال آرجع إلى ربك فآسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهنَّ إن ربي بكيدهنَّ عليمٌ * قال ما خطبكنَّ إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه قُلنَ حاشَ لله ما علمنا عليه من سُوءٍ قالت آمرأة العزيز آلأن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن آلله لا يهدي كيد الخائنين * وما أُبرىء نفسي إن النفس لأمارةٌ بالسوء إلاّ ما رحم ربي إنَّ ربي غفورٌ رحيمٌ** ﴾[2] .

---

(١) فرى ج فرية أي كذب وبهتان .

(٢) سورة يوسف الآيات ٥٠ ـ ٥٣ .

لما أحاط الملك علماً بكمال علم يوسف عليه الصلاة والسلام ، وتمام عقله ، ورأيه السديد وفهمه ، أمر بإحضاره إلى حضرته ؛ ليكون من جملة خاصته . فلما جاءه الرسول بذلك ، أحب أن لا يخرج حتى يتبين لكل أحد أنه حبس ظلماً وعدواناً ، وأنه بريء الساحة مما نسبوه اليه بهتاناً . ﴿ **قال ارجع إلى ربك** ﴾ يعني الملك ﴿ **فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليمٌ** ﴾ قيل معناه : أن سيدي العزيز يعلم براءتي مما نسب إليَّ ، أي فمر الملك فليسألهن : كيف كان امتناعي الشديد عن مراودتهن إياي ؟ وحثهن لي على الأمر الذي ليس برشيد ولا سديد ؟

فلما سئلن عن ذلك اعترفن بما وقع من الأمر ، وما كان منه من الأمر الحميد و ﴿ **قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء** ﴾ .

فعند ذلك ﴿ **قالت امرأة العزيز** ﴾ وهي زليخا : ﴿ **الآن حصحص الحق** ﴾ أي ظهر وتبين ووضح ، والحق أحق أن يتبع . ﴿ **أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين** ﴾ أي فيما يقوله ؛ ومن أنه بريء وأنه لم يراودني ، وأنه حبس ظلماً وعدواناً ، وزوراً وبهتاناً .

وقوله : ﴿ **ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين** ﴾ قيل : إنه من كلام يوسف ، أي إنما طلبت تحقيق هذا ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب . وقيل : إنه من تمام كلام زليخا ، أي إنما اعترفت بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر ، وإنما كان مراودة لم يقع معها فعل فاحشة .

وهذا القول هو الذي نصره طائفة كثيرة من أئمة المتأخرين وغيرهم . ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سوى الأول .

﴿ **وما أبرىء نفسي إن النفس لأمَّارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفورٌ رحيم** ﴾ قيل : إنه من كلام يوسف ، وقيل : من كلام زليخا ، وهو مفرع على القولين الأولين وكونه من تمام كلام زليخا أظهر وأنسب وأقوى . والله أعلم .

﴿ **وقال الملك آئتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكينٌ أمينٌ * قال آجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليمٌ * وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ (١) .

لما ظهر للملك براءة عرضه ، ونزاهة ساحته عما كانوا أظهروا عنه مما نسبوه إليه ، قال ﴿**ائتوني به استخلصه لنفسي** ﴾ أي اجعله من خاصتي ، ومن أكابر دولتي ، ومن أعيان حاشيتي ،

(١) سورة يوسف الآيات ٥٤ ـ ٥٧ .

فلما كلمه وسمع مقاله وتبين حاله ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكينٌ أمينٌ ﴾ أي ذو مكانة وأمانة .

﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليمٌ ﴾ طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق بالاهراء[1] ، لما يتوقع من حصول الخلل فيها بعد مضي سبع سني الخصب ، لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه ، من الاحتياط لهم والرفق بهم ، وأخبر الملك أنه حفيظ ، أي قوي على حفظ ما لديه ، أمين عليه ، عليم بضبط الأشياء ومصالح الأهراء . . .

وفي هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الأمانة والكفاءة .

وعند أهل الكتاب : أن فرعون عظم يوسف عليه السلام جداً ، وسلطه على جميع أرض مصر ، وألبسه خاتمه ، وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثاني ، ونودي بين يديه : أنت رب ومسلط وقال له : لست أعظم منك إلا بالكرسي[2] .

قالوا : وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ، وزوجه امرأة عظيمة الشأن . وحكى الثعلبي أنه عزل قطفير عن وظيفته وولاها يوسف .

وقيل : إنه لما مات زوجه امرأته زليخا فوجدها عذراء ، لأن زوجها كان لا يأتي النساء ، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما : افرايم ومنسا . قال : واستوثق ليوسف ملك مصر ، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء .

وحكي أن يوسف كان يوم دخل على الملك عمره ثلاثين سنة ، وأن الملك خاطبه بسبعين لغة ، وفي كل ذلك يجاوبه بكل لغة منها ، فأعجبه ذلك مع حداثة سنه[3] . فالله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي بعد السجن والضيق والحصر ، صار مطلق الركاب بديار مصر ، ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي أين شاء حل منها مكرماً محسوداً معظماً[4] .

﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أي أنَّ هذا كله من جزاء الله وثوابه للمؤمن ، مع ما يدخر له في آخرته من الخير الجزيل والثواب الجميل .

ولهذا قال : ﴿ ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

ويقال أن قطفير زوج زليخا كان قد مات ، فولاه الملك مكانه ، وزوجه امرأته زليخا ، فكان وزير صدق

(١) الأهراء : مخازن الحبوب وخصوصاً القمح .

(٢) سفر التكوين الفصل ٤١ العدد ٤٠ ـ ٤٤ .

(٣) هذا من تخاريف الإسرائيليات لأنه لم توجد في ذلك الحين لغات بهذا العدد .

(٤) كذا في جميع النسخ ولعلها محموداً معظماً .

وذكر محمد بن إسحاق أن صاحب مصر ـ الوليد بن الريان ـ أسلم على يدي يوسف عليه السلام . فالله أعلم . وقد قال بعضهم :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن   وأول مفروح به غاية الحزن
فلا تيأسن ، فالله ملك يوسفا   خزائنه بعد الخلاص من السجن

* * *

﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون * ولما جهزهم بجهازهم قال أئتوني بأخٍ لكم من أبيكم ألا ترون أني أُوفي الكيل وأنا خير المُنزلين * فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون * وقال لفتيانه آجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلّهم يعرفونها إذا آنقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾[1] .

يخبر تعالى عن قدوم أخوة يوسف عليه السلام الى الديار المصرية يمتارون[2] طعاماً، وذلك بعد إتيان سني الجدب وعمومها على سائر العباد والبلاد .

وكان يوسف عليه السلام إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية ديناً ودنيا . فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ؛ لأنهم لم يخطر ببالهم ما صار اليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة ، فلهذا عرفهم وهم له منكرون .

وعند أهل الكتاب : أنهم لما قدموا عليه سجدوا له فعرفهم ، وأراد أن لا يعرفوه فأغلظ لهم في القول ، وقال : أنتم جواسيس ، جئتم لتأخذوا خير بلادي . فقالوا : معاذ الله ؛ إنما جئنا نمتار لقومنا من الجهد والجوع الذي أصابنا ، ونحن بنو أب واحد من كنعان ونحن اثنا عشر رجلاً ذهب منا واحد ، وصغيرنا عند أبينا . فقال : لا بد أن أستعلم أمركم . وعندهم : أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم ، واحتبس شمعون عنده ليأتوه بالأخ الآخر . وفي بعض هذا نظر[3] .

قال الله تعالى : **﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾** أي أعطاهم من الميرة ما جرت به عادته ؛ من إعطاء كل إنسان حمل بعير لا يزيده عليه **﴿ قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم ﴾** وكان قد سألهم عن حالهم ، وكم هم ؟ فقالوا : كنا اثني عشر رجلاً ، فذهب منا واحد وبقي شقيقه عند أبينا . فقال : إذا قدمتم من العام المقبل فأتوني به معكم .

---

(١) سورة يوسف الآيات ٥٨ ـ ٦٢ .

(٢) يمتارون : يطلبون الميرة .

(٣) سفر التكوين الفصل ٤٢ العدد ٧ ـ ٢١ .

﴿ ألا تـرون أني أوفي الكيل وأنـا خير المنـزلـين ﴾ أي قـد حسنت نـزلكم وقـراكم ، فـرغبهم ليأتوه به ثم رهبهم ان لم يأتوه به فقال : ﴿ فإن لم تـأتوني بـه فلا كيـل لكم عندي ولا تقـربون ﴾ أي فلست أعطيكم ميرة ، ولا أقربكم بالكلية ، عكس ما أسدي إليهم أولاً .

فاجتهد في إحضاره معهم ليبل شوقه منه بالترغيب والترهيب .

﴿ قـالوا سنـراود عنه أبـاه ﴾ أي سنجتهد في مجيئه معنا وإتيانـه إليـك بكـل ممكن . ﴿ وإنـا لفاعلون ﴾ أي وإنا لقادرون على تحصيله .

ثم أمر فتيانه أن يضعوا بضـاعتهم وهي ما جـاؤوا به يتعـوضون بـه عن الميرة ، في أمتعتهم من حيث لا يشعـرون بها . ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ قيـل : أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم ، وقيل : خشي أن لا يكون عندهـم مـا يرجعـون به مـرة ثانيـة وقيل : تذمم أن يأخذ منهم عوضاً عن الميرة .

وقد اختلف المفسرون في بضاعتهم على أقوال سيأتي ذكـرها . وعنـد أهل الكتـاب : أنها كانت صرراً من وَرِق [١] ، وهو أشبه . والله أعلم .

﴿ فلما رجعـوا إلى أبيهم قالـوا يا أبـانا مُنـع منـا الكيـل فـأرسـل معنـا أخـانـا نكْتـل وإنَّـا لـه لحـافظون * قـال هل آمنكم عليـه إلاَّ كما أمنتكم عـلى أخيه من قبـل فـآلله خـيرٌ حـافـظاً وهـو أرحم الـراحمين * ولما فتحوا متـاعهم وجدوا بضـاعتهم رُدت إليهم قالـوا يا أبـانا مـا نبغي هذه بضـاعتنا رُدَّت إلينـا ونمير أهلنـا ونحفظ أخانـا ونزداد كيـل بعير ذلـك كيلٌ يسـيرٌ * قال لن أُرسله معكم حتى تؤتـون موثقـاً من الله لتأتنني بـه إلاَّ أن يُحاط بكم فلما آتوه موثقهم قـال آلله عـلى مـا نقـول وكيـلٌ * وقـال يا بني لا تـدخلوا من بابٍ واحـدٍ وآدخلوا من أبوابٍ متفـرقةٍ ومـا أُغني عنكم من آلله من شيءٍ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولمَّا دخلوا من حيث أمرهم أبـوهم مـا كـان يُغني عنهم من آلله من شيءٍ إلاَّ حاجةً في نفس يعقـوب قضـاهـا وإنـه لـذُو علمٍ لما علمنـاه ولكن أكثـر الناس لا يعلمون ﴾[٢] .

يذكر تعـالى ما كـان من أمرهم بعـد رجوعهم الى أبيهم وقـولهم له : ﴿ منـع منا الكيـل ﴾ أي بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا ، فإن أرسلته معنا لم يمنع منا .

﴿ ولما فتحوا متـاعهم وجدوا بضـاعتهم رُدت إليهم قالـوا يا أبـانا مـا نبغي ﴾ أي شيء نريـد

(١) الورق هو الفضة .

(٢) سورة يوسف الآيات ٦٣ ـ ٦٨ .

وقد ردت إلينا بضاعتنا ﴿ **ونمير أهلنا** ﴾ أي نمتار لهم ونأتيهم بما يصلحهم في سنتهم ومحلهم ﴿ **ونحفظ أخانا ونزداد** ﴾ بسببه ﴿ **كيل بعير** ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ **ذلك كيلٌ يسيرٌ** ﴾ أي في مقابلة ذهاب ولده الآخر .

وكان يعقوب عليه السلام أضن شيء بولده بنيامين ؛ لأنه كان يشم فيه رائحة أخيه ويتسلى به عنه ، ويتعوض بسببه منه .

فلهذا قال : ﴿ **لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به إلا أن يُحاط بكم** ﴾ أي إلا أن تغلبوا كلكم عن الإتيان به . ﴿ **فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيلٌ** ﴾ .

أكد المواثيق وقرر العهود ، واحتاط لنفسه في ولده ، ولن يغني حذر من قدر ! ولولا حاجته وحاجة قومه إلى الميرة ، لما بعث الولد العزيز ، ولكن الأقدار لها أحكام ، والرب تعالى يقدر ما يشاء ويختار ما يريد ، ويحكم ما يشاء وهو الحكيم العليم .

ثم أمرهم أن لا يدخلوا المدينة من باب واحد ، ولكن ليدخلوا من أبواب متفرقة . قيل : أراد أن لا يصيبهم أحد بالعين ، وذلك لأنهم كانوا أشكالاً حسنة وصوراً بديعة . قاله ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة والسدي والضحاك .

وقيل : أراد أن يتفرقوا لعلهم يجدون خبراً ليوسف أو يحدثون عنه بأثر . قاله ابراهيم النخعي .

والأول أظهر . ولهذا قال : ﴿ **وما أغني عنكم من الله من شيء** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجةً في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علمٍ لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

وعند أهل الكتاب : أنه بعث معهم هدية الى العزيز من الفستق واللوز والصنوبر والبطم والعسل ، وأخذوا الدراهم الأولى وعوضاً آخر[1] .

﴿ **ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون * فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذَّن مؤذنٌ أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حِمل بعيرٍ وأنا به زعيمٌ * قالوا**

---

(١) سفر التكوين الفصل ٤٣ ـ العدد ١٢ ـ ١٤ .

تآلله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين * قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وُجِدَ في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين * فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم آستخرجها من وعاء أخيه كذلك كِدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلَّا أن يشاء آلله نرفع درجاتٍ من نشاء وفوق كل ذي علمٍ عليمٌ * قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل فأسرَّها يوسف في نفسه ولم يبدُها لهم قال أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون * قالوا يا أيُّها العزيز إنَّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنَّا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلَّا من وجدنا متاعنا عنده إنَّا إذاً لظالمون ﴾(1) .

يذكر تعالى ما كان من أمرهم حين دخلوا بأخيهم بنيامين على شقيقه يوسف ، وإيوائه اليه ، وإخباره له سراً عنهم بأنه أخوه ، وأمره بكتم ذلك عنهم ، وسلاه عما كان منهم من الاساءة اليه .

ثم احتال على أخذه منهم وتركهم إياه عنده دونهم ، فأمر فتيانه بوضع سقايته ، وهي التي كان يشرب بها ويكيل بها للناس الطعام ، عن غرة في متاع بنيامين ، ثم أعلمهم بأنهم قد سرقوا صواع الملك ، ووعدهم جعالة على رده ، حمل بعير ، وضمنه المنادي لهم . فأقبلوا على من اتهمهم بذلك فأنبوه وهجنوه فيما قاله لهم : ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ يقولون أنتم تعلمون منا خلاف ما رميتمونا به من السرقة .

﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾ وهذه كانت شريعتهم : أن السارق يدفع إلى المسروق منه . ولهذا قالوا : ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ ليكون ذلك أبعد للتهمة وأبلغ في الحيلة ثم قال الله تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي لولا اعترافهم بأن جزاءه من وجد في رحله فهو جزاؤه ، لما كان يقدر يوسف على أخذه منهم في سياسة ملك مصر ﴿ إلا أن يشاء الله نرفع درجاتٍ من نشاء ﴾ أي في العلم ﴿ وفوق كل ذي علمٍ عليم ﴾ .

وذلك لأن يوسف كان أعلم منهم ، وأتم رأياً وأقوى عزماً وحزماً وإنما فعل ما فعل عن أمر الله له في ذلك ؛ لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك : من قدوم أبيه وقومه عليه ، ووفودهم إليه .

فلما عاينوا استخراج الصواع من حمل بنيامين ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخٌ له من قبل ﴾

---

(1) سورة يوسف الآيات ٦٩ ـ ٧٩ .

يعنون يوسف . قيل : كان قد سرق صنم جده أبي أمه فكسره . وقيل : كانت عمته قد علقت عليه بين ثيابه وهو صغير منطقة كانت لاسحاق، ثم استخرجوها من بين ثيابه وهو لا يشعر بما صنعت ، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له . وقيل : كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء . وقيل : غير ذلك . فلهذا : ﴿ **قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه** ﴾ وهي كلمته بعدها ، وقوله : ﴿ **أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون** ﴾ أجابهم سراً لا جهراً ، حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً ، فدخلوا معه في الترفق والتعطف فقالوا : ﴿ **يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه وإنا نراك من المحسنين * قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده وإنا إذاً لظالمون** ﴾أي إن أطلقنا المتهم وأخذنا البريء ، وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به ، وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده .

وعند أهل الكتاب . أن يوسف تعرف اليهم حينئذٍ : وهذا مما غلطوا فيه ولم يفهموه جيداً .

﴿ **فلما آستيئسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين * آرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنَّ آبنك سرق وما شهدنا إلاَّ بما علمنا وما كنا للغيب حافظين * وآسألِ القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنَّا لصادقون * قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى آلله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم * وتولى عنهم وقال يا أسفي علىٰ يوسف وآبيضت عيناه من الحزن فهو كظيمٌ * قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين * قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون * يا بني آذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح آلله إلا القوم الكافرون** ﴾[1] .

يقول تعالى مخبراً عنهم لما استيأسوا من أخذه منه : خلصوا يتناجون فيما بينهم ، قال كبيرهم وهو روبيل : ﴿ **ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله** ﴾ لتأتينني به إلا أن يحاط بكم ؟ لقد أخلفتم عهده ، وفرطتم فيه كما فرطتم في أخيه يوسف من قبله ، فلم يبق لي وجه أقابله به ﴿ **فلن أبرح الأرض** ﴾ أي لا أزال مقيماً ها هنا ﴿ **حتى يأذن لي أبي** ﴾ في القدوم عليه ﴿ **أو يحكم الله لي** ﴾ بأن يقدرني على رد أخي إلى أبي ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ .

﴿ **ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق** ﴾ أي أخبروه بما رأيتم من الأمر في ظاهر المشاهدة ﴿ **وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين * وآسأل القرية التي كنا فيها والعير**[2]

(١) سورة يوسف الآيات ٨٠ ـ ٨٧

(٢) القافلة .

التي أقبلنا فيها ﴾ أي فإن هذا الذي أخبرناك به - من أخذهم أخانا لأنه سرق - أمر اشتهر بمصر وعلمه العير التي كنا نحن وهم هناك ، ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ .

﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل** ﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم ، لم يسرق فإنه ليس سجية له ولا هو خلقه . وإنما ﴿ **سولت لكم أنفسكم امراً ، فصبر جميل** ﴾ .

قال ابن اسحق وغيره : لما كان التفريط منهم في بنيامين مترتباً على صنيعهم في يوسف قال لهم ما قال . وهذا كما قال بعض السلف : أن من جزاء السيئة السيئة بعدها ! . . .

ثم قال : ﴿ **عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً** ﴾ يعني يوسف وبنيامين وروبيل ، ﴿ **إنه هو العليم** ﴾ أي بحالي وما أنا فيه من فراق الأحبة ﴿ **الحكيم** ﴾ فيما يقدره ويفعله ، وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة .

﴿ **وتولى عنهم** ﴾ أي أعرض عن بنيه ﴿ **وقال يا أسفي على يوسف** ﴾ ذكره حزنه الجديد بالحزن القديم ، وحرك ما كان كامناً ، كما قال بعضهم :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

وقال آخر :

لقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف الدموع السوافك(١)
فقال : أتبكي كل قبر رأيته ؟ ... لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك(٢)
فقلت له : إن الأسى يبعث الأسى ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وقوله : ﴿ **وأبيضت عيناه من الحزن** ﴾ أي من كثرة البكاء ، ﴿ **فهو كظيم** ﴾ أي مكظم من كثرة حزنه وأسفه وشوقه إلى يوسف .

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد وألم الفراق ﴿ **قالوا** ﴾ له على وجه الرحمة له والرأفة به والحرص عليه ﴿ **تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين** ﴾ .

يقولون : لا تزال تتذكره حتى ينحل جسدك وتضعف قوتك ، فلو رفقت بنفسك كان أولى بك .

﴿ **قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ يقول لبنيه : لست

---

(١) الدموع السوافك : الدموع الغزيرة .

(٢) اللوى والدكادك : مكانان .

أشكو إليكم ولا إلى أحد من الناس ما أنا فيه ، إنما أشكوه إلى الله عز وجل ، وأعلم أن الله سيجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً ، وأعلم أن رؤيا يوسف لا بد أن تقع ، ولا بد أن أسجد له أنا وأنتم حسب ما رأى . ولهذا قال : ﴿ **وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ .

ثم قال لهم محرضاً على تطلب يوسف وأخيه ، وأن يبحثوا عن أمرهم : ﴿ **يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ أي لا تيأسوا من الفرج بعد الشدة ، فإنه لا ييأس من روح الله وفرجه ، وما يقدره من المخرج في المضايق ، إلا القوم الكافرون .

***

﴿ **فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزي المتصدقين * قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون * قالوا أئنك لأنت يوسف ، قال أنا يوسف وهذا أخي ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين * اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ، وأتوني بأهلكم أجمعين** ﴾[1] .

يخبر تعالى عن رجوع أخوة يوسف اليه وقدومهم عليه ، ورغبتهم فيما لديه من الميرة ، والصدقة عليهم برد أخيهم بنيامين اليهم : ﴿ **فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر** ﴾ أي من الجدب وضيق الحال وكثرة العيال ﴿ **وجئنا ببضاعة مزجاة** ﴾ أي ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا . قيل : كانت دراهم رديئة ، وقيل قليلة ، وقيل : حب الصنوبر وحب البطم ونحو ذلك . وعن ابن عباس : كانت خلقَ الغرائر والحبال ونحو ذلك .

﴿ **فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين** ﴾ . قيل بقبولها ، قاله السدي . وقيل : برد أخينا الينا ، قاله ابن جريج . وقال سفيان بن عيينة : إنما حرمت الصدقة على نبينا محمد ﷺ ونزع بهذه الآية . رواه ابن جرير .

فلما رأى ما هم فيه من الحال وما جاؤوا به مما لم يبق عندهم سواه من ضعيف المال ، تعرف اليهم وعطف عليهم ، قائلاً لهم عن أمر ربه وربهم ،وقد حسر لهم عن جبينه الشريف ، وما يحويه من الحال الذي يعرفون فيه : ﴿ **هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون** ﴾ .

---

(١) سورة يوسف الآيات ٨٨ - ٩٣ .

﴿ قـالوا ﴾ وتعجبـوا كل العجب ، وقـد ترددوا اليـه مراراً عـديدة وهم لا يعـرفون أنـه هـو : ﴿ أئنك لأنت يوسف ﴾ .

﴿ قال أنا يوسف وهذا أخي ﴾ . يعني أنـا يوسف الـذي صنعتم معه مـا صنعتم ، وسلف من أمركم فيه ما فرطتم . وقـوله : ﴿ وهـذا أخي ﴾ تأكيـد لما قـال وتنبيه عـلى ما كـانوا أضمـروا لهما من الحسـد ، وعملوا في أمرهمـا من الاحتيال . ولهـذا قال : ﴿ قـد منَّ الله علينـا ﴾ أي بـإحسـانـه الينـا وصدقته علينا ، وإيوائه لنا وشدة معاقـد عزنـا ، وذلك بمـا أسلفنا من طـاعة ربنـا ، وصبرنـا على مـا كان منكم الينا ، وطاعتنا وبرنا لأبينا ، ومحبته الشديدة لنـا وشفقته علينـا . ﴿ إنه من يتق ويصبر فـإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

﴿ قالوا تالله لقد آثـرك الله علينا ﴾ أي فضلك وأعـطاك ما لم يعـطنا ، ﴿ وإن كنـا لخاطئـين ﴾ أي فيما أسدينـا إليك ، وهـا نحن بين يـديك . ﴿ قـال لا تثريب عليكم اليـوم ﴾ أي لست أعاتبكم عـلى ما كـان منكم بعـد يـومكم هـذا . ثم زادهم عـلى ذلـك فقـال : ﴿ يغفـر الله لكم وهـو أرحم الـراحمين ﴾ ومن زعم أن الـوقف على قـوله ﴿ لا تثـريب عليكم ﴾ وابتدأ بقـوله : ﴿ اليـوم يغفر الله لكم ﴾ فقوله ضعيف والصحيح الأول .

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه ، وهو الذي يلي جسده ، فيضعوه عـلى عيني أبيه ، فـإنه يـرجع إليـه بصـره بعـد مـا كـان ذهب ، بـإذن الله . وهـذا من خـوارق العـادات ودلائـل النبـوات وأكبـر المعجزات .

ثم أمـرهم أن يتحملوا بأهلهم أجمعـين الى ديار مصر ، إلى الخير والـدعـة وجمـع الشمـل بعـد الفرقة ، على أكمل الوجوه وأعلى الأمور .

﴿ ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يـوسف لولا أن تفنـدون * قالـوا تالله إنـك لفي ضلالك القديم * فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فـارتد بصيـراً ، قال ألم أقـل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون * قالوا يا أبانـا استغفر لنـا ذنوبنـا إنا كنـا خاطئـين * قال سـوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾[1] .

قال عبد الرزاق : أنبأنا اسرائيـل ، عن أبي سنان ، عن عبـدالله بن أبي الهذيـل ، سمعت ابن عباس يقول : ﴿ ولما فصلت العير ﴾ قـال : لما خـرجت العير هـاجت ريح ، فجـاءت يعقوب بـريح قميص يوسف فقال : ﴿ إني لأجد ريح يـوسف لولا أن تفنـدون ﴾ . قال : فـوجد ريحـه من مسيرة ثلاثة أيام . وكذا رواه الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي سنان به .

---

(١) سورة يوسف الآيات ٩٤ ـ ٩٨ .

وقال الحسن البصري وابن جريج المكي : كان بينهما مسيرة ثمانين فرسخاً ، وكان له منذ فارقه ثمانون سنة .

وقوله : ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أي تقولون إنما قلت هذا من الفند ، وهو الخرف وكبر السن .

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة : ﴿ تفندون ﴾ تسفهون ، وقال مجاهد أيضاً والحسن : تهرمون[1] .

﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ قال قتادة والسدي : قالوا له كلمة غليظة .

قال الله تعالى : ﴿ فلما أن جاء البشير القاه على وجهه فارتد بصيراً ﴾ أي بمجرد ما جاء ألقى القميص على وجه يعقوب فرجع من فوره بصيراً بعد ما كان ضريراً . وقال لبنيه عند ذلك : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف وستقر عيني به ، وسيريني فيه ومنه ما يسرني .

فعند ذلك : ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ . طلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل عما كانوا فعلوا ونالوا منه ومن ابنه ، وما كانوا عزموا عليه ، ولما كان من نيتهم التوبة قبل الفعل ، وفقهم الله للاستغفار عند وقوع ذلك منهم . فأجابهم أبوهم إلى ما سألوا ، وما عليه عولوا قائلاً : ﴿ سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

قال ابن مسعود وابراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم : أرجأهم إلى وقت السحر . قال ابن جرير : حدثني إبو السائب ، حدثنا ابن ادريس قال : سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال : كان عمر يأتي المسجد فسمع إنساناً يقول : « اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لي » قال : فاستمع الى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ . وقد قال الله تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾[2] .

وثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ » . وقد ورد في حديث : « أن يعقوب أرجأ بنيه إلى ليلة الجمعة » .

---

(١) تهرمون : تقولون : إنما هو تخريف هرم .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧ .

قال ابن جرير : حدثني المثني ، قال : حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقي ، حدثنا الوليد ، أنبأنا ابن جريج ، عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ : ﴿ **سوف استغفر لكم ربي** ﴾ يقول : « حتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخي يعقوب لبنيه » .

وهذا غريب من هذا الوجه ، وفي رفعه نظر . والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما .

* * *

﴿ **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم * رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾[1] .

هذه إخبار عن حال اجتماع المتحابين بعد الفرقة الطويلة ، التي قيل : إنها ثمانون سنة . وقيل : ثلاث وثمانون سنة ، وهما روايتان عن الحسن وقيل : خمس وثلاثون سنة . قاله قتادة . وقال محمد بن إسحاق : ذكروا أنه غاب عنه ثماني عشرة سنة . قال : وأهل الكتاب يزعمون أنه غاب عنه أربعين سنة .

وظاهر سياق القصة يرشد الى تحديد المدة تقريباً ؛ فإن المرأة راودته وهو شاب ابن سبع عشرة سنة ، فيما قاله غير واحد ، فامتنع . فكان في السجن بضع سنين ؛ وهي سبع عند عكرمة وغيره . ثم أخرج فكانت سنوات الخصب السبع ، ثم لما أمحل الناس في السبع البواقي ، جاء أخوته يمتارون في السنة الأولى وحدهم ، وفي الثانية ومعهم أخوه بنيامين ، وفي الثالثة تعرف اليهم وأمرهم بإحضار أهلهم أجمعين ، فجاؤوا كلهم .

﴿ **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه** ﴾ واجتمع بهما خصوصاً وحدهما دون أخوته ، ﴿ **وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾ . قيل : هذا من المقدم والمؤخر ؛ تقديره قال : ادخلوا مصر وآوى إليه أبويه . وضعفه ابن جرير وهو معذور . وقيل : بل تلقاهما وآواهما في منزل الخيام ، ثم لما اقتربوا من باب مصر قال : ﴿ **ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾ ، قاله السدي ولو قيل أن الأمر لا يحتاج الى هذا أيضاً ، وأنه ضمن قوله ادخلوا ، بمعنى اسكنوا مصر ، أو أقيموا بها ﴿ **إن شاءالله آمنين** ﴾ لكان صحيحاً مليحاً أيضاً .

---

(١) سورة يوسف الآيات ٩٩ ـ ١٠١

وعنـد أهل الكتـاب : « أن يعقوب لمـا وصـل الى أرض جـاشر[1] ـ وهي أرض بلبيس ـ خـرج يوسف لتلقيه ، وكان يعقوب قد بعث ابنه يهـوذا بين يـديه مبشـراً بقدومـه ، وعندهـم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر ؛ يكونون فيها ، ويقيمون بها بنعمهم ومـواشيهم . وقد ذكـر جماعـة من المفسرين : أنه لما أزف قـدوم نبي الله يعقوب ـ وهـو اسرائيـل ـ أراد يوسف أن يخـرج لتلقيه ، فـركب معه الملك وجنـوده ؛ خدمـة ليوسف وتعـظيماً لنبي الله « اسـرائيل » وأنـه دعا للملك ، وإن الله رفـع عن أهـل مصر بقية سني الجدب ببركة قدومه اليهم . فالله أعلم .

وكـان جملة من قدم مـع يعقوب من بنيـه وأولادهم ـ فيـما قـالـه أبـو اسحـاق السبيعي عن أبي عبيدة عن ابن مسعود ـ ثلاثة وستين إنساناً .

وقـال موسى بن عبيـدة ، عن محمد بن كعب ، عن عبـدالله بن شداد : كـانوا ثـلاثة وثمـانين إنساناً .

وقال أبو اسحاق عن مسروق : دخلوا وهم ثلاثمائة وتسعون إنساناً .

قالوا : وخـرجوا مـع موسى وهم أزيـد من ستمائـة ألف مقاتـل وفي نص أهل الكتـاب : أنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم .

قـال الله تعالى : ﴿ **ورفـع أبويـه على العـرش** ﴾ قيل : كـانت أمه مـاتت كـما هـو عنـد علماء التوراة . وقال بعض المفسرين : أحياها الله تعالى . وقال آخرون : بـل كانت خـالته « ليـا » والخالـة بمنزلة الأم[2] .

وقال ابن جرير وآخرون : بل ظاهر القرآن يقتضي بقـاء حياة أمـه إلى يومئـذٍ ، فلا يعـول على نقل أهل الكتاب فيما خالفه . وهذا قوي والله أعلم[3] .

ورفعهـا على العـرش ، أي أجلسهما معـه على سـريره ﴿ **وخـروا لـه سجـداً** ﴾ أي سجـد لـه الأبوان والأخوة الأحد عشر ، تعظيماً وتكريماً . وكان هذا مشروعـاً لهم ، ولم يزل ذلـك معمولاً بـه في سائر الشرائع حتى حرم في ملتنا .

﴿ **وقـال يا أبت هـذا تأويـل رؤياي من قبـل** ﴾ أي هذا تعبير مـا كنت قصصتـه عليـك : من رؤيتي الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ، حين رأيتهم لي ساجـدين ، وأمرتني بكتمـانها ، ووعدتني ما وعدتني عند ذلك ﴿ **وقـد جعلها ربي حقـاً وقد أحسن بي إذ أخـرجني من السجن** ﴾ أي بعد الهم

---

(١) أرض جاسـان كما جـاء في سفر التكـوين الفصـل ٤٦ العـدد (٢٩ ـ ٣٠) .

(٢) في سفر التكوين : كانت قد ماتت ودفنت في مغارة .

(٣) وهذا هو المرجح لأن الآية واضحة .

والضيق ، جعلني حاكماً نافذ الكلمة في الديار المصرية، حيث شئت . ﴿ **وجاء بكم من البدو** ﴾ أي البادية . وكانوا يسكنون أرض ٱلعربات من بلاد الخليل ﴿ **من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي** ﴾ أي فيما كان منهم إليَّ من الأمر الذي تقدم وسبق ذكره .

ثم قال : ﴿ **إن ربي لطيف لما يشاء** ﴾ أي إذا أراد شيئاً هيأ أسبابه ، وييسرها وسهلها من وجوه لا يهتدي اليها العباد ، بل يقدرها وييسرها بلطيف صنعه وعظيم قدرته . ﴿ **إنه هو العليم** ﴾ أي بجميع الأمور ﴿ **الحكيم** ﴾ في خلقه وشرعه وقدره .

وعند أهل الكتاب : أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده ، بأموالهم كلها ؛ من الذهب والفضة ، والعقار والأثاث ، وما يملكونه كله ، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقاء . ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا ، ويكون خمس ما يستغلون من زروعهم وثمارهم للملك فصارت سنة أهل مصر بعده[1] .

وحكى الثعلبي : أنه كان لا يشبع في تلك السنين ، حتى لا ينسى الجيعان ، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار . قال : فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك . قلت : وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، لا يشبع بطنه عام الرمادة حتى ذهب الجدب وأتى الخصب .

وقال الشافعي : قال رجل من الأعراب لعمر بعد ما ذهب عام الرمادة : لقد انجلت عنك وانك لابن حرة !

ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت ، وشمله قد اجتمع ، عرف ان هذه الدار لا يقر بها قرار ، وأن كل شيء فيها ومن عليها فان ، وما بعد التمام إلا النقصان ، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله ، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله ، وسأل منه ـ وهو خير المسؤولين ـ أن يتوفاه ، أي حين يتوفاه على الاسلام ، وأن يلحقه بعباده الصالحين ، وهكذا كما يقال في الدعاء : « اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين » أي حين تتوفانا .

ويحتمل أنه سأل ذلك عند احتضاره عليه السلام ، كما سأل النبي ﷺ عند احتضاره أن يرفع روحه الى الملأ الأعلى والرفقاء الصالحين من النبيين والمرسلين ، كما قال : اللهم في الرفيق الأعلى ثلاثاً . ثم قضى .

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الاسلام منجزاً في صحة بدنه وسلامته ، وأن ذلك كان سائغاً في ملتهم وشرعتهم ، كما روي عن ابن عباس أنه قال : ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف .

---

(١) سفر التكوين الفصل السابع والأربعين .

فأما في شريعتنا فقد نهي عن الدعاء بالموت إلا عند الفتن ؛ كما في حديث معاذ في الدعاء الذي رواه أحمد : « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنا اليك غير مفتونين » . وفي الحديث الآخر : « ابن آدم ، الموت خير لك من الفتنة » . وقالت مريم عليها السلام : ﴿ **يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً** ﴾(١) . وتمنى الموت علي بن أبي طالب ، لما تفاقمت الأمور وعظمت الفتن واشتد القتال ، وكثر القيل والقال . وتمنى ذلك البخاري أبو عبد الله صاحب الصحيح ، لما اشتد عليه الحال ولقي من مخالفيه الأهوال .

فأما في حال الرفاهية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، اما محسناً فلعله يزداد ، واما مسيئاً فلعله يستعتب . ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » . والمراد بالضر ها هنا ، ما يخص العبد في بدنه ؛ من مرض ونحوه ، لا في دينه .

والظاهر أن نبي الله يوسف عليه السلام سأل ذلك ، إما عند احتضاره ، أو إذا كان ذلك أن يكون كذلك .

وقد ذكر ابن إسحاق عن أهل الكتاب : أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف سبع عشرة سنة ، ثم توفي عليه السلام .وكان قد أوصى الى يوسف عليه السلام أن يدفن عند أبويه ابراهيم وإسحاق(٢) . قال السدي :فصبره وسيره الى بلاد الشام فدفنه بالمغارة عند أبيه إسحاق وجده الخليل عليهم السلام .

وعند أهل الكتاب : أن عمر يعقوب يوم دخل مصر مائة وثلاثون سنة . وعندهم أنه أقام بأرض مصر سبع عشرة سنة ، ومع هذا قالوا : فكان جميع عمره مائة وأربعين سنة(٣) .

هذا نص كتابهم وهو غلط : إما في النسخة ، أو منهم ، أو قد أسقطوا الكسر وليس بعادتهم فيما هو أكثر من هذا ، فكيف يستعملون هذه الطريقة ها هنا .

وقد قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الهاً واحداً ، ونحن له مسلمون** ﴾(٤). يوصي بنيه

---

(١) سورة مريم الآية ٢٣ .

(٢) سفر التكوين الفصل ٤٩ العدد ٣٠ . سفر التكوين الفصل ٤٧ العدد (٣٠ - ٣١) .

(٣) هذا خطأ لأن ما جاء في سفر التكوين هو مائة وسبع وأربعون سنة . الفصل ٤٧ العدد ٢٩

(٤) سورة البقرة الآية ١٣٣ .

بالاخلاص ، وهو دين الاسلام الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام .

وقد ذكر أهل الكتاب : أنه أوصى بنيه واحداً واحداً ، وأخبرهم بما يكون من أمرهم ، وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم ، من نسله تطيعه الشعوب ، وهو عيسى بن مريم . والله أعلم .

وذكروا : أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوماً ، وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب ومكث فيه أربعين يوماً . ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله ، فأذن له ، وخرج معه أكابر مصر وشيوخها . فلما وصلوا حبرون دفنوه في المغارة التي كان اشتراها ابراهيم الخليل من عفرون بن صخر الحيثي ، وعملوا له عزاء سبعة أيام .

قالوا : ثم رجعوا إلى بلادهم ، وعزى أخوة يوسف يوسف في أبيهم ، وترققوا له فأكرمهم ، وأحسن منقلبهم ، فأقاموا ببلاد مصر .

ثم حضرت يوسف عليه السلام الوفاة ، فأوصى أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه . فحنطوه ووضعوه في تابوت ، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام ، فدفنه عند آبائه كما سيأتي . قالوا : فمات وهو ابن مائة سنة وعشر سنين[١] .

هذا نصهم فيما رأيته ، وفيما حكاه ابن جرير أيضاً . وقال مبارك ابن فضالة عن الحسن : ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمانين سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة . وقال غيره : أوصى الى أخيه يهوذا ، صلوات الله عليه وسلامه .

---

(١) آخر سفر التكوين .

قصة أيوب عليه السلام

قال ابن إسحاق: كان رجلاً من الروم . وهو أيوب بن موص بن رزاح بن العيص بن إسحاق بن ابراهيم الخليل[1] .

وقال غيره : هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب ، وقيل غير ذلك في نسبه .

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام ، وقيل : كان أبوه ممن آمن بابراهيم عليه السلام يوم القي في النار فلم تحرقه .

والمشهور الأول ؛ لأنه من ذرية ابراهيم ، كما قررنا عند قوله تعالى : ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون** ﴾[2] الآيات من أن الصحيح أن الضمير عائد على ابراهيم دون نوح عليهما السلام .

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء اليهم في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب** ﴾[3] الآية .

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق. وامرأته قيل : اسمها « ليا » بنت يعقوب ، وقيل : رحمة بنت أفرائيم ، وقيل ليا بنت منسا بن يوسف بن يعقوب . وهذا أشهر فلهذا ذكرناه ها هنا .

ثم نعطف بذكر أنبياء بني اسرائيل بعد ذكرُ قصته إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان .

---

(١) كيف يكون من أحفاد ابراهيم عليه السلام ويكون من الروم ؟ هذا من ابن إسحاق .

(٢) سورة الأنعام الآية ٨٤ .

(٣) سورة النساء الآية ١٦٣ .

قال الله تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر ، وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾[1] .

وقال تعالى في سورة ص : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب * اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب * ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب * وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب** ﴾[2] .

وروى ابن عساكر من طريق الكلبي أنه قال : أول نبي بعث ادريس ، ثم نوح ، ثم ابراهيم ، ثم اسماعيل ، ثم إسحاق ، ثم يعقوب ، ثم يوسف ، ثم لوط ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم شعيب ، ثم موسى وهارون ، ثم الياس ، ثم أليسع ، ثم عرفى بن سويلخ بن افراثيم بن يوسف بن يعقوب ، ثم يونس بن متى من بني يعقوب ، ثم أيوب بن زراح بن آموص بن ليفرز ابن العيص بن إسحاق بن ابراهيم . وفي بعض هذا الترتيب نظر : فإن هوداً وصالحاً : المشهور أنهما بعد نوح وقيل ابراهيم . والله أعلم .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه ؛ من الأنعام والعبيد والمواشي ، والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران . وحكى ابن عساكر : أنها كانت له . وكان له أولاد وأهلون كثير .

فسلب منه ذلك جميعه ، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر الله عز وجل بهما . وهو في ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومسائه .

وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأنيس ، وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها . فكانت تتردد اليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته . وتقوم بمصلحته . وضعف حالها وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر ؛ لتطعمه وتقوم بأوده ، رضي الله عنها وأرضاها ، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد وخدمة الناس ، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة . فإنا لله وإنا إليه راجعون !

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) سورة ص الآيات ٤١ ـ ٤٤ .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » وقال : « يبتلي الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه » . ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى أن المثل ليضرب بصبره عليه السلام ، ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا » .

وقد روي عن وهب بن منبه وغيره من علماء بني اسرائيل في قصة أيوب خبر طويل ؛ في كيفية ذهاب ماله وولده ، وبلائه في جسده ، والله أعلم بصحته .

وعن مجاهد أنه قال : كان أيوب عليه السلام أول من أصابه الجدري .

وقد اختلفوا في مدة بلواه على أقوال : فزعم وهب أنه ابتلي ثلاث سنين لا تزيد ولا تنقص ، وقال أنس : ابتلي سبع سنين وأشهراً ، وألقي على مزبلة لبني اسرائيل تختلف الدواب في جسده حتى فرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن الثناء عليه . وقال حميد : مكث في بلواه ثماني عشرة سنة ، وقال السدي : تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب ، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته ، فلما طال عليها قالت : يا أيوب ؛ لو دعوت ربك لفرج عنك ، فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً ، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ؟ فجزعت من هذا الكلام ، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم أيوب عليه السلام .

ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها ، لعلمهم أنها امرأة أيوب ، خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تعديهم بمخالطته ، فلما لم تجد أحداً يستخدمها ، عمدت فباعت لبعض بنات الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير ، فأتت به أيوب ، فقال من أين لك هذا ؟ وأنكره ، فقالت : خدمت أناساً . فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به ، فأنكره أيضاً ، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام ؟ فكشفت عن رأسها خمارها ، فلما رأى رأسها محلوقاً قال في دعائه : ﴿ رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾(١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا جرير بن حازم ، عن عبدالله بن عبيد بن عمير قال : كان لأيوب أخوان ، فجاء يوماً فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه ، فقاما من بعيد ، فقال أحدهما لصاحبه : لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع مثله من شيء قط ، فقال : اللهم إن كنت تعلم إني لم أبت ليلة قط شبعاناً وأنا أعلم مكان جائع فصدقني . فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني . فصدق من السماء وهما يسمعان . ثم

(١) سورة الأنبياء الآية ٨٣ .

قال : اللهم بعزتك وخر ساجداً ، فقال : اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني ، فما رفع رأسه حتى كشف عنه .

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً : حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب ، أخبرني نافع بن يزيد ، عن عقيل ، عن الزهري ، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « أن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له ؛ كانا يغدوان اليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به ، فلما راحا اليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ؟ غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله فأرجع الى بيتي فأكفر عنهما ، كراهية أن يذكر الله إلا في حق .

قال : وكان يخرج في حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه ، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه : أن ﴿ **اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** ﴾ فاستبطأته فتلقته تنظر ، وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ! هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ فوالله القدير على ذلك ، ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً . قال : فإني أنا هو . قال : وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق[1] حتى فاض » .

هذا لفظ ابن جرير ، وهكذا رواه بتمامه ابن حبان في صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة ؛ عن ابن وهب به . وهذا غريب رفعه جداً ، والأشبه أن يكون موقوفاً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن اسماعيل ، حدثنا حماد ، انبأنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب وجلس في ناحية ، فجاءت امرأته فلم تعرفه ، فقالت : يا عبد الله : أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ها هنا ؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب ، وجعلت تكلمه ساعة ، فقال : ويحك أنا أيوب ! قالت : أتسخر مني يا عبد الله ؟ فقال : ويحك أنا أيوب قد رد الله عليَّ جسدي .

قال ابن عباس : ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ، ومثلهم معهم .

وقال وهب بن منبه : أوحى الله اليه : « قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم

---

(١) الفضة .

فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك ، وقرب عن صحابتك قرباناً ، واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك » .

رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عمرو بن مرزوق ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن النضر بن أنس ، عن بشير بن نهيك ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويجعل في ثوبه ، قال : فقيل له : يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يا رب ومن يشبع من رحمتك ؟ » .

وهكذا رواه الامام أحمد عن أبي داود الطيالسي ، وعبد الصمد عن همام ، عن قتادة به . وورواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد الأزدي ، عن اسحاق بن راهويه ، عن عبد الصمد به . ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب ، وهو على شرط الصحيح فالله أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة : أرسل على أيوب رجل(1) من جراد من ذهب ، فجعل يقبضها في ثوبه ، فقيل : يا أيوب ، ألم يكفك ما أعطيناك ؟ قال : أي رب ومن يستغني من فضلك ! .

هذا موقوف . وقد روي عن أبي هريرة من وجه آخر مرفوعاً .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همام بن منبه ، قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رَجْلٌ جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثو(2) في ثوبه . فناداه ربه عز وجل : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك » . .

رواه البخاري من حديث عبد الرزاق به .

وقوله : ﴿ **اركض برجلك** ﴾ أي أضرب الأرض برجلك ، فامتثل ما أمر به . فأنبع الله له عيناً باردة الماء ، وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها ، فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى ، والسقم والمرض الذي كان في جسده ظاهراً وباطناً ، وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة ، وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً ؛ حتى صب له من المال صباً ، مطراً عظيماً جراداً من ذهب .

وأخلف الله له أهله ، كما قال تعالى : ﴿ **وآتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾ فقيل : أحياهم الله

---

(1) رَجْلٌ : أسراب .

(2) يحثو : يتناول بقبضتيه معاً .

بأعيانهم ، وقيل آجره فيمن سلف ، وعوضه عنهم في الدنيا بدلهم وجمع له شمله بكلهم في الدار الآخرة . وقوله : ﴿ **رحمة من عندنا** ﴾ أي رفعنا عنه شدته ، وكشفنا ما به من ضر ، رحمة منا به ورأفة وإحساناً . ﴿ **وذكرى للعابدين** ﴾ أي تذكرة لمن ابتلي في جسده أو ماله أو ولده ، فله أسوة بنبي الله أيوب ؛ حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

ومن فهم من هذا اسم امرأته فقال : « رحمة » من هذه الآية فقد أبعد النجعة وأغرق النزع . وقال الضحاك عن ابن عباس : رد الله اليها شبابها وزادها حتى ولدت له ستة وعشرين ولداً ذكراً .

وعاش أيوب بعد ذلك سبعين سنة بأرض الروم على دين الحنيفية ، ثم غيروا بعده دين ابراهيم .

وقوله : ﴿ **وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب** ﴾ هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام ، فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط . فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها ، وقيل : لأنه عارضها الشيطان في صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فأخبرته فعرف أنه الشيطان ، فحلف ليضربنها مائة سوط . فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثاً وهو كالعثكال الذي يجمع الشماريخ[1] ، فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ، ويكون هذا مُنَزَّلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث .

وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ، ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة ، المكابدة الصديقة البارة الراشدة ، رضي الله عنها .

ولهذا عقب الله الرخصة وعللها بقوله : ﴿ **إنا وجدناه صابراً نعم العبد انه أواب** ﴾ وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور ، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان ، وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب وسنذكر طرفاً من ذلك في كتاب الأحكام ، عند الوصول اليه إن شاء الله تعالى[2] .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ : أن أيوب عليه السلام لما توفي كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة ، وقيل : أنه عاش أكثر من ذلك .

---

(١) العثكال : هو العود الذي يجمع العيدان التي تحمل البلح أو التمر مع العذق وهذه العيدان هي الشماريخ ، والمقصود قطعة كأنها السواك حجماً وطولاً .

(٢) وهذا كله حرام لأن ما أجازه الله لأيوب لا يجوز لبشر أن يجيزه لآخر لأن هذا يسهل على ما يريد التفلت من يمينه دون كفارة أو تكفير وفي ذلك خروج على الشرع .

وقد روى ليث عن مجاهد ما معناه : أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان عليه السلام على الأغنياء ، وبيوسف عليه السلام على الأرقاء ، وبأيوب عليه السلام على أهل البلاء . رواه ابن عساكر بمعناه .

وأنه أوصى الى ولده « حومل » ، وقام بالأمر بعده ولده « بشر » بن أيوب ، وهو الذي يزعم كثير من الناس أنه « ذو الكفل » فالله أعلم . ومات ابنه هذا وكان نبياً فيما يزعمون وكان عمره من السنين خمساً وسبعين .

ولنذكر ها هنا قصة ذي الكفل ؛ إذ قال بعضهم : إنه ابن أيوب عليهما السلام وهذه هي :

قصة ذي الكفل

الذي زعم قوم أنه ابن أيوب

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء : ﴿ **واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين * وأدخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين** ﴾[1] .

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضاً في سورة ص : ﴿ **واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار * وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار * واذكر اسماعيل وأليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾[2] .

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي ، عليه من ربه الصلاة والسلام . وهذا هو المشهور .

وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً ، وإنما كان رجلاً صالحاً وحكماً مقسطاً عادلاً . وتوقف ابن جرير في ذلك ، فالله أعلم .

وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً .

وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضي بينهم بالعدل ففعل فسمي ذا الكفل .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند ، عن مجاهد أنه قال : لما كبر أليسع قال : لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي ، حتى أنظر كيف يعمل ؟ فجمع الناس فقال : من يتقبل مني بثلاث أستخلفه : يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب .

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) سورة ص الآيات ٤٥ ـ ٤٨ .

قـال : فقام رجـل تزدريـه العين ، فقـال : أنا . فقـال . أنت تصوم النهـار وتقـوم الليـل ولا تغضب ؟ قال : نعم . قال : فرده ذلك اليوم ، وقال مثلها في اليوم الآخـر ، فسكت الناس ، وقـام ذلك الرجل فقال : أنا ، فاستخلفه .

قـال : فجعل إبليس يقـول للشيـاطـين : عليكم بفـلان ، فـأعيـاهم ذلـك . فقـال : دعـوني وإياه ، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير ، وأتاه حـين أخذ مضجعـه للقائلة ، وكـان لا ينام الليـل والنهار إلا تلك النومة ، فدق الباب فقال : من هذا ؟ قـال : شيخ كبـير مظلوم . قـال : فقام ففتـح الباب فجعـل يقص عليه ، فقال : إن بيني وبين قـومي خصومـة ، وانهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعـل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة . فقال : إذا رحت فإنني آخذ لك بحقك .

فانطلق وراح فكان في مجلسه ، فجعل ينظر هل يرى الشيـخ فلم يره ، فقـام يتبعه . فلما كـان الغـد جعل يقضي بـين الناس وينتـظره فلا يـراه ، فلما رجع الى القـائلة فـأخـذ مضجعـه أتـاه فـدق الباب ، فقال : من هذا ؟ فقال : الشيـخ الكبير المـظلوم . ففتح لـه فقال : ألم أقـل لك إذا قعـدت فـأتني ، قـال : انهم أخبث قوم ، إذا عـرفـوا أنـك قـاعـد قـالـوا نحن نعطيـك حقـك ، وإذا قمت جحدوني . قال : فانطلق فإذا رحت فأتني .

قال : ففاتته القائلة ، فـراح فجعل ينتـظره فلا يـراه ، وشق عليه النعـاس فقال لبعض أهله : لا تدعن أحداً يقرب هذا الباب حتى أنام ، فـإني قد شق عـليَّ النوم . فلما كـان تلك الساعـة جاء ، فقال له الرجل : وراءك وراءك . فقـال : قد أتيتـه أمس وذكرت لـه أمري . فقـال : لا والله ، لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقـربه . فلما أعيـاه نظر فـرأى كوة في البيت فتسـور منها ، فـإذا هو في البيت ، وإذا هو يدق الباب من داخل . قال : فاستيقظ الرجل ، فقـال : يا فـلان ألم آمرك ؟ قـال : أما من قبلي والله فلم تؤت ، فأنظر من أين أتيت ؟

قال : فقام الى الباب فإذا هـو مغلق كما أغلقـه ، وإذا الرجـل معه في البيت فعـرفه . فقـال : أعدو الله ؟ قال : نعم ، أعييتني في كل شيء ففعلت كل ما ترى لأغضبك .

فسماه الله ذا الكفل ، لأنه تكفل بأمر فوفى به !

وقـد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن ابن عبـاس قـريبـاً من هـذا السيـاق . وهكـذا روي عن عبدالله بن الحارث ومحمد بن قيس وابن حجيرة الأكبر ، وغيرهم من السلف نحو هذا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبـو الجماهر ، أنبأنـا سعيد بن بشـير ، حدثنـا قتادة ، عن كنـانة بن الأخنس ، قـال : سمعت الأشعري ـ يعني أبـا مـوسى رضي الله عنـه ـ وهـو عـلى هـذا المنبر يقول : ما كان ذو الكفل نبياً ولكن كـان رجـل صـالح يصـلي كل يـوم مائـة صلاة ، فتكفـل له ذو الكفل من بعده فكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، فسمي ذا الكفل .

ورواه ابن جرير من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، قال : قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا الأعمش ، عن عبد الله بن عبد الله ، عن سعد مولى طلحة ، عن ابن عمر قال : سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين - حتى عد سبع مرار - لم أحدث به ، ولكني قد سمعته أكثر من ذلك قال : « كان الكفل من بني اسرائيل لا يتورع من ذنب عمله ، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت ، فقال لها : ما يبكيك ؟ أأكرهتك ؟ قالت : لا ، ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حملتني إليه الحاجة . قال : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ؟ ثم نزل فقال : اذهبي بالدنانير لك . ثم قال : والله لا يعصي الله الكفل أبداً ، فمات من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه : قد غفر الله للكفل !

ورواه الترمذي من حديث الأعمش به وقال : حسن ، وذكر أن بعضهم رواه فوقفه على ابن عمر .

فهو حديث غريب جداً وفي إسناده نظر ، فإن سعداً هذا قال أبو حاتم : لا أعرفه إلا بحديث واحد . ووثقه ابن حبان ، ولم يرو عنه سوى عبدالله بن عبدالله الرازي هذا . فالله أعلم .

وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل وإنما لفظ الحديث الكفل من غير إضافة فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن . فالله تعالى أعلم .

ذكر أمم اهلكوا بعامة

وذلك قبل نزول التوراة بدليل قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى . . .** ﴾[1] .

كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابي ، عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء أو من الأرض ، بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير القرية التي مسخوا قردة . ألم تر أن الله تعالى يقول : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ .

ورفعه البزار في رواية له . والأشبه والله أعلم وقفه . فدل على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام .

فمنهم :

(١) سورة القصص الآية ٤٣

أصحاب الرس

قال الله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ **وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً * وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً** ﴾[1] .

وقال تعالى في سورة ق : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون واخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد** ﴾[2] .

وهذا السياق والذي قبله ، يدل على أنهم أهلكوا ودمروا وتبروا ، وهو الهلاك .

وهذا يرد اختيار ابن جرير من أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج ، لأن أولئك عند ابن إسحاق وجماعة كانوا بعد المسيح عليه السلام . وفيه نظر أيضاً .

وروى ابن جرير قال : قال ابن عباس : أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود .

وقد ذكر الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر في أول تاريخه ، عند ذكر بناء دمشق ، عن تاريخ أبي القاسم عبدالله بن عبدالله بن جرداد وغيره ، أن أصحاب الرس كانوا بحضور ، فبعث الله اليهم نبياً يقال له حنظلة بن صفوان ، فكذبوه وقتلوه . فسار عاد بن عوص بن ارم بن سام ابن نوح وولده من الرس ، فنزل الأحقاف . وأهلك الله أصحاب الرس وانتشروا في اليمن كلها ، وفشوا مع ذلك في الأرض كلها . حتى نزل جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح ، دمشق وبنى مدينتها ، وسماها جيرون ، وهي أرم ذات العماد . وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق ، فبعث الله هود بن عبدالله بن رباح بن خالد بن الحلود بن عاد ، الى عاد ، يعني أولاد عاد بالأحقاف فكذبوه ، فأهلكهم الله عز وجل .

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة ق الآيات ١٢ ـ ١٤ .

فهذا يقتضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة فالله أعلم .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي عاصم ، عن أبيه عن شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الرس بئر بأذربيجان . وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة قال : الرس بئر رسوا فيها نبيهم ، أي دفنوه فيها .

قال ابن جريج قال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة[1] .

قلت : فإن كانوا أصحاب يس كما زعمه عكرمة ، فقد أهلكوا بعامة ، قال الله تعالى في قصتهم : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾[2] . وستأتي قصتهم بعد هؤلاء .

وإن كانوا غيرهم ، وهو الظاهر ، فقد أهلكوا أيضاً وتبروا . وعلى كل تقدير فينافي ما ذكره ابن جرير .

وقد ذكر أبو بكر محمد بن الحسن النقاش : أن أصحاب الرس كانت لهم بئر ترويهم وتكفي أرضهم جميعها ، وكان لهم ملك عادل حسن السيرة ، فلما مات وجدوا عليه وجداً عظيماً ، فلما كان بعد أيام تصور لهم الشيطان في صورته وقال : إني لم أمت ، ولكن تغيبت عنكم حتى أرى صنيعكم ، ففرحوا أشد الفرح ، وأمر بضرب حجاب بينهم وبينه ، وأخبرهم أنه لا يموت أبداً ، فصدق به أكثرهم ، وافتتنوا به وعبدوه . فبعث الله فيهم نبياً فأخبرهم أن هذا شيطان يخاطبهم من وراء الحجاب ، ونهاهم عن عبادته ، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له .

قال السهيلي : وكان يوحى اليه في النوم ، وكان اسمه حنظلة بن صفوان ، فعدوا عليه فقتلوه ، وألقوه في البئر ، فغار ماؤها ، وعطشوا بعد ريهم ، ويبست أشجارهم ، وانقطعت ثمارهم ، وخربت ديارهم . وتبدلوا بعد الأنس بالوحشة ، وبعد الاجتماع بالفرقة ، وهلكوا عن آخرهم . وسكن في مساكنهم الجن والوحوش ، فلا يسمع ببقاعهم إلا عزيف الجن وزئير الأسود وصوت الضباع .

فأما ما رواه ـ أعني ابن جرير ـ عن محمد بن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود » ، وذلك أن الله تعالى بعث نبياً إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد

---

(١) هناك قرية ، في نجد اسمها « الرس » على الطريق بين بريدة والمدينة المنورة .

(٢) سورة يس الآية ٢٩ .

الأسود ، ثم ان أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئراً فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر أصم ، قال : فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاماً وشراباً ، ثم يأتي به الى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله عليها ويدلي اليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت .

قال : فكان كذلك ما شاء الله أن يكون . ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها ، فلما أراد أن يحتملها وجد سنة ، فاضطجع فنام ، فضرب الله على أذنيه سبع سنين نائماً . ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر ، فاضطجع فضرب الله على أذنيه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حزمته ولم يحسب أنه نام إلا ساعة من نهار ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم انه ذهب الى الحفيرة ، الى موضعها الذي كانت فيه ، فالتمسه فلم يجده . وقد كان بدا لقومه فيه بداء[1] فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه .

قال : فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل ، فيقولون له : ما ندري ؟ حتى قبض الله النبي عليه السلام وهب الأسود من نومته بعد ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » .

فإنه حديث مرسل ومثله فيه نظر . ولعل بسط قصته من كلام محمد بن كعب القرظي ، والله أعلم[2] .

ثم قد رده ابن جرير نفسه ، وقال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس المذكورون في القرآن ، قال : لأن الله أخبر عن أصحاب الرس أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم . اللهم إلّا أن يكون حدثت لهم أحداث فآمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم . والله أعلم .

ثم اختار أنهم أصحاب الأخدود وهو ضعيف ، لما تقدم ، ولما ذكر في قصة أصحاب الأخدود حيث توعدوا بالعذاب في الآخرة ان لم يتوبوا ، ولم يذكر هلاكهم ، وقد صرح بهلاك أصحاب الرس . والله تعالى أعلم .

---

(١) اعملوا رأيهم فيه .

(٢) أي انه موضوع .

قصة قوم يس

ومنهم : أصحاب القرية ، أصحاب يس قال الله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلاَّ تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنَّا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم ، بل أنتم قوم مسرفون * وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ، قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون * وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون * أأتَّخذُ من دونه آلهة إنْ يردن الرحمن بضر لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون * إني إذاً لفي ضلالٍ مبين * إني آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة قال : يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين * وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين * إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾[1] .

اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية « أنطاكية » رواه ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ، وكذا روي عن بريدة بن الخطيب وعكرمة وقتادة والزهري وغيرهم . قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنهم قالوا : وكان لها ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام[2] . فبعث الله اليه ثلاثة من الرسل وهم : صادق ، ومصدوق ، وشلوم فكذبهم .

وهذا ظاهر أنهم رسل من الله عز وجل . وزعم قتادة أنهم كانوا رسلاً من المسيح . وكذا

---

(١) سورة يس الآيات ١٣ ـ ٢٩ .

(٢) ليس لابن عباس علاقة بهذا الحديث وأكثر مرويات ابن إسحاق في الإسرائيليات هي عن كعب الأحبار ووهب بن منبه وأكثر رواياتهما اسرائيليات .

قال ابن جرير ، عن وهب ، عن ابن سليمان ، عن شعيب الجبائي : كان اسم المرسلين الأولين : شمعون ، ويوحنا ، واسم الثالث بولس ، والقرية أنطاكية .

وهذا القول ضعيف جداً ، لأن أهل انطاكية لما بعث اليهم المسيح ثلاثة من الحواريين كانوا أول مدينة آمنت بالمسيح في ذلك الوقت . ولهذا كانت إحدى المدن الأربع التي تكوّن فيها بطاركة النصارى . وهن : أنطاكية ، والقدس ، واسكندرية ، ورومية . ثم بعدها القسطنطينية ولم يهلكوا . وأهل هذه القرية المذكورة في القرآن أهلكوا ، كما قال في آخر قصتها بعد قتلهم صديق المرسلين : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾[1] ولكن إن كانت الرسل الثلاثة المذكورون في القرآن ، بعثوا إلى أهل أنطاكية قديماً فكذبوهم وأهلكهم الله ، ثم عمرت بعد ذلك ، فلما كان في زمن المسيح آمنوا برسله اليهم ، فلا يمنع هذا . والله أعلم .

فأما القول بأن هذه القصة المذكورة في القرآن هي قصة أصحاب المسيح فضعيف لما تقدم ؛ ولأن ظاهر سياق القرآن يقتضي أن هؤلاء الرسل من عند الله .

قال الله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلاً** ﴾ يعني لقومك يا محمد ﴿ **أصحاب القرية** ﴾ يعني المدينة ﴿ **إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث** ﴾ أي أيدناهما بثالث في الرسالة ، ﴿ **فقالوا إنا اليكم مرسلون** ﴾ ، فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم ؛ كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم ، يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً . فأجابوهم بأن الله يَعلم أنا رسله اليكم ، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام . ﴿ **وما علينا إلا البلاغ المبين** ﴾ أي إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به اليكم والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء . ﴿ **قالوا إنا تطيرنا بكم** ﴾ أي تشاءمنا بما جئتمونا به ، ﴿ **لئن لم تنتهوا لنرجمنكم** ﴾ قيل : بالمقال ، وقيل : بالفعال . ويؤيد الأول قوله : ﴿ **وليمسنكم منا عذاب أليم** ﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة .

﴿ **قالوا طائركم معكم** ﴾ أي مردود عليكم ﴿ **أئن ذكرتم** ﴾ أي بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه ، توعدتمونا بالقتل والإهانة ؟ ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ أي لا تقبلون الحق ولا تريدونه .

وقوله تعالى : ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى** ﴾ يعني لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿ **قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون** ﴾ أي يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جعالة .

ثم دعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئاً لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ **إني إذن لفي ضلال مبين** ﴾ أي إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما

(١) سورة يس الآية ٢٩ .

سواه .

ثم قال مخاطباً للرسل : ﴿ إني آمنت بربكم فاسمعــون ﴾ قيل : فـاستمعوا مقـالتي واشهدوا لي بها عند ربكم ، وقيل معناه : فاسمعوا يا قومي إيمـاني برسـل الله جهرة . فعنـد ذلك قتلوه ، قيـل : رجماً ، وقيل : عصا وقيل : وثبوا اليه وثبة رجل واحد فقتلوه .

وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعـود قال : وطئـوه بأرجلهم ، حتى أخـرجوا قصبته .

وقـد روى الثـوري عن عـاصم الأحـول ، عن أبي مجلز : كـان اسم هـذا الـرجـل « حبيب بن مـري » ثم قيل : كـان نجاراً . وقيـل : حبـالاً ، وقيل : إسكـافاً ، وقيـل : قصاراً ، وقيـل : كان يتعبد في غار هناك . فالله أعلم .

وعن ابن عباس : كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثـير الصدقـة فقتله قومـه ، ولهـذا قال تعـالى : ﴿ قيل : أدخـل الجنة ﴾ يعني لمـا قتله قومـه أدخله الله الجنة ، فلما رأى فيهـا من النضـرة والسرور ﴿ قـال يـا ليت قـومي يعلمـون * بمـا غفـر لي ربي وجعلني من المكـرمـين ﴾ يعني ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي .

قـال ابن عباس : نصـح قومـه في حياتـه بقولـه : ﴿ يا قـوم اتبعوا المـرسلين ﴾ وبعد ممـاته في قـوله : ﴿ يـا ليت قومي يعلمـون * بما غفـر لي ربي وجعلني من المكـرمـين ﴾ رواه ابن أبي حـاتم . وكذلك قال قتادة : لا يلقى المؤمن إلا ناصحاً . لا يلقى غاشاً ؛ لمـا عاين مـا عاين من كـرامة الله . ﴿ قـال : يا ليت قـومي يعلمون * بمـا غفر لي ربي وجعلني من المكـرمين ﴾ تمنى والله أن يعلم قـومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه !.

قـال قتادة : فـلا والله ما عـاتب الله قومـه بعـد قتله ﴿ إن كـانت إلا صيحـة واحـدة فـإذا هم خامدون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وما أنزلنا على قومـه من بعده من جنـد من السماء ومـا كنا منـزلين ﴾ أي ومـا احتجنا في الانتقام منهم الى انزال جند من السماء عليهم .

هـذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن بعض أصحـابه عن ابن مسعـود . قال مجـاهد وقتـادة : وما أنزل عليهم جنداً ، أي رسالة أخرى . قال ابن جرير : والأول أولى .

قلت : وأقـوى ، ولهذا قـال : ﴿ وما كنـا منزلـين ﴾ أي وما كنـا نحتـاج في الانتقـام الى هـذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ .

قال المفسرون : بعث الله اليهم جبريل عليه السلام ، فـأخذ بعضـادتي الباب الـذي لبلدهم ،

ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون ، أي قد أخمدت أصواتهم ، وسكنت حركاتهم ، ولم يبق منهم عين تطرف .

وهذا كله مما يدل على أن هذه القرية ليست أنطاكية ؛ لأن هؤلاء أهلكوا بتكذيبهم رسل الله اليهم ، وأهل أنطاكية آمنوا واتبعوا رسل المسيح من الحواريين اليهم . فلهذا قيل إن انطاكية أول مدينة آمنت بالمسيح .

فأما الحديث الذي رواه الطبراني من حديث حسين الأشقر ، عن سفيان بن عيينة عن ابن نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ : « السبق ثلاثة : فالسابق الى موسى يوشع ابن نون ، والسابق الى عيسى صاحب يس ، والسابق الى محمد علي بن أبي طالب » ، فإنه حديث لا يثبت ؛ لأن حسيناً هذا متروك شيعي من الغلاة ، وتفرده بهذا مما يدل على ضعفه بالكلية . والله أعلم .

قصة يونس عليه السلام

قال الله تعالى في سورة يونس : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾[1] .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾[2] .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم * فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون * فنبذناه بالعراء وهو سقيم * وأنبتنا عليه شجرة من يقطين * وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾[3] .

وقال تعالى في سورة ن : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾[4] .

قال أهل التفسير : بعث الله يونس عليه السلام الى أهل « نينوى » من أرض الموصل ، فدعاهم الى الله عز وجل ، فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم ، فلما طال ذلك عليه من أمرهم

(١) سورة يونس الآية ٩٨ .

(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) سورة الصافات الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨ .

(٤) سورة القلم الآيات ٤٨ ـ ٥٠ .

خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ، وغير واحد من السلف والخلف : فلما خرج من بين ظهرانيهم ، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والانابة ، وندموا على ما كان منهم الى نبيهم ، فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجوا الى الله عز وجل ، وصرخوا وتضرعوا اليه ، وتمسكنوا لديه ، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات . وجأرت الأنعام والدواب والمواشي ، فرغت الابل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها وكانت ساعة عظيمة هائلة .

فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته ، عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه ، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها** ﴾ أي هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها ، فدل على أنه لم يقع ذلك ، بل كما قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[1] . وقوله : ﴿ **إلا قوم يونس لما امنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين** ﴾ أي آمنوا بكمالهم .

وقد اختلف المفسرون : هل ينفعهم هذا الايمان في الدار الآخرة ، فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي ؟ على قولين :

الأظهر من السياق : نعم . والله أعلم ، كما قال تعالى : ﴿ **لما آمنوا** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم الى حين** ﴾[2]. وهذا المتاع الى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي ، والله أعلم .

وقد كانوا مائة ألف لا محالة ، واختلفوا في الزيادة : فعن مكحول عشرة آلاف . وروى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث زهير عمن سمع أبا العالية : حدثني أبي بن كعب ، أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ قال : «**يزيدون عشرين ألفاً** » فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلاً في هذا الباب .

وعن ابن عباس : كانوا مائة ألف وثلاثين ألفاً ، وعنه : وبضعة وثلاثين ألفاً ، وعنه وبضعة

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٤ .

(٢) سورة الصافات الآيتان ١٤٧ ، ١٤٨ .

وأربعين ألفاً . وقال سعيد بن جبير : كانوا مائة ألف وسبعين ألفاً[1] .

واختلفوا : هل كان إرساله إليهم قبل الحوت أو بعده ؟ أو هما أمتان ؟ على ثلاثة أقوال : هي مبسوطة في التفسير .

والمقصود أنه عليه السلام لما ذهب مغاضباً بسبب قومه ، ركب سفينة في البحر فلجت بهم ، واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها ، وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون .

قالوا : فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا ، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه .

فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به ، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً ، فشمر ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه ، فأبوا عليه ذلك ، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم .

قال الله تعالى : **﴿ وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبَقَ إلى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾**[2] . وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة ألقي في البحر ، وبعث الله عز وجل حوتاً عظيماً من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به البحار كلها ، (وقيل : إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه)[3] .

قالوا : ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات ، فحرك جوارحه فتحركت ، فإذا هو حي فخر لله ساجداً وقال : يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يعبدك أحد في مثله .

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه . فقال مجالد عن الشعبي : التقمه ضحى ولفظه عشية ، وقال قتادة : مكث فيه ثلاثاً ، وقال جعفر الصادق : سبعة أيام . ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت :

وأنت بفضل منك نجيت يونساً ... وقد بات في أضعاف حوت لياليا

وقال سعيد بن أبي الحسن وأبو مالك : مكث في جوفه أربعين يوماً . والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه .

---

(١) من ظاهر الآية أن الزيادة طفيفة لا تصل إلى ألوف .

(٢) سورة الصافات الآيات ١٣٩ ـ ١٤٢ .

(٣) لغو وكلام موضوع وضعه رجل لم ير الحوت ليعرف هل يُبلع أم لا .

والمقصود أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية ، ويقتحم به لجج الموت الأجاجي[1] ، فسمع تسبيح الحيتان للرحمن ، وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، ورب السماوات السبع والأرضين السبع وما بينها وما تحت الثرى . فعند ذلك وهنالك ، قال ما قال بلسان الحال والمقال ، كما أخبر عنه ذو العزة والجلال ، الذي يعلم السر والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى ، سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات وإن عظمت ، حيث قال في كتابه المبين ، المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ورب العالمين وإله المرسلين : ﴿ **وذا النون إذ ذهب** ﴾ أي إلى أهله : ﴿ **مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾[2] ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أي نضيق عليه . وقيل معناه : نقدر من التقدير وهي لغة مشهورة ، قدر وقدر كما قال الشاعر :

فلا عائد ذاك الزمان الذي مضى   تباركت ؛ ما تقدر يكن ، فلك الأمر

﴿ **فنادى في الظلمات** ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وعمرو بن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والضحاك : ظلمة الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل .

وقال سالم بن أبي الجعد : ابتلع الحوت حوت آخر فصارت ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾[4]

قيل : معناه فلولا أنه سبح الله هنالك ، وقال ما قال من التهليل والتسبيح ، والاعتراف لله بالخضوع ، والتوبة اليه والرجوع اليه ، للبث هنالك الى يوم القيامة ، ولبعث من جوف ذلك الحوت . هذا معنى ما روي عن سعيد بن جبير في إحدى الروايتين .

وقيل معناه : ﴿ **فلولا أنه كان** ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ **من المسبحين** ﴾ أي المطيعين المصلين الذاكرين الله كثيراً . قاله الضحاك بن قيس وابن عباس وأبو العالية ووهب بن منبه وسعيد بن جبير والضحاك والسدي وعطاء بن السائب والحسن البصري وقتادة وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال

(١) المالح .
(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٨٧ ، ٨٨ .
(٣) سبق الرأي بهذا الكلام .
(٤) سورة الصافات الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ .

له : « يا غلام إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، أحفظ الله تجده تجاهك ، تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » .

وروى ابن جرير في تفسيره ، والبزار في مسنده من حديث محمد بن إسحاق ، عمن حدثه ، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت : أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً . فلما انتهى به أسفل البحر سمع يونس حساً ، فقال في نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله اليه وهو في بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر . قال : فسبح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا : يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة ! قال : ذلك عبدي يونس . عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر . قالوا : العبد الصالح ؛ الذي كان يصعد اليك منه كل يوم وليلة عمل صالح ؟ قال : نعم . قال : فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه في الساحل كما قال الله : ﴿ وهو سقيم ﴾ .

هذا لفظ ابن جرير اسناداً ومتناً . ثم قال البزار : لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الاسناد . كذا قال .

وقد قال ابن أبي حاتم في تفسيره : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي وهب ، حدثنا عمي ، حدثني أبو صخر ، أن يزيد الرقاشي قال : سمعت أنساً بن مالك ، ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث الى رسول الله ﷺ يقول : « أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال : أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : لا يا رب ومن هو ؟ قال : عبدي يونس . قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة ؟ قالوا : يا ربنا ! أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى . فأمر الحوت فطرحه في العراء » .

ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به .

زاد ابن أبي حاتم : قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث ، أنه سمع أبا هريرة يقول : طرح بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة . وقلنا : يا أبا هريرة وما اليقطينة ؟ قال : شجرة الدباء . قال أبو هريرة : وهيأ الله له أروية[1] وحشية تأكل من خشاش الأرض ، أو قال : هشاش الأرض ،قال : فتفشح[2] عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت .

(١) الأروية : أنثى الوعل .

(٢) فشج وفشح : فرج بين رجليه .

وقال امية بن أبي الصلت في ذلك بيتاً من شعره :

فـأنبت يـقـطينـاً عـليـه بـرحمـة　　　من الله لـولا الله أصبـح ضـاويـاً

وهـذا غريب أيضـاً من هذا الـوجه . ويـزيد الرقاشي ضعيف ، ولكن يتقـوى بحـديث أبي هـريـرة المتقدم ؛ كما يتقوى ذاك بهذا ، والله أعلم .

وقد قال الله تعـالى : ﴿ **فنبذنـاه** ﴾ أي القيناه ﴿ **بـالعراء** ﴾ وهـو المكان القفـر الذي ليس فيـه شيء من الأشجار ، بل هـو عار منهـا ﴿ **وهو سقيم** ﴾ أي ضعيف البـدن . قال ابن مسعـود : كهيئة الفـرخ ليس عليـه ريش ، وقـال ابن عبـاس والسـدي وابن زيـد : كهيئة الصبي حـين يـولـد وهـو المنفوس ليس عليه شيء . ﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ قـال ابن مسعود وابن عبـاس وعكرمـة ومجـاهد وسعيـد بن جبير ووهب بن منبـه وهلال بن يسـاف وعبـد الله بن طـاووس والسـدي وقتـادة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد : هو القرع[1] .

قـال بعض العلماء : في انبات القـرع عليه حكم جمـة ؛ منها : أن ورقـه في غايـة النعـومـة ، وكثير وظليل ، ولا يقـربه ذبـاب ، ويؤكل ثمـره من أول طلوعه إلى آخـره ، نياً ومـطبوخـاً ، وبقشره وببزره أيضاً . وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك .

وتقدم كلام أبي هريره في تسخير الله تعالى لـه تلك الأروية التي كـانت ترضعـه لبنها وتـرعى في البرية ، وتأتيه بكرة وعشية . وهذا من رحمة الله به ونعمته عليـه وإحسانـه اليه . ولهـذا قال تعـالى : ﴿**فـاستجبنا لـه ونجيناه من الغم** ﴾ أي الكـرب والضيق الذي كـان فيه ﴿ **وكـذلك ننجي المؤمنـين** ﴾ أي وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

قال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلاعي ، حدثنـا يحيى بن صالـح ، حدثنـا أبو يحيى ابن عبـد الـرحمن ، حـدثني بشر بن منصـور ، عن عـلي بن زيـد ، عن سعيـد بن المسيب ، قـال : سمعت سعـد بن مالـك ـ وهـو ابن أبي وقـاص ـ يقـول : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : « **اسم الله الـذي إذا دعي به أجـاب ، وإذا سُئل بـه أعطى ، دعـوة يونس بن متى** » قـال : فقلت : يـا رسـول الله هي ليونس خاصـة أم لجماعـة المسلمين ؟ قـال : « **هي ليونس خـاصة وللمؤمنـين عامـة إذا دعوا بهـا ، ألم تسمع قـول الله تعالى : ﴿ فنـادى في الظلمـات أن لا إلـه إلا أنت سبحـانـك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** » فهو شـرط من الله لمن دعاه به .

وقال ابن أبي حاتم : حـدثنا أبـو سعيد الأشج ، حدثنـا أبو خـالد الأحمـر عن كثير بن زيـد ،

---

(١) وهذا هو الأصح أما شجرة الدباء فشيء آخر .

عن المطلب بن حنطب قال أبو خالد : أحسبه عن مصعب - يعني ابن سعد - عن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » . قال أبو سعيد الأشج : يريد به : ﴿ **وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾ .

وهذان طريقان عن سعد .

وثالث أحسن منهما : وقال الامام أحمد : حدثنا اسماعيل بن عمير ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني ، حدثنا ابراهيم بن محمد بن سعد ، حدثني والدي محمد ، عن أبيه سعد - وهو ابن أبي وقاص رضي الله عنه - قال : مررت بعثمان بن عفان في المسجد فسلمت عليه ، فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليَّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في الاسلام شيء ؟ قال : لا . وما ذاك ؟ قلت : لا إلا إني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليَّ السلام قال : فأرسل عمر الى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت . قال سعد : قلت بلى ، حتى حلف وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى ، واستغفر الله وأتوب إليه ، إنك مررت بي آنفاً ، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة . قال سعد : فأنا أنبئك بها ، إنّ رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقني الى منزله ضربت بقدمي الأرض ، فالتفت إليَّ رسول الله ﷺ فقال : « من هذا ؟ أبو إسحاق؟ » قال : قلت نعم يا رسول الله . قال ﷺ : « فمه ؟ » قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك . قال ﷺ : « نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ ، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » .

ورواه الترمذي والنسائي من حديث ابراهيم بن محمد بن سعد به .

***

ذكر فضل يونس عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام في سورتي النساء والأنعام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام .

وقال الامام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

ورواه البخاري من حديث سفيان الثوري به .

وقال البخاري أيضاً : حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى . ونسبه إلى أبيه » .

ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به . قال شعبة فيما حكاه أبو داود عنه : لم يسمع قتادة من أبي العالية سوى أربعة أحاديث ، هذا أحدها .

وقد رواه الامام أحمد عن عفان ، عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد عن يونس بن مهران ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

تفرد به أحمد .

ورواه الحافظ أبو القاسم الطبراني . حدثنا محمد بن الحسن بن كيسان ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، أنبأنا اسرائيل ، عن أبي يحيى العتاب ، عن مجاهد ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : لا ينبغي لأحد أن يقول أنا عند الله خير من يونس بن متى » .

إسناده جيد ولم يخرجوه .

وقال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة ، عن سعد بن ابراهيم ، سمعت حميد بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس ابن متى » .

وكذا رواه مسلم من حديث شعبة به .

وفي البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن الفضل ، عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، عن أبي هريرة في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال : لا والذي اصطفى موسى على العالمين .

قال البخاري في آخره : ولا أقول : أن أحداً أفضل من يونس بن متى وهذا اللفظ يقوي أحد القولين من المعنى : لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى أي ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس .

والقول الآخر : لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى ، كما قد ورد في بعض الأحاديث : « لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى » وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر انبياء الله المرسلين .

ذكر قصة موسى الكليم

عليه الصلاة والتسليم

وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، قال تعالى :

﴿ وآذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نَجِياً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾[1] .

وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن . وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة مطوّلة وغير مطوّلة . وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير . وسنورد سيرته ها هنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

قال الله تعالى :

﴿طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شِيعاً يستضعف طائفةً منهم يُذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نَمُنَّ على الذين آستضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم آلوارثين * ونُمكن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[2] .

يذكر تعالى ملخص القصة ، ثم يبسطها بعد هذا ، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق ، أي بالصدق الذي كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له .

﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ﴾ أي تجبّر وعتا ، وطغى وبغى ، وآثر

---

١) سورة مريم الآيات (٥١ ـ ٥٣) .

٢) سورة القصص الآيات (١ ـ ٦) .

الحياة الدنيا ، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى ، وجعل أهلها شيعاً ، أي قسم رعيته إلى أقسام ، وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم ، وهم شعب بني اسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله ، وكانوا إذ ذاك خيارَ أهل الأرض ، وقد سلَّط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم ، الكافر الفاجر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا :

﴿ **يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين** ﴾[1] .

وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني اسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه[2] عن إبراهيم عليه السلام ، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه . وذلك ـ والله أعلم ـ حين كان جرىَ على سارة امرأة الخليل من ملك مصر ، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها . وكانت هذه البشارة مشهورة في بني اسرائيل ، فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يَسْمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني اسرائيل ، حذراً من وجود هذا الغلام ، ولن يغني حذَر من قَدَر .

وذكر السُّدي عن أبي صالح ، وأبي مالك ، عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن أناس من الصحابة : أن فرعون رأى في منامه ؛ كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ، ولم تضر بني إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والحذقة[3] والسحرة . وسألهم عن ذلك ، فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء ، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض** ﴾[4] . وهم بني اسرائيل ، ﴿ **ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾[4] أي الذين يؤول ملك مصر وبلادها إليهم . ﴿ **ونمكن لهم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾[5] أي سنجعل الضعيف قوياً ، والمقهور قاهراً ، والذليل عزيزاً . وقد جرى هذا كله لبني اسرائيل ، كما قال تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا** ﴾[6]

---

(١) سورة القصص الآية ٤ .

(٢) ما يأثرونه : ما يحفظونه من أحاديث السلف .

(٣) الحذقة : جمع حاذق ، وهو الماهر .

(٤) سورة القصص الآية ٥ .

(٥) سورة القصص الآية ٦ .

(٦) سورة الأعراف الآية ١٣٧ .

وقال تعالى : ﴿ **فأخرجناهم من جناتٍ وعيونٍ * وكنوزٍ ومقامٍ كريمٍ * كذلك وأورثناها بني اسرائيل** ﴾[1] وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله .

* * *

والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى ، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى ، يعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته .

وعند أهل الكتاب : أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان ، لتضعف شوكةُ بني اسرائيل ، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم .

وهذا فيه نظر ، بل هو باطل . وإنما هذا في الأمر بقتل الولدان بعد بعثه موسى ، كما قال تعالى : ﴿ **فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا أقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم** ﴾[2] ولهذا قالت بنو اسرائيل لموسى : ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾[3]

فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً ، حذراً من وجود موسى .

هذا ، والقدر يقول : يا أيهذا الملك الجبار ، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه ، واتساع سلطانه : قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ، ولا تخالف أقداره : أن هذا المولود الذي تحترز منه ، وقد قتلت بسببه ، من النفوس ما لا يُعد ولا يُحصى ، لا يكون مَرْبَاه إلا في دارك ، وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه ، وتربيه وتتفداه ، ولا تطلع على سِر معناه ، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحي إليه ، لتعلم أنت وسائر الخلق ، أن رب السماوات والأرض هو الفعَّال لما يريد ، وأنه هو القوي الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول والقوة ، والمشيئة التي لا مردّ لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين : أن القبط شكوا الى فرعون قلة بني اسرائيل ، بسبب قتل ولدانهم الذكور ، وخشي أن تتفانى الكِبَار مع قتل الصغار ، فيصيرون هم الذين يَلون ما كان بنو اسرائيل يعالجون ، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً ، فذكروا أن هارون عليه السلام

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٥٧ ـ ٥٩ .

(٢) سورة غافر الآية ٢٥ .

(٣) سورة الاعراف الآية ١٢٩ .

ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم ، فضاقت أمه به ذرعاً ، واحترزت من أول ما حبلت ، ولم يكن يظهر عليها مخايل الحبل . فلما وضعت أُلهمت أن تتخذ له تابوتاً ، ربطته في حبل ، وكانت دارها متاخمة للنيل ، فكانت ترضعه ، فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت ، فأرسلته في البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به . قال الله تعالى :

﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قُرَّة عينٍ لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون ﴾[1] .

هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى : **﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها ﴾**[2]الآية . وليس هو بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم وغير واحد من المتكلمين ، بل الصحيح الأول ، كما حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة .

قال السهيلي : واسم أم موسى « أيارخا » ، وقيل : « أياذخت » . والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذي ذكرناه ، وأُلقي في خَلَدها وَرَوْعها : ألا تخافي ولا تحزني ؛ فإنه إن ذهب فإن الله سيردُّه إليك ، وإن الله سيجعله نبياً مرسلاً ، يعلي كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أُمرت به ، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهب مع النيل فمر على دار فرعون **﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾** قال الله تعالى : **﴿ ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾** . قال بعضهم : هذه لام العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقاً بقوله : فالتقطه . وأما إن جُعل متعلقاً بمضمون الكلام ، وهو أن آل فرعون قيِّضوا لالتقاطه ليكون لهم عدواً وحزناً ، صارت اللام معلَّلة كغيرها ، والله أعلم . ويقوي هذا التقدير الثاني قوله **﴿ إن فرعون وهامان ﴾**[3] وهو الوزير السوء **﴿ وجنودهما ﴾** التابعين لهما **﴿ كانوا خاطئين ﴾** أي كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

وذكر المفسرون : أن الجواري التقطنه من البحر في تابوت مغلَق عليه ، فلم يتجاسَرْن على فتحه ، حتى وضعنَهُ بين يدي امرأة فرعون « آسية » بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد ، الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف . وقيل : إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى . وقيل : بل كانت عمته : حكاه السهيلي ، فالله أعلم[4] .

---

(١) سورة القصص الآيات ٧ ـ ٩ .

(٢) سورة النحل الآيتان ٦٨ ـ ٦٩ .

(٣) سورة القصص الآية ٨ .

(٤) هذا غير معقول لأن اليهود كانوا يعملون في الرعاية والمصريون يعتبرون هذا العمل رجساً فلا يمكن أن يتزوجوا منهم .

وسيأتي مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران ، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ في الجنة .

فلما فتحت الباب ، وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية ، والجلالة الموسويّة . فلما رأته ووقع نظرها عليه ، أحبته حباً شديداً ، فلما جاء فرعون قال : ما هذا ؟ وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودافعت عنه وقالت :﴿ **قرة عينٍ لي ولك** ﴾ فقال لها فرعون : أمَّا لك فنعم وأما لي فلا . أي لا حاجة لي به . والبلاء هو موكل بالمنطق !

وقولها : ﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾[1] قد أنالها الله ما رجت من النفع : أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه . ﴿ **أو نتخذه ولداً** ﴾[1] وذلك أنهما تبنّياه ؛ لأنه لم يكن يولد لهما ولد . قال الله تعالى : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾[1] أي لا يدرون ماذا يريد الله بهم ، حتى قيضهم[2] لالتقاطه ، من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده ؟

وعند أهل الكتاب : أن التي التقطت موسى « دربتة » ابنة فرعون ، وليس لامرأته ذِكْر بالكلية ، وهذا من غلطهم على كتاب الله عز وجل .

وقال الله تعالى : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه**[3]**فبصرت به عن جنبٍ وهم لا يشعرون * وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون * فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حقٌّ ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾[4]

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جُبير وأبو عبيدة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً** ﴾أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿ **إن كادت لتبدي به** ﴾ أي لتظهر أمره وتظهر عنه جهرة ﴿ **لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ أي صبّرناها وثبتناها ﴿ **لتكون من المؤمنين * وقالت لاخته** ﴾ وهي ابنتها الكبيرة : ﴿ **قُصيه** ﴾ أي اتبعي أثره ، وآطلبي لي خبره ﴿ **فبصرت به عن جنب** ﴾ قال مجاهد : عن بُعد . وقال قتادة : جعلت تنظر اليه وكأنها لا تريده . ولهذا قال :﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ ، وذلك لأن موسى عليه السلام لَّما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يَقْبل ثدياً ولا أخذ طعاماً ، فحاروا في أمره ، واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل ؛ كما قال تعالى : ﴿ **وحرمنا عليه المراضع من قبل** ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق ؛ لعلهم يجدون من يوافق رضاعته ، فبينما هم وقوف به والناس عكوف

---

(١) سورة القصص الآية ٩ .

(٢) حيث يسرهم .

(٣) اتبعي أثره لتري إلى أين وصل وأي أيد تلقفته .

(٤) سورة القصص الآيات ١٠ ـ ١٣ .

عليه إذ بصُرت بـه أختـه ، فلم تـظهر أنها تعـرفه بـل قالت : ﴿ هـل أدلكم على أهـل بيتٍ يكفلونه لكم وهم لـه ناصحـون ﴾ . قال ابن عبـاس : لما قـالت ذلك ، قـالوا لهـا : مـا يـدريـك بنُصْحهم وشفقتهم عليه ؟ فقالت : رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته .

فـأطلقوهـا وذهبوا معهـا إلى منزلهم ، فـأخذتـه أمه . فلما أرضعتـه التقم ثديهـا ، وأخذ يمتصـه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً ، وذهب البشير إلى (آسية) يُعْلمهـا بذلـك ، فاستـدعتها إلى منـزلها وعـرضت عليهـا أن تكـون عنـدهـا ، وأن تحسن إليهـا ، فـأبَت عليهـا وقـالت : إن لي بعـلاً وأولاداً ، ولست أقـدر عـلى هـذا ، إلا أن تـرسليـه معي . فـأرسلتـه معهـا ، ورتبت لهــا رواتب ، وأجـرت عليها النفقـات ، والكساوي والهبـات ، فرجعت بـه تحـوزه إلى رحلهـا وقـد جمـع الله شمله بشملها .

قال الله تعالى :

﴿ فـرددناه إلى أمـه كي تقر عينهـا ولا تحزن ولتعلم أن وعـد الله حق ﴾ أي كما وعـدناهـا برده ورسالته ، فهذا رده ، وهو دليل على صدق البشارة برسالته ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

وقد امتنَّ على مـوسى بهذا ليلة كلَّمـه ، فقال لـه فيها قـال : ﴿ ولقد مننـا عليك مـرةً أخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يُوحى * أن اقـذفيه في التـابوت فـاقذفيـه في اليم فليلقه اليم بـالساحـل يأخـذه عـدوٌ لي وعدوٌ لـه وألقيت عليك محبـةً مني ﴾[1] . ذلك أنـه كان لا يـراه أحدٌ إلا أحبـه ﴿ ولتصنع على عيني ﴾[2] . قال قتادة وغير واحـد من السلف : أي تطعم وتـرفه وتغـذى بأطيب المـأكل وتلبس أحسن المـلابس بمرأى مني ، وذلـك كله بحفظي وكلاءتي لك فيـما صنعت بـك ولـك ، وقـدَّرتـه من الأمور التي لا يقدر عليها غيري .

﴿ إذ تمشي أُختـك فتقـول هـل أدلكم عـلى من يكفله فـرجعنـاك إلى أُمـك كي تقـرَّ عينهـا ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً ﴾[3] .

وسنورد حديث الفتون في موضعه بعد هذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان .

﴿ ولمـا بلغ أشده واستـوى آتيناه حُكـماً وعلماً وكذلـك نجزي المحسـنين * ودخل المـدينة عـلى حين غفلةٍ من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هـذا من شيعته وهـذا من عدوه فـاستغاثـه الذي من شيعتـه على الـذي من عدوه فـوكزه مـوسى فقضى عليه قـال هذا من عمـل الشيطان إنـه عدوٌّ مضـلٌّ

(١) سورة طه الآيات ٣٧ ـ ٣٩ .

(٢) سورة طه الآية ٣٩ .

(٣) سورة طه الآية ٤٠ .

مبينٌ * قال ربِّ إني ظلمت نفسي فـاْغفر لي فغفـر له إنـه هو الغفـور الرحيم * قـال ربِّ بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾[1] .

لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها وإحسـانه بـذلك وإمتنـانه عليهـا ، شرع في ذكـر أنه لـما بلغ أشُـدّه واستوى ، وهـو احتكام الخَلْق والخُلق ، وهـو سن الأربعين في قـول الأكثـرين ، أتـاه الله حكماً وعلماً ، وهو النبوة والرسـالة التي كـان بشَّر بها أمـه حين قـال : ﴿ **إنا رادوه إليـك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ .

ثم شـرع في ذكر سبب خـروجه من بـلاد مصر ، وذهابـه الى أرض مَدْين وإقـامتـه هنـالـك ، حتى كمـل الأجل وانقضى الأمـد ، وكان مـا كان من كـلام الله له ، وإكـرامـه بمـا أكـرمـه بـه . كـما سيأتي .

قـال تعالى : ﴿ **ودخـل المدينـة على حـين غفلةٍ من أهلها** ﴾ قـال ابن عبـاس وسعيـد بن جُبـير وعكرمة وقتادة والسدي : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس : بين العشائين .

﴿ **فوجد فيها رجلين يقتتلان** ﴾ أي يتضاربان ويتهارشان ﴿ **هـذا من شيعته** ﴾ أي إسـرائيلي ، ﴿ **وهذا من عدوه** ﴾ أي قبطي [2] . قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق .

﴿ **فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه** ﴾ وذلـك أن موسى عليـه السلام ، كـانت له بديار مصر صَوْلة ، بسبب نسبته إلى تبنيّ فرعون له وتـربيته في بيتـه ، وكانت بنـو اسرائيـل قد عـزّوا وصارت لهم وجاهة ، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه ، وهم أخواله أي من الـرضاعـة ، فلما استغاث ذلك الإسرائيلي مـوسى عليه السـلام على ذلـك القبطي أقبـل اليه مـوسى ﴿ **فوكزه** ﴾ . قال مجاهد : أي طعنه بُجمْع كفه ، وقال قتادة : بعصا كانت معه ،﴿ **فقضى عليه** ﴾ أي فمات منها .

وقـد كان ذلـك القبطي كـافراً مشـركاً بـالله العظيم ، ولم يُـردْ موسى قتله بـالكلية ، وإنمـا أراد زجره وردعه . ومـع هذا ﴿ **قـال** ﴾ موسى : ﴿ **هـذا من عمل الشيـطان إنه عـدوٌ مضلٌ مبـينٌ * قال رب إني ظلمت نفسي فـاْغفر لي فغفـر له إنـه هو الغفـور الرحيم * قـال رب بما أنعمت عـليَّ** ﴾ أي من العز والجاه ﴿ **فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾

---

(١) سورة القصص الآيات ١٤ ـ ١٧ .

(٢) ليس بالضرورة أن يكون قبطياً ، فهو مصري .

﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا آلذي آستنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنَّك لغويٌّ مبينٌ * فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوٌّ لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلَّا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين * وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فآخرج إني لك من الناصحين * فخرج منها خائفاً يترقب قال ربِّ نجني من القوم الظالمين ﴾(١) .

يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً - أي من فرعون وملئه - أن يعلموا أن هذا القتيل الذي رفع إليه أمره ، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني اسرائيل ، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترتب على ذلك أمر عظيم .

فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ **خائفاً يترقب** ﴾ أي يتلفت ، فبينما هو كذلك ، إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، أي يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله ، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته ، قال له : ﴿ **إنك لغويٌّ مبينٌ** ﴾ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطي ، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي ، فيردعه عنه ويخلصه منه ، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي ﴿ **قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين** ﴾ .

قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذي اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس ، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطي اعتقد أنه جاء إليه ، لَمَّا عنفه قبل ذلك بقوله : ﴿ **إنك لغويٌّ مبين** ﴾ فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس . فذهب القبطي فاستَعْدَى فرعون على موسى . وهذا الذي لم يذكر كثير من الناس سواه . ويحتمل ان قائل هذا هو القبطي ، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ، ورأى من سجيّته انتصاراً جديداً للإسرائيلي . فقال ما قال من باب الظن والفراسة : إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلي حين استصرخه عليه ما دله على هذا . والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل في طلبه . وسبقهم رجل ناصح من طريق أقرب . ﴿ **وجاء رجلٌ من أقصى المدينة** ﴾ ساعياً إليه مشفقاً عليه فقال : ﴿ **يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فآخرج** ﴾ أي من هذه البلدة ﴿ **إني لك من الناصحين** ﴾ أي فيما أقوله لك .

* * *

---

(١) سورة القصص الآيات ١٨ - ٢١ .

قال الله تعالى :﴿ **فخرج منها خائفاً يترقب** ﴾ أي فخرج من مدينة مصر من فوره على وجه لا يهتدي الى طريق لا يعرفه ، قائلاً :

﴿ **ربِّ نجني من القوم الظالمين * ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل * ولَمَّا ورد ماء مدين وجد عليه أُمةً من الناس يسقون ووجد من دونهم آمرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يُصدر الرعاء وأبونا شيخٌ كبيرٌ * فسقىٰ لهما ثم تولى إلى الظلِّ فقال ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقيرٌ** ﴾(1) .

يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكَليمه من مصر خائفاً ، يترقب ، أي يتلفت ، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدري أين يتوجه ، ولا إلى أين يذهب ؛ وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها .

﴿**ولما توجه تلقاء مدين**﴾ أي اتجه الى طريق يذهب فيه ،﴿ **قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل** ﴾ أي عسى أن تكون هذه الطريق موصلة الى المقصود . وكذا وقع ، فقد أوصلته إلى مقصود وأي مقصود .

﴿ **ولما ورد ماء مدين** ﴾ وكانت بئراً يستقون منها ، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأَيكة ، وهم قوم شُعَيب عليه السلام ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولي العلماء .

ولما ورد الماء المذكور ﴿ **وجد عليه أُمةً من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان** ﴾ أي تكفكفان عنها غنمهما أن تختلط بغنم الناس .

وعند أهل الكتاب أنهن كن سبع بنات ، وهذا أيضاً من الغلط ، ولعلهن كن سبعاً ، ولكن إنما كان تسقي اثنتان منهن ، وهذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظاً ، وإلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتين ﴿ **قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخٌ كبير** ﴾ أي لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء ، لضعفنا ، وسبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا وكبره . قال الله تعالى : ﴿ **فسقى لهما** ﴾.

قال المفسرون : وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم ، وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجيء هاتان المرأتان فتشْرعان غنمهما في فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان . قال أمير

---

(1) سورة القصص الآيات ٢١ ـ ٢٤ .

المؤمنين عمر : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما .

﴿ **ثم تولى إلى الظل** ﴾ قالوا : وكان ظل شجرة من السَّمُر ، وروى ابن جرير عن ابن مسعود ، أنه رآها خضراء ترف ﴿ **فقال ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير** ﴾ .

قال ابن عباس : سار من مصر الى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء ، وجلس في الظل ـ وهو صفوة الله من خلقه ـ وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خُضرة البقل لترى من داخل جوفه ، إنه لمحتاج الى شق تمرة[1] .

قال عطاء ابن السائب لما قال : ﴿ **رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير** ﴾ أسمع المرأة .

﴿ **فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين * قالت إحداهما يا أبتِ استأجره إنَّ خير من استأجرت القوي الأمين * قال إني أُريد أن أُنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حججٍ فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أُريد أن أشقَّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين * قال ذلك بيني وبينك أيَّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيلٌ** ﴾[2] .

لما جلس موسى عليه السلام في الظل وقال : ﴿ **رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير** ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال : إنه استنكر سرعة رجوعهما ، فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام[3] . فأمر إحداهما ، أن تذهب إليه فتدعوه ، ﴿ **فجاءته إحداهما تمشي على استحياء** ﴾[4] أي مشي الحرائر ﴿ **قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا** ﴾ . صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها رِيبة ، وهذا من تمام حيائها وصيانتها ﴿ **فلما جاءه وقصَّ عليه القصص** ﴾ وأخبره خبره ، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فراراً من فرعونها ، ﴿ **قال** ﴾ له ذلك الشيخ ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾[4] أي خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقيل : هو شعيب عليه السلام . وهذا هو المشهور عند كثيرين . وممن نص عليه : الحسن البصري ، ومالك بن أنس ، وجاء مصرّحاً به في حديث ، ولكن في إسناده نظر .

---

(١) كناية عن الجوع الشديد الذي ألم به .

(٢) سورة القصص الآيات ٢٥ ـ ٢٨ .

(٣) الرواية ليست ضرورية هنا لأن سؤاله عن سرعة رجوعهما طبيعي والعادة أن تتأخرا حتى يصدر الرعاء والطبيعي أيضاً أن يرويا ما حدث معهما .

(٤) سورة القصص الآية ٢٥ .

وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه ، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته .

وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري : أن صاحب موسى عليه السلام هذا ، اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين . وقيل : إنه ابن أخي شعيب ، وقيل : ابن عمه ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقيل : رجل اسمه « يثرون » هكذا هو في كتب أهل الكتاب : يثرون كاهن مدين . أي كبيرها وعالمها(١) .

وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبدالله : اسمه يثرون . زاد أبو عبيدة : وهو ابن أخي شعيب . وزاد ابن عباس : صاحب مدين .

والمقصود : أنه لما أضافه وأكرم مثواه ، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : ﴿ **يا أبت استأجره** ﴾ أي لرعي غنمك ، ثم مدحته بأنه قوي أمين .

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي ، وأبو مالك ، وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد : لما قالت ذلك ، قال لها أبوها : وما عِلْمك بهذا ؟ فقالت : إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال : كوني من ورائي ، فإذا اختلف الطريق فاحْذِفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته ﴿ **أكرمي مثواه** ﴾ ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين** ﴾ وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب .

﴿ **قال إني أُريد أن أُنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حججٍ فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أُريدُ أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين** ﴾

استدل بهذه جماعة من أصحاب أبي حنيفة رحمه الله ، على صحة ما إذا باعه أحدَ هذين العبدين أو الثوبين ونحو ذلك ، أنه يصح ؛ لقوله : ﴿ **إحدى ابنتي هاتين** ﴾

وفي هذا نظر ؛لأن هذه مراوَضة لا معاقَدة . والله أعلم .

---

(١) أهل الكتاب أسموه رعوئيل وهذا ليس إسماً بل صفة لأن هذه الكلمة تعني في الآرامية سيد الرعاة وقد تكون إسماً راجع سفر الخروج الفصل الثاني العدد ١٩ أما اسمه فجاء في فصل آخر « يترو »

(٢) سورة القصص الآية ٢٧ .

واستدل أصحابُ أحمد على صحة الاستئجار بالطُّعمة والكسوة ، كما جرت به العادة ، واستأنسوا بالحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه مترجماً عليه في كتابه : « باب استئجار الأجير على طعام بطنه » ، حدثنا محمد بن المصفي الحِمصي ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن مُسْلمة ابن عُلَي ، عن سعيد بن أبي أيوب ، عن الحارث بن يزيد ، عن علي بن رباح قال : سمعت عُتبة ابن النُّدَّر يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ طَسّم ، حتى إذا بلغ قصة موسى قال: « إن موسى عليه السلام آجر نفسه ثماني سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه » .

وهذا الحديث من هذا الوجه لا يصح ، لأن مُسْلمة بن عُلي الخَشني الدمشقي البلاطي ضعيف عند الأئمة لا يحتج بتفرده ، ولكن قد روي من وجه آخر ، فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرْعة ، حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكر ، حدثني ابن لهيعة[1] . وحدثنا أبو زُرعة ، حدثنا صفوان حدثنا الوليد ، حدثنا عبدالله بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد الحضرمي ، عن علي بن رَباح اللَّخْمي قال : سمعت عُتبة ابن النُّدَّر السُّلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدِّث أن رسول الله قال : « إن موسى عليه السلام آجرَ نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه » .

ثم قال تعالى : ﴿ **قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ والله على ما نقول وكيلٌ** ﴾[2] ، يقول إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت ، فأيهما قضيت فلا عدوان عليَّ والله على مقالتنا سامعٌ وشاهد ، ووكيل عليَّ وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين ، وأتمها وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخاري : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جُبير ، قال : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدمَ على حبْر[3] العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل .

تفرد به البخاري من هذا الوجه ، وقد رواه النسائي في حديث الفتون ؛ كما سيأتي من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير به .

وقد رواه ابن جرير ، عن أحمد بن محمد الطُّوسي ، وابن أبي حاتم عن أبيه ، كلاهما عن الحميدي ، عن سفيان بن عُيينة ، حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب ، عن الحكم بن أبَان ، عن عِكْرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « سألتُ جبريل أي الأجلين قضى

---

(١) وابن لهيعة ضعيف .

(٢) سورة القصص الآية ٢٨ .

(٣) أي عالمهم .

موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » .

وإبـراهيم هذا غـير معروف إلا بهـذا الحديث . وقـد رواه البزار عن أحمـد بن أبان القـرشي ، عن سُفيـان بن عُيَينة ، عن إبـراهيم بن أَعْيَن ، عن الحكم بن أبـان ، عن عِكـرمـة عن ابن عبـاس عن النبي ﷺ فذكره .

وقد رواه سنيد عن حجـاج ، عن ابن جُريـج ، عن مجاهـد مرسـلاً : أن رسول الله سـأل عن ذلك جبريل فسأل جبريل إسرافيل ، فسأل إسرافيل الربَّ عز وجل فقال : « أبرّهما وأوفاهما » .

وبنحوه رواه ابن أبي حاتم من حديث يوسف بن سرج مرسلاً .

ورواه ابن جـريـر من طـريق محمـد بن كعب ، أن رسـول الله ﷺ سُئـل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : « أوفاهما وأتمهما »(١) .

وقـد رواه البزّار وابن أبي حـاتم من حديث عُـوَيد بن أبي عمـران الجَـوْني ـ وهـو ضعيف ـ عن أبيـه عن عبـدالله بن الصـامت ، عن أبي ذر ، أن رسـول الله ﷺ سُئـل أي الأجلين قضى مـوسى ؟ قال : « أوفاهما وأبرهما » : قال : « وإن سئلت أي المرأتين تزوج ؟ فقل : الصغرى منهما » .

وقـد رواه البـزار وابن أبي حـاتم من طـريق عبـد الله بن لهيعـة ، عن الحـارث بن يـزيـد الحضْـرَمَي ، عن علي بن ربـاح ، عن عُتبة بن النُّدر ، أن رسـول الله ﷺ قـال : « إن مـوسى آجـرَ نفسـه بعفة فـرجـه وطعـام بـطنـه » فلما وفى الأجـل قيـل : يـا رسـول الله أي الأجلين ؟ قـال ﷺ : « أبرهما وأوفاهما » .

فلما أراد فـراق شعيب ـ سأل امـرأته أن تسـأل أباهـا أن يعـطيهـا من غنمـه مـا يعيشـون بـه ، فأعطاهـا ما ولـدت غنمه ، من قـالب لَوْن(٢) من ولـد ذلك العـام ، وكانت غنمـه سوداء حسـاناً ، فـانطلق مـوسى عليه السـلام الى عصا قسمهـا من طرفهـا ثم وضعهـا في أدنى الحوض ، ثم أوردهـا فسقـاها ، ووقف مـوسى عليه السـلام بإزاء الحـوض ، فلم يصدر منهـا شـاة إلا ضـرب جنبهـا شـاة شاة ، قال : « فأتأمت(٣) وألبنت »(٤) ووضعت كلهـا قوالب ألـوان ، إلا شاة أو شـاتين ، ليس فيهـا فَشـوش ، ولا ضَبوب ، ولا عَـزوز ، ولا ثعول ، ولا كَمـوش تفوت الكف . قـال النبي ﷺ : « لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية » .

---

(١) لا أهمية هنا لاختلاف الكلمات لأن المعنى واحد .

(٢) قالب لون : على غير لون أمها .

(٣) أتأمت : ولدت توائم .

(٤) ألبنت : كثر لبنها .

قـال ابن لهيعـة : « الفَشُـوش : واسعـة الشَّخْب[1] ، والضَّبـوب : طـويلة الضـرع تجره . والعَـزُوز : ضيقة الشخب ، والثعـول : الصغيـرة الضـرع كـالحلمتين ، والكمـوش : التي لا يحكم الكف على ضرعها لصغره » .

وفي صحة رفع هذا الحديث نـظر . وقد يكـون موقـوفاً كـما قال ابن جـرير : حـدثنا محمـد بن المثنى ، حـدثنا معـاذ بن هشام ، حـدثنا أبي عن قتـادة ، حدثنـا أنس بن مالـك قال : « لمـا دعا نبي الله موسى صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما ، قال له صاحبه : كل شـاة ولدت عـلى غير لـونها فلك ولدها ، فعمد موسى فـوضع حبـالاً على المـاء فلما رأت الحبال فزعت فجالت جولةً فولـدن كلهن بُلقاً إلا شـاة واحدة ، فـذهب بأولادهن كلهن ذلـك العـام » ، وهـذا إسنـاد جيـد رجـالـه ثقـات ، والله أعلم .

وقد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السلام حـين فارق خـاله « لابـان » أنه أطلق له ما يولد من غنمه بُلقاً ، ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السلام . فالله أعلم .

* * *

قال الله تعالى :

﴿ فلما قضى مـوسى الأجل وسـار بأهله آنس من جـانب الـطور نـاراً ، قـال لأهله امكثـوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصـطلون * فلما أتاهـا نُودي من شـاطىء الـوادِ الأيمن في البقعة المبـاركة من الشجـرة أن يا مـوسى إني أنا الله رب العـالمين * وأن ألقِ عصـاك فلما رآهـا تهتزُّ كـأنها جانٌ ولىٰ مُـدبراً ولم يعقب يـا موسى أقبـل ولا تخف إنـك من الآمنـين * أسلك يدك في جيبك تخـرج بيضاء من غـير سوءٍ وآضمم إليـك جناحـك من الرهب فـذانك بـرهانـان من ربك إلى فرعون وملأه * إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[2] .

تقـدم أن موسى قضى أتم الأجلين وأكملهـما ، وقد يُؤخـذ هذا من قـوله : **﴿ فلما قضى مـوسى الأجل ﴾** وعن مجاهد أنه أكمل عشراً وعشراً بعدها[3] .

وقـوله : **﴿ وسـار بأهله ﴾** أي من عنـد صهره ، زاعـماً ـ فيـما ذكـره غـير واحـد من المفسـرين وغيـرهـم ـ أنه اَشتـاق إلى أهله ، فقصد زيـارتهم ببلاد مصر في صـورة مُخْتفٍ ، فلما سار بـأهله ومعـه

(١) الشخب : عريضة الدرة واسعتها والشخب والدرة في الماشية كالحلمة في نساء البشر .

(٢) سورة القصص الآيات ٢٩ ـ ٣٢ .

(٣) ليس لهـذه الروايـة أصل إنمـا لتشابـه الروايتـين في الغنم بين مـوسى عليه السـلام ويعقوب أرادوا أن يكـون التشابـه في هذا الأمر أيضاً وزواجه من الأختين ولم يرد في هذا نص لا في القرآن الكريم ولا في أسفار اليهود .

ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه .

قالوا : واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة ، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف ، وجعل يوري زناده فلا يرى شيئاً ، واشتد الظلام والبرد .

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعْد ناراً تأجّج في جانب الطور - وهو الجبل الغربي منه عن يمينه - فـ ﴿ **قال موسى لأهله إني آنست ناراً** ﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم ، لأن هذه النار هي نور في الحقيقة ، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ، ﴿ **لعلي آتيكم منها بخبرٍ** ﴾ ، أي لعلي استعلم من عندها عن الطريق ﴿ **أو جذوةٍ من النار لعلكم تصطلون** ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق في ليلة باردة ومظلمة ؛ لقوله في الآية الأخرى : ﴿ **وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدىً** ﴾[1] فدلّ على وجود الظلام ، وكونهم تاهوا عن الطريق . وجمع الكل في سورة النمل في قوله : ﴿ **إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهاب قبسٍ لعلكم تصطلون** ﴾[2] وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر ، ووجد عندها هدىً وأي هدى ، واقتبس منها نوراً وأي نور .

قال الله تعالى :

﴿ **فلما أتاها نودي من شاطيء الوادِ الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين** ﴾ .

وقال في النمل : ﴿ **فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسُبحان الله رب العالمين** ﴾[4] . أي سبحان الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ **يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾[5] .

وقال في سورة طه :

﴿ **فلما أتاها نُودي يا موسى * إني أنا ربك فآخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوىً * وأنا آخترتك فآستمع لما يوحى * إنني أنا آلله لا إله إلا أنا فآعبدني وأقم الصلاة لذكري * إن الساعة آتيةٌ أكادُ أُخفيها لتجزىٰ كلُّ نفسٍ بما تسعىٰ * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها وآتبَّع هواه فتردىٰ** ﴾[6] .

---

(١) سورة طه الآيتان ٩ - ١٠ .

(٢) سورة النمل الآية ٧ .

(٣) سورة القصص الآية ٣٠ .

(٤) سورة النمل الآية ٨ .

(٥) سورة النمل الآية ٩ .

(٦) سورة طه الآيات ١١ - ١٦ .

قـال غير واحـد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصـد مـوسى الى تلك النـار التي رآهـا فـانتهى إليها ، وجـدها تـأجج في شجـرة خضراء من العَـوْسج ، وكـل ما لتلك النـار في اضـطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازديـاد . فوقف متعجبـاً ، وكانت تلك الشجـرة في لْحف جبل غـربي منه عن يمينه ، كـما قال تعـالى : ﴿ **وما كنت بجـانب الغربي إذ قضينـا إلى موسى الأمـر وما كنت من الشـاهدين** ﴾[1] . وكـان موسى في وادٍ اسمـه « طوى » فكـان موسى مستقبـل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينـه من ناحيـة الغرب ، فنـاداه ربه بـالوادي المقـدس طـوى ، فـأُمـر أولاً بخلع نعليـه تعـظيـماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ، ولا سيما في تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتـاب : أنه وضـع يده عـلى وجهه من شـدة ذلك النـور ؛ مهابـةً له وخـوفاً عـلى بصره[2] .

ثم خاطبه تعـالى كما يشـاء قائـلاً له :﴿ **إني أنـا الله رب العالمـين** ﴾[3] ﴿ **إنني أنا الله لا إلـه إلا أنـا فاعبـدني وأقم الصلاة لـذكري** ﴾[4] أي أنـا رب العالمـين الذي لا إلـه إلا هو ، الـذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له .

ثم أخبـره أن هذه الـدنيا ليست بـدار قرار ، وإنمـا الدار البـاقية يـومَ القيامـة ، التي لا بد من كونها ووجودها ﴿ **لتجزى كل نفس بما تسعى** ﴾[5] أي من من خـير وشر . وحضه وحثـه على العمـل لها ، ومُجانبة من لا يؤمِنَ بها ممن عصى مـولاه واتبع هـواه . ثم قال لـه مخاطبـاً ومؤانساً ومبينـاً له أنـه القادر على كل شيء ، والذي يقـول للشيء كن فيكون : ﴿ **ومـا تلك بيمينك يـا موسى** ﴾[6] أي أمـا هذه عصاك التي تعـرفها منـذ صحْبَتَها ؟ ﴿ **قـال هي عصاي أتـوكأ عليهـا وأهشُّ بها عـلى غنمي ولي فيها مآرب أخرى** ﴾[7] أي بلى هـذه عصاي التي أعـرفها وأتحققهـا ﴿ **قال ألقهـا يا مـوسى * فألقـاها فإذا هي حيةٌ تسعى** ﴾[8] .

---

(١) سورة القصص الآية ٤٤ .

(٢) جاء في سفر الخروج الفصل الثالث العدد ٦ « فستر موسى وجهه إذ خاف أن ينظر إلى الله » .

(٣) سورة القصص الآية ٣٠ .

(٤) سورة طه الآية ١٤ .

(٥) سورة طه الآية ١٥ .

(٦) سورة طه الآية ١٧ .

(٧) سورة طه الآية ١٨ .

(٨) سورة طه الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب : أنه سأل برهاناً صادقاً على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر ، فقال له الرب عز وجل : ما هذه التي في يدك ؟ قال : عصاي ، قال : ألقها إلى الأرض ﴿ **فألقاها فإذا هي حيةٌ تسعى** ﴾ فهرب موسى من قُدامها ، فأمره الرب عز وجل أن يبسط يده ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده .

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ **وألقِ عصاك فلما رآها تهتز كأنها جانٌ ولّىٰ مدبراً ولم يعقب** ﴾[1] أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة وأنياب تصطك ، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان ، وهو ضرْب من الحيات يقال له الجان والجنان[2] ، وهو لطيف ولكن سريع الاضطراب والحركة جداً ، فهذه جمعت الضخامة والسرعة الشديدة . فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿ ولى مدبراً ﴾ أي هارباً منها ، لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك ﴿ **ولم يعقب** ﴾ أي ولم يلتفت ، فناداه ربه قائلاً له : ﴿ **يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين** ﴾[3] .

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها : ﴿ **قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾[4] فيقال إنه هابها شديداً ، فوضع يده في كُم مدْرَعته ، ثم وضع يده في وسط فمها . وعند أهل الكتاب : أمسكَ بذنبها ، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين ، فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغربين !

ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء ، أي من غير برص ولا بهقَ ، ولهذا قال : ﴿ **أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ واضمم إليك جناحك من الرهب** ﴾[5] قيل معناه : إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك .

وهذا ، وإن كان خاصاً به ، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء .

---

(١) سورة النمل الآية ١٠ .

(٢) لعلها ما نسميه الحية النشابة لسرعة انطلاقها كالسهم .

(٣) سورة القصص الآية ٣١ .

(٤) سورة طه الآية ٢١ .

(٥) سورة القصص الآية ٣٢ .

وقال في سورة النمل : ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ في تسع آياتٍ إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[١] أي هاتان الآيتان وهما : العصا واليد ، هما البرهانان المشار إليهما في قوله : ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[٢] . ومع ذلك سبع آيات أُخر . فذلك تسع آياتٍ بينات وهي المذكورة في آخر سورة سبحان ، حيث يقول تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بيِّنات ، فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾[٣] .

وهي المبسوطة في سورة الأعراف في قوله : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكّرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تُصِبْهم سيئة يطَّيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آيةٍ لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمَّل والضفادع والدم آياتٍ مفصَّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾[٤] .

وهذه التسع الآيات غير العشر الكلمات ؛ فإن التسع من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشَّرعية ، وإنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظن أن هذه هي هذه ، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة بني اسرائيل[٥] .

* * *

والمقصود أن الله سبحانه لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون * وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رِدْءاً يصدقني ، إني أخاف أن يكذبون * قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سُلطاناً فلا يصلون إليكما ، بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالِبون ﴾[٦] .

---

(١) سورة النمل الآية ١٢ .

(٢) سورة القصص الآية ٣٢ .

(٣) سورة الإسراء الآيتان ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٤) سورة الأعراف الآيات ١٣٠ ـ ١٣٣ .

(٥) سورة الإسراء .

(٦) سورة القصص الآيات ٣٣ ـ ٣٥ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام ، في جوابه لربه عز وجل حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي ولهذا قال : ﴿ **قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون * وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون** ﴾ أي اجعله معي معيناً ورِدْءاً ووزيراً يساعدني ، ويعينني على أداء رسالتك إليهم فإنه أفصح مني لساناً وأبلغ بياناً .

قال الله تعالى مجيباً إلى سؤاله : ﴿ **سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً** ﴾ أي برهاناً ﴿ **فلا يصلون إليكما** ﴾ أي فلا ينالون منكما مكروهاً بسبب قيامكما بآياتنا ، وقيل ببركة آياتنا ﴿ **أنتما ومن اتبعكما الغالبون** ﴾ .

وقال في سورة طه : ﴿ **اذهب إلى فرعون أنه طغى * قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدةً من لساني * يفقهوا قولي** ﴾(١) . قيل إنه أصابه في لسانه لثغة ، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه ، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله ، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله ، فخافت عليه آسية وقالت : إنه طفل ، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه . فهمَّ بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة ، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها . فسأل زوالَ بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ، ولم يسأل زوالها بالكلية .

قال الحسن البصري : والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت في لسانه بقية .

ولهذا قال فرعون ، قبحه الله ، فيما زعم أنه يعيب به الكليم : ﴿ **ولا يكادُ يبين** ﴾(٢) أي يفصح عن مراده ، ويعبر عما في ضميره وفؤاده .

ثم قال موسى عليه السلام :

﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري * كي نُسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً * قال قد أُوتيت سؤلك يا موسى** ﴾(٣) .

---

(١) سورة طه الآيات ٢٤ ـ ٢٨ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٢ .

(٣) سورة طه الآيات ٢٩ ـ ٣٦ .

أي قد أجبناك إلى جميع ما سألت ، وأعطيناك الذي طلبت . وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل ، حين شفع أن يوحي الله إلى أخيه فأوحى إليه . وهذا جاه عظيم ، قال الله تعالى : ﴿ **وكان عند الله وجيهاً** ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً** ﴾(٢) .

وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول لأناس وهم سائرون في طريق الحج : أيّ أخٍ أمَن على أخيه ؟ فسكت القوم ، فقالت عائشة لمن حول هَوْدجها : هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأوحى إليه . قال الله تعالى :﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً** ﴾ .

* * *

وقال تعالى في سورة الشعراء :

﴿ **وإذ نادى ربك موسى أن ائتِ القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون * قال ربِّ إني أخاف أن يكذبونِ * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون * ولهم عليَّ ذنبٌ فأخاف أن يقتلونِ * قال كلاَّ فاذهبا بآياتنا إنا معكم مُستمعون * فأتيا فرعون فقولا إنا رسول ربِّ العالمين * أن أرسل معنا بني إسرائيل * قال ألم نُربِّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين *** ﴾(٣) .

تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك وبلغاه ما أُرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن يفك أسارى بني إسرائيل من قبضته وقهره وسَطوته ، ويتركهم يعبدون ربهم حيث شاؤوا ويتفرغون لتوحيده ودعائه والتضرع لديه .

فتكبَّر فرعون فى نفسه وعتا وطغى ، ونظر الى موسى بعين الازدراء والتنقص قائلاً له : ﴿ **ألم نربِّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين** ﴾(٤) أي أما أنت الذي ربيّناه في منزلنا ؟ وأحسنَّا إليه وانعمنا عليه مدة من الدهر ؟

وهذا يدل على أن فرعون الذي بُعث إليه هو الذي فرَّ منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب : من أن فرعون الذي فرَّ منه مات في مدة مقامه بمدْيَن ، وأن الذي بُعث إليه فرعون آخر .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٩ .

(٢) سورية مريم الآية ٥٣ .

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٠ ـ ١٩ .

(٤) سورة الشعراء الآية ١٨ .

وقوله : ﴿ **وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين** ﴾[1] أي وقتلت الرجل القبطي ، وفررت منا وجحدت نعمتنا .

﴿ **قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين** ﴾[2] أي قبل أن يوحىَ إليَّ وينزل عليَّ ، ﴿**ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين**﴾[3] .

ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه : ﴿ **وتلك نعمةٌ تمنّها عليَّ أن عبَّدت بني إسرائيل** ﴾[4] . أي وهذه النعمة التي ذكرت ؛ من أنك أحسنت إليَّ وأنا رجلٌ واحد من بني اسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله ، واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك وأشغالك .

﴿ **قال فرعون وما ربُّ العالمين * قال ربُّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم وربُّ آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنونٌ * قال ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾[5] .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى من المقاولة والمحاجَّة والمناظَرة ، وما أقامه الكليمُ على فرعون اللئيم ؛ من الحجة العقلية المعنوية ثم الحسية .

وذلك أن فرعون ـ قبحه الله ـ أظهر جحد الصانع تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله ﴿ **فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى** ﴾[6] ﴿ **وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري** ﴾[7] .

وهو في هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق البارىء المصور ، الإله الحق كما قال تعالى : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظُلماً وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾[8] .

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٩ .
(٢) سورة الشعراء الآية ٢٠ .
(٣) سورة الشعراء الآية ٢١ .
(٤) سورة الشعراء الآية ٢٢ .
(٥) سورة الشعراء الآيات ٢٣ ـ ٢٨ .
(٦) سورة النازعات الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .
(٧) سورة القصص الآية ٣٨ .
(٨) سورة النمل الآية ١٤ .

ولهذا قال لموسى عليه السلام على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنه ما ثم ربٌّ أرسَله : ﴿ وما رب العالمين ﴾[1] لأنهما قالا له : ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ [2] فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين ؟ الذي تزعمان أنَّه أرسلكما وابتعثكما ؟

فأجابه موسى قائلاً : ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾[3] يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهَدة وما بينهما من المخلوقات المتعددة ، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تُحْدث بأنفسها ، ولا بد لها من موجِد ومحِدث وخالق وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين .

﴿قال ﴾ أي فرعون ﴿ لمن حوله ﴾ من أمرائه ومرَازبته ووزرائه ، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام : ﴿ ألا تستمعون ﴾ [4] يعني كلامه هذا .

﴿ قال ﴾ موسى مخاطباً له ولهم : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ [5] أي هو الذي خلقكم والذين من قبلكم ، من الآباء والأجداد ، والقرون السالفة في الآباد ؛ فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ، ولا أبوه ولا أمه ، ولا يحدث من غير محدث ، وإنما أوجدَه وخلقه ربُّ العالمين

وهذان المقامان هما المذكوران في قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[6] .

ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رَقْدته ، ولا نزع من ضلالته ، بل آستمر على طغيانه وعناده وكفرانه : ﴿ قال إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ، إن كنتم تعقلون﴾[7]. أي هو المسخِّر لهذه الكواكب الزاهرة المسير للأفلاك الدائرة ، خالق الظلام والضياء ، ورب الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون ، وفي فلك يَسْبحون ، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون . فهو تعالى الخالق المالك المتصرف في خلقه بما يشاء .

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢٣ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٦ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٤ .

(٤) سورة الشعراء الآية ٢٥ .

(٥) سورة الشعراء الآية ٢٦ .

(٦) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٧) سورة الشعراء الآيتان ٢٧ ـ ٢٨

فلما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهته ، ولم يبق له قول سوى العناد ، عَدَل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطْوته ﴿ **قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين * قال أوَلَوْ جئتك بشيء مبين * قال فأْتِ به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين** ﴾(١) .

وهذان هما البرهانان اللذان أيدّه الله بهما ، وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم ، الذي بهرَ به العقول والأبصار ، حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، أي عظيم الشكل ، بديع في الضخامة والهول ، والمنظر العظيم الفظيع الباهر ، حتى قيل : إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه ، أخذه رهب شديد وخوف عظيم(٢) ، بحيث إنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة في يوم ، وكان قبل ذلك لا يتبرز في كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة(٣) ، فانعكس عليه الحال .

وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده في جيبه واستخرجها ، أخرجها وهي كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى .

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون ـ لعنه الله ـ بشيء من ذلك ، بل استمر على ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سِحر ، وأراد معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته ، وتحت قهره ودولته ، كما سيأتي بسطه وبيانه في موضعه ، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه ، وأهل دولته وملته . ولله الحمد والمنة .

* * *

وقال تعالى في سورة طه :

﴿ **فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدرٍ يا موسى * واصطنعتك لنفسي * آذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري * آذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى * قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾(٤) .

(١) سورة الشعراء الآيات ٢٩ -٣٣ .

(٢) ارتجف من شدة فزعه .

(٣) هذا لا يعقل طبياً لأنه إن زاد الإمساك عن بضعة أيام هلك الإنسان متسمماً بالسموم التي يحملها برازه وفسد دمه وكذلك الإسهال لو استمر أكثر من أيام قليلة هلك لنقص السوائل .

(٤) سورة طه الآيات ٤٠ ـ ٤٦ .

يقول تعالى مخاطباً لموسى فيما كلَّمه به ليلةَ أوحي إليه ، وأنعم بالنبوة عليه ، وكلمه منه إليه : قد كنتُ مشاهداً لك وأنت في دار فرعون ، وأنت تحت كنفي وحفظي ولطفي ، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مَدْين بمشيئتي وقدرتي وتدبيري ، فلبثت فيها سنين ﴿ ثم جئت على قدرٍ ﴾ أي مني لذلك ، فيرافق ذلك تقديري وتسييري ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ أي أصطفيتك لنفسي برسالتي وبكلامي .

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ﴾[1]، يعني ولا تفترا في ذكري إذا قدمتما عليه ووفدتما إليه ؛ فإن ذلك عونٌ لكما على مخاطبته ومجاوبته ، وأداء النصيحة إليه وإقامة الحجة عليه .

وقد جاء في بعض الأحاديث: يقول الله تعالى : « إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قِرْنه » وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾[2] .

ثم قال تعالى : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾[3]

وهذا من حلمه تعالى وكرمه ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره ، وهو إذ ذاك أردأ خلقه ، وقد بَعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما أن يدعواه إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ، ويعاملاه بألطف معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى .

كما قال لرسوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾[5] . قال الحسن البصري : ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ أعْذرا إليه ، قولا له : إنَّ لك رباً ولنا مَعاداً ، وإن بين يديك جنة وناراً .

وقال وهب بن منبه : قولا له : إني إلى العفو والمغفرة أقرب مني إلى الغضب والعقوبة . قال يزيد الرَّقاشي عند هذه الآية : يا من يتحبَّب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟!

﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾[6] ، وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً

(١) سورة طه الآية ٤٢ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٤٥ .
(٣) سورة طه الآيتان ٤٣ ـ ٤٤ .
(٤) سورة النحل الآية ١٢٥ .
(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .
(٦) سورة طه الآية ٤٥ .

وشيطاناً مَريداً ، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود ، وعساكر وسطوة ، فهاباه من حيث البشرية ، وخافا أن يسطو عليهما في بادىء الأمر ، فثبتهما تعالى وهو العلي الأعلى فقال : ﴿ **لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾[1] ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ **إنا معكم مستمعون** ﴾[2] .

﴿ **فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى * إنا قد أُوحي إلينا أن العذاب على من كذَّب وتولَّى** ﴾[3] .

يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون فيدعواه الى الله تعالى ، أن يعبده وحده لا شريك له وأن يرسل معهما بني إسرائيل ويُطْلقهم من أسْره وقهره ولا يعذِّبهم ، ﴿ **قد جئناك بآيةٍ من ربك** ﴾وهو البرهان العظيم في العصا واليد ،﴿ **والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ تقييد مفيد بليغٌ عظيم ، ثم تهدداه وتوعداه على التكذيب فقالا : ﴿ **إنا قد أُوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولَّى** ﴾ أي كذب بالحق بقلبه ، وتولَّى عن العمل بقالبه .

وقد ذكر السُّدي وغيره : أنه لما قِدم من بلاد مَدْين ، دخل على أمه وأخيه هارون ، وهما يتعشيان من طعام فيه « الطفشيل » ، وهو اللفت ، فأكل معهما ، ثم قال : يا هارون ، إن الله أمرني وأمرك أن ندعوَ فرعون إلى عبادته ، فقم معي . فقاما يقصدان بابَ فرعون فإذا هو مغلق . فقال موسى للبوابين والحجبَة : أعْلموه أن رسول الله بالباب . فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به . وقد زعم بعضهم أنه لم يؤذَن لهما عليه إلا بعد حين طويل .

وقال محمد بن إسحاق: أذن لهما بعد سنتين ، لأنه لم يكن أحد يتجاسَر على الاستئذان لهما . فالله أعلم ، ويقال إن موسى تقدم الى الباب فطرقه بعصاه ، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما ، فوقفا بين يديه فدعواه إلى الله عز وجل كما أمرهما .

وعند أهل الكتاب : إن الله قال لموسى عليه السلام : إن هارون اللاوي ـ يعني الذي من نسل لاوي بن يعقوب ـ سيخرج ويتلقاك وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل إلى عند فرعون ، وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات وقال له : إني سأُقسي قلبه فلا يُرسْل الشَّعب[4] . وأُكثر آياتي وأعاجيبي بأرض مصر . وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرِّية عند جبل

---

(١) سورة طه الآية ٤٦ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٥ .

(٣) سورة طه الآيتان ٤٧ ـ ٤٨ .

(٤) سفر الخروج الفصل الرابع العدد ٢٢ والفصل السابع العدد ٤ .

حوريب ، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه . فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل وذهبا إلى فرعون ، فلما بلّغاه رسالة الله قال : من هو الله لا أعرفه ولا أُرسل بني إسرائيل .

* * *

وقال الله مُخبراً عن فرعون : ﴿ **قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بالُ القرونِ الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب ، لا يَضِل ربي ولا ينسى * الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سُبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتّى * كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآياتٍ لأولي النهى * منها خلقناكم وفيها نُعيدكم ومنها نُخرجكم تارةً أخرى** ﴾(١) .

ويقول تعالى مخبراً عن فرعون : إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلاً : ﴿ **فمن ربكما يا موسى *قال ربنا الذي أعطى كل شيءٍ خلقه ثم هدى** ﴾(٢) أي هو الذي خلق الخلق وقدَّر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً ، وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ ، ثم هدَى كل مخلوق إلى ما قدَّره له ، فطابَق عمله فيهم ، الوجه الذي قدَّره وعلمه ، لكمال علْمه ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى** ﴾(٣) . أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه .

﴿ **قال فما بال القرون الأولى** ﴾(٤) يقول فرعون لموسى : فإذا كان ربك هو الخالق المقدِّر الهادِي الخلائق لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه ، فَلِمَ عَبد الأولون غيره ؟ وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت ؟ فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى ؟ ﴿ **قال علمها عند ربي في كتابٍ لا يضل ربي ولا ينسى** ﴾(٥) أي هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك ، ولا يدل على خلاف ما أقول، لأنهم جهلة مثلك ، وكل شيء فعلوه مُسْتطر عليهم في الزُّبر ، من صغير وكبير ، وسيجزيهم على ذلك ربي عز وجل ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرة ، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده في كتاب لا يضل عنه شيء ولا ينسى ربي شيئاً .

---

(١) سورة طه الآيات ٤٩ ـ ٥٥ .

(٢) سورة طه الآيتان ٤٩ ـ ٥٠ .

(٣) سورة الأعلى الآيتان ١ ـ ٢ .

(٤) سورة طه الآية ٥١ .

(٥) سورة طه الآية ٥٢ .

ذكـر له عـظمـة الـرب وقـدرتـه عـلى خلق الأشيـاء ، وجَعْله الأرض مهـاداً ، والسماء سقفـاً محفـوظاً ، وتسخيـره السحابَ والأمـطار لرزق العبـاد ودوابهم وأنعامهم ، كـما قال : ﴿ **كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآياتٍ لأولي النهى** ﴾[1] أي لذوي العقـول الصحيحـة المستقيمـة ، والفـطر القويمة غير السقيمة ، فهو تعالى الخالق الرازق ، وكما قال تعالى :

﴿ **يـا أيها النـاس اعبدوا ربكم الـذي خلقكم والذين من قبلكم لعلك تتقـون * الذي جعـل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فـأخـرج بـه من الثمـرات رزقـاً لكم فـلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾[2] .

ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر ، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبَّه به عـلى المعاد فقـال : ﴿ **منها** ﴾ أي من الأرض ﴿ **خلقنـاكم وفيها نعيـدكم ومنها نخـرجكم تارة أخـرى** ﴾ كـما قـال تعـالى : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده ، وهـو أهون عليـه ، وله المثـل الأعلى في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم** ﴾[4] .

ثم قـال تعالى : ﴿ **ولقـد أريناه آيـاتنا كلهـا فكذب وأبى * قـال أجئتنـا لتخـرجنـا من أرضنـا بسحـرك يا مـوسى * فلنأتينـك بسحرٍ مثله ، فـاجعل بيننـا وبينك مـوْعـداً لا نخلفـه نحن ولا أنت مكاناً سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضُحى** ﴾[5] .

يخبـر تعالى عن شقـاء فرعـون وكثرة جهله وقلة عقله ؛ في تكـذيبه بـآيـات الله واستكبـاره عن اتباعها ، وقوله لموسى : إن هذا الـذي جئت به سحـر ، ونحن نعارضـك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وَقت معلوم ومكان معلوم .

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام : أن يـظهر آيـات الله وحججه وبـراهينه جهـرة بحضرة الناس . ولهذا ﴿ **قال موعدكم يوم الزينة** ﴾ وكان يـوم عيد من أعيـادهم ومجتمع لهم ﴿ **وأن يحشر الناس ضحىً** ﴾[6] أي من أول النهـار في وقت اشتـداد ضيـاء الشمس ، فيكــون الحق أظهـرَ وأجـلى ، ولم يطلب أن يكـون ذلك ليـلاً في ظلام ؛ كيـما يروِّج عليهم مُحـالاً وباطـلاً ، بـل طلب أن يكـون نهاراً جَهرة ؛ لأنـه على بصيـرة من ربه ، ويقـين بأن الله سيُظهر كلمتـه ودينـه ، وإن رَغمت أنوف القبط !

---

(١) سورة طه الآية ٥٤ .

(٢) سورة البقرة الآيتان ٢١ ـ ٢٢ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٩ .

(٤) سورة الروم الآية ٢٧ .

(٥) سورة طه الآيات ٥٦ ـ ٥٩ .

(٦) سورة طه الآية ٥٩ .

قال الله تعالى :

﴿ فتولَّى فرعون فجمع كيده ثم أتى * قال لهم موسى وَيْلكم لا تفتروا على الله كذباً فيُسحِتَكُم بعذابٍ ، وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوَى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحْرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم أئتوا صفاً ، وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾[1] .

يخبر تعالى عن فرعونه أنه ذهب فجمع من كان في بلاده من السحَرَة ، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحَرَة فضلاء ، في فنهم غاية ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان ، فاجتمع منهم خلق كثير وجمٌّ غفير ، فقيل : كانوا ثمانين ألفاً ـ قاله محمد بن كعب . وقيل : سبعين ألفاً قاله القاسم بن أبي بُرْدة ، وقال السُّدي : بضعة وثلاثين ألفاً[2] ، وعن أبي أُمامة تسعة عشر ألفاً ، وقال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفاً . وقال كعْب الأحبار : كانوا اثني عشر ألفاً .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : كانوا سبعين رجلاً ، وروي عنه أيضاً أنهم كانوا أربعين غلاماً من بني إسرائيل ؛ أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر . ولهذا قالوا : ﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾[3] وفي هذا نظر .

وحضر فرعون وامراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بَكْرة أبيهم . وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون : ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾[4] .

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم ، وزجَرَهم عن تعاطي السحر الباطل ، الذي فيه معارضة لآياتِ الله وحججه فقال :﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيُسحتكم بعذابٍ وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾[5] .

قيل : معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم ، فقائل يقول : هذا كلام نبي وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر : فالله أعلم . ﴿ وأسروا النجوى ﴾ بهذا وغيره .

﴿ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ﴾ ويقولون : إن هذا

(١) سورة طه الآيات ٦٠ ـ ٦٤ .

(٢) في بعض النسخ : بضعة وأربعين ألفاً .

(٣) سورة طه الآية ٧٣ .

(٤) سورة الشعراء الآية ٤٠ .

(٥) سورة طه الآيتان ٦١ ـ ٦٢ .

وأخاه هارون ، ساحران عليمان مُطْبقان مُتقنان لهذه الصناعة ، ومرادهما أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته ، ويستأصلاكم عن آخركم ، ويستأمرهما عليكم بهذه الصناعة .

﴿ **فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾[1] وإنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا ويتواصوا ، ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان .

وهيهات ! كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ؛ أنّى يعارِض البهتان ، والسحر والهذيان خوارق العادات التي أجراها الديان ، على يدَيْ عبده الكلِيم ، ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذي يبهر الأبصار وتحار فيه العقول والأذهان !

وقوله : ﴿ **فاجمعوا كيدكم** ﴾ أي جميع ما عندكم ﴿ **ثم ائتوا صفاً** ﴾ أي جملة واحدة ، ثم حضوا بعضُهم بعضاً على التقدم في هذا المقام ؛ لأن فرعون كان قد وعدهم ومنّاهم ، وما يَعِدْهم الشيطانُ إلا غروراً .

﴿ **قالوا يا موسى إما أن تُلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا ، فإذا حِبالهم وعِصيهم يُخَيَّلُ إليه من سِحْرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفةً موسى * قلنا لا تخَفْ إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ [2] .

لما اصطفَّ السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له : إما أن تُلقي قبلنا ، وإما أن نلقي قبلك .﴿ **قال بل ألقوا** ﴾ أنتم ، وكانوا قد عَمدوا إلى حبال وعصي ،فأودعوها الزئبق وغيره ؛ من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سَحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون : ﴿ **بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾[3]

قال الله تعالى : ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيمٍ** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **فإذا حِبالهم وعصيّهم يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفةً موسى** ﴾[5] أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومَحالهم ، قبل أن يلقي ما في يده ، فإنه لا يصنع شيئاً قبل أن يؤمر فأوحى الله إليه في الساعة الراهنة ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى * وألقِ ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾[6] فعند

---

(١) سورة طه الآية ٦٤ .

(٢) سورة طه الآيات ٦٥ ـ ٦٩ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٤٤ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١١٦ .

(٥) سورة طه الآيتان ٦٦ ـ ٦٧ .

(٦) سورة طه الآيتان ٦٨ ـ ٦٩ .

ذلك ألقى موسى عصاه وقال : ﴿ ما جئتم به السحرُ ، إن الله سيُبْطله ، إن الله لا يُصْلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألقِ عصاك فإذا هي تلقفُ ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾(٢) .

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها ، صارت حية عظيمة ذات قوائم ، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف ، وعنق عظيم وشكل هائلٍ مزعج ؛ بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعاً ، وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي ، فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها ، وأما السَّحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيَّرهم في أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن في خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعاتهم وأشغالهم ، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ولا مُحال ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال ؛ بل حق لا يقدر عليه إلا الحق ، الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق . وكشَف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدي وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم وخرُّوا له ساجدين ، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى : ﴿ آمنا برب هارون وموسى ﴾ .

كما قال تعالى :

﴿ فألقي السحرة سُجداً قالوا آمنا بربِّ هارون وموسى * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمنَّ أيَّنا أشدُّ عذاباً وأبقى * قالوا لن نُؤثرك على ما جاءنا من البيناتِ والذي فطرنا فاْقض ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا * إنَّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خيرٌ وأبقىٰ * إنه من يأت ربه مجرماً فإنَّ له جهنَّم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * جنات عدنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾(٣) .

وقال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبي بـرْدة والأوزاعي وغيرهم : لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تهيَّأُ لهم ، وتزخرف لقدومهم ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده .

---

(١) سورة يونس الآيتان ٨١ ـ ٨٢ .

(٢) سورة الأعراف الآيات ١١٧ ـ ١٢٢ .

(٣) سورة طه الآيات ٧٠ ـ ٧٦ .

وذلك لأن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا ذكر موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة ، أفزعه ذلك ، ورأى أمراً بهره ، وأعمى بصيرته وبصره ، وكان فيه كد ومكر وخداع ، وصنعة بليغة في الصَّد عن سبيل الله ، فقال مخاطباً للسحرة بحضرة الناس : ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾(١) أي هلاَّ شاورتموني فيما صَنعتم ، من الأمر الفظيع بحضرة رعيتي ؟! ثم تهدَّد وتوعد وأبرق وأرعد ، وكذَّب فأبعدَ قائلاً : ﴿ إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر﴾(١) ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾(٢) .

وهذا الذي قاله من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان ، بل لا يَرُوج مثله على الصِّبيان ؛ فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يَره هؤلاء يوماً من الدهر ؛ فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر ؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم ، واجتباهم(٣) من كل فج عميق ، ووادٍ سحيق ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف .

قال الله تعالى في سورة الأعراف :

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فأنظر كيف كان عاقبة المفسدين * وقال موسى يا فرعون إني رسولٌ من ربِّ العالمين * حقيقٌ عليَّ أن لا أقول على الله إلاَّ الحق قد جئتكم ببينةٍ من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل * قال إن كنت جئت بآيةٍ فأْتِ بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مُبينٌ * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحرٌ عليمٌ * يُريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون * قالوا أَرْجِهْ وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين * يأتوك بكلِّ ساحرٍ عليمٍ * وجاء السحرة فرعون قالوا إنَّ لنا لأجراً إن كُنَّا نحن الغالبين * قال نعم وإنَّكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إمَّا أن تُلقي وإمَّا أن نكون نحن المُلقين * قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس وآسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيمٍ * وأوحينا إلى موسىٰ أن ألقِ عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغُلبوا هنالك وآنقلبوا صاغرين * وأُلقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا بربِّ العالمين * ربِّ موسى وهارون * قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكرٌ مكرتموهُ في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأُقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ثم لأُصلبنكم أجمعين * قالوا إنَّا إلى ربنا مُنقلبون * وما تنقم منَّا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغْ علينا صبراً وتوفَّنا مسلمين ﴾(٤) .

---

(١) سورة طه الآية ٧١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٢٣ .

(٣) طلب منهم الحضور .

(٤) سورة الأعراف الآيات ١٠٣ ـ ١٢٦

وقال تعالى في سورة يونس :

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فآستكبروا وكانوا قوماً مُجرمين * فلمَّا جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحرٌ مبينٌ * قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحرٌ هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين * وقال فرعون آئتوني بكل ساحرٍ عليمٍ * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلقون * فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إنَّ آلله سيبطله إنَّ آلله لا يُصلح عمل المفسدين * ويحق آلله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾[1] .

وقال تعالى في سورة الشعراء :

﴿ قال لئن آتخذت إلَهاً غيري لأجعلنك من المسجونين * قال أَوَ لو جئتك بشيءٍ مبينٍ * قال فأْتِ به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * قال للملإ حوله إن هذا لساحرٌ عليمٌ * يُريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا أرْجِهْ وأخاه وآبعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحارٍ عليمٍ * فجمع السحرة لميقاتِ يومٍ معلومٍ * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلَّنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أإن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين * قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزةِ فرعون إنَّا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون * فألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا بربِّ العالمين * رب موسى وهارون * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علَّمكم السحر فلسوف تعلمون لأُقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكم أجمعين * قالوا لا ضير إنَّا إلى ربنا منقلبون * إنَّا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كُنَّا أوَّل المؤمنين ﴾[2] .

والمقصود أن فرعون كذَّب وافترى وكفر غاية الكفر في قوله : ﴿ إنه لكبيركم الذي علَّمكم السحر ﴾[3] وأتى ببهتان يعلمه العالِمون بل العالَمون في قوله : ﴿ إن هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلَها فسوف تعلمون ﴾[4] ، وقوله : ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ يعني بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى وعكسه ، ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾[5] أي ليجعلنكم مُثلةً ونكالاً لئلا يقتدي بهم أحد من رعيته وأهل ملته . ولهذا قال : ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾[6] أي على جذوع النخل، لأنها أعلى وأشهر ﴿ ولتعلمُن أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى ﴾[6] يعني في الدنيا .

---

(١) سورة يونس الآيات ٧٥ ـ ٨٢ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٢٩ ـ ٥١ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٤٨ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٢٣ .

(٥) سورة الشعراء الآية ٥٠

(٦) سورة طه الآية ٧١ .

قـالوا ﴿ **لن نؤثـركم على مـا جاءنـا من البينات** ﴾ أي لن نـطيعك ونتـرك ما وقـر في قلوبنا من البينـات والدلائـل القاطعـات ﴿ **والذي فـطرنا** ﴾ . قيـل معـطوف ، وقيـل قسم ﴿ **فاقض ما أنت قاضٍ** ﴾ أي فأفعـل ما قَـدرت عليه ﴿ **إنما تقضي هذه الحياة الدنيا** ﴾(١) أي إنما حُكمـك علينا في هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنامنها إلى الدار الآخـرة صرنـا إلى حُكم الذي أسْلمنـا له واتبعنا رُسله ﴿ **إنا آمنا بربنا ليغفـر لنا خـطايانـا وما أكـرهتنا عليـه من السحر ، والله خـيرٌ وأبقى** ﴾(٢) أي ثوابـه خير مما وعدتنا بـه من التقريب والتـرغيب . ﴿ **وأبقى** ﴾ أي وأدْوم من هذه الـدار الفانيـة . وفي الآية الأخرى : ﴿ **قالوا لا ضير إنا إلى ربنا مُنقلبـون * إنا نـطمع أن يغفـر لنا ربُّـنا خطايـانا** ﴾(٣) أي مـا اجتـرمناه من المـآثم والمحـارم ﴿ **أن كنـا أول المؤمنـين** ﴾(٣) أي من القبط ، بمـوسى وهـارون عليهـما السلام .

وقـالوا لـه أيضاً : ﴿ **ومـا تنقم منا إلا أن آمنـا بآيـات ربنا لـما جاءتنـا** ﴾ أي ليس لنا عنـدك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسـولنا ، واتبـاعنا آيـات ربنا لـما جاءتنـا ﴿ **ربنا أفـرغ علينا صَبـراً** ﴾ أي ثبتنـا على مـا ابتلينا بـه من عقوبـة هذا الجبـار العنيد ، والسلطان الشـديـد ، بـل الشيـطان المـريـد ﴿ **وتوفنا مُسْلمين** ﴾ .

وقالوا أيضاً يَعظونه ويخوفـونه بـأس ربه العـظيم : ﴿ **إنه من يأت ربه مجرماً فإن لـه جهنم لا يموت فيهـا ولا يحيا** ﴾ يقولون له : فإياك أن تكون منهم . فكـان منهم . ﴿ **ومن يـأته مؤمنـاً قد عمل الصالحات فـأولئك لهم الـدرجات العـلى** ﴾ أي المنازل العـاليـة : ﴿ **جنات عـدنٍ تجري من تحتهـا الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى** ﴾ فـاحرص أن تكـون منهم ، فحالت بينـه وبين ذلـك الأقدار التي لا تغالب ولا تمـانع ، وحكم العـلي العظيم بـأن فرعـون ـ لعنه الله ـ من أهـل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ، يصب من فوق رأسه الحميمُ . ويقال له عـلى وجه التقـريع والتـوبيخ ، وهـو المقبوح المنبوح والذميم اللئيم : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ .

والـظاهر من هـذه السياقـات أن فرعـون ـ لعنـه الله ـ صلّبهم وعـذّبهم رضي الله عنهم . قـال عبد الله بن عباس وعُبَيد بن عُمَير : كانوا من أول النهار سَحرة ، فصاروا من آخره شُهداء بررة !

ويؤيد هذا قولهم : ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾ .

---

(١) سورة طه الآية ٧٢ .

(٢) سورة طه الآية ٧٣ .

(٣) سورة الشعراء الآيتان ٥٠ ، ٥١ .

فصــل

ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغَلَب الذي غُلبته القبط في ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم ، لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً وبُعداً عن الحق .

قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف :

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنّا فوقهم قاهرون * قال موسى لقومه آستعينوا بالله وآصبروا إنَّ الأرض للهِ يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أُوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسىٰ ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[1] .

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون ، وهم الأمراء والكبراء ، أنهم حرَّضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به ، بالكفر والرد والأذى .

قالوا : **﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ﴾** يعنون ـ قبحهم الله ـ أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن عبادة ما سواه ، فَسادٌ بالنسبة إلى اعتقاد القبط ، لعنهم الله . وقرأ بعضهم : « ويذرك وإلهتك » أي وعبادتك . ويحتمل شيئين : أحدهما ويذر دينك ، وتقوِّيه القراءة الأخرى . والثاني : ويذَر أن يعبدك ؛ فإنه كان يزعم أنه إله لعنه الله[2] .

﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم ﴾ أي لئلا يكثر مقاتلتهم **﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾** أي غالبون .

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ أي إذا هموا بأذيتكم والفتك بكم ، فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم **﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾** أي فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة ، كما قال في الآية الأخرى : **﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم**

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٢٧ ـ ١٢٩ .

(٢) كان الفراعنة يعبدون عدداً من الآلهة وكبير هذه الآلهة هو « رع » إله الشمس وأنهم أي الفراعنة أبناء « رع » فهم بهذا آلهة اخر .

امنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾[1] .

وقولهم : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾[2] أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ، ﴿ قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[2] .

وقال الله تعالى في سورة حَم المؤمن : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبينٍ * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحرٌ كذابٌ ﴾[3] .

وكان فرعون الملك ، وهامان الوزير ، وكان قارون اسرائيلياً من قوم موسى ، إلا أنه كان على دين فرعون وملئه ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى .

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا أقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلالٍ ﴾[4] . وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال ، والتقليل لملأ بني اسرائيل ؛ لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ، ويَصُولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يردَّ عنهم قدَر الذي يقول للشيء كن فيكون .

﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يُبدل دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد ﴾[5] . ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم : صار فرعونُ مذكِّراً ، وهذا منه ، فإن فرعون في زعمه خاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام !

﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾[6] أي عذت بالله ولجأت إليه واستَجْرتُ بجنابه ، من أن يسطو فرعون وغيره عليَّ بسوء . وقوله ﴿ من كل متكبر ﴾ أي جبار عنيد لا يرعوي ولا ينتهي ، ولا يخاف عذابَ الله وعقابه ، لأنه لا يعتقد مَعاداً ولا جزاء ، ولهذا قال : ﴿ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ .

* * *

---

(١) سورة يونس الآيات ٨٤ ـ ٨٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٢٩ .

(٣) سورة غافر الآيتان ٢٣ ـ ٢٤ .

(٤) سورة غافر الآية ٢٥ .

(٥) سورة غافر الآية ٢٦ .

(٦) سورة غافر الآية ٢٧ .

﴿ وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يكُ كاذباً فعليه كذبه وإن يكُ صادقاً يُصبكم بعض الذي يعدكم إن آلله لا يهدي من هو مُسرفٌ كذابٌ * يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس آلله إن جاءنا قال فرعون ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾(١) .

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون ، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه ، وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيلياً ، وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

قال ابن جُرَيج قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا ، والذي جاء من أقصى المدينة ، وامرأة فرعون . رواه ابن أبي حاتم .

وقال الدارقطني : لا يعرف من اسمه شمعان - بالشين المعجمة - إلا مؤمن آل فرعون . حكاه السُّهيلي .

وفي تاريخ الطَّبراني : أن اسمه « خير » فالله أعلم(٢) .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه ، فلما هم فرعون - لعنه الله - بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه ، خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطَّف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأي .

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضَل الجهاد كلمة عَدْل عند سلطانٍ جائر » وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لا أشدَّ جَوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ! لأن فيه عصمة نبي ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه ، وصرح لهم بما كان يكتمه ، والأول أظهر ، والله أعلم .

قال : **﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾** أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابَل بهذا ، بل بالإكرام والاحترام أو الموادعَة وترك الانتقام .

يعني لأنه **﴿ قد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾** أي بالخوارق التي دلَّت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة ، لأنه **﴿ إن يك كاذباً فعليه كذبه ﴾** ولا يضركم ذلك . **﴿ وإن يك صادقاً ﴾** وقد تعرَّضتم له **﴿ يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾** ، أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ؛ فكيف بكم إن حلَّ جميعه عليكم ؟ وهذا الكلام في هذا

---

(١) سورة غافر الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) هذه الأسماء العربية التي توضع للفراعنة المرجح أنها موضوعة لأن الفراعنة لم يتسموا إلا بأسماء فرعونية وقد يجوز أيضاً أن يكون المنقول هو معنى الاسم بالعربية لا الاسم نفسه .

المقام ، من أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام .

وقـوله : ﴿ يـا قوم لكم الملك اليـوم ظاهـرين في الأرض فمن ينصرنـا ﴾ يحـذرهم أن يُسلبـوا هذا المُلكَ العزيز ؛ فإنه ما تعرضت الدولُ للدِّين إلا سُلبوا ملكهم وذُلّوا بعد عِزّهم !

وكذا وقع لآل فرعون ؛ ما زالوا في شـك وريب ، ومخالفـة ومعانـدة لما جـاءهم موسى بـه حتى أخرجهم الله مما كانوا من الملك والأملاك والدُّور والقصـور ، والنعمة والحُبـور ، ثم حوّلـوا إلى البحر مُهَانِين ، ونُقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين .

ولهـذا قال هـذا الرجـل المؤمن المصدِّق ، البـار الراشـد ، التابـع للحق ، النـاصـح لقـومـه ، الكـامل العقـل : ﴿ يا قـوم لكم الملك اليوم ظـاهرين في الأرض ﴾ أي عـالين عـلى الناس حـاكمين عليهم ، ﴿ فمن ينصـرنـا من بـأس الله إن جـاءنـا ﴾ أي لـو كنتم أضعـاف مـا أنتم فيــه من العـدد والعدة والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ، ولا ردَّ عنا بأسَ مالك الممالك .

﴿ قال فرعـون ﴾ أي في جواب هـذا كله ﴿ ما أُريكم إلا مـا أرى ﴾ أي ما أقـول لكم إلا ما عندي ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

وكذب في كـلٍّ من هذين القـولين وهـاتين المقـدمتين ؛ فـإنـه قـد كـان يتحقق في بـاطنـه وفي نفسه ، أن هذا الذي جاء بـه موسى من عنـد الله لا محالـة ، وإنما كان يُـظهر خـلافه بَغْياً وَعدوانـاً ، وعتواً وكفراناً .

قـال الله تعـالى إخبـاراً عن مـوسى : ﴿ قـال لقـد علمت مـا أنـزل هؤلاء إلا رب السمـاوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثْبـوراً * فأراد أن يستفـزَّهم من الأرض فأغـرقناه ومن معـه جميعاً * وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾[1] .

﴿ فلما جـاءتهم آياتنـا مبصرةً قـالوا هـذا سحرٌ مبـين * وجحدوا بهـا وآستيقنتهـا أنفسهم ظلماً وعلواً فآنظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[2] .

وأما قوله : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ فقـد كذب أيضـاً ؛ فإنـه لم يكن على رَشـاد من الأمـر ، بل كـان عـلى سفه وضـلال وخبل وخبـال ؛ فكان أولا ممن يعبـدالأصنام والأمثـال ،ثم دعا قومَه الجهلة الضّـلال إلى أن اتبعوه وأطـاعوه وصـدَّقوه ، فيـما زعم من الكفر والمحـال ؛ في دعواه أنـا رب ، تعالى الله ذو الجلال .

---

(١) سورة الاسراء الآيات ١٠٢ ـ ١٠٤ .

(٢) سورة النمل الآيتان ١٣ ، ١٤ .

قال الله تعالى :

﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي مُلكُ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكاد يبينُ * فلولا أُلقي عليه أسورةٌ من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فآستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾[١] .

وقال تعالى :

﴿ فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادىٰ * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه آلله نكال الآخرة والأولى * إنَّ في ذلك لعبرةً لمن يخشى ﴾[٢] .

وقال تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبينٍ * إلى فرعون وملئه فآتَّبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيدٍ * يقْدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وآتبعوا في هذه لعنةً ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾[٣] .

والمقصود بيان كذبه في قوله : ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ وفي قوله : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

﴿ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأبِ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم وما آللهُ يُريد ظُلماً للعباد * ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التنادِ * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصمٍ ومن يُضلل آلله فما له من هادٍ * ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شكٍّ مما جاءكم به حتى إذا هَلَك قلتم لن يبعث آلله من بعده رسولاً كذلك يُضلُّ آلله من هو مسرفٌ مرتابٌ * آلذين يجادلون في آيات آلله بغير سلطانٍ أتاهم كبُر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع آلله على كل قلب متكبرٍ جبارٍ ﴾[٤] .

يحذرهم وليُّ الله إن كذبوا برسول الله موسى أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالأمم من قبلهم ، من النِّقمات والمُثلات[٥] ؛ مما تواتر عندهم وعند غيرهم ، مما حلَّ بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجَج على أهل الأرض قاطبة ، في صِدْق ما جاءت به الأنبياء لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوَّفهم يوم

---

(١) سورة الزخرف الآيات ٥١ ـ ٥٦ .

(٢) سورة النازعات الآيات ٢٠ ـ ٢٦ .

(٣) سورة هود الآيات ٩٦ ـ ٩٩ .

(٤) سورة غافر الآيات ٣٠ ـ ٣٥ .

(٥) عقابه تعالى للأقوام التي سبقتهم وكفرت كما كفروا، وقد وصل إليهم العلم بما أصاب هؤلاء .

القيامة ، وهو يوم التَّنَادِ أي حين ينادي الناس بعضهم بعضاً ، حين يولون مدبرين إن قَدروا على ذلك ، ولا إلى ذلك سبيلاً : ﴿ يقول الإنسان يومئذٍ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذٍ المستقر ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطانٍ* فبأي آلاء ربكما تكذبان * يُرسل عليكما شواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران * فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾(٢) .

وقرأ بعضهم : « يوم التنادِّ » بتشديد الدال ، أي يوم الفرار . ويحتمل أن يكون يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون يوم يحُل الله بهم البأس ، يودون الفرار ، ولات حين مناص ﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُتْرفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾(٣) .

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلى الخلْق في دنياهم وأُخراهم . وهذا من سُلالته وذريته ، ويدعو الناس الى توحيد الله وعبادته ، وأن لا يشركوا به أحداً من بريته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان ، وأن من سجيتهم التكذيبَ بالحق ومخالفة الرسل.. ولهذا قال : ﴿ فما زلتم في شكٍ مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ أي وكذبتم في هذا . ولهذا قال : ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرفٌ مرتابٌ * الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم ﴾ أي يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده ، بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ؛ فإن هذا أمر يمقته غاية المقت ، أي يبغض من تلَبَّس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ، ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ قرىء بالإضافة وبالنعت ، وكلاهما متلازم : أي هكذا إذا خالفت القلوب الحقَّ ـ ولا تخالفه إلا بلا برهان ـ فإن الله يطبع عليها . أي يختم عليها بما فيها(٤) .

﴿ وقال فرعون يا هامان آبنِ لي صرحاً لعلي أبلغُ الأسباب * أسباب السماوات فأطَّلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زُيِّن لفرعون سُوء عمله وصُدَّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تَبَابٍ ﴾(٥) .

كذَّب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله ، وزعم فرعونُ لقومه ما كذبه

(١) سورة القيامة الآيات ١٠ ـ ١٢ .
(٢) سورة الرحمن الآيات ٣٣ ـ ٣٦ .
(٣) سورة الأنبياء الآيتان ١٢ ـ ١٣ .
(٤) من الكفر والجحود فلا يعود بإمكانها أن تبصر آيات الحق فقد حكم عليها بالعذاب ولا راد لما حكم الله .
(٥) سورة غافر الآيتان ٣٦ ـ ٣٧ .

وافتراه في قوله لهم : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴾[١] وقال ها هنا : ﴿ لعلي أبلغ الأسباب . أسباب السموات ﴾ أي طرقها ومسالكها : ﴿ فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ ويحتمل هذا معنيين : أحدهما : وإني لأظنه كاذباً في قوله إن للعالم ربًّا غيري ، والثاني في دعواه أن الله أرسله . والأول أشبه بظاهر حال فرعون ؛ فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال : ﴿ فاطلع إلى إله موسى ﴾ أي فأسأله هل أرسله أم لا ﴿ وإني لأظنه كاذباً ﴾ أي في دعواه تلك . وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام ، وأن يحثهم على تكذيبه[٢] .

قال الله تعالى : ﴿ وكذلك زُين لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السبيل ﴾ وقرىء : « وصَدَّ عن السبيل » ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد : يقول : إلا في خسار ، أي باطل ، لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه ؛ فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً - أعني السماء الدنيا - فكيف بما بعدها من السماوات العُلَى ؟ وما فوق ذلك من الارتفاع الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل ؟ وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصَّرح ، وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له لم يُر بناء أعلى منه ، وأنه كان مبنياً من الآجُر المشوي بالنار ولهذا قال : ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾[٣]

وعند أهل الكتاب : أن بني إسرائيل كانوا يُسخَّرون في ضَرب اللَّبن ، وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعَدون على شيء ما يحتاجون إليه فيه ، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ، ويُطلب منهم كل يوم قسط معين ، إن لم يفعلوه ضُربوا وأُهينوا غاية الإهانة ، وأُوذوا غاية الأذية . ولهذا قال لموسى : ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ . فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط ، وكذلك وقع ، وهذا من دلائل النبوة[٤] .

***

---

(١) سورة القصص الآية ٣٨ .

(٢) لأنه يعتبر نفسه إلهاً ، فهنا يدَّعي أنه بما أنه كذلك فإن إله موسى ليس إلا إلهاً آخر مثله بإمكانه محادثته وسؤاله إن كان قد أرسل موسى عليه السلام أم لا فهو هنا يحاول إثبات ألوهيته أمام الناس ، بأسلوب غير مباشر ، وإن إله موسى عليه السلام ، ليس الإله الصمد الواحد الأحد لا شريك له .

(٣) سورة القصص الآية ٣٨ .

(٤) وهذا ما وعده رب العالمين .

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه .

قال الله تعالى : ﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعونِ أهدكم سبيل الرشاد * يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاعٌ وإن الآخرة هي دار القرار * من عمل سيئةً فلا يُجزى إلاّ مثلها ومن عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثىٰ وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة يُرزقون فيها بغير حسابٍ ﴾[1] .

يدعوهم رضي الله عنه إلى طريق الرشاد الحق ، وهي متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه . ثم زهّدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ، ورغّبهم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه . الذي يعطي على القليل كثيراً ، ومن عَدْله لا يجازي على السيئة إلا مثلها ، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار ، التي من وافاها ـ مؤمناً قد عمل الصالحات ـ فله الدرجات العاليات ، والغرف الآمنات ؛ والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التي لا تبيد ، والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد .

ثم شرع في إبطال ما هم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال :

﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة وأنَّ مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إنَّ الله بصيرٌ بالعباد * فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآلِ فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[2] .

كان يدعوهم إلى عبادة رب السماوات والأرض ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون !

ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار : ﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ، ما ليس لي به علمٌ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ .

ثم بيّن لهم بطلانَ ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأنداد والأوثان ، وأنها لا تملك من نفعٍ ولا إضرار ، فقال : ﴿ لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ أي لا تملك تصرفاً ولا حكماً في هذه الدار ، فكيف تملكه يوم القرار؟ وأما الله عز وجل فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار ، وهو الذي أحيا

---

(١) سورة غافر الآيات ٣٨ ـ ٤٠ .

(٢) سورة غافر الآيات ٤١ ـ ٤٦ .

العباد ويميتهم ويبعثهم ، فيدخل طائعهم الجنة ، وعاصيهم إلى النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله : ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصيرٌ بالعباد** ﴾ .

قال الله : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا** ﴾ أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم بالله ، ومكرهم في صَدهم عن سبيل الله ، مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات ، التي لبسوا بها على عوامهم وطغَامهم[1] . ولهذا قال : ﴿ **وحاق** ﴾ أي أحاط ﴿ **بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً** ﴾ أي تعرض أرواحهم في البرزخ[2] صباحاً ، ومساء على النار ﴿ **ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ . وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير ، ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم ، وإرسال الرسول إليهم ، وإزاحة الشُبه عنهم ، وأخذ الحجة عليهم منهم ، بالترهيب تارة والترغيب أُخرى ، كما قال تعالى :

﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقصٍ من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وإن تصبهم سيئةٌ يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آيةٍ لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آياتٍ مفصلاتٍ فآستكبروا وكانوا قوماً مُجرمين** ﴾[3] .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط ، بالسِّنين وهي أعوام الجدب التي لا يُستعمل فيها زرع ولا يُنتفع بضرع . وقوله : ﴿ **ونقص من الثمرات** ﴾ وهي قلة الثمار من الأشجار ﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ أي فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا ، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة** ﴾ والخصب ونحوه ﴿ **قالوا لنا هذه** ﴾ أي هذا الذي نستحقه ، وهذا الذي يليق بنا ﴿ **وإن تصبهم سيئةٌ يطيروا بموسى ومن معه** ﴾ أي يقولون بشؤمهم أصابنا هذا ، ولا يقولون في الأول إنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم ولكن قلوبهم منْكرة مستكبرة نافرة عن الحق ، إذا جاء الشرُّ أسندوه إليه ، وإن رأوا خيراً ادعوه لأنفسهم . قال الله تعالى : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ، ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾

﴿ **وقالوا مهما تأتنا به من آيةٍ لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ أي مهما جئتنا به من الآيات ـ وهي خوارق العادات ـ فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ، ولو جئتنا بكل آية .

---

(١) أي التي ضللوهم بها عن اتباع الحق .

(٢) مستقر الأرواح حتى يوم الحساب .

(٣) سورة الأعراف الآيات ١٣٠ ـ ١٣٣ .

وهكذا أخبر الله عنهم في قوله : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آيةٍ حتى يروا العذاب الأليم ﴾[١] .

قال الله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آياتٍ مفصلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أما الطوفان فعن ابن عباس : هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ، وبه قال سعيد بن جُبير وقتادة والسُّدي والضحاك وعن ابن عباس وعطاء : هو كثرة الموت ، وقال مجاهد : الطوفان الماء والطاعون على كل حال ، وعن ابن عباس : أمرٌ طاف بهم[٢] .

وقد روى ابن جرير وابن مَرْدَويه من طريق يحيى بن يمان ، عن الْمِنهال بن خليفة ، عن الحجّاج ، عن الحكم بن ميناء ، عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « الطوفان الموت » وهو غريب .

وأما الجراد فمعروف ، وقد روى أبو داود عن أبي عثمان ، عن سلمان الفارسي ، قال : سئل رسول الله عن الجراد ، فقال ﷺ : « أكثر جنود الله لا آكله ولا أُحرّمه » . وَتَرْكُ النبي ﷺ أكْله إنما هو على وجه التقذر له ، كما ترك أكل الضب ، وتنزّه عن أكل البصل والثوم والكراث ، لما ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن أبي أوفَى قال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد . وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير .

والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا سبَداً ولا لَبَداً[٣] . وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة . وعنه أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد بن جُبَير والحسن : هو دواب سود صغار[٤] . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القمل هي البراغيث . وحكى ابن جرير عن أهل العربية : أنها الحَمنان وهو صغار القردان فوق القمامة فدخل معهم البيوت والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يمكنهم معه الغَمْض[٥] ولا العيش . وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف . وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف .

---

(١) سورة يونس الآيتان ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) من عادة أهل مصر إنتظار فيضان النيل ليسقوا زروعهم والطوفان هنا ، كأن يجيء الفيضان قوياً جداً فبدلاً من أن تفيد منه الأرض ،كان يكنس زرعهم ويدمره تدميراً .

(٣) السبد : الوبر واللبد الصوف ويكنى بهما عن الإبل والغنم وعن القليل والكثير . وكل هذه المعاني معقول هنا .

(٤) القمل : حشرة صغيرة تعيش في شعر الإنسان وتمتص دمه . وقول سعيد بن جبير والحسن أقرب من أقوال الآخرين للصواب .

(٥) النوم .

أما الضفادع فمعروفة ، لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم ، حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة ، من تلك الضفادع .

وأما الدم فكان قد مزج ماءهم كله به فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عَبِيطاً ، ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة .

هذا كله ولم ينل بني اسرائيل ، من ذلك شيء بالكلية . وهذا من تمام المعجزة الباهرة ، والحجة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام ، فينالهم عن آخرهم ، ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل ، وفي هذا أدلُّ دليل .

قال محمد بن إسحاق: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ، ثم أبَى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه بالسنين : فأرسل عليه الطوفان ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان ـ وهو الماء ـ ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً ، حتى جهدوا جوعاً[1] .

فلما بلغهم ذلك ، **﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل ﴾** .[2]

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم . فلما لم يَفُوا له بشيء مما قالوا أرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر فيما بلغني ، حتى إنْ كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم ، فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم

---

(١) جاء في سفر الخروج أن موسى عليه السلام ضرب النهر بالعصا فانقلب دماً ومات السمك وانتن النهر . (الفصل السابع) .

وفي الفصل الثامن أن الله أمر هارون أن يمد يده بعصاه على الأنهار والخليج والمناقع ويصعد الضفادع على أرض مصر وفي نفس الفصل العدد ١٦ : « فقال الرب لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب تراب الأرض فيصير بعوضاً في جميع أرض مصر » .

وبعد البعوض ضربهم بالذبّان .

وبعد ذلك وفي الفصل التاسع : أمات الله مواشي المصريين . ثم نفخ موسى في الغبار فصار قروحاً وبثوراً منتفخة في الناس والبهائم دون أن يطلب فرعون رفع هذه الضربات وجاء بعده ضربات البَرَد والنار فما لم يصبه البرد أحرقته النار عندها طلب فرعون رفع هذه الضربات وبعدها جاء الجراد فطلب فرعون رفعه ثم جاء الظلام لثلاثة أيام وبعدها جاء أخذ الذهب والفضة من الناس وموت جميع أبكار الناس والحيوانات ثم خرج موسى عليه السلام بالناس بعد أن طردهم المصريون طرداً . وهذا منافٍ في أكثره لما لدينا لأن المذكور في القرآن الكريم هو **﴿ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ﴾** فقط .

(٢) سورة الأعراف الآيات ١٣٤ ـ ١٣٦ .

القمل ، فذكر لي أن موسى عليه السلام ، أمر أن يمشي إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيْل عظيم ، فضربه بها ، فانثال عليهم قملاً ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النوم والقرار .

فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والأطعمة والآنية ، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً ، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبث عليه .

فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه فكشف عنهم ، فلم يفوا بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم ، فصارت مياه آل فرعون دماً ، لا يستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء ، إلا عاد دماً عبيطاً . وقال زيد بن أسلم : المراد بالدم الرُّعَاف ، رواه ابن أبي حاتم .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى آدع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنُرسلنَّ معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجلٍ هم بالغوه إذا هم ينكثون * فأنتقمنا منهم فأغرقناهم في آليم بأنهم كذَّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[1] .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل ، والاستكبار عن اتباع آيات الله ، وتصديق رسوله ، مع ما أيده به من الآيات العظيمة الباهرة ، والحجج البليغة القاهرة ، التي أراهم الله إياها عِيَاناً ، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً .

وكلما شاهدوا آيةً وعاينوها ، وجهَدهم وأضْنَكهم ، حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به ، وليرسلن معه مَن هو مِن حزْبه ، فكلما رفِعتْ عنهم تلك الآية عادوا إلى شرٍّ مما كانوا عليه ، وأعَرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى ، فيقولون ويكذبون ، ويعدون ولا يفُون : **﴿ لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ﴾** فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل ، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل .

هذا ، والعظيم الحليم القدير ، يُنْظرهم ولا يَعْجَل عليهم ، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم . ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والإعذار إليهم ، أخذ عزيز مقتدر ؛ فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عبادة المؤمنين .

كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين ، في سورة حم[2] والكتاب المبين ·

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٣٤ ـ ١٣٦ .

(٢) سورة الزخرف .

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول ربِّ العالمين * فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون * وما نريهم من آيةٍ إلاَّ هي أكبر من أُختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر آدع لنا ربك بما عهد عندك إنَّنا لمهتدون * فلَّما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون * ونادىٰ فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي مُلك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أما أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكاد يُبين * فلولا أُلقي عليه أسورةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكة مُقترنين * فآستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين * فلما آسفونا آنتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾[1] .

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم ، وأنه تعالى أيَّد رسوله بآيات بينات واضحات ، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم ، فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون ، وعن سبيل الله يَصُدون وعن الحق ينصرفون . فأرسل الله عليهم الآيات تَتْرى يتبع بعضها بعضاً ، وكل آية أكبر من التي تتلوها ، لأن التوكيد أبلغ مما قبله .

﴿ وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً ؛ لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ، ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه ، وضراعتهم لديه ، قال الله تعالى : ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾

ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه ، وعظمة بلده وحسنها ، وتخرق الأنهار فيها ، وهي الخلجانات التي يكسرونها أيام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحِلْيته ، وأخذ يتنقّص رسولَ الله موسى عليه السلام وَيَزْدريه بكونه ﴿ لا يكاد يَبِين ﴾ يعني كلامه ، بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة ، التي هي شرفٌ له وكمال وجمال ، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه ، وأنزل بعد ذلك التوراة عليه .

وتنقّصه فرعونُ ـ لعنه الله ـ بكونه لا أساور في يديه ، ولا زينةَ عليه ! وإنما ذلك من حلية النساء ، لا يليق بشهامة الرجال ، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلاً ، وأتم معرفة ، وأعلى همةً وأزهد في الدنيا ، وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الأخرى ؟

وقوله : ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ لا يحتاج الأمر الى ذلك ؛ فإن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ؛ كما جاء في الحديث : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم !

---

(١) سورة الزخرف الآيات ٤٦ ـ ٥٦ .

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أُيِّد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوي الألباب ، ولمن قصد إلى الحق والصواب ، ويعمى عما جاء به من البينات والحجج والواضحات من نظر إلى القشور ، وترك لبَّ اللباب ، وطبع على قلبه رب الأرباب ، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب ، كما هو حال فرعون القبطي العمِيّ الكذاب .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه** ﴾ أي استخف عقولهم ودرَّجهم من حال إلى حال إلى أن صدَّقوه في دعواه الربوبية ، لعنه الله وقبحهم ﴿ **إنهم كانوا قوماً فاسقين * فلما آسفونا** ﴾ أي أغضبونا ﴿ **انتقمنا منهم** ﴾ أي بالغرق والإهانة وسَلْب العز ، والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة ، والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب العيش ، عياذاً بالله العظيم ، وسلطانه القديم من ذلك[1] .

﴿ **فجعلناهم سلفاً** ﴾ أي لمن اتبعهم في الصفات ﴿ **ومثلاً** ﴾ أي لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ، ممن بلغه جَلِية خبرهم ما كان من أمرهم كما قال تعالى : ﴿ **فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحرٌ مفترىً وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين * وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون * وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكُمْ من إلهٍ غيري فأوقِدْ لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطَّلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنُّوا أنهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة هم من المقبوحين** ﴾[2] .

يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ، وادعى مَلِكهم الباطلَ ووافقوه عليه وأطاعوه فيه ، اشتد غضبُ الرب القدير العزيز ، الذي لا يغالبَ ولا يمانع عليهم ، فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد ، ولم يبق منهم ديَّار ؛ بل كلٌّ قد غرق فدخل النار ، وأُتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين ، ويوم القيامة بئس الرفْد المرفود ، ويوم القيامة هم من المقبوحين .

* * *

---

(١) لأنه سبحانه صبر عليهم وأنزل لهم العظة بعد العظة والعبرة بعد العبرة فلم يؤمنوا ولم يتعظوا .

(٢) سورة القصص الآيات ٣٦ ـ ٤٢ .

ذكر هلاك فرعون وجنوده :

لما تمادَى قبطُ مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم ؛ متابعةً لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام ، أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحيَّر العقول ؛ وهم مع ذلك لا يَرْعوون ولا ينتهون ، ولا ينزِعون ولا يرجعون .

ولم يؤمن منهم إلا القليل . قيل : ثلاثة ، وهم امرأة فرعون ، ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ، ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم ، والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصى المدينة[1] ، فقال : ﴿ **يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين** ﴾ .

قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ، ومراده غير السحرة ؛ فإنهم كانوا من القبط .

وقيل : بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون ، والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذريةٌ من قومه على خوفٍ من فرعون وملإهم أن يفتنهم وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين** ﴾[2] .

فالضمير في قوله : ﴿ **إلا ذريةٌ من قومه** ﴾ عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه ، وقيل على موسى لقربه ، والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير ، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته ، وجبروته وسلطته ، ومن مَلئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم .

قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيداً : ﴿ **وإن فرعون لعالٍ في الأرض** ﴾ أي جبار عنيد مشتغل بغير الحق ، ﴿ **وإنه لمن المسرفين** ﴾ أي في جميع أموره وشؤونه وأحواله . ولكنه جرثومة ، قد حان انجعافها[3] وثمرة خبيثة قد آن قطافها ، ومُهجة ملعونة قد حتّم إتلافها .

وعند ذلك قال موسى : ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مُسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنةً للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾[4] فأمرهم

---

(١) بالاضافة الى السحرة الذين آمنوا وعُذِّبوا وقتلوا في سبيل إيمانهم .

(٢) سورة يونس الآية ٨٣ .

(٣) انجعافها : اقتلاعها . والجرثومة ، بقية جذر النبتة في الأرض إذا قطعت ، أو بيت النمل .

(٤) سورة يونس الآيات ٨٤ ـ ٨٦ .

بالتوكل على الله والاستعانة بـه ، والالتجاء إليـه ، فأتمـروا بذلـك فجعل الله لهم مما كانـوا فيه فـرجاً ومخرجاً .

﴿ وأوحينـا إلى مـوسى وأخيـه أن تبـوَّءا لقـومكـما بمصر بيـوتـاً واجعلوا بيـوتكم قِبلةً وأقيمـوا الصلاة ، وبشِّر المؤمنين ﴾[١] .

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهـما السلام ، أن يتخـذا لقومهـما بيوتـاً متميزة فيـما بينهم عن بيـوت القبط ، ليكونـوا على أُهبـة الرحيـل إذا أُمروا بـه ، ليعـرف بعضهم بيـوت بعض . وقوله : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلةً** ﴾ . قيل : مساجد ، وقيل : معناه كثرة الصلاة فيها .

قاله مجاهد وأبو مالك وإبراهيم النَّخعي والـربيع والضحـاك وزيد بن أَسْلم وابنـه عبد الـرحمن وغيرهم .

ومعنـاه على هـذا : الاستعانـة على مـا هم فيه من الضر والشـدة والضيق بكثرة الصـلاة ، كـما قال تعالى **﴿ واستعينـوا بـالصبـر والصـلاة ﴾**[٢] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى .

وقيـل معناه . أنهم لم يكـونوا حينئـذٍ يقدرون عـلى إظهار عبـادتهم في مجتمعاتهم ومعـابـدهم ، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ؛ عوضاً عما فاتهم من إظهار شعـائر الـدين الحق في ذلك الـزمان ، الـذي اقتضى حـالهم إخفـاءه خـوفاً من فـرعون وملئـه والمعنى الأول أقوى لقـوله : **﴿ وبشر المؤمنـين ﴾** وإن كان لا ينافي الثاني أيضاً والله أعلم .

وقال سعيد بن جبير : **﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾** : أي متقابلة .

* * *

﴿ وقال موسى ربنـا إنك آتيت فـرعون ومـلأه زينةً وأمـوالاً في الحياة الـدنيا ربنـا ليضلوا عن سبيلك ربنا آطمس على أموالهم وآشدد عـلى قلوبهم فلا يؤمنـوا حتى يروا العـذاب الأليم * قال قـد أُجيبت دعوتكما فآستقيما ولا تتبعانِ سبيل الذين لا يعلمون ﴾[٣] .

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عـدو الله فرعـون ، غضباً لله عليـه ؛ لتكبّره عن اتباع الحق ، وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوّه وتمرده ، واستمراره على البـاطل ، ومكـابرتـه الحق الواضح الجـلي الحسي والمعنوي ، والبـرهان القـطعي ، فقال : **﴿ ربنـا إنك آتيت فرعون وملأه ﴾**

---

(١) سورة يونس الآية ٨٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٤٥ .

(٣) سورة يونس الآيات ٨٨ ـ ٨٩

يعني قومه من القبط ، ومن كـان على ملتـه ودان بدينـه ﴿ **زينة وأمـوالاً في الحياة الـدنيا ربنـا ليضلوا عن سبيلك** ﴾ أي وهذا يغتّر به من يعظِّمُ أمرَ الدنيـا ، فيحسب الجاهـل أنهم على شيء ، لكن هـذه الأموال وهذه الزينة ، من اللباس والمراكب الحسنة الهنية ، والـدور الأنيقة والقصـور المبنية ، والمـآكل الشهية والمناظر البهية ، والمُلْك العزيز والتمكين ، والجاه العريض في الدنيا لا الدين .

﴿ **ربنا اطمس على أمـوالهم** ﴾ قال ابن عبـاس ومجـاهـد : أي أهلكهـا . وقـال أبـو العـاليـة والـربيع بن أنس والضحـاك : اجعلها حجـارة منقوشـة كهيئـة مـا كـانت ، وقـال قتـادة : بلغنـا أن زروعهم صـارت حجارة ، وقـال محمد بن كعب : جعـل سُكرهم حجـارة ، وقـال أيضـاً : صـارت أمـوالهم كلها حجـارة ذكرَ ذلـك لعمر بن عبـد العزيـز ، فقال عمـر بن عبد العـزيز لغـلام له : قم ائتني بكيس . فجاءه بكيس ، فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة . رواه ابن أبي حاتم .

وقـوله : ﴿ **واشـدد على قلوبهم فـلا يؤمنوا حتى يـروا العذاب الأليم** ﴾ قـال ابن عباس : أي اطبع عليها . وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه .

فاستجاب الله تعالى لها ، وحققهـا وتقبلها ، كـما استجاب لنـوح في قومـه حيث قال : ﴿ **ربِّ لا تـذر عـلى الأرض من الكـافـرين ديَّـاراً * إنـك إن تـذرهم يضلوا عبـادك ولا يلدوا إلا فـاجـراً كفاراً** ﴾(١) .

ولهذا قال تعالى ، مخاطباً لموسى حين دعـا على فـرعون وملئـه ، وأمَّن أخوه هـارونُ على دعائه فنزل ذلك منزلة الداعي أيضاً : ﴿ **قال : قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعـان سبيل الـذين لا يعلمون** ﴾ .

* * *

قـال المفسرون وغيـرهم من أهل الكتـاب : استأذن بنـو إسرائيـل فرعـونَ في الخروج إلى عيـد لهم ، فـأذن لهم وهو كـاره ، ولكنهم تجهزوا للخـروج وتأهبـوا له ، وإنمـا كان في نفس الأمـر مكيـدة بفرعون وجنوده ، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم .

وأمـرهم الله تعـالى ـ فيـما ذكـره أهـل الكتـاب ـ أن يستعيـروا حليًّـا منهم ، فـأعـاروهم شيئـاً كثيـراً(٢) ، فخرجـوا بليل فسـاروا مستمرين ذاهبـين من فـورهم ، طـالبـين بـلاد الشـام ، فلما علم

---

(١) سورة نوح الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ .

(٢) جاء في سفر الخروج الفصل الثالث العدد ٢٢ والأخير :

« وأهب الشعب حظوة في عيون المصريين فإذا انصرفتم فلا تنصرفون فارغين ، بل تطلب المرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهب وثياباً تجعلونها عـلى بنيكم وبناتكم وتسلبـون المصريـين » والأرجح أن هـذا من كلام الأحبـار وليس كلام رب العالمين سبحانه وتعالى جلَّ عما يصفون .

وقد جاء ذكر نفس الموضوع في الفصل الثاني عشر عند خروج بني إسرائيل من مصر .

بـذهابهم فـرعون حنَق عليهم كـلَّ الحنق ، واشتد غضبـه ، وشرع في استحثـاث جيشه وجمـع جنوده لَيْلَحقهم ويَمحقهم .

قال الله تعالى :

﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون * فـأرسل فـرعون في المدائن حاشـرين * إنَّ هؤلاء لشـرذمةٌ قليلون * وإنهم لنـا لغائـظون * وإنَّا لجميعٌ حاذرون * فـأخرجنـاهم من جناتٍ وعيونٍ * وكنوزٍ ومقامٍ كريم * كذلك وأورثناها بني إسـرائيل * فـأتبعوهم مُشـرقين * فلما تـراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنَّا لمدركون * قال كـلا إنَّ معي ربي سيهدين * فـأوحينا إلى مـوسى أن أضـرب بعصاك البحر فأنفلق فكـان كل فـرقٍ كالـطود العـظيم * وأزلفنـا ثم الآخـرين * وأنجينـا مـوسى ومن معه أجمعـين * ثم أغرقنـا الآخرين * إنَّ في ذلـك لآيـةً ومـا كـان أكثـرهم مؤمنـين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[1] .

قال علماء التفسير : لَمَّا ركب فرعـون في جنوده طـالباً بني اسـرائيل يقفـو أثرهم كـان في جيش كثيف عَـرمْرم ، حتى قيـل كـان في خيولـه مائـة ألف فحلٍ أدْهم ، وكـانت عدة جنـوده تـزيـد عـلى ألف ألف وستمـائة ألف ، فـالله أعلم ، وقيل إن بني إسـرائيل كـانوا نحـواً من ستمائـة ألف مقاتـل غـير الذريـة[2] ، وكان بـين خروجهم من مصر صحبـةَ موسى عليـه السـلام ودخـولهم إليهـا صحبـة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية .

والمقصود أن فرعـون لحقهم بالجنـود ، فأدركهم عنـد شروق الشمس ، وتـراءى الجمعان ، ولم يبق ثَمَّ ريبٌ ولا لَبْس ، وعاين كلٌّ من الفريقين صـاحبه وتحققـه ورآه ، ولم يبق إلا المقاتلة والمجـاولة والمحاماة . فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفـون : **﴿ إنا لمدركون ﴾** وذلـك لأنهم اضطروا في طـريقهم إلى البحر فليس لهم طـريق ولا مَحِيد إلا سلوكـه وخَوْضـه ، وهذا مـا لا يستطيعـه أحـد ولا يَقْدر عليه ، والجبال عن يسرتهم وعن أَيمانهم وهي شاهقـة مِنيفة ، وفـرعون قـد غالَقهم وواجههم ، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعُدده وعَـدده ، وهم منه في غـاية الخـوف والذعـر ؛ لَمَّا قـاسَوا في سلطانـه من الإهانَة والمَكر .

فشكَـوا إلى نبي الله مـا هم فيـه ممـا قـد شـاهـدوا وعـاينـوه ، فقـال لهم الـرسـول الصـادق المصدوق : **﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾** وكان في السـاقة ، فتقـدم إلى المقدِّمـة ، ونظر إلى البحـر وهو يتلاطم بـأمواجـه ، ويتزايـد زَبَد أجـاجه ، وهـو يقول : هـا هنا أُمـرت . ومعه أخـوه هارون ، ويـوشع بن نـون ، وهو يـومئذٍ من سـادات بني اسرائيـل علمائهم وعُبَّـادهم الكِبَار ، وقـد أوحى الله

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٥٢ ـ ٦٨ .

(٢) جاء في سفر الخروج ان تعدادهم ستمائة ألف غير الأطفال والمقصود نساءً ورجالاً وليس مقاتلين فقط كما يذكر أعلاه .

إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون عليهما السلام ، كما سنذكره فيما بعد إن شاءالله ، ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون ، وهم وقوف ، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف . ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مِرَاراً في البحر ، هل يمكن سلوكه ؟ فلا يمكن ، ويقول لموسى عليه السلام : يا نبي الله ها هنا أُمرت ؟ فيقول : نعم .

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر ، واقترب فرعون وجنوده في جِدهم وحَدِّهم وحديدهم ، وغضَبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجر ، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير ، ربُّ العرش الكريم ، إلى موسى الكليم : ﴿ **أن اضرب بعصاك البحر** ﴾ . فلما ضربه ، يقال إنه قال له : إنفلق بإذن الله . ويقال : إنه كنَّاه بأَبي خالد ، فالله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿ **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلُّ فرق كالطود العظيم** ﴾ . ويقال إنه انفلق اثني عشر[1] طريقاً ، لكل سِبْط طريق يسيرون فيه ، حتى قيل : إنه صار فيه أيضاً شبابيك[1] ، ليرى بعضهم بعضاً ، وفي هذا نظر ، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه .

وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال ، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأمر الله تعالى ريحَ الدَّبور فلفَحت حال[2] البحر فأذهبته ، حتى صار يابساً لا يَعْلَق في سَنابك الخيول والدواب .

قال الله تعالى : ﴿ **ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فآضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دَركاً ولا تخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمِّ ما غشيهم * وأضلَّ فرعون قومه وما هدى** ﴾[3] .

والمقصود أنه لما آل أمرُ البحر الى هذه الحال ، بإذن الرب العظيم الشديد المِحَال ، أمر موسى عليه السلام أن يَجُوزه ببني إسرائيل ، فانحدروا فيه مُسْرعين مستبشرين مبادرين ، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ، ويهدي قلوب المؤمنين ، فلما جازوه وجاوزوه وخرج آخرهم منه ، وانفصلوا عنه ، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ، ووفودهم عليه .

فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه ، لئلا يكون لفرعون وجنوده وصولٌ إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال ، كما

---

(١) لا نعرف أصل هذه الرواية فهي لم ترد في الحديث ولا حتى في أسفار اليهود .

(٢) حال البحر : طينه .

(٣) سورة طه الآيات ٧٧ ـ ٧٩ .

قال وهو الصادق في المقال : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسولٌ كريمٌ * أن أدُّوا إليَّ عباد الله إني لكم رسولٌ أمينٌ * وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطانٍ مبينٍ * وإني عُذْتُ بربي وربكم أن ترجمون * وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون * فدعا ربه أن هؤلاء قومٌ مجرمون * فأسر بعبادي ليلاً إنَّكم مُتَّبعون * واترك البحر رهواً إنهم جندٌ مغرقون * كم تركوا من جناتٍ وعيونٍ * وزُروعٍ ومقامٍ كريمٍ * ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين * ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين * ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاءٌ مُبينٌ ﴾[1] .

فقوله تعالى : ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ أي ساكناً على هيئته ، لا تغيّره على هذه الصفة ، قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعِكْرمة والربيع والضحَّاك وقَتادة وكعب الأحبار وسِمَاك بن حَرْب وعبد الرحمن بن زيد بن أسْلم ، وغيرهم .

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون ، فرأى ما رأى وعايَن ما عاين ، هالَه هذا المنظر العظيم ، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم ، فأحجم ولم يتقدم ، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم ، لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة والسجيّة الفاجرة على أن قال لمن استخفَّهم فأطاعوه ، وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبِقين من يدي ، الخارجين على طاعتي وبلدي ؟ وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ، ويرجو أن ينجو وهيهات ، ويُقْدم تارة ويحجْم تاراتٍ ! .

فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدَّى في صورة فارس راكب على رَمكة حائل[2] فمرَّ بين يَديْ فحلِ فرعون لعنه الله ، فحمْحَم إليها وأقبل عليها ، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحرَ ، واستبق الجوادُ وقد أجاد ، فبادر مسرعاً ، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضراً ولا نفعاً ، فلما رأته الجنود قد سلك البحرَ اقتحموا وراءه مسرعين ، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبْصَعين[3]، حتى همَّ أولهم بالخروج ، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحرَ . فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان ، فلم ينجُ منهم إنسان .

قال الله تعالى : ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن في ذلك لآية

---

(١) سورة الدخان الآيات ١٧ ـ ٣٣ .

(٢) الرمكة الحائل : الفرس لم تلد .

(٣) كلمات توكيد .

وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[1] . أي في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد ، آية عظيمة ، وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة ، وصِدْق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة ، والمناهج المستقيمة .

وقال تعالى : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنودهم بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلاَّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين * فاليوم نُنجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آيةً وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾[2] .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط ، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أُخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ، ماذا أحلَّ الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ، ليكون أقرَّ لأعين بني اسرائيل ، وأشقى لنفوسهم . فلما عاين فرعونُ الهلَكة وأُحيط به ، وباشر سَكرات الموت أناب حينئذٍ وتاب ، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانُها ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ حتى يروا العذاب الأليم** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانُهم لما رأوا بأسَنا سُنةَ الله التي قد خلَتْ في عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾[4] .

وهكذا دعا موسى على فرعون وملإه، أن يَطْمس على أموالهم ، ويشَدُد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يَروا العذاب الأليم ، أي حين لا ينفعهم ذلك ، ويكون حسرةً عليهم . وقد قال تعالى لهما ـ أي لموسى وهارون ـ حين دعَوا بهذا : ﴿ **قد أُجيبت دعوتكما** ﴾[5] . فهذا من إجابة الله تعالى دعوةَ كَلِيمه وأخيه هارون عليهما السلام .

ومن ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قال فرعون : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ قال لي جبريل : لو رأيتني وقد أخذتُ من حال البحر فدسَسْتهُ في فمه ، مخافة أن تناله الرحمة » .

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٦٥ ـ ٦٨ .
(٢) سورة يونس الآيات ٩٠ ـ ٩٢ .
(٣) سورة يونس الآيتان ٩٦ ـ ٩٧ .
(٤) سورة غافر الآيتان ٨٤ ـ ٨٥ .
(٥) سورة يونس الآية ٨٩ .

ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم عند هذه الاية من حديث حماد بن سلمة ، وقال الترمذي : حديث حسن .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شُعبة ، عن عَدِي بن ثابت ، وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذُ من حال البحر فأدسّه في فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة » .

ورواه الترمذي وابن جرير من حديث شُعبة ، وقال الترمذي : حسنٌ غريب صحيح وأشار ابن جرير في رواية إلى وقفه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه ، فجعل يأخذ الحال بجناحيه ، فيضرب به وجهه فَيَرْمسه[1] ورواه ابن جرير من حديث أبي خالد به .

وقد رواه ابن جرير من طريق كثير بن زاذان وليس بمعروف ، وعن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال لي جبريل عليه السلام : يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدّس من الحال في فيه ، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له ! » يعني فرعون .

وقد أرسله غير واحد من السلف كإبراهيم التيمي وقتادة وميمون بن مهران ، ويقال : إن الضحاك بن قيس خطب به الناس ، وفي بعض الروايات أن جبريل قال : ما بغضتُ أحداً بغضي لفرعون حين قال : « أنا ربكم الأعلى » ولقد جعلت أدسُّ في فيه الطين حين قال ما قال .

وقوله تعالى : ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾ استفهام إنكار ، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك ؛ لأنه ـ والله أعلم ـ لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : ﴿ **يا ليتنا نردُّ ولا نكذب بآياتِ ربنا ونكون من المؤمنين** ﴾[2] . قال الله : ﴿ **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾[3] . وقوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آيةً** ﴾

---

(١) يرمسه : يدفنه . وفي هذا الحديث نكارة ، لأنه يعطي للملائكة صفاتٍ بشرية من الحب والكره وهذا لا يكون والراوي من الضعفاء الذين ضعف أحاديثهم غير واحد وقد ورد مع الضعفاء عند ابن الجوزي وسواه .

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٢٨ .

قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بني اسرائيل في موت فرعون ، حتى قال بعضهم : إنه لا يموت ، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع ، قيل : على وجه الماء ، وقيل : على نَجْوة من الأرض ، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ، ليتحققوا بذلك هلاكه ، ويَعلموا قدرةَ الله عليه . ولهذا قال : ﴿ **فاليوم ننجِّيك ببدنَك** ﴾ أي مصاحباً درعك المعروفة بك ، ﴿ **لتكون** ﴾ أي أنت آيةً ﴿ **لمن خلفك** ﴾ أي من بني اسرائيل ، ودليلاً على قدرة الله الذي أهلكك ، ولهذا قرأ بعض السلف : « لتكون لمن خَلَقك[1] آية » ويحتمل أن يكون المراد : ننجيك بجسدك مصاحباً درعك ؛ لتكون علامةً لمن وراءك من بني اسرائيل على معرفتك وأنك هلكت ، والله أعلم . وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء .

كما قال الإمام البخاري في صحيحه : حدثنا محمد بن بشَّار ، حدثنا غُنْدَر ، حدثنا شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : قدِم النبي ﷺ المدينة واليهودُ تصوم يوم عاشوراء ، فقال ﷺ : « ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ » فقالوا : هذا يوم ظَهر فيه موسى على فرعون . قال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا » . وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما . والله أعلم .

(١) بالقاف أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته .

فصل فيما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : ﴿ فآنتقمنا منهم فأغرقناهم في آليم بأنهم كذبوا بـآياتنـا وكانـوا عنها غـافلين * وأورثنا القوم الـذين كانـوا يستضعفون مشـارق الأرض ومغاربهـا التي باركنـا فيها وتمت كلمـةُ ربك الحسنى عـلى بني إسرائيـل بما صبـروا ودمرنـا ما كـان يصنع فـرعون وقـومه ومـا كانـوا يعرشـون * وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قومٍ يعكفون عـلى أصنامٍ لهم قـالوا يـا موسى آجعـل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ قال إنكم قومٌ تجهلون * إن هؤلاء مُتبَّرٌ ما هم فيـه وباطـلٌ ما كـانوا يعملون * قـال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضَّلكم عـلى العالمـين * وإذ أنجيناكم من آل فـرعون يسـومونكم سـوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ ﴾[1] .

يـذكـر تعـالى مـا كـان من أمـر فـرعـون وجنـوده في غـرقهم ، وكيف سلبهم عـزهم ومـالهم وأنفسهم ، وأورث بني اسـرائيـل جميـع أمـوالهم وأمـلاكهم ، كـما قـال : ﴿ كـذلـك وأورثنـاهـا بني إسرائيل ﴾[2] . وقال : ﴿ ونريد أن نمن على الـذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمـةً ونجعلهم الوارثين ﴾[3] . وقال ها هنا : ﴿ وأورثنا القـوم الذين كـانوا يستضعفـون مشارق الأرض ومغاربهـا التي باركنافيها وتمت كـلمـة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا مـا كان يصنـع فرعـون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾[4] .

أي أهلك ذلـك جميعه ، وسلبهم عـزَّهم العزيـز العريض في الـدنيا ، وهلك الملك وحـاشيتـه وأمراؤه وجنوده ، ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا .

ذكـر ابن عبد الحكم في تـاريخ مصر : أنـه من ذلك الـزمان تسلط نسـاء مصر على رجـالهـا ؛ بسبب أن نسـاء الأمـراء والكبـراء تـزوجن بمن دونهن من العـامـة ، فكـانت لهن السـطوة عليهم ، واستمرت هذه سُنة نساء مصر إلى يومنا هذا .

وعند أهل الكتـاب : أن بني إسرائيـل لما أُمـروا بالخـروج من مصر جعل الله ذلـك الشهر أول سنَتهم وأُمـروا أن يذبـح كل أهـل بيت حملاً من الغنم ، فـإن كانـوا لا يحتاجـون إلى حمـل فليشتـرك

(١) سورة الأعراف الآيات ١٣٦ ـ ١٤١ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٥٩ .

(٣) سورة القصص الآية ٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٣٧ .

الجار وجاره فيه . فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ، ليكون علامةً لهم على بيوتهم ، ولا يأكلونه مطبوخاً ، ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه ، ولا يبقوا منه شيئاً ، ولا يكسروا له عظماً ، ولا يخرجوا منه شيئاً ، إلى خارج بيوتهم . وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام ، ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم - وكان ذلك في فصل الربيع - فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة ، وخِفافهم في أرجلهم ، وعصيّهم في أيديهم ، وليأكلوا بسرعةقياماً ، ومهما فَضل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فليحرقوه بالنار . وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها[١] ، فإذا نُسخت بطل شرعها . وقد وقع .

قالوا : وقتل الله عز وجل في تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم ، ليشتغلوا عنهم . وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار ، وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ، ليس من بيت إلا وفيه عويل[٢] .

وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين ، فحملوا العجين قبل إختماره ، وحملوا الأزواد في الأردية وألقوها على عواتقهم ، وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حليًّا كثيراً ، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل[٣] سوى الذّراري بما معهم من الأنعام ، وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة . هذا نص كتابهم[٤] .

وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ ، وهذا العيد عيد الفسخ[٥] ، ولهم عيد الفطير ، وعيد الحمل وهو أول السنة ، وهذه الأعياد الثلاثة آكدَ أعيادهم ، منصوص عليها في كتابهم .

ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام ، وخرجوا على طريق بحر سوف ، وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عمود نور ، والليل أمامهم عمود نار ، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك ، وأدركهم فرعونُ وجنوده من المصريين ، وهم هناك حلولٌ على شاطىء اليَمّ ، فقَلق كثير من بني إسرائيل ، حتى قال قائلهم : كان بقاؤنا بمصر أحبَّ إلينا من الموت بهذه البرّية . فقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة : لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا .

قالوا : وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ، وأن يقسمه ليدخل بنو

---

(١) سفر الخروج الفصل الثاني عشر .

(٢) سفر الخروج الفصل الحادي عشر والثاني عشر .

(٣) جاءت في سفر الخروج كما أشرنا سابقاً ص ٣٥٥ .

(٤) سفر الخروج الفصل الثاني عشر .

(٥) عيد الفصح .

إسرائيل في البحر واليبس . وصار الماء من ها هنا وها هنا كالجبلين ، وصار وسطه يبساً ، لأن الله سلط عليه ريح الجنوب والسَّمُوم . فجاز بنو إسرائيل البحر وأتبعهم فرعون وجنوده ، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه ، فرجع الماء كما كان عليهم لكن عند أهل الكتاب : أن هذا كان في الليل ، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح ، وهذا من غلطهم وعدم فهمهم في تعريبهم والله أعلم .

قالوا : ولما أغرق الله فرعون وجنوده حينئذٍ سبَّح موسى وبنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب ، وقالوا : « نسبح الرب البهي ، الذي قهر الجنود ، ونبذ فرسانها في البحر المنيع المحمود » وهو تسبيح طويل[1] .

قالوا : وأخذت مريم النبية ـ أخت هارون ـ دفًّا بيدها ، وخرج النساء في أثرها كلهن بدفوف وطبول[2] ، وجعلت مريم ترتلِ لهن وتقول : سبحان الرب القهار ، الذي قهر الخيول وركبانها إلقاءً في البحر[3] .

هكذا رأيته في كتابهم . ولعل هذا هو من الذي حَمَل محمدَ بن كعب القرَظِي على زعمه : أن مريم بنت عمران أم عيسى ؛ هي أخت هارون وموسى ، مع قوله : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ .

وقد بيَّنا غلطه في ذلك ، وأن هذا لا يمكن أن يُقال ، ولم يتابعه أحد عليه ، بل كل واحد خالفه فيه . ولو قُدِّر أن هذا محفوظ . فهذه مريم بنت عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام . وأم عيسى عليها السلام وافقتها في الاسم واسم الأب واسم الأخ ، لأنهم كما قال رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة ، لمّا سأله أهل نجران عن قوله : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ فلم يَدْر ما يقول لهم ، حتى سأل رسولَ الله ﷺ عن ذلك فقال : أمَا علمت أنهم كانوا يسمُّون بأسماء أنبيائهم » رواه مسلم .

وقولهم : « النبية » كما يُقال للمرأة من بيت الملك مَلكة ، ومن بيت الأمرة أميرة ، وإن لم تكن مباشرة شيئاً من ذلك ، فكذا هذه استعارة لها ، لا أنها نبية حقيقة يُوحىَ إليها .

وضرْبها بالدف في مثل هذا اليوم الذي هو أعظم الأعياد عندهم دليل على أنه قد كان شُرع

---

(١) يبدأ التسبيح هكذا :
« أسبح الرب فإنه قد تعظم بالمجد ، الفرس وراكبه طرحهما في البحر ، الرب عزي وتسبيحي لقد كان لي خلاصاً ، هذا إلهي فإياه أمجد ، إله أبي فإياه أعظم » الخ . . .
سفر الخروج الفصل الخامس عشر ، ويبدو أن أخطاء ابن كثير في النقل من أسفار اليهود هي أخطاء من ترجمه له .

(٢) بدفوف ورقص .

(٣) نفس خطأ الترجمة والأصل « سبحوا الرب لأنه قد تعظم بالمجد الفرس وراكبه طرحهما في البحر » .

من قبلنا ضرْب **الدف** في العيد ، وهذا مشروع لنا أيضاً في حق النساء ، لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة يَضْربان بالدف في أيام منى ، ورسول الله ﷺ مضطجع مول ٍ ظَهره إليهم ، ووجهه إلى الحائط فلما دخل أبو بكر زجرهن وقال : أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال : « دَعْهن يا أبا بكر فإن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا » وهكذا يُشْرع عندنا في الأعراس ولقدوم الغيَّاب ، كما هو مقرَّر في موضعه ، والله أعلم .

وذكروا أنهم لما جازُوا البحر وذهبوا قاصِدين إلى بلاد الشام ومكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء ، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك ، فوجدوا ماءً زُعافاً أُجاجاً لم يستطيعوا شربه ، فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه ، فحَلا وساغ شربه ، وعلَّمه الرب هنالك فرائض وسنناً ، ووصاه وصايا كثيرة .

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز المهيمنِ على ما عَداه من الكتب : ﴿ **وجاوَزْنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يَعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهةٌ ، قال إنكم قومٌ تجهلون * إن هؤلاء متبَّر ما هم فيه ، وباطلٌ ما كانوا يعملون** ﴾[1] .

قالوا : هذا الجهل والضلال ، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته ، ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذي الجلال والإكرام وذلك أنهم مرُّوا على قوم يعبدون أصناماً ، قيل : كانت على صُوَر البقر ، فكأنهم سألوهم : لِمَ يعبدونها ؟ فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ، ويسترزقون بها عند الضرورات ، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك ، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم ، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة ، فقال لهم مبيناً أنهم لا يعقلون ولا يهتدون : ﴿ **إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون** ﴾

ثم ذكَّرهم نعمةَ الله عليهم ، في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع ، والرسول الذي بَيْنَ أظهُرهم ، وما أحسن به إليهم وما منَّ به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبَّار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملأه يجمعونه من الأموال والسعادة ، وما كانوا يَعْرشون ، وبيَّن لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ؛ لأنه الخالق الرازق القهار ، وليس كل بني اسرائيل سأل هذا السؤال ، بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله : ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ قال إنكم قومٌ تجهلون** ﴾ أي قال بعضهم كما في قوله :

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٣٨ ، ١٣٩ .

﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً *وعُرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أوَّل مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعداً ﴾(١) فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَرَ ، عن الزهري ، عن سِنَان بن أبي سنان الدِّيلي عن أبي واقد الليثي ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا هذه ذات أنْواط كما للكفار ذات أنواط .وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدْرة ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة ، إنكم تركبون سَنن الّذين من قبلكم » .

ورواه النسائي عن محمد بن رافع ، عن عبد الرزاق به . ورواه الترمذي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ، عن سفيان بن عُيينة . عن الزهري به ، ثم قال : حسن صحيح .

وقد روى ابن جرير من حديث محمد بن اسحاق ومعمر وعقيل ، عن الزُّهري ، عن سنان ابن أبي سنان عن أبي واقد اللَّيثي ، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، قال : وكان للكفار سدْرة يَعْكفون عندها ، ويعلّقون بها أسلحتهم ، يقال لها : « ذات أنواط » قال : فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال : فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . قال : « قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى : **﴿ اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهةٌ قال إنكم قومٌ تجهلون * إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾**

* * *

والمقصود أن موسى عليه السلام ، لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلادَ بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين(٢) والفزاريين والكنعانيين وغيرهم .

فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم ومقاتلتهم ، وإجلائهم إياهم عن بيت المقدس ؛ فإن الله كتبه لهم ، ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل ، وموسى الكليم الجليل ، فأَبَوا ونَكَلوا عن الجهاد ، فسلط الله عليهم الخوف . وألقاهم في التيه ، يسيرون ويحلّون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون ، في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون ، كما قال الله تعالى :

﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم آذكروا نعمة آلله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم مُلوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين * يا قوم آدخلوا الأرض المقدسة التي كتب آلله لكم ولا ترتدوا

---

(١) سورة الكهف الآيتان ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) الحثيين.

على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما آدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا يا موسى إنَّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فآذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ها هنا قاعدون * قال ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فآفرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها مُحرمةٌ عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾[1] .

يذكّرهم نبي الله نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بالنعم الدينية والدنيوية ، ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه قال : **﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم ﴾** أي تنكصوا على أعقابكم ، وتنكلُوا عن قتال أعدائكم **﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾** أي فتخسروا بعد الربح ، وتنقصوا بعد الكمال .

﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ﴾ أي عتاةً كفرة متمردين **﴿ وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾** خافوا من هؤلاء الجبارين ، وقد عاينوا هلاك فرعون ، وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً وأكثر جمعاً وأعظم جُنداً ، وهذا يدل على أنهم مَلُومون في هذه المقالة ، ومذمومون على هذه الحالة ، من الذلّة عن مُصَاولة الأعداء ، ومقاومة المردَة الأشقياء .

وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا آثاراً فيها مجازَفات كثيرة باطلة ، يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاماً جداً حتى أنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين ، فجعل يأخذهم واحداً واحداً ويلفهم في أكمامه وحجرة سراويله ، وهم اثنا عشر رجلاً ، فجاء بهم فنثرهم بين يدي ملك الجبارين ، فقال : ما هؤلاء ؟ ولم يعرف أنهم من بني آدم حتىّ عرَّفوه . وكل هذه هذيانات وخرافات لا حقيقة لها .

وأن الملك بعث معهم عنباً كل عنبة تكفي الرجُل ، وشيئاً من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم . وهذا ليس بصحيح .

وذكروا ها هنا أن عوج بن عنق خرج من عند الجبارين إلى بني إسرائيل ليهلكهم ، وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة ذراع وثلاثة وثلاثين ذراعاً وثلث ذراع .

هكذا ذكره البغوي وغيره ، وليس بصحيح ، كما قدمنا بيانه عند قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

---

(١) سورة المائدة الآيات ٢٠ ـ ٢٦ .

قالوا : فعمد عوج إلى قمة جبل فاقتلعها ، ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى ، **فجاء** طائر فنقرَ تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقاً في عنق عوج بن عنق ، ثم عمد موسى إليه فوثب في الهواء عشرة أذرع وطوله عشرة أذرع ، وبيده عصاه وطولها عشرة أذرع ، فوصل إلى كعب قدمه فقتله .

يُروى هذا عن نَوْف البكالي ، ونقله ابن جرير عن ابن عباس وفي إسناده إليه نظر . ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات ، وكل هذه من وضع جُهَّال بني إسرائيل فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ، ولا تمييز لهم بين صحتها وباطلها . ثم لو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على نكولهم ، وعاقبهم بالتِّيه على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم[1] . وقد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام ، ونهياهم عن الإحجام ، ويقال : إنهما يوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسُّدِّي والربيع بن أنس ، وغير واحد .

﴿ **قال رجلان من الذين يخافون** ﴾ أي يخافون الله ، وقرأ بعضهم « يُخافون » أي يُهابون ﴿ **أنعم الله عليهما** ﴾ أي بالإسلام والإيمان والطاعة والشجاعة ﴿ **ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي إذا توكلتم على الله ، واستعنتم به ولجأتم إليه ، نصرَكم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم .

﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ها هنا قاعدون** ﴾ فصمّم ملأهم على النكُول عن الجهاد ، ووقع أمرٌ عظيم ووهنَ كبير ، فيقال إن يوشع وكالب لما سمعا هذا الكلام شقَّا ثيابهما ، وإن موسى وهارون سجَدا إعظاماً لهذا الكلام وغضباً لله عز وجل ، وشفقةً عليهم من وبيل هذه المقالة .

قال ﴿ **قال ربِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ قال ابن عباس : أقضِ بيني وبينهم ﴿ **قال فإنها محرمةٌ عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ عُوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض ؛ يسيرون إلى غير مَقْصد ، ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساء . ويقال إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله ، بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة ، ولم يبق إلا ذراريهم ، سوى يوشع وكالب عليهما السلام .

لكن أصحاب محمد ﷺ يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى ، بل لما استشارهم في

---

(١) ربما كان هذا استيحاء من اسم القبائل التي قاتلوها وهي « العماليق » أما هذا الوصف الوارد فلم يرد في أسفار اليهود .

الذهاب إلى النَّفير تكلم الصِّديقُ فأحسَن ، وتكلم غيُره من المهاجرين .

ثم جعل يقول ﷺ : « أشيروا عليَّ » حتى قال سعدُ بن معاذ : «كأنك تعرِّضُ بنا يا رسول الله ؟ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضْتَ بنا هذا البحر فخضْته لخضناه معك ، ما تخلَّف منا رجل واحد ، وما نكْره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً ، إنا لصُبُر في الحرب ، صُدُق في اللقاء ، لعل الله أن يريك منا ما تقرّ به عينُك ، فسِرْ بنا على بركة الله » . فسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعد ونشَّطه ذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، حدثنا سفيان ، عن مخارق بن عبد الله الأحمسي ، عن طارق ـ هو ابن شهاب ـ أن المِقْداد قال لرسول الله ﷺ يومَ بدر : يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ها هنا قاعدون** ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون .

وهذا إسناد جيد من هذا الوجه ، وله طرق أخرى .

قال أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل ، عن مخارق ، عن طارق بن شهاب ، قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لقد شهدت من المقداد مَشْهداً ، لأن أكون أنا صاحبَه ، أحبُّ إليَّ مما عُدِل به . أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ها هنا قاعدون** ﴾ ، ولكننا نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلْفك . فرأيتُ وجهَ رسول الله ﷺ يُشْرِق لذلك وسُرَّ بذلك .

رواه البخاري في التفسير ، والمغازي من طُرق عن مخارق به .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا علي بن الحسين بن علي ، حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثنا حُميد عن أنس ، أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر ، استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يا معشر الأنصار إيّاكم يريد رسول الله ﷺ ؛ قالوا : إذاً لا نقول له كما قال بنو إسرائيل لموسى : ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ ، والذي بعثك بالحق لو ضرْبْتَ أكبادها إلى بَرْك[1] الغِمَاد لاتبعناك .

رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد ، عن حميد الطويل ، عن أنس به ، ورواه النسائي عن محمد بن المثنى ، عن خالد بن الحارث ، عن حميد ، عن أنس به نحوه . وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى ، عن عبد الأعلى بن حماد عن معتمر عن حميد عن أنس به نحوه .

---

(١) برك الغماد : موضع في أقصى اليمن والمقصود إلى أي مكان .

فصل في دخول بني إسرائيل التيه
وما جرى لهم من الأمور العجيبة

قد ذكرنا نكولَ بني إسرائيل عن قتال الجبارين ، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه ، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة .

ولم أر في كتاب أهل الكتاب قصة نُكولهم عن قتال الجبارين ، ولكن فيها[1] : أن يوشع جهَّزه موسى لقتال طائفة من الكفار ، وأن موسى وهارون وخور[2] جلسوا على رأس أكمة ، ورفع موسى عصاه ، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم ، وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك ، وجعل هارون وخور يَدْعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم الى غروب الشمس ، فانتصر حزب يوشع عليه السلام . وعندهم أن « يثرون » كاهن مدين وختن موسى عليه السلام بلغه ما كان من أمر موسى وكيف أظفره الله بعدوه فرعون ، فقدم على موسى مسلماً ، ومعه ابنته « صفورا » زوجة موسى ، وابناها منه ، جرشون ، وعازر ، فتلقاه موسى وأكرمه ، واجتمع به شيوخ بني إسرائيل وعظموه وأجلّوه .

وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على موسى في الخصومات التي تقع بينهم ، فأشار على موسى أن يجعل على الناس رجالاً أمناء أتقياء أعفاء ؛ يبغضون الرشا والخيانة ، فيجعلهم على الناس رؤوس ألوف ، ورؤوس مئين ، ورؤوس خمسين ، ورؤوس عشرة ، فيقضوا بين الناس ، فإذا أشكل عليهم أمر جاؤوك ففصلْت بينهم ما أشكل عليهم ، ففعل ذلك موسى عليه السلام .

قالوا : ودخل بنو إسرائيل البرّية عند سِيناء ، في الشهر الثالث من خروجهم من مصر . وكان خروجهم في أول السنة التي شُرعت لهم ، وهي أول فصل الربيع ، فكأنهم دخلوا التيه في أول فصل الصيف ، والله أعلم .

قالوا : ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء ، وصعد موسى الجبل فكلمه ربه ، وأمره أن يُذكّر بني إسرائيل ما أنعم به عليهم ، من إنجائه إياهم من فرعون وقومه ، وكيف حمَلهم على مثل جناحي نسر من يده وقبضته ، وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث ، فإذا كان في اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل ، ولا يقتربن أحد

---

(١) هذا بعد الأربعين سنة .

(٢) حور بالحاء ويبدو أن كل الأسماء الآرامية قد ترجمت زمن ابن كثير بقلب الحاء خاء. وقلب التاء ثاء .

منهم إليه ، فمن دنا منه قُتل ، حتى ولا شيء من البهائم ، ما داموا يسمعون صوتَ القرْن[1] فإذا سكن القرن فقد حل لكم أن ترتقوه . فسمع بنو اسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتنظفوا وتطيبوا .

فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامةٌ عظيمة ، وفيها أصوات وبروق ، وصوت الصُّور شديد جداً ، ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً ، وخرجوا فقاموا في سفح الجبل ، وغشي الجبلَ دخان عظيم في وسط عمود نور زلزل الجبل كله زلزلةً شديدة ، واستمر صوت الصُّور ، وهو البوق واشتد ، وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلّمه ويناجيه . وأمر الرب عز وجل موسى أن ينزل ؛ فيأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله ، وأمر الأحبار ، وهم علماؤهم ، أن يدنوا فيصعدوا الجبل ، ليتقدّموا بالقرب .

وهذا نصٌّ في كتابهم على وقوع النَّسخ لا محالة .

فقال موسى : يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوا ، وقد نهيتَهم عن ذلك فأمره الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بأخيه هارون وليكن الكهنةُ وهم العلماء والشعب وهم بقية بني إسرائيل ، غير بعيد ، ففعل موسى .

وكلمه ربه عز وجل ، فأمره حينئذٍ بالكلمات العشر .

وعندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلامَ الله ، ولكن لم يفهموا حتى فهَّمهم موسى ، وجعلوا يقولون لموسى : بلِّغنا أنت عن الرب عز وجل ، فإنا نخاف أن نموت .

فبلَّغهم عنه فقال هذه العشر الكلمات ، وهي : الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والنهي عن الحلف بالله كاذباً ، والأمر بالمحافظة على السَّبْت ومعناه تفرّغ يوم من الأسبوع للعبادة ، وهذا حاصلٌ بيوم الجمعة الذي نسَخ الله به السبت ، أكرمْ أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض ، الذي يعطيك الله ربُّك ، لا تَقْتل ، لا تَزْن ، لا تَسْرق ، لا تشهد على صاحبك شهادةَ زور ، لا تمدّ عينك الى بيت صاحبك ، ولا تشته امرأةَ صاحبك ، ولا عبدَه ولا أمتَه ولا ثَوره ولا حماره ولا شيئاً من الذي لصاحبك . ومعناه النهي عن الحسد .

وقد قال كثير من علماء السلف وغيرهم : مضمون هذه العشر الكلمات في آيتين من القرآن ، وهما قوله تعالى في سورة الأنعام :

﴿ قل تعالوا أتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا

---

(١) بوق يصنع من قرن الثور .

النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلاَّ بالّتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نُكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاْعدلوا ولو كان ذا قربىٰ وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مستقيماً فاْتبعوه ولا تتبِّعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتَّقون ﴾(١) .

وذكروا بعد العشر الكلمات وصايا كثيرة وأحكاماً متفرقة عزيزة ، كانت فزالت ، وعُمِل بها حيناً من الدهر ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها ، ثم عمَدوا إليها فبدَّلوها وحرَّفوها ، ثم بعد ذلك كله سُلبوها فصارت منسوخة مبدَّلة ، بعد ما كانت مشروعة مكملة .

فلله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو الذي يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وقال الله تعالى : **﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المنَّ والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلَّ عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوىٰ * وإني لغفَّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم آهتدىٰ ﴾**(٢) .

يذكر تعالى مِنّته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلَّصهم من الضِّيق والحرَج وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أي منهم ؛ لينزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع ، مَنًّا من السماء ، يصبحون فيجدونه خلالَ بيوتهم ، فيأخذون منه قَدْر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ، ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسدَ ، ومن أخذ منه قليلاً كَفَاه ، أو كثيراً لم يفضل عنه ، فيصنعون منه مثل الخبز ، وهو في غاية البياض والحلاوة ، فإذا كان من آخر النهار غشيهم طَير السَّلوى ، فيقتنصون منها بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم .

وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام ، وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر ؛ كما قال تعالى في سورة البقرة : **﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون * وآمنوا بما أنزلتُ مصدِّقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴾**(٣) .

---

(١) سورة الأنعام الآيات ١٥١ ـ ١٥٣ .

(٢) سورة طه الآيات ٨٠ ـ ٨٢ .

(٣) سورة البقرة الآيتان ٤٠ ـ ٤١ .

إلى أن قال : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون * وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم آتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفوناعنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون * وإذ آتيناموسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون * وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم بآتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فآقتلوا أنفسكم ذلك خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التوَّاب الرحيم * وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى آلله جهرةً فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلَّكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنَّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(1) .

إلى أن قال : ﴿ وإذ آستسقى موسى لقومه فقلنا آضرب بعصاك الحجر فآنفجرت منه آثنتا عشرة عيناً قد علم كلُّ أناسٍ مشربهم كلوا وآشربوا من رزق آلله ولا تعثوا في الأرض مفسدين * وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعامٍ واحدٍ فآدع لنا ربك يُخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفُومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ آهبطوا مِصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبآؤا بغضبٍ من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾(2) .

فذكر تعالى إنعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، بما يَسَّر لهم من المنِّ والسَّلوى ، طعامين شهيين بلا كلْفة ولا سعْي لهم فيه ، بل ينزل الله المنَّ باكراً ، ويرسل عليهم طيرَ السلوى عشياً ، وأنبع الماء لهم ؛ يضرب موسى عليه السلام حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا ، فيتفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سبط عينٌ منه تنبجس ، ثم تتفجر ماء زلالاً فيستقون فيشربون ويسقون دوابّهم ، ويدّخرون كفايتهم ، وظلل عليهم الغمام من الحر .

وهذه نعم من الله عظيمة ، وعَطيّات جَسيمة ، فما رعوها حق رعايتها ، ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ، ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها ، وسألوا أن يُستبدلوا منها ببدلها ، مما تنبت الأرض من بَقْلها وقِثّائها وفُومها وعدسها وبصَلها .

فقرَّعهم الكليم ووبَّخهم وأنبَّهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً : ﴿ أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ أي هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه

(1) سورة البقرة الآيات ٤٩ ـ ٥٧ .

(2) سورة البقرة الآيتان ٦٠ ، ٦١ .

النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها ، وإذا هبطتم إليها ، أي ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها ـ تجدون بها ما تشتهون وما تَرومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الرَّدِيَّة ، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك ها هنا ، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى .

وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم ، تدل على أنهم لم ينتهوا عما نُهوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ **ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يَحْلل عليه غضبي فقد هَوى** ﴾[1] أي فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار ، وقد حل عليه غضب الملك الجبار .

ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد ، بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد ، فقال : ﴿ **وإني لغفارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ .

(١) سورة طه الآية ٨١ .

سؤال الرؤيـة

قال تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشرٍ فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون آخلفني في قومي وأصلح ولا تتَّبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن آنظر إلى الجبل فإن آستقرَّ مكانه فسوف تراني فلمَّا تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صعِقاً فلمَّا أفاق قال سبحانك تُبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال يا موسى إني آصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا له في الألواح من كلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكل شيءٍ فخذها بقوةٍ وأْمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتي الذين يتكبَّرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كُلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتَّخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل آلغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وآلذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾[1] .

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة بكماله ، وأتمت أربعين ليلة بعشر من ذي الحجة .

فعلى هذا يكون كلام الله له يومَ عيد النحر ، وفي مثله أكمل الله عز وجل لمحد ﷺ دينه ، وأقام حجته وبراهينه .

والمقصود أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات ، وكان فيه صائماً يقال إنه لم يستطعم الطعام ، فلما كمل الشهر أخذ لحاء شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه ، فأمره الله أن يمسك عَشْراً أُخرى ، فصارت أربعين ليلة . ولهذا ثبت في الحديث : أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بني إسرائيل أخاه هارون ، المحبَّب المبجَّل الجليل . وهو ابن أمه وأبيه ، ووزيره في الدعوة إلى مصطفيه ، فوصَّاه ، وأمَره وليس في هذا لعلو منزلته في نبوته منافاة .

قال الله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ أي في الوقت الذي أُمر بالمجيء فيه ﴿ وكلمه

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٤٢ ـ ١٤٧ .

ربه ﴾ أي كلمه الله من وراء حجاب ، إلا أنه أسمعه الخطاب ، فناداه وناجاه ، وقرَّبه وأدناه . وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ، ومنصب شريف ومنزل منيف ، فصلوات الله عليه تترى ، وسلامه عليه في الدنيا والأخرى .

ولما أُعطي هذه المنزلة العليّة والمرتبةالسنية ، وسمع الخطاب ، سأل رَفْع الحجاب ، فقال للعظيم الذي لا تُدركه الأبصار القوي البرهان : ﴿ **قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني** ﴾ ثم بيَّن تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجلّيه تبارك وتعالى ، لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الانسان ، لا يثبت عند التجلِّي من الرحمن ، ولهذا قال : ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني** ﴾ .

وفي الكتب المتقدمة : أن الله تعالى قال له : « يا موسى إنه لا يراني حيّ إلا مات ، ولا يابس إلا تدهْدَهَ »(١) .

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حِجَابه النور - وفي رواية : النار - لو كشفه لأَحرقت سُبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خَلقه » .

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **لا تُدْركه الأبصار** ﴾ ذاك نوره الذي هو نوره ، إذا تجلَّى لشيء لا يقوم له شيء .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صَعقاً فلما أفاق قال سبحانك تُبتُ إليك وأنا أولُ المؤمنين** ﴾ .

قال مجاهد : ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني** ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خَلقاً ، ﴿ **فلما تجلَّى ربه للجبل** ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك ، وأقبل الجبل فُدكَّ على أوله ، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخرَّ صعقاً .

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد والترمذي ، وصححه ابن جرير والحاكم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت ، زاد ابن جرير وليث عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ : ﴿ **فلما تجلَّى ربه للجبل جَعله دكاً** ﴾ قال : هكذا بإصبعه ، ووضع النبي ﷺ الإبهامَ على المِفْصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل .

لفظ ابن جرير .

وقال السُّدي عن عِكرمة ، عن ابن عباس : ما تجلى - يعني من العظمة - منه إلا قدر

---

(١) تدهده : خسف بهْ متدحرجاً .

الخنصر فجعل الجبل دكاً ، قال : تراباً ، ﴿ وخَرَّ موسى صعقاً ﴾ أي مغشياً عليه . وقال قتادة : ميتاً . والصحيح الأول لقوله : ﴿ فلما أفاق ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون من غَشْي ﴿ قال سبحانك ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ، ﴿ تُبتُ إليك ﴾ أي فلست أسأل بعد هذا الرؤيةَ ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ أنه لا يراك أحد حيّ إلا مات ، ولا يابس إلا تدهَدْه .

وقد ثبت في الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي حسن المازني الأنصاري ، عن أبيه ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تخيِّروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قَبلي أم جُوزي بِصَعْقة الطور » ؟ .

لفظ البخاري . وفي أوله قصة اليهودي الذي لطم وجهه الأنصاري حين قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر . فقال رسول الله ﷺ : « لا تخيروني من بين الأنبياء » .

وفي الصحيحين من طريق الزهري عن أبي سلمة وعبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبيﷺ بنحوه . وفيه : « لا تخيروني على موسى » وذكر تمامه .

وهذا من باب الهضم والتواضع ، أو نهيٌ عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية ، أوليس هذا إليكم بل الله هو الذي رفع بعضَهم فوق بعض درجات ، وليس يُنال هذا بمجرد الرأي ، بل بالتوقيف .

ومن قال إن هذا قاله قبل أن يَعلم أنه أفضل ، ثم نُسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم ، ففي قوله نظر ؛ لأن هذا من رواية أبي سعيد وأبي هريرة ، وما هاجر أبو هريرة إلا عامَ حُنين متأخراً ، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا . والله أعلم .

ولا شك أنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أفضلُ البشر بل الخليقة ، قال الله تعالى : ﴿كنتم خيرَ أُمةٍ أُخرجت للناس ﴾[1] وما كملوا إلا بشرف نبيهم .

وثبت بالتواتر عنه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » . ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذي يَغْبطه به الأولون والآخرون ، الذي تحيد عنه الأنبياء والمرسلون ، حتى أولو العزم الأكملون : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم عليهم السلام .

وقوله ﷺ : « فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ـ أي آخذاً بها ـ فلا

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

أدري أفاق قبلي أم جُوزي بصَعقة الطور » دليل على أن هذا الصَّعق الذي يَحْصل للخلائق في عَرصات القيامة ، حين يتجلى الربُّ لفصل القضاء بين عباده ، فيُصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلاء ، فيكون أولهم إفاقةً محمدُ خاتم الأنبياء ﷺ ومصطَفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء ، فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش . قال الصادق المصدوق : « فلا أدري أصُعق فأفاق قبلي ؟ » أي وكانت صعقته خفيفة ، لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق ، « أو جُوزي بصعقة الطور ؟ » يعني فلم يُصعق بالكليّة .

وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية ، ولا يلزم تفضيله بها مطلقاً من كل وجه ، ولهذا نبه رسول الله ﷺ على شرفه وفضيلته بهذه الصفة ؛ لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودي حين قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، قد يحصل في نفوس المشاهدين لذلك هَضْم بجناب موسى عليه السلام ، فبيَّن النبي ﷺ فضيلته وشرفه .

وقوله تعالى ﴿ **قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي** ﴾(١) أي في ذلك الزمان ، لا فيما قبله ، لأن ابراهيم الخليل أفضل منه ، كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم ، ولا ما بعده ؛ لأن محمداً ﷺ أفضل منهما ، كما ظهر شَرَفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء ، وكما ثبت أنه قال : « سأقوم مقاماً يَرْغب إليَّ الخلقُ حتى إبراهيم » .

وقوله تعالى : ﴿ **فخذ ما آتيتك وكُن من الشاكرين** ﴾(٢) أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ، ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك .

وقال الله تعالى : ﴿ **وكتبنا له في الألواح من كل شيءٍ موعظة وتفصيلاً لكلّ شيءٍ** ﴾(٣) . وكانت الألواح من جوهر نفيس ، ففي الصحيح : أن الله كتب له التوراة بيده ، وفيها مواعظ عن الآثام ، وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام .

﴿ **فخذها بقوةٍ** ﴾ أي بعزم ونية صادقة قوية ﴿ **وأمر قومك يأخُذوا بأحسنها** ﴾ أن يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل محاملها ﴿ **سأريكم دارَ الفاسقين** ﴾(٤) أي سترون عاقبة الخارجين عن طاعتي ، المخالفين لأمري ، المكذبين لرسلي .

﴿ **سأصرف عن آياتي** ﴾ أي عن فهمها وتدبّرها ، وتعقّل معناها الذي أُريد منها ، ودلَّ عليه

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٤ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٤٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٤٥

مقتضاها ﴿ **الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يَروا كلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها** ﴾ أي ولو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات ، لا ينقادون لاتباعها ، ﴿ **وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً** ﴾ أي لا يسلكوه ولا يتبعوه ﴿ **وإن يروا سبيلَ الغيّ يتخذوه سبيلاً ، ذلك بأنهم كذَّبوا بآياتنا** ﴾ أي صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا ، وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير في معناها ، وترك العمل بمقتضاها : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حَبطت أعمالهم ، هل يُجْزون إلا ما كانوا يعملون** ﴾[1] .

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٦ .

قصة عبادتهم العجل
في غيبة كليم الله عنهم

قال الله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوارٌ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً آتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أَسِفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال آبن أُمَّ إن القوم آستضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال ربِّ آغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين آتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلةٌ في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ * ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدىً ورحمةٌ للذين هم لربهم يرهبون ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري وعجلتُ إليك ربِّ لترضىٰ * قال فإنَّا قد فتنَّا قومك من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان أَسِفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أَفَطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضبٌ من ربكم فأخلفتم موعدي * قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوارٌ فقالوا هذا إلٰهكم وإله موسى فنسيَ * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فآتَّبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألَّا تتبعنِ أفعصيت أمري * قال يا بنَ أمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرَّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي * قال فما خطبك يا سامري * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضةً من أثرِ الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي * قال فآذهب فإنَّ لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وآنظر إلى إلٰهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً لنحرِّقنه ثم لننسفنه في

(١) سورة الأعراف الآيات ١٤٨ ـ ١٥٤ .

آليَم نسفاً * إنما إلٰهكم ٱللهُ الذي لا إله إلا هو وسع كل شيءٍ عِلماً ﴾[1] .

يـذكر تعـالى ما كـان من أمر بني اسـرائيل ، حـين ذهب موسى عليـه السـلام الى ميقـات ربـه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها .

فعَمد رجل منهم يقال له هارون السامري ، فأخـذ ما كـانوا استعـاروه من الحلى ، فصـاغ منه عجلاً وألـقى فيه قبضةً من التراب ، كـان أخذهـا من أثر فـرس جبريـل ، حين رآه يـومَ أغرق الله فرعون على يديه ، فلما ألقاها فيه خـارَ كما يخور العِجْل الحقيقي . ويقـال إنه استحـال عجلاً جسـداً أي لحماً ودماً حياً يخور ، قـاله قتـادة وغيره . وقيـل : بل كـانت الريـح إذا دخلت من دبره خـرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة ، فيرقصون حوله ويفرحون .

﴿ **فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي** ﴾ أي فنسي موسى ربَّـه عندنـا ، وذهب يتطلبـه وهو هـا هنا ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وتقدست أسماؤه وصفاته ، وتضاعفت آلاؤه وهِبَاته .

قـال الله تعالى مبيِّنـاً بطلان مـا ذهبوا إليـه ، وما عـوَّلوا عليـه من إلهية هـذا الـذي قصـاراه أن يكون حيواناً بهيماً أو شيطاناً رجيماً ﴿ **أفلا يـرون ألا يرجـع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضـراً ولا نفعاً** . وقال : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾[2] .

فـذكر أن هـذا الحيـوان لا يتكلم ولا يـرد جـوابـاً ، ولا يملك ضـرًّا ولا نفعـاً ، ولا يهـدي إلى رشد ، اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم ، عالمون في أنفسهم بُطلان ما هم عليه من الجهل والضلال .

﴿ **ولما سقط في أيديهم** ﴾ أي ندموا على ما صنعـوا ﴿ **ورأوا أنهم قد ضلوا قـالوا لئن لم يـرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ .

* * *

ولمـا رجع مـوسى عليه السـلام إليهم ، ورأى ما هم عليـه من عبـادة العجـل ، ومعـه الألـواح المتضمنـة التوراة ، ألقـاها ، فيقـال إنه كسَـرها . وهكـذا هو عنـد أهـل الكتـاب ، وإن الله أبـدلـه غيرها ، وليس في اللفظ القرآني ما يدل على ذلك ، إلا أنه ألقاها حين عايَن ما عاين .

وعند أهل الكتـاب : أنهما كانـا لوحَـيْنْ ، وظاهـر القرآن أنها ألـواح متعددة ، ولم يتـأثر بمجـرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل ، فأمره بمعاينةذلك .

ولهـذا جاء في الحـديث الذي رواه الإمـام أحمد وابن حبـان عن ابن عباس قـال : قال رسـول الله ﷺ : « ليس الخبر كالمعاينة » .

---

(١) سورة طه الآيات ٨٣ ـ ٩٨ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٨ .

ثم أقبـل عليهم فعنَّفهم ووبخهم وهجَّنهم في صنيعهم هذا القبيح فـاعتـذروا إليـه ، بمـا ليس بصحيح ، قالـوا إنا ﴿ حُملنـا أوزاراً من زينة القـوم فقذفنـاها فكـذلك ألقى السامري ﴾ تحـرجوا من تملّك حُلى آلِ فرعون وهم أهل حرب ، وقد أمـرهم الله بأخـذه وأباحـه لهم ، ولم يتحرجـوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبـادة العجل الجسـد الذي لـه خُوار ، مـع الواحـد الأحـد الفـرد الصمـد القهار ! .

ثم أقبـل على أخيـه هارون عليهـما السلام قـائلاً لـه : ﴿ قال يـا هارون مـا منعـك إذ رأيتَهم ضلُّوا ألا تتبعن ﴾ أي هـلاّ لما رأيت مـا صنعـوا اتبعتني فـأعلَمْتني بمـا فعلوا ، فقـال : ﴿ إني خشيت أن تقول فرَّقتَ بين بني إسرائيل ﴾ أي تركتهم وجئتك وأنت استخلفتني فيهم .

﴿ قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ وقـد كان هـارون عليه السلام نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي ، وزجرَهم عنه أتمَّ الزجر .

قال الله تعالى : ﴿ ولقـد قال لهم هـارون من قبلُ يـا قوم إنمـافتنتُم به ﴾ أي إنمـا قدَّر الله أمـرَ هذا العجل وجعله يخور فتنةً واختبـاراً لكم ، ﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ أي لا هـذا ﴿ فاتبعـوني ﴾ أي فيما أقول لكم ﴿ وأطيعوا أمري * قالوا لن نَبْرح عليه عـاكفين حتى يـرجع إلينـا موسى ﴾ يشهـد الله لهارون عليه السلام ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ولم يتبعوه .

ثم أقبل موسى على السامـري ﴿ قال فـما خطبـك يا سـامري ﴾ أي مـا حملك على مـا صنعت ﴿ قـال بصرت بمـا لم يبصروا بـه ﴾ أي رأيت جبريـل وهـو راكب فـرسـاً ﴿ فقبضت قبضـةً من أثـرِ الرسول ﴾ أي من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه رآه ، وكلما وطئت بحوافرها عـلى موضـع اخضرَ وأعشَب ، فـأخذ من أثـر حافرها ، فلما ألقـاه في هذا العجـل المصنوع من الـذهب كـان من أمره ما كان . ولهذا قال : ﴿ فنبذتهـا وكذلـك سولت لي نفسي * قـال فاذهب فـإن لك في الحيـاة أن تقـول لا مسَاس ﴾ وهـذا دعاء عليـه بأن لا يمس أحـداً ، معاقبـةً له عـلى مسه مـا لم يكن له مسّـه ، هذا معاقبة له في الـدنيا ، ثم تـوعَّده في الأخـرى فقال : ﴿ وإن لـك موعـداً لن تخلفه ﴾ ـ وقـرىء « لن نُخْلِفـه » ﴿ وانظر إلى إلهـك الذي ظَـلْتَ عليـه عاكفـاً ، لنحرّقنـه ثم لنَنسفنـه في اليم نسفـاً ﴾ قال : فعمد مـوسى عليه السـلام إلى هذا العجـل ، فحرقـه قيل : بـالنار ، كـما قالـه قتادة وغيـره . وقيل : بالمبارد ، كما قاله عـليّ وابن عباس وغيـرهما ، وهـو نص أهل الكتـاب ، ثم ذرَّاه في البحر ، وأمر بني إسرائيل فشربوا ، فمن كان من عابديه عَلَق على شفـاههم من ذلك الـرماد مـا يدل عليـه ، وقيل : بل اصفرت ألوانهم .

ثم قـال تعالى إخبـاراً عن موسى أنـه قال لهم : ﴿ إنمـا إلهكم الله الذي لا إلـه إلا هـو ، وسـع كلَّ شيءٍ علماً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلةٌ في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾[1] وهكذا وقع . وقد قال بعض السلف : ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ مسجَّلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة ! .

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه ، وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه ، بتوبته عليه ، فقال : ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ ﴾[2] .

لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجلَ ، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلك خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم ﴾[3] فيقال إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف ، وألقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريبُ قريبه ولا النسيبُ نسيبه ، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال إنهم قَتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفاً !

ثم قال تعالى: ﴿ ولما سكتَ عن موسى الغضبُ أخذَ الألواح ، وفي نُسختها هدىً ورحمةٌ للذين هم لربهم يرهبون ﴾[4] ، استدل بعضهم بقوله : ﴿ وفي نُسْختها ﴾ على أنها تكسَّرت ، وفي هذا الاستدلال نظر ، وليس في اللفظ ما يدل على أنها تكسرت ، والله أعلم .

وقد ذكر ابن عباس في حديث الفتون كما سيأتي : أن عبادتهم العجل كانت على أثر خروجهم من البحر . وما هو ببعيد ، لأنهم حين خرجوا ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ . وهكذا عند أهل الكتاب ، فإن عبادتهم العجل كانت قبل مجيئهم بلادَ بيت المقدس . وذلك أنهم لمّا أُمروا بقتل من عبدَ العجلَ ، قتلوا في أول يوم ثلاثة آلاف ، ثم ذهب موسى يستغفر لهم ، فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة .

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئت أهلكْتَهم من قبلُ وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاءُ منا إن هي إلا فتنتك تضلُّ بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خيرُ الغافرين * واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة إنا هُدْنا إليك ، قال عذابي أُصيب به من أشاءُ ، ورحمتي وسعت كلَّ شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويُؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأُميَّ الذي يجدونه مكتوباً

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ٥٤ .

(٤) سورة الأعراف الآية ١٥٤ .

عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُحِلُّ لهم الطيباتِ ويُحرِّم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصْرهم والأغلالَ التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النورَ الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[١] .

ذكر السُّدي وابن عباس وغيرهما ، أن هؤلاء السبعين كانوا علماء بني إسرائيل ، ومعهم موسى وهارون ويوشع وناذاب وأبيهو ، ذهبوا مع موسى عليه السلام ، ليعتذروا عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجلَ . وكانوا قد أُمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا ، فلما ذهبوا معه واقتربوا من الجبل وعليه الغمام ، وعمود النور ساطع صعد موسى الجبل .

فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام الله ، وهذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين ، وحَمَلوا عليه قوله تعالى : **﴿ وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثم يحرِّفونه من بعد ما عقَلوه وهم يعلمون ﴾**[٢] .

وليس هذا بلازم ، لقوله تعالى : **﴿ فأجِرْه حتى يسمع كلامَ الله ﴾**[٣] . أي مبلغاً ، وهكذا هؤلاء سمعوه مبلغاً من موسى عليه السلام .

وزعموا أيضاً أن السبعين رأوا الله ، وهذا غلط منهم ، لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجْفة ، كما قال تعالى : **﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾**[٤] . وقال ها هنا : **﴿ فلما أخذتهم الرجفةُ قال ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإيايَ ﴾**[٥] .

قال محمد بن إسحاق : اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً : الخير فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه بما صَنعتم وسَلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم .

فخرج بهم إلى طور سيناء ، لميقات وقَّته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم . فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلامَ الله ، فقال : أفعل .

فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشىَّ الجبلَ كله ، ودنا موسى فدخل

(١) سورة الأعراف الآيات ١٥٥ ـ ١٥٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٧٥ .

(٣) سورة التوبة الآية ٦ .

(٤) سورة البقرة الآيتان ٥٥ ، ٥٦ .

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٥ .

في الغمام ، وقال للقوم : ادنُوا . وكان موسى إذا كلمه الله ، وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ، فضُرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه : إفعل ولا تفعل . فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا : ﴿ **يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ فأخذتهم الرجفة ، وهي الصاعقة فأتلفت أرواحهم فماتوا جميعاً . فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ، ويَرْغب إليه ويقول : ﴿ **قال رب لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإيايَّ ، أتُهلكنا بما فعل السفهاءُ منا** ﴾ أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبَدَوا العجلَ منا فإنَّا براء مما عملوا .

وقال ابن عباس ومجاهد وقَتادة وابن جُرَيج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهَوا قومهم عن عبادة العجل . وقوله : ﴿ **إن هي إلاَّ فتنتك** ﴾ أي اختبارك وابتلاؤك وامتحانك . قاله ابن عباس وسعيد بن جُبَير وأبو العالية والربيع بن أنس ، وغير واحد من علماء السلف والخلف ، يعني أنت الذي قدَّرت هذا ، وخلقتَ ما كان من أمر العجل اختباراً تختبرهم به كما : ﴿ **قال لهم هارون من قبلُ يا قوم إنما فُتنتم به** ﴾ أي اختُبرتم .

ولهذا قال : ﴿ **تُضلُّ بها من تشاء وتهدي من تشاء** ﴾ أي من شئت أضللته باختبارك إياه ، ومن شئت هديْته ، لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا رادَّ لما حكمتَ وقضيت .

﴿ **أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة إنا هُدْنا إليك** ﴾[1] أي تُبْنا إليك ورجعنا وأنبنا . قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية وإبراهيم التَّيمي ، والضحاك والسُّدي وقتادة وغير واحد . وهو كذلك في اللغة .

﴿ **قال عذابي أُصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كلَّ شيء** ﴾ أي أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التي أخلقها وأقدّرها .

﴿ **ورحمتي وسعت كل شيءٍ** ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض كتبَ كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش : « إن رحمتي تغلب غضبي » ﴿ **فسأكتبها للذين يتّقون ويُؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أي فسأوجبها لمن يتصف بهذه الصفات : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأُمي** ﴾[2] الآية .

وهذا فيه تنويه بذكر محمد ﷺ وأمته من الله لموسى عليه السلام ، في جملة ما ناجاه به وأعلَمه وأطلعه عليه . وقد تكلمنا على هذه الآية وما بعدها في التفسير بما فيه كفاية ومَقنع ، ولله

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

الحمد والمنة .

وقال قتادة : قال موسى : يا رب إني أجد في الألواح أمةً هي خير أمة أُخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أُمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أُمة هم الآخِرون في الخلق ، السابقون في دخول الجنة ، رب اجعلهم أُمتي ، قال : تلك أُمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أُمةً أناجيلهم في صدورهم يقرأونها ، وكان من قبلهم يقرأون كتابهم نظراً ، حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئاً لم يعطه أحداً من الأمم ، قال : رب اجعلهم أُمتي ، قال : تلك أُمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أُمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، ويقاتلون فضول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أُمتي ، قال : تلك أُمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أُمةً صدَقاتهم يأكلونها في بطونهم ، ويُؤجَرون عليها . وكان مَن قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقُبلت منه بعث الله عليها ناراً فأكلتْها ، وإن رُدَّت عليه تُركت فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم ، قال : رب فاجعلهم أُمتي ، قال : تلك أُمة أحمد .

قال : رب فإني أجد في الألواح أُمة إذا هَمَّ أحُدُهم بحسنَة ثم لم يعملها كُتبت له عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال : رب اجعلهم أُمتي ، قال : تلك أُمة أحمد .

قال : رب إني أجد في الألواح أُمة هم المشفَّعون المشفوع لهم ، فاجعلهم أُمتي ، قال : تلك أُمة أحمد .

قال قتادة : فذُكر لنا أن موسى عليه السلام ، نبذ الألواح[١] . وقال : اللهم اجعلني من أُمة أحمد .

وقد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام ، وأوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها ونحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث والآثار بعون الله وتوفيقه ، وحسن هدايته ومعونته وتأييده .

قال الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم بن حبان في صحيحه « ذكر سؤال كليم الله ربه عز

(١) وهذا لا يصح ، لأنه لا يصدر من نبي اختاره الله له كليماً ، فالألواح من عند الله فكيف ينبذها وفي ذلك عصيان لله عز وجل ؟ .

وجل عن أدنى أهل الجنة وأرفعهم منزلة » : أخبرنا عمر بن سعيد الطائي ببلخ ، حدثنا حامد بن يحيى البلخي ، حدثنا سفيان ، حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن أبجر شيخان صالحان ، قالا : سمعنا الشَّعبي يقول : سمعت المغيرةَ بن شعبة يقول على المنبر عن النبي ﷺ : « إن موسى عليه السلام سأل ربه عز وجل : أيُّ أهل الجنة أدنى منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : كيف أدخل الجنة وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا إخاذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك من الجنة مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقال : لك هذا ومثله معه ، فيقول : أي رب رضيت ؛ فيقال له : لك مع هذا ما اشتهت نفسك ، ولذَّت عينك . وسأل ربَّه : « أي أهل الجنة أرفع منزلة ؟ قال : سأحدثك عنهم ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

ومصْداق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ **فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قُرَّة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[1] .

وهكذا رواه مسلم والترمذي وكلاهما عن ابن أبي عمر ، عن سفيان وهو ابن عيينة به . ولفظ مسلم : « فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلك من ملوك الدنيا ؟ فيقال : رضيت رب . فيقال له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فيقول في الخامسة : رضيت رب . فيقال : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب.« قال :رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم ترَ عين ولم تسمع أُذن ولم يخطر على قلب بشر » .

قال ومصداقه من كتاب الله : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ .

وقال الترمذي : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة فلم يرفعه ، والمرفوع أصح .

وقال ابن حبان « ذكر سؤال الكليم ربه عن خصال سبع » : حدثنا عبدالله بن محمد بن مسلم ببيت المقدس ، حدثنا حَرْمَلة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، أن أبا السَّمح حدثه عن ابن حُجَيرة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « سأل موسى ربَّه عز وجل عن سِتّ خصالٍ كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها : قال : يا

(١) سورة السجدة الآية ١٧ .

رب . . . أيُّ عبادك أتقى ؟ قال : الذي يَذكر ولا ينسى(١) . قال : فأي عبادك أهْدَى ؟ قال . الذي يتَّبع الهديَ . قال : فأيُّ عبادك أحْكَم ؟ قال : الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه . قال : فأي عبادك أعْلَم ؟ قال : عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علمَ الناس إلى علمه . قال : فأيُّ عبادك أعز ؟ قال : الذي إذا قدَرَ غفر ، قال : فأيُّ عبادك أغنى ؟ قال : الذي يرضى بما يُؤتَى . قال : فأيُّ عبادك أفقر ؟ قال : صاحب منقوص » .

وقال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن ظهر(٢) ، إنما الغِنى غنىَ النفس ، وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه وتُقاه في قلبه ، وإذا أراد بعبد شراً جعل فقره بين عينيه »(٣) .

قال ابن حبان : قوله : « صاحب منقوص » يريد به منقوص حالته ، يستقل ما أُوتي ويطلب الفضل .

وقد رواه ابن جرير في تاريخه عن ابن حُمَيد ، عن يعقوب التميمي ، عن هارون بن هبيرة ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : سأل موسى ربَّه عز وجل فذكر نحوه . وفيه : « قال : أيْ رب فأيُّ عبادك أعلمَ ؟ قال : الذي يبتغي علم الناس إلى علمه ، عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : أي رب فهل في الأرض أحدٌ أعلم مني ؟ قال : نعم الخضر فسأل السبيل إلى لقيه ، فكان ما سنذكره بعد إن شاء الله ، وبه الثقة .

***

ذكر حديث آخر بمعنى ما ذكره ابن حبان

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحق ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن درّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن موسى قال : أيْ رب عبدك المؤمن مقتّرٌ عليه في الدنيا ! قال : ففتح له باب من الجنة فنظر إليها ؛ قال : يا موسى هذا ما أعددتُ له . فقال موسى : يا رب وعزتك وجلالك لو كان مقطَّعَ اليدين والرجلين يُسْحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة ، وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط . قال : ثم قال : أيْ رب ، عبدك

(١) لأن من ينسى يعصى .

(٢) عن ظهر مال ، أي كان كثير المال .

(٣) فلا تشبع عينه ومهما امتلك يظل جائعاً لما في يد سواه .

الكافر موسَّع عليه في الدنيا ، قال : ففتح له باب إلى النار فقال : يا موسى هذا ما أعددت له . فقال موسى : أي رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره لم ير خيراً قط »[1] .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وفي صحته نظر . والله أعلم .

وقال ابن حبان « ذكر سؤال كليم الله ربه جل وعلا أن يعلمه شيئاً يذكره به » : حدثنا ابن سلَمة ، حدثنا حَرْملة بن يحيى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث أن دَرَّاجاً حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال : « قال موسى : يا رب علِّمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به . قال : قل يا موسى : لا إله إلا الله . قال : يا رب كلُّ عبادك يقول هذا . قال : قل لا إله إلا الله . قال : إنما أُريد شيئاً تخصني به . قال : يا موسى لو أن أهل السماوات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالتْ بهم لا إله إلا الله » .

ويشهد لهذا الحديث حديث البطاقة ، وأقرب شيء إلى معناه الحديث المروي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « أفضل الدعاء دعاء عرفة . وأفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » .

وقال ابن أبي حاتم ، عند تفسير آية الكرسي : حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدسكي ، حدثني أبي عن أبيه ، حدثنا أشعث بن إسحاق ، عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل ينام ربك ؟ قال : اتقوا الله ! فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك هل ينام ربك ، فخذ زجاجتين في يديك فقم الليل ، ففعل موسى . فلما ذهب من الليل ثلثه نعس فوقع لركبتيه ، ثم انتعش فضبطهما ، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا ، فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكْن كما هلكت الزجاجتان في يديك ، قال : وأنزل الله على رسوله آية الكرسي .

وقال ابن جرير : حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدثنا هشام بن يوسف ، عن أُمية بن شِبْل عن الحكم بن أُبان ؛ عن عكرمة ، عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى عليه السلام على المنبر قال : « وقع في نفس موسى عليه السلام هل ينام الله عز وجل ؟ فأرسل الله إليه ملَكاً فأرَّقه ثلاثاً ، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة ، وأمره أن يحتفظ بهما . قال : فجعل ينام وكادت يداه تلتقيان ، فيستيقظ فيحبس إحداهما عن الأُخرى ، حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان ، قال : ضرب الله له مثلاً : أنْ لو كان ينام لم تَسْتمسك

---

(١) وفي هذا الحديث نظر ، لأن الرسول ﷺ وحده من أطلعه الله على جنته وناره عياناً في معراجه ليلة الإسراء .

السماء والأرض » .

وهذا حديث غريب رفعه . والأشبه أن يكون موقوفاً ، وأن يكون أصله إسرائيلياً[١] .

وقال الله تعالى : ﴿ **وإذ أخذْنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خُذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضلُ الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين** ﴾[٢] . وقال تعالى : ﴿ **وإذ نتقْنا الجبَل فوقَهم كأنه ظُلة وظنوا أنه واقعٌ بهم خُذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾[٣] .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم . فقالوا : أنشرها علينا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها . فقال : بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوه مراراً ، فأَمر الله الملائكةَ فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظُلّة ، أي غمامة ، على رؤوسهم . وقيل لهم : إن لم تقبلوها بما فيها وإلا سقط هذا الجبل عليكم ، فقبلوا ذلك وأُمروا بالسجود فسجَدوا ، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشِق وجوههم ، فصارت سُنّة لليهود إلى اليوم ، يقولون : لا سجدة أعظم من سجدة رفَعت عنا العذاب .

وقال سُنَيد بن داود عن حَجَّاج بن محمد ، عن أبي بكر بن عبدالله قال : فلما نشرَها لم يبقَ على وجه الأرض جبلٌ ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير تُقرأ عليه التوراة إلا اهتَزّ ونفض لها رأسه .

قال الله تعالى : ﴿ **ثم توليتم من بعد ذلك** ﴾ أي ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمر الجسيم نكثتم عهودكم ومواثيقكم ﴿ **فلولا فضل الله عليكم ورحمته** ﴾ بأن تداركم بالإرسال إليكم وإنزال الكتب عليكم ﴿ **لكنتم من الخاسرين** ﴾ .

---

(١) لم يرد في أسفار اليهود ويرجح أنه من روايات أحبار يهود .

(٢) سورة البقرة الآيتان ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧١ .

قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه إن آلله يأمركم أن تـذبحوا بقـرةً قالـوا أتتخذنـا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا آدع لنا ربك يبين لنا ما هي قـال إنه يقـول إنها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بِكرٌ عوانٌ بين ذلك فآفعلوا مـا تؤمرون * قـالوا آدع لنـا ربك يُبين لنا مـا لونها قـال إنه يقول إنها بقرةٌ صفراء فاقعٌ لونها تسرُّ الناظرين * قالوا آدعُ لنا ربك يُبين لنا مـا هي إن البقر تشـابه علينـا وإنَّا إن شـاء الله لمهتدون * قـال إنه يقـول إنها بقـرةٌ لا ذلـولٌ تثيرُ آلأرض ولا تسقي الحـرث مسلمةٌ لا شِية فيهـا قالـوا الآن جئت بالحق فـذبحوهـا وما كـادوا يفعلون * وإذ قتلتم نفساً فـآدَّارأتم فيهـا وآلله مخرجٌ مـا كنتم تكتمون * فقلنـا آضربـوه ببعضها كـذلك يُحيي آلله الموتى ويريكم آيـاته لعلكم تعقلون** ﴾[1] .

قال ابن عباس وعبيدة السَّلْماني وأبو العالية ومجاهد والسُّدي ، وغير واحد من السلف : كـان رجل في بني إسرائيل كثير المال ، وكان شيخـاً كبيراً ، ولـه بنو أخ ، وكـانوا يتمنَّـون موتـه ليرثـوه ، فَعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مَجْمع الطرق ، ويقال على باب رجل منهم .

فلما أصبـح الناس اختصمـوا فيه ، وجـاءابن أخيه فجعـل يصرخ ويتـظلم ، فقالـوا : ما لكم تختصمون ولا تأتون نبيَّ الله ، فجاء ابن أخيـه فشكا أمـر عمه إلى رسـول الله موسى ﷺ فقـال موسى عليـه السلام : « أنشـد الله رجلاً عنـده عِلم من أمر هـذا القتيـل إلا أعلمنـا بـه » . فلم يكن عنـد أحد منهم علم منه . وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز وجل .

فسأل ربَّه عز وجل في ذلك ، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة ، فقـال : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقـرةً قالـوا أتتخذنـا هزواً** ﴾ يعنـون : نحن نسألـك عن أمر هـذا القتيل ، وأنت تقـول لنا هذا ؟ ﴿ **قـال أعوذ بـالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ أي أعـوذ بالله أن أقـول عنه غـير ما أوحي إليَّ ، أو هـذا هو الـذي أجابني حـين سألتـه عما سـألتموني أن أسـأله فيـه . قال ابن عبـاس وعبيـدة ومجـاهـد وعِكْرمة والسُّـدي وأبو العـالية وغـير واحد : لـو أنهم عمدوا إلى أي بقـرة فذبحـوها لحصـل المقصود منهـا ، ولكنهم شدَّدوا فشـدِّد عليهم . وقـد ورد فيه حـديث مرفـوع ، وفي إسناده ضعف . فسـألوا عن صفتها ، ثم عن لونها ، ثم عن سنهـا ، فأُجيبـوا بما عـزَّ وجوده لـديهم . وقد ذكـرنا تفسـير ذلك كله في التفسير .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٦٧ ـ ٧٣ .

والمقصود أنهم أُمروا بذبح بقرة عَوان ، وهي الوسط النَّصَف بين الفارض وهي الكبيرة ، والبكر وهي الصغيرة . قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعِكرمة والحسن وقتادة وجماعة . ثم شدَّدوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لَونها ، فأُمروا بصفراء فاقع لونها ، أي مُشْرَب بحمرة ، تسرُّ الناظرين ، وهذا اللون عزيز . ثم شددوا أيضاً : ﴿ **قالوا آدع لنا ربك يُبيِّن لنا ما هي إن البقر تشابَه علينا وإنَّا إن شاء الله لمهتدون** ﴾ .

ففي الحديث المرفوع الذي رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه : « لولا أن بني إسرائيل استَثْنوا لما أُعطوا » وفي صحته نظر . والله أعلم .

﴿ **قال إنه يقول إنها بقرةٌ لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلَّمة لا شِيَة فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ، فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم ؛ حيث أُمروا بذبح بقرة ليست بالذلول ، وهي المذلَّلة بالحراثة وسقي الأرض بالساقية ، مسلَّمة ، وهي الصحيحة التي لا عيب فيها ، قاله أبو العالية وقتادة . وقوله : ﴿ **لا شية فيها** ﴾ أي ليس فيها لون يخالف لونها ، بل هي مسلَّمة من العيوب ، ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها . فلما حددها بهذه الصفات ، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف ﴿ **قالوا الآن جئت بالحق** ﴾ .

ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارًّا بأَبيه ، فطلبوها منه فأَبى عليهم ، فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه ، فيما ذكره السُّدي ، بوزنها ذهباً فأبى عليهم ، حتى أعطوه بوزنها عشر مرات ، فباعها منهم .

فأمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿ **فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾[1] أي وهم يترددون في أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها قيل بلحم فخذها ، وقيل : بالعظم الذي يلي الغضروف ، وقيل : بالبَضْعة التي بين الكتفين ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى ، فقام وهو يَشْخُب أَوْداجه ، فسأله نبي الله موسى: من قتلك ؟ قال : قتلني ابن أخي . ثم عاد ميتاً كما كان .

قال الله تعالى : ﴿ **كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له ، كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة كما قال : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفسٍ واحدةٍ** ﴾[2]

---

(١) الحكم عند اليهود في القتيل الذي لا يعرف قاتله تقديم بقرة ذبيحة للرب في المدينة أو المكان الأقرب لمكان الجثة . سفر تثنية الاشتراع الفصل ٢١ أوله .

(٢) سورة لقمان الآية ٢٨ .

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى :

﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغي * فارتدا على آثارهما قَصَصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لُدُنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً * قال إنك لن تستطيع معي صبراً * وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبراً * قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً * قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتى أُحدث لك منه ذكراً * فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً * قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عُسراً * فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نُكراً * قال ألم أقل لك إنَّك لن تستطيع معي صبراً * قال إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بيني وبينك سأُنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أُعيبها وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كل سفينةٍ غصباً * وأمَّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يُرهقهما طغياناً وكفراً * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاةً وأقرب رحماً * وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾(1) .

قال بعض أهل الكتاب : إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن منسا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، وتابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم ، وينقل عن كتبهم ، منهم نَوْف بن فضَالة الحميري الشامي البِكالي ، ويقال إنه دمشقي ، وكانت أُمه زوجة كعب الأحبار(2) .

والصحيح الذي دل عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح الصريح المتفق

(1) سورة الكهف الآيات ٦٠ ـ ٨٢ .

(2) أي رئيس أحبار اليهود .

عليه : أنه موسى بن عمران صاحب بني اسرائيل .

قال البخاري : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، قال : أخبرني سعيد بن جُبير ، قال : قلت لابن عباس : أن نَوْفاً البِكَالِي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل ، فقال ابن عباس : كَذَب عدو الله : حدثنا أُبَيّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أيّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لي عبداً بمَجْمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مِكْتل[1] فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع[2] بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرةَ وضعا رأسيهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه فسقط في البحر ، واتخذ سبيله في البحر سَرباً . وأمسك الله عن الحوت جِرْية الماء ، فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبُه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقيةَ يومهما وليلتهما .

حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ﴿ **آتِنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً** ﴾ قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به ، فقال له فتاه : ﴿ **أرأيت إذ أويْنا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوتَ وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكره ، واتخذ سبيلَه في البحر عجباً** ﴾ قال : فكان للحوت سرباً . ولموسى ولفتاه عجباً . فقال له موسى : ﴿ **ذلك ما كنا نبغي ، فارتَدا على آثارهما قَصَصاً** ﴾ .

قال : فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجًّى بثوب فسلَّم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنَّى بأَرضك السلام ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم ، اتيتك لتعلمني مما علمتَ رشداً ﴿ **قال إنك لن تستطيع معي صبراً** ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علَّمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من عِلم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال موسى : ﴿ **ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً** ﴾ .

فقال له الخضر : ﴿ **فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدث لك منه ذِكْراً * فانطلقا** ﴾ يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْل[3] فلما ركبا في السفينة لم يُفْجأ إلا والخضر قد قلعَ لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم ، فقال له موسى : قومٌ حَملونا بغير نول ، عمدتَ إلى سفينتهم فخرقْتها : ﴿ **لتغرق أهلَها ، لقد جئت شيئاً إمراً * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً * قال لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري**

(١) سلَّة ، أو دعاء يكتال به .

(٢) اسمه في الأسفار « يشوع » .

(٣) النول : الأجر .

عسراً ﴾ .

قال : وقال رسول الله ﷺ : فكانت الأُولى من موسى نسياناً . قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة ، فقال له الخضر : ما عِلمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقصَ هذا العصفورُ بمنقاره من هذا البحر !

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له موسى : ﴿ **أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نُكْراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً** ﴾ قال : وهذه أشد من الأُولى ﴿ **قال : إنْ سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغتَ من لدني عُذراً** ﴾ .

﴿ **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلَها فأبَوا أن يضيّفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض** ﴾ قال : مائل . فقام الخضر ﴿ **فأقامه** ﴾ بيده ، فقال موسى : قومٌ أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بيني وبينك سأُنبئك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً** ﴾ . فقال رسول الله ﷺ : « وددْنا أن موسى كان صبَر حتى يقصَّ الله علينا من خبرهما » .

قال سعيد بن جبير : فكان ابن عباس يقرأ : «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » وكان يقرأ :« وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين » .

ثم رواه البخاري أيضاً عن قتيبة عن سفيان بن عُيَينة بإسناده نحوه . وفيه : « فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها ، قال : فوضع موسى رأسه فنام » .

قال سفيان : وفي حديث غير عمرو قال : وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة ، لا يصيب من مائها شيء إلا حيي ، فأصاب الحوتَ من ماء تلك العين ، قال : فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر[1] ، فلما استيقظ ﴿ **قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا** ﴾ الآية . وساق الحديث .

قال : ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر ، فقال الخضر لموسى : ما عِلْمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره ، وذكر تمام الحديث .

* * *

---

(١) إنما الإحياء والبعث بيد الله وحده ، وهذا موضوع لتشويه أفكار المؤمنين وربما جاء من الروايات الاسرائيلية التي أرادوا بها تشويه أفكار المسلمين .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف : أن ابن جُرَيْج أخبرهم ، قال : أخبرني يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار ، عن سعيد بن جُبير ، يزيد أحدهما على صاحبه ، وغيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير قال : إنا لَعند ابن عباس في بيته إذ قال : سَلُوني فقلت : أي أبا عباس ـ جعلني الله فداك ـ بالكوفة رجل قاصّ يقال له نَوْف ، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل . أما عمرو فقال لي ، قال : قد كَذب عدو الله . وأما يعلى فقال لي : قال ابن عباس : حدثني أُبَيّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « موسى رسول الله قال ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ، ورقت القلوب ولَّى ، فأدركه رجل فقال : أي رسولَ الله ! هل في الأرض أحدٌ أعلَم منك ؟ قال : لا . فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إلى الله ، قيل : بلى . قال : أيْ رب فأين ؟ قال : بمجْمَع البحرين ، قال : أي رب اجعل لي عَلماً أعلم ذلك به . قال لي عمرو : قال : حيث يفارقك الحوتُ ، وقال لي يعلى : قال : خذ نُوناً ميتاً حيث يُنفخ فيه الروح .

فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، فقال لفتاه : لا أُكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفتَ كثيراً ، فذلك قوله جل ذكره ﴿ **وإذ قال موسى لفتاه** ﴾ يوشع بن نون ، ليست عن سعيد بن جبير ، قال : بينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ تضرَّب الحوت وموسى نائم ، فقال فتاه : لا أُوقظه ، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، وتضرب الحوت حتى دخل البحرَ فأمسك الله عنه جِرْية البحر حتى كأَن أثره في حجر ، قال لي عمرو : هكذا ، كأن أثره في حجر وحلَّق بين إبهاميه واللتين تليانهما .

﴿ **لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً** ﴾ . قال : قد قطع الله عنك النصب ليست هذه عن سعيد . أخبره فرجعا فوجدا خضراً ـ قال لي عثمان بن أبي سليمان ـ على طُنفسة خضراء على كَبد البحر ، قال سعيد بن جبير : مسجًّى بثوبه ، قد جعل طرفه تحت رجليه ، وطرفه تحت رأسه ، فسلَّم عليه موسى فكشف عن وجهه ، وقال : هل بأَرضي من سلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال : جئتك لتعلمني مما عُلمتَ رُشداً ، قال : أمَا يكفيك أن التوراة بيديك ، وأن الوحي يأتيك ؟ يا موسى إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه ، فأخذ طائرٌ بمنقاره من البحر ، فقال : والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر .

﴿ **حتى إذا ركبا في السفينة** ﴾ وجد معابر صغاراً تحمل أهلَ هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر ، عرَفوه فقالوا : عبد الله الصالح ـ قال : فقلنا لسعيد : خضر ؟ قال : نعم ـ لا نحمله بأجر ، فخرَقها ووتد فيها وتداً ﴿ **قال** ﴾ موسى : ﴿ **أخرقْتَها لتُغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمْراً** ﴾ قال مجاهد : مُنْكراً . ﴿ **قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً** ﴾ كانت الأولى

نسياناً ، والوسطى شَرْطاً ، والثالثة عَمْداً ﴿ قال لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري عُسراً * فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ قال يعلى قال سعيد : وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ، ثم ذبحه بالسكين ﴿ قال أقتلت نفساً زكيّةً بغير نفس ﴾ لم تعمل بالخبيث . وكان ابن عباس يقرأها: زَكِية زاكية مُسْلمة ، كقولك غلاماً زكيًّا .

﴿ فانطلقا . . . فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ فأقامه ﴾[1] قال سعيد بيده هكذا ، ورفع يده فاستقام ، قال يعلى : حسبت أن سعيداً قال : فمسحه بيده فاستقام ﴿ قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ قال سعيد : أجراً نأكله .

﴿ وكان وراءهم ﴾ وكان أمامهم ، قرأها ابن عباس : أمامهم ملك يزعمون عن غير سعيد أنه « هُدَد بن بُدَد »[2] والغلام المقتول اسمه يزعمون « جَيْسور » ﴿ ملكٌ يأخذ كل سفينةٍ غصباً ﴾ فأردت إذا هي مرَّت به أن يدَعها لعيبها ، فإذا جاوز أصلحوها فانتفعوا بها . ومنهم من يقول : سدوها بقارورة ، ومنهم من يقول بالقار .

﴿ فكان أبواه مؤمنين ﴾[3] وكان كافراً : ﴿ فخشينا أن يرهقهما طُغياناً وكُفراً ﴾ أي يحملهما حبُّه على أن يتابعاه على دينه ، ﴿ فأردنا أن يُبدلهما ربهما خيراً منه زكاةً ﴾ - لقوله : ﴿ أقتلتَ نفساً زكية ﴾ - ﴿ وأقرب رُحماً ﴾ هما به أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر .

وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أُبدلا جارية ، وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد : إنها جارية [4] .

وقد رواه عبد الرزاق عن مَعْمَر عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خطب موسى بني اسرائيل ، فقال : ما أحدٌ أعلَم بالله وبأمره مني ، فأُمر أن يلقى هذا الرجل ، فذكر نحو ما تقدم .

وهكذا رواه محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمارة ، عن الحكم بن عُيينة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن أُبَي بن كعب ، عن رسول الله ﷺ كنحو ما تقدم أيضاً .

ورواه العَوْفي عنه موقوفاً . وقال الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس : أنه تمارى هو والحرّ بن قيس بن حصْن الفَزاري في صاحب موسى ، فقال ابن

---

(١) سورة الكهف الآية ٧٧ .

(٢) الوضع واضح من الإسم .

(٣) سورة الكهف الآية ٨٠ .

(٤) أحاديث لا أساس لها .

عباس : هو حسر فمر بهما أُبّي بن كعب فدعاه ابن عباس ، فقال : إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأَل السبيلَ إلى لقيه ، فهل سمعتَ من رسول الله فيه شيئاً ؟ قال : نعم ، وذكر الحديث .

وقد تقصينا طرق هذا الحديث وألفاظه في تفسير سورة الكهف ولله الحمد .

وقوله : ﴿ وأما الجدار فكان لغُلامين يتيمين في المدينة ﴾ قال السُّهيلي : وهما أصرم وصُرَيم ابنا كاشح ﴿ وكان تحته كنزٌ لهما ﴾ قيل : كان ذهبا ، قاله عكرمة . وقيل : عِلماً ، قاله ابن عباس . والأشبه أنه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه علم . قال البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري ، حدثنا بشر بن المنذر ، حدثنا الحارث بن عبدالله اليَحْصُبي عن عيَّاش بن عباس الغساني عن ابن حجيرة ، عن أبي ذر رفعه قال : « إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من الذهب مُصْمَت مكتوب فيه : عجبت لمن أيقن بالقَدر كيف نَصب ! وعجبت لمن ذَكَر النار لِمَ ضحك ؟ وعجبت لمن ذكر الموت كيف غفل ؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وهكذا روى عن الحسن البصري وعمر مولى غفرة وجعفر الصادق نحو هذا .

وقوله : ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ ، قيل : إنه كان الأب السابع وقيل : العاشر . وعلى كل تقدير : فيه دلالة على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته والله المستعان .

وقوله : ﴿ رحمةً من ربك ﴾ ـ دليل على أنه كان نبيًّا ، وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبي ، وقيل : رسول وقيل ولي وأغرب من هذا من قال : إنه كان ملكاً . قلت : وقد أغرَب جداً من قال : هو ابن فرعون ، وقيل : إنه ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة .

قال ابن جرير : والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن « أفريدون » ، ويقال إنه كان على مقدمة ذي القرنين ، الذي قيل :إنه كان أفريدون ، وذو الفرس هو الذي كان في زمن الخليل ، وزعموا أنه شرب من ماء الحياة[1] فخلدَ وهو باقٍ إلى الآن .

وقيل : إنه من ولد بعض من آمن بإبراهيم ، وهاجر معه من أرض بابل . وقيل اسمه ملكان ، وقيل : أرميا بن حَلقيا ، وقيل : كان نبيًّا في زمن سباسب بن بهراسب .

قال ابن جرير : وقد كان بين أفريدون وبين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب قال ابن جرير : والصحيح أنه كان في زمن أفريدون ، واستمر حيًّا إلى أن أدركه موسى عليه السلام . وكانت نبوة موسى في زمن « منوشهر » الذي هو من ولد أبرج بن أفريدون

(١) ماء الحياة أسطورة كلدانية قديمة .

أحـد ملوك الفرس ، وكـان إليه الملك بعـد جده أفـريدون لعهـد وكان عـادلاً . وهو أول من خنـدَق الخنـادق ، وأول من جعل في كـل قريـة دِهْقانـاً ، وكانت مـدة ملكه قـريباً من مـائة وخمسـين سنة . ويقال إنه كان من سلالة إسحاق بن إبراهيم .

وقـد ذُكر عنـه من الخـطب الحسـان والكلم البليـغ النـافـع الفصيـح مـا يبهـر العقـل ، ويحـير السامع ، وهذا يدل على أنه من سلالة الخليل . والله أعلم .

وقـد قال الله تعـالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثـاق النبيين لما آتيتكم من كتـاب وحكمـة ثم جـاءكم رسـولٌ مصدِّق لمـا معكم لتؤمنن به ولتنصـرنه ، قـال أأقررتم وأخـذتم على ذلكم إصْـري ، قـالـوا أقررْنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾[1] .

فـأخـذ الله ميثـاقَ كـلِّ نبي عـلى أن يؤمن بمن يجيء بعـده من الأنبيـاء وينصـره واستلزم ذلـك الإيمان وأخذ الميثاق لمحمد ﷺ لأنـه خاتم الأنبيـاء فحق على كـل نبي أدركه أن يؤمن بـه وينصره فلو كان الخضر حيًّا في زمـانه ، لَمَا وسعه إلا اتبـاعه والاجتمـاع به والقيـام بنصره ، ولكـان من جملة من تحت لوائه يوم بدر ؛ كما كان تحتها جبريل وساداتٌ من الملائكة .

وقصـارى الخضر عليه السـلام أن يكون نبيـاً ، وهو الحق ، أو رسـولاً كما قيـل ، أو ملَكاً فيـما ذُكر . وأيًّا ما كان فجبريل رئيس الملائكة ، ومـوسى أشرف من الخضر ، ولـو كان حيًّـا لوجَب عليـه الإيمان بمحمد ونصرته ، فكيف إن كان الخضر وليًّا كـما يقولـه طوائف كثيـرون ؟ فأولى أن يـدخل في عمـوم البعثة وأحـرَى . ولم يُنقل في حـديث حسن بل ولا ضعيف يُعتمـد أنه جـاء يـومـاً واحـداً إلى رسـول الله ﷺ ولا اجتمع بـه ، وما ذُكـر من حـديث التعـزيـة فيـه ، وإن كـان الحـاكم قـد رواه ، فإسناده ضعيف ، والله أعلم وسنفرد لخضر ترجمةً على حدة بعد هذا .

* * *

(١) سورة آل عمران الآية ٨١ .

ذكر الحديث الملقب بحديث الفتون المتضمن
قصة موسى مبسوطة من أولها إلى آخرها

قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب التفسير من سننه ، عندَ قوله تعالى في سورة طه : ﴿ وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً ﴾[1] « حديث الفتون » .

حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أصْبغ بن زيد ، حدثنا القاسم ابن أبي أيوب ، أخبرني سعيد بن جبير ، قال : سألت عبد اللهبن عباس عن قول الله تعالى لموسى : ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ فسألته عن الفتون ما هي ؟ فقال : استأنف النهار يا بن جبير ؛ فإن لها حديثاً طويلاً .

فلما أصبحتُ غدوت إلى ابن عباس لأتنجز منه ما وعدني من حديث الفتون ، فقال :

تذكَّر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعدَ إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك ما يشكّون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف ابن يعقوب ، فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وَعْد إبراهيم ، فقال فرعون : فكيف ترون ؟ فأتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشِّفَار ، يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ففعلوا ذلك .

فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يُذبحون قالوا : تُوشكون أن تُفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يَكْفونكم ؛ فاقتلوا عاماً كلَّ مولود ذكر واتركوا بناتهم ، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تَسْتَحيون منهم ، فتخافوا مكاثرتَهم إياكم ، ولن يَفْنَوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم .

فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يُقتل فيه الغلمان ، فولدته علانيةً آمنة .

فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام ، فوقع في قلبها الهمُّ والحزن ، وذلك من الفتون يا بن جبير ! ما دخل عليه في بطن أمه مما يُراد به ، فأوحى الله إليها : أن ﴿ لا تخافي ولا تحزني

(١) سورة طه الآية ٤٠ .

إنـا رادوه إليك وجـاعلوه من المرسلين ﴾ [١] . فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت وتلقيه في اليم .

فلما ولدت فعلتْ ذلك ، فلما توارى عنها ابنهـا أتاهـا الشيطانُ ، فقـالت في نفسها : مـا فعلتُ بإبني ؟ لو ذُبح عندي فواريتُهُ وكفَّنته كان أحبَّ إليَّ من أن ألقيه إلى دوابِّ البحر وحيتانه ؟

فانتهى الماء بـه حتى أوفَى عند فُرضَةٍ تستقي منهـا جواري امـرأة فرعـون ، فلما رأينه أخـذنه ، فهمَمْن أن يفتحن التـابوت ، فقـال بعضهن : إنَّ في هذا مـالاً ، وإنـا إنْ فتحنـاه لم تصـدقنـا امـرأة الملك بمـا وجدنـا فيه ، فحملنـه كهيئته لم يُخرجن منه شيئـاً حتى دفعنـه إليهـا . فلما فتحته رأت فيـه غـلاماً ، فـألقى الله عليه منهـا محبةً لم يلقِ منهـا على أحـد قط ﴿ **وأصبح فؤادُ أم موسى فـارغـاً** ﴾ من ذكـر كل شيء إلا من ذكـر موسى . فلما سمـع الذَبَّاحون بـأمره ، أقبلوا بشفـارهم إلى امرأة فـرعون ليذبحوه .

وذلك من الفُتُون يا بن جبير !

فقـالت لهم : أقرُّوه فـإن هذا الـواحد لا يـزيد في بني إسـرائيل ، حتى آتي فـرعونَ فـأستوهبـه منـه ؛ فإنْ وهبـه مني كنتم قد حسنتم وأجملتم ، وإن أمـر بذبحـه لم ألمكم . فأتَت فـرعونَ فقـالـت : ﴿ **قُـرّةُ عينٍ لي ولـك** ﴾ فقال فـرعون : يكـون لك ، فـأمّا لي فـلا حاجـة لي فيه . فقـال رسـول الله ﷺ : « والـذي يُحلف به لـو أقرَّ فـرعون أن يكـون قرة عـين له ، كـما أقـرت امـرأتـه لهـداه الله كـما هداها ، ولكن حرمهَ ذلك » .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختـار له ظِئْـراً[٢] ، فجعل كلما أخـذته امـرأة منهن لترضعه لم يُقبل على ثديها ، حتى أشفقتْ امرأة فرعـون أن يمتنع من اللبن فيمـوت ، فأحـزنَها ذلك ، فـأمرت بـه فأُخـرج إلى السوق ومَجْمـع الناس تـرجـو أن تجـد لـه ظِئْراً تـأخـذه منهـا ، فلم يَقْبـل . وأصبحت أُم مـوسى والهاً ، فقـالت لأخته : قُصيِّ أثـره واطلبيه ، هـل تسمعين لـه ذكْـراً ؟ أحيٌّ ابني أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه .

﴿ **فبصُـرت بـه** ﴾ أختـه ﴿ **عن جُنب وهم لا يشعـرون** ﴾ والجنب : أن يسمـو بصر الإنسـان إلى شيء بعيـد وهو إلى جنبـه لا يشعر بـه . فقالت من الفـرح حين أعيـاهم الظُّئـرات : أنا ﴿ **أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون** ﴾ فأخذوها فقالـوا : ما يـدريك مـا نُصْحهم له ؟ هـل تعرفينه ؟ حتى شكوا في ذلك ، وذلك من الفُتون يـا بن جبير ! فقـالت : نُصْحهم له وشفقتهم عليـه رغبتهم في صِهْر الملك ورجاء منفعة الملك . فأرسلوهـا فانـطلقت إلى أمها فـأخبرتهـا الخبرَ ، فجـاءت

---

(١) سورة القصص الآية ٧ بلفظ : ﴿ **ولا تخافي ...** ﴾ .

(٢)) مرضعة .

أمـه ، فلما وضعته في حجـرها نـزا إلى ثديهـا فَمصَّه حتى امتـلأ جنباه ريًّـا ، وانطلق البشـير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئراً ، فأرسلت إليها فأتت بها وبه .

فلما رأت ما يصنع بها قالت : امكثي تـرضعي ابني هذا ، فـإني لم أحب شيئاً حبَّه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيـع أن أترك بيتي وولـدي فيضيع ، فـإن طابت نفسك أن تعطينيـه ، فأذهب بـه إلى بيتي ، فيكـون معي لا آلُوه خيـراً ، فعلتُ ؛ فإني غـير تاركـة بيتي وولـدي وذكـرت أمُّ مـوسى مـا كان الله وعدها ، فتعاسـرَتْ على امـرأة فرعـون ، وأيقنت أن الله مُنْجز مـوعوده ، فـرجعت إلى بيتها من يومها ، وأنبته الله نباتـاً حسناً ، وحفـظه لما قـد قضى فيه . فلم يـزل بنو إسـرائيل وهـم في نـاحية القرية ، ممتنعين من السُّخرة والظلم ما كان فيهم .

فلما ترعرع قالت امرأة فـرعون لأُم مـوسى : أزيريني ابني ، فـوعدتهـا يومـاً تُزيـرها إيـاه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظُئورهـا وقَهارمتهـا : لا يبقين أحـد منكم إلا استقبل ابني اليـوم بهديـة وكرامة ، لأرى ذلك فيه . وأنا باعثـة أميناً يحصي كـل ما يصنـع كل إنسـان منكم ، فلم تزل الهـدايا والكرامة والنِّحل(1) تستقبله من حين خـرج من بيت أمه إلى أن دخـل على امـرأة فرعـون . فلما دخل عليـها نحلتـه وأكرمتـه وفرحت بـه ونحلتْ أُمَّه لحسن أثـرها عليـه . ثم قالت : لآتـينّ به فـرعـون فلينحلنه وليكرمنه .

فلما دخلت بـه عليه جعله في حجـره ، فتناول مـوسى لحية فـرعون فمـدها إلى الأرض ، فقـال الغـواة من أعداء الله لفـرعون : ألا تـرى ما وعـد الله إبـراهيم نبيه ؟ إنـه زعم أنـه يـرثـك ويعلوك ويَصْرعك ! فـأرسل إلى الـذباحـين ليذبحـوه ، وذلك من الفتـون يا بن جبـير بعد كـل بلاء ابتُـلي به وأُريد به .

فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون ، فقالت : ما بـدا لك في هـذا الغلام الـذي وهبْته لي ؟ فقـال : ألا ترينـه يزعم أنـه يصرعني ويعلوني ؟ فقـالت : اجعل بيني وبينـك امراً تعـرف فيه الحق ، أئت بجمرتين ولؤلؤتين(2) فقرِّبهن إليه ، فإن بـطش باللؤلؤتـين واجتنب الجمرتـين عرفت أنـه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يُرد اللؤلؤتين ، علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتـين على اللؤلؤتـين وهو يعقـل ، فقـرب إليه الجمـرتين واللؤلؤتـين فتناول الجمـرتين ، فـانتزعهـما منه مخافة أن يحـرقا يـده(3) ، فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان همَّ به ، وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشـدَّه ، وكـان من الـرجـال ، لم يكن أحـد من آل فـرعـون يَخْلص إلى أحـد من بني

---

(1) النحلة : الهدية أو الأعطية .

(2) في روايات أخرى جمرتين وتمرتين .

(3) في حديث آخر أنه رفع الجمرة إلى فمه فأحرقت لسانه فمنها اللثغة في لسان موسى عليه السلام .

إسرائيل معه بظلم ولا سخرة ، حتى امتنعوا كلَّ الامتناع ، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة ، إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى غضباً شديداً ، لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل ، وحفظه لهم لا يَعْلم الناسُ إلا أنه من الرضاع إلا أُم موسى ، إلا أن يكون الله أطْلَع موسى من ذلك على ما لم يُطْلع عليه غيره . فوكز موسى الفرعوني فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والاسرائيلي ، فقال موسى حين قَتل الرجل : ﴿ **هذا من عمل الشيطان إنه عدوٌ مضلٌّ مبينٌ** ﴾ ثم قال : ﴿ **ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفورُ الرحيم * قال ربِّ بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين * فأصبح في المدينة خائفاً يترقب** ﴾ الأخبار .

فأُتي فرعون ، فقيل له : إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم ، فقال : أبغوني قاتله ومن يشهد عليه ، فإن الملك وإن كان صفوةً من قومه ، لا ينبغي له أن يقتل بغير بينة ولا ثَبت ، فاطلبوا لي علمَ ذلك آخذ لكم بحقكم .

فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة ، إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فصادف وقد ندِم على ما كان منه وكره الذي رأى . فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، فقال للإسرائيلي لَما فعل بالأمس واليوم : ﴿ **إنك لغويٌّ مبينٌ** ﴾ فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال ، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعونيَّ ، فخاف أن يكون بعد ما قال له : ﴿ **إنك لغويٌّ مبينٌ** ﴾ أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده . إنما أراد الفرعوني . فخاف الإسرائيلي وقال : ﴿ **يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس** ﴾ وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتارَكا .

وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : ﴿ **أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس** ﴾ فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسلُ فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هِينتِهم ، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم ، فجاء رجل من شيعة موسى(١) من أقصى المدينة ، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره . وذلك من الفتون يا ابن جبير ! .

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلقَ بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق عِلم إلا حسن ظنه بربه عز وجل ، فإنه قال : ﴿ **عسى ربي أن يهديني سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أُمةً من الناس يسقون ووجَد من دونهم امرأتين تذودان** ﴾ يعني بذلك حابستين غنمهما ؛ فقال

---

(١) في روايات أخرى أنه مؤمن من آل فرعون أو ملأه .

لهما : ﴿ ما خطبكما ﴾ معتزلتين الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القومَ وإنما ننتظر فضول حياضهم . فسقى لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرِّعاء وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما ، وانصرف موسى فاستظل بشجرة ، وقال : ﴿ ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ .

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفْلاً بِطَاناً(١) فقال : إن لكما اليومَ لشأناً ، فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته ، فلما كلَّمه ﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ليس لفرعون ولا لقومه علينا من سلطان ولسنا في مملكته ، فقالت إحداهما : ﴿ يا أبتِ استأجره إن خيرَ من استأجرت القويّ الأمين ﴾ فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته فما رأيتُ منه في الدَّلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه ، وأما الأمانة فإنه نظر إليَّ حين أقبلت إليه وشخصتُ له ، فلما علم إني امرأة صوَّب رأسه فلم يرفعه حتى بلَّغته رسالتك . ثم قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين . فسرّي عن أبيها وصَدَّقها ، وظن به الذي قالت .

فقال له : هل لك ﴿ أن أُنْكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانيَ حجَج ، فإن أتممتَ عشَراً فمن عندك ، وما أُريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت السَّنتان عِدَة منه ، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً .

قال سعيد ـ وهو ابن جبير ـ لقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، فقال : هل تدري أيُّ الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذٍ لا أدري . فلقيت ابن عباس فذكرتُ ذلك له ، فقال : أمَا علمت أن ثمانيةً كانت على نبي الله واجبة ، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً ؟ وتعَلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدّته التي وعده ؛ فإنه قضى عشر سنين . فلقيتُ النصراني فأخبرته ذلك ، فقال : الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجلّ وأولى .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ، ما قص الله عليك في القرآن .

فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه ؛ فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون ؛ يكون له ردءاً ، يتكلَّم عنه بكثير مما لا يُفصح به لسانه ، فآتاه الله عز وجل سُؤْله ، وحلَّ عقدةً من لسانه ، وأوحى الله إلى هارون فأمره أن يلقاه .

فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون ، فانطلقا جميعاً إلى فرعون ، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما . ثم أذِن لهما بعد حجاب شديد فقالا : ﴿ إنا رسولاَ ربك ﴾ قال : ﴿ فمن ربكما ﴾

(١) حفلاً بطاناً : ضروعها مليئة وبطونها شبعة .

فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن . قال : فما تريدان ؟ وذكَّره القتيل فاعتذر بما قد سمعتَ ، قال : أُريد أن تؤمن بالله وترسل معي بني إسرائيل ، فأبَى عليه وقال : ﴿ ائت بآيةٍ إن كنت من الصادقين ﴾ ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ﴾(١) حية عظيمة فاغرة فاهاً مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفَّها عنه ففعل .

ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ، يعني من غير بَرص ، ثم ردَّها فعادت إلى لونها الأول .

فاستشار الملأ من حوله فيما رأى فقالوا له : ﴿ إن هذان لساحران يريدان أن يُخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾(٢) يعني مُلْكهم الذي هم فيه والعيش ، وأبَوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير ، حتى تغلب بسحرك سحرهما .

فأرسل إلى المدائن فحشر له كلُّ ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بِم يعمل هذا الساحر ؟ قالوا : يعمل بالحيات . قالوا : فلا والله ما أحد في الأرض يعمل السحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل ، فما أجْرنا إن نحن غَلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربي وخاصتي ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم . فتواعدوا ﴿ يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحىً ﴾ (٣)

قال سعيد : فحدثني ابن عباس أن يوم الزينة ، اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة ، هو يوم عاشوراء (٤) .

فلما اجتمعوا في صعيد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضُر هذا الأمر ﴿ لعلنا نتبعُ السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ يعنون موسى وهارون استهزاء بهما ، فقالوا : يا موسى - بعد تريثهم بسحرهم - ﴿ إما أن تُلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ قال : بل ألقوا ، ﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفةً ، فأوحى الله إليه : ﴿ أن ألقِ عصاك ﴾ فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاهاً فجعلت العصَا تلتبس بالحبال ، حتى صارت جِرزاً للثعابين تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته .

---

(١) إن استشهاد ابن كثير بقوله تعالى : ﴿ أئت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ (سورة الشعراء الآية ١٥٤) سهو منه إذ أن هذه الآية هي من كلام قوم صالح لنبيهم في حين أنه يريد الاستشهاد بقوله تعالى : ﴿ قال أولو جئتك بشيء مبين * قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ (سورة الشعراء الآيات ٣٠ - ٣٢) . راجع أيضاً الآيتين ١٠٦ - ١٠٧ سورة الأعراف .

(٢) سورة طه الآية ٦٣ .

(٣) سورة طه الآية ٥٩ .

(٤) وقيل : إن يوم عاشوراء هو اليوم الذي أنجى الله فيه موسى عليه السلام وأغرق فرعون وجنده .

فلما عرف السحرة ذلك ، قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كلَّ هذا ، ولكنه أمرٌ من الله تعالى ، آمنّا بالله وبما جاء به موسى ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه .

فكسَرَ الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه وظهر الحق ﴿ **وبَطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين** ﴾ (١)

وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ؛ وإنما كان حُزنها وهمّها لموسى .

* * *

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة ؛ كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل ، فإذا مضت أخلف موعده وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ أرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصَّلات ، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفَّها عنه ؛ ليوافقه على أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا كف ذلك أخلف بوعده ونكث عهده ، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه ؛ فخرج بهم ليلاً .

فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر : إذا ضربك موسى عبدي بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة(١) ، حتى يَجُوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه .

فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف(٢) مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله عز وجل ! . . .

فلما تراءى الجمعان وتقاربا ﴿ **قال أصحاب موسى إنا لمدركون** ﴾ افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال وعدني ربي إذا أتيتُ البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه ، وكما وعد موسى فلما أن جاوز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه ، التقى عليهم البحر كما أُمِر فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه : إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) القصيف : صليل الموج وهديره .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يَعْكفون على أصنام لهم ﴿ قالوا يا موسى اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبَّر ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾(١) قد رأيتم من العِبر وسمعتم ما يكفيكم .

ومضَى فأنزلهم موسى منزلاً وقال : أطيعوا هارون فإن الله قد استخلفه عليكم ؛ فإني ذاهبٌ إلى ربي . وأجَّلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها .

فلما أتى ربه عز وجل وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوماً . وقد صامهن ليلهن ونهارهن ، كره أن يكلم ربه وريح فِيه ريح فم الصائم ، فتناول موسى شيئاً من نبات الأرض فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لِمَ أفطرت ؟ ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال : يا رب إني كرهت أن أُكلمك إلا وفمي طيب الريح . قال : أوَ ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ! أرجع فصم عشراً ثم ائتني ، ففعل موسى ما أمره به ربه .

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم فقال : إنكم خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارِيّ وودائع ، ولكم فيها مثلُ ذلك ، وأنا أرى أن تحتسبوا مالَكم عندهم ، ولا أُحل لكم وديعة استُودعتموها ولا عارية ، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا . فحفر حفيراً وأمر كلَّ قوم عندهم من ذلك متع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقه ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم .

وكان السامري من قوم يعبدون البقر ، جيران لبني إسرائيل ، ولم يكن من بني إسرائيل ، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا ، فقُضِي له أنْ رأى أثراً فقبض منه قبضةً فمر بهارون فقال له هارون : يا سامري ألا تلقي ما في يديك ؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر ، ولا أُلقيها لشيء إلا أن تدعوَ الله إذا ألقيتها أن يكون ما أُريد ، فألقاها ودعا له هارون، فقال : أُريد أن تكون عجلاً ، فاجتمع ما كان في الحفرة من متاع أو حِلْية أو نحاس أو حديد ، فصار عجلاً أجوف ، ليس فيه روح وله خُوار(٢) .

قال ابن عباس : لا والله ما كان فيه صوت قط ،إنما كانت الريح تدخل من دُبره وتخرج من فِيه ، فكان ذلك الصوت من ذلك .

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً ؛ فقالت فرقة : يا سامريّ ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا

---

(١) سورة الأعراف الأيتان ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢) لكن الأيات في سورة طه ٨٣ ـ ٩٨ توضح أنه وضع الأثر في النار مع المعادن الثمينة الذائبة .

ربكم ، ولكن موسى أضلَّ الطريق ! . . .

وقالت فرقة : لا نكذّب بهـذا حتى يرجع إلينا موسى ، فإن كان ربنا لم نكن ضيَّعناه وعكفنا عليه حين رأيناه ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قولَ موسى .

وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق .

وأُشرب فرقةً في قلوبهم الصدقَ بما قال السامريُّ في العجل وأعلنوا عدمَ التكذيب به .

فقال لهم هارون عليه السلام : ﴿ **يا قوم إنما فُتنتمْ به وإن ربكم الرحمنُ** ﴾ ليس هذا .

قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلَفنا ؟ هذه أربعون يوماً قد مضت . وقال سفهاؤهم : أخطأ ربَّه[1] فهو يطلبه ويبتغيه .

فلما كلَّم الله موسى وقال له ما قال ، أخبره بما لقي قومه من بعده ، ﴿ **فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً** ﴾ فقال لهم ما سمعتم مما في القرآن ﴿ **وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه** ﴾ وألقى الألواحَ من الغضب . ثم إنه عذَر أخاه بعذره واستغفر له ، وانصرف إلى السامري فقال له : ما حملَك على ما صنعت ؟ قال : قبضتُ قبضةً من أثَر الرسول وفطنت لها وعُميت عليكم : ﴿ **فنبذتُها وكذلك سولت لي نفسي * قال فاذهب فإن لك في الحياةِ أن تقول لا مِسَاس ، وإن لك موعداً لن تُخلفه ، وانظر إلى إلٰهك الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً لنحرّقنه ثم لننسفنه في اليمِّ نسفاً** ﴾[2] . ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه .

فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثلُ رأي هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فتكفر عنا ما عملنا . فاختار موسى من قومه سبعين رجلاً لذلك ، لا يألو الخيرَ من خِيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في الحق ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض .

فاستحيى نبي الله عليه السلام من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال : ﴿ **ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ وفيهم من كان الله اطَّلع منه على ما أُشرب قلبه من حُب العِجْل وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم الأرض فقال : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتَّقون ويُؤْتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسولَ النبيَّ الأُمي الذي يَجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ .

---

(١) أي أضاعه فهو يبحث عنه .

(٢) سورة طه الآيتان ٩٦ ـ ٩٧ .

فقال : يا رب سألتك التوبة لقومي ، فقلتَ : إن رحمتي كتبتها لقومٍ غير قومي ، فليتك أخّرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحوم . فقال له : إن توبتهم أن يَقتل كل رجل منهم من لِقي من والد وولد ، فيقتله بالسيف ولا يُبالي من قتل في ذلك الموطن .

وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون أمرهم ، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها ، وفعلوا ما أُمروا وغفر الله للقاتل والمقتول .

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدَّسة ، وأخذ الألواحَ بعد ما سكتَ عنه الغضبُ ، فأمرهم بالذي أُمر به من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبَوا أن يقروا بها ، فنتَق الله عليهم الجبل كأنه ظُلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل ، والكتاب بأيديهم وهم من وراءالجبل مخافة أن يقع عليهم . ثم مضَوا حتى أتَوا الأرضَ المقدسة ، فوجدوا مدينةً فيها قوم جبارون ، خَلْقهم خلق منكَر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجباً من عظَمها[1] ، فقالوا : ﴿ **يا موسى إن فيها قوماً جَبارين** ﴾ لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها ﴿ **فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ .

قال رجلان من الذين يُخافون [2] قيل ليزيد : هكذا قرأه ؟ قال : نعم ، من الجبَّارين ، آمنا بموسى وخرجا إليه ، فقالوا : نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعدَدهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم ، فـ﴿ **ـادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون** ﴾ . ويقول أناسٌ : إنهم من قوم موسى .

فقال الذين يخافون من بني إسرائيل : ﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسمَّاهم فاسقين ، ولم يدعُ عليهم قبلَ ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم ، حتى كان يومئذٍ فاستجاب الله له ، وسمَّاهم كما سماهم فاسقين ، فحرَّمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قَرار ثم ظلَّل عليهم الغَمام في التيه ، وأنزل عليهم المنَّ والسَّلْوى ، وجعل لهم ثياباً لا تبَلى ولا تتسخ وجعل بين ظَهرانيهم حجَراً مربعاً . وأمر موسى فضربه بعصاه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، في كل ناحية ثلاثة أعين ، وأعلمَ كلَّ سبْط عينهم التي يشربون منها ، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالمنزل الأول بالأمس .

***

---

(١) هذه من الأساطير وسبقت الإشارة اليها في موضع آخر .

(٢) لفظ الآية : ﴿ **يخافون** ﴾ المائدة ٢٣ .

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ ، وصدَّق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل . فقال : كيف يفشي عليه ولم يكن عَلم به ، ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك ؟ فغضب ابن عباس ، فأخذ بيد معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري ، فقال له : يا أبا إسحاق ، هل تذكر يومَ حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قَتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلي الذي أفشَى عليه أم الفرعوني ؟ قال : إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد ذلك وحضره .

هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي ، وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون .

والأشبه والله أعلم أنه موقوف ، وكونه مرفوعاً فيه نظر .

وغالباً متلقى من الإسرائيليات[1] وفيه شيء يسير مصرَّح برفعه في أثناء الكلام .

وفي بعض ما فيه نظر ونكارة ، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار . وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجَّاج المزِّي يقول ذلك ، والله أعلم .

(١) وهذا صحيح وقد أشرنا اليه في مكان آخر وهو مأخوذ من سفر الخروج . وكعب الأحبار ، كبير أحبار اليهود قبل أن يسلم ، قد روى كثيراً مما جاء في أسفار اليهود والله أعلم بنواياه من ذلك .

ذكر بناء قبة الزمان

قـال أهل الكتـاب : وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمـل قبة من خشب الشمشاذ(١) وجلود الأنعام وشعر الأغنام ، وأمر بزينتها بالحريـر المصبغ والـذهب والفضة عـلى كيفيات مفصَّلة عنـد أهل الكتاب ، ولها عشر سُرادقات ؛ طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً ، وعرضـه أربعة أذرع . ولهـا أربعة أبواب وأطناب من حرير ودَمَقْس مصبغ ، وفيها رفوف وصفـائح من ذهب وفضـة ولكل زاويـة بابان وأبواب أُخر كبيرة وستور من حرير مصبغ وغير ذلك مما يـطول ذكره(٢) . وبعمـل تابـوت(٣) من خشب الشمشاذ يكون طـوله ذراعـين ونصفاً ، وعـرضه ذراعـين وارتفاعـه ذراعـاً ونصفـاً ، ويكـون مضبَّبـاً بذهب خـالص من داخله وخارجـه ، وله أربـع حلَق في أربع زوايـاه ، ويكون عـلى حـافتيـه كُروبيّان من ذهب ـ يعنون صفة ملَكين بأجنحة ، وهما متقابلان صنعة رجل اسمه « بصليال » .

وأمـره أن يعمل مـائدة من خشب الشمشـاذ طولهـا ذراعان وعـرضها ذراعـان ونصف ، لهـا ضبـاب ذهب وإكليل ذهب ، بشفة مرتفعـة بإكليـل من ذهب ، وأربع حلق من نـواحيها من ذهب ، مغـرزة في مثل الـرمان من خشب ملبس ذهبـاً . وأن يعمل صِحَـافاً ومصـافي وقِصاعـاً على المـائدة ، ويصنع منارةً من الـذهب دلِّي فيها ست قصبـات من ذهب ، من كل جـانب ثلاثـة ، على كـل قصبة ثـلاث سـرج(٤) . وليكن في المنـارة أربـع قنـاديـل ، ولتكن هي وجميـع هـذه الآنيـة من قنطار من ذهب ، صنع ذلك « بصليال » أيضاً ، وهو الذي عمل المذبح أيضاً .

ونصبت هـذه القبة أول يـوم من سنتهم ، وهو أول يـوم من الربيـع ونصب تابـوت الشهادة(٥) وهو ـ والله اعلم ـ المذكور في قوله تعالى : ﴿ **إن آيـةَ مُلْكه أن يـأتيكم التابـوتُ فيه سكِينـة من ربكم وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون تَحْمله الملائكة ، إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾(٦) .

وقـد بُسط هذا الفصـل في كتابهم مـطولاً جداً ، وفيـه شرائـع لهم وأحكام وصفـة قـربـانهم ،

---

(١) الشمشاذ : شجر السرو ويسمى ازاذدرخت . في الأصل « الشمشاز »

(٢) كما جاء في سفر العدد اسمه خباء المحضر .

(٣) تابوت العهد .

(٤) هذا التفصيل لم يأت إنما ورد أن السرج سبعة تضاء جميعها في المنارة .

(٥) تابوت العهد .

(٦) سورة البقرة الآية ٢٤٨ .

وكيفيته . وفيه أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل الذي هو متقدم على مجيئهم بيت المقدس ، وأنها كانت لهم كالكعبة يصلُّون فيها وإليها ، ويتقربون عندها ، وأن موسى عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها ، وينزل عمود الغمام على بابها ، فيخرون عند ذلك سُجَّداً لله عز وجل[١] .

ويكلم الله موسى عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذي هو نور ويخاطبه ويناجيه ، ويأمره وينهاه ، وهو واقف عند التابوت صامد الى ما بين الكروبيين فإذا فصل الخطاب يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عز وجل إليه من الأوامر والنواهي .

وإذا تحاكموا إليه في شيء ليس عنده من الله فيه شيء ، يجيء إلى قبة الزمان[٢] ، ويقف عند التابوت ويصمد لما بين ذينك الكروبيين ، فيأتيه الخطاب بما فيه فَصْل تلك الحكومة[٣] .

وقد كان هذا مشروعاً لهم في زمانهم ، أعني استعمال الذهب والحرير المصبَّغ واللآلىء ، في معبدهم وعند مصلاهم ، فأما في شريعتنا فلا ، بل قد نُهينا عن زخرفة المساجد وتزيينها ؛ لئلا تشغل المصلين ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لمّا وسع في مسجد رسول الله ﷺ للذي وكله على عمارته : ابنِ للناس ما يُكِنّهم ، وإياكَ أن تحمِّر أو تصفر فتفتِن الناسَ . وقال ابن عباس : لا تزخرفنّها كما زخرفت اليهود والنصارى كنائسهم .

وهذا من باب التشريف والتكريم والتنزيه ، فهذه الأُمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأُمم ؛ إذ جمع الله هممهم في صلاتهم على التوجه إليه والإقبال عليه ، وصان أبصارهم وخواطرهم عن الاشتغال والتفكر في غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة . فلله الحمد والمنة .

وقد كانت قبة الزمان هذه مع بني إسرائيل في التيه ، يصلُّون إليها وهي قبلتهم وكعبتهم ، وإمامهم كليم الله موسى عليه السلام ، ومقدِّم القربان أخوه هارون عليه السلام .

فلما مات هارون ثم موسى عليهما السلام أستمرَّ بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم ، من أمر القربان وهو فيهم إلى الآن .

وقام بأعباءالنبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده فتاه يوشع بن نون عليه السلام وهو الذي دخل بهم بيتَ المقدس كما سيأتي بيانه .

---

(١) اسفار التشريع هي : الأحبار ، العدد وتثنية الاشتراع .
(٢) خباء المحضر .
(٣) الخصومة أو الحكم في القضية .

والمقصود هنا أنه لما استقرت يده على البيت المقدس نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلُّون إليها ، فلما بادَتْ صلوا إلى محَلتها وهي الصخرة ، فلهذا كانت قبلةَ الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله ﷺ ، وقد صلى إليها رسول الله ﷺ قبلَ الهجرة ، وكان يجعل الكعبة بين يديه فلما هاجر أُمر بالصلاة إلى بيت المقدس ، فصلى إليها ستة عشر - وقيل سبعة عشر - شهراً .

ثم حوِّلت القبلة إلى الكعبة وهي قِبْلة إبراهيم في شعبان سنة اثنتين في وقت صلاة العصر وقيل الظهر ، كما بسطنا ذلك في التفسير عند قوله تعالى : **﴿ سيقول السفهاءُ من الناس ما ولَّاهم عن قِبْلتهم التي كانوا عليها ﴾** . إلى قوله : **﴿ قد نرى تقلبَ وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾**(١) .

---

(١) سورة البقرة الآيتان ١٤٢ ، ١٤٣ وما بعدهما .

قصة قارون مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أُولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن آلله لا يحب آلفرحين * وآبتغ فيما آتاك الله آلدارَ الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن آلله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن آلله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علمٍ عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعاً ولا يُسألُ عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه في زينتِهِ قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أُوتي قارون إنه لذو حظٍّ عظيمٍ * وقال آلذين أُوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرونَ * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وَيْكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنَّ آلله علينا لخسف بنا ويْكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾[1] .

قال الأعمش عن المِنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان قارون ابن عم موسى ، وكذا قال إبراهيم النَّخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل ، وسِمَاك بن حَرْب وقتادة ومالك بن دِينار وابن جُرَيج وزاد فقال : هو قارون بن يصهب بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث . قال ابن جُريج : وهذا قول أكثر أهل العلم : أنه كان ابن عم موسى . وردَّ قول ابن إسحاق إنه كان عم موسى . قال قتادة : وكان يسمى المنوَّر لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري ، فأهلكه البغي لكثرة ماله . وقال شهْر بن حَوْشَب : زاد في ثيابه شِبراً طولاً ترفّعاً على قومه .

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه ؛ حتى إن مفاتحه كان يثْقل حملها على الفِئام[2] من الرجال الشداد ،وقد قيل إنها كانت من الجلود وإنها كانت تُحمل على ستين بغلاً[3] ، فالله أعلم .

وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين : ﴿ لا تفرح ﴾ أي لا تبطر بما أُعطيت وتفخر على

(١) سورة القصص الآيات ٧٦ ـ ٨٣ .

(٢) الفئام جمع فئة . وهي الجماعة .

(٣) هذا من مبالغة الرواة .

غيرك ، ﴿ إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ﴾ يقولون : لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة ، فإنه خير وأبقى ، ومع هذا ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أي وتتناول منها بمالك ما أحلّ الله لك ، فتمتّع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ، ﴿ وأحسنْ كما أحسن الله إليك ﴾ أي وأحسن إلى خَلْق الله كما أحسن الله خالقُهم وبارئهم إليك ﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ أي ولا تسيء إليهم ولا تفسد فيهم ، فتقابلهم ضدَّ ما أُمرت فيهم فيعاقبك ويَسْلبك ما وهبك ، ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

فما كان جوابه قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن : ﴿ قال إنما أوتيته على عِلم عندي ﴾ يعني أنا لا أحتاج إلى إستماع ما ذكرتم ، ولا إلى ما إليه أشرتم ، فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أني أستحقه ، وأني أهلٌ له ، ولولا أني حبيب إليه وحِظيٌّ عنده لَمَا أعطاني ما أعطاني .

قال الله تعالى ردًّا عليه فيما ذهب إليه : ﴿ أو لم يعلموا أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعاً ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أي قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً ؛ فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه ، ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به ، كما قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زُلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مالٍ وبنين * نُسارِعُ لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾[2] وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله : ﴿ إنما أُوتيته على علم عندي ﴾ .

وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء ، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله في جمع الأموال ، فليس بصحيح ؛ لأن الكيمياء تخييل وصنعة ، لا تحيل الحقائق ، ولا تشابه صنعة الخالق ، والاسم الأعظم لا يَصعد الدعاء به من كافر به ، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر . ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير ، ولا يبقى بين الكلامين تلازم ، وقد وضحنا هذا في كتابنا التفسير ، ولله الحمد .

قال الله تعالى : ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم ؛ من ملابس ومراكب وخدم وحشم . فلما رآه من يُعظِّم زهرة الحياة الدنيا تمنَّوا أنْ لو كانوا مثله ، وغبَطوه بما عليه وله ، فلما سمع مقالتهم العلماء ، ذوو الفهم الصحيح الزهَّاد الألبَّاء ، قالوا

---

(١) سورة سبأ الآية ٣٧ .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان ٥٥ ، ٥٦ .

لهم : ﴿ ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى . قال الله تعالى : ﴿ ولا يُلقَّاها إلا الصابرون ﴾ أي وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة ، وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية ، عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هَدى الله قلبه وثبَّت فؤاده ، وأيَّد لُبَّه وحقق مراده .

وما أحسن ما قال بعض السلف : إن الله يحب البصرَ النافذ عند ورود الشُّبهات ، والعقل الكامل عند حلول الشهوات !

قال الله تعالى : ﴿ **فخسفْنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة يَنْصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾ .

لما ذكر تعالى خروجه في زينته واختياله فيها ، وفَخْره على قومه بها قال : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ كما روى البخاري من حديث الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خُسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » .

ثم رواه البخاري من حديث جرير بن زيد ، عن سالم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . وقد ذكر عن ابن عباس والسُّدي : إن قارون أعطى امرأة بغيًّا مالاً على أن تقول لموسى عليه السلام وهو في ملأ من الناس : إنك فعلت بي كذا وكذا ، فيقال : إنها قالت له ذلك ، فأرعد من الفرق[1] وصلى ركعتين ، ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك ، وما حملكِ عليه ، فذكرت أن قارون هو الذي حملها على ذلك . واستغفرت الله وتابت إليه . فعند ذلك خَرَّ موسى لله ساجداً ، ودعا الله على قارون ، فأوحى الله إليه : إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره ، فكان ذلك ، فالله أعلم .

وقد قيل : إن قارون لما خرج على قومه في زينته مرَّ بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عليه السلام ، وهو يذكِّر قومه بأيام الله . فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير منهم ينظرون إليه ، فدعاه موسى عليه السلام فقال له : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا موسى أمَا لئن كنت فُضِّلت عليَّ بالنبوة ، فقد فُضِّلتُ عليك بالمال ، ولئن شئت لتخَرجن فلتدعون عليَّ ولأدعون عليك .

فخرج موسى وخرج قارون في قومه ، فقال له موسى : تدعو أو أدعو أنا ؟ قال : أدعو أنا ، فدعا قارونُ فلم يُجَب له في موسى ، فقال موسى :أدعو؟ قال : نعم . فقال موسى : اللهم مُر الأرض فلتطعني اليومَ ، فأوحى الله إليه إني قد فعلت . فقال موسى : يا أرض خذيهم . فأخذتهم

(١) الفرق : الخوف والفزع .

إلى أقدامهم ، ثم قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى رُكَبهم ، ثم إلى مناكبهم . ثم قال : أقبلي بكنوزهم وأموالهم ، فأقبلت بها حتى نظروا إليها ، ثم أشار موسى بيده فقال : اذهبوا بني لاوي[1] فاستوت بهم الأرض .

وقد روي عن قتادة أنه قال : يُخسف بهم كلَّ يوم قامة إلى يوم القيامة . وعن ابن عباس أنه قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة . وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا إسرائيليات كثيرة ، أضربنا عنها صفحاً وتركناها قصداً .

وقوله تعالى : ﴿ **فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾ لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال : ﴿ **فما له من قوةٍ ولا ناصرٍ** ﴾[2] .

ولما حلَّ به ما حلَّ من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار ، وإهلاك النفس والأهل والعقار ، ندم من كان تمنَّى مثل ما أُوتي ، وشكروا الله تعالى الذي يدبِّر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ، ولهذا قالوا : ﴿ **لولا أن من الله علينا لخسف بنا ، وَيْكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ وقد تكلمنا على لفظ ويكأن في التفسير وقد قال قتادة : ويكأن بمعنى ألم تر أن . وهذا قول حسَن من حيث المعنى ، والله أعلم .

ثم أخبر تعالى : أن ﴿ **الدار الآخرة** ﴾ وهي دار القرار ، وهي الدار التي يُغبط من أُعطيها ويعزَّي من حُرمها إنما هي معدة ﴿ **نجعلها للذين لا يريدون عُلواً في الأرض ولا فساداً** ﴾ فالعلو هو التكبر والفخر والأشرَ والبطر . والفساد هو عمل المعاصي اللازمة[3] والمتعديّة[4] ، من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم ، والإساءة إليهم وعدم النصح لهم .

ثم قال تعالى : ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ .

وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر ، لقوله : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ فإن الدار ظاهرة في البنيان ، وقد تكون بعد ذلك في التِّيه ، وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تُضرب فيها الخيام ؛ كما قال عنترة :

يا دارَ عَبْلَةَ بالجواء تكلَّمي وعِمي صباحاً دار عبلة واسلمِي

---

(١) وهذا لا يصح لأنَّ بني لاوي سبط من أسباط بني اسرائيل كانوا كهنة اليهود وخدام المعبد في عهد موسى ويوشع عليهما السلام .

(٢) سورة الطارق الآية ١٠ .

(٣) التي تلزم فاعلها .

(٤) التي يمتد ضررها إلى سواه .

والله أعلم .

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن ، قال الله : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحرٌ كذابٌ** ﴾[1] .

وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود : ﴿ **وقارون وفرعونَ وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين * فكلًّا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصِباً ومنهم من أخذتْه الصَّيحةُ ، ومنهم من خَسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقْنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يَظلمون** ﴾[2] .

فالذي خُسف به الأرض قارون[3] كما تقدم ، والذي أُغرق فرعون وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد ، حدثنا كعب بن علقمة ، عن عيسى بن هلال الصدفيّ ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نورٌ ولا برهانٌ ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبي بن خلف » .

تفرد به أحمد رحمه الله .

---

(١) سورة غافر الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة العنكبوت الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) الموضع الذي خسف الله فيه الأرض بقارون تحول الى حفرة كبيرة في الأرض امتلأت ماء وما زالت تعرف الى يومنا هذا ببحيرة قارون في مصر .

باب ذكر فضائل موسى عليه السلام
وشمائله وصفاته ووفاته

قال الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب موسى ، إنه كان مُخْلصاً وكـان رسولاً نبيـاً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقرَّبناه نجيًّا * ووهبنا لـه من رحمتنا أخاه هارون نبيًّا ﴾(١) . وقـال تعـالى : ﴿ قـال : يـا مـوسى إني اصطفيتـك عـلى النـاس بـرســالاتي وبكـلامي فخـذ مـا آتيتـك وكن من الشاكرين ﴾(٢) .

وتقـدم في الصحيحين عن رسـول الله ﷺ أنه قـال : « لا تفضلوني على مـوسى ، فـإن النـاس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق ، فـأجد مـوسى باطشـاً بقائمـة العرش ، فـلا أدري أصعق فأفاق قبلَي ؟ أم جوزي بصعقة الطور » ؟

وقـد قـدمنـا أنـه من رسـول الله ﷺ من بـاب الهضم والتـواضع ، وإلا فهـو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض .

وقـال تعالى : ﴿ إنـا أوحينا إليـك كما أوحينـا إلى نوح والنبيـين من بعده وأوحينـا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ إلى أن قال : ﴿ ورسـلاً قد قصَصْنـاهم عليك من قبـلُ ، ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلَّم الله موسى تكليماً ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الـذين آمنوا لا تكـونوا كـالذين آذوا مـوسى فبَّرأه الله ممـا قالـوا ، وكان عند الله وجيهاً ﴾(٤) .

قال الإمام أبو عبد الله البخـاري : حدثنـا إسحاق بن إبراهيم بن رَوْح بن عُبـادة ، عن عوف عن الحسن ومحمـد وخلاس ، عن أبي هـريرة قـال : قـال رسـول الله ﷺ : « إن مـوسى كـان رجـلاً حَيياً سِتيراً لا يُـرى من جلده شيء استحياءً منـه ، فآذاه من آذاه من بني إسـرائيل فقـالوا : مـا يستتر هـذا التستر إلا من عيب بجلده ، إمـا بَـرص ، وإمـا أدرة(٥) وإما آفة . وإن الله عـز وجـل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحْده ، فـوضع ثيـابه عـلى الحجر ثم اغتسـل ، فلما فرغ أقبـل على

(١) سورة مريم الأيات ٥١ ـ ٥٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٤ .

(٣) سورة النساء الآيتان ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٦٩ .

(٥) الادرة : انتفاخ الخصيين

ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عَدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسَن ما خلق الله ، وبرأه الله مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثَر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وَجيهاً** ﴾[1] .

وقد رواه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن شقيق وهمَّام بن منبه عن أبي هريرة به . وهو في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن مَعمَرَ عن همام عنه به . ورواه مسلم من حديث عبد الله بن شقيق العقيلي عنه .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله ، وطلب منه أن يكون معه وزيراً ، فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبَته وجعله نبياً ، كما قال : ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيًّا** ﴾ .

ثم قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ، حدثنا شعبة عن الأعمش قال : سمعت أبا وائل ، قال : سمعت عبدالله ، قال : قسَمَ رسول الله ﷺ قَسْماً ، فقال رجل : إن هذه لَقسمة ما أُريد بها وجه الله ، فأتيت النبيَّ ﷺ فأخبرته فغضب ، حتى رأيت الغضبَ في وجهه ثم قال ﷺ : « يرحم الله موسى قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر » .

وكذا رواه مسلم من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هاشم مولى لهمدان ، عن زيد بن أبي زائد ، عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا يبلغني أحدٌ عن أحد شيئاً ، فإني أُحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » . قال : « وأتى رسولَ الله ﷺ مال فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدارَ الآخرة ، فثبتُّ حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ! إنك قلت لنا لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً ، وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا . فاحمرّ وجه رسول الله ﷺ وشقّ عليه ، ثم قال : « دعنا منك فقد أُوذي موسى أكثر من ذلك فصبر » !

وهكذا رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل عن الوليد بن أبي هاشم ، وفي رواية

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٩ .

للترمذي ولأبي داود من طريق ابن عبد عن إسرائيل عن السُّدي عن الوليد به . وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه .

وقد ثبت في الصحيحين في أحاديث الإسراء : أن رسول الله ﷺ مرَّ بموسى وهو قائم يصلي في قبره ، ورواه مسلم عن أنس .

وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صَعْصعة عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أُسري به بموسى في السماء السادسة ، فقال له جبريل : هذا موسى ، فسلِّم عليه . قال : « فسلَّمتُ عليه فقال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح » فلما تجاوزتُ بكى ، قيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أُمته أكثر مما يدخلها من أُمتي » . وذكر إبراهيم في السماء السابعة ، وهذا هو المحفوظ .

وما وقع في حديث شريك بن أبي نمر ، عن أنس ، من أن إبراهيم في السادسة وموسى في السابعة ـ بتفضيل كلام الله ـ فقد ذكر غير واحد من الحفاظ : أن الذي عليه الجادة : أن موسى في السادسة وإبراهيم في السابعة ، وأنه مسندٌ ظهره إلى البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم .

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ وأُمته خمسين صلاة في اليوم والليلة ، مر بموسى ، فقال : ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك ، فإني قد عالجتُ بني إسرائيل قبلك أشدَّ المعالجة ، وإن أُمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة . فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ، ويخفف عنه في كل مرة ، حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة . وقال الله تعالى : هي خمس وهي خمسون أي بالمضاعفة ، فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً ، وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً .

وقال البخاري : حدثنا مسدَّد ، حدثنا حُصينَ بن نُمَيرَ عن حصين بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « عُرضت عليَّ الأُممُ ورأيت سواداً كثيراً سد الأُفق ، فقيل هذا موسى في قومه » . هكذا روى البخاري هذا الحديث ها هنا مختصراً .

وقد رواه الإمام أحمد مطولاً فقال : حدثنا شريح ، حدثنا هشام ، حدثنا حصين بن عبد الرحمن ، قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحةَ ؟ قلت : أنا ، ثم قلت : إني لم أكن في صلاة ولكن لُدغت ، قال : وكيف فعلتَ ؟ قلت : استرقيتُ ، قال : وما حَملك على ذلك ؟ قال : قلت : حديث حدثناه الشَّعبي عن بُرَيْدة الأسلَمي أنه قال :

« لا رُقْيـة إلا من عـينٍ أو حِمَـة » ، فقـال سعيد ـ يعني ابن جبـير ـ : « قـد أحسن من أنهى إليَّ مـا سمع » .

ثم قـال : حـدثنـا ابن عبـاس عن النبي ﷺ قـال : عُـرضت عـليَّ الأُمم فـرأيت النبي ومعـه الـرهط ، والنبي معه الـرجل والـرجلان والنبي وليس معـه أحد ، إذ رُفـع لي سـواد عـظيم فقلت : هذه أُمتي ؟ فقيل : هذا موسى وقـومه ، ولكن انـظر إلى الأُفق ، فإذا سـواد عظيم ، ثم قيـل : انظر إلى هـذا الجانب ، فـإذا سواد عـظيم ، فقيل : هـذه أُمتك ومعهم سبعـون ألفاً يـدخلون الجنـة بغـير حساب ولا عذاب .

ثم نهض رسول الله ﷺ فدخل ، فخاض القـوم في ذلك ، فقـالوا : من هؤلاءالـذين يدخلون الجنـة بغير حسـاب ولا عذاب ؟ فقـال بعضهم : لعلهم الذين صحبـوا النبيَّ ﷺ . وقال بعضهم : لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً قط ، وذكروا أشياء .

فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقـال : « ما هـذا الذي كنتم تخـوضون فيـه ؟ » فأخبـروه بمقالتهم فقـال : « هم الذين لا يَكْتـوون ولا يَسْتَرْقـون ولا يتطيَّـرون وعلى ربهم يتـوكلون » فقام عُكـاشة بن مِحْصَن الأسدي فقال : أنـا منهم يا رسـول الله ؟ قال : أنت منهم . ثم قـام آخر فقـال : أنا منهم يـا رسول الله ؟ فقال : « سبقك بها عُكاشة » !

وهذا الحديث لـه طرق كثيـرة جداً وهـو في الصحاح والحسـان وغيرهـا وقد أوردنـاها في بـاب صفة الجنة عند ذكر أحوال القيامة وأهوالها .

وقـد ذكر الله تعـالى موسى عليـه السلام في القـرآن كثيراً ، وأثنى عليـه وأورد قصتـه في كتـابـه العزيز مراراً ، وكرَّرها كثيراً ، مطولةً ومبسوطة ومختصرة ، وأثنى عليه ثناء بَلِيغاً .

وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ، ويـذكر كِتـابه مـع محمد ﷺ وكتـابه ، كما قال في سـورة البقرة :

﴿ ولما جاءهم رسـولٌ من عند آلله مصـدقٌ لما معهم نبـذ فريقٌ من الـذين أوتوا الكتـاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾(١) .

وقـال تعالى : **﴿ آلم * الله لا إلـه إلا هو الحي القيـوم * نزَّل عليـك الكتابَ بـالحق مصدِّقـاً لما بَـيْنَ يديـه ، وأنزل التـوراة والإنجيل * من قبـلُ هُدىً للنـاس وأنزل الفـرقانَ ، إن الـذين كفـروا بآياتِ الله لهم عذابٌ شديد ، والله عزيزٌ ذو انتقام ﴾** (٢) .

(١) سورة البقرة الآية ١٠١ .

(٢) سورة آل عمران الآيات ١ ـ ٤ .

وقال تعالى في سورة الانعام : ﴿ وما قدروا الله حقَّ قَدْره إذ قالوا ما أنزل الله على بشرٍ من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس ، تجعلونه قراطيسَ تُبْدونها وتخفون كثيراً ، وعُلِّمتم ما لم تعلَموا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ثم ذَرْهم في خوضهم يلعبون * وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ مصدِّقُ الذي بين يديه ولتُنْذر أُمَّ القُرى ومَن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾(١) .

فأثنى الله تعالى على التوراة ، ثم مدح القرآن العظيم مَدْحاً عظيماً .

وقال تعالى في آخرها : ﴿ ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكلِّ شيء ، وهدىً ورحمةً لعلهم بلقاءِ ربهم يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم تُرحمون ﴾(٢) .

وقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هُدْىً ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادُوا والربانيون والأحبارُ بما استحفظوا من كتابِ الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشونِ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الكافرون ﴾(٣) إلى أن قال : ﴿ وليحكم أهلَ الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأُولئك هم الفاسقون * وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾(٤) .

فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره ، وجعله مصدِّقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل ؛ فإن أهل الكتاب استُحفظوا على ما بأيديهم من الكتب ، فلم يَقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصَوْنها ، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم ؛ لسوء فهمهم وقصورهم في علومهم ، ورداءة قصودهم ، وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة الى يوم القيامة . ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البيِّن على الله وعلى رسوله ما لا يحدّ ولا يوصف ، وما لا يُوجد مثله ولا يُعرف .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرى للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيبِ وهم من الساعة مُشْفقون * وهذا ذكرٌ مبارَك أنزلناه ، أفأَنتم له

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ٩١ ـ ٩٢ .

(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٤) سورة المائدة الآيتان ٤٧ ، ٤٨ .

منكرون ﴾(١)

وقال الله تعالى في سورة القصص : **﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أُوتي مثلَ ما أُوتي موسى ، أو لم يَكْفروا بما أُوتي موسى من قبلُ ، قالوا سِحْران تظاهَرَا وقالوا إنا بكلٍّ كافرون * قُلْ فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدَى منهما أتَّبعه إن كنتم صادقين ﴾**(٢) .

فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام .

وقالت الجن لقومهم : **﴿ إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى ﴾**(٣) .

وقال ورقة بن نوفل لما قصَّ عليه رسولُ الله ﷺ خبر ما رأى من أول الوحي وتلا عليه : **﴿ إقرأ باسم ربك الذي خَلق * خلق الإنسانَ من علق * إقرأ وربُّك الأكرمُ * الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم ﴾**(٤) قال : سُبُّوح سبوح ، هذا الناموس الذي أُنزل على موسى ابن عمران .

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمة ، وأُمته كانت أُمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء ، وعُبَّاد وزهاد وألِبّاء ، وملوك وأمراء ، وسادات وكبراء ، لكنهم كانوا فبادُوا ، وتبدَّلوا كما بُدِّلت شريعتهم ومسخوا قردةً وخنازير ، ثم نُسخت بعد كل حساب ملتهم ، وجرت عليهم خطوبٌ وأمور يطول ذكرها . ولكن سنورد ما فيه مَقْنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله ، وبه الثقة وعليه التكلان .

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٤٨ ـ ٥٠ .

(٢) سورة القصص الآيتان ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة الأحقاف الآية ٣٠ .

(٤) سورة العلق الآيات ١ ـ ٥ .

ذكر حجه عليه السلام إلى البيت العتيق

قال الإمام أحمد : حدثنا هشام ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ مرَّ بوادي الأزرق فقال : « أي وادٍ هذا ؟ » قالوا : وادي الأزرق ، قال ﷺ : « كأني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثَّنية ، وله جؤار [1] إلى الله عز وجل بالتلبية » ، حتى أتى على ثنية هرشاء فقال : « أي ثنية هذه ؟ » قالوا : هذه ثنية هرشاء ، قال ﷺ : « كأني أنظر إلى يونس بن مَتّى على ناقة حمراء ، عليه جُبة من صوف ، خُطام ناقته خُلْبة » ـ قال هشيم : يعني ليفاً ـ وهو يُلَبي .

أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به .

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً : « إن موسى حجَّ على ثور أحمر » ، وهذا غريب جداً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن ابن عون ، عن مجاهد قال : كنا عند ابن عباس فذكروا الدجال ، فقال : إنه مكتوب بين عينيه « ك ف ر » قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون مكتوب بين عينيه « ك ف ر » فقال ابن عباس : لم أسمعه قال ذلك ولكن قال : « أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، وأما موسى فرجل آدم جَعْد الشعر على جمل أحمر مخطوم بخُلبة ، كأني أنظر إليه وقد انحدر من الوادي يلبي » قال هُشيم : الخُلْبة : الليف .

ثم رواه الإمام أحمد عن أسود ، عن إسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم : فأما عيسى فأحمر جعْد عريض الصدر ، وأما موسى فآدَم جسِيم سَبْط ، قالوا : فإبراهيم ؟ قال : أنظروا إلى صاحبكم » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا شيبان قال : حدثنا قَتادة عن أبي العالية ، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس قال : قال نبي الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسري بي موسى بن عمران رجلاً طِوَالاً جعداً ، كأنه من رجال شَنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم مَرْبوع الخَلْق إلى الحمرة والبياض ،

---

(١) رافع صوته بالتلبية .

سَبط الرأس »

وأخرجاه من حديث قتادة به . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا مَعْمر قال الزهري : وأخبرني سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ حين أُسري به : « لقيت موسى ، قال : فنعتَه ، فإذا رجل ـ حسبته قال ـ مضُطْرب ، رَجِلُ الرأس كأنه من رجال شنوءة ، ولقيت عيسى ، فنعته رسول الله ﷺ فقال : رَبعة أحمر كأنما خرج من دِيَماس ، يعني الحمَّام ، قال : ورأيت إبراهيم وأنا أشبهَ ولده به » . الحديث.

وقد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل .

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخاري في صحيحه « وفاة موسى عليه السلام »: حدثنا يحيى بن موسى ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مَعْمَرَ عن ابن طاوس ، عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكّه فرجع إلى ربه عز وجل ، فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، قال : إرجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطّت يده بكل شعرة سنَة ، قال : أيْ رب ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن .

قال : فسأل الله عز وجل أن يُدنيه من الأرض المقدسة رَمْية بحجَرَ قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ : « فلو كنت ثَم لأريتكم قَبره إلى جانب الطريق عند الكَثِيب الأحمر » .

قال : وأنبأنا مَعْمَر عن همَّام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه .

وقد روى مسلم الطريق الأول مِن حديث عبد الرزاق به . ورواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سَلمَة ، عن عمار بن أبي عمار ، عن أبي هريرة مرفوعاً ، وسيأتي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا أبو يونس - يعني سليم بن جبير - عن أبي هريرة قال الإمام أحمد لم يرفعه ، قال : « جاء ملَك الموت إلى موسى عليه السلام ، فقال : أجب ربك ، فلطَم موسى عين ملك الموت ففقأها ، فرجع الملك إلى الله فقال : إنك بعثتني إلى عبد لك لا يريد الموت ، قال : وقد فقأ عيني . قال : فردَّ الله عينه . وقال : إرجع إلى عبدي فقل له : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على مَتْن ثور ، فما وارتْ يدُك من شعره فإنك تعيش بها سنَة . قال : ثم مه ؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن يا رب من قريب » .

تفرد به أحمد ، وهو موقوف بهذا اللفظ .

وقد رواه ابن حبان في صحيحه من طريق معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال معمر : وأخبرني من سمع الحسن عن رسول الله ﷺ . فذكره .

ثم استشكله ابن حبان وأجاب عنه بما حاصله : أن مَلك الموت لما قال له هذا لم يعرِفه ، لمجيئه له على غير صورة يعرفهاموسى عليه السلام ، كما جاء جبريل في صورة أعرابي ، وكما وردت الملائكة على إبراهيم ولوط في صورة شباب ، لم يعرفهم إبراهيم ولا لوط أولاً . وكذلك موسى لعله لم يعرفه ؛ لذلك لَطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه ، وهذا موافق لشريعتنا في جواز فقء عين من نظر إليك في دارك بغير إذن .

ثم ورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن مَعْمَر ، عن همَّام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه ، قال له : أجب ربك ، فلطم موسى عين ملك الموت ففقأ عينه » . وذكر تمام الحديث كما أشار إليه البخاري .

ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه ، قال له : أجب ربك ، وهذا التأويل لا يتمشَّى على ما ورد به اللفظ ؛ من تعقيب قوله أجب ربك بلطمة . ولو استمر على الجواب الأول لتمشى له ، وكأنه لم يعرفه في تلك الصورة . ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق ؛ إذ لم يتحقق في الساعة الراهنة أنه ملك كريم ، لأنه كان يرجو أُموراً كثيرة كان يحب وقوعها في حياته ؛ من خروجهم من التيه ، ودخولهم الأرض المقدسة . وكان قد سبق في قدرة الله أنه عليه السلام يموت في التِّيه بعد هارون أخيه ، كما سنبينه إن شاءالله تعالى .

وقد زعم بعضهم : أن موسى عليه السلام هو الذي خرج بهم من التِّيه ودخل بهم الأرض المقدسة . وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين .

ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : رب أدْنني إلى الأرض المقدَّسة رمية حَجر ، ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك . ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحبَّ أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها ، وحث قومه عليها . ولكن حال بينهم وبينها القدر ، رميةً بحجر .

ولهذا قال سيد البشر ، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر : « فلو كنت ثَم لأريتكم قَبره عند الكثيب الأحمر » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، حدثنا ثابت وسليمان التَّيمي عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أُسري بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر » ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به .

وقال السُّدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة قالوا : ثم إن الله تعالى أوحى إلى موسى إني متوفٍّ هارون فائتِ به جبلَ كذا وكذا .

فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل ، فإذا هم بشجرة لم تُر شجرة مثلها ، وإذا هم ببيت مبني ، وإذا هم بسرير عليه فرش ، وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه ، قال : يا موسى ، إني أحب أن أنام على هذا السرير ، قال له موسى : فنم عليه ، قال : إني أخاف أن يأتي ربُّ هذا البيت فيغضب عليَّ ، قال له : لا ترهب . أنا أكفيك رب هذا البيت فنم . قال : يا موسى بل نم معي فإن جاء رب هذا البيت غضب عليَّ وعليك جميعاً . فلما ناما أخذ هارون الموتُ ، فلما وجد حسَّه قال : يا موسى خدعتني ، فلما قُبض رُفع ذلك

البيت ، وذهبت تلك الشجرة ورُفع السرير به إلى السماء .

فلما رجع موسى الى قومه وليس معه هارون قالوا : إن موسى قتل هارون ، وحسده على حب بني إسرائيل له ، وكان هارون أكفَّ عنهم وألين لهم من موسى ، وكان في موسى بعض الغِلظة عليهم . فلما بلغه ذلك قال لهم : ويحكم ! كان أخي أفتروني أقتله ؟ فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ، ثم دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض .

ثم إن موسى عليه السلام بينما هو يمشي ويوشع فتاه ، إذ أقبلت ريح سوداء ، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة ، فالتزم موسى وقال : تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبيَّ الله ؟ فاستُلَّ موسى عليه السلام من تحت القميص وترك القميص في يدي يوشع . فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل وقالوا : قتلت نبي الله . فقال : لا والله ما قتلته ، ولكنه استُل مني ، فلم يصدِّقوه وأرادوا قتله . قال : فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام ، فدعا الله فأُتي كلُّ رجل ممن كان يحرسه في المنام فأُخبر أن يوشع لم يقتل موسى ، وإنا قد رفعناه إلينا . فتركوه .

ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات ولم يشهد الفتح وفي بعض هذا السياق نَكارة وغرابة ، والله أعلم .

وقد قدمنا أنه لم يخرج أحد من التِّيه ممن كان مع موسى ، سوى يُوشَع بن نون ، وكالب بن يوفنا ، وهو زوج مريم أخت موسى وهارون ، وهما الرجلان المذكوران فيما تقدم ، اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم .

وذكر وهب بن منبه : أن موسى عليه السلام مرَّ بملأ من الملائكة يحفرون قبراً ، فلم ير أحسن منه ولا أنضر ولا أبهج ، فقال : يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر ؟ فقالوا : لعبد من عباد الله كريم ، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر ، وتمدد فيه وتوجه إلى ربك ، وتنفس أسهل تنفس ، ففعل ذلك ، فمات صلوات الله وسلامه عليه ، فصلَّت عليه الملائكة ودفنوه .

وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أُمية بن خالد ويونس ، قالا : حدثنا حماد بن سلمة ، عن عمارة بن أبي عمار ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ قال : « كان ملك الموت يأتي الناس عياناً ، قال : فأتَى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه ، فأتى ربه فقال : يا رب عبدك موسى فقأ عيني ، ولولا كرامته عليك لعتبتُ عليه ـ وقال يونس : لشققت عليه ـ قال له : اذهب إلى عبدي ، وقل له فليضع يده على جلد ـ أو مَسْك ثور ـ فله بكل

شعرة وارت يده سنَة ، فأتاه فقال له ، فقال : مـا بعد هـذا ؟ قال : المـوت ، قال : فـالآن . قال : فشمه شمة فقبض روحه » .

قـال يونس : فـردَّ الله عليـه عينـه وكـان يـأتي النـاس خفْيـة . وكـذا رواه ابن جـريـر عن أبي كُرَيب ، عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به ، فرفعه أيضاً .

ذكر نبوة يوشع

وقيامه بأعباء بني إسرائيل

بعد موسى وهارون عليهما السلام

هـو يـوشع بن نـون بن أفرائيم بن يـوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبـراهيم عليهم السلام وأهل الكتاب يقولون : يوشع ابن عم هود .

وقد ذكره الله تعالى في القرآن غـير مصرح بـاسمه في قصـة الخضر كما تقـدم من قولـه : ﴿ وإذ قال موسى لفتاهُ ﴾[1] ﴿ فلما جاوزا قال لفتاهُ ﴾ [2] وقـدمنا مـا ثبت في الصحيح من روايـة أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ : من أنه يوشع بن نون .

وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب ، فإن طائفة منهم وهم السـامرة ، لا يقـرون بنبوة أحـد بعد موسى إلا يوشع بن نون ، لأنه مصرح به في التـوراة ، ويكفرون بمـا وراءه وهو الحق مصـدِّقاً لما معهم من ربهم فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

وأمـا ما حكـاه ابـن جريـر وغيره من المفسـرين عن محمد بن إسحاق من أن النبـوة حُوِّلت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى ، فكـان موسى يَلقى يـوشع فيسـأله مـا أحدث الله إليـه من الأوامر والنواهي ، حتى قـال له : يـا كليم الله إني كنت لا أسألـك عما يُـوحي الله إليك حتى تخبـرني أنت ابتـداء من تلقاء نفسـك . فعند ذلـك كره مـوسى الحيـاة وأحبَّ المـوت . ففي هـذا نـظر ؛ لأن مـوسى عليه السـلام لم يزل الأمـر والوحي والتشـريع والكـلام من الله إليه من جميـع أحـوالـه ، حتى توفاه الله عز وجل . ولم يزل معززاً مكرماً مـدلَّلاً وجيهـاً عند الله ، كـما قدمنـا في الصحيح من قصة فقئـه عين ملك المـوت ، ثم بعثه الله إليـه إن كان يـريد الحيـاة فليضع يـده على جلد ثـور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها ، قال : ثم ماذا ؟ قـال : الموت ، قـال : فالآن يـا رب . وسأل الله أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر ، وقد أُجيب إلى ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

فهـذا الذي ذكـره محمد بن إسحاق إن كـان إنما يقـولـه من كتب أهـل الكتـاب ؛ ففي كتـابهم الذي يسمونه التوراة : أن الـوحي لم يزل ينـزل على مـوسى في كل حـين يحتاجـون إليه إلى آخـر مدة موسى ، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة[3] في قبة الزمان[4] .

---

(١) سورة الكهف الآية ٦٠ .

(٢) سورة الكهف الآية ٦٢ .

(٣) تابوت العهد .

(٤) خباء المحضر .

ولقد ذكروا في السفر الثالث[1] : أن الله أمر موسى وهارون أن يعدا بني إسرائيل على أسباطهم ، وأن يجعلا على كل سبط من الأثني عشر أميراً وهو النقيب ، وما ذاك إلا ليتأهبوا للقتال ، قتالِ الجبارين عند الخروج من التِّيه ، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة . ولهذا قال بعضهم : إنما فقأ موسى عليه السلام عينَ ملك الموت ؛ لأنه لم يعرفه في صورته تلك ، ولأنه كان قد أُمر بأمر كان يرتجي وقوعه في زمانه ، ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه ، بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام .

كما أن رسول الله ﷺ كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك ، ثم رجع عامَه ذلك في سنة تسع ثم حجَّ في سنة عشر ، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه ، ثم كان على عزم الخروج إليهم إمتثالاً لقوله تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ، ولا يَدِينون دِيَن الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون** ﴾[2] .

ولما جهَّز رسول الله ﷺ جيش أُسامة ، توفي عليه الصلاة والسلام وأُسامة مخيِّم بالجُرف ، فأنفذه صديقه وخليفته أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه ، ثم لما لَمّ شعث جزيرة العرب ، وما كان دَهى من أَمْر أهلها ، وعاد الحق إلى نصابه ، جهز الجيوش يمنةً ويسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس ، وإلى الشام أصحاب قيصر ملك الرومِ ، ففتح الله لهم ومكَّن لهم وبهم ، وملّكهم نواصي أعدائهم .

وهكذا موسى عليه السلام : كان الله قد أمره أن يجنّد بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء

كما قال تعالى : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتُم الزكاة وآمنتم بِرُسلي وعزَّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأُكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأُدخلنكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل** ﴾[3] .

يقول لهم : لئن قمتم بما أوجبتُ عليكم ، ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أولَ مرة ، لأجعلنَّ ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك ، كما قال تعالى لمن تخلَّف من الأعراب

---

(١) سفر العدد .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ١٢

عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية : ﴿ قل للمخلَّفين من الأعراب ستُدعون إلى قوم أُولي بأس شديد ، تقاتلونهم أو يُسْلمون ، فإن تطيعوا يُؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبلُ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾(١) .

وهكذا قال تعالى لبني إسرائيل : ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾(٢) . ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم في دينهم وأديانهم . وقد ذكرنا ذلك في التفسير مستقصى ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى أمرَ موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل ممن يحمل السلاح ويقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً ، وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم . السبط الأول : سبط روبيل(٣) لأنه بكر يعقوب ، وكان عِدّة المقاتلة منهم ستة وأربعين ألفاً وخمسمائة ، ونقيبهم منهم وهو اليصور بن شديئور . السبط الثاني : سبط شمعون ، وكانوا تسعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة ، ونقيبهم شلوميئيل بن هوريشداي(٤) ، السبط الثالث(٥) : سبط يهوذا ، وكانوا أربعة وسبعين ألفاً وستمائة ، ونقيبهم نحشون بن عمينا ذاب . السبط الرابع سبط إيساخر وكانوا أربعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم نشائيل بن صوغر . السبط الخامس : سبط يوسف عليه السلام(٥) ، وكانوا أربعين ألفاً وخمسمائة ، ونقيبهم يوشع بن نون . السبط السادس : سبط ميشا(٦) ،وكانوا واحداً وثلاثين ألفاً ومائتين ، ونقيبهم جمليئيل بن فدهصور . السبط السابع : سبط بنيامين ، وكانوا خمسة وثلاثين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم أبيدن بن جدعون . السبط الثامن : سبط جاد ، وكانوا خمسة وأربعين ألفاً وستمائة وخمسين رجلاً ، ونقيبهم الياساف بن دعوئيل ، السبط التاسع : سبط أشير ، وكانوا أحداً وأربعين ألفاً وخمسمائة ، ونقيبهم فجعيئيل بن عكرن . السبط العاشر : سبط دان ، وكانوا اثنين وستين ألفاً وسبعمائة ، ونقيبهم أخيعزر بن عمشداي . السبط الحادي عشر : سبط نفتالي ، وكانوا ثلاثة وخمسين ألفاً وأربعمائة ، ونقيبهم أضيرع بن عينين والسبط الثاني عشر سبط زبولون وكانوا سبعة وخمسين ألفاً وأربعمائة ونقيبهم الياب بن حيلون . هذا نص

---

(١) سورة الفتح الآية ١٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٢ .

(٣) رأوبين .

(٤) صوريشداي .

(٥) ليوسف سبطين الأول لإفرايم ونقيبهم أليشع بن عميهور .

(٦) والثاني منسَّى .

كتابهم الذي بأيديهم ، والله أعلم (١) .

وليس منهم « بنو لاوي » فقد أمر الله موسى أن لا يعدّهم معهم ، لأنهم موكَّلون بحمل قبة الشهادة وضربها وخزنها ونصبها وحملها إذا ارتحلوا ، وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام ، وكانوا اثنين وعشرين ألفاً ، من ابن شهر فما فوق ذلك ، وهم في أنفسهم قبائل من كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها ويحفظونها ويقومون بمصالحها ونصبها وحملها وهم كلهم حولها ، ينزلون ويرتحلون أمامها ويمنتها وشمالها ووراءها .

وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي خمسمائة ألف وأحد وسبعون ألفاً وستمائة وستة وخمسون . لكن قالوا : فكان عدد بني إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ؛ ممن حمل السلاح ، ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين رجلاً ، سوى بني لاوي .

وفي هذا نظر ، فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا في كتابهم ، لا تطابق الجملة التي ذكروها(٢) ، والله أعلم .

فكان بنو لاوي الموكَّلون بحفظ قبة الزمان يسيرون في وسط بني إسرائيل ، وهم القلب ، ورأس الميمنة بنو روبيل ، ورأس الميسرة بنو دان، وبنو نفتالي يكونون ساقة . وقرر موسى عليه السلام - بأمر الله تعالى له - الكهانة في بني هارون ، كما كانت لأبيهم من قبلهم ، وهم : ناداب وهو بكره ، وأبيهو والعازر ، ويثمر ، والمقصود أن بني إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ (٣) قاله الثّوري عن أبي سعيد عن عِكرمة عن ابن عباس ، وقاله قَتادة وعكرمة ، ورواه السُّدي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ، حتى قال ابن عباس وغيره من علماء السلف والخلف : ومات موسى وهارون قبله كلاهما في التِّيه جميعاً .

وقد زعم ابن إسحاق أن الذي فتح بيت المقدس هو موسى ، وإنما كان يوشع على مقدمته . وذكر في مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذي قال تعالى فيه :

﴿ **واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلَّهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذَّبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾(٤) .

---

(١) مأخوذة مع بعض الاختلاف في الترتيب من سفر العدد الفصل ١ .

(٢) بل إن مجموع الأعداد المذكورة هو ستمائة ألف وألفان وخمسمائة وخمسون سوى بني لاوي وهم إثنان وعشرون ألفاً

(٣) سورة المائدة الآية ٢٤ .

(٤) سورة الأعراف الآيات ١٧٥ - ١٧٧ .

وقد ذكرنا قصته في التفسير ، وأنه كان ـ فيما قاله ابن عباس وغيره ـ يعلم الاسم الأعظم[1] ، وأن قومه سألوه أن يدعو[2] على موسى وقومه ـ فامتنع عليهم ، ولما ألحوا عليه ركب حمارة له ، ثم سار نحو معسكر بني إسرائيل ، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته فضربها حتى قامت ، فسارت غير بعيد وربضت ، فضربها ضرباً أشد من الأول فقامت ثم ربضت ، فضربها فقالت له : يا بلعام . . . أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردّني عن وجهي هذا ؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم ؟ فلم ينزع عنها[3] ، فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل « حسبان » ونظر إلى معسكر موسى وبني إسرائيل فأخذ يدعو عليهم ، فجعل لسانه لا يطيعه إلى أن يدعو لموسى وقومه ، ويدعو على قوم نفسه ، فلاموه على ذلك ، فاعتذر إليهم بأنه لا يجري على لسانه إلا هذا ، واندلع لسانه حتى وقع على صدره ، فقال لقومه : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة .

ثم أمر قومه أن يزينوا النساء ويبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم ويتعرضن لهم لعلهم يقعون في الزنى ، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم ، ففعلوا وزينوا نساءهم وبعثوهن إلى المعسكر ، فمرت امرأة منهم اسمها « كسبتي » برجل من عظماء بني إسرائيل ، وهو « زمري بن شلوم » يقال إنه كان رأس سبط بني شمعون بن يعقوب فدخل بها قبته ، فلما خلا بها أرسل الله الطاعون على بني إسرائيل ، فجعل يجوس فيهم ، فلما بلغ الخبر إلى « فنحاص » بن العيزار بن هارون ، أخذ حربته وكانت من حديد ، فدخل عليهما القبة فانتظمهما جميعاً فيها ، ثم خرج بهما على الناس والحربة في يده ، وقد اعتمد على خاصرته وأسندها إلى لحيته ، ورفعهما نحو السماء وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، ورُفع الطاعون ، فكان جملة من مات في تلك الساعة سبعين ألفاً ، والمقلل يقول : عشرين ألفاً ، وكان فنحاص بكر أبيه العيزار بن هارون ؛ فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللَّبة والذراع واللَّحْى ، ولهم البِكْر من كل أموالهم وأنفَسها .

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح ، وقد ذكره غير واحد من علماء السلف ، لكن لعله لما أراد موسى دخولَ بيت المقدس أول مَقْدمه من الديار المصرية ، ولعله مراد ابن إسحاق ، ولكنه غير ما فهمه بعض الناقلين عنه ، وقد قدمنا عن نصّ التوراة ما يشهد لبعض هذا ، والله أعلم .

---

(١) الذي جاء في الأسفار عنه أنه رجل مبارك .

(٢) الذي طلب منه هو ملك موآب والطلب كان أن يلعن اسرائيل .

(٣) في سفر العدد أن الملاك ظهر له بعد الضربة الثالثة وأنه طلب منه أن يتبعه وأن يفعل كما يقول له .

ولعل هذه قصة أُخرى كانت في خلال سيرهم في التِّيه ؛ فإن في هذا السياق ذكر « حسبان » وهي بعيدة عن أرض بيت المقدس ، أو لعله كان هذا جيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون ، حين خرج بهم من التيه قاصداً بيت المقدس ، كما صرح به السُّدي ، والله أعلم(١) .

وعلى كل تقدير فالذي عليه الجمهور : أن هارون توفي بالتِّيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين ، وبعده موسى في التيه أيضاً ، كما قدمنا . وأنه سأل ربه أن يقربه إلى بيت المقدس فأُجيب إلى ذلك .

فكأن الذي خرج بهم من التيه ، وقصد بهم بيت المقدس ، هو يوشع بن نون عليه السلام ، فذكر أهل الكتاب وغيرهم من أهل التاريخ ، أنه قطع ببني إسرائيل نهر الأردن وانتهى إلى أريحا ، وكانت من أحصن المدائن سوراً وأعلاها قصوراً ، وأكثرها أهلاً ، فحاصرها ستة أشهر . ثم إنهم أحاطوا بها يوماً وضَربوا بالقرون ـ يعني الأبواق ـ وكبَّروا تكبيرة رجل واحد ، فتفسَّخ سورها وسقط وجبةً واحدة ، فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم ، وقتلوا اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء ، وحاربوا ملوكاً كثيرة ويقال : إن يوشع ظهر على أحد وثلاثين مَلكاً من ملوك الشام .

وذكروا أنه انتهى محاصرته إلى يوم جمعة بعد العصر ، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ؛ ويدخل عليهم السبت الذي جعل عليهم وشرع لهم ذلك الزمان ، قال لها : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم أحبسها عليَّ فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد ، وأمر القمر فوقف عند الطلوع ، وهذا يقتضي أن هذه الليلة كانت الرابعة عشرة من الشهر الأول وهو قصة الشمس المذكورة في الحديث الذي سأذكره . وأما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب ، ولا ينافي الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدَّق ولا تكذب . ولكن ذكرهم أن هذا في فتح أريحا فيه نظر ، والأشبه ـ والله أعلم ـ أن هذا كان في فتح بيت المقدس الذي هو المقصود الأعظم ، وفتح أريحا كان وسيلة إليه ، والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشمس لم تُحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس » انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري .

وفيه دلالة على أن الذي فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام ، لا موسى ، وأن حبس الشمس كان في فتح بيت المقدس لا أريحا كما قلنا . وفيه أن هذا كان من خصائص يوشع

---

(١) أسفار اليهود تقول (سفر العدد) أن موسى عليه السلام كان معهم . وكل ما مر في هذا الفصل من الإسرائيليات وفيه بعض التحريف والتغيير .

عليه السلام . فيدل على ضعف الحديث الذي رويناه : أن الشمس رجعت حتى صلَّى علي بن أبي طالب صلاة العصر ، بعد ما فاتته بسبب نوم النبي ﷺ على ركبته ، فسأل رسول الله أن يردها الله عليه حتى يصلي العصر فرجعت . وقد صححه أحمد بن أبي صالح المصري ولكنه ليس في شيء من الصحاح ولا الحسان ، وهو مما تتوافر الدواعي على نقله . وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يُعرف حالها ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همَّام ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « غزا نبيٌّ من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بُضْع امرأة ، وهو يريد أن يبني بها ولم يبنِ ، ولا آخرُ قد بنى بنياناً ولم يرفع سُقفها ، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خَلِفات وهو ينتظر أولادها .

قال : فغزا فدنا من القرية حين صُلي العصر أو قريباً من ذلك ، فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور . اللهم أحبسها عليَّ شيئاً ، فحبست عليه حتى فتح الله عليه ، قال : فجمعوا ما غنموا ، فأتت النار لتأكله فأبت أن تطعمه ، فقال فيكم غُلول[1] فليبايعني من كل قبيلة رجل ، فبايعوه فلصقت يد رجل بيده ، فقال : فيكم الغلول فليبايعني قبيلتك ، فبايعته قبيلته ، قال : فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة فقال : فيكم الغلول أنتم غللتم .

قال : فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب ، قال : فوضعوه بالمال وهو بالصعيد ، فأقبلت النار فأكلته ، فلم تحلّ الغنائم لأحد من قبلنا ذلك بأن الله رأى ضَعْفنا وعجزنا فطيَّبها لنا »[2] .

انفرد به مسلم من هذا الوجه . وقد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله عن سعيد المقبُري ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه . قال : ورواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبُري ، قال : ورواه قتادة عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

والمقصود أنه لما دخل بهم باب المدينة أُمروا أن يدخلوها سجَّداً أي ركعاً متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما منَّ به عليهم من الفتح العظيم ، الذي كان الله وعدهم إياه ، وأن يقولوا حال دخولهم « حِطّة » أي حُطَّ عنا خطايانا التي سلَفت ؛ من نُكولنا الذي تقدم منا .

ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ مكة يوم فتحها ، دخلها وهو راكب ناقته ، وهو متواضع حامد شاكر ، حتى إن عُثنونه ـ طرف لحيته ـ ليمسّ مَوْرِك رَحْله ؛ مما يطأطىء رأسه خضعاناً لله عز وجل

---

١) الغلول : أخذ شيء من الغنيمة بلا حق .

٢) في سفر يشوع (يوشع) الفصل السادس العدد ٢٤ . « إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب » .

ومعه الجنود والجيوش ممن لا يُرى منه إلا الحدق ، ولا سيما الكتيبة الخضراء التي فيها رسول الله ﷺ . ثم لما دخلها اغتسل وصلى ثماني ركعات وهي صلاة الشكر على النصر ، على المشهور من قول العلماء . وقيل : إنها صلاة الضحى ، وما حَمَل هذا القائل على قوله هذا إلا لأنها وقعت وقت الضحى .

وأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أُمروا به قولاً وفعلاً ؛ فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حبة في شعرة ، وفي رواية : حنطة في شعرة(١) .

وحاصله أنهم بدَّلوا ما أُمروا به واستهزأوا به كما قال تعالى حاكياً عنهم في سورة الأعراف وهي مكية :

﴿ وإذ قيل لهم آسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطةٌ وآدخلوا الباب سُجَّداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبدَّل الذين ظلموا منهم قولاً غير آلذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾(٢) .

وقال في سورة البقرة وهي مدنية مخاطباً لهم :

﴿ وإذ قُلنا آدخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وآدخلوا الباب سُجداً وقولوا حطةٌ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدَّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾(٣) .

وقال الثوري عن الأعمش عن المِنهال بن عمرو ، عن سعيد ابن جُبير ، عن ابن عباس : **﴿ وادخلوا الباب سجداً ﴾** قال : ركعاً من باب صغير رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم ، وكذا روى العَوفي عن ابن عباس ، وكذا روى الثَّوري عن ابن إسحاق عن البراء .

وقال مجاهد والسُّدي والضحاك : والباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس .

قال ابن مسعود : فدخلوا مقنِّعي رؤوسهم ضد ما أُمروا به ، وهذا لا ينافي قولَ ابن عباس

---

(١) في سفر يشوع جاء أن أحدهم سرق من الغنيمة وأخفاها في خيمتة فلم يزول غضب الله عنهم حتى جاؤوا به ورجموه حتى الموت .

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٦١ ، ١٦٢ .

(٣) سورة البقرة الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .

أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم . وهكـذا في الحديث الـذي سنورده بعـد ، فإنهم دخلوا يـزحفون وهم مقنعوا رؤوسهم .

وقـوله : ﴿ **وقولـوا حِطةٌ** ﴾ الواو هنـا حاليـة لا عاطفـة ؛ أي ادخلوا سجداً في حـال قـولكم حطة . قال ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة والربيع : أُمروا أن يستغفروا .

قال البخاري : حدثنا محمد ، حدثنـا عبد الـرحمن بن مهدي ، عن ابن المبـارك ، عن مَعمر ، عن همَّام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قيل لبني إسرائيل : ﴿ **ادخلوا البـاب سُجدا و قو لوا حطة نغفر لكم خطاياكم** ﴾ فدخلوا يزحفون على أستـاههم فبدلوا وقالوا : حبة في شعـرة . وكـذا رواه النسائي من حـديث ابن المبارك ببعضـه ، ورواه عن محمد بن إسمـاعيل بن إبـراهيم عن ابن مهدي به موقوفاً .

وقـد قال عبـد الرزاق : أنبـأنا معمـر ، عن همَّام بن منبـه ، أنه سمـع أبا هـريرة يقـول : قال رسـول الله ﷺ : « قـال الله لبني إسـرائيـل : ﴿ **وادخلوا البـاب سُجـداً وقـولـوا حِـطَّةٌ نغفـر لكم خطاياكم** ﴾ فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا حبة في شعرة » .

ورواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عبد الرزاق ، وقال الترمذي حسن صحيح .

وقال محمد بن إسحـاق : كان تبـديلهم كما حـدثني صالـح كيْسان ، عن صـالح مـولى التوأمـة عن أبي هـريرة وعمن لا أتهم ،عن ابن عبـاس أن رسول الله ﷺ قـال : « دخلوا الباب الـذي أُمروا أن يدخلوا فيه سجداً يزحفون على أستاههم ، وهم يقولون حنطة في شعيرة »

وقال أسباط عن السُّدي عن مرة عن ابن مسعـود في قولـه : ﴿ **فبدل الـذين ظلموا منهم قـولاً غير الذي قيل لهم** ﴾ قال : قالوا :« هطي سقاثةٌ أزمة مـزيا » فهي في العـربية : « حبـة حنطة حمـراء مثقوبة فيها شعرة سوداء » .

وقد ذكر الله تعالى أنه عاقبهم على هـذه المخالفـة ؛ بإرسـال الرجْـز الذي أنـزله عليهـم ، وهـو الطاعون ، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن عامر بن سعد ، ومن حـديث مالـك عن محمـد بن المنكـدر وسـالم أبي النضر ، عن عـامـر بن سعـد ، عن أُسـامـة بن زيـد ، عن رسـول الله ﷺ : أنه قال : « إن هذا الوجع ـ أو السقم ـ رجز عُذِّب به بعضُ الأُمم قبلكم » .

وروى النسـائي وابن أبي حاتم وهـذا لفظه من حـديث الثوري عن حبيب بن أبي ثـابت ، عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، وأُسامة بن زيـد وخزيمـة بن ثابت ، قـالوا : قـال رسول الله ﷺ : « الطاعون رجز عذاب عُذِّب به من كـان قبلكم » وقال الضحـاك عن ابن عباس : الـرجز العذاب ، وكذا قال مجاهد وأبو مـالك والسُّـدي والحسن وقتادة . وقـال أبو العـالية : هـو الغضب ، وقال الشَّعبي : الرجز إما الطاعون وإما البرد ، وقال سعيد بن جُبير : هو الطاعون .

ولما استقرت يـد بني إسرائيـل على بيت المقـدس استمروا فيـه ، وبين أظهـرهم نبي الله يوشـع يحكم بينهم بكتـاب الله التوراة حتى قبضـه الله إليه ، وهـو ابن مائـة وسبع وعشـرين سنـة ، فكـانت مدة حياته بعد موسى سبعاً وعشرين سنة .

ذكر قصتي الخضر وإلياس عليهما السلام

أما الخضر : فقد تقدم أن موسى عليه السلام رحل إليه في طلب ما عنده من العلم اللدني ، وقص الله من خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف ، وذكرنا في تفسير ذلك هنالك ، وأوردنا هنا ذكر الحديث المصرِّح بذكر الخضر عليه السلام ، وأن الذي رحل إليه هو موسى بن عمران نبيّ بني إسرائيل عليه السلام ؛ الذي أُنزلت عليه التوراة .

وقد اختلف في الخضر ؛ في اسمه ، ونسبه ، ونبوته ، وحياته إلى الآن ـ على أقوال ـ سأذكرها لك ها هنا إن شاء الله وبحوله وقوته .

قال الحافظ ابن عساكر : يقال إنه الخضر ابن آدم عليه السلام لصلبه ، ثم روي من طريق الدارقطني : حدثنا محمد بن الفتح القلانِسيّ ، حدثنا العباس بن عبدالله الرومي ، حدثنا رَوَّاد بن الجراح ، حدثنا مقاتِل بن سليمان ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : الخضر ابن آدم لصُلبه ، ونُسي له في أجله حتى يُكذِّب الدجال . وهذا منقطع وغريب .

وقال أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السِّجِسْتاني : سمعت مشيختنا منهم أبو عبيدة وغيره قالوا : إن أطول بني آدم عمراً الخضر ، واسمه خضرون[1] بن قابيل بن آدم .

قال : وذكر ابن إسحاق : أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة أخبر بنيه أن الطوفان سيقع بالناس ، وأوصاهم إذا كان ذلك أن يحملوا جسده معهم في السفينة ، وأن يدفنوه معهم في مكان عينه لهم . فلما كان الطوفان حملوه معهم ، فلما هبطوا إلى الأرض أمر نوح بنيه أن يذهبوا ببدنه فيدفنوه حيث أوصى . فقالوا : إن الأرض ليس بها أنيس وعليها وحشة ، فحرَّضهم وحثَّهم على ذلك . وقال : إن آدم دعا لمن يَلي دفنه بطول العمر ، فهابوا المسير إلى ذلك الموضع في ذلك الوقت ، فلم يزل جسده عندهم حتى كان الخضر هو الذي تولى دفنه ، وأنجز الله ما وعده ، فهو يحيا إلى ما شاءالله له أن يحيا .

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن وهب بن منبه : أن اسم الخضر « بليا » ويقال بليا بن ملكان ابن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفشخذ بن سام بن نوح عليه السلام .

---

(١) محاولة لجعل الاسم (الخضر) من إسم مشابه ، والأصح أنه سمي الخضر لأن الفروة اخضرَّت تحته .

وقال إسماعيل بن أبي أُويس : اسم الخضر - فيما بلغنا والله أعلم - المعمر بن مالك بن عبدالله بن نصر بن الأزد . وقال غيره : هو خضرون بن عمياييل بن اليفز بن العيص بن إسحق ابن إبراهيم الخليل . ويقال : هو أرميا بن حلقيا ، فالله أعلم .

وقيل : إنه كان ابن فرعون صاحب موسى ملك مصر . وهذا غريب جداً . قال ابن الجوزي : رواه محمد بن أيوب عن ابن لَهيعة ، وهما ضعيفان .

وقيل : إنه ابن مالك وهو أخو إلياس ، قاله السُّدي كما سيأتي . وقيل : إنه كان على مقدمة ذي القرنين . وقيل : كان ابن بعض من آمن بإبراهيم الخليل وهاجر معه . وقيل : كان نبيًّا في زمن سباسب بن بهراسب .

قال ابن جرير : والصحيح أنه كان متقدماً في زمن أفريدون بن اثفيان حتى أدركه موسى عليه السلام .

وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيِّب أنه قال : الخضر أُمه رومية وأبوه فارسي .

وقد ورد ما يدل على أنه كان من بني إسرائيل في زمان فرعون أيضاً .

قال أبو زرعة في دلائل النبوة : حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي ، حدثنا الوليد ، حدثنا سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، عن أُبيّ بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : أنه ليلة أُسري به وجد رائحةً طيبة ، فقال : يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟ قال : هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها .

وقال : وكان بدء ذلك أن الخضر كان من أشراف بني إسرائيل[1] ، وكان ممرّه براهب في صومعته ، فتطلع عليه الراهب فعلمه الإسلام فلما بلغ الخضر زوَّجه أبوه امرأة فعلَّمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لا تُعلم أحداً ، وكان لا يقرب النساء ثم طلقها . ثم زوجه أبوه بأُخرى فعلمها الإسلام ، وأخذ عليها أن لا تُعلم أحداً ثم طلقها ، فكتمت إحداهما وأفشت عليه الأُخرى .

فانطلق هارباً حتى أتى جزيرة في البحر ، فأقبل رجلان يحتطبان فرأياه فكتم أحدهما وأفشى عليه الآخر . قال : قد رأيت الخضر ، قيل : ومن رآه معك ؟ قال : فلان ، فسئل فكتم . وكان من دينهم أنه من كذب قُتل ، فقتل ، وكان قد تزوج الكاتم المرأة الكاتمة . قال : فبينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها ، فقالت : تعس فرعون ، فأخبرت أباها ، وكان للمرأة ابنان

(١) هذا من محاولات اليهود لجعل كل الأنبياء منهم استكباراً على الناس ، ومجمع البحرين حيث التقاه موسى عليه السلام هو شط العرب ، ملتقى دجلة والفرات فالأرجح أنه ممن امن بالخليل ابراهيم في بلاد الرافدين وأبقاه الله حياً ، والله أعلم .

وزوج ، فأرسل إليهم فراود المرَأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما ، فأبيا فقال : إني قاتلكما ، فقالا : إحسان منك إلينا إن أنت قتلتنا أن تجعلنا في قبر واحد ، فجعلهما في قبر واحد ، فقال : وما وجدت ريحاً أطيب منهما ، وقد دخلت الجنة .

وقد تقدمت قصة مائلة بنت فرعون ، وهذا المشط في أمر الخضر قد يكون مدرجاً من كلام أُبيّ بن كعب أو عبدالله بن عباس والله أعلم . وقال بعضهم : كنيته أبو العباس. والأشبه ، والله أعلم ، أن الخضر لقب غلب عليه .

قال البخاري رحمه الله : حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني ، حدثنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إنما سُمي الخضِر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء » . تفرد به البخاري ، وكذلك رواه عبد الرزاق عن معمر به .

ثم قال عبد الرزاق : الفروة : الحشيش الأبيض ، وما أشبهه يعني الهشيم اليابس . وقال الخطابي : وقال أبو عمر : الفروة الأرض البيضاء التي لا نبات فيها . وقال غيره : هو الهشيم اليابس شبهه بالفروة ، ومنه قيل : فروة الرأس وهي جلدته بما عليها من الشعر ، كما قال الراعي :

ولقد ترى الحبشيَّ حول بَيوتنا ... جَذْلاً إذا ما نال يوماً مَأكلاً
صعلاً أصك[1] كأن فروة رأسه ... بُذرتْ فأنبتَ جانباه فُلفلاً

قال الخطابي : ويقال إنما سمي الخضر خضراً لحسنه وإشراق وجهه ، قلت : وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيح ؛ فإن كان ولا بد من التعليل بأحدهما ، فما ثبت في الصحيح أولى وأقوى ، بل لا يلتفت إلى ما عداه .

وقد روى الحافظ ابن عساكر هذا الحديث أيضاً من طريق إسماعيل بن حفص بن عمر الأُبِّلي : حدثنا عثمان وأبو جُزَيّ وهمام بن يحيى عن قتادة ، عن عبدالله بن الحارث بن نوفل ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إنما سمي الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء » . وهذا غريب من هذا الوجه . وقال قبيصة عن الثوري عن منصور عن مجاهد قال : إنما سمي الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله .

وتقدم أن موسى ويوشع عليهما السلام لما رجعا يقصان الأثر وجداه على طنفسة خضراء على

(١) الصعل : صغير الرأس . الأصك : المعوج الركبتين والعقبين .

كبد البحر ، وهو مسجًّى بثوب قد جعل طرفاه من تحت رأسه وقدميه ، فسلم موسى عليه السلام فكشف عن وجهه فردَّ ، وقال : أنى بأرضك السلام ؟ من أنت ؟ قال : أنا موسى . قال : نبي بنِي إسرائيل ؟ قال : نعم . فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه عنهما .

وقد دلَّ سياق القصة على نبوته من وجوه ، أحدها : قوله تعالى : ﴿ **فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعَلَّمناه من لدنّا علماً** ﴾[١] .

الثاني : قول موسى له : ﴿ **هل أتَّبعك على أن تعلِّمني مما عُلمت رشداً * قال إنك لن تستطيع معي صبراً * وكيف تصبر على ما لم تُحِطْ به خُبراً * قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً * قال فإن آتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحْدث لك منه ذِكراً** ﴾[٢] .

فلو كان ولياً وليس بنبي لم يخاطبه موسى بهذه المخاطبة ، ولم يردّ على موسى هذا الرد ، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه . فلو كان غير نبي ، لم يكن معصوماً ، ولم تكن لموسى - وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة - كبير رغبة ولاعظيم طلِبة في علم ولي غير واجب العصمة ، ولَما عزم على الذهاب إليه والتفتيش عنه ، ولو أنه يمضي حقباً من الزمان ، قيل : ثمانين سنة[٣] . ثم لما اجتمع به تواضع له وعظَّمه ، واتبعه في صورة مستفيد منه فدلَّ على أنه نبيّ مثله ، يُوحَى إليه كما يوحى إليه ، وقد خُصَّ من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يُطْلع الله عليه موسى الكليم ، نبيّ بني إسرائيل الكريم ، وقد احتج بهذا المسلك بعينه الرُّمّاني على نبوة الخضر عليه السلام .

الثالث : أن الخضر أقدمَ على قتل ذلك الغلام ، وما ذاك إلا للوحي إليه من الملك العلام . وهذا دليل مستقل على نبوته ، وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يُلقى في خلده ، لأن خاطره ليس بواجب العصمة ، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق . ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذي لم يبلغ الحلم ، علماً منه بأنه إذا بلغ يكفر ، ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتابعانه عليه ، ففي قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته ، صيانة لأبويه عن الوقوع في الكفر وعقوبته ، دل ذلك على نبوته ، وأنه مؤيد من الله بعصمته .

---

(١) سورة الكهف الآية ٦٥ .

(٢) سورة الكهف الآيتان ٦٦ ـ ٧٠ .

(٣) هذا تزيد لا منطق يحكمه فعمر موسى كله مائة وعشرون سنة .

وقد رأيت الشيخ أبا الفرج ابن الجوزيّ طرق هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه . وحكى الاحتجاج عليه الرُّماني أيضاً .

الرابع : أنه لما فسر الخضر تأويل الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلّى ، قال بعد ذلك كله : ﴿ **رحمةً من ربك وما فعلته من أمري** ﴾[1] يعني ما فعلته من تلقاء نفسي ، بل أمرٌ أُمرت به وأُوحي إليَّ فيه .

فدلت هذه الوجوه على نبوته . ولا ينافي ذلك حصول ولايته ، بل ولا رسالته ، كما قاله آخرون . وأما كونه ملكاً من الملائكة فقول غريب جداً ، وإذا ثبتت نبوته ـ كما ذكرناه ، لم يبق لمن قال بولايته وأن الوليّ قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر ؛ مستَند يستندون إليه ، ولا معتمد يعتمدون عليه .

وأما الخلاف في وجوده إلى زماننا هذا ؛ فالجمهور على أنه باقٍ إلى اليوم ، قيل : لأنه دَفن آدمَ بعد خروجهم من الطوفان فنالته دعوةُ أبيه آدمُ بطول الحياة ، وقيل : لأنه شرب من عين الحياة فحيي[2] . وذكروا أخباراً استشهدوا بها على بقائه إلى الآن . وسنوردها مع غيرها إن شاء الله تعالى وبه الثقة .

وهذه وصيته لموسى حين : ﴿ **قال هذا فراقُ بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً** ﴾[3] روي في ذلك آثار منقطعة كثيرة قال البيهقي : أنبأنا أبو سعيد بن أبي عمرو ، حدثنا أبو عبدالله الصفّار ، حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا جرير ، حدثني أبو عبد الله الملطي قال : لما أراد موسى أن يفارق الخضر قال له موسى : وصني ، قال : كن نفّاعاً ، ولا تكن ضَرّاراً ، كن بشاشاً ولا تكن غضبان ، ارجع عن اللَّجاجة ولا تمش في غير حاجة . وفي رواية من طريق أخرى زيادة : ولا تضحك إلا من عجَب .

وقال وهب بن منبه قال الخضر : يا موسى إن الناس مُعَذَّبون في الدنيا على قَدْر همومهم بها ! .

وقال بشر بن الحارث الحافي قال : موسى للخضر : أوصني ، فقال : يسَّر الله عليك طاعته .

وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه ابن عساكر من طريق زكرياء بن يحيى الوقاد ـ إلا أنه من الكذَّابين الكبار ـ قال : قُرىء على عبدالله بن وهب وأنا أسمع ، قال الثوري ، قال مُجالد ،

---

(١) سورة الكهف الآية ٨٢ .

(٢) سبق التعليق على موضوع عين الحياة .

(٣) سورة الكهف الآية ٧٨ .

قال أبو الوداك قال أبو سعيد الخدري ، قال عمر بن الخطاب ، قال رسول الله ﷺ : « قال أخي موسى : يا رب ـ وذكر كلمته ـ فأتاه الخضر وهو فتى طيب الريح حسن بياض الثياب مشمرها ، فقال : السلام عليك ورحمة الله يا موسى بن عمران ؛ إن ربك يقرأ عليك السلام . قال موسى : هو السلام وإليه السلام ، والحمد لله رب العالمين ، الذي لا أُحصي نعمه ، ولا أقدر على أداء شكره إلا بمعونته . » .

ثم قال موسى : أريد أن توصيني بوصية ينفعني الله بها بعدك ، فقال الخضر : يا طالب العلم إن القائل أقلُّ ملالة من المستمع ، فلا تُملّ جلساءك إذا حدثتهم ، واعلم أن قلبك وعاء فانظر ماذا تحشو به وعاءك ، واعزف عن الدنيا وانبذها وراءك ؛ فإنها ليست لك بدار ولا لك فيها محلّ قرار ، وإنما جُعلت بُلْغة للعباد والتزود منها ليوم المعاد ، ورُضْ نفسك على الصبر تَخْلص من الإثم .

يا موسى . . تفرَّغ للعلم إن كنت تريده ، فإنما العلم لمن تفرَّغ له ، ولا تكن مكثاراً للعلم مهذاراً فإن كثرة المنطق تشين العلماء وتبدي مساوىء السخفاء . ولكن عليك بالاقتصاد ، فإن ذلك من التوفيق والسداد وأعرض عن الجهال وماطِلْهم ، وأحلم عن السفهاء ؛ فإن ذلك فعل الحكماء وزين العلماء . وإذا شتمك الجاهل فاسكت عنه حلماً ، وجانبه حزماً ، فإن ما بقي من جهله عليك وسبَّه إياك أكثر وأعظم .

يا بن عمران . . ولا ترى أنك أُوتيت من العلم إلا قليلاً ؛ فإن الانـدلاث(1) والتعسف من الاقتحام والتكلف . . يا بن عمران . . لا تفتحن باباً لا تدري ما غَلْقه ، ولا تغلقن باباً لا تدري ما فتحه ، يا بن عمران . . من لا تنتهي من الدنيا نَهْمته ، ولا تنقضي منها رغبته ومن يحقّر حالَه ، ويتهم الله فيما قضى له كيف يكون زاهداً ؟ هل يكف عن الشهوات من غلب عليه هواه ؟ أو ينفعه طلب العلم والجهل قد حَواه ؟ لأن سعيه إلى آخرته وهو مقبل على دنياه .

يا موسى تعلَّم ما تعلمتَ لتعمل به ، ولا تعلَّمه لتحدِّث به ، فيكون عليك بواره ، ولغيرك نوره .

يا موسى بن عمران . . اجعل الزهد والتقوى لباسك ، والعلم والذكر كلامَك ، واستكثر من الحسنات فإنك مصيب السيئات ، وزعزع بالخوف قلبَك فإن ذلك يرضي ربك ، واعمل خيراً فإنك لا بد عامل سوءاً ، قد وعظتُ إن حفظت . قال : فتولَّى الخضر وبقي موسى محزوناً مكروباً يبكي . .

---

(1) اندلث : تقدَّم بلا فكرة ولا روية

لا يصح هذا الحديث ، وأظنه من صنعة[1] زكريا بن يحيى الوقاد المصري ، وقد كذّبه غير واحد من الأئمة والعجب أن الحافظ ابن عساكر سكت عنه .

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ، حدثنا عمرو ابن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الحمصي ، حدثنا محمد بن الفضل بن عمران الكندي ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن محمد بن زياد ، عن أبي أُمامة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « ألا أحدّثكم عن الخضر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : بينما هو ذات يوم يمشي في سوق بني إسرائيل ، أبصره رجل مكاتَب ، فقال:تصدَّق عليَّ بارك الله فيك ، فقال الخضر : آمنت بالله ، ما شاء الله من أمر يكون ، ما عندي من شيء أُعطيكه . فقال المسكين : أسألك بوجه الله لَما تصدقتَ عليَّ ؛ فإني نظرت إلى السماء في وجهك ، ورجوتُ الْبركة عندك . فقال الخضر : آمنت بالله ما عندي شيء أُعطيكه ، إلا أن تأخذني فتبيعني ، فقال المسكين : وهل يستقيم هذا ؟ قال : نعم ، الحق أقول لك لقد سألتني بأمر عظيم ، أما إني لا أخيبك بوجه ربي ، بعني .

قال : فقدَّمه إلى السوق فباعه بأربعمائة درهم ، فمكث عند المشتري زماناً لا يستعمله في شيء ، فقال له : إنك إنما ابتعتني التماس خير فأوصني بعمل ، قال : أكره أن أشقّ عليك ، إنك شيخ كبير ضعيف ، قال : ليس تشق عليَّ ، قال : فانقل هذه الحجارة . وكان لا ينقلها دون ستة نفر في يوم . فخرج الرجل لبعض حاجاته ثم انصرف وقد نقل الحجارة في ساعة ، فقال : أحسنتَ وأجملت وأطقْتَ ما لم أرك تطيقه . ثم عرض للرجل سفر ، فقال : إني أحسبك أميناً فاْخلُفني في أهلي خلافة حسنة ، قال : فأوصني بعمل ، قال : إني أكره أن أشق عليك ، قال : ليس تشق عليَّ ، قال : فاْضرب من اللِبن لبيتي حتى أقدُمَ عليك . فمضى الرجل لسفره ، فرجع وقد شيد بناؤه .

فقال : أسألك بوجه الله ما سبيلك وأما أَمْرك ؟ فقال : سألَتني بوجه الله ، والسؤال بوجه الله أوقعني في العبودية ، سأخبرك من أنا ؟. أنا الخضر الذي سمعت به ؛ سألني مسكين صدقةً فلم يكن عندي من شيء أعطيه ، فسألني بوجه الله فأمكنتُه من رقبتي ، فباعني وأُخبرك أنه من سُئل بوجه الله فردَّ سائله وهو يقدِر ، وقف يوم القيامة جلده لا لحم له ولا عظم يتقعقع .

فقال الرجل : آمنت بالله ، شققتُ عليك يا نبي الله ولم أعلم فقال : لا بأس أحسنتَ وأبقيت . فقال الرجل : بأبي وأُمي يا نبي الله ، أحكم في أهلي ومالي بما أراك الله ، أو أُخيـِّرك فأُخلي سبيلك ، فقال : أُحب أن تخلي سبيلي ، فأعبد ربي ، فخلى سبيله . فقال الخضر : الحمدلله

---

(١) لغته وأسلوبه يظهران بجلاء أنه مصنوع .

الذي أوقعني في العبودية ثم نجاني منها ، وهذا حديث رفعه خطأ ، والأشبه أن يكون موقوفاً ، وفي رجاله من لا يُعرف ، فالله أعلم .

وقد رواه ابن الجوزي في كتابه « عُجالة المنتظِر في شرح حال الخضر » من طريق عبد الوهاب بن الضحاك ، وهو متروك ، عن بقية .

وقد روى الحافظ ابن عساكر بإسناد إلى السُّدي : أن الخضر وإلياس كانا أخوين ، وكان أبوهما ملِكاً ، فقال إلياس لأبيه : إنْ أخي الخضر لا رغبة له في الملك ، فلو أنك زوجته لعله يجيء منه ولد يكون المُلْك له ، فزوجه أبوه بامرأة حسناء بكر ، فقال لها الخضر : إنه لا حاجة لي في النساء ؛ فإن شئت أطلقتُ سراحك ، وإن شئت أقمت معي تعبدين الله عز وجل وتكتمين عليَّ ، سِرِّي ، فقالت : نعم ، وأقامت معه سنة .

فلما مضت السنة دعاها الملك ، فقال إنك شابة وابني شاب ، فأين الولد ؟ فقالت : إنما الولد من عند الله ؛ إن شاء كان وإن لم يشأ لم يكن . فأمره أبوه فطلقها وزوجه بأخرى ثيباً قد ولد لها ، فلما زُفت إليه قال لها كما قال للتي قبلها ، فأجابت إلى الإقامة عنده . فلما مضت السَّنة سألها الملك عن الولد ، فقالت : إن ابنك لا حاجة له بالنساء ، فتطلبه أبوه فهرب ، فأرسل وراءه فلم يقدروا عليه . فيقال إنه قتل المرأة الثانية لكونها أفشت سره ، فهرب من أجل ذلك ، وأطلق سراح الأخرى .

فأقامت تعبد الله في بعض نواحي تلك المدينة ، فمر بها رجل يوماً فسمعته يقول : بسم الله . فقالت له : أنىَّ لك هذا الاسم ؟ فقال : إني من أصحاب الخِضر ، فتزوجته فولدت له أولاداً . ثم صار من أمرها أن صارت ماشطة بنت فرعون ، فبينما هي يوماً تمشطها إذ وقع المشط من يدها فقالت : بسم الله . فقالت ابنة فرعون : أبي ؟ فقالت : لا ، ربي وربك ورب أبيك الله ، فأعلمت أباها فأمر بنقرة من نحاس فأُحميت ثم أمر بها فأُلقيت فيها . فلما عاينت ذلك تقاعست أن تقع فيها ، فقال لها ابن معها صغير : يا أمه اصبري فإنك على الحق ، فألقت نفسها في النار فماتت ، رحمها الله .

وقد روى ابن عساكر عن أبي داود الأعمى نُفيع ـ وهو كذَّاب وضَّاع ـ عن أنس بن مالك ، ومن طريق كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف ـ وهو كذاب أيضاً ـ عن أبيه عن جده : أن الخضر جاء ليلة فسمع النبي ﷺ وهو يدعو ويقول : اللهم أعنِّي على ما ينجيني مما خوفتني ، وارزقني شوق الصالحين إلى ما شوقتهم إليه » . فبعث إلى رسول الله ﷺ أنس بن مالك فسلم عليه فردَّ عليه السلام وقال : قل له إن الله فضَّلك على الأنبياء كما فضَّل شهر رمضان على سائر الشهور ، وفضَّل أُمتك على الأمم ، كما فضَّل يوم الجمعة على غيره » الحديث .

وهـو مكـذوب لا يصـح سنـداً ولا متنـاً ؛ فكيف لا يتمثـل بـين يـديْ رسـول الله ﷺ ويجيء بنفسه مسلّماً ومتعلماً ؟!

وهم يـذكرون في حكـاياتهم ومـا يسندونـه عن بعض مشايخهم : أن الخضر يـأتي إليهم ويسلم عليهم ، ويعـرف أسماءهم ومنـازلهم ومحالّهم ، وهـو مع هـذا لا يعرف مـوسى بن عمـران كليم الله ، الذي اصطفاه الله في ذلك الزمان على من سواه ، حتى يتعرف إليه بأنه موسى بني إسرائيل .

وقد قال الحافظ أبو الحسين بن المنادي ، بعـد إيراده حـديث أنس هذا : وأهـلُ الحديث متفقـون على أنه حديث منكر الإسناد سقيم المتن ، يتبين فيه أثر الصنعة .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي قائلاً : أخبرنا أبو عبـدالله الحافظ ، أنبـأنا أبـو بكـر بن بالـويه ، حـدثنا محمـد بن بشر بن مطر ، حـدثنا كـامل بن طلحـة ، حدثنـا عبـاد بن عبـد الصمـد ، عن أنس بن مالـك قال : لمـا قبض رسول الله ﷺ أحـدَق بـه أصحـابـه ، فبكـوا حـولـه واجتمعـوا . فـدخــل رجـل أشهب اللحيـة جسيم صَبيـح فتخـطّى رقـابهم فبكى . ثم التفت إلى أصحـاب رسول الله فقـال : إن في الله عزاءً من كـل مصيبة ، وعـوضاً من كـل فـائت ، وخلفـاً من كُل هالـك ، فإلى الله فـأنيبوا وإليـه فارغبـوا ، وقد نـظر إليكم في البلاء فـانظروا ؛ فـإن المصاب من من لم يُجْبر ، وانصرف .

فقال بعضهم لبعض : أتعرفون الرجل ؟ فقال أبو بكر وعـليّ : نعم ، هو أخـو رسول الله ﷺ الخِضر عليه السلام .

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن كاملْ بن طلحة به . وفي متنه مخالفة لسياق البيهقي .

ثم قـال البيهقي : عبَّـاد بن عبـد الصمـد ضعيف فهـذا منكـرَ بمـرّة . قلت : عبـاد بن عبـد الصمـد هذا هـو ابن معمر البصري ، روى عن أنس نسخة ، قـال ابن حبـان والعقيـلي : أكثـرهـا موضوع ، وقال البخاري : منكر الحديث ، وقـال أبو حـاتم : ضعيف الحديث جداً منكره ، وقـال ابن عدي : عامة ما يرويه في فضائل علي ، وهو ضعيف غالٍ في التشيع .

وقـال الشافعي في مسنـده : أخبرنـا القاسم بن عبـدالله بن عمر ، عن جعفـر بن محمـد ؛ عن أبيه ، عن جده علي بن الحسين قال : لما تُوفي رسول الله ﷺ وجـاءت التعزيـة سَمعوا قـائلاً يقـول : إن في الله عزاءً من كل مصيبة ، وخَلفاً من كل هالـك ، ودَركاً من كـل فائت ، فبـالله فثقوا ، وإيـاه فارجُوا ؛ فإن المصاب من حُرم الثواب . قال علي بن الحسين : أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر .

شيخ الشافعي القاسم العُمَري متـروك . قال أحمـد بن حنبل ويحيى بن مَعـين : يكذب . زاد أحمد : ويضَع الحديث . ثم هو مرسل ومثله لا يُعتمد عليه ها هنا والله أعلم .

وقد روي من وجه آخر ضعيف ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبيه عن عليّ ولا يصح .

وقد روى عبدالله بن وهب عمن حدثه ، عن محمد بن عَجْلان ، عن محمد بن المنكدِر : أن عمر بن الخطاب بينما هو يصلي على جنازة إذ سمع هاتفاً وهو يقول : لا تَسْبقنا يرْحمك الله . فانتظره حتى لحق بالصف ، فذكر دعاءه للميت : إن تعذِّبه فكثيراً عصاك ، وإن تَغْفر له ففقير إلى رحمتك . ولما دُفن قال : طوبى لك يا صاحب القبر إن لم تكن عَرِيفاً أو جابياً أو خازناً أو كاتباً أو شُرَطياً . فقال عمر : خذوا الرجل نسأله عن صلاته وكلامه عمن هو؟ قال : فتوارى عنهم ، فنظروا إذا أثر قدمه ذراع . فقال عمر : هذا والله الخِضر الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ . وهذا الأثر فيه مبهَم ، وفيه إنقطاع ولا يصح مثله .

وروى الحافظ ابن عساكر عن الثوري عن عبدالله بن المحرَّر عن يزيد بن الأصم ، عن علي ابن أبي طالب قال : دخلت الطوافَ في بعض الليل ، فإذا أنا برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يمنعه سمع عن سمع ، ويا من لا تغلِّطه المسائل ، ويا من لا يُبْرمه إلحاحُ الملحّين ولا مسألةُ السائلين ، ارزقني بردَ عفوك وحلاوةَ رحمتك . قال : فقلت : أَعِدْ عليَّ ما قلت ، فقال لي : أو سمعته ؟ قلت : نعم . فقال لي : والذي نفس الخضر بيده ـ قال : وكان هو الخضر ـ لا يقولها عبدٌ خلفَ صلاةٍ مكتوبة إلا غفر الله له ذنوبه ، ولو كانت مثل زَبد البحر وورق الشجر وعدد النجوم ، لغفرها الله له .

وهذا ضعيف من جهة عبدالله بن المحرر ، فإنه متروك الحديث ، ويزيد بن الأصم لم يدرك عليًّا ، ومثل هذا لا يصح والله أعلم .

وقد رواه أبو إسماعيل الترمذي : حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا صالح بن أبي الأسود ، عن محفوظ بن عبدالله الحضرمي ، عن محمد بن يحيى قال : بينما عليّ بن أبي طالب يطوف بالكعبة ، إذا هو برجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول : يا من لا يشغله سمع عن سمع ، ويا من لا يغلّطه السائلون ، ويا من لا يتبرم بإلحاح الملحين ارزقني بردَ عفوك وحلاوة رحمتك . قال : فقال له عليّ : يا عبد الله أعِدْ دعاءك هذا قال : أو قد سمعته ؟ قال : نعم . قال : فادع به في دُبر كل صلاة ، فوالذي نفس الخضر بيده لو كان عليك من الذنوب عددُ نجوم السماء ومطرها ، وحصباء الأرض وترابها ، لغُفر لك أسرعَ من طرفة عين . وهذا أيضاً منقطع ، وفي إسناده من لا يُعرف ، والله أعلم .

وقد أورده ابن الجوزي من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا : حدثنا يعقوب بن يوسف ، حدثنا مالك بن إسماعيل فذكر نحوه ثم قال : وهذا إسناد مجهول منقطع ، وليس فيه ما يدل على أن الرجل الخضر .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : أنبأنا أبو القاسم بن الحصين ، أنبأنا أبو طالب محمد ابن محمد ، أنبأنا أبو إسحق المزكي ، حدثنا محمد بن إسحق بن خزيمة ، حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد أملاه علينا بعبادان ، أنبأنا عمرو بن عاصم ، حدثنا الحسن بن رَزين ، عن ابن جريج ، عن عطاء عن ابن عباس قال : ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال : « يلتقي الخضر وإلياس كل عام في الموسم فيحلق كل واحد منهما رأسَ صاحبه ، ويتفرقان عن هؤلاء الكلمات : بسم الله ما شاء الله ، لا يسوق الخير إلا الله ما شاء الله لا يصرف الشر إلا الله ، ما شاءالله ، ما كان من نعمة فمن الله ، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله » .

قال : وقال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات ، آمَنه الله من الغرق والحرق والسرق . قال : وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحية والعقرب .

قال الدارقطني في الأفراد : هذا حديث غريب من حديث ابن جريج لم يحدث به غير هذا الشيخ عنه يعني الحسن بن رزين هذا . وقد روي عن محمد بن كثير العبدي أيضاً ، ومع هذا قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي : ليس بالمعروف .

وقال الحافظ أبو جعفر العقيلي : مجهول وحديثه غير محفوظ . وقال أبو الحسن بن المنادي : هو حديث واهٍ بالحسن بن رزين . وقد روى ابن عساكر نحوه من طريق علي بن الحسن الجهضَمي - وهو كذَّاب - عن ضمرة بن حبيب المقدسي ، عن أبيه ، عن العلاء بن زياد القشيري ، عن عبدالله بن الحسن ، عن أبيه عن جده عن عليّ بن أبي طالب مرفوعاً قال : يجتمع كلَّ يوم عرفة بعرفات - جبريل وميكائيل وإسرافيل والخِضر وذكر حديثاً طويلاً موضوعاً تركنا إيراده قصداً ولله الحمد .

وروى ابن عساكر من طريق هشام بن خالد عن الحسن بن يحيى الخشني ، عن ابن أبي روَّاد قال : إلياس والخضر يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ، ويحجان في كل سنة ، ويشربان من ماء زمزم شربة واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل .

وروى ابن عساكر : أن الوليد بن عبد الملك بن مروان - باني جامع دمشق - أحبَّ أن يتعبد ليلة في المسجد ، فأمر القومة[1] أن يُخلُوه له ففعلوا ، فلما كان من الليل جاء في باب الساعات فدخل الجامع ، فإذا رجل قائم يصلي فيما بينه وبين باب الخضراء ، فقال للقومة : ألم آمركم أن تُخلُوه ؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين هذا الخضر يجيء كل ليلة يصلي ها هنا .

قال ابن عساكر أيضاً : أنبأنا أبو القاسم بن اسماعيل بن أحمد ، أنبأنا أبو بكر بن

---

(١) القيمون على أمر الجامع وحاجاته .

الطبري ، أنبأنا أبو الحسين بن الفضل ، أنبأنا عبدالله بن جعفر ، حدثنا يعقوب ـ هو ابن سفيان الفسوَي ـ حدثني محمد بن عبد العزيز ، حدثنا ضمرة عن السَّرِي بن يحيى ، عن رباح بن عبيدة ، قال : رأيت رجلاً يماشي عمر بن عبد العزيز معتمداً على يديه ، فقلت في نفسي : إن هذا الرجل حاف ، قال : فلما انصرف من الصلاة ، قلت من الرجل الذي كان معتمداً يدك آنفاً ؟ قال : وهل رأيته يا رباح ؟ قلت : نعم . قال : ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ، ذاك أخي الخضر بشرني إني سألي وأعدل .

قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي : الرملي مجروح عند العلماء . وقد قدّح أبو الحسين بن المنادي في ضمرة والسريّ ورباح . ثم أورد من طرق أُخر عن عمر بن عبد العزيز ، أنه اجتمع بالخضر ، وضعَّفها كلها .

وروى ابن عساكر أيضاً أنه اجتمع بإبراهيم التيمي وبسفيان بن عُيينة وجماعة يطول ذكرهم .

وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهب إلى حياته إلى اليوم . وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لا يقوم بمثلها حجة في الدين ، والحكايات لا يخلو أكثرها عن ضعف الإسناد . وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي أو غيره ؛ لأنه يجوز عليه الخطأ(١) ، والله أعلم .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا مَعْمَرَ ، عن الزهري ، أخبرني عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ، أن أبا سعيد قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثاً طويلاً عن الدجال ، وقال فيما يحدثنا : « يأتي الدجال ـ وهو محرَّم عليه أن يدخل نقابَ المدينة ـ فيخرج إليه يومئذٍ رجل هو خير الناس أو من خيرهم ، فيقول : أشهد أنك أنت الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله ﷺ بحديثه ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته أتشكّون في الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يُحْييه فيقول حين يحيا : والله ما كنتُ أشد بصيرة فيك مني الآن . قال : فيريد قتله الثانية فلا يُسلّط عليه .

قال معمر : بلغني أنه يُجعل على حلقه صحيفة من نحاس ، وبلغني أنه الخضر الذي يقتله الدجال ثم يحييه .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري به .

وقال أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه الراوي عن مسلم : الصحيح أن يُقال

---

(١) فند الإمام ابن القيم فكرة حياة الخضر الى الآن ، والأحاديث الواردة في ذلك في كتابه « المنار المنيف » ص ٧٨ بما لا مزيد بعده .

إن هذا الرجل الخضر ، وقول معمر وغيره : بلغني ، ليس فيه حجة . وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث : فيأتي بشاب ممتلىء شباباً فيقتله ، وقوله : الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ ، لا يقتضي المشافهة ، بل يكفي التواتر .

وقد تصدى الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في كتابه : « عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر » للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبيَّن أنها موضوعة ، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجَهالة رجالها ، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد .

وأما الذين ذهبوا إلى أنه قد مات ، ومنهم البخاري وإبراهيم الحربي وأبو الحسين بن المنادي والشيخ أبو الفرج بن الجوزي ، وقد انتصر لذلك وألف فيه كتاباً أسماه : « عجالة المنتظِر في شرح حالة الخضر » فيحتج لهم بأشياء كثيرة : منها قوله : ﴿ **وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخلد** ﴾[1] فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة ، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح ، والأصل عدمه حتى يثبت . ولم يُذكر فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله .

ومنها : أن الله تعالى قال : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْري ، قالوا أقررنا ، قال فأشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾[2] .

قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنه . وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق ؛ لئن بُعث محمداً وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . ذكره البخاري عنه . فالخضر إن كان نبياً أو وليًّا ، فقد دخل في هذا الميثاق ، فلو كان حيًّا في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه ؛ يؤمن بما أنزل الله عليه ، وينصره إن يصل أحدٌ من الأعداء إليه ؛ لأنه إن كان وليًّا فالصدِّيق أفضل منه ، وإن كان نبيًّا فموسى أفضل منه .

وقد روى الامام أحمد في مسنده : حدثنا شريح بن النعمان ؛ حدثنا هُشَيم ، أنبأنا مجالِد ، عن الشَّعبي ، عن جابر بن عبدالله ، أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسِعه إلا أن يتبعني » . وهذا الذي يُقطع به ويُعلم من الدين علمَ الضرورة ، وقد

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٨١ .

دلت عليه هذه الآية الكريمة ، أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ ، لكانوا كلهم أتباعاً له ، وتحت أوامره وفي عموم شرعه . كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع معهم ليلة الإسراءرُفع فوقهم كلهم . ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم ، فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم . فدل على أنه الإمام الأعظم ، والرسول الخاتم المبجل المقدَّم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

فإذا عُلم هذا ـ وهو معلوم عند كل مؤمن ـ عُلم أنه لو كان الخضر حيًّا لكان من جملة أُمة محمد ﷺ ، وممن يقتدي بشرعه ولا يسعه إلا ذلك .

هذا عيسى ابن مريم عليه السلام ، إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة ، ولا يخرج منها ، ولا يحيد عنها ، وهو أحد أُولي العزم الخمسة المرسلين[1] وخاتم أنبياء بني إسرائيل . والمعلوم أن الخضر لم يُنقل بسند صحيح ولا حسن تسكُن النفس اليه ، أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد ، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد .

وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه عز وجل ، واستنصره واستفتحه على من كَفره : « اللهم إن تهلك هذه العصابةُ لا تُعبد بعدها في الأرض » ، وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذٍ ، وسادة الملائكة حتى جبريل عليه السلام ؛ كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له ، في بيت يقال إنه أفخر بيت قالته العرب :

وببئر بدَر إذ يردّ وجوههَم ... جبريلُ تحت لوائنا ومحمدُ

فلو كان الخضر حيًّا ، لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته .

قال القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي : سئل بعض أصحابنا عن الخضر : هل مات ؟ فقال : نعم . قال : وبلغني مثل هذا عن أبي طاهر بن الغباري قال : وكان يحتج بأنه لو كان حيًّا لجاء إلى رسول الله ﷺ . نقله ابن الجوزيّ في العجالة .

فإن قيل : فهل يُقال : إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها ، ولكن لم يكن أحد يراه ؟ فالجواب : أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات . ثم ما الحامل له على هذا الاختفاء ؟ وظهوره أعظمُ لأجره وأعلى في مرتبته ، وأظهر لمعجزته ، ثم لو كان باقياً بعده ، لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية ، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة ، والروايات المقلوبة والآراء البِدْعية والأهواء

---

(١) وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام والرسول محمد ﷺ .

العصبية ، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم ، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم ، وتسديده العلماء والحكام ، وتقريره الأدلة والأحكام ، أفضل مما يقال عنه من كنونه في الأمصار ، وجَوْبه الفيافي والأقطار ، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم ، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم . وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف فيه أحد بعد التفهيم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين ـ وغيرهما ـ عن عبدالله بن عمر : أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال : « أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد » . وفي رواية « عين تطرف » . قال ابن عمر : فَوُهِلَ الناس[1] من مقالة رسول الله ﷺ هذه ، وإنما أراد إنخرام قرنه[2] .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن الزهري قال : أخبرني سالم بن عبدالله وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة ، أن عبدالله بن عمر قال : صلى رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته ، فلما سلَّم قام فقال ﷺ : « أرأيتم ليلتكم هذه ؟ فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد » . وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الزهري .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، عن سليمان التيمي ، عن أبي نَضرَة ، عن جابر بن عبداللهقال : قال رسول الله ﷺ قبل موته بقليل أو بشهر : « ما من نفس مَنْفوسة ـ أو ما منكم من نفس اليوم منفوسة ـ يأتي عليها مائة سنة وهي يومئذٍ حَية » .

وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهِيعة ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال قبل أن يموت بشهر : « يسألوني عن الساعة وإنما علْمها عند الله ، أُقسم بالله ما على الأرض نفس منفوسة اليوم يأتي عليها مائة سنة » . وهكذا رواه مسلم من طريق أبي نضرة وأبي الزبير : كل منهما عن جابر بن عبدالله به نحوه .

وقال الترمذي : حدثنا عباد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما على الأرض من نفس منفوسة يأتي عليها مائة سنة » وهذا أيضاً على شرط مسلم ، قال ابن الجوزي : فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دَعوى حياة الخِضر .

قالوا : فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع ، فلا إشكال ، وإن كان قد أدرك زمانه ، فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعد مائة

---

(١) خافوا وفزعوا .

(٢) انخرام قرنه : انقطاعه . .

سنة ، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً ؛ لأنه داخِل في هذا العموم ، والأصل عدم المخصِّص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله ، والله أعلم .

وقد حكى الحافظ أبو القاسم السُّهيلي في كتابه : « التعريف والإعلام » عن البخاري وشيخه أبي بكر بن العربي : أنه أدرك حياة النبي ﷺ ولكن مات بعده لهذا الحديث .

وفي كون البخاري رحمه الله يقول بهذا وأنه بقي إلى زمان النبي ﷺ نظر . ورجَّح السهيلي بقاءه ، وحكاه عن الأكثرين .

قال : وأما اجتماعه مع النبي ﷺ وتعزيته لأهل البيت بعده فمروي من طرق صحاح ، ثم ذكر ما تقدم مما ضعفناه ، ولم يُورد أسانيدها . . . والله أعلم . . .

قصة
إلياس عليه السلام

قال الله تعالى بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات :

﴿ وإن الياس لمن المرسلين * إذ قال لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم وربَّ آبائكم الأولين * فكذبوه فإنهم لمحضرون * إلا عباد الله المخلصين * وتركنا عليه في الآخرين * سلامٌ على آل ياسين * إنَّا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين ﴾(1) .

قال علماء النسب هو : إلياس النشبي ، ويقال : ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون وقيل : إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران .

قالوا : وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربي دمشق(2) ، فدعاهم إلى الله عز وجل أن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه « بَعْلاً » . وقيل كانت امرأة اسمها « بعل » والله أعلم .

والأول أصح ولهذا قال لهم : ﴿ ألا تتقون * أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾

فكذَّبوه وخالفوه وأرادوا قتله . فيقال إنه هرب منهم ، واختفى عنهم ، قال أبو يعقوب الأذرعي ، عن يزيد بن عبد الصمد ، عن هشام بن عمار قال : وسمعت من يذكر عن كعب الأحبار أنه قال : إن الياس اختفى من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين ، حتى أهلك الله الملك وولَّى غيره ، فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم ، وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف منهم . فأمر بهم فقتلوا عن آخرهم .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو محمد القاسم بن هاشم ، حدثنا عمر بن سعيد الدمشقي ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن بعض مشيخة دمشق قال : أقام إلياس عليه السلام هارباً من قومه في كهف جبل عشرين ليلة ـ أو قال أربعين ليلة ـ تأتيه الغربان برزقه .

وقال محمد بن سعد كاتب الواقدي : انبأنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، عن أبيه قال : أول نبي بُعث إدريس ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ، ثم إسماعيل وإسحق ، ثم يعقوب ثم

(1) سورة الصافات الآيات ١٢٣ ـ ١٣٢ .

(2) قبره موجود في القرية التي سميت باسمه (النبي ايلا) وهي على الطريق بين بعلبك وزحلة ، وأيلا تحريف لإيليا أي الياس بالعربية .

يوسف ثم لوط ثم هود ثم صالح ثم شعيب ، ثم موسى وهارون ابنا عمران ، ثم إلياس النشبي ابن العازر بن هارون بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام . هكذا قال . وفي هذا الترتيب نظر .

وقال مكحول عن كعب : أربعة أنبياء أحياء ، اثنان في الأرض : إلياس والخضر ، واثنان في السماء : إدريس وعيسى عليهم السلام .

وقد قدمنا قولَ من ذكر أن إلياس والخضر يجتمعان في كل عام في شهر رمضان ببيت المقدس ، وأنهما يحجان كل سنة ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من العام المقبل . وأوردنا الحديث الذي فيه أنهما يجتمعان بعرفات كل سنة[1] .

وبيَّنا أنه لم يصح شيء من ذلك ، وأن الذي يقوم عليه الدليل : أن الخضر مات ، وكذلك إلياس عليهما السلام .

وما ذكره وهب بن منبه وغيره : أنه لما دعا ربه عز وجل أن يقبضه إليه لمّا كذبوه وآذوه ، فجاءته دابة لونها لون النار فركبها ، وجعل الله له ريشاً وألبسه النور ، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملَكيًّا بشريًّا سماويًّا أرضيًّا ، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب ، ففي هذا نظر . وهو من الإسرائيليات التي لا تصدَّق ولا تكذب ، بل الظاهر أن صحتها بعيدة ، والله تعالى أعلم .

فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبدالله الحافظ ، حدثني أبو العباس أحمد بن سعيد المعداني ببخَارى ، حدثنا عبدالله بن محمود ، حدثنا عبدان بن سنان ، حدثني أحمد بن عبدالله البَرْقي ، حدثنا يزيد بن يزيد البلوي ، حدثنا أبو إسحاق الفَزاري ، عن الأوزاعي ، عن مكحول ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلاً فإذا رجل في الوادي يقول : اللهم اجعلني من أمة محمد ﷺ المرحومة المغفورة المتاب لها قال : فأشرفتُ على الوادي فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع ، فقال لي : من أنت ؟ فقلت : أنس ابن مالك خادم رسول الله ﷺ ، قال : فأين هو ؟ قلت : هو ذا يسمع كلامك ، قال : فَأْته فأقرئه مِنّي السلام ، وقل له أخوك إلياس يقرئك السلام . قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فجاء حتى لقيه فعانقه وسلَّم ، ثم قعدا يتحادثان فقال له : يا رسول الله إني ما آكل في السنة إلا يوماً ، وهذا يوم فطري فآكل أنا وأنت . قال : فنزلت عليهما مائدةٌ من السماء ، عليها خبز وحوت وكرفس ، فأكلا وأطعماني وصلينا العصر ، ثم ودعه ورأيت مرَّه في السحاب نحو السماء .

فقد كفانا البيهقي أمره ، وقال : هذا حديث ضعيف بمرّة .

---

(١) كيف يكون النبي الياس عليه السلام حياً وقبره موجود كما ذكرنا ؟ .

والعجب أن الحاكم أبا عبدالله النيسابوري أخرجه في مستدركه على الصحيحين ، وهذا مما يستدرك به على المستدرك : فإنه حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه ، ومعناه لا يصح أيضاً ، فقد تقدم في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم طوله ستون ذراعاً في السماء إلى أن قال : ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

وفيه أنه لم يأت رسول الله ﷺ حتى كان هو الذي ذهب إليه ، وهذا لا يصح ، لأنه كان أحق بالسعي إلى بين يديْ خاتم الأنبياء . وفيه أنه يأكل في السنة مرة ، وقد تقدم عن وهب أنه أسلبه الله لذة المطعم والمشرب ، وفيما تقدم عن بعضهم : أنه يشرب من زمزم كل سنة شربة تكفيه إلى مثلها من الحول الآخر .

وهذه أشياء متعارضة وكلها باطلة لا يصح شيء منها .

وقد ساق ابن عساكر هذا الحديث من طريق أخرى واعترف بضعفها وهذا عجب منه ، كيف تكلم عليه ؟ فإنه أورده من طريق حسين بن عرفة عن هانيء بن الحسن عن بقية ، عن الأوزاعي ، عن مكحول ، عن واثلة عن ابن الأسْقع ، فذكر نحو هذا مطولاً . وفيه أن ذلك كان في غزوة تبوك ، وأنه بعث إليه رسول الله ﷺ أنس بن مالك وحذيفة بن اليمان ، قالا : فإذا هو أعلى جسماً منا بذراعين أو ثلاثة ، وأعتذر بعدم قدرته لئلا تنفر الإبل . وفيه أنه لما اجتمع به رسول الله ﷺ أكلا من طعام الجنة ، وقال : إن لي في كل أربعين يوماً أكلة ، وفي المائدة خبز ورمان وعنب وموز ورطب وبقل ، ما عدا الكراث . وفيه أن رسول الله ﷺ سأله عن الخِضر فقال : عهدي به عامَ أول ، وقال لي : إنك ستلقاه قبلي فأقرئه مني السلام .

وهذا يدل على أن الخضر وإلياس ، بتقدير وجودهما وصحة هذا الحديث لم يجتمعا به إلى سنة تسع من الهجرة ، وهذا لا يسوغُ شرعاً . وهذا موضوع أيضاً .

وقد أورد ابن عساكر طرقاً فيمن اجتمع بإلياس من العباد ، وكلها لا يُفرح بها ، لضعف إسنادها أو لجهالة المسند إليه فيها . ومن أحسنها ما قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني بشر بن معاذ ، حدثنا حماد بن واقد ، عن ثابت قال : كنا مع مصعب بن الزبير بسواد الكوفة ، فدخلت حائطاً أُصلي فيه ركعتين فافتتحت : ﴿ حٰمۤ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافرِ الذنب وقابِلِ التَّوب شديد العقاب ذي الطَّول ﴾[1] فإذا رجل من خلفي على بغلة شهباء ، عليه مقطَّعات يمَنية فقال لي : إذا قلت : « غافر الذنب » فقل : يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي ، وإذا قلت : « قابل التوب » فقل : يا قابل التوب تقبَّل توبتي ، وإذا قلت : « شديد العقاب » فقل : يا شديد

---

(١) سورة غافر الآيات ١ ـ ٣ .

العقاب لا تعاقبني ، وإذا قلت : « ذي الطول » فقل : يا ذا الطول تـطَّول عليَّ بـرحمة ، فـالتفتّ فإذا لا أحد . وخرجت فسألت : مرَّ بكم رجل على بغلة شهباء عليه مقطعات يمنية ؟ فقالـوا : ما مـر بنا أحد . فكانوا لا يرون إلا أنه إلياس .

وقوله تعالى : ﴿ **فكذبوه فإنهم لمحضرون** ﴾ (١) أي للعذاب ، إما في الدنيا والآخرة ، أو في الآخرة ، والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون وقولـه : ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ (٢) أي إلا من آمن منهم . وقـوله : ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين** ﴾(٣) أي أبقينا بعـده ذكـراً حسنـاً لـه في العالمين فلا يذكر إلا بخير ، ولهـذا قال : ﴿ **سلامٌ على آل ياسين** ﴾ (٤) أي سـلام على إلياس، والعرب تُلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين وإسـرائيل وإسـرائين ، وإليـاس وإلياسـين ، وقد قـرىء :« سلام عـلى آل يـاسـين » أي عـلى آل محمـد ، وقـرأ ابن مسعـود وغيره : سلام على إدراسين ، ونقل عنه من طـريق إسحاق عن عبيـدة بن ربيعة عن ابن مسعـود أنه قـال : إلياس هـو إدريس . وإليه ذهب الضحـاك بن مُزاحم ، وحكـاه قَتـادة ومحمـد بن إسحـاق . والصحيح أنه غيره كما تقدم . والله أعلم .

(١) سورة الصافات الآية ١٢٧ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٢٨ .

(٣) سورة الصافات الآية ١٢٩ .

(٤) سورة الصافات الآية ١٣٠ .

باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل

بعد موسى عليه السلام

ثم نتبعهم بذكر داود وسليمان عليهما السلام

قال ابن جرير في تاريخه : لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أُمتنا وغيرهم ، أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كالب بن يوفنا ، يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم ، وهو أحد الرجلين اللذين ممن يخافون الله ، وهما يوشع وكالب ، وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد : ﴿ **ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾[1] .

قال ابن جرير : ثم من بعده كان القائم بأمور بني إسرائيل حزقيل بن بوذي وهو الذي دعا الله فأحيا الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

* * *

(١) سورة المائدة الآية ٢٣ .

قصة حزقيل

قال الله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوفٌ حذرَ الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضلٍ على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾[1] .

قال محمد بن إسحق عن وهب بن منبه إن كالب بن يوفنا لّما قبضه الله إليه بعد يوشع خلَف في بني إسرائيل حِزقيل بن بوذي وهو ابن العجوز وهو الذي دعا للقوم الذين ذكرهم الله في كتابه فيما بلغنا .

﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت ﴾ قال ابن اسحاق : فرُّوا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله موتوا فماتوا جميعاً فحظروا عليهم حظيرة دون السباع ، فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزقيل عليه السلام ، فوقف عليهم متفكراً فقيل له : أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر ؟ فقال : نعم . فأُمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسي لحماً وان يتصل العصبُ بعضه ببعض فأداهم عن أمر الله له بذلك ، فقام القوم أجمعون وكبَّروا تكبيرة رجل واحد .

وقال أسباط عن السُّدي عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة في قوله : **﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾** قالوا : كانت قرية يقال لها داوَردان قبل واسط ، وقع بها الطاعون ، فهرب عامةُ أهلها ، فنزلوا ناحية منها ، فهلك من بقي في القرية ، وسلم الآخرون فلم يمت منهم كثير ، فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين ، فقال الذين بقوا : أصحابنا هؤلاء كانوا أحزمَ منا ، لو صنعنا كما صنعوا بقينا ، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم . فوقع في قابل ، فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً ، حتى نزلوا ذلك المكان ، وهو واد أفْيَح ، فناداهم مَلك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه : أن موتوا . فماتوا حتى إذا هلكوا وبقيت أجسادهم مرَّ بهم نبي يقال له حزقيل ، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم ، ويلوي شدْقيه وأصابعه ، فأوحى الله إليه : تريد أن أريك كيف أُحْييهم ؟ قال : نعم ، وإنما كان تفكره أنه تعجب من قدرة الله عليهم ، فقيل له : ناد . فنادَى : يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تجتمعي ، فجعلت العظام يطير بعضها إلى بعض ، حتى كانت أجساداً من عظام ، ثم أوحى الله إليه . أن نادِ : يا أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً فاكتست لحماً ودماً وثيابَها التي ماتت فيها ، ثم قيل له : نادِ . فنادَى : أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومي فقاموا .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٣ .

قال أسباط : فزعم منصور عن مجاهد أنهم قالوا حين أُحيوا : « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت » فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى ، سِحْنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوباً إلا عاد رَسماً ، حتى ماتوا لآجالهم التي كُتبت لهم .

وعن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف وعنه ثمانية آلاف ، وعن أبي صالح تسعة آلاف ، وعن ابن عباس أيضاً كانوا أربعين ألفاً .

وعن سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات .

وقال ابن جريج عن عطاء : هذا مثل . يعني أنه سِيق مثلاً مبيناً أنه لن يَغْني حذَر من قدر ! وقول الجمهور أقوى أن هذا وقع .

وقد روى الإمام أحمد وصاحبا الصحيح من طريق الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب ، عن عبدالله بن الحارث بن نوفل ، عن عبدالله بن عباس ، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بَسرْغ لقيه أمراءُ الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بالشام . فذكر الحديث . يعني في مشاورته مع المهاجرين والأنصار فاختلفوا عليه ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً ببعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منها ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ويزيد المفتي قالا : حدثنا ابن أبي ذؤيب عن الزهري ، عن سالم ، عن عبدالله بن عامر بن ربيعة ، أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ أن هذا السُّقْم عذِّب به الأممُ قبلكم ، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوا وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه . قال : فرجعَ عمر من الشام . وأخرجاه من حديث مالك عن الزهري بنحوه .

قال محمد بن إسحاق ولم يذكر لنا مدة لَبث حزقيل في بني إسرائيل ، ثم إن الله قبضه إليه ، فلما قُبض نسي بنو إسرائيل عهدَ الله إليهم وعظُمت فيهم الأحداثُ وعبدوا الأوثان ، وكان في جملة ما يعبدونه من الأصنام صنم يقال له بعل ، فبعث الله إليهم إلياس بن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران .

قلت : وقد قدمنا قصة إلياس تبعاً لقصة الخضر لأنهما يُقرنان الذكر غالباً ، ولأجل أنها بعد قصة موسى في سورة الصافات فتعجَّلنا قصته لذلك والله أعلم .

قال محمد بن إسحاق فيما ذُكر له عن وهب بن منبه قال : ثم تنبأ فيهم بعد إلياس وصيه اليسع بن أخطوب عليه السلام ، وهذه :

قصة اليسع عليه السلام

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله : ﴿ وإسماعيل وآليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ﴾(١) وقال تعالى في سورة ص : ﴿ واذكر إسماعيل وآليسع وذا الكفل وكلٌّ من الأخيار ﴾(٢)

قال ابن إسحق : حدثنا بشر أبو حذيفة ، أنبأنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : كان بعد إلياس اليسع عليهما السلام ، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكاً بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ، ثم خلَف فيهم الخُلوف وعظُمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة ، وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك عنيد طاغٍ ، ويُقال إنه الذي تكفل له ذو الكفل إن هو تاب ورجع دخل الجنة فسمي ذا الكفل . قال محمد بن إسحاق هو أليسع بن أخطوب .

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في حرف الياء من تاريخه : اليسع وهو الأسباط بن عدي ابن شوتلم بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل . ويقال هو ابن عم إلياس النبي عليهما السلام ويُقال كان مستخفياً معه بجبل قاسيون(٣) من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها ، فلما رفع الياس خلفه اليسع في قومه ونبأه الله بعده .

ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه ، عن وهب بن منبه . قال : وقال غيره وكان الأسباط ببانياش(٤) .

ثم ذكر ابن عساكر قراءة من قرأ أليسع بالتخفيف والتشديد ومن قرأ واليَّسع وهو اسم واحد لنبيٍّ من الأنبياء .

قلت : قد قدمنا قصة ذا الكفل بعد قصة أيوب عليه السلام ، لأنه قد قيل إنه ابن أيوب فالله تعالى أعلم .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٦ .

(٣) سورة ص الآية ٤٨ .

(٣) جبل قاسيون في دمشق .

(٤)، بانياس .

فصل

قال ابن جرير وغيره : ثم مَرج أمرُ بني إسرائيل ، وعظمت منهم الخطوب والخطايا ، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء ، وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين ، يَظْلمونهم ويسفكون دماءهم ، وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً ، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قبة الزمان ، كما تقدم ذكره ، فكانوا يُنصرون ببركته ، وبما جعل الله فيه من السَّكينة والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون .

فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه فانتزعوه من أيديهم ، فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل في ذلك الزمان مالت عنقه فمات كمَداً .

وبقي بنو إسرائيل كالغنم بلا راعٍ حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء يقال له شمويل[1] ، فطلبوا منه أن يقيم لهم مَلكاً ليقاتلوا معه الأعداء ، فكان من أمرهم ما سنذكره مما قص الله في كتابه .

قال ابن جرير : فكان من وفاة يوشع بن نون إلى أن بعث الله عز وجل شمويل بن بالي أربعمائة سنة وستون سنة . ثم ذكر تفصيلها وعدد الملوك الذين ملكوا عليهم وسماهم واحداً واحداً تركنا ذكرهم قصداً[2] .

---

(١) صموئيل .

(٢) ومن يريد يجدهم في أسفار صموئيل الأول والثاني والملوك الأول والثاني حسب الترجمات الحديثة والملوك الأول حتى الرابع من الطبعات القديمة من أسفار العهد القديم .

قصة شمويل عليه السلام
وفيها بدء أمر داود عليه السلام

هو شمويل ويقال : أشمويل بن بالي بن علقمة[١] بن يرخام بن اليهو بن تهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عموصا بن عزريا .

قال مقاتل : وهو من ورثة هارون ، وقال مجاهد : هو أشمويل بن هلفاقا[٢] ولم يرفع في نسبه أكثر من هذا ، فالله أعلم .

حكى السُّدي بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة والثعلبي وغيرهم أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبَوا من أبنائهم جمعاً كثيراً ، وانقطعت النبوة من سبط لاوي ، ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى ، فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً ، فولدت غلاماً فسمته أشمويل ، ومعناه بالعبرانية إسماعيل ، أي سمع الله دعائي[٣] .

فلما ترعرع بعثته إلى المسجد ، وأسلمته عند رجل صالح فيه يكون عنده ليتعلم من خيره وعبادته ، فكان عنده ، فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يأتيه من ناحية المسجد ، فانتبه مذعوراً ، فظنه الشيخ يدعوه فسأله : أدعوتنيَ ؟ فكره أن يفزعه فقال : نعم ، نم فنام .

ثم ناداه الثانية فكذلك ثم الثالثة ، فإذا جبريل يدعوه ، فجاءه فقال : إن ربك قد بعثك إلى قومك ، فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه .

قال الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿ ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيٍ لهم ٱبعث لنا ملكاً نُقاتل في سبيل ٱلله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نُقاتل في سبيل ٱلله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كُتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم وٱللهُ عليمٌ بالظالمين * وقال

---

(١) حسب الأسفار فهو صموئيل بن ألقانة وقد ترجمت أشمويل بن علقمة وبالي لا وجود له بينهما إنما « عالي » هو الكاهن الذي تربى أشمويل عنده ونسبه في الأسفار يصل الى صوف فقط .

(٢) لعلها ترجمة أخرى لإسم ألقانة .

(٣) معناه ليس إسماعيل ولا سمع الله دعائي . بل معنى صموئيل ، شموئيل ، سؤال الله أي أعطيته لها لأنها من الله طلبت أن يرزقها ابناً لأن ضرتها كانت تغيظها ، ونذرته قبل أن تحمل به أن يكون خادماً لله .

لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا آنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال قال إن الله آصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم وآلله يؤتي ملكه من يشاء والله واسعٌ عليمٌ * وقال لهم نبيهم إنَّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينةٌ من ربكم وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين * فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مُبتليكم بنهرٍ فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلاَّ من آغترف غُرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا آليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم مُلاقوا آلله كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرة بإذن آلله وآلله مع الصابرين * ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وآنصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن آلله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع آلله الناس بعضهم ببعضٍ لفسدت الأرض ولكن آلله ذو فضلٍ على العالمين ﴾[1] .

قال أكثر المفسرين : كان نبي هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو شمويل . وقيل : شمعون وقيل هما واحد . وقيل : يوشع ، وهذا بعيد لما ذكره الإمام أبو جعفر ابن جرير في تاريخه أن بين موت يوشع وبعثة شمويل أربعمائة سنة وستين سنة والله أعلم .

والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا الله في ذلك الزمان وطلبوا منه أن يَنْصِب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء . فقال لهم : **﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تُقاتلوا قالوا وما لنا ألا نُقاتل في سبيل الله ﴾** أي وأي شيء يمنعنا من القتال : **﴿ وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾** يقولون نحن محروبون مَوْتورون ، فحقيق لنا أن نقاتِل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم .

قال الله تعالى : **﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾** كما ذكر في آخر القصة أنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال .

﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ قال الثعلبي : وهو طالوت[2] بن قيس ابن أفيل بن صارو بن تحورت بن أفيْح بن أنيس[3] بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥١ .

(٢) اسمه في أسفار اليهود شاول أو شاوول .

(٣) الأسماء محرفة قليلاً لفظاً ولم يرد اسم أنيس بل قيل عنه رجل بنياميني جبار بأس .

قال عكرمة والسُّدي : كان سقّاء ! وقال وهب بن منبه : كان دبَّاغاً[1] . وقيل غير ذلك . والله أعلم .

ولهذا : ﴿ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال ﴾ وقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوي وأن الملك كان في سبط يهوذا ، فلما كان هذا من سبط بنيامين نفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم وقالوا : نحن أحق بالملك منه وقد ذكروا أنه فقير لا سعة من المال معه فكيف يكون مثل هذا ملكاً ؟

﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم ﴾ قيل : كان الله قد أوحى إلى شمويل أن أي بني إسرائيل كان طوله على طول هذه العصا ، وإذا حضر عندك يفور هذا القرن الذي فيه من دهن القدس فهو ملِكهم . فجعلوا يدخلون ويقيسون أنفسهم بتلك العصا فلم يكن أحد منهم على طولها سوى طالوت ولما حضر عند شمويل فار ذلك القرن فدهنَه منه وعيَّنه للملك عليهم وقال لهم : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم ﴾ وقيل في أمر الحروب وقيل : بل مطلقاً : ﴿ والجسم ﴾[2] . قيل : الطول وقيل الجمال ، والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ فله الحكم وله الخلق والأمر ﴿ والله واسعٌ عليمٌ ﴾ .

﴿ وقال لهم نبيهم إن آية مُلكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينةٌ من ربكم وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ . وهذا أيضاً من بركة ولاية هذا الرجل الصالح عليهم ويمنه عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان سُلب منهم وقهرهَم الأعداء عليه وقد كانوا يُنصرون على أعدائهم بسببه ﴿ فيه سَكِينة من ربِّكم ﴾ قيل : طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء ، وقيل : السكينة مثل الريح الخَجُوج . وقيل : صورتها مثل الهرة إذا صرخت في حال الحرب أيقن بنو إسرائيل بالنصر ﴿ وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ قيل : كان فيه رضاض الألواح وشيء من المنّ الذي كان نزل عليهم بالتيه ﴿ تحمله الملائكة ﴾ أي تأتيكم به الملائكة يحملونه وأنتم ترون ذلك عياناً ليكون آيةً لله عليكم وحجة باهرة على صدق ما أقوله لكم وعلى صحة ولاية هذا الملك الصالح عليكم . ولهذا قال : ﴿ إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

وقيل : إنه لما غلب العمالقة على هذا التابوت وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة

---

(١) لم تذكر الأسفار له مهنة .

(٢) يقول سفر صموئيل الفصل العاشر أن شاول (طالوت) كان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق .

وقيـل : كان فيـه التوراة أيضـاً ، فلما استقر في أيـديهم وضعوه تحت صنم لهم بـأرضهم فلما أصبحوا إذا التـابوت عـلى رأس الصنم فوضعـوه تحته فلما كـان اليوم الثـاني ، إذا التابـوت فـوق الصنم . فلما تكـرر هذا علمـوا أن هـذا أمـرٌ من الله تعـالى فـأخـرجـوه من بلدهم وجعلوه في قـريـة من قـراهم ، فـأخذهم داءٌ في رقـابهم[1] فلما طال عليهم هـذا جعلوه في عَجلة ، وربطوهـا في بقرتـين وأرسلوهما ، فيقـال : إن الملائكـة ساقتهـا حتى جـاؤوا بهـا مـلأ بني إسـرائيـل وهم ينـظرون كـما أخبـرهم نبيهم بذلك ، فالله أعلم على أي صفة جاءت به الملائكة ، والظاهـر أن الملائكـة كانت تحمله بـأنفسهم كما هو المفهوم من الآية والله أعلم ، وإن كان الأول قد ذكره كثير من المفسرين أو أكثرهم .

﴿ **فلما فصَـل طـالـوت بـالجنـود قـال إن الله مُبتليكم بنهـرٍ فمن شـرب منـه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من أغترف غـرفة بيده** ﴾ .

قال ابن عباس وكثير من المفسرين : هـذا النهر هـو نهر الأردن ، وهو المسمى بـالشّريعـة فكان من أمر طالوت بجنوده عند هذا النهـر عن أمر نبي الله لـه عن أمر الله لـه اختباراً وامتحـاناً : أن من شرب من هذا النهر فلا يصحبني في هذه الغزوة ، ولا يصحبني إلا من لم يطعمه إلا غرفة بيده .

قال الله تعالى : ﴿ **فشربوا منه إلا قليلاً منهم** ﴾ .

قـال السدي : كـان الجيش ثمانـين ألفاً فشـرب منـه ستـة وسبعـون ألفـاً ، فبقي معـه أربعـة آلاف . كذا قال .

وقـد روى البخاري في صحيحـه من حديث إسـرائيل وزهـير والثّوري ، عن أبي إسحـاق عن البَراء بن عازب . قـال : كنا أصحـاب محمد ﷺ نتحـدث أن عِدة أصحـاب بدر عـلى عدة أصحـاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يجاوز معه إلا بضعـة عشر وثلاثمـائة مؤمن . وقـول السُّدي أن عـدة الجيش كانـوا ثمانـين ألفاً فيـه نـظر ، لأن أرض بيت المقـدس لا تحتمـل أن يجتمـع فيهـا جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً والله أعلم .

قـال الله تعالى : ﴿ **فلما جـاوزه هو والـذين آمنـوا معـه قـالـوا لا طـاقـةَ لنـا اليـوم بجـالـوت وجنـوده** ﴾ أي استقلوا أنفسهم واستضعفوهـا عن مقاومـة أعـدائهم بـالنسبـة إلى قلتهم وكثـرة عـدد عـدوهم ﴿ **قال الـذين يظنـون أنهم ملاقـوا الله كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئـةً كثيـرة بـإذن الله والله مـع الصـابرين** ﴾ يعني ثبتهم الفـرسان منهم والفـرسـان أهـل الإيمـان والإيقـان الصـابـرون عـلى الجـلاد والجدال والطعان .

---

(١) حسب سفر صموئيل أن التمثال كسرت رقبته ويده والداء الذي أصابهم هـو البواسـير وكلما حلَّ التـابوت بمـدينة من مـدنهم أصابهم مثل ذلك حتى أعيد التابوت .

﴿ **ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا ربنا افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ طلبوا من الله أن يُفرغ عليهم الصبر أي يغمرهم به من فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق ، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال فسألوا التثبيت الظاهر والباطن وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه ، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا وأنالهم ما إليه فيه رغبوا .

ولهذا قال : ﴿ **فهزموهم بإذن الله** ﴾، أي بحول الله لا بحولهم ، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم ، مع كثرة أعدائهم وكمال عُددهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذّلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء** ﴾ فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه ، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوِّه فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة ويأسر الأبطال ، والشجعان والأقران ، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان ، ويُدال لأولياء الله على أعدائه ، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه .

وقد ذكر السُّدي فيما يرويه أن داود عليه السلام كان أصغر أولاد أبيه وكانوا ثلاثة عشر ذكراً ، كان سمع طالوت ملك بني إسرائيل وهو يحرض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده وهو يقول : من قتل جالوت زوجته بابنتي وأشركته في ملكي ، وكان داود عليه السلام يرمي بالقذّافة وهو المِقْلاع رمياً عظيماً ، فبينا هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجر أن خُذني فإن بي تقتل جالوت ، فأخذه ثم حجر آخر كذلك ثم آخر كذلك ؛ فأخذ الثلاثة في مخلاته فلما تقابل الصفان برز جالوت ودعا إلى المبارزة فتقدم إليه داود فقال له : إرجع فإني أكره قتلك . فقال : لكني أُحب قتلك . وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في القذافة ، ثم أدارها فصارت الثلاثة حجراً واحداً . ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفرَّ جيشه منهزماً[2] ، فوفى له طالوت بما وعده فزوجه ابنته وأجرى حُكمه في ملكه ، وعظم داود عليه السلام عند بني إسرائيل ، وأحبوه ومالوا إليه أكثر من طالوت ، فذكروا أن طالوت حسده ، وأراد قتله ، واحتال على ذلك فلم يصل اليه ، وجعل العلماء ينهون طالوتَ عن قتل داود فتسلط عليهم فقتلهم ، حتى لم يبق منهم إلا القليل . ثم حصل له توبة وندم وإقلاع عما سلف منه ، وجعل يكثر من البكاء ، ويخرج إلى الجبانة فيبكي ، حتى يبل الثّرى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٣ .

(٢) جاء في سفر صموئيل أن داود عليه السلام أخذ خمسة حجارة وأنه رمى جالوت بحجر واحد .

بدموعه ، فنودي ذات يوم من الجبانة : أن يا طالوت قتلتنا ونحن أحياء ، وآذيتنا ونحن أموات . فازداد لذلك بكاؤه وخوفه ، واشتد وجله ، ثم جعل يسأل عن عالِم يسأل عن أمره ، وهل له من توبة ؟ فقيل له : وهل أبقيت عالماً ؟ حتى دُلَّ على امرأة من العابدات فأخذته فذهبت به إلى قبر يوشع عليه السلام . قالوا : فدعت الله فقام يوشع من قبره ، فقال : أقامت القيامة ؟ فقالت : لا ، ولكن هذا طالوت يسألك : هل له من توبة ؟ فقال : نعم ينخلع من الملك ، ويذهب فيقاتل في سبيل الله ، حتى يقتل ، ثم عاد ميتاً .

فترك الملك لداود عليه السلام ، وذهب ومعه ثلاثة عشر من أولاده فقاتلوا في سبيل الله حتى قُتلوا . قالوا : فذلك قوله : ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعلَّمه مما يشاء ﴾[1] .

هكذا ذكره ابن جرير في تاريخه من طريق السُّدي بإسناده . وفي بعض هذا نظر ونكارة . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : النبي الذي بُعث فأخبر طالوت بتوبته هو اليسع بن أخطوب . حكاه ابن جرير أيضاً .

وذكر الثعلبي أنها أتت به إلى قبر شمويل فعاتبه على ما صنع بعده من الأمور ، وهذا أنسب . ولعله إنما رآه في النوم ، لا أنه قام من القبر حيًّا ، فإن هذا إنما يكون معجزة لنبي ، وتلك المرأة لم تكن نبية والله أعلم .

قال ابن جرير : وزعم أهل التوراة أن مدة ملك طالوت إلى أن قُتل مع أولاده أربعون سنة . فالله أعلم .

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

قصة داود عليه السلام

وما كان في أيامه وذكر فضائله وشمائله ودلائل نبوته وأعلامه

هو داود بن إيشا بن عويد بن عامر بن سلمون بن نحشون بن عويناداب بن ارم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته في أرض بيت المقدس .

قال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه : كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين خفيف الشعر طاهر القلب ونقيّاً .

تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر ، فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى مُلكه عليهم ، فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك إلى داود عليه السلام ، وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خير الدنيا والآخرة ، وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمعا في داود هذا .

وهذا كما قال تعالى : ﴿ **وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعضٍ لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين** ﴾[١] أي لولا إقامة الملوك حكاماً على الناس لأكل قوي الناس ضعيفهم . ولهذا جاء في بعض الآثار « السلطان ظل الله في أرضه » . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : « إن الله ليَزَع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : اخرج إليَّ وأخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت .

قال وهب بن منبه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذِكر ، وخلعوا طالوت وولّوا عليهم داود . وقيل : إن ذلك كان عن أمر شمويل حتى قال بعضهم إنه ولّاه قبل الوقعة[٢] .

قال ابن جرير : والذي عليه الجمهور أنه إنما ولّي ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم . وروى

(١) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

(٢) لم يرد في أي مرجع .

ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم ، وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية فالله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلاً ، يا جبالُ أوِّبي معه والطير ، وألنَّا له الحديد * أن أعمل سابغات وقدِّر في السَّرد ، واعملوا صالحاً ، إني بما تعملون بصير** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وسخَّرنا مع داود الجبال يسبِّحن والطير ، وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبُوس لكم لتحْصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون** ﴾[2] .

أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : ﴿ **وقدر في السرد** ﴾ أي لا تدق المسمار فيفلق ولا تغلظه فيفصم . قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة .

قال الحسن البصري وقتادة والأعمش : كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أولَ من عمل الدروع من زَرْد وإنما كانت قبل ذلك من صفائح . قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم .

وقد ثبت في الحديث أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأَيْدِ ، إنه أوَّاب * إنا سخَّرنا الجبال معه يسبحن بالعشيِّ والإشراق * والطير محشورة ، كلٌّ له أوَّاب * وشَددْنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصلَ الخطاب** ﴾[3] .

قال ابن عباس ومجاهد : الأيد القوة في الطاعة . يعني ذا قوة في العبادة والعمل الصالح . قال قتادة : أُعطي قوةً في العبادة ، وفقهاً في الإسلام ، قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ؛ وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى » .

---

(١) سورة سبأ الآيتان ١٠ ، ١١

(٢) سورة الأنبياء الآية ٧٩ .

(٣) سورة (ص) الآية ١٧ .

وقوله : ﴿ إنا سخَّرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق * والطير محشورة كلٌّ له أوَّاب ﴾ كما قال : ﴿ يا جبالُ أوبي معه والطير ﴾ أي سبحي معه . قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿ إنا سخرنا الجبالَ معه يُسبِّحن بالعشي والإشراق ﴾ أي عند آخر النهار وأوله ، وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد ، بحيث إنه كان إذا ترنَّم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجِّع بترجيعه ، ويسبِّح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه وتسبِّح معه كلما سبَّح بكرةً وعشيًّا ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال الأوزاعي : حدثني عبدالله بن عامر قال : أُعطي داود من حسن الصوت ما لم يُعطَ أحد قط ، حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً وحتى إن الأنهار لتقف ! وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلا حجَل كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته حتى يهلك بعضها بعضاً .

وقال أبو عوانة الأسفراييني : حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا محمد بن منصور الطُّوسي سمعت صبيحاً أبا تراب رحمه الله ، قال أبو عوانة : وحدثني أبو العباس المدني ، حدثنا محمد بن صالح العدوي حدثنا سيَّار هو ابن حاتم عن جعفر ، عن مالك ، قال : كان داود عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تفتقت العذارى . وهذا غريب(١) .

وقال عبد الرزاق عن ابن جُريج ، سألت عطاء عن القراءة على الغناء فقال : وما بأس بذلك ؟ سمعت عُبيدَ بن عمر يقول : كان داود عليه السلام يأخذ المعزفة فيضرب بها فيقرأ عليها فتردّ عليه صوته يريد بذلك أن يبكي وتبكي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال ﷺ : لقد أُوتي أبو موسى من مزامير آل داود . وهذا على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه .

وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن محمد بن عمر ، عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لقد أُعطي أبو موسى من مزامير داود . على شرط مسلم .

وقد روينا عن أبي عثمان النَّهدي أنه قال : لقد سمعت البربط(٢) والمزمار ، فما سمعت

(١) ليس غريباً فقط بل لا يصح .

(٢) العود .

صوتاً أحسن من صوت أبي موسى الأشعري(١) .

وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابه الزبور ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن همَّام عن أبي هريرة قال :قال رسول الله ﷺ :خفِّف على داود القراءة ، فكان يأمر بدابته فتُسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه .

وكذلك رواه البخاري منفرداً به عن عبدالله بن محمد ، عن عبد الرزاق به . ولفظه : « خُفف على داود القرآن ، فكان يأمر بدوابه فتسْرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يديه » .

ثم قال البخاري : ورواه موسى بن عقبة ، عن صفوان ، هو ابن سليم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

وقد أسنده ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام في تاريخه من طرق عن إبراهيم بن طَهْمان ، عن موسى بن عقبة ، ومن طريق أبي عاصم عن أبي بكر السَّبْرِيّ ، عن صفوان بن سليم به .

والمراد بالقرآن ، ها هنا الزبور الذي أنزله عليه ، وأوحاه إليه ، وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظاً ، فإنه كان ملكاً له أتباع ، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تُسرج الدواب ، وهذا أمر سريع مع التدبّر والترنم والتغني به على وجه التخشع ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقد قال الله تعالى ﴿ **وآتينا داود زبوراً** ﴾(٢) . والزبور كتاب مشهور وذكرنا في التفسير الحديثَ الذي رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان ، وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه .

* * *

وقوله ﴿ **وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصْل الخطاب** ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً وحكماً نافذاً .

---

(١) في تلاوة القرآن .
(٢) سورة الإسراء الآية ٥٥ .

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود عليه السلام ، في بقر ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه . فأنكر المدعَى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل ، فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعي ، فلما أصبح قال له داود : إن الله قد أوحى إليَّ أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة ، فما خبرك فيما أدعيته على هذا ؟ قال : والله يا نبي الله إني لمحق فيما ادعيت عليه ، ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا . فأمر به داود فقُتل . فعظُم أمرُ داود في بني إسرائيل جداً وخضعوا له خضوعاً عظيماً . قال ابن عباس وهو قوله تعالى : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ أي النبوة ﴿ وفصل الخطاب ﴾ قال شُريح والشَّعبي وقتادة وأبو عبد الرحمن السلمي وغيرهم : فصل الخطاب الشهود والأيمان يعنون بذلك : « البيِّنة على المدعي واليمين على من أنكر » وقال مجاهد والسُّدي : هو إصابة القضاء وفهمه . وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام وفي الحكم . واختاره ابن جرير .

وهذا لا ينافي ما رُوي عن أبي موسى أنه قول : « أما بعد » .

وقال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أُعطي داود سلسلةً لفصل القضاء . فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقًّا نالها والأخر لا يصل إليها . فلم تزل كذلك حتى أودع رجلٌ رجلاً لؤلؤة فجحدها منه وأخذ عكازاً وأودعها فيه ، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعي ، فلما قيل للآخر : خذها بيدك ، عمد إلى العكاز ، فأعطاه المدعي ، وفيه تلك اللؤلؤة ، وقال : اللهم إنك تعلم أني دفعتها إليه ، ثم تناول السلسلة فنالها . فأشكل أمرها على بني إسرائيل . ثم رُفعت سريعاً من بينهم(١) .

ذكره بمعناه غير واحد من المفسرين ، وقد رواه اسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه .

﴿ وهل أتاك نبأُ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغىٰ بعضنا على بعضٍ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفلنيها وعزَّني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم وظن داود أنَّما فتنَّاه فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإنَّ له عندنا لزلفىٰ وحُسن مآبٍ ﴾(٢)

---

(١) هذه القصة لا تقبل لأن الله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ويعلم نوايا الإنسان فلو وجدت هذه السلسلة لما رفعت لسبب كهذا .

(٢) سورة ص الآيات ٢١ ـ ٢٥ .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ها هنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيليات، ومنها ما هو مكذوب لا محالة. تركنا إيرادها في كتابنا قصداً اكتفاء واقتصاراً على مجرد تلاوة القصة في القرآن العظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقد اختلف الأئمة في سجدة «ص»: هل هي من عزائم السجود؟ أو إنما هي سجدة شُكر ليست من عزائم السجود؟ على قولين:

قال البخاري: حدثنا محمد بن عبدالله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي، عن العوَّام، قال: سألت مجاهداً عن سجدة «ص» فقال: سألتُ ابن عباس من أين سجدت؟ قال: أو ما تقرأ: ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان** ﴾[1] ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾[2] فكان داود ممن أُمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل هو ابن عُلَيَّة، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال في السجود في «ص» ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

وكذا رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أيوب وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال النسائي: أخبرني ابراهيم ابن الحسن المقسمي، حدثنا حجاج بن محمد، عن عمر بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن النبي ﷺ سجد في «ص» وقال: سجدها داود توبة ونسجدها شكراً. تفرَّد به أحمد ورجاله ثقات.

وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، عن أبي سعيد الخدري، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص» فلما بلغ السجدَة نزل فسجد وسجد معه الناس فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزَّن[3] الناس للسجود فقال ﷺ: إنما هي توبةُ نبي ولكن رأيتكم تشزَّنتم فنزل وسجد.

تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا حميد، حدثنا بكر، هو ابن عمر، وأبو الصِّديق الناجي، أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رأى رؤيا أنه يكتب «ص» فلما

---

(١) سورة الأنعام الآية ٨٤.

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٠.

(٣) تشزن: تهيأ.

بلغ إلى التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً . قال : فقصها على النبي ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد . تفرد به أحمد .

وروى الترمذي وابن ماجه من حديث محمد بن يزيد بن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيدالله بن أبي يزيد ، قال : قال لي ابن جُريج حدثني جدك عبيدالله بن أبي يزيد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة ، فقرأت السجدة فسجدت الشجرةُ بسجودي ، فسمعتها تقول وهي ساجدة : « اللهم اكتب لي بها عندك أجراً واجعلها عندك ذخراً وضع عني بها وِزْراً ، واقبلها مني كما قبلتَ من عبدك داود » .

قال ابن عباس : فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة ثم قال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه عليه السلام مكث ساجداً أربعين يوماً(١) ، وقاله مجاهد والحسن وغيرهما . وورد في ذلك حديث مرفوع ، لكنه من رواية يزيد الرقَّاشيّ وهو ضعيف متروك الرواية .

قال الله تعالى : ﴿ **فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآبٍ** ﴾(٢) أي إن له يوم القيامة لزُلْفى ، وهي القُربة التي يقربه الله بها ويُدْنيه من حظيرة قدسه بسببها ، كما ثبت في حديث : « المُقْسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون في أهليهم وحكمهم وما ولوا » .

وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا فضيل عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحبَّ الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمامٌ عادل ، وإن أبغضَ الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر »(٣) .

وهكذا رواه الترمذي من حديث فضيل بن مرزوق الأغرِّ به وقال : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعة ، حدثنا عبدالله بن أبي زياد ، حدثنا سيَّار ، حدثنا جعفر بن سليمان ، سمعت مالك بن دينار في قوله : ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحُسن مآب** ﴾

---

(١) هذا من غير المعقول ومن تزيد الوضاعين .

(٢) سورة ص الآية ٢٥ .

(٣) لأنه ظالم نفسه بظلمه وظلم الناس أيضاً .

قال : يقوم داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله يا داود مجِّدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني في الدنيا ، فيقول : وكيف وقد سَلبته فيقول : إني أرده عليك اليوم . قال : فيرفع داود بصوت يفرغ نعيم أهل الجنان .

﴿ يا داود إنَّا جعلناك خليفةً في الأرض فاَحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيُضلك عن سبيل آلله إن آلذين يضلون عن سبيل آلله لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا يوم الحساب ﴾(١) .

هذا خطاب من الله تعالى مع داود ، والمراد ولاة الأُمور وحُكام الناس ، وأمرْهم بالعدل وإتباع الحق المنزل من الله ، لا ما سواه من الآراء والأهواء ، وتوعَّد من سَلك غير ذلك وحكم بغير ذلك ، وقد كان داود عليه السلام هو المقتدَى به في ذلك الزمان في العدل ، وكثرة العبادة وأنواع القربات ، حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلًا ونهاراً كما قال تعالى :

﴿ اعملوا آل داود شُكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ (٢) .

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسَّام ، حدثنا صالح المرِّي عن أبي عمران الجوني عن أبي الجلد ، قال : قرأت في مسألة داود عليه السلام أنه قال : يا رب كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصِل إلى شكرك إلا بنعمتك ؟ قال : فأتاه الوحي : « أن يا داود ألست تعلم أن الذي بك من النعم مني ؟ قال : بلى يا رب . قال : فإني أرضى بذلك منك » .

وقال البيهقي : أنبأنا أبو عبدالله الحافظ ، أنبأنا أبو بكر بن بالويه ، حدثنا محمد بن يونس القرشي ، حدثنا رَوْح بن عبادة ، حدثني عبدالله بن لاحق ، عن ابن شهاب قال : قال داود : « الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعِزِّ جلاله . فأوحى الله إليه : إنك أتعبت الحفظَة يا داود »(٣) .

ورواه أبو بكر بن أبي الدنيا عن علي بن الجعد ، عن الثوري مثله .

وقال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد : أنبأنا سفيان الثوري ، عن رجل ، عن وهب بن منبه ، قال : إن في حكمة آل داود : حقٌّ على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربَّه ، وساعة يحاسب فيها نفسهَ ، وساعة يُفْضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه

---

(١) سورة ص الآية ٢٦ .

(٢) سورة سبأ الآية ١٣ .

(٣) المقصود كثرة أدعية داود عليه السلام .

ويَصْدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل[1] ، فإن هذه الساعة عونٌ على هذه الساعات وإجمام للقلوب ، وحق على العاقل أن يَعرف زمانه ويحفظ لسانه ويُقبل على شأنه ، وحق على العاقل أن لا يظْعن إلا في إحدى ثلاث : زاد لمعاده ، ومرمة لمعاشه ، ولذة في غير مُحرم .

وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا ، عن أبي بكر بن خيثمة ، عن ابن مهدي ، عن سفيان ، عن أبي الأغر ، عن وهب بن منبه . فذكره . ورواه أيضاً عن علي بن الجعد ، عن عمر بن الهيثم الرقاشي عن أبي الأغر عن وهب بن منبه فذكره . وأبو الأغر هذا هو الذي أبهمه ابن المبارك في روايته . قاله ابن عساكر .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا بشر بن رافع ، حدثنا شيخ من أهل صنعاء يقال له أبو عبد الله ، قال : سمعت وهب بن منبه ، فذكر مثله . وقد أورد الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام أشياء كثيرة مليحة منها قوله : كن لليتيم كالأب الرحيم ، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد .

وروي بسند غريب مرفوعاً قال داود : يا زارع السيئات أنت تحصد شوكها وحسَكها .

وعن داود عليه السلام أنه قال : مثل الخطيب الأحمق في القوم كمثل المغني عند رأس الميت[2] . وقال أيضاً : ما أقبح الفقر بعد الغنى وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى . وقال : أنظر ما تكره أن يُذكر عندك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت .

وقال : لا تعدن أخاك بما لا تنْجزه له ، فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه .

وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر الواقدي ، حدثني هشام بن سعد ، عن عمر مولى عفرة ، قال : قالت يهود ، لما رأت رسول الله ﷺ يتزوج النساء : أنظروا إلى هذا الذي لا يشبع من الطعام ، ولا والله ماله همة إلا إلى النساء ، حسدوه لكثرة نسائه ، وعابوه بذلك ، فقالوا : لو كان نبياً ما رغب في النساء . وكان أشدهم في ذلك حُيَى بن أخطب ، فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه صلوات الله وسلامه عليه فقال : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾[3] يعني بالناس رسول الله ﷺ ﴿ **فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً** ﴾[3] يعني ما آتي الله سليمان بن داود كانت له ألف امرأة . سبعمائة مَهْرية[4]

---

(١) المقصود ليس ساعة زمن إنما تقسيم وقته بين هذه الأمور الأربعة .

(٢) لأن المقام ليس مقام غناء .

(٣) سورة النساء الآية ٥٤ .

(٤) زوجة ذات مهر .

وثلاثمائة سرية ؛ وكانت لداود عليه السلام مائة امرأة منهن امرأة أوريا أم سليمان بن داود التي تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد ﷺ . وقد ذكر الكلبي نحو هذا وأنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة، ولسليمان ألف امرأة ، منهن ثلاثمائة سَرية .

وروى الحافظ في تاريخه في ترجمة صدقة الدمشقي الذي يروي عن ابن عباس من طريق الفرج بن فَضالة الحِمْصي ، عن أبي هريرة الحمصي ، عن صدقة الدمشقي ، أن رجلاً سأل ابن عباس عن الصيام فقال : لأحدثنك بحديث كان عندي في البحث مخزوناً . إن شئت أنبأتك بصوم داود فإنه كان صوَّاماً قواماً وكان شجاعاً لا يفر إذا لاقى ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، وقال رسول الله ﷺ : أفضل الصيام صيام داود . وكان يقرأ الزبور بسبعين صوتاً يكوِّن فيها ؛ وكانت له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويصرف بصوته المهمومَ والمحموم .

وإن شئت أنبأتك بصوم ابنه سليمان فإنه كان يصوم من أول الشهر ثلاثة أيام ومن وسطه ثلاثة أيام ومن آخره ثلاثة أيام يستفتح الشهر بصيام ووسطه بصيام ويختمه بصيام .

وإن شئت أنبأتك بصوم ابن العذراء البتول عيسى ابن مريم ، فإنه كان يصوم الدهر ، ويأكل الشعير ، ويلبس الشَّعر ، يأكل ما وجد ، ولا يسأل عما فقدَ ، ليس له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، وكان أينما أدركه الليل صفَّ بين قدميه وقام يصلي حتى يصبح ، وكان رامياً لا يفوته صيد يريده ، وكان يمر بمجالس بني إسرائيل فيقضي لهم حوائجهم .

وإن شئت أنبأتك بصوم أمه مريم بنت عمران ، فإنها كانت تصوم يوماً وتفطر يومين .

وإن شئت أنبأتك بصوم النبي العربي الأُمي محمد ﷺ فإنه كان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ويقول : « إن ذلك صوم الدهر »[1] .

وقد روى الإمام أحمد عن أبي النضر ، عن فرج بن فضالة ، عن أبي هرم عن صدقة عن ابن عباس مرفوعاً في صوم داود .

* * *

(١) لأن الحسنة بعشر أمثالها ، واليوم بعشرة ، فالأيام الثلاثة هي شهر ثلاثون يوماً ، فذلك الدهر والدهر هنا العمر .

ذكر كمية حياته وكيفية وفاته

قد تقدم في ذكرى الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ، ورأى فيهم رجلا يُزهر فقال : أي رب من هذا ؟ قال : هذا ابنك داود ، قال : أي رب كم عمره ؟ قال : ستون عاماً ؟ قال : أي رب زد في عمره . قال : لا إلا أن أزيده من عمرك . وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : بقي من عمري أربعون سنة ، ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود ، فأتمها الله لآدم ألف سنة ، ولداود مائة سنة .

رواه أحمد عن ابن عباس ، والترمذي وصححه عن أبي هريرة ، وابن خزيمة وابن حبان . وقال الحاكم : على شرط مسلم . وقد تقدم ذكر طرقه وألفاظه في قصة آدم .

قال ابن جرير : وقد زعم أهل الكتاب أن عمر داود كان سبعاً وسبعين سنة . قلت : هذا غلط مردود عليهم ، قالوا : وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وهذا قد يُقبل نقله ، لأنه ليس عندنا ما ينافيه ولا ما يقتضيه .

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا قبيصة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطَّلب ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذاخرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن بداود فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار ، فقال له داود : من أنت ؟ فقال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أُمنع من الحجاب . فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت ، مرحباً بأمر الله . ثم مكث حتى قبضت روحه فلما غسل وكفن وفُرغ من شأنه طلعت عليه الشمس ، فقال سليمان للطير : أظلي على داود فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال سليمان للطير : آقبضي جناحاً . قال أبو هريرة : فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير ، وقبض رسول الله ﷺ بيده ، وغلبت عليه يومئذٍ المضرحية .

انفرد بإخراجه الإمام أحمد ، وإسناده جيد قوي ، رجاله ثقات ، ومعنى قوله : « وغَلبت عليه يومئذٍ المضرحية » أي وغلبت على التظليل عليه المضْرحية وهي الصقور الطوال الأجنحة

واحدها مضْرَحيّ . قال الجوهري : وهو الصقر الطويل الجناح .

وقال السُّدي عن أبي مالك ، عن ابنَ مالك ، عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت ، وكانت الطير تظله . وقال السدي أيضاً ، عن مالك وعن سعيد بن جبير قال : مات داود عليه السلام يوم السبت فجأة .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، قال : مات داود عليه السلام وهو ابن مائة سنة ومات يومَ الأربعاء فجأة . وقال أبو السكن الهَجري : مات إبراهيم الخليل فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . رواه ابن عساكر .

وروي عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له : دعني أنزل أو أصعد فقال : يا نبي الله قد نفذت السنون والشهور والآثار والأرزاق ، قال : فخرَّ ساجداً على مَرْقَاة من تلك المراقي فقبضه وهو ساجد .

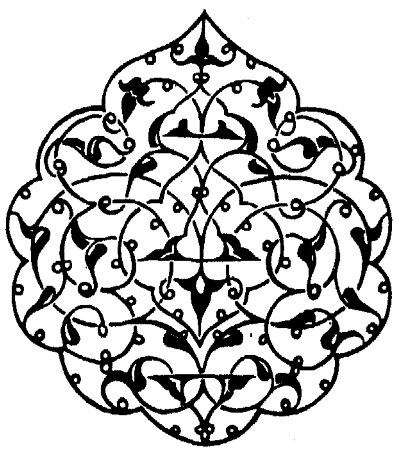
وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا وافر بن سليمان ، عن أبي سليمان الفلسطيني عن وهب بن منبه قال : إن الناس حضروا جنازة داود عليه السلام فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال : وكان قد شيع جنازته يومئذٍ أربعون ألف راهب[1] عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس ، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليه منهم على داود . قال : فآذاهم الحر فنادوا سليمان عليه السلام أن يعمل لهم وقاية لما أصابهم من الحر ، فخرج سليمان فنادى الطير ، فأجابت فأمرها أن تظل الناس ، فتراصَّ بعضها إلى بعضها من كل وجه ، حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غمًّا فصاحوا إلى سليمان عليه السلام من الغم ، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحَّيْ من ناحية الريح . ففعلت فكان الناس في ظل تهب عليهم الريح ، فكان ذلك أول ما رأوه من ملك سليمان .

وقال الحافظ أبو يعلي : حدثنا أبو همام الوليد بن شجاع ، حدثني الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضِين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جبير بن نُفَير ، عن أبي الدرداء . قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قبض الله داود من بين أصحابه ما فُتنوا ولا بَدَّلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهْدَيه مائتي سنة .

هذا حديث غريب وفي رفعه نظر ، والوضين بن عطاء كان ضعيفاً في الحديث . والله أعلم .

***

(١) هذا من الموضوع فليس في اليهودية رهبانية .



قصة سليمان بن داود عليهما السلام

قال الحافظ ابن عساكر : هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نخشون بن عميناداب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الربيع نبي الله ابن نبي الله .

جاء في بعض الآثار أنه دخل دمشق ، قال ابن ماكولا : فارص بالصاد المهملة ، وذكر نسبه قريباً مما ذكره ابن عساكر .

قال الله تعالى : ﴿ **وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيءٍ إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾[1] أي ورثه في النبوة والملك ، وليس المراد ورثه في المال ، لأنه قد كان له بنون غيره ، فما كان لِيُخصَّ بالمال دونهم ، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » وفي لفظة : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم ، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج[2] لا يخصون بها أقرباءهم لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هي عند الذي أرسلهم وأصطفاهم وفضلهم . وقال : ﴿ **يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيءٍ** ﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبّر للناس عن مقاصدها ومراداتها .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، أنبانا علي بن حشّاد ، حدثنا إسماعيل بن قتيبة ، حدثنا علي بن قدامة ، حدثنا أبو جعفر الأسواني ، يعني محمد بن عبد الرحمن ، عن أبي يعقوب العمّي ، حدثني أبو مالك . قال : مر سليمان بن داود بعصفور يدور حول عصفورة فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : وما يقول يا نبي الله ؟ قال : يخطبها إلى نفسه ويقول : زوجيني أُسكنك أيَّ غُرف دمشق شئتِ ! قال سليمان عليه السلام : لأن غرف دمشق مبنية بالصخر ، لا يقدر أن يسكنها أحد ، ولكن كل خاطب كذّاب .

ورواه ابن عساكر عن أبي القاسم زاهر بن طاهر ، عن البيهقي به وكذلك ما عداها من الحيوانات وسائر صنوف المخلوقات ، والدليل على هذا قوله بعد هذا من الآيات : ﴿ **وأوتينا من كل شيء** ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العُدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر

---

(١) سورة النمل الآية ١٦ .

(٢) المحتاجين .

المخلوقات من الناطقات والصامتات ثم قال : ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ أي من بارىء البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى :

﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن وآلإنس والطير فهم يوزعون * حتى إذا أتوا على وادِ النمل قالت نملةٌ يا أيها النمل آدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكاً من قولها وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك آلتي أنعمت عليَّ وعلىٰ والديَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾(١) .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير ، فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزَعة ، أي نقُباء يردّون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ، ولا يتأخر عنه قال الله تعالى : **﴿ حتى إذا أتوا على وادِ النمل قالت نملةٌ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾** .

فأمرت وحذَّرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور . وقد ذكر وهب أنه مرَّ وهو على البساط بوادٍ بالطائف ، « وأن هذه النملة كان اسمها جرساً ، وكانت من قبيلة يقال لهم بنو الشَّيْصبان ، وكانت عرجاء وكانت بقدر الذئب »(٢) .

وفي هذا كله نظر ، بل في هذا السياق دليل على أنه كان في موكبه راكباً في خيوله وفرسانه ، لا كما زعم بعضهم من أنه كان إذ ذاك على البساط ، لأنه لو كان كذلك لم ينل النملَ منه شيء ولا وطء ، لأن البساط يكون عليه جميع ما يحتاجون إليه من الجيوش والخيول والجمال والأثقال والخيام والأنعام والطير من فوق ذلك كله ، كما سنبينه بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة أمتها من الرأي السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره ، وليس كما يقوله بعض الجهلة : من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك ، فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم مقالها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره ، وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضاً فائدة يعول عليها ، ولهذا قال : **﴿ رب أوزعني ﴾** أي ألهمني وأرشدني **﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك**

---

(١) سورة النمل الآيات ١٧ ـ ١٩ .

(٢) مبالغة من الراوي .

الصالحين ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن ييسر عليه العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين وقد استجاب الله تعالى له .

والمراد بوالديه داود عليه السلام وأمه ، وكانت من العابدات الصالحات كما قال سنيد بن داود ، عن يوسف بن محمد بن المنكدر ، عن أبيه ، عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : قالت أم سليمان بن داود : يا بني لا تُكثر النومَ بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبدَ فقيراً يوم القيامة . رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه .

وقال عبد الرزاق : عن مَعْمَر ؛ عن الزهري ؛ أن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون[1] فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي ، فقال لأصحابه : ارجعوا فقد سُقيتم ، إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها .

قال ابن عساكر : وقد روي مرفوعاً ولم يذكر فيه سليمان . ثم ساقه من طريق محمد بن عزيز ، عن سلامة بن روْح بن خالد ، عن عقيل ، عن ابن شهاب حدثني أبو سلمة عن أبي هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : خرج نبي من الأنبياء بالناس يتشفعون الله ، فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء فقال النبي : ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة .

وقال السدي : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام . فأمر الناس فخرجوا فإذا بنملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهي تقول : « اللهم إنا خلق من خلقك ولا غناء بنا عن فضلك » قال فصب عليهم المطر .

قال الله تعالى :

﴿ وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأُعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطانٍ مبينٍ * فمكث غير بعيدٍ فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقينٍ * إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألاّ يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إلـٰه إلاّ هو ربُّ العرش العظيم * قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابي هـٰذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون * قالت يا أيها الملأ إني أُلقي إليَّ كتابٌ كريمٌ * إنه

---

(١) يطلبون الماء .

من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين * قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون * قالوا نحن أولوا قوةٍ وأولوا بأسٍ شديدٍ والأمر إليك فآنظري ماذا تأمرين * قالت إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّة أهلها أذلة وكذلك يفعلون * وإني مُرسلةٌ إليهم بهديةٍ فناظرةٌ بِمَ يرجع المرسلون * فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمالٍ فما آتانِ الله خيرٌ مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون * آرجع إليهم فلنأتينهم بجنودٍ لا قبل لهم بهاولنخرجنّهم منها أذلةً وهم صاغرون ﴾[1] .

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد ، وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدَّمون يقومون بما يُطلب منهم ويحضرون عنده بالنَّوبة[2] ، كما هي عادة الجنود مع الملوك ، وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره : أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء في القفار في حال الأسفار ، يجيء فينظر لهم هل بهذه البقاع من ماء ؟ وفيه من القوة التي أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض ، فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم . فلما تطلَّبه سليمان عليه السلام ذات يوم فقده ولم يجده في موضعه من محل خدمته **﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾** أي ما له مفقود من ها هنا أو قد غاب عنْ بصري فلا أراه بحضرتي ؟ **﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾** توعَّده بنوع من العذاب ، اختلف المفسرون فيه ، والمقصود حاصل على كل تقدير **﴿ أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطانٍ مبينٍ ﴾** أي بحجة تنجيه من هذه الورطة .

قال الله تعالى : **﴿ فمكث غير بعيدٍ ﴾** أي فغاب الهدهد غيبة ليست بطويلة ثم قدم منها **﴿ فقال ﴾** لسليمان **﴿ أحطت بما لم تُحط به ﴾** أي أطلعتُ على ما لم تطلع عليه **﴿ وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقينٍ ﴾** أي بخبر صادق **﴿ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ ﴾** يذكر ما كان عليه ملوك سبأ في بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين ، وكان الملك قد آل في ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وذكر الثعلبي وغيره أن قومها ملَّكوا عليهم بعد أبيها رجلاً فعمَّ به الفساد ، فأرسلت إليه تخطبه فتزوجها فلما دخلت عليه سقته خمراً ثم حزت رأسه ونصبته[3] على بابها ، فأقبل الناس عليها وملَّكوها عليهم وهي بلقيس بنت السيرح وهو الهدهاد . وقيل : شَراحيل بن ذي جدنَ بن

---

(١) سورة النمل الآيات ٢٠ ـ ٢٧ .

(٢) مناوبة .

(٣) علقته أو رفعته .

السيـرح بن الحارث بن قيس بن صَيْفي بن سبَأ بن يَشْجُب بن يَعْـرب بن قحـطان ، وكـان أبـوهـا من أكـابر الملوك وكـان يأبى أن يتـزوج من أهل اليمن ، فيقـال : إنه تـزوج بامـرأة من الجن اسمهـا ريحانة بنت السكن ، فولدت له هذه المرأة واسمها تلقمة ويقال لها بلقيس .

وقـد روى الثعلبي من طـريق سعيـد بن بشـيرعن قتـادة ، عن النضـر بن أنس ، عن بشـير ابن نهيك ، عن أبي هريـرة ، عن النبي ﷺ أنه قـال : كان أحـد أبوي بلقيس جنّياً . وهذا حـديث غريب وفي سنده ضعف .

وقال الثعلبي : أخبرني أبـو عبدالله بن قبحـونة ، حـدثنا أبـو بكر بن حـرجة ، حـدثنا ابن أبي الليث ، حـدثنا أبـو كريب ، حـدثنـا أبـو معـاويـة عن إسمـاعيـل بن مسلم ، عن الحسن ، عن أبي بكـرة ، قـال : ذُكـرت بلقيسُ عنـد رسـول الله ﷺ فقـال : « لا يُفلح قـومٌ ولَّوْا أمَرهم امـرأة » . إسماعيل بن مسلم هذا هو المكي ضعيف .

وقـد ثبت في صحيـح البخـاري من حـديث عـوف ، عن الحسن عن أبي بكـرة أن رسـول الله ﷺ لما بلغه أن أهلَ فارس ملّكوا عليهم ابَنةَ كسرى قال : « لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة » .

ورواه التـرمذي والنسـائي من حـديث حميـد ، عن الحسن عن أبي بَكْـرة ، عن النبي ﷺ بمثله وقـال الترمـذي : حسن صحيح . وقـولـه : ﴿ **وأوتيت من كـل شيءٍ** ﴾ أي مما من شأنـه أن تؤتاه الملوك ﴿ **ولها عـرشٌ عظيمٌ** ﴾ يعني سريـر مملكتها كـان مزخـرفاً بـأنواع الجـواهر والـلآلىء والـذهب والحلي الباهر .

ثم ذكـر كفرهم بـالله وعبادتهم الشمسَ من دون الله وإضـلال الشيطان لهم وصَـدِّه إيـاهم عن عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، الـذي يُخْرج الخَبْء في السماوات والأرض ويعلم ما يُخفـون وما يعلنون ، أي يعلم السرائـر والظواهـر من المحسوسـات والمعنويـات ﴿ **الله لا إلـه إلا هو رب العـرش العظيم** ﴾ أي له العرش العظيم الذي لا أعظم منه في المخلوقات(١) .

فعنـد ذلك بعث معـه سليمان عليـه السلام كتـابه يتضمن دعـوته لهم إلى طـاعـة الله وطـاعـة رسوله والإنابة والإذعان إلى الدخول في الخضوع لملكـه وسلطانه ولهـذا قال لهم : ﴿ **ألا تعلوا عليَّ** ﴾ أي لا تستكبـروا عن طاعتي وامتثـال أوامـري . ﴿ **وأتوني مسلمين** ﴾ أي واقـدمُـوا عـليَّ سـامعـين مطيعين بلا معاودَة ولا مُـراودة ، فلما جاءهـا الكتابُ مـع الطير ، ومن ثَمَّ اتخـذ الناسُ البـطائق(٢) ، ولكن أين الثريا من الثرى ، تلك البطاقـة كانت مـع طائـر سامـع مطيـع فاهم عـالم بما يقـول ويقال

---

(١) ولا مثيل له .

(٢) الرسائل .

به . فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهي في خلوة لها ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها ، فجمعت امراءها ووزراءها وأكابر دولتها لمشورتهم ﴿ **قالت يا أيها الملأ إني ألقيَ إليَّ كتابٌ كريم** ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿ **إنه من سليمان** ﴾ ثم قرأته : ﴿ **وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعْلوا عليَّ وأتوني مسلمين** ﴾ ثم شاورتهم في أمرها وما قد حلَّ بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿ **قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون** ﴾ تعني ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون ﴿ **قالوا نحن أُولوا قوة وأُولوا بأسٍ شديد** ﴾ يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاد والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردتِ منا ذلك فإنا عليه من القادرين ﴿ و ﴾ مع هذا ﴿ **الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين** ﴾ فبذلوا لها السمعَ والطاعة ، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة ، وفوَّضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم .

فكان رأيها أتم وأشد من رأيهم ، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ، ولا يخالف ولا يخادع ﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون** ﴾ تقول برأيها السديد : إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إليَّ ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليَّ ﴿ **وإني مرسلةٌ إليهم بهديةٍ فناظرةٌ بمَ يرجع المرسلون** ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها ، وأهل مملكتها بهدية ترسلها ، وتُحَف تبعثها ، ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صَرْفاً ولا عَدْلاً ، لأنهم كافرون ، وهو وجنوده عليهم قادرون .

ولهذا ﴿**لما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال فما آتانِ الله خيرٌ مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾[1] . هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، ذكره المفسرون .

ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدِم عليه والناس حاضرون يسمعون : ﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنودٍ لا قِبَل لهم بها ولنُخرجنهم منها أذلةً وهم صاغرون** ﴾ يقول إرجع بهديتك التي قدِمت بها إلى من قد مَنّ بها فإن عندي ما قد أنعم الله عليَّ وأسداه إليَّ من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذي أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ **فلنأتينهم بجنود لا قِبل لهم بها** ﴾ أي فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نِزالهم ولا مُمانعتهم ولا قتالهم ولأُخرجنهم من بلدهم وحَوْزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار .

فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بدٌ من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته في تلك

---

(١) النمل : الآية ٣٦ بلفظ : ﴿ فلما . . . ﴾ .

الساعه واقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين ، فلما سمع بقدومهم عليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخَّر له من الجان ما قصه الله عنه في القرآن :

﴿ قال يا أيها الملأ أيُّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين * قال عفريتٌ من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقويٌّ أمينٌ * قال الذي عنده علمٌ من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكرُ أم أكفر ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنيٌّ كريمٌ * قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين * وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنّها كانت من قوم كافرين * قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجُةً وكشفت عن ساقيها قال إنه صرحٌ ممردٌ من قوارير قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمتُ مع سليمان لله ربِّ العالمين ﴾[1]

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرشَ بلقيس ، وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقتَ حكمها ، قبل قدومها عليه **﴿ قال عفريتٌ من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾** يعني قبل أن ينقضي مجلس حكمك ، وكان فيما يُقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدَّى لمهمات بني إسرائيل ، وما لهم من الأشغال **﴿ وإني عليه لقويٌّ أمينٌ ﴾** أي : وإني لذو قدرة على إحضاره إليك ، وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك **﴿ قال الذي عنده علمٌ من الكتاب ﴾** المشهور أنه آصف بن برخينا[2] ، وهو ابن خالة سليمان . وقيل : هو رجل من مؤمني الجان ، كان فيما يُقال يحفظ الاسم الأعظم . وقيل : رجل من بني إسرائيل من علمائهم ، وقيل : إنه سليمان ، وهذا غريب جداً . وضعفه السهيلي بأنه لا يصح في سياق الكلام . قال : وقد قيل فيه قول رابع وهو : جبريل **﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾** قيل : معناه قبل أن تبعث رسولاً إلى أقصى ما ينتهي إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك . وقيل : قبل أن يصل إليك أبعدُ من تراه من الناس . وقيل : قبل أن يكلّ طرفك إذا أدمتَ النظرَ به قبل أن تُطبق جَفنك . وقيل : قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته . وهذا أقرب ما قيل .

﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾ أي فلما رأى عرشَ بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين **﴿ قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكرُ أم أكفرُ ﴾** أي هذا من فضل الله عليَّ وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه **﴿ ومن شكر فإنّما يشكرُ**

---

(١) سورة النمل الايات ٣٨ ـ ٤٤ .

(٢) آصف بن برخيا .

لنفسه ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ ومن كفر فإن ربي غنيٌّ كريمٌ ﴾ أي غني عن شُكر الشاكرين ، ولا يتضرَّر بكفر الكافرين .

ثم أمر سليمان عليه السلام أن يغير حُلي هذا العرش وينكّر لها ليختبر فهمها وعقلها ولهذا قال : ﴿ ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها ، لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب .

قال الله تعالى إخباراً عن سليمان وقومه : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مُسلمين * وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قومٍ كافرين ﴾ أي ومنعتها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله إتباعاً لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك[1] .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء ، وجعل عليه سَقفاً من زجاج ، وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء ، وأُمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ فلما رأته حسبته لُجَّةً[2] وكشفت عن ساقيها ، قال إنه صرحٌ مُمردٌ من قوارير قالت ربِّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ وقد قيل إن الجن أرادوا أن يبشِّعوا منظرها عند سليمان وأن تبدي عن ساقيها ليرى ما عليها من الشَّعر فينّفره ذلك منها ، وخشَوا أن يتزوجها لأن أُمها من الجان فتتسلط عليهم معه . وذكر بعضهم أن حافرها كان كحافر الدابة . وهذا ضعيف وفي الأول أيضاً نظر . والله اعلم .

إلا أن سليمان قيل : إنه لما أراد إزالته حين عزم على تزوجها سأل الإنس عن زواله فذكروا له الموسى ، فامتنعت من ذلك فسأل الجان فصنعوا له النُّوْرة ووضعوا له الحمَّام ، فكان أول من دخل الحمام . فلما وجد مسَّه قال : أوه من عذاب أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه .

وقد ذكر الثعلبي وغيره ، أن سليمان لما تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليها ، وكان يزورها في كل شهر مرة ، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط ، وأمر الجانَّ فبنوا له ثلاثة قصور باليمن : غُمْدان وسالحين وبيتون . فالله أعلم .

---

(١) منعها ذلك من أن تدرك عظم ما وهب الله لسليمان عليه السلام .
(٢) بحر .

وقد روى ابن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه أن سليمان لم يتزوجها بل زوجها بملك هَمْدان ، وأقرها على ملك اليمن ، وسخّر زوبعة ملك اليمن فبنى لها القصور الثلاثة التي ذكرناها باليمن . والأول أشهر وأظهر ، والله أعلم .

وقال تعالى في سورة ص :

﴿ ووهبنا لداود سليمان نِعم العبد إنه أوابٌ * إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردوها عليَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق * ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب * قال ربُّ آغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنَّك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب * والشياطين كلَّ بناءٍ وغوَّاصٍ * وآخرين مقرَّنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فآمنن أو أمسك بغير حسابٍ * وإن له عندنا لزلفى وحُسن مآبٍ ﴾[1] .

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان عليهما السلام ، ثم أثنى الله تعالى عليه فقال : **﴿ نِعمَ العبد إنه أوَّابٌ ﴾** أي رجَّاع مطيع لله . ثم ذكر تعالى ما كان من أمره في الخيل الصافنات وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة ، الجياد وهي المضمَّرة السِّراع .

فقال : **﴿ إني أحببت حُبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ﴾** يعني الشمس . وقيل : الخيل على ما سنذكره من القولين : **﴿ رُدوها عليَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾** قيل : مسحَ عراقيبها وأعناقها بالسيوف . وقيل : مسح عنها العرق لَّما أجراها وسابق بينها بين يديه على القول الآخر .

والذي عليه أكثر السلف الأول ، فقالوا : آشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس . رُوي هذا عن عليٍّ بن أبي طالب وغيره . والذي يُقطع به أنه لم يترك الصلاة عمداً من غير عذر ، اللهم إلا أن يُقال إنه كان سائغاً في شريعتهم ، فأخَّر الصلاة لأجل أسباب الجهاد وعرض الخيل من ذلك .

وقد آدعى طائفة من العلماء في تأخير النبي ﷺ صلاة العصر يوم الخندق ، أن هذا كان مشروعاً إذ ذاك حتى نُسخ بصلاة الخوف ، قاله الشافعي وغيره . وقال مكحول والأوزاعي : بل هو حُكم مُحكم إلى اليوم أنه يجوز تأخيرها بعذر القتال الشديد . كما ذكرنا تقرير ذلك في سورة النساء عند صلاة الخوف .

(١) سورة ص الآيات ٣٠ ـ ٤٠ .

وقال آخرون : بل كان تأخير النبي ﷺ صلاةَ العصر يوم الخنـدق نسيانـاً ، وعلى هـذا فيحمل فعل سليمان عليه السلام على هذا والله أعلم .

وأما من قال : الضمير في قولـه : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ عـائد عـلى الخيل ، وأنـه لم تنته وقت صلاة وأن المراد بقوله : ﴿ ردوها عليَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ يعني مسح العـرق عن عـراقيبها وأعنـاقهـا ، فهـذا القـول اختـاره ابن جـريـر ورواه الـوالبي عن ابن عبـاس في مسح العرق . ووجه هذا القول ابن جرير بأنه ما كان ليعـذب الحيوان بـالعرقبـة ويُهلك مالاً بـلا سبب ولا ذنب لها . وهذا الذي قاله فيه نظر لأنه قـد يكون هـذا سائغـاً في ملتهم وقد ذهب بعض علمـائنا إلى أنـه إذا خاف المسلمـون أن يظفـر الكفار عـلى شيء من الحيوانـات من أغنـام ونحـوهـا جـاز ذبْحهـا وإهلاكها لئلا يتقووا بها . وعليه حُمل صنيع جعفر بن أبي طالب يـوم عقَر فـرسه بمُؤتـة . وقد قيـل : إنها كـانت خيلاً عـظيمة . قيـل : كانت عشـرة آلاف فـرس . وقيـل : كانت عشـرين ألف فـرس . وقيل : كان فيها عشرون فرساً من ذوات الأجنحة(١) .

وقد روى أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنـا سعيد بن أبي مـريم ، أنبأنا يحيى ابن أيـوب ، حدثني عمـارة بن غزيَّـة ، أن محمد بن إبـراهيم حدثـه عن محمد بن أبي سلمـة بن عبـد الـرحمن ، عن عائشـة قالت : قـدِم رسول الله ﷺ من غـزوة تبـوك أو خيبـر وفي سهـوتهـا(٢) سـتر ، فهبت الـريح فكشفت نـاحية السـتر عن بنات لعـائشة لعب فقـال : ما هـذا يـا عـائشـة ؟ فقـالـت : بناتي . ورأى بينهن فرساً له جنـاحان من رقاع . فقـال : مـا هذا الـذي أرى وسطهن ؟ قـالـت : فرس . قال : وما الذي عليه هذا ؟ قالت : جناحـان . قـال : فـرس له جنـاحان ! قـالت : أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة . قالت : فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ .

قـال بعض العلماء لما تـرك الخيلَ لله عـوّضه الله عنها بما هـو خير لـه منهـا ، وهـو الـريـح التي كانت غدوّها شهر ورواحها شهر ، كما سيأتي الكلام عليها .

كما قال الإمـام أحمد : حـدثنا إسمـاعيل ، حـدثنا سليمـان بن المغيرة ، عن حميـد بن هلال ، عن أبي قتادة وأبي الدهماء ، وكانـا يكثران السفـرَ نحو البيت قـالا : أتينا عـلى رجل من أهـل الباديـة فقـال البدوي : أخـذ بيدي رسـول الله ﷺ فجعل يعلّمني ممـا علمه الله عـز وجل وقـال : « إنك لا تدع شيئاً إتقاء الله عز وجل إلا أعطـاك الله خيراً منه » .

***

(١) لو كانت كذلك لذكر في القرآن الكريم لكنه قال (الصافنات الجياد) وهذه صفات الجياد المعروفة .

(٢) السهوة : كوة غير نافذة .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ﴾ .

ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين ها هنا اثارا كثيرة عن جماعة من السلف . وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات ، وفي كثير منها نكارة شديدة ، وقد نبهنا على ذلك في كتابنا التفسير واقتصرنا ها هنا على مجرد التلاوة .

ومضمون ما ذكروه أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يوماً ثم عاد إليه ، ولما عاد أمرَ ببناء بيت المقدسِ ، فبناه بناء محكماً ، وقد قدمنا أنه جدده ، وأن أول من جعله مسجداً إسرائيل عليه السلام ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر : قلت : يا رسول الله أي مسجد وضِعَ أولَ ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال : مسجد بيت المقدس ،قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة .

ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود عليهما السلام أزيد من ألف سنة دع أربعين سنة ، وكان سؤاله الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده بعد إكماله البيت المقدس ؟ قال الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خُزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبدالله بن فيروز الديلمي ، عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خِلَالاً ثلاثاً ، فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سأله حُكْماً يصادِف حُكمه ، فأعطاه ربه ، وسأله مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أُمه . فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها .

فأما الحكم الذي يوافق حكم الله تعالى فقد أثنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في قوله : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرثِ إذ نفشت فيه غنمُ القومِ وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان ، وكلاً آتينا حُكماً وعلماً ﴾(١) .

وقد ذكر شريح القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم كَرْم فنفشت فيه غنم قوم آخرين ، أي رعته بالليل ، فأكلت شجره بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكَم لأصحاب الكرْم بقيمته . فلما خرجوا على سليمان قال : بم حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا : بكذا وكذا ، فقال : أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودرًا ، حتى يصلح أصحابُ الغنم كرْم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ، ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به .

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٧٨ ، ٧٩ .

وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينما امرأتان معهما ابناهما ، إذ عدا الذئب فأخذ ابنَ إحداهما ، فتنازعتا في الآخر ، فقالت الكبرى : إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى : بل إنما ذهب بابنك . فتحاكمتا إلى داود ، فحكم به للكبرى ، فخرجتا على سليمان فقال : أئتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه . فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها . فقضى به لها »[1] .

ولعل كلًّا من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ، ولكن ما قاله سليمان أرجح ، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ، ومدح بعد ذلك أباه فقال : **﴿ وكلًّا آتينا حُكماً وعلماً ، وسخَّرنا مع داود الجبال يسبِّحن والطيرَ ، وكنا فاعلين * وعلَّمناه صنعةَ لبوُس لكم لتُحْصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ﴾**[2] .

ثم قال : **﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾**[3] أي وسخَّرنا لسليمان الريح عاصفة **﴿ تجري بأمره الى الأرض التي بارَكْنا فيها ، وكنا بكل شيء عالمين * ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك ، وكنا لهم حافظين ﴾**[3] .

وقال في سورة ص : **﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيثُ أصاب * والشياطين كلَّ بنَّاءٍ وغوَّاص * وآخرين مقرَّنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنُن أو أمسك بغير حِساب * وإن له عندنا لزُلْفى وحُسْن مآب ﴾**[4] .

لمّا ترك الخيلَ ابتغاء وجه الله عوّضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها **﴿ تجري بأمره رخاءً حيث أصاب ﴾** ، أي حيث أراد من أي البلاد ، كان له بساط مركَّب من أخشاب ، بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات والطيور ، فإذا أراد سَفراً أو متنزَّهاً ، أو قتالَ ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقلَّ بين السماء والأرض أمر الرُّخاء فسارت به ،

---

(١) أي للصغرى لأنه شقَّ عليها ذلك لكونها أمه فعلاً .
(٢) سورة الأنبياء الآيتان ٧٩ ، ٨٠ .
(٣) سورة الأنبياء الآيتان ٨١ ، ٨٢ .
(٤) سورة ص الآيات ٣٦ ، ٤٠ .

فإن أراد أسرع من ذلك أمرَ العاصفة فحملته أسرعَ ما يكون ، فوضعته في أي مكان شاء ، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس ، فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرةَ شهر ، فيقيم هناك إلى آخر النهار ، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس .

كما قال تعالى : **﴿ولسليمان الريح غدوها شهرٌ ورواحها شهرٌ وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجواب وقدورٍ راسيات إعملوا آل داود شُكراً و قليلٌ من عبادي الشكور﴾**(1) .

قال الحسن البصري : كان يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدى بها ، ويذهب رائحاً منها ، فيبيت بكابل ، وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر ، وبين إصطخر وكابل مسيرة شهر .

قلت : قد ذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن آصطخر بنتها الجان لسليمان ، وكان فيها قرار مملكة الترك قديماً ، وكذلك غيرها من بلدان شتى ، كتدمر وبيت المقدس وباب جيْرون وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال(2) .

وأما القِطْر فقال ابن عباس ومجاهد وعكِرمة وقتادة وغير واحد : هو النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن أنبعها الله له . قال السُّدي : ثلاثةَ أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها .

وقوله : **﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾** أي وسخر الله له من الجن عمالاً يعملون له ما يشاء ، لا يَفْترون ولا يخرجون عن طاعته ، ومن خرج منهم عن الأمر عذَّبه ونكَّل به **﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ﴾**، وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس **﴿ وتماثيل ﴾** وهي الصور في الجدران ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم **﴿ وجفانٍ كالجواب ﴾** قال ابن عباس : الجفنة كالجوبة من الأرض . وعنه كالحياض . وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحَّاك وغيرهم . وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يُجبى فيه الماء ، قال الأعشى :

تَرُوح على آل المحلق جَفْنة   كجابية الشيخ العراقي تَفْهَقُ

---

(1) سورة سبأ الآيتان ١٢ ، ١٣ .

(2) من روايات أحبار اليهود .

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة : أثافيها منها ، يعني أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن ، وهكذا قال مجاهد وغير واحد .

ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وحيوان قال تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شُكراً وقليلٌ من عبادي الشكور ﴾

وقال تعالى : ﴿ والشياطين كلَّ بنَّاءٍ وغوّاص * وآخرين مُقَّرنين في الأصفاد ﴾ يعني أن منهم من قد سخره في البناء ومنهم من يأمره بالغوص في الماء لاستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلىء وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك . وقوله : ﴿ وآخرين مقرَّنين في الأصفاد ﴾ أي قد عَصوا فقيدوا مقرَّنين اثنين اثنين في الأصفاد وهي القيود ، وهذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التي هي من تمام الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ، ولم يكن أيضاً لمن كان قبله .

وقد قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إن عفريتاً من الجن تفلَّت عليَّ البارحةَ ليقطع عليَّ صلاتي ، فأمكنني الله منه ، فأخذته فأردتُ أن أربطه إلى سارية من سَواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخي سليمان : ﴿ رب آغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ فرددته خاسئاً .

وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة .

وقال مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المراديّ ، حدثنا عبد الله ابن وهب عن معاوية بن صالح ، حدثني ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخَوْلاني عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول : أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثاً ، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله . . . قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطتَ يدك ، قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات . ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة . فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوةُ أخينا سليمان لأصبح مُوثَقاً يلعب به ولدان أهل المدينة » . وكذا رواه النسائي عن محمد بن سلمة به .

وقال أحمد : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا مرة بن معبد ، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان ، قال : رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائماً يصلي ، فذهبت أمرّ بين يديه فردَّني ثم قال : حدثني أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام فصلى صلاةَ الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة . فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس فأهويتُ بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت بَرْد لعابه بين إصبعي هاتين الإبهام والتي تليها ، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من

سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن أستطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحدٌ فليفعل » .

روى أبو داود منه « فمن استطاع » إلى آخره عن أحمد بن سريج عن أحمد الزبيري به .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة سبعمائة بمهور وثلاثمائة سراري . وقيل : بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الإماء ،وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمراً عظيماً جداً .

قال البخاري : حدثنا خالد بن مُخْلد ، حدثنا مغيرة بن عبد الرحمن عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : قال سليمان بن داود : لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبه : إن شاء الله . فلم يقل ، فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه . فقال النبي ﷺ : « لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » . وقال شعيب وابن أبي الزناد : تسعين وهو أصح . تفرد به البخاري من هذا الوجه .

وقال أبو يعلى : حدثنا زهير ، حدثنا يزيد ، أنبأنا هشام بن حسان عن محمد ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : قال سليمان بن داود : لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة كل امرأة منهن تلد غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف تلك الليلة على مائة امرأة فلم تلد منهن امرأة ، إلا امرأة ولدت نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ : « لو قال : إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله عز وجل » .

إسناده على شرط الصحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هَشَيم ، حدثنا هشام ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة ، قال : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله ، ولم يستثن . فما ولدت إلا واحدة منهن بشقّ إنسان . قال : قال رسول الله ﷺ : « لو استثني لولد له مائةُ غلام كلهم يقاتل في سبيل الله عز وجل » . تفرد به أحمد أيضاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مَعْمَر عن ابن طاووس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة ، بمائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يُقاتل في سبيل الله قال : نسي أن يقول : إن شاء الله ، فأطاف بهن قال : فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان . فقال رسول الله ﷺ : « لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته » .

وهكذا أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به مثله .

قال إسحاق بن بشر : أنبأنا مقاتل ، عن أبي الزناد ، وابن أبي الزناد عن أبيه ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأة وستمائة سُرِّية فقال يوماً : لأطوفن الليلة على ألف امرأة ، فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله . ولم يستثن فطاف عليهن ، فلم تحمل واحدة منهن ، إلا امرأةواحدة منهن جاءت بشق إنسان[1] . فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لو استثنى فقال إن شاء الله لولد له ما قال فرسان ، ولجاهدوا في سبيل الله عز وجل » .

وهذا إسناد ضعيف لحال إسحاق بن بشر ، فإنه منكَر الحديث ولا سيما وقد خالف الروايات الصحاح .

وقد كان له عليه السلام من أُمور الملك واتساع الدولة كثرة الجنود وتنوّعها ما لم يكن لأحد قبله ، ولا يعطيه الله أحداً بعده ، كما قال : ﴿ وأُوتينا من كل شيء ﴾ ﴿ قال رب اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، إنك أنت الوهاب ﴾ وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق .

ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال : ﴿ هذا عطاؤنا فأمنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أي أعط من شئت وأحرم من شئت ، فلا حساب عليك ، أي : تصرَّف في المال كيف شئت ، فإن الله قد سوَّغ لك ما تفعله من ذلك ، ولا يحاسبك على ذلك ، وهذا شأن النبي الملِك ، بخلاف العبد الرسول ، فإن من شأنه أن لا يُعطي أحداً إلا بإذن الله له في ذلك .

وقد خُيِّر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين هذين المقامين ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً . وفي بعض الروايات أنه استشار جبريل في ذلك فأشار إليه أن تواضَعْ . فاختار أن يكون عبداً رسولاً ، صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده في أُمته إلى يوم القيامة ، فلا تزال طائفة من أُمته ظاهرين حتى تقوم الساعة . فلله الحمد والمنة .

ولما ذكر تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا ، نبَّه على ما أعدَّه له في الآخرة من الثواب الجزيل والأجر الجميل والقُربة التي تقربه إليه والفوز العظيم والإكرام بين يديه ، وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول تعالى : ﴿ وإنَّ له عندنا لزلفى وحسنَ مآب ﴾ .

* * *

---

(١) هذا من الأحاديث التي تنكر عقلاً وقياساً إضافة لضعف راويه .

ذكر وفاته وكم مدة ملكه وحياته

قـال الله تبارك وتعـالى : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلَّهم على موته إلا دابةُ الأرض تأكل مِنْسأته ، فلما خرَّ تبينت الجنُّ أنْ لو كانوا يَعلمون الغيب ما لَبثوا في العذاب المهين ﴾(١)

روى ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من حديث إبراهيم بن طَهْمان عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : كان سليمان نبي الله عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأي شيء أنت ؟ فإن كانت لغرس غُرست ، وإن كانت لدواء أنبتت . فبينما هو يُصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأي شيء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم عَمِّ على الجن موتي ، حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيبَ ، فنحتها عصا فتوكأ عليها حولاً ، والجن تعمل ، فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حَوْلاً في العذاب المهين . قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك . فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء .

لفظ ابن جرير . وعطاء الخراساني في حديثه نكارة .

وقد رواه الحافظ ابن عساكر من طريق سلمة بن كُهيل ، عن سعيد بن جُبَيرَ ، عن ابن عباس موقوفاً . وهو أشبه بالصواب والله أعلم .

وقال السُّدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن أناس من الصحابة : كان سليمان عليه السلام ، يتجرد في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر يدخل طعامه وشرابه فأدخله في المرة التي توفي فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت المقدس شجرة يأتيها فيسألها ما اسمك ؟ فتقول الشجرة : اسمي كذا وكذا . فإن كانت لغرس غرسها وإن كانت نبتت دواء قالت : نَبَتّ دواء لكذا وكذا . فيجعلها كذلك حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة(٢) فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . فقال : ولأي شيء نبتِّ ؟ فقالت : نبتُّ لخراب هذا المسجد ، فقال سليمان : ما كان الله ليخربه وأنا حي ، أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس ، فنزعها وغرسها في حائط له ، ثم دخل المحراب فقام يصلي متكئاً على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين . وهم في ذلك يعملون له

(١) سورة سبأ الآية ١٤ .

(٢) قد تكون هي الخروب المعروف كما جاء في بعض النسخ .

يخافون أن يخرج فيعاقبهم ، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كوىً بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول : ألست جليداً إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب . فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر . فدخل شيطان من أُولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان عليه السلام وهو في المحراب إلا احترق ، فلم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً ، فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ، ففتحوا عنه فأخرجوه ووجدوا مِنْسأته وهي العصا بلسان الحبشة ، قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ، ثم حسَبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة ، وهي قراءة ابن مسعود : فمكثوا يَدْأبون له من بعد موته حولاً كاملاً فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يَكذِبون ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون له ذلك ، وذلك قول الله عز وجل : ﴿ما دلهم على موته إلا دابةُ الأرض تأكل مِنْسأته فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ يقول : تبيّن أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين . قال : فإنهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت . قال : ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الخشب فهو ما يأتيها به الشيطان تشكراً لها(١) .

وهذا فيه من الإسرائيليات التي لا تُصدق ولا تُكذب .

وقال أبو داود في كتاب القَدر : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا قَبيصة ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن خيثمة ، قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت: إذا أردتَ أن تقبض روحي فأعلمني . قال : ما أنا أعلم بذاك منك إنما هي كتب يُلقى إليَّ فيها تسمية من يموت .

وقال أصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال سليمان لملك الموت : إذا أُمرت بي فأعلمني ، فأتاه فقال : يا سليمان قد أُمرت بك قد بقيت لك سُوَيعة ، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير ليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال : فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكىء على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي . قال : فبعث الله دابة الأرض يعني إلى مِنسأته فأكلتها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخرَّ ، فلما رأت

---

(١) ما يوجد في جوف الخشب ، ليس طيناً إنما هو لباب الخشب وقد أكلته الأرضة ، أما هذه الرواية فهي من وضع أحبار اليهود .

الجن ذلك انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ **ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنْسأته فلما خرَّتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾ .

قال أصبغ : وبلغني عن غيره أنها مكثت سنة تأكل من مِنسأته حتى خرَّ . وقد رُوي نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم . . والله تعالى أعلم .

قال إسحاق بن بشر عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري وغيره أن سليمان عليه السلام عاش اثنتين وخمسين سنة ، وكان ملكه أربعين سنة . وقال إسحاق : أنبأنا أبو روق ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة . والله أعلم . وقال ابن جرير : فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفاً وخمسين سنة .

وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير وقال : ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل .

باب ذكر جماعة من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ممن لا يُعلم وقت زمانهم على التعيين إلا أنهم بعد داود وسليمان وقبل زكريا ويحيى عليهم السلام

فمنهم شعْيا[1] بن أمْصِيَا . قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام . وكان في زمانه ملك اسمه حِز قيا على بني إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعاً مطيعاً لشَعْيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل ، فمرض الملك وخرجت في رجله قرحة ، وقصد بيت المقدس ملكُ بابل في ذلك الزمان وهو سنحاريب . قال ابن إسحاق : في ستمائة ألف راية .

وفزع الناس فزعاً عظيماً شديداً . وقال الملك للنبي شعيا : ماذا أوحى الله إليك في أمر سنحاريب وجنوده ؟ فقال : لم يوحَ إليَّ فيهم شيء بعد . ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك حزقيا بأن يوصي ويستخلف على ملكه من يشاء ، فإنه قد اقترب أجله . فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القِبلة فصلى وسبَّح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكي ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر : اللهم ربّ الأرباب وإله الآلهة يا رحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سِنة ولا نوم اذكرني بعملي وفعلي وحُسن قضائي على بني إسرائيل وذلك كله كان منك ، فأنت أعلم به من نفسي ، سري وإعلاني لك .

قال : فاستجاب الله له ورحمه ، وأوحى الله إلى شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه ، وقد أخَّر في أجله خمس عشرة سنة ، وأنجاه من عدوه سنحاريب . فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجداً وقال في سجوده : اللهم أنت الذي تُعطي الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتُعز من تشاء وتُذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، فأنت الأول والأخر ، والظاهر والباطن ، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين .

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شَعْيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيَجعله على قرحته فيشفي ويصبح قد برىء . ففعل ذلك فشفي .

---

(١) في الأسفار : أشعياء .

وأرسل الله على جيش سنحاريب الموتَ ، فأصبحوا وقد أهلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه ، منهم بختنصرً ، فأرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم ، فجعلهم في الأغلال ، وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم ، والإهانة لهم ، سبعين يوماً ، ويُطعم كل واحد منهم كل يوم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن ، وأوحى الله تعالى إلى شعيا : أن يأمر الملكَ بإرسالهم إلى بلادهم ، لينذروا قومَهم ما قد حلَّ بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبرهم بما قد كان من أمرهم فقال له السحرة والكهنة : إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أُمة لا يستطيعها أحد من ربهم ، فكان أمر سنحاريب مما خوَّفهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين .

قال ابن إسحاق : ثم لما مات حزقيا ملك بني إسرائيل مَرج أمْرهم ، وأختلطت أحداثهم ، وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى شعيا ، فقام فيهم ، فوعظهم وذكّرَهم ، وأخبرهم عن الله بما هو أهله ، وأنذرهم بأسَه وعقابه إن خالفوه وكذَّبوه . فلما فرغ من مقالته عدوا عليه ، وطلبوه ليقتلوه ، فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له ، فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلما رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها[1] فإنا لله وإنا إليه راجعون .

---

(١) نفس القصة (قصة الشجرة) رويت عن زكريا عليه السلام فالله أعلم .

ومنهم أرميا بن حلقيا من سبط لاوي بن يعقوب

وقد قيل : إنه الخضر . رواه الضحاك عن ابن عباس . وهو غريب وليس بصحيح .

قال ابن عساكر : جاء في بعض الآثار أنه وقف على دم يحيى بن زكريا وهو يفور بدمشق فقال : أيها الدم فَتنت الناس فاسكن . فسكن ورسب حتى غاب .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثني علي بن أبي مريم ، عن أحمد بن حباب ، عن عبدالله ابن عبد الرحمن قال : قال أرْميا : أي رب . . . أيُّ عبادك أحب إليك ؟ قال : أكثرهم لي ذكراً ، الذين يشتغلون بذكري عن ذكر الخلائق ، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء ، الذين إذا عُرض لهم عيشُ الدنيا قلَوْه[1] وإذا زُوي[2] عنهم سُرُّوا بذلك ، أُولئك أنحلهم محبتي وأعطيهم فوق غاياتهم .

(١) تناسوه ونفروا منه .

(٢) ابتعد عنهم .

ذكر خراب بيت المقدس

وقوله تعالى :

﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هُدىً لبني إسرائيل ألّا تتخذوا من دوني وكيلاً * ذرية من حملنا مع نوحٍ إنه كان عبداً شكوراً * وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلُنَّ علواً كبيراً * فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أُولي بأس شديدٍ فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموالٍ وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً * إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرةٍ وليتبروا ما علَواتتبيراً * عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾[1] .

وقال وهب بن منبه[2] : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يُقال له أرميا حين ظهرت فيهم المعاصي : أن قم بين ظهراني قومك فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون ، وأعيناً ولا يبصرون ، وآذاناً ولا يسمعون ، وإني تذكرت صلاحَ آبائهم ، فعطفني ذلك على أبنائهم ، فسَلْهم كيف وجدوا غِبَّ طاعتي ، وهل سَعِدَ أحدٌ ممن عصاني بمعصيتي ، وهل شقي أحد ممن أطاعني بطاعتي ؟ إن الدواب تذكر أوطانها فتنزع إليها وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمتُ عليه آباءهم ، والتمسوا الكرامةَ من غير وجهها ، أما أحبارهم فأنكروا حقي ، وأما قراؤهم فعَبدوا غيري ، وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما عَلموا ، وأما ولاتهم فكذّبوا عليَّ وعلى رسلي ، خزنوا المكْر في قلوبهم وعوّدوا الكذبَ ألسنتهم وإني أُقسم بجلالي وعزتي لأهيجن عليهم جيولاً[3] لا يفقهون ألسنتهم ولا يعرفون وجوههم ولا يرحمون بكاءهم ، ولأبعثن فيهم ملِكاً جباراً قاسياً له عساكر كقطع السحاب ، ومواكب كأمثال الفجَاج ، كأن خفقان راياته طيران النسور ، وكأن حَمْلَ فرسانه كَرُّ العقبان ، يعيدون العمران خَراباً ، ويتركون القرى وحشة ، فيا ويل إيليا[4] وسكانها ، كيف أذللهم للقتل ، وأُسلط عليهم السبا ، وأُعيد بعدَ لجب الأعراس صراخاً وبعد صهيل الخيل عواء

(١) سورة الاسراء الآيات ٢ ـ ٨ .

(٢) كل هذا من هنا وإلى صفحات عديدة سنشير في نهايتها مأخوذ بتحريف في الترجمة بسيط من سفر أرميا من أسفار العهد القديم . وهي أسفار اليهود .

(٣) قد تكون أجيالاً أو جيوشاً .

(٤) هي القدس .

الذئاب ، وبعد شُرفات القصور مساكن السباع ، وبعدَ ضوءالسرج وهجَ العَجَاج ، وبالعز الذل وبالنعمة العبودية ، وأبدِّلن نساءهم بعد الطيب التراب وبالمشي على الزَّرابي الخَبَب ، ولأجعلن أجسادهم زبلاً للأرض ، وعظامهن ضاحية للشمس ، ولأدوسنهم بألوان العذاب ، ثم لآمرن السماء فتكون طبقاً من حديد ، والأرض سبيكة من نحاس ، فإن أمطرت لم تنبت الأرض ، وإن أنبتت شيئاً في خلال ذلك فبرحمتي للبهائم ، ثم أحبسه في زمان الزرع ، وأرسله في زمان الحصاد ، فإن زرعوا في خلال ذلك شيئاً سلطتُ عليه الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة ، فإن دعوني لم أجبهم ، وإن سألوا لم أعطهم ، وإن بكوا لم أرحمهم ، وإن تضَّرعوا صرفت وجهي عنهم (١) .

رواه ابن عساكر بهذا اللفظ .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا إدريس ، عن وهب بن منبه ، قال : إن الله تعالى لما بعث أرميا إلى بني إسرائيل وذلك حين عظُمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصي ، وقتلوا الأنبياء ، طمع بختنصرَّ فيهم ، وقذف الله في قلبه ، وحدَّث نفسه بالمسير إليهم ، لما أراد الله أن ينتقم به منهم ، فأوحى الله إلى أرميا : إني مهلك بني اسرائيل ، ومنتقم منهم ، فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي . فقام أرميا فشق ثيابه وجعل الرماد على رأسه وخر ساجداً وقال : يا رب . . وددت أن أمي لم تلدني حين جعلتني آخر أنبياء بني إسرائيل فيكون خراب بيت المقدس وبوار بني إسرائيل من أجلي . فقال له : إرفع رأسك . فرفع رأسه فبكى ، قال : يا رب من تُسلط عليهم ؟ فقال : عبدة النيران ، لا يخافون عقابي ، ولا يرجون ثوابي ، قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل : من قبل أن أخلقك اخترتك ، ومن قبل أن أُصورك في رحم أُمك قدستك ، ومن قبل أن أُخرجك من بطن أُمك طهرتك ، ومن قبل أن تبلغ نبَّأتك ، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك ، ولأمر عظيم اجتبيتك ، فقم مع الملك تسدده وترشده ، فكان مع الملك يسدده ، ويأتيه الوحي من الله حتى عظمت الأحداث ، ونسوا ما نجاهم الله به من عدوهم سنحاريب وجنوده ، فأوحى الله إلى أرميا : قم فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتي عليهم وعرفهم أحداثهم . فقال أرميا : يا رب . . إني ضعيف إن لم تقوني ، عاجز إن لم تبلغني ، مخطىء إن لم تسددني ، مخذول إن لم تنصرني ، ذليل إن لم تعزني . فقال الله تعالى : أو لم تعلم أن الأُمور كلها تصدر عن مشيئتي وأن الخلق والأمر كله لي ، وأن القلوب والألسنة كلها بيدي ، فأُقلبها كيف شئت فتطيعني ، فأنا الله الذي ليس شيء مثلي ، قامت السماوات والأرض وما فيهن بكلمتي ، وإنه لا يخلص التوحيد ولم تتم القدرة إلا لي ، ولا يعلم ما عندي غيري ، وأنا الذي كلمت البحار ففهمت قولي ، وأمرتها ففعلت أمري ، وحددت عليها حدوداً فلا تعدو حدي ، وتأتي بأمواج

(١) هذا الكلام من الأسفار مع تحريف بسيط .

كالجبال فإذا بلغت حدي ألبستها مذلةً لطاعتي ، وخوفاً وإعترافاً لأمري ، وإني معك ، ولن يصل إليك شيء معي ، وإني بعثتك إلى خلق عظيم من خلقي ، لتبلغهم رسالاتي ، فتستوجب لذلك أجر من اتبعك ، ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . انطلق إلى قومك فقم فيهم وقل لهم : إن الله قد ذكركم بصلاح آبائكم ، فلذلك استبقاكم ، يا معشر أبناء الأنبياء ، وكيف وجد آباؤكم مغبَّة طاعتي ، وكيف وجدتم مغبة معصيتي ، وهل وجدوا أحداً عصاني فسعد بمعصيتي ، وهل علموا أحداً أطاعني فشقي بطاعتي ؟ إن الدواب إذا ذكرت أوطانها الصالحة نزعت إليها ، وإن هؤلاء القوم رتعوا في مروج الهلكة ، وتركوا الأمر الذي أكرمت به آباءكم وابتغوا الكرامة من غير وجهها .

فأما أحبارهم ورهبانهم فاتخذوا عبادي خولاً يتعبدونهم ويعملون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري وأنسوهم ذكري وسنتي وغروهم عني فدانَ لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي ، فهم يطيعونهم في معصيتي .

وأما ملوكهم وأمراؤهم فبطروا نعمتي وأمنوا مكري ، وغرتهم الدنيا ، حتى نبذوا كتابي ، ونسوا عهدي ، فهم يحرفون كتابي ، ويفترون على رسلي ، جرأة منهم عليَّ ، وغرةً بي ، فسبحان جلالي ، وعلو مكاني ، وعظمة شأني ، هل ينبغي أن يكون لي شريك في ملكي ؟ وهل ينبغي لبشر أن يُطاع في معصيتي ؟ وهل ينبغي لي أن أخلق عباداً أجعلهم أرباباً من دوني أو آذن لأحد بالطاعة لأحد وهي لا تنبغي إلا لي ؟! .

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيدرسون ما يتخيرون ، وينقادون للملوك فيتابعونهم على البدع التي يبتدعون في ديني ، ويطيعونهم في معصيتي ، ويوفون لهم بالعهود الناقضة لعهدي ، فهم جهلة بما يعلمون ، لا ينتفعون بشيء مما علموا من كتابي .

وأما أولاد النبيين فمقهورون ومفتونون ، يخوضون مع الخائضين ، يتمنون مثل نصري آباءهم ، والكرامة التي أكرمتهم بها ، ويزعمون أنه لا أحد أولى بذلك منهم ، بغير صدق منهم ولا تفكر ، ولا يذكرون كيف كان صبْر آبائهم ، وكيف كان جهدهم في أمري ، حين اغتر المغترون ، وكيف بذلوا أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا ، حتى عز أمري ، وظهر ديني ، فتأنيت هؤلاء القوم لعلهم يستحيون مني ويرجعون ، فتطولت عليهم ، وصفحت عنهم فأكثرت ، ومددت لهم في العمر وأعذرت لهم لعلهم يتذكرون . وكل ذلك أُمطر عليهم السماء ، وأنبت لهم الأرض ، وألبسهم العافية ، وأظهرهم على العدو ، ولا يزدادون إلا طغياناً وبعداً مني فحتى متى هذا ؟ أبي يسخرون ، أم بي يتحرشون ، أم إياي يخادعون ، أم عليَّ يجترئون ؟ فإني أقسم بعزتي لأتيحن

عليهم فتنة يتحير فيها الحكيم[1] ، ويضل فيها رأي ذوي الرأي وحكمة الحليم[2] ، ثم لأُسلطن عليهم جباراً قاسياً عاتياً ألبسه الهيبة وأنزع من قلبه الرأفة والرحمة وآليت أن يتبعه عدد وسواد مثل الليل المظلم ، له فيه عساكر مثل قطع السحاب ومواكب مثل العجاج ، وكأن خفيق راياته[3] طيران النسور وحمل فرسانه كسرب العقبان ، يعيدون العمران خراباً والقرى وحشاً ويعيثون في الأرض فساداً ، ويتبِّرون ما علوّا تتبيراً ، قاسية قلوبهم لا يكترثون ولا يرقبون ولا يرحمون ولا يبصرون ولا يسمعون ، يجولون في الأسواق بأصوات مرتفعة مثل زئير الأسد تقشعر من هيبتها الجلود ، وتطيش من سمعها الأحلام بألسنة لا يفقهونها ووجوه ظاهر عليها المنكر لا يعرفونها . فوعزتي لأعطلن بيوتهم من كتبي وقدسي ولأخلين مجالسهم من حديثها ودروسها ، ولأوحشن مساجدهم من عمارها وزوارها الذين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري ويتهجدون فيها ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير الدين ويتعلمون فيها لغير العمل ، لأُبدلن ملوكها بالعز الذل وبالأمن الخوف وبالغنى الفقر ، وبالنعمة الجوع ، وبطول العافية والرخاء ألوان البلاء ، وبلباس الديباج والحرير مدارع الوبر والعباء ، وبالأرواح الطيبة والأدهان جيف القتلى ، وبلباس التيجان أطواق الحديد والسلاسل والأغلال ، ثم لأُعيدن فيهم بعد القصور الواسعة والحصون الحصينة الخراب[4] ، وبعد البروج المشيدة مساكن السباع ، وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب ، وبعد ضوء السراج دخان الحريق ، وبعد الأنس الوحشة والقفار . ثم لأبدلن نساءها بالأسورة الأغلال وبقلائد الدر والياقوت سلاسل الحديد ، وبألوان الطيب والأدهان النَّقْع والغبار ، وبالمشي على الزرابي عبور الأسواق والأنهار والخبب إلى الليل في بطون الأسواق وبالخدور والستور والحسور عن الوجوه والسوق والأسفار والأرواح السموم[5]. ثم لأدوسنهم بأنواع العذاب حتى لو كان الكائن منهم في حالق لوصل ذلك إليه ، إني إنما أكرم من أكرمني ، وإنما أُهين من هان عليه أمري . ثم لآمرن السماء خلال ذلك فلتكونن عليهم طبقاً من حديد ولآمرن الأرض فلتكونن سبيكة من نحاس فلا سماء تمطر ولا أرض تنبت . فإن أمطرت خلال ذلك شيئاً سلطت عليهم الآفة ، فإن خلص منه شيء نزعت منه البركة وإن دعوني لم أجبهم ، وإن سألوني لم أعطهم وإن بكوا لم أرحمهم وإن تضرعوا إليَّ صرفت وجهي عنهم ، وإن قالوا : اللهم أنت الذي ابتدأتنا وآباءنا من قبلنا وبرحمتك وكرامتك ، وذلك بأنك اخترتنا لنفسك وجعلت فينا نبوتك وكتابك ومساجدك ، ثم

---

(١) وروي : الحليم .

(٢) وروي : الحكيم .

(٣) وروي : خفق راياته .

(٤) وروي: خرابا .

(٥) وروي : وريح السموم .

مكنت لنا في البلاد واستخلفتنا فيها وربيتنا وآباءنا من قبلنا بنعمتك صغاراً وحفظتنا وإياهم برحمتك كباراً فأنت أوفى المنعمين وإن غيرنا ، ولا تبدل وإن بدَّلنا ، وأن تتم فضلك ومنَّك وطولك وإحسانك . فإن قالوا ذلك قلت لهم إني أبتدىء عبادي برحمتي ونعمتي ، فإن قبلوا أتممت وإن استزادوا زدت وإن شكروا ضاعفت وإن غيروا غيرت ، وإذا غيروا غضبت ، وإذا غضبت عذَّبت وليس يقوم شيء بغضبي .

قال كعب : فقال أرميا : بوجهك أصبحت أتعلم بين يديك وهل ينبغي ذلك لي وأنا أذل وأضعف من أن ينبغي لي أن أتكلم بين يديك ، ولكن برحمتك أبقيتني لهذا اليوم وليس أحد أحق أن يخاف هذا العذاب وهذا الوعيد مني بما رضيت به مني طولاً والإقامة في دار الخاطئين ، وهم يعصونك حولي بغير نكر ولا تغيير مني ، فإن تعذبني فبذنبي وإن ترحمني فذلك ظني بك .

ثم قال : يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت ، أتهلك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك ؟ يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت ربنا وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رفعت لذكرك ، يا رب سبحانك وبحمدك وتباركت وتعاليت لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك وأمة موسى نجيك وقوم داود صفيك ، يا رب أيّ القرى تأمن عقوبتك بعدُ ، وأي العباد يأمنون سطوتك بعد ولد خليلك إبراهيم وأمة نجيك موسى وقوم خليفتك داود تسلط عليهم عبدة النيران . قال الله تعالىٰ : يا أرميا . . من عصاني فلا يستنكر نقمتي ، فإني إنما أكرمت هؤلاء القوم على طاعتي ، ولو أنهم عصوني لأنزلتهم دار العاصين ، إلا أن أتداركهم برحمتي .

قال أرميا : يا رب إتخذت إبراهيم خليلاً وحفظتنا به ، وموسى قربْته نجياً فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تُسلط علينا عدونا . فأوحى الله إليه : يا أرميا إني قدستك في بطن أُمك وأخرتك إلى هذا اليوم ، فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم وكانوا عندي بمنزلة جنة ناعم شجرها طاهر ماؤها ولا يغور ماؤها ولا تبور ثمارها ولا تنقطع ، ولكن سأشكو إليك بني إسرائيل : إني كنت لهم بمنزلة الراعي الشفيق أجنِّبهم كل قحط وكل عسرة وأتبع بهم الخصب حتى صاروا كباشاً ينطح بعضها بعضاً ، فيا ويلهم ثم يا ويلهم ، إنما أكرم من أكرمني وأهين من هان عليه أمري . إن من كان قبل هؤلاء القوم من القرون يستخفون بمعصيتي ، وإن هؤلاء القوم يتبرعون بمعصيتي تبرعاً فيظهرونها في المساجد والأسواق وعلى رؤوس الجبال وظلال الأشجار حتى عجَّت السماء إليَّ منهم ، وعجَّت الأرض والجبال ونفرت منها الوحوش بأطراف الأرض وأقاصيها ، وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب .

قال : فلما بلغهم أرميا رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه وأتهموه وقالوا : كذبت وأعظمت على الله الفرية ، فتزعم أن الله معطل أرضه ومساجده من كتابه

وعباده وتوحيده ؟ فمن يعبده حين لا يبقى له في الأرض عابد ولا مسجد ولا كتاب ؟! لقد أعظمت الفرية على الله واعتراك الجنون . فأخذوه وقيدوه وسجنوه ، فعند ذلك بعث الله عليهم بختنصر فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم فكان كما قال تعالى : ﴿ **فجاسوا خلال الديار** ﴾ قال : فلما طال بهم الحصار نزلوا على حكمه ففتحوا الأبواب وتخللوا الأزقة وذلك قوله : ﴿ **فجاسوا خلال الديار** ﴾ وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين ، فقتل منهم الثلث وسبى الثلث وترك الزمنى والشيوخ والعجائز ، ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس وساق الصبيان وأوقف النساء في الأسواق حاسرات ، وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة ، وسأل عن دانيال الذي كان قد كتب له الكتاب فوجدوه قد مات ، وأخرج أهل بيته الكتاب إليه وكان فيهم دانيال بن حزقيل الأصغر وميشائيل وعزرائيل وميخائيل . فأمضى لهم ذلك الكتاب . وكان دانيال بن حزقيل خلفاً من دانيال الأكبر ودخل بختنصر بجنوده بيت المقدس ووطىء الشام كلها وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم ، فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها وساق السبايا فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألف غلام ، وقذف الكناسات في بيت المقدس وذبح فيه الخنازير ، وكان الغلمان سبعة آلاف غلام من بيت داود وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط ايشي بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون ونفتالي ابني يعقوب ، وأربعة عشر ألفاً من سبط دان ابن يعقوب ، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب ، وألفين من سبط زيكون بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي ، واثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل . وانطلق حتى قدم أرض بابل .

قال إسحاق بن بشر : قال وهب بن منبه : فلما فعل ما فعل قيل له : كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم ويخبرهم إنك تقتل مقاتلتهم ، وتسبي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم ، فكذَّبوه واتهموه وضربوه وقيدوه وحبسوه . فأمر بختنصر فأخرج أرميا من السجن فقال له : أكنت تحذر هؤلاء القوم ما أصابهم ؟ قال : نعم ، قال : فأنى علمت ذلك ؟ قال : أرسلني الله إليهم فكذبوني ، قال : كذبوك وضربوك وسجنوك ؟ قال : نعم ، قال : بئس القوم كذَّبوا نبيهم وكذَّبوا رسالة ربهم ، فهل لك أن تلحق بي فأُكرمك وأُواسيك وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمنتك . فقال له أرميا : إني لم أزل في أمان الله منذ كنت لم أخرج منه ساعة قط ، ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولا غيرك ولم يكن لك عليهم سلطان . فلما سمع بختنصر هذا القول منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض إيليا(١) .

وهذا سياق غريب ، وفيه حكم ومواعظ وأشياء مليحة ، وفيه من جهة التعريب غرابة .

---

(١) من الملاحظة (٢) في بداية هذا الفصل الى هنا من سفر إرميا .

وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كـان بختنصر أصفهبذاً[1] لما بين الأهـواز إلى الروم للملك على الفرس وهـو لهراسب ، وكـان قد بنى مـدينة بلَخ التي تُلقب بـالخنساء ، وقـاتـل التـرك وألجأهم إلى أضيق الأماكن وبعث بختنصر لقتال بني إسرائيـل بالشـام ، فلما قدِم الشـام صالحـه أهلُ دمشق ، وقـد قيل إن الـذي بعث بختنصر إنما هـو بهمن ملك الفرس بعـد بشتـاسب بن لهـراسب ، وذلك لتعدي بني إسرائيل على رسله إليهم[2] .

وقـد روى ابن جريـر عن يونس بن عبـد الأعـلى ، عن ابن وهب ، عن سليمـان بن بـلال ، عن يحيى بن سعيـد الأنصاري ، عن سعيـد بن المسِّيب ، أن بختنصر لما قـدِم دمشق وجـد بهـا دمـاً يغلي على كَباً يعني القمامـة ، فسألهم : مـا هذا الـدم ؟ فقالـوا : أدركنا آبـاءنا عـلى هذا وكلما ظهـر عليه الكبا ظهر ، قال : فقتل على ذلك سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم فسكن[3] .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيِّب ، وقد تقدم من كـلام الحافظ ابن عسـاكر ، مـا يدل على أن هذا دم يحيى بن زكـريا ، وهـذا لا يصح لأن يحيى بن زكريا بعـد بختنصر بمدة ، والـظاهر أن هذا دم نبي متقدم أو دم لبعض الصالحين أو لمن شاء الله ممن الله أعلم به .

قال هشام بن الكلبي : قـدم بختنصر بيت المقدس فصـالحه ملكهـا وكان من آل داود وصـانعه عن بني إسـرائيل ، وأخـذ منه بختنصر رهـائن ورجع ، فلما بلغ طبـرية بلغـه أن بني إسرائيـل ثـاروا على ملكهم فقتلوه لأجل أنه صالحه ، فضرب رقاب من معه من الـرهائن ورجـع إليهم فأخـذ المدينـة عنوة ، وقتل المقاتلة وسبى الذرية .

قـال : وبلغنا أنـه وجد في السجن أرميـا النبي فأخـرجه وقص عليـه مـا كـان من أمـره إيـاهم وتحـذيره لهم عن ذلـك فكذبـوه وسجنوه ، فقـال بختنصر : بئس القوم قـومٌ عصّوا رسـولَ الله وخلى سبيله وأحسن إليـه وأجتمع إليـه من بقي من ضعفاء بني إسـرائيل فقـالـوا : إنـا قـد أسـأنـا وظلمنـا ونحن نتوب إلى الله عز جـل مما صنعنـا ، فادع الله أن يقبـل توبتنـا ، فدعـا ربه فـأوحى الله إليه أنـه غـير فاعـل ، فإن كـانوا صـادقين فليقيمـوا معك بهـذه البلدة . فـأخبـرهـم مـا أمـره الله تعـالى بـه ، فقالوا : كيف نقيم بهذه البلدة وقد خربت وقد غضب الله على أهلها ! فأبَوا أن يقيموا .

قال ابن الكلبي : ومن ذلك الزمان تفرقت بنو إسـرائيل في البـلاد فنزلت طـائفة منهم الحجـاز وطـائفة يثـرب وطـائفـة وادي القـرى ، وذهبت شـرذمـة منهم إلى مصر ، فكتب بختنصر إلى ملكهـا

---

(١) كان ملكاً للكلدانيين أما هذه التسمية فربما فارسية .

(٢) هذا غير صحيح تاريخياً بل هو من وضع يهود فارس .

(٣) هذا من الغريب المنكر .

يطلب منه من شرد منهم إليه فأبى عليه ، فركب في جيشه فقاتله وقهره وغلبه وسبىَ ذراريهم ثم ركب إلى بلاد المغرب حتى بلغ أقصى تلك الناحية . قال : ثم انصرف بسْبي كثير من أرض المغرب ومصر وأهل بيت المقدس وأرض فلسطين والأردن وفي السبي دانيال .

قلت : والظاهر أنه دانيال بن حزقيل الأصغر لا الأكبر . على ما ذكره وهب بن منبه . والله أعلم[1] .

(١) هذا الفصل مأخوذ من الإسرائيليات .

ذكر شيء من خبر دانيال عليه السلام

قال ابن أبي الدنيا : حدثنا أحمد بن عبد الأعلى الشيباني قال : إن لم أكن سمعته من شعيب ابن صفوان فحدثني بعض أصحابنا عنه ، عن الأجلح الكندي عن عبدالله بن أبي الهذَيل ، قال : ضرًا بختنصر أسدين فألقاهما في جب ، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيّجاه ، فمكث ما شاء الله ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من الطعام والشراب ، فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام : أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال ، فقال : يا رب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق . فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل من يحملك ويحمل ما أعددتَ ، ففعل وأرسل إليه من حمله وحمل ما أعدَّه حتى وقفَ على رأس الجب فقال دانيال : من هذا ؟ قال : أنا أرميا . فقال : ما جاء بك ؟ فقال : أرسلني إليك ربك . قال : وقد ذكرني ربي ؟ قال : نعم . فقال دانيال : الحمد لله الذي لا ينَسى من ذَكره ، والحمد لله الذي يجيب من رجاه ، والحمد لله الذي من وثق به لم يكلْه إلى غيره ، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً ، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة ، والحمد لله الذي هو يكشف ضُرَّنا بعد كربنا ، والحمدلله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمدلله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا .

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن أبي خالد بن دينار ، حدثنا أبو العالية قال : لما افتتحنا تَسْتر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كعباً فنسخَه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا ، فقلت لأبي العالية : ما كان فيه ؟ قال : سِيَركم وأموركم ولُحون كلامكم وما هو كائن بعد[1] . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال : حضرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه ، وسوينا القبور كلها لنعمّيه على الناس فلا ينبشونه قلت : فما يرجون منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم المطر برزوا بسريره ليمطّرون قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه قد مات ؟ قال : منذ ثلاثمائة سنة[2] قلت : ما تغيَّر منه شيء ؟ قال : إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع .

(١) لم يعط الله علم الغيب لأحد من البشر وهذا دليل على بطلان هذه الروايات .

(٢) بين عيسى عليه السلام والرسول (ص) ستمائة عام فكم إلى دانيال وهذا دليل آخر على بطلان هذه الروايات .

وهـذا إسناد صحيـح إلى أبي العاليـة ، ولكن إن كان تـاريخ وفـاته محفـوظاً من ثـلاثمائـة سنة فليس بنبي بـل هو رجـل صـالـح ، لأن عيسى بن مـريم ليس بينـه وبـين رسـول الله ﷺ نبي بنص الحـديث الذي في البخـاري ، والفترة التي كـانت بينها أربعمـائة سنـة ، وقيل : ستمـائة ، وقيـل : ستمائة وعشرون سنة ، وقد يكون تـاريخ وفـاته من ثمـانمائـة سنة وهـو قريب من وقت دانيـال ، إن كـان كونـه دانيال هـو المطابق لما في نفس الأمر ، فـإنـه قـد يكـون رجـلاً آخـر ، إمـا من الأنبيـاء والصالحين ، ولكن قَـرُبت الظنـون أنه دانيـال لأن دانيال كـان قـد أخـذه ملك الفـرس فـأقـام عنـده مسجوناً كما تقدم[1] .

وقد رُوي بإسناد صحيح إلى أبي العالية أن طول أنفه شبـر ، وعن أنس بن مالـك بإسنـاد جيد أن طول أنفه ذراع ، فيحتمل على هـذا أن يكون رجـلاً من الأنبياء الأقـدمين قبـل هذه المـدَد ، والله تعالى أعلم .

وقد قال أبو بكر ابن أبي الدنيا في كتاب أحكام القبـور : حدثنـا أبو بـلال محمد بن الحـارث بن عبـدالله بن أبي بُرْدة بن أبي مـوسى الأشعري حـدثنا أبـو محمد القـاسم بن عبدالله ، عن أبي الأشعث الأحمري ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن دانيال دعا ربه عز وجـل أن تدفنـه أُمة محمـد ، فلما افتتح أبو موسى الأشعري تستر وجده في تابـوت تضرب عـروقه ووريـده ، وقد كـان رسول الله ﷺ قـال : من دَلَّ على دانيال فبشروه بالجنـة . فكان الـذي دل عليه رجـل يُقال لـه حرقـوص فكتب أبو مـوسى إلى عمر يخبره فكتب إليه عمر : أن ادفنه وابعث إليَّ حرقوص فإن النبي ﷺ بشره بالجنة .

وهذا مرسل من هذا الوجه وفي كونه محفوظاً نظر والله أعلم .

ثم قـال ابن أبي الدنيـا : حدثنـا أبو بـلال ، حدثنـا قاسم بن عبـدالله عن عنْبَسة بن سعيـد ، وكان عالماً ، قال : وجد أبو مـوسى مع دانيـال مصحفاً وجـرَّة فيها ودَك ودراهم وخـاتمه ، فكتب أبـو موسى بذلـك إلى عمر فكتب إليـه عمر : أمـا المصحف[2] فابعث بـه إلينا ، وأمـا الودك فـابعث إلينا منه ومُر من قبلَك من المسلمين يستشفون به ، وأقسم الدراهم بينهم ، وأما الخاتم فقد نفّلناكـه .

وروى ابن أبي الـدنيا من غـير وجه ، أن أبـا موسى لمـا وجـده وذكـروا لـه أنـه دانيـال التـزمـه وعانقه وقبَّله ، وكتب إلى عمـر يذكـر له أمـره وأنه وجـد عنده مـالاً موضـوعاً قـريباً من عشـرة آلاف درهم ، وكـان من جاء اقتـرض منها فـإن ردها وإلا مـرض وإن عنده رَبعْـة[3] فأمـر عمر بـأن يغسل بمـاء وسـدر ويُكفن ويُـدفن ويُخفى قبـره فـلا يعلم بـه أحـد ، وأمـر بـالمـال أن يـرد إلى بيت المـال ، وبالربعة فتحمل إليه ونفَّله خاتمه .

---

(١) إنما أخذه ملك الكلدان .

(٢) يقال مصحف لكل كتاب مكتوب في صفحات .

(٣) الربعة : الصندوق تحفظ فيه الأوراق وأجزاء الكتب .

وروي عن أبي موسى أنه أمر أربعة من الأَسَراء فسكَّروا(١) نهراً وحفروا في وسطه قبراً ، فدفنه فيه ، ثم قدَّم الأربعة الأُسراء فضرب أعناقهم فلم يعلم موضع قبره غير أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثني ابراهيم بن عبدالله ، حدثنا أحمد بن عمرو بن السراج ، حدثنا ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن أبي الزِّناد ، عن أبيه قال : رأيت في يد ابن أبي بُرْدة بن أبي موسى الأشعري خاتماً نقش فصه أسدان بينهما رجل يلحسان ذلك الرجل ، قال أبو بردة : وهذا خاتم ذلك الرجل الميت الذي زعم أهل هذه البلدة أنه دانيال أخذه أبو موسى يوم دفنه . قال أبو بردة : فسأل أبو موسى علماء تلك القرية عن نقش ذلك الخاتم فقالوا : إن الملك الذي كان دانيال في سلطانه جاءه المنجمون وأصحاب العلم فقالوا له : إنه يُولد كذا وكذا غلام يَعْور(٢) ملكك ويُفسده ، فقال الملك : والله لا يبقى تلك الليلة غلام إلا قتلته ، إلا أنهم أخذوا دانيال فألقوه في أجَمة الأسد فبات الأسد ولبؤته يلحسانه ولم يضرَّاه . فجاءت أمه فوجدتهما يلحسانه فنجاه الله بذلك حتى بلغ ما بلغ قال أبو بردة : قال أبو موسى : قال علماء تلك القرية : فنقش دانيال صورته وصورة الأسدين يلحسانه في فص خاتمه لئلا ينسى نعمة الله عليه في ذلك .

إسناد حسن .

---

(١) سكروا نهراً : سدوه .

(٢) يعور ملكك : يهلكه .

وهذا ذكر عمارة بيت المقدس
واجتماع الملأ من بني إسرائيل بعد تفرقهم في بقاع الأرض وشعابها

قال الله تعالى في كتابه المبين ، وهو أصدق القائلين :

﴿ أو كالذي مرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها قال أنَّى يُحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عامٍ ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يومٍ قال بل لبثت مائة عامٍ فآنظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وآنظر إلى حمارك ولنجعلك آيةً للناس وآنظر إلى العظام كيف نُنشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيءٍ قديرٌ ﴾[1] .

قال هشام بن الكلبي : ثم أوحى الله تعالى إلى أرميا عليه السلام فيما بلغني : إني عامر بيتَ المقدس فاخرج إليها فانزلها . فخرج حتى قدمها وهي خراب ، فقال في نفسه : سبحان الله أمرني الله أن أنزل هذه البلدة وأخبرني أنه عامرها فمتى يعمرها ومتى يحييها الله بعد موتها !

ثم وضع رأسه فنام ومعه حماره وسلة من طعام ، فمكث في نومه سبعين سنة حتى هلك بختنصر والملك الذي فوقه وهو لهراسب ، وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقام بعده ولده بشتاسب ابن لهراسب ، وكان موت بختنصر في دولته فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب وأن السباع قد كثرت في أرض فلسطين ، فلم يبق بها من الإنس أحد ، فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل : أن من شاء أن يرجع إلى الشام فيرجع ، وملك عليهم رجلاً من آل داود وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبني مسجدها فرجعوا فعمروها وفتح الله لأرميا عينيه فنظر إلى المدينة كيف تبنى وكيف تعمر ، ومكث في نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة . ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة ، وقد عهد المدينة خراباً فلما نظر إليها عامرة آهلة قال : **﴿ اعلم أن الله على كل شيءٍ قديرٌ ﴾**

قال : فأقام بنو إسرائيل بها وردَّ الله عليهم أمرهم فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم في زمن ملوك الطوائف ، ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان يعني بعد ظهور النصارى عليهم ، هكذا حكاه ابن جرير في تاريخه عنه وذكر ابن جرير أن لهراسب كان ملكاً عادلاً سائساً لمملكته ، قد دانت له العباد والبلاد والملوك والقواد ، وأنه كان ذا رأي جيد في عمارة الأمصار والأنهار والمعاقل ، ثم لما ضعف عن تدبير المملكة بعد مائة سنة ونيف نزل عن الملك لولده بشتاسب ، فكان في زمانه ظهور دين المجوسية ، وذلك أن رجلاً اسمه زرادشت كان قد صحب أرميا عليه

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٩ .

السلام فأغضبه فدعا عليه أرميا عليه السلام ، فبرص زرادشت ، فذهب فلحق بأرض أذربيجان ، وصحب بشتاسب ، فلقنه دينَ المجوسية الذي اخترعه من تلقاء نفسه ، فقبله منه بشتاسب ، وحمل الناسَ عليه ، وقهرهم ، وقتل منهم خَلقاً كثيراً ممن أباه منهم .

ثم كان بعد بشتاسب بهمن بن بشتاسب ، وهو من ملوك الفرس المشهورين ، والأبطال المذكورين ، وقد ناب بختنصر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة وعمر دهراً طويلاً قبحه الله .

والمقصود أن هذا الذي ذكره ابن جرير من أن هذا المارّ على هذه القرية هو أرميا عليه السلام ، قاله وهب بن منبه وعبدالله بن عبيد بن عُمير وغيرهما . وهو قوي من حيث السياق المتقدم ، وقد روي عن علي وعبدالله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسُّدي وسليمان بن بُردة وغيرهم أنه عزير . وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف والله أعلم .

وهذه قصة العزير

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : هـو عُزيـر بن جروة ، ويقـال : ابن سوريق بن عـديا بن أيوب بن درزنا بن عـري بن تقي بن أسبوع بن فنحـاص بن العازر بن هـارون بن عمران . ويقـال عزير بن سروخا جـاء في بعض الآثار أن قبـره بدمشق . ثم سـاق من طريق أبي القـاسم البغَوي عن داود بن عمـرو ، عن حبان بن عـلي ، عن محمد بن كُـرَيب ، عن أبيه ، عن ابن عبـاس مرفـوعـاً : لا أدري العُزَير بيع أم لا ولا أدري أعزير كان نبياً أم لا ؟

ثم رواه من حـديث مؤمل بن الحسن ، عن محمـد بن إسحاق السجزي عن عبـدالـرزاق ، عن مَعْمَرَ ، عن ابن أبي ذئب ، عن سعيد المَقْبري ، عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه .

ثم روي من طريق إسحَاق بن بشر ، وهـو متروك عن جُـويبر ومقـاتِل ، عن الضحـاك ، عن ابن عبـاس أن عزيـراً كان ممن سبـاه بختنصر وهو غـلام حَدَث[1]، فلما بلغ أربعـين سنـة أعـطاه الله الحكمة قال : ولم يكن أحـد أحفظَ ولا أعلم بالتـوراة منه . قـال : وكان يُـذكر مـع الأنبياء حتى محـا الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر .

وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر ، والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر ، عن سعيـد ، عن أبي عروبـة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عبـدالله ابن سلام[2] ، أن عزيراً هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه[3] .

وقـال إسحـاق بن بشر : أنبـأنـا سعيــد بن بشـير ، عن قتــادة ، عن كعب وسعيـد بن أبي عـروبـة ، عن قتـادة عن الحسن ومقـاتـل وجـويّبـر ، عن الضحـاك ، عن ابن عبـاس وعبـدالله بن إسمـاعيل السُّدي عن أبيه ، عن مجاهـد ، عن ابن عبـاس وإدريس ، عن جـده وهب بن منبـه . قال إسحاق : كـل هؤلاء حدثـوني عن حديث عُـزير وزاد بعضهم عـلى بعض قالـوا : بإسنـادهم إن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيـاً خرج ذات يـوم إلى ضيعة لـه يتعاهـدها ، فلما انصـرف أتى إلى خربـة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ، ودخل الخربة وهـو على حمـاره فنزل عن حمـاره ومعه سلة فيهـا تين وسلة فيها عنب ، فنزل في ظـل تلك الخربـة وأخرج قصعـة معه فـاعتصر من العنب الذي كـان معه في القصعـة ثم أخرج خبـزاً يابسـاً معه فـألقاه في تلك القصعـة في العصير ليبتـل ليأكله ، ثم استلقى

---

(١) لم يكن قد بلغ مبلغ الرجال .

(٢) ابن سلام كان يهودياً ويمزج الإسرائيليات في أحاديثه .

(٣) وهذه أرجح الروايات .

على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد باد أهْلها ورأى عظاماً بالية فقال : ﴿ أنّى يُحيي هذه الله بعد موتها ﴾ فلم يشكّ أن الله يحييها ولكن قالها تعجباً ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه ، فأماته الله مائة عام .

فلما أتت عليه مائة عام ، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث قال : فبعث الله إلى عزير ملكاً فخلق قلبه ليعقل قلبُه وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيي الله الموتى . ثم ركّب خَلقه وهو ينظر ، ثم كسى عظامه اللحم والشعر والجلد ثم نفخ فيه الروح . كل ذلك وهو يرى ويعقل ، فاستوى جالساً فقال له الملك : كم لبثت ؟ قال : لبثتُ يوماً أو بعض يوم ، وذلك أنه كان لبث صَدْر النهار عند الظهيرة وبُعث في آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال : أو بعض يوم ولم يتم لي يوم . فقال له الملك : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك ، يعني الطعام الخبز اليابس ، وشرابه العصير الذي كان اعتصره في القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز اليابس ، فذلك قوله ﴿ لم يتسنه ﴾ يعني لم يتغير ، وكذلك التين والعنب غضّ لم يتغير شيء من حالهما ، فكأنه أنكر في قلبه فقال له الملك : أنكرتَ ما قلت لك ؟ أنظر إلى حمارك . فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نَخِرة . فنادى الملك عظامَ الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركبه الملك وعُزَير ينظر إليه ثم ألبسها العروق والعصب ، ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقاً يظن القيامة قد قامت . فذلك قوله : ﴿ وانظر إلى حمارك ولنجعلك آيةً للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسُوها لحماً ﴾ يعني وانظر الى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً في أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوَّراً حماراً بلا لحم ، ثم انظر كيف نكسوها لحماً ﴿ فلما تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ من إحياء الموتى وغيره .

قال : فركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناسُ وأنكر الناس وأنكر منزله ، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله ، فإذا هو بعجوز عمياء مُقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمَة لهم ، فخرج عنهم عُزير وهي بنت عشرين سنة كانت عرفته وعقلته ، فلما أصابها الكبر أصابها الزَّمانة ، فقال لها عزير : يا هذه أهذا منزل عزير ؟ قالت : نعم هذا منزل عزير . فبكت وقالت : ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عُزيراً وقد نسيه الناس . قال : فإني أنا عزير كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني . قالت : سبحان الله ! فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة فلم نسمع له بذكر . قال : فإني أنا عزير . قالت : فإن عزيراً رجل مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يردَّ عليَّ بصري حتى أراك فإن كنت عُزيراً عرفتُك .

قال : فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصَحّتا وأخذ بيدها وقال : قومي بإذن الله . فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة كأنما نشطت من عقال ، فنظرت فقالت : أشهد أنك عزير .

وانطلقت إلى محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم ، وابنٌ لعزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشرة سنة وبني بنيه شيوخ في المجلس ، فنادتهم فقالت : هذا عُزَير قد جاءكم . فكذَّبوها ، فقالت : أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فردَّ عليَّ بصري وأطلق رجلي وزعم أن الله أماته مائة سنة ثم بعثه . قال : فنهض الناس فأقبلوا إليه فنظروا إليه فقال ابنه : كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه ، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير . فقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حُدِّثنا غير عزير وقد حَرق بختنصر التوراةَ ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال ، فاكتبها لنا وكان أبوه سروخا قد دفن التوراة أيام بختنصر في موضع لم يعرفه أحد غير عُزير ، فانطلق بهم إلى ذلك الموضع فحفره فاستخرج التوراة وكان قد عفن الورقُ ودَرس الكتاب .

قال : وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجدَّد لهم التوراة ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه . فتذكَّر التوراة فجددها لبني إسرائيل ، فمن ثم قالت اليهود : عُزَير ابن الله ، للذي كان من أمر الشهابين وتجديده التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل ، وكان جدَّد لهم التوراة بأرض السواد بدير حِزْقيل ، والقرية التي مات فيها يقال لها سايراباذ .

قال ابن عباس : فكان كما قال الله تعالى : ﴿ **ولنجعلك آيةً للناس** ﴾ يعني لبني إسرائيل ،وذلك أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة ، فبعثه الله شاباً كهيئته يوم مات .

قال ابن عباس : بُعث بعدَ بختنصّر وكذلك قال الحسن .

وقد أنشد أبو حاتم السجستاني في معنى ما قاله ابن عباس :

وأسودُ رأس شاب من قبله ابنُه ... ومن قبله ابن ابنه فهو أكبرُ
يرى ابنه شيخاً يدبّ على عصا ... ولحيته سوداء والرأس أشقرُ
وما لابنه حيل ولا فَضْل قوة ... يقوم كما يمشي الصبيّ فيعثر
يعد ابنه في الناس تسعين حجة ... وعشرين لا يجري ولا يتبخترُ
وعمر أبيه أربعون أمرّها ... ولابن ابنه تسعون في الناس غبّرُ
لما هو في المعقول إن كنت دارياً ... وإن كنت لا تدري فبالجهل تُعذرُ

***

فصـــل

المشهـور أن عزيـراً نبي من أنبياء بني إسـرائيل وأنـه كان فيـا بين داود وسليمـان وبين زكـريـا ويحيى ، وأنـه لمـا لم يبق في بني إسـرائيـل من يحفظ التـوراة ألهمـه الله حِفْـظهـا فسـردَهـا عـلى بني إسرائيل ، كما قال وهب بن منبه : أمر الله ملكاً فنزل بمعرفة من نـور فقذفهـا في عزيـر فنسخ التـوراة حرفاً بحرف حتى فرغ منها .

وروى ابن عسـاكر عن ابن عبـاس أنه سـأل عبدَالله بن سـلاَم عن قول الله تعـالى : ﴿ **وقالت اليهود عُزير ابن الله** ﴾[1] لِمَ قالـوا ذلك ؟ فـذكر لـه ابن سلام مـا كان من كَتْبِـه لبني إسرائيـل التوراةَ من حفـظه ، وقول بني إسـرائيل : لم يستـطع موسى أن يـأتينا بـالتوراة إلا في كتـاب وإن عـزيـراً قـد جاءنا بها من غير كتاب . فرماه طوائف منهم وقالوا : عزير ابن الله .

ولهذا يقول كثير من العلماء : إن تواتر التوراة انقطع في زمن العُزَير .

وهذا متجه جـداً إذا كان العـزير غـير نبي كما قـاله عـطاء بن أبي رَباح والحسن البـصـري . وفيـا رواه إسحاق بن بشر عن مقـاتل بن سليمـان ، عن عطاء ، وعن عثمـان بن عطاء الخـراسـاني عن أبيه ، ومقاتل عن عطاء بن أبي ربـاح قال : كـان في الفترة تسعـة أشياء : بختنصر وجنـة صنعاء وجنة سبأ وأصحاب الأخدود ، وأمر حاصورا وأصحاب الكهف ، وأصحـاب الفيل ومـدينة أنـطاكية وأمر تبّع .

وقـال إسحـاق بن بشر : أنبـأنـا سعيـد ، عن قتـادة ، عن الحسن ، قـال : كـان أمـر عـزيـر وبختنصر في الفَتْرة .

وقـد ثبت في الصحيح أن رسـول الله ﷺ قـال : إن أولى النـاس بـابن مـريم لأنـا ، إنـه ليس بيني وبينه نبي » .

وقال وهب بن منبه : كان فيما بين سليمان وعيسى عليهما السلام .

وقد روى ابن عساكر عن أنس بن مالك وعطاء بن السـائب أن عزيـراً كان في زمن مـوسى بن عمـران ، وأنه استـأذن عليه فلم يـأذن له ، يعني لمـا كـان من سؤالـه عن القـدَر وأنـه انصـرف وهـو يقول : مائة موتة أهون من ذُل ساعة .

وفي معنى قول عزير مائة موتة أهون من ذل ساعة قول بعض الشعراء :

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ .

قد يصبر الحر على السيفِ ويأنف الصبرَ على الخْيف
ويُؤْثر الموتَ على حالةٍ يعجْز فيها عن قِرَى الضيفِ

فأما ما روى ابن عساكر وغيره عن ابن عباس ونَوْف البِكالي وسفيان الثّوري وغيرهم ، من أنه سأل عن القدر فمحِي اسمه من ذكر الأنبياء ، فهو مُنكَر وفي صحته نظر ، وكأنه مأخوذ عن الإِسرائيليات .

وقد روى عبد الرزاق وقتيبة بن سعيد ، عن جعفر بن سليمان ؛ عن أبي عمران الجَوْني ، عن نَوْف البكالي قال : قال عزير فيما يناجي ربه : يا رب تخْلق خلقاً فتضلّ من تشاءوتَهْدي من تشاء ؟ فقيل له : أعرض عن هذا ، فعاد فقيل له : لتعرضنّ عن هذا أو لأمحونَّ أسمك من الأنبياء ، إني لا أسأل عما أفعل . وهم يُسألون . وهذا يقتضي وقوع ما تُوعِّدَ عليه لو عاد فما مُحِي .

وقد روى الجماعة سوى الترمذي من حديث يونس بن يزيد ، عن سعيد وأبي سلمة ، عن أبي هريرة ، وكذلك رواه شعيب عن أبي الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأُخرج من تحتها ثم أمر بها فأُحرقت بالنار فأوحى الله إليه : فهلاَّ نملة واحدة فروى إسحاق بن بشر عن ابن جرير ، عن عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه أنه عزير ، وكذا روي عن ابن عباس والحسن البصري أنه عُزَير ، فالله أعلم .

قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

قال الله تعالى في كتابه العزيز : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفياً * قال ربِّ إني وهن العظمُ مني وآشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا * وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك وليًّا * يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله ربِّ رضياً * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبلُ سمياً * قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغتُ من الكبر عِتيًّا * قال كذلك قال ربك هو عليَّ هَيِّنٌ وقد خلقتُك من قبل ولم تكُ شيئاً * قال رب اجعل لي آية ، قال آيتك ألا تكلِّم الناس ثلاث ليالٍ سويا * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبِحوا بكرةً وعشيا * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا * وحناناً من لدنا وزكاةً وكان تقيا * وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصيا * وسلامٌ عليه يوم ولد ويوم يموتُ ويوم يُبعث حياً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وكفَّلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنى لكِ هذا ، قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب * هنالك دعا زكريا ربَّه قال ، ربِّ هب لي من لدنك ذريةً طيبة ، إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب أنّ الله يبشرك بيحيى مصدِّقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين * قال رب أنَّى يكون لي غلامٌ وقد بلغني الكِبَرُ وامرأتي عاقر ، قال كذلك الله يفعل ما يشاء * قال ربِّ اجعل لي آيةً ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رَمزاً ، واذكر ربك كثيراً وسبِّح بالعشي والإبكار ﴾[2] .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كلٌّ من الصالحين ﴾[4] .

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل : زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان ، ويقال : زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن إينامن بن رحيعام بن

---

(1) سورة مريم الآيات ١ ـ ٥ .
(2) سورة آل عمران الآيات ٣٧ ـ ٤١ .
(3) سورة الأنبياء الآيتان ٨٩ ، ٩٠ .
(4) سورة الأنعام الآية ٨٥ .

سليمان بن داود ، أبو يحيى النبي عليه السلام من بني إسرائيل .

دخل البَثْنة من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى . وقيل : إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى والله أعلم . وقد قيل غير ذلك في نسبه . ويُقال فيه زكريا بالمد وبالقصر . ويقال زكرى أيضاً .

والمقصود أن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام ، وما كان من أمره حين وهبه الله ولداً على الكبر وكانت امرأته مع ذلك عاقراً في حال شبيبتها ، وقد أسنّت أيضاً ، حتى لا ييأس أحد من فضل الله ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى: ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداءً خفيًّا** ﴾ . قال قتادة عند تفسيرها : إن الله يعلم القلبَ النقي ويسمع الصوت الخفي . وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضراً عنده مخافته فقال : يا رب يا رب يا رب . فقال الله : لبيّك لبيك لبيك . ﴿ **قال ربِّ إني وهن العظم منِّي** ﴾ أي ضعف وخار من الكبر ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾ استعارة من اشتعال النار في الحطب أي غلب على سواد الشعر شيبُه كما قال ابن دُريد في مقصورته :

أما ترىْ رأسي حاكى لونُه ... طُرَّة صُبحٍ تحت أذيال الدُّجا
واشتعل المبيض في مُسْودّه ... مثلَ اشتعال النار في جَمْر الغضا
وآضَ عودَ اللهم يَبْساً ذاوياً ... من بعد ما قد كان مَجَّاج الثَّرَى

يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطناً وظاهراً ، وهكذا قال زكريا عليه السلام : ﴿ **إني وهَن العظم مني واشتعل الرأسُ شيباً** ﴾ .

وقوله ﴿ **ولم أكن بدُعائك ربِّ شقياً** ﴾ أي ما عودتني فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان ، وكان كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إبانها ولا في أوانها وهذه من كرامات الأولياء ، فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن في سنه ﴿ **هنالك دعا زكريا ربّه قال ربِّ هب لي من لدنك ذريةً طيبةً إنك سميع الدعاء** ﴾ وقوله ﴿ **وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً** ﴾ قيل : المراد بالموالي العصبة ، وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع الله وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون برّاً تقياً مرضياً ولهذا قال : ﴿ **فهب لي من لدنك** ﴾ أي من عندك بحولك وقوتك ﴿ **ولياً يرثني** ﴾ أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل : ﴿ **ويرث من آلِ يعقوب ، واجعله ربِّ رضيًّا** ﴾ يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتهم بها من النبوة والوحي ، وليس المراد ها هنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير ها هنا وحكاه عن أبي صالح من السلف ، لوجوه :

أحدها : ما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ﴾(١) أي في النبوة والملك كما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين العلماء المروي في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورث ما تركنا فهو صدقة » فهذا نص على أن رسول الله ﷺ لا يورث ، ولهذا منع الصِّديق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من وراثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه العباس رضي الله عنهم ، واحتج عليهم الصِّديق في منعه إياهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون رضي الله عنهم .

الثاني : أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وصححه .

الثالث : أن الدنيا كانت أحقَر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم ، فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار ، أن يسأل ولداً يكون وارثاً له فيها .

الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها ، كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده ، والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهاداً يستفضل منه ما لا يكون ذخيرة له يَخلفُه من بعده . وهذا أمر بيّن واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهمه إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، يعني ابن هارون ، أنبأنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : كان زكريا نجاراً ، وهكذا رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن حماد بن سلمة به .

وقوله : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ وهذا مفسر بقوله : ﴿ فنادته الملائكة في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصُوراً ونبياً من الصالحين ﴾ .

فلما بُشِّرَ بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه ﴿ قال ربِّ أنى يكون لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغتُ من الكبر عتياً ﴾ أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير ، قيل : كان عمره إذ ذاك سبعاً وسبعين سنة ، والأشبه والله أعلم أنه كان أسنَّ من ذلك ﴿ وكانت امرأتي عاقراً ﴾ يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبتها عاقراً لا تلد . والله أعلم .

---

(١) سورة النمل الآية ١٦ .

كما قال الخليل :

﴿ أبشرتموني على أن مسّني الكبرُ فبِمَ تُبشّرون ﴾(١) . وقالت سارة : ﴿ يا ويلتي أألِد وأنا عجوز وهذا بَعلي شيخاً ، إن هذا لشيءٌ عجيب * قالوا أتعجبين من أمرِ الله ، رحمةُ الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميدٌ مجيد ﴾(٢) .

وهكذا أُجيب زكريا عليه السلام قال له المَلك الذي يوحى إليه بأمر ربه : ﴿ كذلك قال ربُّك هو عليَّ هينٌ ﴾ أي هذا سهل يسير عليه ﴿ وقد خلقتُك من قبلُ ولم تك شيئاً ﴾ أي قدرته ، أوجدتك بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، أفلا يُوجِد منك ولداً وإن كنت شيخاً ؟!

وقال تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويَدْعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت . وقيل : كان في لسانها شيء . أي بذاءة .

﴿ قال رب اجعلْ لي آيةً ﴾ أي علامة على وقت تَعْلق مني المرأة بهذا الولد المبشَّر به ﴿ قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويًّا ﴾ يقول علامة ذلك أن يعتريك سَكْت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزاً وأنت في ذلك سَوِيّ الخلق صحيح المزاج معتدل البِنْية . وأُمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار ، فلما بُشِّرَ بهذه البشارة خرج مسروراً بها على قومه من محرابه ﴿ فأوحى إليهم أن سبِّحوا بكرةً وعَشيًّا ﴾ والوحي ها هنا هو الأمر الخفي إما بكتابة ، كما قاله مجاهد والسُّدي ، أو إشارة كما قاله مجاهد أيضاً ووهب وقتادة . قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة : اعتُقل لسانُه من غير مرض . وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلامَ أحد .

* * *

وقوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صَبيًّا ﴾ . يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلٰهية لأبيه زكريا عليه السلام ، وأن الله علمه الكتابَ والحكمة وهو صغير في حال صباه .

قال عبدالله بن المبارك : قال مَعْمَر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : إذهب بنا نلعب . فقال : ما لِلّعب خلقنا . قال : وذلك قوله : ﴿ وآتيناه الحكم صَبيًّا ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وحناناً من لدنّا ﴾ فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما الحنان . وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقَتادة والضحاك : ﴿ وحناناً من لدنّا ﴾ أي رحمةً من عندنا رحمنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد . وعن عكرمة : ﴿ وحناناً ﴾ أي محبة عليه ويحتمل أن يكون ذلك صفةً لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه ،

(١) سورة الحجر الآية ٥٤ .
(٢) سورة هود الآيتان ٧٢ ، ٧٣ .

وهو محبتهما والشفقة عليهما وبره بهما .

وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل . والتقوى طاعة الله بامتثال أوامره وترك زواجره .

ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمراً ونهياً وترك عقوقهما قولاً وفعلاً فقال : ﴿ **وَبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً** ﴾ ثم قال : ﴿ **وسلامٌ عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا** ﴾ هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر ، فيفقد الأول بعد ما كان ألِفه وعَرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ، ولهذا يستهلّ صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضَمَّها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمَّها !

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار ، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور ، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور ، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومَثْبور ، وما بين جَبير وكَسِير وفريق في الجنة وفريق في السعير ! ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول :

ولدتْك أمك باكياً مُستصرخاً ... والناسُ حولك يَضْحكون سُروراً
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكاً مسْروراً

ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشقَّ ما تكون على ابن آدم سلَّم الله على يحيى في كل موطن منها فقال : ﴿ **وسلامٌ عليه يوم وُلِدَ ويوم يموتُ ويوم يُبعث حيًّا** ﴾ .

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي أنت خير مني . فقال له الآخر : استغفر لي أنت خير مني . فقال له عيسى : أنت خيرٌ مني سَلَّمتُ على نفسي وسلَّم الله عليك . فعرِف والله فضلهما .

وأما قوله في الآية الأخرى : ﴿ **وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين** ﴾[(1)] فقيل المراد بالحصور الذي لا يأتي النساء . وقيل غير ذلك ، وهو أشبه لقوله ﴿ **هب لي من لدنك ذرية طيبة** ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أنبأنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة ليس يحيى بن زكريا ، وما ينبغي لأحد يقول أنا خيرٌ من يونس بن متى » .

علي بن زيد بن جُدْعان تكلّم فيه غير واحد من الأئمة ، وهو منكر الحديث . وقد رواه ابن

(١) سورة ال عمران الآية ٣٩ .

خُزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العبّاداني ، عن علي بن زيد بن جدعان به مطولاً . ثم قال ابن خزيمة : وليس على شرطنا .

وقال ابن وهب : حدثني ابن لَهِيعة ، عن عقيل ، عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائل : موسى كَلِيم الله . وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته . وقال قائل : إبراهيم خليل الله فقال : أين الشهيد ابن الشهيد ، يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنْب ؟ قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا .

وقد رواه محمد بن إسحاق وهو مدلّس[1] ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن سعيد بن المسيِّب ، حدثني ابن العاص ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : كل ابن آدم يأْتي يومَ القيامة وله ذَنْب إلا ما كان من يحيى بن زكريا .

فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عَنْعن ها هنا .

ثم قال عبد الرزاق : عن مَعمَر ، عن قَتادة ، عن سعيد بن المسيِّب مرسلاً .

ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أُسامة ، عن يحيى بن سعيد الأنصاري ، ثم رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق ، حدثنا محمد بن الأصبهاني ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيِّب ، عن عبدالله بن عمرو قال : ماأحد إلا يلقى الله بذنب إلا يحيى بن زكريا . ثم تلا ﴿ **وسيداً وحصوراً** ﴾ ثم رفع شيئاً من الأرض فقال : ما كان معه إلا مثل هذا ، ثم ذُبح ذبحاً !

وهذا موقوف من هذه الطريق وكونه موقوفاً أصح من رفعه والله أعلم . وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر : من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر ، وهو ضعيف ، عن عثمان ابن ساج ، عن ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه .

وروي من طريق أبي داود الطيالسي وغيره ، عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعيم ، عن أبيه ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام » .

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني : حدثنا إسحاق بن أحمد ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا أحمد بن أبي الحوارِي ، سمعت أبا سليمان يقول : خرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان ، فصدم يحيى امرأة فقال له عيسى : يا بن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك ابداً . قال : وما هي يا بن خالة ؟ قال : امرأة صدمتها . قال : والله ما شعرت بها . قال : سبحان الله بَدنُك معي فأين روحك ؟ قال : معلَّقٌ بالعرش ولو أن قلبي آطمأن إلى جبريل

---

(١) وقد ذكرنا عنه أنه وضاع ناقل للإسرائيليات .

لظننت أني ما عرفت الله طرفة عين .
فيه غرابة وهو من الإسرائيليات .

وقال إسرائيل عن أبي حصين ، عن خيثمة ، قال : كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف ، وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ، ولا مأوى يأويان إليه ، أين ما جنّهما الليل أويا ، فلما أرادا أن يتفرقا قال يحيى : أوصني . قال : لا تغضب ، قال : لا أستطيع إلا أن أغضب . قال : لا تقتن مالاً . قال : أمّا هذه فعسى .

وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه : هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً ؟ على روايتين فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان ، عن أبيه ، عن وهب بن منبه ، أنه قال : هرب من قومه فدخل شجرة فجاؤوا فوضعوا المنشار عليها ، فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أنّ فأوحى الله إليه : لئن لم يسكن أنينك لأقلبن الأرضَ ومن عليها . فسكنَ أنينه حتى قُطع باثنتين .

وقد روي هذا في حديث مرفوع سنورده بعدُ إن شاء الله .

وروى إسحق بن بشر ، عن إدريس بن سنان ، عن وهب أنه قال : الذي انصدعت له الشجرة هو شَعيا ، فأما زكريا فمات موتاً فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف ، وكان يعد من البُدَلاء ، حدثنا يحيى بن أبي كثير ، عن زيد بن سلام ، عن جده ممطور ، عن الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، وكاد أن يبطىء فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أُمرْت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن . فقال : يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أُعذب أو يُخسَفَ بي . قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشَّرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . وأولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورِق أو ذهب فجعل يعمل ويُؤدي غَلته إلى غير سيده ، فأيكم يسرّه أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً .

وآمركم بالصلاة فإن الله ينَصْب وجهه قِبَلَ عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صُرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسَره العدو ، فشدوا يده إلى عنقه وقدَّموه ليضربوا عنقه فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكَّ نفسه .

وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في إثره فأتى حِصْناً حَصِيناً فتحصَّن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل .

قال : وقال رسول الله ﷺ : « وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : بالجماعة والسَّمْع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله ، فإن من خرج من الجماعة قيد شِبْر فقد خلع رِبْق الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثّا جهنم . قال : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل .

وهكذا رواه أبو يعلى عن هدْبة بن خالد ، عن أُبان بن زيد ، عن يحيى بن أبي كثير به . وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن إسماعيل ، كلاهما عن أبان بن يزيد العطار به . ورواه ابن ماجة عن هشام بن عمار ، عن محمد بن شعيب بن سابور ، عن معاوية بن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري به . ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري ، عن معاوية بن سلام ، عن أخيه به . ثم قال : تفرد به مروان الطاطري ، عن معاوية بن سلام .

قلت : وليس كما قال . ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة ، عن أبي توبة الربيع بن نافع ، عن معاوية بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري ، فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام ، عن أبي سلام ، عن الحارث الأشعري فذكر نحو هذه الرواية .

ثم روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبدالله بن أبي جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، قال : ذكر لنا عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أُرسل بخمس كلمات وذكر نحو ما تقدم .

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس ، إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ، ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ، ويقول : من أنعَمُ منك يا يحيى !

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في تطلّبه فوجداه عند بحيرة الأردن ، فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عز وجل .

وقال ابن وهب عن مالك ، عن حميد بن قيس ، عن مجاهد قال : كان طعام يحيى بن زكريا العشب ، وإنه كان ليَبكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه .

وقال محمد بن يحيى الذهلي : حدثنا الليث ، حدثني عقيل ، عن ابن شهاب ، قال : جلست يوماً إلى إدريس الخَولاني وهو يقص فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيبَ الناس طعاماً ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيبَ الناس طعاماً ، إنما كان يأكل مع الوحش كراهةَ أن يخالط الناس في معايشهم .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد : قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرّية فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه ، فقال : يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر قد احتفرته قائم تبكي فيه ؟ فقال : يا أبتِ ألستَ أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكّائين . فقال له : ابكِ يا بني ، فبكيَا جميعاً .

وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه .

وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم ، فكذا ينبغي للصديقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عز وجل ثم قال : كم بين النعيمين وكم بينهما ؟

وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثّر البكاء في خديه من كثرة دموعه .

* * *

بيان سبب قتل يحيى عليه السلام

وذكروا في قتله أسباباً من أشهرها : أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق ، كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه أو من لا يحل له تزويجها[1] ، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك فبقي في نفسه منه ، فلما كان بينها وبين الملك ما يجب منها استوهبت منه دَم يحيى فوهبه لها فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها فيقال : إنها هلكت من فورها وساعتها .

وقيل : بل أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته فأبى عليها ، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك ، فتمنع عليها الملك ثم أجابها إلى ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست .

(١) كان يريد ابنة زوجته من زوجها الأول .

وقد ورد معناه في حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ حيث قال : أنبأنا يعقوب الكوفي ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ ليلة أُسري به رأى زكريا في السماء فسلم عليه وقال له : يا أبا يحيى خبرني عن قتلك كيف كان ولمَ قتلك بنو إسرائيل ؟ قال : يا محمد أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه ، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً ، وكان كما قال الله تعالى : ﴿ وسيداًوحصوراً ﴾ وكان لا يحتاج إلى النساء فهويته امرأة ملك بني إسرائيل ، وكانت بغيّة ، فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبَى عليها فأجمعت على قتل يحيى ولهم عيد يجتمعون في كل عام ، وكانت سنة الملك أن يعَد ولا يخلف ولا يكذب .

قال : فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته ، وكان بها معجباً ولم تكن تفعله فيما مضى ، فلما أن شيعته قال الملك : سَلِيني ، فما سألتني شيئاً إلا أعطيتك . قالت : أُريد دم يحيى ابن زكريا ، قال لها : سليني غيره . قالت : هو ذاك . قال : هو لك . قال : فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جانبه أُصلي ، قال : فذبح في طست وحمل رأسه ودمه إليها . قال : فقال رسول الله ﷺ « فما بلغَ من صبرك قال : ما انفلتُّ من صلاتي .

قال : فلما حُمل رأسه إليها فوضع بين يديها فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشَمه ، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل : قد غضب إله زكريا لزكريا ، فتعالَوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا . قال : فخرجوا في طلبي ليقتلوني وجاءني النذير ، فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم عليَّ ، فلما تخوفتُ أن لا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني وقالت : إليَّ إليَّ . وانصدعتْ لي ودخلت فيها .

قال : وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة ، وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس : أما رأيتموه دخل هذه الشجرة ، هذا طرف ردائه دخلها بسِحره . فقالوا : نحرق هذه الشجرة . فقال إبليس : شُقوه بالمنشار شقًّا . قال : فشُققت مع الشجرة بالمنشار .

قال له النبي ﷺ : « هل وجدتَ مسًّا أو وجعاً ؟ قال : لا إنما وجدتْ تلك الشجرة التي جعل الله روحي فيها » .

هذا سياق غريب جداً وحديث عجيب ورفعه منكَر ، وفيه ما ينكر على كل حال ، ولم يُر في شيء من أحاديث الإسراء ذِكر زكريا عليه السلام إلا في هذا الحديث ، وإنما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء : فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة فجاء على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث ، فإن أم يحيى « أشياع » بنت عمران أخت مريم بنت

عمـران . وقيل بـل « أشياع » وهي امـرأة زكريـا ، أم يحيى هي أخت حنة امـرأة عمران أم مـريم ، فيكون يحيى ابن خالة مريم فالله أعلم .

ثم اختلف في مقتـل يحيى بن زكريـا هل كـان في المسجد الأقصى أم في غيـره ، على قـولـين : فقـال الثـوري عن الأعمش عن شمـر بن عـطيـة ، قـال : قُتـل عـلى الصخـرة التي ببيت المقـدس سبعون نبياً ، منهم يحيى بن زكريا عليه السلام .

وقـال أبو عبيـدة القاسم بن سـلَّام : حدثنـا عبـدالله بن صـالـح ، عن الليث ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : قدم بختنصّر دمشق فـإذا هو بـدم يحيى بن زكريـا يغلي ، فسـأل عنه فأخبروه ، فقتل على دمه سبعين ألفاً فسكن(١) . وهـذا إسناد صحيـح إلى سعيد بن المسيب وهـو يقتضي أنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيـح كما قـاله عـطاءوالحسن البصري . فـالله أعلم .

وروى الحـافظ ابن عساكـر من طريق الـوليـد بن مسلم ، عن زيـد بن واقـد ، قـال : رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بنـاء مسجد دمشق أُخـرج من تحت ركن من أركان القبلة الـذي يـلي المحـراب مما يـلي الشرق ، فكـانت البشرة والشعـر على حـالهـما لم يتغيـرا . وفي روايـة : كـأنمـا قُتـل الساعة .

وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكاسكة . فالله أعلم .

وقـد روى الحـافظ ابن عسـاكـر في المستقصىَ في فضـائـل الأقصى ، من طـريق العبـاس بن صبح ، عن مروان ، عن سعيد بن عبد العـزيز ، عن قـاسم مولى معـاوية ، قـال : كان ملك هـذه المدينة يعني دمشق هداد بن هدار ، وكان قد زوَّج ابنه بابنـة أخيه أريـل ملكة صيـدا ، وقد كـان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهـو الصاغـة العتيقة ، قـال : وكان قـد حلف بطلاقهـاثلاثـاً . ثم إنـه أراد مراجعتهـا فأستفتى يحيى بن زكـريا فقـال : لا تحل لـك حتى تنكح زوجـاً غيرك ، فحقـدتْ عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا ، وذلـك بإشـارة أمها ، فـأبى عليها ثم أجـابها إلى ذلـك وبعث إليه وهو قـائم يصلي بمسجـد حَبرون من أتـاه برأسـه في صينية ، فجعـل الرأس يقـول له : لا تحلّ له حتى تنكـح زوجاً غيـره . فأخـذت المرأة الـطبق فحملته عـلى رأسها وأتت بـه أمها وهـو يقول كـذلك ، فلما تمثلت بـين يدي أمهـا خُسف بها إلى قـدميهـا ثم إلى حقـويهـا ، وجعلت أمهـا تـولـول والجـواري يصرخن ويلطمن وجـوههن ، ثم خُسف بها إلى منكبيهـا فأمـرت أمها السيـاف أن يضـرب عنقها لتتسلّى برأسها ، ففعـل فلفظت الأرض جثتهـا عند ذلـك ، ووقعوا في الـذل والفناء ، ولم يـزل دم يحيى يفور حتى قَدِم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفاً .

(١) سبق التعليق على هذا الكلام وأنه من وضع أحبار اليهود .

قال سعيد بن عبد العزيز : وهي دم كل نبي . ولم يزل يفور حتى وقف عنده أرميا عليه السلام فقال : أيها الدم أفنيت بني إسرائيل فاسكن بإذن الله . فسكن فرفع السيف وهرب من هرب من أهل دمشق إلى بيت المقدس فتبعهم إليها فقتل خلقاً كثيراً لا يُحصَون كثرةً وسبا منهم ثم رجع عنهم .

قصة عيسى ابن مريم

عبد الله ورسوله وابن أمته

عليه من الله أفضل الصلاة والسلام

قال الله تعالى في سورة آل عمران التي أنزل صدرها وهو ثلاث وثمانون آية منها في الرد على النصارى عليهم لعائن الله ، الذين زعموا أن لله ولداً ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيراً .

وكان قد قدم وفد نجران منهم على رسول الله ﷺ فجعلوا يذكرون ما هم عليه من الباطل من التثليث في الأقانيم ويدَّعون بزعمهم أن الله ثالث ثلاثة وهم الذات المقدسة وعيسى ومريم ، على اختلاف فِرَقهم ، فأنزل الله عز وجل صدر هذه السورة بيَّن فيها أن عيسى عبدٌ من عباد الله خَلقه وصوَّره في الرحم كما صور غيره من المخلوقات وأنه خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أُم ، قال له كن فكان سبحانه وتعالى . وبيَّن أصلَ ميلاد أمه مريم وكيف كان من أمرها وكيف حملت بولدها عيسى ، وكذلك بسَط ذلك في سورة مريم كما سنتكلم على ذلك كله بعون الله وحسن توفيقه وهدايته .

فقال تعالى وهو أصدق القائلين :

﴿ إن آلله آصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعضٍ وآلله سميعٌ عليمٌ * إذ قالت آمرأة عمران ربِّ إني نذرت لك ما في بطني مُحرَّراً فتقبَّل مني إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت ربِّ إني وضعتها أنثىٰ وآللهَ أعلمُ بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني أُعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنَّىٰ لك هذا قالت هو من عند الله إن آلله يرزق من يشاء بغير حسابٍ ﴾(1) .

يذكر تعالى أنه أصطفى آدم عليه السلام والخلَّص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته ، ثم خصص فقال : ﴿ وآل إبراهيم ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم آل عمران ، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام .

وقال محمد بن إسحاق : وهو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم

---

(1) سورة ال عمران الآيات ٣٣ ـ ٣٧ .

ابن عـزازيا بن أمْصِيـا بن ياوش بن أحـريهو بن يـازم بن يهفاشـاط بن إيشا بن إيـان بن رحبعـام بن داود[1] .

وقال أبو القـاسم ابن عساكـر : مريم بنت عمـران بن ماثـان بن العازر بن اليـود بن أخنز بن صـادوق بن عيازوز بن اليـاقيم بن أيبود بن زريـابيل بن شـالتال بن يـوحينا بن بـرشا بن آمـون بن ميشا بن حزقيا بن أحاز بن موثام بن عـزريا بن يـوارم بن يوشـافاط بن إيشـا بن إيبا بن رحبعـام بن سليمان بن داود عليه السلام . وفيه مخالفة لما ذكره محمد بن إسحاق .

ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام ، وكان أبوها عمـران صاحب صـلاة بني إسرائيـل في زمانه ، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العـابدات ، وكـان زكريـا نبي ذلك الـزمان زوج أخت مريم « أشياع »[2] في قول الجمهور ، وقيل زوج خالتها « أشياع » فالله أعلم .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيـره أن أُم مريم كـانت لا تحبل فـرأت يومـاً طائـراً يزق فـرخاً لـه فاشتهت الولد فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محرَّراً أي حبيساً في بيت المقدس .

قـالوا : فحـاضت من فورهـا فلما طهرت واقعهـا بعلها فحملت بمـريم عليها السـلام : ﴿ **فلما وضعتهـا قالت ربِّ إني وضعتهـا أُنثى واللهُ أعلم بمـا وضعت** ﴾ وقـرىء بضم التـاء ﴿ **وليس الـذكـر كـالأنثى** ﴾ أي في خدمـة بيت المقدس ، وكـانوا في ذلـك الزمـان ينذرون لبيت المقـدس خـدامـاً من أولادهم .

وقـولها : ﴿ **وإني سميتها مريم** ﴾ استُـدل به عـلى تسمية المـولـود يـوم يُـولـد ، وكـما ثبت في الصحيحـين عن أنس في ذهابـه بأخيـه إلى رسـول الله ﷺ فحنّـك أخـاه وسمـاه عبـدالله . وجـاء في حـديث الحسن عن سَمرة مـرفوعـاً « كلُّ غـلام رهينةٌ بعقيقتـه تُذبـح عنه يـوم سابعـه ويُسمى ويحلق رأسه » .

رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي . وجاء في بعض ألفـاظه : « ويُـدمى » بدل ويُسمى وصححه بعضهم . . والله أعلم .

وقولها : ﴿ **وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** » قـد استجيب لها في هـذا كما تقبـل منهـا نذرهـا ، فقال الإمـام أحمد : حـدثنا عبـد الرزاق ، حـدثنـا معمـر ، عن الـزهـري ، عن ابن المسيب عن أبي هـريرة ، أن النبي ﷺ قـال : « ما من مـولود إلا والشيـطان يمسه حـين يولـد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وابنها » .

---

(1) وهذا لا يكون لأن رحبعام ابن سليمان وليس ابن داود عليهما السلام

(2) المسيحيون يقولون اسمها اليصابات

ثم يقـول ابـو هـريـرة : وأقـرأوا إن شئتم : ﴿ **وإني أعيـذهـا بـك وذريتهـا من الشيـطان الرجيم** ﴾ .

أخرجاه من حديث عبد الـرزاق ورواه ابن جريـر عن أحمد ابن الفرج عن بقية ، عن عبـدالله ابن الزبيدي ، عن الزهري عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

وقـال أحمد أيضـاً : حدثنـا اسماعيـل بن عمـر ، حـدثنـا ابن أبي ذؤيب ، عن عجـلان مـولى المشمعـل ، عن النبي ﷺ قـال : « كـل مـولـود من بني آدم يمسـه الشيـطان بـإصبعـه إلا مـريم بنت عمران وابنها عيسى » .

تفـرد بـه من هـذا الـوجـه . ورواه مسلم عن أبي الـطاهـر ، عن ابن وهب ، عن عمـر بن الحارث ، عن أبي يونس ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه .

وقال أحمد : حدثنا هُشَيم ، حـدثنا حفص بن ميسـرة ، عن العلاء عن أبيـه عن أبي هريـرة ، أن النبي ﷺ قـال : « كل إنسـان تلده أمه يلكـزه الشيطان في حضنيـه إلا ما كـان من مريم وابنهـا ، ألم تر إلى الصبي حين يسقط كيف يصرخ ؟ قالـوا : بلى يـا رسول الله قـال ﷺ : « ذلك حـين يلكزه الشيطان بحضنيه » .

وهـذا عـلى شـرط مسلم ولم يخرجـه من هـذا الـوجـه ، ورواه قيس عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قـال : قال رسـول الله ﷺ : « ما من مـولود إلا وقـد عصَره الشيـطان عصرة أو عصـرتين إلا عيسى بن مـريم ومريم » ثم قـرأ رسول الله ﷺ: . ﴿ **وإني أعيذها بـك وذريتها من الشيـطان الرجيم** ﴾ .

وكـذا رواه محمد بن إسحـاق ، عن يزيـد بن عبيدالله بن قسيط ، عن أبي هـريرة ، عن النبي ﷺ بأصل الحديث .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك ، حـدثنا المغيـرة هو ابن عبـد الرحمن الحِـزَامي ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريـرة ، عن النبي ﷺ قال : « كـل بني آدم يطعن الشيـطان في جنبه حـين يُولـد إلا عيسى بن مريم ذهب يـطعن فطعن في الحجـاب » . وهذا عـلى شرط الصحيحـين ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقـوله : ﴿ **فتقبَّلهـا ربها بقبـولٍ حسنٍ وأنبتها نباتاً حسناً وكفّلها زكريا** ﴾ ذكـر كثـير من المفسـرين أن أمها حـين وضعتها لفتهـا في خروقهـا ثم خـرجت بهـا إلى المسجـد فسلمتهـا إلى العبَّـاد الذين هم مقيمون به ، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم ، فتنـازعوا ، والـظاهر أنها إنمـا سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها .

ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها ، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان ، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل زوجته أختها ـ أو خالتها على القولين ـ فشاحّوه في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم ، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم وذلك أن الخالة بمنزلة الأم .

قال الله تعالى : ﴿ **وكفَّلها زكريا** ﴾ أي بسبب غلبه لهم في القرعة كما قال تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريمَ وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾(١) .

قالوا : وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمه معروفاً به ، ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنْث فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام ، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جري الماء فهو الغالب ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جري الماء ، وسارت أقلامهم مع الماء ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد أنعكس سيرها صعداً فهو الغالب ففعلوا فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة .

قال الله تعالى : ﴿ **كلما دَخل عليها زكريا المحرابَ وجد عندها رزقاً قال : يا مريم أنَّ لك هذا ، قالت هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حسابٍ** ﴾

قال المفسرون : إتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها ، حتى صارت يُضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل ، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه . فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها : ﴿ **أنَّى لك هذا** ﴾ فتقول : ﴿ **هو من عند الله** ﴾ أي رزق رزقنيه الله : ﴿ **إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ .

فعند ذلك وهنالك طمع في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسن وكبر ﴿ **قال ربِّ هب لي من لدنك ذريةً طيبةً إنك سميع الدعاء** ﴾(٢) قال بعضهم : قال : يا من يرزق مريم الثمر في غير

(١) سورة آل عمران الآية ٤٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٨ .

إبـانه هب لي ولـداً وإن كان في غـير أوانه ، فكـان من خبره وقضيتـه ما قـدمنا ذكـره في قصته .

﴿ وإذ قـالت الملائكـة يا مـريمُ إن الله اصطفـاكِ وطهرك واصـطفاك عـلى نساء العـالمين * يـا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعـين * ذلك من أنبـاء الغيب نوحيـه إليك ، ومـا كنت لديهم إذ يُلْقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون * إذ قـالت الملائكـة يا مـريم إن الله يُبَشِّـرُكِ بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهـاً في الدنيـا والآخرة ومن المقـربين * ويُكلم الناس في المهْد وكهـلاً ومن الصالحـين * قالت ربِّ أنَّى يكـون لي ولد ولم يَمْسَسْني بشر ، قـال كـذلك الله يخلق مـا يشاء ، إذا قضى أمـراً فإنمـا يقول لـه كن فيكـون * ويعلِّمـه الكتـاب والحكمـة والتـوراة والإنجيل * ورسـولاً إلى بني إسرائيـل أنِّي قد جئتكم بـآيـةٍ من ربكم ، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفـخ فيه فيكـون طيراً بـإذن الله ، وأُبرىء الأكمـه والأبرص وأُحيي المـوتى بإذن الله وأُنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلـك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنـين * ومصدِّقـاً لمـا بين يَـديَّ من التوراة ولأُحِـل لكم بعض الذي حُـرِّم عليكم وجئتكم بـآيـةٍ من ربكم فـاتقـوا الله وأطيعون * إن الله ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم ﴾[1] .

يذكر تعالى أن الملائكة بشَّرت مـريم باصـطفاء الله لهـا من بين سـائر نسـاء عالمي زمـانها ، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبُشـرت بأن يكـون نبياً شريفاً **﴿ يُكلِّم النـاس في المهد ﴾** أي في صغـره يدعـوهم إلى عبادة الله وحـده لا شريـك له ، وكـذلك في حـال كهولتـه ، فدل عـلى أنه يبلغ الكهولة ويـدعو إلى الله فيهـا ، وأُمرت بكثـرة العبادة والقنـوت والسجود والـركوع لتكـون أهلاً لهـذه الكرامة ولتقوم بشكـر هـذه النعمة ، فيقـال إنها كانت تقـوم في الصلاة حتى لتفـطَّر قدمـاها رضي الله عنها ورحمها ورحم أُمها وأباها .

فقـول الملائكـة : **﴿ يا مـريم إن الله آصطفـاكِ ﴾** أي اختـارك واجتبـاك **﴿ وطهـرك ﴾** أي من الأخـلاق الرذيلة وأعـطاك الصفات الجميلة **﴿ وأصـطفاك عـلى نساء العـالمين ﴾** . يحتمـل أن يكـون المراد عالمِي زمانها كقوله لموسى **﴿ إني آصـطفيتك عـلى الناس ﴾**[2] وكقـوله عن بني إسـرائيل **﴿ ولقـد اخترنـاهم على علمٍ عـلى العالمين ﴾**[3] ومعلوم أن إبـراهيم عليـه السـلام أفضـل من مـوسى ، وأن محمـداً ﷺ أفضل منهـا ، وكذلـك هذه الأُمـة أفضل من سـائر الأمم قبلهـا وأكثر عـدداً وأفضل علماً وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم .

ويحتمـل أن يكون قـوله : **﴿ وآصطفاك على نساء العالمين ﴾** محفـوظَ العمـوم فتكـون أفضـل

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٤٢ ـ ٥١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٤ .

(٣) سورة الدخان الآية ٣٢ .

نساءالدنيا ممن كان قبلها أووجد بعدها لأنها إن كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجاً بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى ، كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره ، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله ﴿ **واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ إذ لم يعارضه غيره . والله أعلم .

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة ، من أن النبوة مختصة بالرجال ، وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى : ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبلهِ الرُّسلُ وأُمُّهُ صدِّيقةٌ** ﴾(١) فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها . والله أعلم . وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ﷺ ورضي الله عنهن وأرضاهن .

وقد روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عديدة ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبدالله بن جعفر ، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « حَسْبُك من نساءالعالمين بأربع ، مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » .

ورواه الترمذي عن أبي بكر بن زنجويه ، عن عبد الرزاق به وصححه ، ورواه ابن مردويه من طريق عبدالله بن أبي جعفر الرازي وابن عساكر من طريق تميم بن زياد ، كلاهما عن أبي جعفر الرازي ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد رسول الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، قال : كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال : « خير نساء ركبن الإبل صالحُ نساء قريش أحناه(٢) على ولد في صغره وأرعاه لزوج في ذات يده » قال أبو هريرة : ولم تركب مريم بعيراً قط .

وقد رواه مسلم في صحيحه عن محمد بن رافع وعبد بن حميد ، كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحُبَاب ، حدثني موسى بن علي ، سمعت أبي يقول : سمعت أبا

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٥ .

(٢) أكثرهم حنواً وحناناً .

هريرة يقـول : قال رسـول الله ﷺ : « خير نسـاء ركبن الإبل نسـاء قريش أحنـاه على ولـد في صغره وأرأفـه بزوج عـلى قلة ذات يده » قـال أبـو هـريـرة : وقد علم رسول الله ﷺ أن ابنـة عمـران لم تـركب الإبل .

تفرد به وهو على شرط الصحيح .

ولهذا الحديث طرق أُخر عن أبي هريرة .

وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنـا يونس بن محمـد ، حدثنـا داود بن أبي الفرات ، عن علبـاء بن أحمـر ، عن عكرمـة ، عن ابن عباس ، قـال : خط رسول الله ﷺ في الأرض أربـع خطوط فقـال : أتـدرون ما هـذا ؟ قالـوا : الله ورسولـه أعلم ، فقـال رسـول الله ﷺ : « أفضـل نسـاء أهـل الجنـة خـديجة بنت خـويلد ، وفـاطمـة بنت محمـد ، ومـريم بنت عمـران ، وآسيـة بنت مـزاحم امـرأة فرعون » . ورواه النسائي من طرق عن داود بن أبي هند .

وقـد رواه ابن عساكـر من طريق أبي بكـر عبد الله بن أبي داود سليمـان بن الأشعث ، حدثنـا يحيى بن حاتم العسكري ، أنبـأنا بشر بن مهـران بن حمدان ، حـدثنا محمـد بن دينار ، عن داود بن أبي هند ، عن الشَّعْبي ، عن جابـر بن عبدالله ، قـال : قال رسـول الله ﷺ : « حَسْبك منهن أربـع سيـدات نساء العـالمين : فـاطمة بنت محمـد ، وخديجة بنت خويلد ، وآسيـة بنت مـزاحم ، ومـريم بنت عمران » .

وقـال أبو القـاسم البغَوي : حـدثنا وهب بن بقيـة حدثنـا خالـد بن عبدالله الـواسـطي ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن عائشة ، أنها قالت لفـاطمة : أرأيت حـين أكببت على رسـول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت ؟ قـالت : أخبـرني أنـه ميت من وجعـه هـذا فبكيت ، ثم أكببت عليـه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقاً به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت .

وأصـل هذا الحـديث في الصحيح . وهـذا إسنـاد عـلى شـرط مسلم وفيـه أنهما أفضـل الأربـع المذكورات .

وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد : حدثنـا عثمان بن محمـد ، حدثنـا جريـر ، عن يزيـد هـو ابن أبي زيـاد ، عن عبـد الـرحمن بن أبي نُعم عن أبي سعيـد ، قـال : قـال رسـول الله ﷺ : « فاطمة سيدة نساء أهـل الجنة إلا مـا كان من مـريم بنت عمران » .إسنـاد حسن وصححه الترمذي ولم يخرجوه ، وقد روي نحوه من حديث علي بن أبي طالب ولكن في إسناده ضعف .

والمقصـود أن هذا يـدل على أن مـريم وفاطمـة أفضل هـذه الأربـع . ثم يحتمـل الاستثنـاء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة .

لكن ورد حديث إن صح عينّ الاحتمال الأول فقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : أنبأنا أبو الحسين بن الفراء وأبو غالب وأبو عبدالله ابنا البنا ، قالوا : أنبأنا أبو جعفر بن المسْلِمة ، أنبأنا أبو طاهر المخلِّص ، حدثنا أحمد بن سلمان ، حدثنا الزبير هو ابن بَكَّار ، حدثنا محمد بن الحسن ، عن عبد العزيز بن محمد ، عن موسى بن عُقبة ، عن كُرَيب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون » .

فإن كان هذا اللفظ محفوظاً بثم التي للترتيب فهو مبيِّن لأحد الاحتمالين اللذين دلَّ عليهما الاستثناء ، وتقدم على ما تقدم من الألفاظ التي وردت بواو العطف التي لا تقتضي الترتيب ولا تنفيه . والله أعلم .

وقد روى هذا الحديث أبو حاتم الرازي عن داود الجعفري ، عن عبد العزيز بن محمد وهو الدَّراوَرْدِي ، عن إبراهيم بن عقبة ، عن كريب ، عن ابن عباس مرفوعاً . فذكره بواو العطف لا بثم الترتيبية ، فخالفه إسناداً ومتناً . فالله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه من حديث شعبة ، عن معاوية بن قُرة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « كمُل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق ، عن شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإنَّ فَضْل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه ، ولفظُه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية ، ولعل المراد بذلك في زمانها فإن كلا منهما كفلت نبيًّا في حال صغره ، فآسية كفلت موسى الكَليم ، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله ، فلا ينفي كمالَ غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة .

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيدَ من عشر سنين ، وكانت له وزيرَ صدْق بنفسها ومالها ، رضي الله عنها وأرضاها .

وأما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها خُصَّت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها مِتْن في حياة النبي ﷺ .

وأما عائشة فإنها كانت أحبَّ أزواج رسوْل الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكراً غيرها ، ولا يعرف في

سائر النساء في هذه الأُمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم ، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فأنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات ، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريباً من خمسين سنة تبلِّغ عنه القرآن والسنة وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين وهي أشرف أُمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين ، والأحسن التوقف فيهما رضي الله عنهما وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ : « وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » يحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن ويحتمل أن يكون عاماً بالنسبة إلى ما عدا المذكورات . والله أعلم .

والمقصود ها هنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام ، فإن الله طهرَّها وآصطفاها على نساء عالمي زمانها ، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً كما قدمنا . وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم وقد ذكرنا في التفسير عن بعض السلف أنه قال ذلك واستأنس بقوله : ﴿ ثيباتٍ وأبكاراً ﴾[1] قال : فالثيب آسية ومن الأبكار مريم بنت عمران ، وقد ذكرناه في آخر سورة التحريم . فالله أعلم .

قال الطبراني : حدثنا عبدالله بن ناجية ، حدثنا محمد بن سعد العَوْفي ، حدثنا أبي أنبأنا عمي الحسين ، حدثنا يونس بن نفيع ، عن سعد بن جَنادة ، هو العوفي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله زوَّجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى » رواه ابن جعفر العقيلي من حديث عبد النور به وزاد فقلت : هنيئاً لك يا رسول الله . ثم قال العقيلي : وليس بمحفوظ .

وقال الزبير بن بكّار : حدثني محمد بن الحسن ، عن يعلى ابن المغيرة عن أبي داود ، قال : دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها : « بالكره مني ما أرى منك يا خديجة ، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً ، أمَا علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أُخت موسى وآسية امرأة فرعون ؟ » قالت : وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم » . قالت : بالرفاء والبنين .

وروى ابن عساكر من حديث محمد بن زكريا الغَلابي ، حدثنا العباس بن بكار ، حدثنا أبو بكر الهذلي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ دخل على خديجة وهي في مرض الموت فقال : « يا خديجة إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن مني السلام » قالت : يا رسول الله وهل

---

(١) سورة التحريم الآية ٥ . والدليل فيه بعيد ، لأن هذه القضية كانت في الدنيا ، وكانت مشروطة بطلاق امهات المؤمنين ، ولم يطلقهن رسول الله ﷺ ، واخترن الله ورسوله ، وقال الله تعالى بعد ذلك : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ﴾ (الأحزاب الآية ٥٢) .

تزوجت قبلي ؟ قال ﷺ : « لا . . . ولكن الله زوجني مريم بنت عمران و اسية بنت مزاحم وكلثم أخت موسى » .

وروى ابن عساكر من طريق سويَد بن سعيد ، حدثنا محمد بن صالح بن عمر ، عن الضحاك ومجاهد ، عن ابن عمر ، قال : نزل جبريل إلى رسول الله ﷺ بما أرسل به وجلس يحدث رسول الله ﷺ إذ مرت خديجة ، فقال جبريل : من هذه يا محمد ؟ قال ﷺ : « هذه صِدِّيقة أُمتي . قال جبريل : معي إليها رسالة من الرب عز وجل يقرئها السلام ويبشرها ببيت في الجنة من قصَب بعيد من اللهب لا نصبَ فيه ولا صخب . قالت : الله السلام ومنه السلام والسلام عليكما ورحمة الله وبركاته على رسول الله ما ذلك البيت الذي من قصب ؟ قال : « لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم ، وهما من أزواجي يوم القيامة » .

وأصل السلام على خديجة من الله وبشارتها ببيت في الجنة من قصب لا صخَب فيه ولا وصَب في الصحيح ، ولكن هذا السياق بهذه الزيادات غريب جداً . وكل من هذه الأحاديث في أسانيدها نظر .

وروى ابن عساكر من حديث أبي زرْعة الدمشقي ، حدثنا عبدالله بن صالح حدثني معاوية ، عن صفوان بن عمرو ، عن خالد بن مَعدن عن كعب الأحبار أن معاوية سأله عن الصخرة يعني صخرة بيت المقدس فقال : الصخرة على نخلة ، والنخلة على نهر من أنهار الجنة ، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظمان سموط أهل الجنة حتى تقوم الساعة .

ثم رواه من طريق إسماعيل ، عن عياش ، عن ثعلبة بن مسلم ، عن مسعود ، عن عبد الرحمن ، عن خالد بن معدان ، عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ بمثله .

وهذا منكر من هذا الوجه بل هو موضوع .

وقد رواه أبو زرعة عن عبد الله بن صالح ، عن معاوية عن مسعود بن عبد الرحمن ، عن ابن عابد ، أن معاوية سأل كعباً عن صخرة بيت المقدس فذكره .

قال الحافظ ابن عساكر : وكونه من كلام كعب الأحبار أشبه .

قلت : وكلام كعب الأحبار هذا إنما تلقَّاه من الإسرائيليات التي منها ما هو مكذوب مفتعل وضعه بعض زنادقتهم أو جهالتهم ، وهذا منه والله أعلم(١) .

* * *

---

(١) هذا لم يرد ذكره في الإسرائيليات ولكنه موضوع على الأرجح والله أعلم .

ذكر ميلاد العبد الرسول عيسى ابن مريم العذراء البتول

قال الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذتْ من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثَّل لها بشراً سوياً * قالت إني أعوذُ بالرحمٰن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسولُ ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنَّى يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغيا * قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين ، ولنجعله آيةً للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضيا * فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا * فأجاءها المخاض إلى جِذْعِ النخلة قالت يا ليتني مِت قبل هذا وكنت نَسْياً منسياً * فناداها من تحتها ألَّا تحزني قد جعل ربُّك تحتك سَرِيا * وهُزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطباً جنياً * فكلي وآشربي وقرِّي عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرْتُ للرحمٰن صوْماً فلن أُكلِّم اليوم إنسياً * فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئتِ شيئاً فَرِياً * يا أُخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوْء وما كانت أُمك بَغِيا * فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً * قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمتُ حيًّا * وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً * والسلام عليَّ يوم ولدتُ ويوم أموت ويوم أبعثُ حيًّا * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون * وإن الله ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم * فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويلٌ للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾(١) .

ذكر تعالى هذه القصة بعد قصة زكريا التي هي كالمقدمة لها والتوطئة قبلها ، كما ذكر في سورة آل عمران ، قرن بينهما في سياق واحد وكما قال في سورة الأنبياء :

(١) سورة مريم الآيات ١٦ ـ ٣٧ .

﴿ وزكريا إذ نادى ربه ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين * والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آيةً للعالمين ﴾[1] .

وقد تقدم أن مريم لما جعلتها أمها محرَّرة تخدم بيت المقدس ، وأنه كفلها زوج أختها أو خالتها نبي ذلك الزمان زكريا عليه السلام ، وأنه إتخذ لها محراباً وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه ، وأنها لما بلَغت اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادات ، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام وأنها خاطبتها الملائكةُ بالبشارة لها باصطفاء الله لها ، وبأنه سيهب لها ولداً زكيًّا يكون نبياً كريماً طاهراً مكرماً مؤيداً بالمعجزات ، فتعجَّبت من وجود ولد من غير والد ، لأنها لا زوج لها ، ولا هي ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمراً فإنه يقول له كن فيكون ، فاستكانت لذلك وأنابت وسلَّمت لأمر الله ، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها ، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه ، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل .

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء . فبينما هي يوماً قد خرجت لبعض شؤونها و﴿ أنتبذت ﴾ أي أنفردت وحدها شرقيَّ المسجد الأقصى إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فتمثَّل لها بشراً سوياً ﴾ فلما رأته ﴿ قالت إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾ قال أبو العالية : علمت أن التقي ذو نهية . وهذا يرد قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه « تقي » فإن هذا قول باطل بلا دليل ، وهو من أسخف الأقوال .

﴿ قال إنما أنا رسول ربك ﴾ أي خاطبها الملك قائلاً ﴿ إنما أنا رسول ربك ﴾ أي لست ببشر ولكني ملك بعثني الله إليك ﴿ لأهبَ لك غلاماً زكيًّا ﴾ أي ولداً زكياً .

﴿ قالت أنَّى يكون لي غلام ﴾ أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ ولم يَمْسسني بشَر ولم أك بغياً ﴾ أي ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة ﴿ قال كذلك قال ربك هو عليَّ هينٌ ﴾ أي فأجابها الملك عن تعجبها ، من وجود ولد منها والحالة هذه قائلاً : ﴿ كذلك قال ربك ﴾ أي وعد أنه سيخلق منك غلاماً ولست بذات بعل ولا تكونين ممن تبغين ﴿ هو عليَّ هينٌ ﴾ أي وهذا سهل عليه ويسير لديه ، فإنه على ما يشاء قدير .

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٨٩ ـ ٩١ .

وقوله : ﴿ ولنجعله آيةً للناس ﴾ أي ولنجعل خَلْقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق ، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أُنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أُنثى ، وخلق عيسى من أُنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الخلق من ذكر وأُنثى . وقوله ﴿ ورحمةً منا ﴾ أي نرحم به العباد بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره في طفوليته وكهوليته ، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد والشركاء والنظراء والأضداد والأنداد .

وقوله : ﴿ وكان أمراً مَقْضِيًّا ﴾ . يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل معها ، يعني أن هذا أمر قد قضاه الله وحتَّمه وقره وقرره ، وهذا معنى قول محمد بن إسحاق واختاره ابن جرير ، ولم يحك سواه . والله أعلم .

ويحتمل أن يكون قوله ﴿ وكان أمراً مقضيًّا ﴾ كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى :

﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾[1]

فذكر غير واحد من السلف أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة الى فرجها فحملت من فورها ، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها . ومن قال إنه نفخ في فمها أو أن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها ، فقوله خلاف ما يُفهم من سياقات هذه القصة في محالها من القرآن ، فإن هذا السياق يدل على أن الذي أُرسل إليها ملك من الملائكة وهو جبريل عليه السلام ، وأنه إنما نفخ فيها ولم يواجه الملك الفرجَ بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه ، كما قال تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ فدلَّ على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها ، كما رواه السُّدي بإسناده عن بعض الصحابة .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فحملته ﴾ أي فحملت ولدها ﴿ فانتبذت به مكاناً قصيًّا ﴾ وذلك لأن مريم عليها السلام لما حملت ضاقت به ذرعاً ، وعلمت أن كثيراً من الناس سيكون منهم كلام في حقها ، فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عُباد بني إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار ، وكان ابن خالها فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً ، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حبلى وليس لها زوج ، فعرَّض لها ذات يوم في الكلام فقال : يا مريم هل يكون زرع من غير بذر ؟ قالت : نعم ، فمن خلق الزرع الأول . ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت : نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أُنثى . قال لها : فأخبريني خبرك . فقالت : إن الله

---

(١) سورة التحريم الآية ١٢ .

بشرني ﴿ **بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرَّبين * ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين** ﴾ .

ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا . والله أعلم .

وذكر السدي بإسناده عن الصحابة : أن مريم ، دخلت يوماً على أُختها فقالت لها أختها : أشعرت أني حبلى ؟ فقالت مريم : وشعرت أيضاً أني حبلى ؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك وذلك قوله ﴿ **مصدِّقاً بكلمة من الله** ﴾ ومعنى السجود ها هنا الخضوع والتعظيم ، كالسجود عند المواجهة للسلام كما كان في شرع من قبلنا ، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم .

وقال أبو القاسم : قال مالك : بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة وكان حملها جميعاً معاً ، فبلغني أن أُم يحيى قالت لمريم : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك . قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام ، لأن الله تعالى جعله يحيي الموتى ويُبرىء الأكمه والأبرص .

رواه ابن أبي حاتم .

وروي عن مجاهد قال : قالت مريم كنت إذا خلوت حدَّثني وكلمني وإذا كنت بين الناس سبَّح في بطني .

ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعْن لميقات حملهن ووضعهن، إذ لو كان خلاف ذلك لذُكر .

وعن ابن عباس وعكرمة أنها حملت به ثمانية أشهر ، وعن ابن عباس ما هو إلا أن حملت به فوضعته . قال بعضهم : حملت به تسع ساعات واستأنسوا لذلك بقوله : ﴿ **فحملته فانتبذت به مكاناً قَصياً * فأجاءها المخاضُ إلى جِذع النخلة** ﴾ .

والصحيح أن تعقيب كل شيء بحسبه ، كقوله : ﴿ **فتصبح الأرض مخضرَّة** ﴾[1] . وكقوله : ﴿ **ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العَلقة مضغْة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خَلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[2] ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يوماً كما ثبت في الحديث المتفق عليه .

---

(١) سورة الحج الآية ٦٣ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٤

قال محمد بن إسحق : شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل ، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل بيت زكريا .

قال : واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد ، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكاناً قصياً . وقوله : ﴿ **فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة** ﴾ أي فألجأها واضطرها الطلْق إلى جذع النخلة ، وهو بنص الحديث الذي رواه النسائي بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً والبيهقي بإسناده وصححه عن شداد بن أوْس مرفوعاً أيضاً ببيت لحم الذي بنى عليه بعض ملوك الروم فيما بعد على ما سنذكره هذا البناء المشاهد الهائل .

﴿ **قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً** ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن ، وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يُصدقونها بل يُكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة[1] فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ **نسياً منسياً** ﴾ أي لم تُخلق بالكلية .

وقوله : ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ وقرىء من تحتها على الخفض ، وفي المضمر قولان : أحدهما أنه جبريل . قاله العَوْفي عن ابن عباس قال : ولم يتكلم عيسى إلا بحضرة القوم . وبهذا قال سعيد بن جُبَيْرَ وعمرو بن ميمون والضحاك والسُّدي وقتادة . وقال مجاهد والحسن وابن زيد وسعيد ابن جبير في رواية : هو ابنها عيسى[2] . واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ **ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً** ﴾ . قيل : النهر وإليه ذهب الجمهور . وجاء فيه حديث رواه الطبراني لكنه ضعيف واختاره ابن جرير وهو الصحيح وعن الحسن والربيع بن أناس وابن أسلم وغيرهم أنه آبنها . والصحيح الأول لقوله : ﴿ **وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً** ﴾ فذكر الطعام والشراب ولهذا قال : ﴿ **فكلي وآشربي وقري عيناً** ﴾ .

ثم قيل : كان جذع النخلة يابساً وقيل : كانت نخلة مثمرة فالله أعلم . ويحتمل أنها كانت نخلة ، لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك ، لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر ، وقد يُفهم ذلك من قوله تعالى على سبيل الإمتنان ﴿ **تساقط عليك رطباً جَنياً** ﴾ .

قال عمرو بن ميمون : ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا شيبان ، حدثنا مسرور بن سعيد التميمي ، حدثنا

---

(١) من آل عمران .

(٢) وهو الأرجح .

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي[1] عن عروة بن رُوَيم عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « أكرموا عمتكم النخلة فإنها خُلقت من الطين الذي خُلق منه آدم وليس من الشجر شيء يلقح غيرها » وقال رسول الله ﷺ : « أطعموا نساءكم الولد الرطَبَ ، فإن لم يكن رطب فتمر ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » .

وكذا رواه أبو يعلى في مسنده عن شيبان بن فَرُّوخ ، عن مسروق بن سعيد ، وفي رواية مسرور بن سعد . والصحيح مسرور بن سعيد التميمي ، أورد له ابن عدّي هذا الحديث عن الأوزاعي به ثم قال : وهو منكر الحديث ولم أسمع بذكره إلا في هذا الحديث .

وقال ابن حبان : يروى عن الأوزاعي المناكير الكثيرة التي لا يجوز الاحتجاج بمن يرويها .

وقوله : ﴿ **فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أُكلِّم اليوم إنسياً** ﴾ وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها قال : ﴿ **كلي واشربي وقرّي عيناً ، فإما ترين من البشر أحداً** ﴾ أي فإن رأيت أحداً من الناس ﴿ **فقولي** ﴾ له أي بلسان الحال والإشارة ﴿ **إني نذرت للرحمن صوماً** ﴾ أي صمتاً ، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام . قاله قتادة والسُّدي وابن أسلم . ويدل على ذلك قوله : ﴿ **فلن أُكلِّم اليوم إنسياً** ﴾ فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت اليوم إلى الليل .

وقوله تعالى :

﴿ **فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئتِ شيئاً فريًّا * يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأَ سوءٍ وما كانت أُمك بَغيًّا** ﴾ .

ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب ، أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها ، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها : ﴿ **يا مريم لقد جئتِ شيئاً فريًّا** ﴾ أي أمراً عظيماً منكراً ، وفي هذا الذي قالوه نظر ، مع أنه كلام ينقض أوله آخره وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله . قال ابن عباس : وذلك بعد ما تعالتْ من نفاسها بعد أربعين يوماً .

والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها ﴿ **قالوا يا مريم لقد جئتِ شيئاً فريًّا** ﴾ والفِريَّة هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال .

ثم قالوا لها : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ قيل شبهوها بعابد من عبَّاد زمانهم كانت تساميه في العبادة ، وكان اسمه هارون . قاله سعيد بن جُبَير . وقيل : أرادوا بهارون أخا موسى شبهوها به

(١) وروي : الأنصاري .

في العبادة . وأخطأ محمد بن كعب القُرَظِي في زعمه أنها أُخت موسى وهارون نسباً ، فإن بينهما من الدهور الطويلة ما لا يخفى على أدنى من عنده من العلم ما يرده عن هذا القول الفظيع ، وكأنه غره أن في التوراة أن مريم أخت موسى وهارون ضربت بالدف يوم نجَّى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وملأه، فاعتقد أن هذه هي هذه .

وهذا في غاية البطلان والمخالفة للحديث الصحيح مع نص القرآن كما قررناه في التفسير مطولاً ولله الحمد والمنة .

وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون وليس في ذكر قصة ولادتها وتحرير أُمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها . والله أعلم .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن إدريس ، سمعت أبي يذكره ، عن سَماك ، عن علقمة بن وائل ، عن المغيرة بن شُعبة ، قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » .

وكذا رواه مسلم والنسائي والترمذي من حديث عبد الله بن إدريس ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديثه وفي رواية : ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بأسماء صالحيهم وأنبيائهم » .

وذكر قتادة وغيره أنهم كانوا يكثرون من التسمية بهارون حتى قيل : إنه حضر بعض جنائزهم بشرٌ كثير منهم ممن يسمى بهارون أربعون ألفاً . فالله أعلم .

والمقصود أنهم قالوا : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ ودل الحديث على أنها قد كان لها أخ نسبي اسمه هارون وكان مشهوراً بالدين والصلاح والخير ، ولهذا قالوا : ﴿ **ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أُمكِ بغياً** ﴾ أي لست من بيتٍ هذا شيمتهم ولا سجيتهم لا أخوك ولا أمك ولا أبوك ، فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء .

فذكر ابن جرير في تاريخه أنهم اتهموا بها زكريا وأرادوا قتله ففر منهم فلحقوه وقد انشقت له الشجرة فدخلها وأمسك إبليس بطرف ردائه فنشروه فيها كما قدمناه . ومن المنافقين من اتهمها بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار .

فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال ، عظُم التوكل على ذي الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص والإتكال ﴿ **فأشارت إليه** ﴾ أي خاطِبوه وكلِّموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه فعندها ﴿ **قالوا** ﴾ من كان منهم جباراً شقيّاً ﴿ **كيف نكلم من كان في المهد صبياً** ﴾ أي كيف

تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب ، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز بين مَحض وزبَده ، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والإستهزاء والتنقص لنا والازدراء ، إذ لا تردين علينا قولاً نطقيًا ، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبيًا .

فعندها : ﴿ **قال إنِّي عبدُ الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حياً * وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيًّا * والسلام عليَّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أُبعث حياً** ﴾ .

هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم ، فكان أول ما تكلم به أن ﴿ **قال إني عبدالله** ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية ، وأن الله ربُّه فنزه جنابَ الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله ، بل هو عبده ورسوله وابن أمته ، ثم برأ أُمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله : ﴿ **آتاني الكتاب وجعلني نبياً** ﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله وقبحهم ، كما قال تعالى : ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً** ﴾ [1] وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا إنها حملت به من زنا في زمن الحيض ، لعنهم الله فبـرَّأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صدِّيقة واتخذ ولدَها نبيًّا مرسلاً أحد أُولي العزم الخمسة الكبار ولهذا قال : ﴿ **وجعلني مباركاً أين ما كنت** ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونزه جَنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدَّس ﴿ **وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمت حيًا** ﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة ، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة ، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف وقِرَى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات .

ثم قال : ﴿ **وبرًّا بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً** ﴾ أي وجعلني براً بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحّض جهتها إذ لا والد له سواها ، فسبحان من خلق الخليقة وبرَأها وأعطى كل نفس هُداها ﴿ **ولم يجعلني جبَّاراً شقياً** ﴾ أي لست بفظ ولا غليظ ، ولا يَصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته .

﴿ **والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً** ﴾ وهذه المواطِن الثلاثة التي تقدم الكلام عليها في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٦ .

ثم لما ذكر تعالى قصته على الجلية وبيَّن أمره ووضحه وشرحه قال : ﴿ **ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذي فيه يَمْتَرون * ما كـان لله أن يتخذ من ولـد ، سبحانـه ، إذا قضى أمراً فـإنما يقـولُ له كُن فيكون** ﴾ .

كما قال تعالى بعد ذكر قصته وما كان من أمره في آل عمران : ﴿ **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذِّكر الحكيم * إن مثل عيسى عند الله كمثل آدمَ ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحقُّ من ربك فلا تكن من الممترين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العِلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسَنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعلْ لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصصُ الحق ، وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم * فإن تولَّوا فإن الله عَليم بالمفسدين** ﴾[(١)] .

ولهذا لما قدم وفدُ نجـران وكانـوا ستين راكبـاً يرجـع أمرهـم إلى أربعـة عشر منهم ، ويؤول أمر الجميـع إلى ثلاثـة هم أشرافهم وسـاداتهم وهـم : العاقب والسيِّـد وأبو حـارثـة بن عَلْقمـة ، فجعلوا يناظرون في أمر المسيح فأنزل الله صـدْرَ سورة آل عمـران في ذلك ، وبـينَّ أمر المسيح وابتداء خلقـه وخلْق أُمـه من قبله ، وأمر رسـوله بـأن يَباهلهم إن لم يستجيبـوا له ويتبعـوه ، فلما رأوا عينيها وأذنيهـا نكصوا وامتنعوا عن المباهلة وعدلوا إلى المسالمـة والموادعَـة وقال قـائلهم ، وهو العـاقب عبد المسيـح : يـا معشر النصارى لقـد علمتم أن محمداً لنبي مـرسَل ، ولقـد جاءكم بالفصْل من خبـر صاحبكم ، ولقـد علمتم أنه مـا لاعَن قومٌ نبيًّـا قط فبقي كبيـرهـم ولا نبَت صغيـرهم وإنها لـلاستئصـال منكم إن فعلتم ، فـإن كنتم قـد أبيتم إلا إلف دينكم والإقـامـة عـلى مـا أنتم عليــه من القـول في صـاحبكم فـوادِعوا الـرجل وانصـرفوا إلى بـلادكم ، فطلبـوا ذلك من رسـول الله ﷺ وسألـوه أن يضرب عليهم جـزية وأن يبعث معهم رجـلاً أميناً ، فبعث معهم أبـا عبيدة بن الجـراح وقد بينـا ذلـك في تفسـير آل عمران وقد بسطنا هذه القصة في السيرة النبوية .

والمقصـود أن الله تعالى بـينَّ أمرَ المسيـح فقال لـرسولـه : ﴿ **ذلـك عيسى ابن مـريم قـولَ الحق الذي فيه يمتـرون** ﴾ يعني من أنه عبـدٌ مخلوق من امرأة من عبـاد الله ، ولهذا قـال : ﴿ **ما كـان لله أن يتخـذ من ولدٍ ، سبحـانه إذا قضى أمـراً فإنمـا يقول لـه كن فيكون** ﴾ أي لا يعجـزه شيء ولا يَكرثـه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء ﴿ **إنما أمـرُه إذا أراد شيئاً أن يقـول له كن فيكـون** ﴾ وقولـه : ﴿ **وإن الله ربي وربكم فـأعبـدوه هـذا صـراط مستقيم** ﴾ هـو من تـمام كـلام عيسى لهم في المهـد ، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلٰهه وإلٰههم ، وأن هذا هو الصراط المستقيم .

قال الله تعالى : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيم** ﴾[(٢)] أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه .

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٥٨ ـ ٦٣ .

(٢) سورة مريم الآية ٣٧ .

فمن قائل من اليهود : إنه ولد زِنية ، واستمروا على كفرهم وعنادهم .

وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله .

وقال المؤمنون : هو عبد الله ورسوله وابن أمَته وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون ، وقد توعَّدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله : ﴿ **فويلٌ للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيمٍ** ﴾ .

قال البخاري : حدثنا صدقة بن الفضل ، أنبأنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني عمَير بن هانىء ، حدثني جَنادة بن أبي أُمية ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » .

قال الوليد : فحدثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن عمير ، عن جنادة : وزاد : من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء .

وقد رواه مسلم عن داود بن رشيد ، عن الوليد ، عن جابر به ومن طريق أُخرى عن الأوزاعي به .

باب بيان أن الله تعالى منزه عن الولد

تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً

وقال تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً ﴾ [1] شيئاً عظيماً ومنكراً من القول وزوراً ﴿ تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشقُّ الأرض وتخِر الجبال هدّاً * أن دَعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إنْ كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدَّهم عَداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرْداً ﴾[2] .

فبين أنه تعالى لا ينبغي له الولد لأنه خالق كل شيء ومالكه ، وكل شيء فقير إليه ، خاضع ذليل لديه وجميع سكان السموات والأرض عبيده ، هو ربهم لا إله إلا هو ولا رب سواه كما قال تعالى :

﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علمٍ سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السماوات والأرض أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيءٍ وهو بكل شيء عليمٌ * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيءٍ فاعبدوه وهو على كل شيءٍ وكيلٌ * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[3] .

فبيَّن أنه خالق كل شيء فكيف يكون له ولد ، والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا نظير له ولا شبيه ، ولا عديل له ، فلا صاحبة له ، فلا يكون له ولد كما قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحدٌ * الله الصمد * لم يلد ولم يُولد * ولم يكن له كفواً أحدٌ ﴾[4] . يقرر أنه الأحد الذي لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ الصمد ﴾ وهو السيد الذي كَمُل في علمه

(١) سورة مريم الآيتان ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) سورة مريم الآيات ٩٠ ـ ٩٥ .

(٣) سورة الأنعام الآيات ١٠٠ ـ ١٠٣ .

(٤) سورة الاخلاص بتمامها .

وحكمته ورحمته بَلغ جميع صفاته ﴿ لم يلد ﴾ أي لم يوجد منه ولد ﴿ ولم يولد ﴾ أي ولم يتولد عن شيء قبله ﴿ ولم يكن له كفواً أحدٌ ﴾ أي وليس له عدْل ولا مكافىء ولا مساوٍ ، فقطع النظر المداني والأعلى والمساوِي ، فانتفى أن يكون له ولد ، إذ لا يكون الولد إلا متولداً بين شيئين متعادلين أو متقاربين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقال تبارك وتعالى وتقدس :

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على آلله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه فآمنوا بآلله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكم إنما الله إلهٌ واحدٌ سبحانه أن يكون له ولدٌ له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً * لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين آستنكفوا وآستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون آلله ولياً ولا نصيراً ﴾[1] .

ينهى تعالى أهل الكتاب ومن شابههم من الغلو والإطراء في الدين وهو مجاوزة الحد ، فالنصارى لعنهم الله غَلوا وأطْرَوا المسيح حتى جاوزوا الحد .

فكان الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التي أحصنت فرجها فبعث الله الملك جبريل إليها فنفخ فيها عن أمر الله نفخة حملت منها بولدها عيسى عليه السلام ، والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم ، وهي مخلوقة من مخلوقات الله تعالى كما يقال : بيت الله وناقة الله وعبد الله ، وكذا روح الله أُضيفت اليه تشريفاً لها وتكريماً . وسمي عيسى بها لأنه كان بها من غير أب وهي الكلمة أيضاً التي عنها خُلق وبسببها وُجد كما قال تعالى : **﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾**[2] . وقال تعالى : **﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، بل له ما في السماوات والأرض كلٌ له قانتون * بديعُ السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾**[3] .

---

(١) سورة النساء الآيات ١٧١ ـ ١٧٣ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٩ .

(٣) سورة البقرة الآيتان ١١٦ ، ١١٧ .

وقال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يُؤفكون** ﴾[١] .

فأخبر تعالى أن اليهود والنصارى عليهم لعائن الله ، كل من الفريقين ادعوا على الله شططاً وزعموا أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وأخبر أنهم ليس لهم مستند فيما زعموه ولا فيما ائتفكوه ، إلا مجرد القول ومشابهة من سبقهم إلى هذه المقالة الضالة تشابهت قلوبهم .

وذلك أن الفلاسفة عليهم لعنة الله زعموا أن العقل الأول صدر عن واجب الوجود الذي يعبِّرون عنه بعلة العلل والمبدأ الأول ، وأنه صدر عن العقل الأول عقل ثانٍ ونفس وفلك ، ثم صدر عن الثاني كذلك حتى تناهت العقول إلى عشرة والنفوس إلى تسعة والأفلاك إلى تسعة ، باعتبارات فاسدة ذكروها واختيارات باردة أوردوها . ولبسط الكلام معهم وبيان جهلهم وقلة عقلهم موضع آخر .

وهكذا طوائف من مشركي العرب زعموا لجهلهم أن الملائكة بنات الله ، وأنه صاهر سَروات الجن فتولد منها الملائكة . تعالى الله عما يقولون وتنزه عما يشركون .

كما قال تعالى : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عِبَاد الرحمن إناثاً أَشَهِدوا خلقهم ، ستُكتب شهادتهم ويُسئَلون** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **فاستفتهم أَلربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون * أَلا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمو ن * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مُبينٌ * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين * وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون * إلَّا عباد الله المخلصين** ﴾[٣] .

وقال تعالى :﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلَّا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إلهٌ من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين** ﴾[٤] .

---

(١) سورة التوبة الآية ٣٠ .

(٢) سورة الزخرف الآية ١٩ .

(٣) سورة الصافات الآيات ١٤٩ ـ ١٦٠ .

(٤) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ ـ ٢٩ .

وقال تعالى في أول سورة الكهف وهي مكية :

﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيِّماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علمٍ ولا لآبائهم كبرت كلمةً تخرج من أفواههم ان يقولون إلاّ كذباً ﴾(١) .

وقال تعالى: **﴿قالوا آتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل إنَّ الذين يفترون على الله الكذب لا يُفلحون * متاعٌ في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾**(٢) .

فهذه الآيات المكيات الكريمات تشمل الرد على سائر فرق الكفرة من الفلاسفة ومشركي العرب واليهود والنصارى الذين آدَّعوا وزعموا بلا علم(٣) أن لله ولداً سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون المفترون(٤) علواً كبيراً .

ولما كانت النصارى عليهم لعنات الله المتتابعة إلى يوم القيامة من أشهر من قال بهذه المقالة ذُكروا في القرآن كثيراً للرد عليهم وبيان تناقضهم ، وقلة علمهم ، وكثرة جهلهم ، وقد تنوَّعت أقوالهم في كفرهم ، وذلك أن الباطل كثير الشغب والاختلاف والتناقض(٥) .

---

(١) سورة الكهف الآيات ١ ـ ٥ .

(٢) سورة يونس الآيات ٦٨ ـ ٧٠

(٣) ورؤي : بلا دليل

(٤) لأنهم يفترون على الله الكذب .

(٥) يبدأ إنجيل متى بالقول : « كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود بن ابراهيم » ويتابع حبل النسب الى أن يصل الى السيدة مريم . فإذا كان ابنا لداود فكيف يكون ابناً لله أو هو الله كما يدعون استغفر الله العظيم .

ويقولون أن يوسف لم يعرفها حتى وضعت عيسى عليه السلام أي أنه عرفها بعد ذلك . . .

ويقولون أن يوسف أخذها وأخذ الصبي وهرب إلى مصر لكي لا يقتله هيرودوس فإذا كان ابناً لله (استغفر الله) كما يدعون فلا يمكن أن يقتل أو يموت فلماذا أمره الملاك بأخذه والفرار به إلى مصر . في نفس الانجيل الإصحاح الخامس العدد ١٧ » .

« لا تظنوا أني جئت لانقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل » .

فمن يأتي لإكمال رسالة من جاء قبله لزم أن يكون مساوياً له متابعاً نفس طريقه ، فكيف يكون كما يقولون ويأتي ليكمل فقط .

وأمـا الحق فلا يختلف ولا يضـطرب . قال الله تعـالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾(١) . فـدل على أن الحق يتحـد ويتفق والباطـل يختلف ويضطرب . فـطائفة من ضلالهم وجهالهم زعمـوا أن المسيح هـو الله تعالى . وطـائفة قـالوا : هـو ابن الله ، عز الله . وطـائفة قالوا : هو ثالث ثلاثة . جل الله .

قال الله تعالى في سـورة المائـدة : ﴿ لقد كفـر الذين قـالوا إن الله هـو المسيح ابن مـريم ، قل فمن يملك من الله شيئـاً إنْ أراد أن يُهلك المسيـح ابن مـريم وأُمـه ومن في الأرض جميعـاً ، ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير ﴾(٢) .

فـأخبر تعـالى عن كفرهم وجهلهم وبـين أنه الخـالق القادر عـلى كـل شيء وأنـه رب كـل شيء ومليكه وإلٰهه . وقال في أواخرها :

﴿ لقد كفر الذين قالـوا إن الله هو المسيـح ابن مريم وقـال المسيح يـا بني إسرائيـل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يُشرك بالله فقد حـرَّم الله عليه الجنـة ومأواه النـار وما للظالـمين من أنصارٍ * لقـد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثةٍ وما من إلهٍ إلاَّ إله واحـدٌ وإن لم ينتهوا عـمَّا يقولـون ليمسن الذين كفـروا منهم عذابٌ أليمٌ * أفـلا يتـوبـون إلى الله ويستغفـرونـه والله غفـورٌ رحيمٌ * مـا المسيـح ابن مـريم إلا رسولٌ قـد خلت من قبله الرسـلُ وأمه صـديقةٌ كـانا يـأكلان الـطعام انـظر كيف نُبين لهم الآيات ثم انظر أنَّى يؤفكون ﴾(٣) .

حكم تعالى بكفرهم شرعاً وقدَراً ، فأخبر أن هذا صـدر منهم مع أن الـرسول إليهم هـو عيسى ابن مـريم ، وقد بـيَّن لهم أنـه عبـدٌ مـربـوب مخلوق مصـوَّر في الـرحم داعٍ إلى عبـادة الله وحـده لا شـريك لـه ، وتوعـدهم على خـلاف ذلك بـالنار وعـدم الفوز بـدار القرار والخـزي في الدار الآخـرة والهـوان والعار ، ولهـذا قال : ﴿ إنـه من يشرك بـالله فقد حـرَّم الله عليـه الجنـة ومـأواه النـار ، ومـا للظالمين من أنصار ﴾(٤)

ثم قال : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثةٍ وما من إله إلا إلهٌ واحدٌ ﴾ قـال ابن

---

(١) سورة النساء الآية ٨٢ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٧ .

(٣) سورة المائدة الآيات ٧٢ ـ ٧٥ .

(٤) سورة المائدة الآية ٧٢ .

جرير وغيره : المراد بذلك قولهم بالأقانيم الثلاثة : أقنوم الأب وأقنوم الأبن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الأبن ، على اختلافهم في ذلك ما بين الملكانية[1] واليعقوبية والنَّسْطورية ، عليهم لعائن الله كما سنبين كيفية اختلافهم في ذلك ومجامعهم الثلاثة في زمن قسطنطين بن قسطس ، وذلك بعد المسيح بثلاثمائة سنة وقبل البعثة المحمدية بثلاثمائة سنة .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما من إله إلا إلهٌ واحدٌ** ﴾ أي وما من إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نظير له ولا كفؤ له ولا صاحبة له ولا ولد ، ثم توعدهم وتهددهم فقال : ﴿ **وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّن الذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ** ﴾ ثم دعاهم برحمته ولطفه إلى التوبة والاستغفار من هذه الأمور الكبار والعظائم التي توجب النار فقال : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفورٌ رحيمٌ** ﴾

ثم بينَّ حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول الله وأُمه صِدِّيقة ، أي ليست بفاجرة كما يقوله اليهود لعنهم الله ، وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا . وقوله ﴿ **كانا يأكلان الطعام** ﴾ كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما ، أي ومن كان بهذه المثابة كيف يكون إلٰهاً ! تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيراً[2] .

وقال السدي وغيره : المراد بقوله : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثةٍ** ﴾ زعمهم في عيسى وأُمه أنهما الإلٰهان مع الله ، يعني كما بين تعالى كفرهم في ذلك بقوله في آخر هذه السورة الكريمة :

﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس آتخذوني وأُمي إلٰهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علّام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن آعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دُمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيءٍ شهيدٌ * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[3] .

---

(١) ويقال الملكية : وكل هذا أسماء لمسمى واحد هو الشرك بالله ، تعالى الله عما يصفون .

(٢) أولاً : في الآرامية والعبرية المناداة باسم « رب » للسيد كانت مستعملة وقد وردت أيضاً في القرآن الكريم « ربه » بمعنى سيده .

ثانياً : عندما انتقلت المسيحية الى الدولة الرومانية الوثنية ، جرى التحريف المعنوي للكلمات وبعده التحريف الكامل لرسالة المسيح حتى صارت صورة جديدة عن الوثنية القديمة .

ثالثاً : أورثت الوثنية الرومانية المسيحية السجود للأصنام والأوثان والصلاة لها ، وزيارة أي كنيسة كافية لرؤية الأوثان والراكعين لها .

رابعاً : في الأناجيل الأربعة يسمي المسيح المؤمنين بأبناء الله بمعنى السالكين طريقه والعاملين بأوامره ففي هذا المعنى ما الفرق في النوع بين المسيح وتلاميذه ، الفرق في الدرجة فقط لأن الله اختصه بالنبوة .

(٣) سورة المائدة الايات ١١٦ ـ ١١٨ .

يخبر تعالى أنه يسأل [illegible] السلام يوم القيامة على سبيل الإكرام له والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وا[illegible] زعم أنه ابن الله ، أو أنه الله أو أنه شريكه ، تعالى الله عما يقولون ، فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول : **أأنت قلت للناس إتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله ، قال سبحانك** ﴾ أي تعاليت أن يكون معك شريك ﴿ **ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق** ﴾ أي ليس هذا يستحقه أحد سواك ﴿ **إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علَّام الغيوب** ﴾ وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتني به** ﴾ أي ما قلت غير ما أمرتني عليه حين أرسلتني إليهم وأنزلت عليَّ الكتاب الذي كان يُتلى عليهم . ثم فسر ما قال لهم بقوله : ﴿ **أن آعبدوا الله ربي وربكم** ﴾ أي خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿ **وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني** ﴾ أي رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصَلْبي فرحمتني وخلَّصتني منهم وألقيت شَبهي على أحدهم حتى انتقموا منه فلما كان ذلك ﴿ **كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد** ﴾ .

ثم قال على وجه التفويض الى الرب عز وجل والتبري من أهل النصرانية : ﴿ **إنْ تعذِّبهم فإنهم عبادك** ﴾ أي وهم يستحقون ذلك ﴿ **وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك ، ولهذا قال : ﴿ **فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم .

وقد ذكرنا في التفسير ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قام بهذه الآية الكريمة ليلةً حتى أصبح : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ وقال ﷺ : إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يُشرك بالله شيئاً .

وقال تعالى :

﴿ **وما خلقنا السماء وآلارض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين * بل نقذفُ بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهقٌ ولكم الويل مما تصفون * وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يُسبحون الليل والنهار لا يفتُرون** ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ١٦ ـ ٢٠ .

وقال تعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه ، هو الله الواحد القهار * خلق السماوات والأرض بالحق ، يُكوِّر الليل على النهار ويكوِّر النهارَ على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كلٌّ يجري لأجل مسمى ، ألا هو العزيز الغفار ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أولُ العابدين * سبحان رب السماوات والأرض ربِّ العرش عما يصفون ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل وكبره تكبيراً ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد ﴾ [4].

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تعالى : « شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، يزعم أن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم أَلِد ولم أُولد ولم يكن لي كفواً أحد » .

وفي الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحدٌ أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » .

ولكن ثبت في الصحيح أيضاً عن رسول الله أنه قال : « إن الله ليُمْلي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إن أخذه أليمٌ شديدٌ ﴾ [5]

وهكذا قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية أمليتُ لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظٍ ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مَرْجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾[8] . وقال تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ [9]

---

(١) سورة الزمر الآيتان ٤ ، ٥ .

(٢) سورة الزخرف الآيتان ٨١ ، ٨٢ .

(٣) سورة الاسراء الآية ١١١ .

(٤) سورة الاخلاص .

(٥) سورة هود الآية ١٠٢ .

(٦) سورة الحج الآية ٤٨ .

(٧) سورة لقمان الآية ٢٤ .

(٨) سورة يونس الآيتان ٦٩ ، ٧٠ .

(٩) سورة الطارق الآية ١٧ .

ذكر منشأ عيسى بن مريم عليهما السلام
ومرباه في صغره وصباه ، وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريباً من بيت المقدس .

وزعم وهب بن منبه أنه ولد بمصر وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينها وبين الأكاف[1] شيء .

وهذا لا يصح ، والحديث الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم ؛ كما ذكرنا ، ومهما عارضه فباطل .

وذكر وهب بن منبه أنه لما خرت الأصنام يومئذٍ في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير أَمْرَ عيسى فوجدوه في حجر أُمه والملائكة محدقة به ، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا : هذا لمولد عظيم في الأرض ، فبعث رسله ومعهم ذهب ومرّ ولبّان هدية إلى عيسى[2] ، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدَمهم فذكروا له ذلك ، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم إليه بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه ، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها : إن رسل ملك الشام إنما جاؤوا ليقتلوا ولدك . فاحتملته فذهبت به إلى مصر ، فأقامت به حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره . فذكر منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذها ، وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرها ، فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه فقال للأعمى احمل هذا المقعد وانهض به . فقال : إني لا أستطيع ذلك . فقال : بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار . فلما قال ذلك صدَّقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً .

ومن ذلك ان ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده ، فلما اجتمع الناس

---

(١) الأكاف : البرذعة .

(٢) انجيل متى ـ الاصحاح الثاني .

وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شراباً يعني خمراً ، كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان لم يجد في جراره شيئاً فشق ذلك عليه . فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجِرَار ويُمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب فتعجَّب النَاس من ذلك جداً وعظموه وعرضوا عليه وعلى أُمه مالاً جزيلاً . فلم يَقْبلاه وارتحلا قاصدين بيتَ المقدس[1] . والله أعلم .

وقال إسحاق بن بشر : أنبأنا عثمان بن ساج وغيره ، عن موسى بن وردان ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، وعن مكحول عن أبي هريرة قال : إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل ، فمجَّد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله لم يَدع شمساً ولا قمراً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال : « اللهم أنت القريب في علوك ، المتعال في دنوك ، الرفيع على كل شيء من خلْقك ، أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقاً أَجَبْنَ وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك ، فيهن ملائكتك يسبحون قُدْسك لتقديسك ، وجعلت فيهن نوراً على سواد الظلام وضياء من ضوءالشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسبِّح بالحمد ، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك ، وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في الظلمات الحيران ، فتباركت اللهم في مفطور سمواتك وفيما دحَوت من أرضك دحوتها على الماء فسمَكتْها على تيار الموج الغامر ، فأذللتها إذلال التظاهر ، فذلَّ لطاعتك صعبها واستحيا لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها ، ففجَّرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار ، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتاداً على ظهر الماء ، فأطاعت أطوادها وجلمودها .

فتباركت اللهم ! فمن يَبلغ بنعته نعتك أم من يبلغ بصفته صفتك ، تنشر السحابَ وتفك الرقابَ وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين ، لا إله إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب ، لا إله إلا أنت سبحانك سترت السموات عن الناس ، لا إله إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياسُ ، نشهد أنك لست بإله استحدثناك ، ولا رب يبيَد ذكره ، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونَذَرَك ، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك ، نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد » .

وقال إسحاق بن بشر : عن جُويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان . ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أُمه من القول ، وكانوا يسمونه ابن البغِية وذلك قوله تعالى : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾[2]

(١) أيضاً من الأناجيل الأربعة .

(٢) سورة النساء الآية ١٥٦ .

قال : فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتاب ، فجعل لا يعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه ، فعلَّمه أبا جاد فقال عيسى : ما أبو جاد ؟ فقال المعلم : لا أدري فقال عيسى : كيف تعلمني ما لا تدري ؟ فقال المعلم : إذاً فعلمني . فقال له عيسى : فقم من مجلسك . فقام فجلس عيسى مجلسه فقال : سلني . فقال المعلم : فما أبو جاد ؟ فقال عيسى : الألف آلاء الله . والباء بهاء الله . والجيم بهجة الله وجماله . فعجب المعلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد »[1] .

ثم ذكر أن عثمان سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه على كل كلمة بحديث طويل موضوع لا يسئَل عنه ولا يَتمادى !

وهكذا روى ابن عَدِي من حديث إسماعيل بن عياش ، عن إسماعيل بن يحيى ، عن ابن أبي مُلَيكة ، عن ابن مسعود ، عن مسعر بن كدام عن عطية ، عن أبي سعيد ، رفع الحديث في دخول عيسى إلى الكتاب وتعليمه المعلم معنى حروف أبي جاد وهو مطول لا يُفرح به .

ثم قال ابن عدي : وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد لا يرويه غير إسماعيل . وروى ابن لهيعة عن عبدالله بن هبيرة قال : كان عبدالله بن عمر يقول : كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم : تريد أن أُخبرك ما خبأت لك أمك ؟ فيقول : نعم . فيقول : خبأتْ لك كذا وكذا . فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها : أطعميني ما خبأت لي . فتقول : وأي شيء خبأتُ لك ؟ فيقول : كذا وكذا . فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسى ابن مريم . فقالوا : والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم ، فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم في بيتٍ فسأل عنهم فقالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير ، فقال : اللهم كذلك ، فكانوا كذلك . رواه ابن عساكر .

وقال إسحق بن بشر ، عن جويبر ، ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله ، ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى ، فهمَّت به بنو إسرائيل ، فخافت أُمه عليه ، فأوحى الله إلى أُمه أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وجعلنا ابن مريم وأُمه آيةً وآويناهما إلى ربوةٍ ذات قرارٍ ومعينٍ ﴾[2].

---

(١) الأصح أن يقال أبجد .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٥٠ .

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفتها أنها ذات قرار ومعين ، وهذه صفة غريبة الشكل ، وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يُقرُّ عليه وارتفاع متسع ، ومع علوه فيه عيون الماء المعين ، وهو الجاري السارح على وجه الأرض فقيل : المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس ، ولهذا ﴿ **نـاداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريًّا** ﴾[1]. وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف ، وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق فلعله أراد تشبيه ذلك المكان بأنهار دمشق . وقيل ذلك بمصر ؛ كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقَّاه عنهم . . . والله أعلم ، وقيل : هي الرملة .

وقال إسحق بن بشر : قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه ، قال : إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا ، قال : فقدم عليه يوسف ابنُ خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إيليا وأقام بها حتى احدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي من العجائب ، فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره .

* * *

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

وقال أبو زُرْعة الدمشقي : حدثنا عبدالله بن صالح ، حدثني معاوية بن صالح ، عمن حدثه قال : « أُنزلت التوراة على موسى في ست ليالٍ خلوْن من شهر رمضان ، ونزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة واثنتين وثمانين سنة ، وأُنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثمانية عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاماً ، وأُنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان » .

وقد ذكرنا في التفسير عند قوله : ﴿ **شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن** ﴾[2] الأحاديث الواردة في ذلك ، وفيها أن الإنجيل أُنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

---

(١) سورة مريم الآية ٢٤ بلفظ : « فناداها . . . » .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

وذكر ابن جرير في تاريخه أنه أُنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة ، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة . كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وقال إسحاق بن بشر : وأنبأنا سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة ، ومقاتل عن قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة قال : أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم : يا عيسى جِد في أمري ولا تهن ، واسمع وأطع يا بن الطاهرة البكْر البَتول ، إنك من غير فحل ، وإنا خلقناك آية للعالمين ، فإياي فاعبد وعليَّ فتوكل ، خذ الكتاب بقوة ، فسر لأهل السريانية ، بلغ من بين يديك أني أنا الحق الحي القائم الذي لا أزول ، صَدقوا النبي الأمي العربي صاحب الجمل والتاج - وهي العمامة - والمدرعة والنعلين والهراوة - وهي القضيب - الأَنْجلَ العينين ، الصَّلْت الجبين ، الواضح الخدين ، الْجَعَد الرأس ، الكث اللحية ، المقرون الحاجبين ، الأقَنى الأنف ، المفلج الثَّنايا ، البادي العَنفقة ، الذي كأن عنقه إبريق فضة وكأن الذهب يجري في تراقيه ، له شعرات من لبته إلى سرته تجري كالقضيب ، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره ، شثن الكف والقدم ، إذا التفت التفت جميعاً وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صَبب ، عرَقه في وجهه كاللؤلؤ وريح المسك ينفح منه ، ولم يُرَ قبله ولا بعده مثله ، الحسنَ القامة الطيب الريح ، نكَّاح النساء ذا النسل القليل ، وإنما نسله من مباركة ، لها بيت - يعني في الجنة - من قصَب لا نصَب فيه ولا صخب ، تكفله يا عيسى في آخر الزمان كما كفل زكريا أمك ، له منها فرخان مستشهِدان وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر ، كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام ، طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه .

قال عيسى : يا رب . . . وما طوبى ؟ قال : غرْس شجرة أنا غرستها بيدي ، فهي للجنان كلها أصلها من رضوان وماؤها من تسنيم وبردها برد الكافور وطعمها طعم الزنجبيل وريحها ريح المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً .

قال عيسى : يا رب . . اسقني منها . قال : حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبي ، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أُمة ذلك النبي .

قال : يا عيسى ، أرفعك إليَّ . قال : رب ولِمَ ترفعني ؟ قال : أرفعك ثم أُهبطك في آخر الزمان لترى من أُمة ذلك النبي العجائب ولتعينهم على قتال اللعين الدجال ، أُهبطك في وقت صلاة ثم لا تصلي بهم لأنها مرحومة ولا نبي بعد نبيهم .

وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم ، عن عبد الرحمن بن زيد ، عن أبيه ، أن عيسى قال : يا رب أنبئني عن هذه الأُمة المرحومة . قال : أُمة أحمد ، هم علماء حكماء كأنهم أنبياء ،

يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل ، وأُدخلهم الجنة بلا إله إلا الله . يا عيسى هم أكثر سكان الجنة ، لأنها لم تَذل ألسُن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم ، ولم تذل رقابُ قوم قط بالسجود كما ذلت به رقابهم .

رواه ابن عساكر . وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن بديل العقيلي ، عن عبد الله بن عَوْسَجة قال : أوحى الله إلى عيسى ابن مريم : أنزلني من نفسك كهمِّك ، واجعلني ذخراً لك في معادك ، وتقرب إليَّ بالنوافل أُحبك ولا تولَّ غيري فأخذلك ، أصبر على البلاء وأرض بالقضاء ، وكن لمسرتي فيك ، فإن مسرتي أن أُطاع فلا أُعصى ، وكن مني قريباً وأَحْيِ ذِكري بلسانك ، ولتكن مودتي في صدرك ، تيقظ من ساعات الغفلة واحكم في لطيف الفطنة ، وكن لي راغباً راهباً وأمِتْ قلبك في الخشية لي ، وراعِ الليل لحق مسرتي وأظمِ نهارك ليوم الري عندي ، نافسْ في الخيرات جهدك ، واعترف بالخير حيث توجَّهت ، وقم في الخلائق بنصيحتي ، واحكم في عبادي بعدْلي ، فقد نزلت عليك شفاء وسواس الصدور ، من مرض النسيان وجلاء الأبصار من غشاء الكلال ، ولا تكن حلْماً كأنك مقبوض وأنت حي تنفس .

يا عيسى ابن مريم . . ما آمنتْ بي خليقة إلا خشعت ، ولا خشعت لي إلا رجَتْ ثوابي فأُشهدك أنها آمنة من عقابي ما لم تُغير أو تبدل سُنتي .

يا عيسى ابن مريم البكر البتول . إبكِ على نفسك أيامَ الحياة بكاء من ودَّع الأهلَ وقلا الدنيا وترك اللذات لأهلها وآرتفعت رَغْبته فيما عند إلٰه وكن في ذلك تُلين الكلام وتُفشي السلام ، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار ، حذار ما هو آتٍ من أمر المعاد وزلازل شدائد الأهوال ، قبل أن لا ينفع أهل ولا مال ، واكحل عينك بملول[1] الحزن إذا ضحك البطَّالون ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، وطوبى لك إن نالَكَ ما وعدتُ الصابرين ، أرْجُ من الدنيا بالله يوم يبعثون وذق مذاقة ما قد حزب منك أين طعمه ، وما لم يأتك كيف لذته ، فَرُحْ من الدنيا بالبلغة ، وليكفك منها الخشن الجثيب[2] ، قد رأيت إليَّ ما يصير ، اعمل على حساب فإنك مسؤول ، أو رأت عيناك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك .

وقال أبو داود في كتاب القدر : حدثنا محمد بن يحيى بن فارس ، حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معْمَرَعن الزهري ، عن ابن طاووس ، عن أبيه ، قال : لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال : أمَا علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب لك ؟ قال إبليس : فأوف[3] ذروة[4] هذا الجبل فتردى[5]؛

---

(١) الملول جمع ملة . وهي الرماد الحار ينضج فيه الخبز .

(٢) الجثيب : الغليظ .

(٣) إصعد .

(٤) قمة .

(٥) إرم نفسك .

منه فانظر هل تعيش أم لا . فقال ابن طاووس : عن أبيه : فقال عيسى : أما علمت أن الله قال : لا يجربني عبدي فإني أفعل ما شئت . وقال الزهري : إن العبد لا يبتلي ربه ولكن الله يبتلي عبده[1] .

وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن عبدة ، أنبأنا سفيان ، عن عمرو ، عن طاووس قال : أتى الشيطانُ عيسى ابن مريم فقال : أليس تزعم أنك صادق ؟ فأت هوة فألق نفسك . قال : ويلك أليس قال : يا بن آدم لا تسألني هلاك نفسك فإني أفعل ما أشاء !

وحدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا حسين بن طلحة ، سمعت خالد بن يزيد ، قال : تعبَّد الشيطان مع عيسى عشرَ سنين أو سنتين ، أقام يوماً على شفير جبل فقال الشيطان : أرأيت إن ألقيتُ نفسي هل يصيبني إلا ما كُتب لي . قال : إني لست بالذي أبتلي ربي ولكن ربي إذا شاء ابتلاني . وعرفه أنه الشيطان ففارقه .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثنا شريح بن يونس ، حدثنا علي بن ثابت ، عن الخطاب بن القاسم ، عن أبي عثمان ، كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل ، فأتاه إبليس فقال : أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر ؟ قال : نعم . قال : ألق نفسك من هذا الجبل وقل قدر عليَّ . فقال : يا لعين ! الله يختبر العباد وليس العِباد يختبرون الله عز وجل .

قال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا الفضل بن موسى البصري ، حدثنا ابراهيم بن بشار سمعت سفيانَ بن عيينة يقول : لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال له إبليس : يا عيسى ابن مريم الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبيًّا ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك . قال : بل الربوبية للإلّه الذي أنطقني ثم يميتني ثم يحييني . قال : فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى . قال : بل الربوبية لله الذي يحيي من يشاء ويميت من أحييت ثم يحييه . قال : والله إنك لإله في السماء وإله في الأرض . قال : فصكه جبريل صكةً بجناحيه فما نباها دون قرون الشمس . ثم صكة أخرى بجناحيه فما نباها دون العين الحامية ، ثم صكه أخرى فأدخله بحار السابعة فأساخه . وفي رواية فأسلكه فيها ، حتى وجد طعم الحمأة فخرج منها وهو يقول : ما لقي أحد من أحد ما لقيت منك يا بن مريم .

وقد روي نحو هذا بأبسط منه من وجه آخر ، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب : أخبرني أبو

---

(١) إنجيل متى .

الحسن بن رزقويه ، أنبأنا أبو بكر أحمد بن سيدي . حدثنا أبو محمد الحسن بن علي القطان ، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار ، أنبأنا علي بن عاصم ، حدثني أبو سلمة سُوَيد عن بعض أصحابه ، قال : صلى عيسى ببيت المقدس فانصرف ، فلما كان ببعض العقبة عرض له إبليس فاحتبسه فجعل يعْرض عليه ويكلمه ويقول له : إنه لا ينبغي لك أن تكون عبداً ، فأكثر عليه وجعل عيسى يحرص على أن يتخلص منه ، فجعل لا يتخلص منه فقال له فيما يقول : لا ينبغي لك يا عيسى أن تكون عبداً ، قال : فاستغاث عيسى بربه ، فأقبل جبريل وميكائيل فلما رآهما إبليس كف ، فلما استقرا معه على العقبة اكتنفا عيسى وضرب جبريل إبليس بجناحه فقذفه في بطن الوادي . قال : فعاد إبليس معه وعلم أنهما لم يؤمرا بغير ذلك . فقال لعيسى : قد أخبرتك أنه لا ينبغي أن تكون عبداً ، إن غضبك ليس بغضب عبد ، وقد رأيتَ ما لقيت منك حين غضبت ولكن أدعوك لأمر هو لك ، آمر الشياطين فليطيعوك فإذا رأى البشرُ أن الشياطين أطاعوك عبدوك ، أما إني لا أقول أن تكون إلٰهاً ليس معه إله ولكن الله يكون إلٰهاً في السماء وتكون أنت إلهاً في الأرض ، فلما سمع عيسى ذلك منه استغاث بربه وصرخ صرخة شديدة ، فإذا إسرافيل قد هبط فنظر إليه جبريل وميكائيل فكفَّ إبليس ، فلما استقر معهم ضرب إسرافيل إبليس بجناحه فصكه به عَين الشمس ، ثم ضربه ضربة أخرى فأقبل إبليس يهوي ومرَّ عيسى وهو بمكانه فقال : يا عيسى لقد لقيت فيك اليوم تعباً شديداً فرمى به عين الشمس ، فوجد سبعة أملاك عند العين الحامية ، قال : فغطوه فجعل كلما صرخ غطوه في تلك الحمأة قال : والله ما عاد إليه بعدُ .

قال : وحدثنا إسماعيل العطار ، حدثنا أبو حذيفة ، قال : واجتمع إليه شياطينه فقالوا : سيدنا لقد لقيت تعباً ؟ قال : إن هذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل ، وسأُضل به بَشَراً كثيراً وأبث فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شِيَعاً ويجعلونه وأُمه إلٰهين من دون الله . قال : وأنزل الله فيما أيد به عيسى وعصمه من إبليس قرآناً ناطقاً بذكر نعمته على عيسى فقال : ﴿ **يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروحِ القدس** ﴾[1] يعني إذ قويتك بروح القدس يعني جبريل ﴿ **تكلم الناس في المهد وكهلاً ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير** ﴾[1] الآية كلها ، وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة وأعواناً ترضى بهم وصحابة وأعواناً يرضون بك هادياً وقائداً إلى الجنة ، فذلك فاعلم خُلقان عظيمان ، من لقيني بهما فقد لقيني بأزكى الخلائق وأرضاها عندي .

وسيقول لك بنو إسرائيل صُمْنا فلم يُتقبل وصلينا فلم تُقبل صلاتنا وتصدقنا فلم تُقبل صدقاتنا وبكينا بمثل حَنين الجمال فلم يُرحم بكاؤنا . فقل لهم : ولِمَ ذاك وما الذي يمنعني ؟ أن

(١) سورة المائدة الآية ١١٠ .

ذات يـدي قَلَّت ؟ أو ليس خـزائن السمـوات والأرض بيـدي أنفق منهـا كيف أشـاء أو إن البخـل يعتـريني أو لست أجودَ من سُئـل وأوسعَ من أعـطى . أو أن رحمتي ضاقت ؟ وإنمـا يتراحم المتـراحمون بفضل رحمتي .

ولـولا أن هؤلاء القوم يـا عيسى ابن مريم غـروا أنفسهم بالحكمـة التي تـورث في قلوبهم ، مـا استـأثروا بـه الدنيـا أثرةً عـلى الآخرة ، ولعـرفوا من أين أُوتـوا ، وإذاً لأيقنـوا أن أنفسهم هي أعْـدَى الأعداء لهم ،وكيف أقبل صيـامهم وهم يتقوّون عليـه بالأطعمـة الحرام وكيف أقبـل صلاتهم وقلوبهم تـركن إلى الذين يحـاربوني ويستحِلون محـارمي ، وكيف أقبل صـدقاتهم وهم يغصبـون النـاسَ عليهـا فيـأخذونها من غـير حلها ، يـا عيسى إنما أُجْـزي عليها أهَلَهـا ، وكيف أرحم بكاءهم وأيـديهم تقـطر من دماء الأنبياء ! ازْدَدْتُ عليهم غضباً .

يـا عيسى وقضيتُ يوم خلقت السمـوات والأرض أنه من عبـدني وقال فيكـما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل وشركـاءك في الكرامـة ، وقضيت يوم خلقت السمـوات والأرض أنه من اتخذك وأمك إلٰهين من دون الله أن أجعلهم في الدَّرك الأسفل من النار .

وقضيتُ يـومَ خلقت السمـوات والأرض أني مثبِّت هذا الأمر على يدي عبدي محمد وأخْتم بـه الأنبياء والرسل ، ومَوْلـده بمكة ومُهَـاجرَه بـطيْبة ومُلْكـه بالشـام ، ليس بفظٍ ولا غليظٍ ولا سَخَّاب في الأسـواق ولا يتزيّن بـالفحش ولا قوال بـالخنا ، أُسـدده لكل أمـر جميل وأهب لـه كلَّ خُلقٍ كـريم ، وأجعـل التقوى ضميـره والحكم معقولـه والوفـاء طبيعته والعـدلَ سيرتـه والحقَّ شريعتـه ، والإسـلام ملته ، أسمه أحمد ، أهدي به بعدَ الضلالة وأُعلم به بعد الجهـالة وأُغنيْ بـه بعد العـائلة ، وأرفع بـه بعد الضَّعة ، أهـدي به وأفتـح به بـين آذان صم وقلوب غُلْف وأهواء مختلفـة متفرقـة ، وأجعل أمتـه خيرَ أُمةٍ أُخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهـون عن المنكر إخـلاصاً لأسمي وتصـديقاً لمـا جاءت بـه الـرسـل ، ألهمهم التسبيـح والتقـديس ، والتهليـل في مسـاجـدهم ومجـالسهم وبيـوتهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لي قياماً وقعوداً وركعـاً وسجوداً ، ويقـاتلون في سبيلي صفـوفاً وزحـوفاً ، قـربانهم دماؤهم وأناجيلهم في صدورهم وقربـانهم في بطونهم ، رهبـان بالليـل ليوث في النهـار ، ذلك فضـلي أُوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم .

وسنـذكر مـا يصدق كثيـراً من هذا السياق مما سنـورده من سورتي المـائدة والصف إن شـاء الله وبه الثقة .

وقد روى أبو حـذيفة إسحق بن بشر بـأسانيـده عن كعب الأحبار ووهب بن منبـه وابن عباس وسلمـان الفارسي ، دخـل حـديثُ بعضهم في بعض ، قـالـوا : لمـا بعث عيسى ابن مـريم وجـاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون منـه ويستهزئـون به فيقولـون : مـا أكل فلان البارحة وما أدخر في منزله ؟ فيخبرهم ، فيزداد المؤمنون إيماناً والكافرون والمنافقون شركاً وكفراناً .

وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوِي إليه إنما يَسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يُعرف به ، فكان أول ما أحيا من الموتى أنه مرَّ ذات يوم على امرأة قاعدة عند قبر وهي تبكي فقال لها : ما لك ، أيتها المرأة ؟ فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها ، وإني عاهدت ربي أن لا أبرح من موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من الموت أو يحييها الله لي فأنظر إليها . فقال لها عيسى : أرأيت إن نظرتِ إليها أراجعة أنت ؟ قالت : نعم . قالوا : فصلى ركعتين ، ثم جاء فجلس عند القبر فنادى : يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي . قال : فتحرك القبر ثم نادى الثانية فتصدع القبر بإذن الله ، ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب ، فقال لها عيسى : ما أبطأ بك عني ؟ فقالت : لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي مَلكاً فركب خلفي ، ثم جاءتني الصيحة الثانية فرجع إليَّ روحي ، ثم جاءتني الصيحة الثالثة فخفْت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني من مخافة القيامة ، ثم أقبلت على أمها فقالت : يا أُماه ما حملك على أن أذوق كربَ الموت مرتين ، يا أُماه اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا ، يا رُوح الله وكلمته ، سَل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يهوِّن عليَّ كربَ الموت . فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض .

فبلغ ذلك اليهودَ فازدادوا عليه غضباً .

وقدَّمنا في عِقب قصة نوح أن بني اسرائيل سألوه أن يحيي لهم سامَ بن نوح فدعا الله عز وجل وصلى لله فأحياه الله لهم فحدثهم عن السفينة وأمرها ثم دعا فعاد تراباً .

وقد روى السُّدي عن أبي صالح وأبي مالك ، عن ابن عباس في خبر ذكره وفيه أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل مات وحمل على سريره فجاء عيسى عليه السلام فدعا الله عز و جل فأحياه الله عز وجل ، فرأى الناس أمراً هائلاً ومنظراً عجيباً .

وقال الله تعالى وهو أصدق القائلين :

﴿ إذ قال آلله يا عيسى آبن مريم آذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتُبرىء الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلاَّ سحرٌ مبينٌ * وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وآشهد بأننا مسلمون ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة الآيتان ١١٠ ، ١١١ .

يُذكِره تعالى بنعمته عليه وإحسانه إليه في خَلْقه إياه من غير أب ، بل من أُم بلا ذكر وجعلْه له آيةً للناس ودلالةً على كمال قدرته تعالى ثم إرساله بعد هذا كله ﴿ **وعلى والدتك** ﴾ في اصطفائها واختيارها لهذه النعمة العظيمة وإقامة البرهان على براءتها مما نسبها إليه الجاهلون ولهذا قال ﴿ **إذ أيدتك بروح القدس** ﴾ وهو جبريل بإلقاء روحه إلى أُمه وقرنه معه في حال رسالته ومدافعته عنه لمن كفر به ﴿ **تُكلم الناس في المهد وكهلاً** ﴾ أي تدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿ **وإذ علمتك الكتاب والحكمة** ﴾ أي الخط والفهم . نص عليه بعض السلف ﴿ **والتوراة والإنجيل** ﴾ وقوله : ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني** ﴾ أي تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير عن أمر الله له بذلك ﴿ **فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني** ﴾ أي بأمري يؤكد تعالى بذكر الإذن له في ذلك رفع التوهم .

وقوله : ﴿ **وتبرىء الأكمه** ﴾ قال بعض السلف وهو الذي يولد أعمى ، ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته ﴿ **والأبرص** ﴾ هو الذي لا طبَّ فيه بل قد مرض بالبرص وصار داؤه عضالاً ﴿ **وإذ تخرج الموتى** ﴾ أي من قبورهم أحياء بإذني . وقد تقدم ما فيه دلالة على وقوع ذلك مراراً ، معددة مما فيه كفاية .

وقوله : ﴿ **وإذ كففتُ بني اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبيناتِ فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحرٌ مبينٌ** ﴾ وذلك حين أرادوا صلبه فرفعه الله إليه وأنقذه من بين أظهرهم صيانة لجنابه الكريم عن الأذى وسلامة له من الردى .

وقوله : ﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون** ﴾ قيل المراد بهذا الوحي وحي إلهام أي أرشدهم الله إليه ودلّهم عليه كما قال : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾[١] ﴿ **وأوحينا إلى أُم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم** ﴾[٢] وقيل المراد وحي بواسطة الرسول وتوفيق في قلوبهم لقبول الحق ولهذا استجابوا قائلين : ﴿ **آمنا وأشهد بأننا مسلمون** ﴾ .

وهذا من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له انصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى لعبده محمد ﷺ :

﴿ **وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم إنه عزيزٌ حكيمٌ** ﴾[٣] .

---

(١) سورة النحل الآية ٦٨ .

(٢) سورة القصص الآية ٧ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٦٣ .

وقال تعالى :

﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم أني أخلقُ لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخُ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأُبرىءُ الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله وأُنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إنَّ في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ولأُحلَّ لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآيةٍ من ربكم فآتقوا آلله وأطيعون * إنَّ آلله ربي وربكم فآعبدوه هذا صراطٌ مستقيمٌ * فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار آلله آمنَّا بآلله وآشهد بأنا مسلمون * ربَّنا آمنَّا بما أنزلت وآتَّبعنا الرسول فآكتبنا مع الشاهدين * ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾[1] .

وكانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهلَ ذلك الزمان ، فذكروا أن موسى عليه السلام كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه وكانوا سحرة أذكياء ، فَبُعِثَ بآيات بَهرَت الأبصار وخضعت لها الرقاب ، ولما كان السحرة خبيرين بفنون السحر وما ينتهي إليه وعاينوا ما عاينوا من الأمر الباهر الهائل الذي لا يمكن صدوره إلا عمن أيَّده الله وأجرى الخارق على يديه تصديقاً له ، أسلموا سِرَاعاً ولم يتلعثموا .

وهكذا عيسى ابن مريم بعث في زمن الطبائعية الحكماء ، فأُرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها ، وأنى لحكيم إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى ، والأبرص والمجذوم ومن به مرض مزمن ، وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره ؟ هذا مما يعلم كل أحد معجزةٌ دالة على صدق من قامت به وعلى قدرة من أرسله .

وهكذا محمد ﷺ وعليهم أجمعين بُعث في زمن الفصحاء البلغاء ، فأنزل الله عليه القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فلفظه مُعْجِز تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بعَشْر سور من مثله أو بسورة ، وقطعَ عليهم بأنهم لا يقدرون لا في الحال ولا في الاستقبال ، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا وما ذاك إلا لأنه كلام الخالق عز وجل ، والله تعالى لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

* * *

والمقصود أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٤٨ ـ ٥٤ .

وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، فانتدب له من بينهم طائفة صالحة فكانوا له أنصاراً وأعواناً قاموا بمتابعته ونصْرته ومناصحته ، وذلك حين هَمَّ به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان ، فعزموا على قتله وصَلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونه عيسى ، وهم في ذلك غالطون وللحق مكابرون ، وسلم لهم كثير من النصارى ما ادعوا ، وكلا الفريقين في ذلك مخطئون .

قال تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله إليكم مُصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ومُبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرٌ مبينٌ * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يُدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُتمُّ نوره ولو كره الكافرون ﴾[2] .

إلى أن قال بعد ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾[3] .

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيباً فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوه باسمه وذكَر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه ، إقامةً للحجة عليهم وإحساناً من الله إليهم كما قال تعالى :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأُمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به ،وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[4] .

قال محمد بن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبي إبراهيم وبُشْرى عيسى ، ورأت أُمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » .

وقد رُوي عن العِرْباض بن سارية وأبي أُمامة عن النبي ﷺ نحو هذا وفيه : دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى وذلك أن إبراهيم لما بنى الكعبة قال : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً

(١) سورة آل عمران الآية ٥٤ .
(٢) سورة الصف الآيات ٦ ـ ٨ .
(٣) سورة الصف الآية ١٤ .
(٤) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

منهم ﴾[1] الآية . ولما انتهت النبوة في بني إسرائيل إلى عيسى قام فيهم خطيباً فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد ، وهو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سُلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم السلام .

قال الله تعالى: ﴿ **فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرٌ مبينٌ** ﴾[2] يحتمل عَوْد الضمير إلى عيسى عليه السلام ويحتمل عوده إلى محمد ﷺ .

ثم حرَّض تعالى عباده المؤمنين على نصرة الإسلام وأهله ونصرة نبيه ومؤازرته على إقامة الدين ونشر الدعوة فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله** ﴾ أي من يساعدني في الدعوة إلى الله ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله** ﴾ وكان ذلك في قرية يُقال لها الناصرة فسموا بذلك النصارى .

قال الله تعالى : ﴿ **فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ** ﴾ يعني لما دعا عيسى بني إسرائيل وغيرهم إلى الله تعالى منهم من آمن ومنهم من كفر ، وكان ممن آمن به أهل أنطاكية بكمالهم فيما ذكره غير واحد من أهل السيَر والتواريخ والتفسير بعث اليهم رسلاً ثلاثة ، أحدهم شمعون الصَّفا فآمنوا واستجابوا وليس هؤلاء هم المذكورون في سورة يس لما تقدم تقريره في قصة أصحاب القرية ، وكفر آخرون من بني إسرائيل وهم جمهور اليهود فأيد الله من آمن به على من كفر فيما بعد وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم كما قال تعالى : ﴿ **إذ قال الله يا عيسى إني مُتوفيك ورافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعلُ الذين آتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾[3] الآية . . .

فكلُّ من كان إليه أقربَ كان غالباً لمن دونه ، ولما كان قول المسلمين فيه هو الحق الذي لا شك فيه ، من أنه عبدُ الله ورسوله كانوا ظاهرين على النصارى الذين غلوا فيه وأطروه وأنزلوه فوق ما أنزله الله به .

ولما كان النصارى أقربَ في الجملة مما ذهب إليه اليهود فيه عليهم لعائن الله ، كان النصارى قاهرين لليهود في أزمان الفترة إلى زمن الإسلام وأهله .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٩ .

(٢) سورة الصف الآية ٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٥٥ .

ذكر خبر المائدة

قال الله تعالى :

﴿ إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن يُنزل علينا مائدةً من السماء قال اتَّقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نُريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأوَّلنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إني مُنزّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أُعذبه عذاباً لا أُعذبه أحداً من العالمين ﴾(١) .

قد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسَلْمَان الفارسي وعمَّار بن ياسر وغيرهم من السلف .

مضمون ذلك : أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً ، فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبَّل صيامهم وأجابهم إلى طَلِبتهم ، وتكون لهم عيداً يُفْطرون عليها يوم فِطْرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم . فوعظهم عيسى عليه السلام في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يُؤدوا حقَّ شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل .

فلما لم يُقْلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحاً من شعر وصَف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يُجابوا إلى ما طلبوا .

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين ، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً ، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة ، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول : « بسم الله خير الرازقين » فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة . ويقال : وخَلٌّ . ويقال : ورُمان وثمار ، ولها رائحة عظيمة جداً ، قال الله لها : كوني فكانت .

ثم أمرهم بالأكل منها ، فقالوا : لا نأكل حتى تأكل . فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها . فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء ، فأمر الفقراء والمحاويج (٢) والمرضى والزَّمنى(٣) وكانوا قريباً من

---

(١) سورة المائدة الآيات ١١٢ ـ ١١٥ .

(٢) المحتاجين .

(٣) أصحاب العاهات المزمنة .

ألف وثلاثمائة ، فأكلوا منها فبرأ كلُّ من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن ، فندم الناس على ترك الأكل منها لَمَا رأوا من إصلاح حال أولئك . ثم قيل : إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها ، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل إنه كان يأكل منها نحو سبعة آلاف .

ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم ، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم . ثم أمر الله عيسى أن يَقْصرها على الفقراء أو المحاويج دون الأغنياء ، فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك ، فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير .

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً ، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة عن خِلَاس ، عن عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ ، قال : نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأُمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورَفعوا ، فمسِخوا قردة وخنازير .

ثم رواه ابن جرير عن بِنْدار ، عن ابن أبي عَدِي ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن خلاس ، عن عمار موقوفاً . وهذا أصح ، وكذا رواه من طريق سِمَاك ، عن رجل من بني عجل ، عن عمار موقوفاً ، وهو الصواب والله أعلم .

وخلاس عن عمار منقطع ، فلو صح هذا الحديث مرفوعاً لكان فيصلاً في هذه القصة ، فإن العلماء اختلفوا في المائدة : هل نزلت أم لا ؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولا سيما قوله : ﴿ **إني منزلها عليكم** ﴾ كما قرره ابن جرير والله أعلم .

وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري ، أنهما قالا : لم تنزل وإنهم أبوا نزولها حين قال : ﴿ **فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين** ﴾ ولهذا قيل إن النصارى لا يعرفون خبرَ المائدة وليس مذكوراً في كتابهم ، مع أن خبرها مما تتوفر الدواعي على نقله . والله أعلم .

وقد تقصينا الكلام على ذلك في التفسير فليكتب من هناك . ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم . ولله الحمد والمنة .

***

فصـل

قال أبو بكـر ابن أبي الدنيـا : حدثنـا رجل سقط اسمـه ، حدثنـا حجاج بن محمـد حدثنـا أبو هلال محمد بن سليمـان ، عن بكر بن عبـد الله المزني قـال : فقدَ الحـواريون نبيهم عيسى فقيـل لهم توجَّه نحـو البحر ، فـانطلقـوا يطلبـونه فلما انتهـوا إلى البحر إذا هـو يمشي على المـاء يرفعـه الموج مـرة ويضعه أُخرى ، وعليه كساء مـرتد بنصفـه ومؤتزر بنصفـه ، حتى انتهى إليهم فقال لـه بعضهم ـ قال أبـو هلال ظننت أنـه من أفـاضلهم ـ : ألا أجيء إليـك يـا نبي الله ؟ قـال : بـلى . قـال : فـوضـع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأُخرى فقـال : أوه غرقت يـا نبي الله . فقال : أرني يـدك يا قصير الإيمان ، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء .

ورواه أبـو سعيد ابن الأعـرابي ، عن ابـراهيم بن أبي الجحيم ، عن سليمـان بن حـرب ، عن أبي هلال عن بكر بنحوه .

ثم قـال ابن أبي الدنيـا : حـدثنـا محمـد بن عـلي بن الحسن بن سفيـان ، حـدثنـا إبـراهيم بن الأشعث ، عن الفضيـل بن عياض ، قـال : قيل لعيسى ابن مـريم : يا عيسى بـأَي شيء تمشي عـلى الماء ؟ قال : بـالإيمانِ واليقـين . قالـوا : فإنـا آمنا كـما آمنت وأيقنا كـما أيقنت . قال : فـامشوا إذاً . قـال : فمشوا معـه في الموج فغـرقوا فقـال لهم عيسى : ما لكم ؟ فقـالوا : خِفنـا المـوجَ ، قـال : ألا خفتم ربَّ المـوج قال : فـأخـرجهم . ثم ضـرب بيده إلى الأرض فقبض بهـا ثم بسـطهـا فـإذا في إحدى يديه ذهب وفي الأُخرى مدر أو حصى فقال : أيهـما أحلَى في قلوبكم ؟ قـالوا : هـذا الذهب . قال : فإنهما عندي سواء .

وقدمنا في قصـة يحيى بن زكريـا عن بعض السلف أن عيسى عليه السـلام كان يلبس الشعـر ، ويأكل من ورق الشجـر ولا يأوي إلى منـزل ولا أهل ولا مـال ولا يدخـر شيئاً لغـد . قال بعضهم : كان يأكل من غزل أُمه ، صلوات الله وسلامه عليه .

وروى ابن عساكر عن الشَّعبي أنه قال : كان عيسى عليه السـلام إذا ذُكر عنـده الساعـة صاح ويقول : لا ينبغي لابن مريم أن يُذكر عنده الساعة ويسكت .

وعن عبد الملك بن سعيد بن أبْجر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثَّكلى .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا مَعْمَرَ ، حـدثنا جعفـر بن بلقان ، أن عيسى كـان يقول : « اللهم إني أصبحت لا أستـطيع دفـع ما أكـره ولا أملك نفع مـا أرجو ، وأصبـح الأمرُ بيـد غيـري ، وأصبحت مـرتهناً بعمـلي ، فـلا فقيـرَ أفقـر مني ، اللهم لا تُشْمت بي عـدوي ولا تَسؤْ بي صـديقي ، ولا تجعـل مصيبتي في ديني ، ولا تسلط عليَّ من لا يرحمني » .

وقال الفضيل بن عياض عن يونس بن عُبَيد ، كان عيسى يقول : لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يُبالي مَن أكل الدنيا .

قال الفضيل : وكان عيسى يقول : فكَّرْت في الخَلْق فوجدت من لم يُخلق أغبَط عندي ممن خلق .

وقال إسحاق بن بشر ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن قال : إن عيسى رأسُ الزاهدين يومَ القيامة . قال : وإن الفرّارين بذنوبهم يُحشرون يوم القيامة مع عيسى .

قال : وبينما عيسى يوماً نائم على حَجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال : يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئاً من عَرَض الدنيا ؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا . قال : فقام عيسى فأخذ الحجر فرمى به إليه وقال : هذا لك مع الدنيا !

وقال معتمر بن سليمان : خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان حافيا باكياً شعِثاً مصفرٌ اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش فقال : السلام عليكم يا بني إسرائيل ، أنا الذي أنزلتُ الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر ، أتدرون أين بيتي ؟ قالوا : أين بيتك يا روح الله ؟ قال : بيتي المساجد ، وطيبي الماء ، وإدامي الجوع ، وسِراجي القمر بالليل ، وصلائي في الشتاء الشمس ، وريحاني بقول الأرض ، ولباسي الصوف ، وشعاري خوف رب العزة ، وجلسائي الزمْنَى والمساكين ، أُصبح وليس لي شيء وأُمسي وليس لي شيء وأنا طيب النفس غير مكترث . فمن أغنىَ مني وأربح .

رواه ابن عساكر .

وروي في ترجمة محمد بن الوليد بن أُبان بن حبان أبي الحسن العقيلي المصري ، حدثنا هانىء ابن المتوكل الإسكندراني ، عن حَيوة بن شريح ، حدثني الوليد بن أبي الوليد ، عن شفَي بن ماتع ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى : أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان لئلا تُعرف فتؤذى ، فوعزتي وجلالي لأزوجنك ألفَ حَوْراء ولأُولمن عليك أربعمائة عام .

وهذا حديث غريب رَفعه ، وقد يكون موقوفاً من رواية شُفَيّ بن ماتع ، عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين والله علم .

وقال عبد الله بن المبارك : عن سفيان بن عُيَينة ، عن خَلف بن حَوشَب ، قال : قال عيسى للحواريين : كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا .

وقال قتادة : قال عيسى عليه السلام : سَلُوني فإني لَين القلب وإني صغير عند نفسي .

وقـال إسمـاعيـل بن عَيَّاش ، عن عبـد الله بن دينـار ، عن ابن عمـر قـال : قـال عيسى للحواريين : كلوا خبزَ الشعير وأشربوا الماء القَراح وأخرجوا من الدنيا سـالمين آمنـين ، بحقٍّ ما أقـول لكم إن حـلاوة الـدنيـا مـرارة الآخـرة ، وإن مـرارة الـدنيـا حـلاوة الآخـرة ، وإن عبـاد الله ليسـوا بالمتنعمين ، بحقٍّ ما أقول لكم إن شركم عالمٌ يُؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله .

وروي نحوه عن أبي هريرة .

قال أبو مصعب عن مالك أنه بلغه أن عيسى كان يقول : يـا بني إسرائيـل عليكم بالمـاء القراح والبقل البَرير وخبز الشعير ، وإياكم وخبز البُر فإنكم لن تقوموا بشكره .

وقال ابن وهب عن سليمان بن بـلال ، عن يحيى بن سعيد قـال : كان عيسى يقـول : اعبُروا الدنيا ولا تَعْمُروها ، وكان يقول : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة .

وحكي وهيب بن الورد مثله وزاد : ورب شهوة أورثت أَهَلها حزناً طويلاً .

وعن عيسى عليـه السـلام : يـابن آدم الضعيف ، اتقِ الله حيث مـا كنتَ ، وكن في الـدنيـا ضيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلِّم عينك البكـاء وجسدَك الصبـر وقلبك التفكـرّ ، ولا تهتم[1] برزق غد فإنها خطيئة .

وعنـه عليه السـلام أنه قـال : كما أنـه لا يستطيـع أحدكم أن يتخـذ على مـوج البحر داراً فـلا يتخذ الدنيا قراراً .

وفي هذا يقول سابق البَرْبرَي :

لكم بيـوت بمستن السيـوف وهـل　　　يبنى عـلى المـاء بيت أُسُّـه مَـدَرُ

وقـال سفيان الثَّـوري : قال عيسى ابن مـريم : لا يستقيم حب الدنيـا وحب الآخـرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء .

وقـال إبـراهيم الحـربي عن داود بن رشيـد ، عن أبي عبـد الله الصـوفي قـال : قـال عيسى : طالبُ الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله .

وعن عيسى عليـه السلام : إن الشيـطان مـع الـدنيـا ومَكـره مـع المـال وتـزينـه مـع الهـوى ، واستمكانه عند الشهوات .

---

(١) تهتم : أي تحمل هماً وخوفاً سببه الشك بالرزاق الكريم أما التفكير والتدبير فليس خطيئة .

وقال الأعمش عن خيثمة : كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول : هكذا فاصنعوا بالقِرَى .

وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام : طوبى لحِجر حَملك ولثدي أرضعك . فقال : طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه .

وعنه : طوبى لمن بكى مِن ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته .

وعنه : طوبى لعينٍ نامت ولم تُحدِّث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم .

وعن مالك بن دينار قال : مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا : ما أنتن ريحها فقال : ما أبيض أسنانها . لينهاهم عن الغيبة .

وقال أبو بكر ابن أبي الدنيا : يحدثنا الحسين بن عبد الرحمن ، عن زكريا بن عَدِي قال : قال عيسى ابن مريم : يا معشر الحواريين آرضوا بِدَنيّ الدنيا مع سَلاَمة الدين كما رضي أهل الدنيا بِدَني الدين مع سلامة الدنيا .

قال زكريا : وفي ذلك يقول الشاعر :

أرى رجالاً بأدْنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رَضُوا في العيش بالدونِ
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوكُ بدنياهم عن الدين

وقال أبو مصعب عن مالك : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية » .

وقال الثوري : سمعت أبي يقول عن ابراهيم التيمي ، قال : قال عيسى لأصحابه : بحق أقول لكم : مَن طلب الفردوس فخُبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير .

قال مالك بن دينار قال عيسى : إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليلٍ في طلب الفردوس .

وقال عبد الله بن المبارك : أنبأنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، قال : قال عيسى : اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم ، أنظروا إلى هذه الطير تغدو وتروح لا تَحْرث ولا تحصد والله يرزقها ، فإن قلتم نحن أعظم بطوناً من الطير فانظروا إلى هذه الأباقير من الوحوش والحمر ، فإنها تغدو وتروح ولا تحرث ولا تحصد والله يرزقها .

وقـال صفـوان بن عمـرو : عن شـريـح بن عبـد الله ، عن يـزيـد بن ميسـرة ، قـال : قـال الحواريون للمسيح : يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه . قال : آمين آمين بحقٍّ ما أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجَراً قـائماً إلا أهلكـه بذنـوب أهله ، إن الله لا يصنع بـالـذهب ولا الفضـة ولا بهذه الأحجـار التي تعجبكم شيئاً إن أحب إلى الله منهـا القلوبُ الصـالحـة وبهـا يعمـر الله الأرض ، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه : أخبرنا أبو منصور بن محمـد الصوفي ، أخبـرتنا عـائشة بنت الحسن بن إبـراهيم الوَرْكـانية ، قـالت : حدثنـا أبو محمـد عبد الله بن عمـر بن عبد الله ابن الهشيم إملاء ، حدثنا الوليد بن أَبَان إملاء ، حدثنـا أحمد بن جعفـر الرازي ، حـدثنا سُهيـل بن إبراهيم الحنظلي ، حدثنا عبد الوهـاب بن عبد العـزيز ، عن المعتمـر ، عن مجاهـد ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : مرَّ عيسى عليـه السلام عـلى مدينـة خربـة ، فأعجبـه البنيان فقـال : أيْ رب مُرْ هذه المدينـة أن تجيبني . فأوحى الله إلى المـدينة : أيتهـا المدينـة الخربـة جاوبي عيسى . قـال : فنادت المدينة : عيسى حبيبي ومـا تريـد مني ؟ قال : مـا فعل أشجـارك وما فعـل أنهارك وما فعـل قصورك وأين سكـانـك ؟ قـالت : حبيبي جـاء وعــد ربـك الحق فيبست أشجاري ونشفت أنهاري وخـربت قصـوري ومات سكـاني . قال : فـأين أموالهم ؟ فقـالت : جمعوهـا من الحلال والحـرام موضـوعة في بـطني ، لله ميـراث السمـوات والأرض . قـال : فنـادى عيسى عليـه السـلام : تعجبت من ثـلاث أنـاس : طالب الـدنيا والمـوت يَطلبـه ، وباني القُصـور والقبر مَنْـزله ، ومن يضحـك ملء فِيـه والنار أمـامه ! ابن آدم لا بـالكثير تشبـع ولا بالقليـل تقنع ، تجمـع مَالـك لمن لا يَحْمدك وتقَـدَم على رب لا يَعـذرك ، إنما أنت عبـدُ بطنـك وشهوتـك وإنما تُمـلأ بطنـك إذا دخلت قبرك ، وأنت يـابن آدم ترى حشدَ مالك في ميزان غيرك .

هذا حديث غريب جداً وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك .

وقـال سفيان الثـوري عن أبيـه ، عن إبـراهيم التيمي ، قـال عيسى عليـه السـلام : يـا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب الرجل حيثُ كنزه .

وقال ثور بن يزيد عن عبـد العزيـز بن ظبيان قـال : قال عيسى ابن مـريم عليه السـلام : من تعلَّم وعَلَّم دُعِي عظيماً في ملكوت السمـاء .

وقـال أبو كُـريب : رُوي أن عيسى عليه السـلام قال : لا خـير في علم لا يَعْبَر معـك الـوادِي ويَعبر بك النادِي .

وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعـاً أن عيسى قام في بني إسـرائيل فقـال : يا معشر الحواريـين لا تحدثـوا بالحكم غـير أهلها فتـظلموهـا ولا تمنعوهـا أهلَها فتـظلموهـا ، والأُمور

ثلاثة : أمر تبينَّ رُشْده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه فردُّوا عِلمه إلى الله عز وجل .

وقال عبد الرَّزاق : أنبأنا مَعْمر ، عن رجل ، عن عكرمة قال : قال عيسى : لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئاً ، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها ، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير ! . . .

وكذا حكى وهب وغيره عنه أنه قال لأصحابه : أنتم مِلْح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم ، وإن فيكم خصلتين من الجهل : الضحك من غير عجب والصبحة من غير سَهر .

وعنه أنه قيل له : من أشد الناس فتنة ؟ قال : زلة العالِم ، فإن العالِم إذا زل يزل بزلته عالم كثير .

وعنه أنه قال : يا علماء السُّوء جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم ، قولكم شفاء وعملكم داء مثلكم مثل شجرة الدِّفلى[1] تعجب من رآها وتقتل من أكلها .

وقال وهب : قال عيسى : يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ولا تدعون المساكين يدخلونها ، إن شر الناس عند الله عالِمٌ يطلب الدنيا بعلمه .

وقال مكحول : التقى يحيى وعيسى ، فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى : يا بن خالة ما لي أراك عابساً كأنك قد يئست ! فأوحى الله إليهما : إن أحبكم إليَّ أبشكما بصاحبه .

وقال وهب بن منبه : وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه ، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال : قد كنتم فيما هو أضيق منه في أرحام أمهاتكم ، فإذا أحب الله أن يُوسع وسَّع .

وقال أبو عمر الضرير : بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دماً .

والآثار في مثل هذا كثيرة جداً . وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرفاً صالحاً اقتصرنا منها على هذا القدْر ، والله الموفق للصواب .

***

(١) الدفلي : شجر جميل المنظر وهي مرة سامة .

ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

في حفظ الرب ، وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفيك ورافعك إليَّ ومُطهرك من الذين كفروا وجاعلُ الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إليَّ مَرْجعكم فأَحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ فبما نقْضهم ميثاقهم وكُفرهم بآيات الله وقتْلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غُلْف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بُهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبُوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شَكٍ منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً * بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً * وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾[2] .

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به ، وخلّصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان .

قال الحسن البصري ومحمد بن اسحاق : كان اسمه داوود بن نورا فأمر بقتله وصَلبه ، فحصروه في دار ببيت المقدس ، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم أُلقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورُفع عيسى من رَوزنة من ذلك البيت إلى السماء . وأهل البيت ينظرون ، ودخل الشُرط فوجدوا ذلك الشاب الذي أُلقي عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوكَ على رأسه إهانة له ، وسلَّم لليهود عامةُ النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صُلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبيناً كثيراً فاحشاً بعيداً .

وأخبر تعالى بقوله : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ أي بعد نزوله إلى

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) سورة النساء الآيات ١٥٥ ـ ١٥٩ .

الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة ، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الْجِزية ولا يقبل إلَّا الإسلامَ ، كما بيّنا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء ، كما أوردنا ذلك مستقصى في كتاب الفتن والملاحم عند أخبار المسيح الدجال ، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال .

وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء :

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت إثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين ، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يَقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة بعد أن آمَن بي ، ثم قال : أيكم يُلْقى عليه شبهي فيُقتل مكاني فيكون معي في دَرجتي ؟ فقام شاب من أحَدثهم سنًا فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال : أنا . فقال : أنت هو ذاك . فأُلقي عليه شبه عيسى ، ورُفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء .

قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشَّبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فِرَق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية .

وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسْطورية .

وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه . وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً .

وقال ابن عباس : وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم . ورواه النسائي عن أبي كريب ، عن أبي معاوية به نحوه ، ورواه ابن جرير عن مُسْلم بن جنادة عن أبي معاوية .

وهكذا ذكر غير واحد من السلف وممن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحق بن يسار .

قال : وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله يعني ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخولَ في دين الله قيل : وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً : بطرس ويعقوب بن زبدا ، ويحنس أخو يعقوب ، وأندراوس ، وفليبس ، وأبرثلما ، ومتى ،

وتوماس ، ويعقوب بن حلقيا ، وتداوس وفتاتيا ، ويودس كريايوطا ، وهذا هو الذي دل اليهود على عيسى .

قال ابن إسحق : وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى وهو الذي أُلقي شبه المسيح عليه فصلب عنه . قال : وبعض النصارى يزعم أن الذي صلب عن المسيح وأُلقي عليه شبهه هو يودس بن كريايوطا[1] . والله أعلم .

وقال الضحاك عن ابن عباس : استخلف عيسى شمعونَ وقَتلت اليهود يودس[1] الذي أُلقي عليه الشبه .

وقال أحمد بن مروان : حدثنا محمد بن الجهم ، قال : سمعت الفرَّاء يقول في قوله : ﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خيرُ الماكرين ﴾ قال : إن عيسى غاب عن خالته زماناً ، فأتاها فقام رأس الجالوت اليهودي فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى ، ثم خرج إلى أصحابه فقال : لم أره . ومعه سيف مسلول . فقالوا : أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه ، فقال جل ذِكره : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب القُمِّي ، عن هارون بن عنترة ، عن وهب بن منبه ، قال : أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم ، فلما دخلوا عليهم صوَّرهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم : سحرتمونا لتبرزن الينا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً . فقال عيسى لأصحابه : من يشتري منكم نفسه اليوم بالجنة فقال رجل : أنا ، فخرج إليهم فقال : أنا عيسى . وقد صوره الله على صورة عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثَمّ شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك .

قال ابن جرير : وحدثنا المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثني عبد الصمد بن معقل ، أنه سمع وهباً يقول : إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه ، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال : احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة . فلما اجتمعوا اليه من الليل عشاهم وقام يخدمهمْ ، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه ، فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال : من رد عليَّ شيئاً الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه . فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال : أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أُسوة ، فإنكم ترون أني

(١) يهوذا الأسخريوطي .

خيركم فلا يتعظم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه ، كما بذلت نفسي لكم ، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي .

فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء ، فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله أمَا تصبرون في ليلة واحدة تعينوني فيها ؟ فقالوا : والله ما ندري ما لنا ، والله لقد كنا نسْمر فنكثر السَمر وما نطيق الليلة سمراً ، وما نريد دعاء إلا حيل بينناوبينه ، فقال : يُذهب بالراعي وتتفرق الغنم وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه .

ثم قال : الحق ليَكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليَأْكلن ثمني .

فخرجوا وتفرقوا ، وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أَحَد الحواريين فقالوا : هذا من صحابه . فجحد وقال : ما أنا بصاحبه . فتركوه . ثم أخذه آخرون فجحد كذلك ، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه .

فلما أصبح أتى أحدُ الحواريين الى اليهود فقال : ما تجعلون لي إنْ دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً فأخذها ودلّهم عليه وكان شُبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتبرىء المجنون ، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ؟ ويَبصُقون عليه ويَلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصَلبوا ما شُبه لهم فمكث سبعاً .

ثم إن أُمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب ، فجاءهما عيسى فقال : عَلام تبكيان ؟ قالتا : عليك . فقال : إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير وإن هذا شيء شبه لهم ، فأمرا الحواريين أن يَلْقوني إلى مكان كذا وكذا . فلقوه إلى ذلك المكان أحدَ عشر وفقد الذي كان باعه ودلَّ عليه اليهود ، فسأل عنه أصحابه فقالوا : إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه . فقال : لو تاب لتاب الله عليه ، ثم سألهم عن غلام كان يتبعهم يقال له يحيى ، فقال : هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بِلغة قوم فلينذرهم وليَدْعهم .

وهذا إسناد غريب عجيب ، وهو أصح مما ذكره النصارى لعنهم الله من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جذعة فأراها مكان المسامير من جسده ، وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب .

وهذا بَهْت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحق ومقتضى الدليل .

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب ، فيما بلغه ، أن مريم سألت مِن بَيْت الملك بعد ما صُلِب المصلوب بسبعة أيام ، وهي تحسب أنه ابنها ، أن يُنْزل جسده ، فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك ، فقالت مريم لأُم يحيى : ألا تذهبين بنا نزور قبر المسيح ؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأُم يحيى : ألا تستترين ؟ فقالت : وممن أستتر ؟ فقالت : من هذا الرجل الذي هو عند القبر . فقالت أم يحيى : إني لا أرى أحداً فرجت مريم أن يكون جبريل ، وكانت قد بَعُد عهدها به ، فاستوقفت أُم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل ، وعرفته : يا مريم أين تريدين ؟ فقالت : أزور قبر المسيح ، فأسلم عليه وأُحْدث عهداً به فقال : يا مريم إن هذا ليس المسيح ، إن الله قد رفع المسيح وطهَّره من الذين كفروا ، ولكن هذا الفتى الذي أُلقي شبهه عليه وصُلب وقُتل مكانه ، وعلامةُ ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فُعل به فهم يبكون عليه فإذا كان يوم كذا وكذا فأْتِ غَيْضة كذا وكذا فإنك تلقينَ المسيح .

قال : فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أمر الغيضة ، فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة فلما رآها أسرع إليها وأكبَّ عليها فقبَّل رأسها ، وجعل يدعو لها كما كان يفعل ، وقال : يا أُمَّه إن القوم لم يقتلوني ، ولكن الله رفعني إليه وأذِن لي في لقائك ، والموتُ يأتيك قريباً فاصبري ، وأذكري الله كثيراً . ثم صعد عيسى فلم تَلقه إلا تلك المرة حتى ماتت .

قال : وبلغني أن مريم بقيت بعدَ عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة . رضي الله عنها وأرضاها .

وقال الحسن البصري : كان عمر عيسى عليه السلام يوم رُفع أربعاً وثلاثين سنة . وفي الحديث : « إن أهل الجنة يدخلونها جُرْداً مرداً مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين » .

وفي الحديث الآخر : « على ميلاد عيسى وحسن يوسف » وكذا قال حماد بن سلمة عن علي ابن يزيد ، عن سعيد بن المسيِّب ، أنه قال : رُفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه ويعقوب بن سفيان الفسَوي في تاريخه ، عن سعيد بن أبي مريم ، عن نافع بن يزيد ، عن عمارة بن غزية ، عن محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان ، أن أمه فاطمة بنت الحسين حدثته أن عائشة كانت تقول : أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها أنه لم يكن نبي كان بعدَه نبيٌّ إلا عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبلَه ، وأنه أخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أراني إلا ذاهب على رأس ستين . هذا لفظ الفسوي . فهو حديث غريب .

قال الحافظ ابن عساكر : والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر ، وإنما أراد به مدة مقامه

في أُمته ، كما روى سفيان بن عُيَينة ، عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة ، قال : قالت فاطمة : قال لي رسول الله ﷺ : إن عيسى ابن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة وهذا منقطع .

وقال جرير والثوري عن الأعمش ، عن إبراهيم : مكث عيسى في قومه أربعين عاماً .

ويروى عن أمير المؤمنين علي أن عيسى عليه السلام رُفع ليلة الثاني والعشرين من رمضان ، وتلك الليلة في مثلها توفي عليّ بعد طعنه بخمسة أيام .

وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رُفع الى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها وجاءته مريم فودَّعته وبكت ثم رُفع وهي تنظر وألقى اليها عيسى بُرداً له وقال : هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة وألقى عمامته على شمعون ، وجعلت أمه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها ، وكانت تحبه حباً شديداً ، لأنه توفر عليها حبه من جهتي الوالدين إذ لا أب له ، وكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً وكانت كما قال بعض الشعراء :

وكنت أرى كالموت من بَينْ ساعةٍ فكيف ببينٍ كان موعده الحْشرُ .

وذكر إسحاق بن بشر ، عن مجاهد بن جبير أن اليهود لما صَلبوا ذلك الرجل شُبه لهم وهم يحسبونه المسيح ، وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك ، تسلَّطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرُهم الى صاحب الروم وهو ملك دمشق في ذلك الزمان ، فقيل له إن اليهود قد تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله ، وكان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويفعل العجائب ، فعدوا عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم . فبعث فجيء بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة ، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه ، فبايعهم في دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحقُّ على اليهود وعلت كلمة النصارى عليهم ، وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه وجيء بالجذع الذي صُلب عليه ذلك الرجل فعظمه فمن ثَمَّ عظمت النصارى الصليب ، ومن ها هنا دخل دينُ النصرانية في الروم .

وفي هذا نظر من وجوه :

أحدها : أن يحيى بن زكريا نبي لا يقرُّ على أن المصلوب عيسى ، فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق .

الثاني : أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلاثمائة سنة ، وذلك في زمان قسطنطين بن قسطن باني المدينة المنسوبة اليه على ما سنذكره .

الثالث : أن اليهود لما صَلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مَطرحاً للقمامة

والنجاسة وجِيف الميتات والقاذورات ، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور فعمدت أُمُّه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ، ووجدوا الخشبة التي صُلب عليها المصلوب ، فذكروا أنه ما مسَّها ذو عاهة إلا عُوفي . فالله أعلم أكان هذا أم لا ، وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بَذَل نفسهَ كَان رجلاً صالحاً أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم ، حتى عظَّموا تلك الخشبة وغشَّوها بالذهب واللآلىء ، ومن ثم اتخذوا الصُّلبانات وتبركوا بشكلها وقبَّلوها ، وأمَرت أُم الملك هيلانة فأُزيلت تلك القمامة وبنُي مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة ، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يُقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها ، ويسمونها القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها . ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قِبْلة اليهود فلم تزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيتَ المقدس ، فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى .

ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأُمه صِديقة ﴾[1] .

قيل : سمي المسيح لمَسْحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان ، لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أُمه عليهما السلام ، وقيل : لأنه كان ممسوح القدمين .

وقال تعالى : ﴿ ثم قفينا على آثارهم بُرسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾[3] والآيات في ذلك كثيرة جداً .

وقد تقدَّم ما ثبت في الصحيحين : « ما من مولود إلا والشيطان يطَعن في خاصرته حين يُولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب » . وتقدم حديث عمير بن هانىء عن جنادة ، عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبد الله ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنةُ حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » .

رواه البخاري وهذا لفظه ، ومسلم .

وروى البخاري ومسلم من حديث الشعبي ، عن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أدَّب الرجل أمتَه فأحسن تأديبها وعلَّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران ، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بي فله أجران ، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران » .

هذا لفظ البخاري .

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٥ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٧ .

(٣) سورة البقرة الآيتان ٨٧ و٢٥٣ .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أنبأنا هشام ، عن مَعْمر وحدثني محمود ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن الزهري ، أخبرني سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « ليلة أُسري بي لقيتُ موسى . قال فنعَته فإذا رجل حسبته قال مُضْطرب رَجِل الرأس كأنه من رجال شنوءة . قال : ولقيت عيسى فنعَته النبي ﷺ فقال : « رَبْعة أحمر كأنما خرج من ديماس ، يعني الحمَّام ، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث .

وقد تقدم في قصتي إبراهيم وموسى .

ثم قال : حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا اسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : قال النبي ﷺ : « رأيت عيسى وموسى وإبراهيم ، فأما عيسى فأحمر جَعْد[1] عريض الصدر . وأما موسى فآدم جَسِيم سَبْط كأنه من رجال الزُّط » .

تفرد به البخاري .

وحدثنا ابراهيم بن المنذر ، حدثنا أبو ضَمرة ، حدثنا موسى بن عقبة ، عن نافع ، قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال : إن الله ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عِنبة طافية ، وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من أُدم الرجال تضرب لمته بين مَنْكبيه رَجِل الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكبَي رجُلين ، وهو يطوف بالبيت فقلت : من هذا ؟ فقالوا : المسيح ابن مريم . ثم رأيت رجلاً وراءه جعداً قططاً أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن . واضعاً يده على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت : من هذا ؟ فقالوا : المسيح الدجال .

ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخاري : تابعه عبد الله بن نافع . ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم بن عمر قال الزهري : وابن قطن رجل من خُزاعة هَلك في الجاهلية .

فبينَّ صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين : مسيح الهُدَى ومسيح الضلالة ، ليُعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويُعرف الآخر فيحذره الموحدون .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مَعْمر عن همَّام بن منبه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له : أسرقت ؟ قال : كلا والذي لا إله إلا هو . فقال عيسى : آمنتُ بالله وكذَّبتُ عيني » وكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق .

---

(١) جعد الشعر : كثيفه . والسبط : المسترسل غير المتموج .

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد الطويل ، عن الحسن وغيره ، عن أبي هريرة قال ، ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى رجلاً يسرق فقال : يا فلان أسرقت ؟ فقال : لا والله ما سرقتُ . فقال : آمنتُ بالله وكذَّبتُ بَصري » .

وهذا يدل على سجيّة طاهرة ، حيث قدَّم حَلف ذلك الرجل فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً على ما شاهده منه عياناً ، فقبل عذره ورجع على نفسه فقال : آمنت بالله - أي صدَّقتك - وكذبت بصري لأجل حلفك .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تُحشرون حفاةً عراة غُرْلاً ثم قرأ : **﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾**(١) . فأول الخلق يُكسىٰ إبراهيم ؛ ثم يُؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابي فيُقال : إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم : **﴿ وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيءٍ شهيدٌ * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾** . (٢)

وقال أيضاً : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي ، حدثنا سفيان ، سمعت الزهري يقول : أخبرني عبد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطْروني كما أطْرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال البخاري : حدثنا ابراهيم ، حدثنا جرير بن حازم ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جُريج يصلي إذ جاءته أُمه فدعته فقال : أُجيبها أو أُصلي ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تُريه وجوه المومسات ، وكان جريج في صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبى فأتت راعياً فأمْكنته من نفسها فولدت غلاماً فقيل لها : ممن ؟ قالت : من جُرَيج فأتوه وكسّروا صومعته فأنزلوه وسبُّوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : فلان الراعي . قالوا : أنبني صومعتك من ذهب ؟ قال : لا إلا من طين .

وكانت امرأة ترضع ابناً لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت : اللهم

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

(٢) سورة المائدة الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .

اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله . ثم أقبل على ثديها يمصه . قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه . ثم مر بأَمَةٍ فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه . فترك ثديها فقال : اللهم اجعلني مثلها . فقالت : لِمَ ذلك ؟ فقال : الراكب جَبَّار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت . ولم تفعل » .

وقال البخاري : حدثنا أبو اليَمان ، حدثنا شُعيب ، عن الزهري ، أخبرني أبو سلمة ، أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علَّات ليس بيني وبينه نبي » .

تفرَّد به البخاري من هذا الوجه .

ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي داود الحَفْري ، عن الثوري عن أبي الزناد ، عن أبي سَلمة ، عن أبي هريرة .

وقال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، هو الثوري ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء إخوة أولاد علات ، وليس بيني وبين عيسى نبي » .

وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه . وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همَّام ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه .

قال أحمد : حدثنا يحيى ، عن ابن أبي عَرُوبة ، حدثنا قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلَّات ، ودينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مَرْبوع إلى الحُمْرة والبياض ، سَبْط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلل بين مُمَصَّرتين[1] ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجِزْية ويعطِّل المِلَل حتى تهلك في زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب ، وتقع الأمَنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه » .

ثم رواه أحمد عن عفان ، عن همام ، عن قتادة ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، فذكر

(١) المخصر : العصا القصيرة .

نحوه . وقال : فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون . ورواه أبو داود عن هُدْبة ابن خالد ، عن همام بن يحيى به نحوه .

وروى هشام بن عروة ، عن صالح مولى أبي هريرة عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث في الأرض أربعين سنة » وقد بينا نزوله عليه السلام في آخر الزمان في كتاب الملاحم ، كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير عند قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً** ﴾[1] . وقوله : ﴿ **وإنه لعلمٌ للساعة** ﴾[2] الآية . وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق ، وقد أُقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين : تقدَّم يا روح الله فَصَلِّ . فيقول : لا . . . بعضكم على بعض أمراء مَكْرمة الله هذه الأُمة .

وفي رواية : فيقول له عيسى : إنما أُقيمت الصلاة لك . فيصلي خلفه . ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لُدّ فيقتله بيده الكريمة .

وذكرنا أنه قَوِي الرجاء حين بُنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض ، وقد بُنيت أيضاً من أموال النصارى حين حَرقوا التي هدمت وما حولها ، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، وأنه يخرج من فجّ الرَّوحاء حاجاً أو معتمراً أو لِثَنْتيهما ، ويقيم أربعين سنة ، ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه .

وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام ، في كتابه عن عائشة مرفوعاً ، أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية ولكن لا يصح إسناده .

وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا زيد بن أخزم الطائي ، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة ، حدثني أبو مودود المدني ، حدثنا عثمان بن الضحاك ، عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن أبيه ، عن جده قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم عليهم السلام يدفن معه . قال أبو مودود : وقد بقي من البيت موضع قبر .

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن . كذا قال . والصواب : الضحاك بن عثمان المدني .

وقال البخاري : هذا الحديث لا يصح عندي ولا يُتابَع عليه .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٩ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٦١ .

وروى البخاري عن يحيى بن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان ، قال : الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة ، وعن قتادة خمسمائة وستون سنة وقيل خمسمائة وأربعون سنة ، وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة . والمشهور ستمائة سنة . ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية ، لتكون ستمائة بالشمسية . والله أعلم .

وقال ابن حبان في صحيحه : « ذكر المدة التي بقيت فيها أُمة عيسى على هَدْيه » : حدثنا أبو يعلى ، حدثنا أبو همام ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جُبَير بن نفير ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قَبض الله داودَ من بين أصحابه فما فتنوا ولا بَدّلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وَهَدْيه مائتي سنة » .

وهذا حديث غريب جداً ، وإن صححه ابن حبان .

وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق ، أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصَّى الحواريين بأن يَدْعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له وعيَّن كُلَّ واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح اليهم[1] .

وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ، ومَتى ومُرْقس ويوحنا ، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة الى كل نسخة ونسخة ، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة الى الأُخرى ، وهؤلاء الأربعة منهم آثنان ممن أدرك المسيح وراءه وهما متى ويوحنا ، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا .

وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا ، وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولس اليهودي ، وكان ظالماً غاشماً مُبْغضاً للمسيح ولما جاء به . وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثم رجمه حتى مات رحمه الله .

ولما سمع بولس أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله ، فتلقاه عند كوكبا ، فلما واجه أصحابَ المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه ، فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديقُ المسيح فجاء إليه واعتذر مما صنع ، وآمن به فقبِل منه وسأله

---

(١) في الأناجيل الأربعة .

أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره ، فقال : اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك . فجاء إليه فدعا فردّ عليه بصره وحَسُن إيمان بولس بالمسيح عليه السلام أنه عَبْد الله ورسوله وبنيت له كنيسته باسمه فهي كنيسة بولس المشهورة بدمشق من زمن فتحهَا الصحابة رضي الله عنهم حتى خربت .

***

فصــل

اختلف أصحـاب المسيح عليـه السلام بعـد رفعه إلى السـماء فيـه عـلى أقـوال ، كـما قـالـه ابن عبـاس وغيره من أئمـة السلف كما أوردنـاه عند قـوله : ﴿ **فـأيَّدنـا الذين آمنـوا عـلى عـدوِّهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾[١] .

قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع الى السماء .

وقال آخرون : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله .

فـالأول هو الحق والقـولان الآخران كفـر عظيم ، كـما قال تعـالى : ﴿ **فـاختلف الأحـزاب من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيمٍ** ﴾[٢] .

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل .

ثم بعـد المسيح بثـلاثمائـة سنة حـدثت فيه الـطامَّة العـظمى والبليّة الكبـرى اختلف البطاركـة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمـامسة والـرهبان في المسيح على أقـوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط ، واجتمعـوا وتحاكمـوا الى الملك قسطنـطين باني القسـطنـطينيـة وهم المجمـع الأول ، فصـار الملك إلى قـول أكثر فرقـة اتفقت على قـول من تلك المقالات ، فسمُّـوا الملكية[٣] ودَحض من عـداهم وأبعدهم ، وتفردت الفـرقة التـابعة لعبـد الله بن آريوس الـذي ثبت على أن عيسى عبـد من عباد الله ورسولٌ من رسله فسكنوا البراري والبوادي وبنوا الصوامـع والديـارات والقلايـات ، وقنعوا بـالعيش الزهيد ولم يخالطوا أُولئـك الملل والنحل وبنت الملكيـة الكنائس الهـائلة ، عمدوا إلى مـا كان من بنـاء اليونان فحوَّلوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجَدْي .

* * *

---

(١) سورة الصف الآية ١٤ .

(٢) سورة مريم الآية ٣٧ .

(٣) وهم المعروفون في كتب النحل بالملكانية

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيتَ لحم على محل مولد المسيح ، وبنت أمه هيلانة القِمامة ، يعني على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح .

وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام . ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة ، وأحلُّوا أشياء هي حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير ، وصلُّوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس ، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى ، ومحمد خاتم النبيين صلى اليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حوَّل إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل .

وصوَّروا الكنائس ولم تكن مصوَّرة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة ، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة .

وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعي أصحاب المجمع الثالث ، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها .

وها أنا أحكيها وحاكي الكفر ليس بكافر لابث ، على ما فيها من ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المُفضِي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ فيقولون :

« نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى وكل ما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور نور من نور إلـه حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساوٍ للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء ، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نَزل من السماء وتجسَّد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد ملاطس البنطي وتألَّم وقُبر وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً فسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه ، وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب ، والأبن مسجود له ويمجد الناطق في الأنبياء كنسبة واحدة جامعة

مقدسة يهولية ، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه . . . آمين . » .

* * *

وإلى هنا ينتهي كتاب قصص الأنبياء للإمام أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ، والحمد لله على نعمته .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

والنجاسة وجِيف الميتات والقاذورات ، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور فعمدت أُمُّه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح ، ووجدوا الخشبة التي صُلب عليها المصلوب ، فذكروا أنه ما مسَّها ذو عاهة إلا عُوفي . فالله أعلم أكان هذا أم لا ، وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بَذَل نفسهَ كَان رجلاً صالحاً أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم ، حتى عظَّموا تلك الخشبة وغشَّوها بالذهب واللآلىء ، ومن ثم اتخذوا الصُّلبانات وتبركوا بشكلها وقبَّلوها ، وأمَرت أُم الملك هيلانة فأُزيلت تلك القمامة وبُني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة ، فهي هذه المشهورة اليوم ببلد بيت المقدس التي يُقال لها القمامة بأعتبار ما كان عندها ، ويسمونها القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها . ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قِبْلة اليهود فلم تزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب بيتَ المقدس ، فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس ، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى .

ذكر صفة عيسى عليه السلام وشمائله وفضائله

قال الله تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأمه صِديقة ﴾[1] .

قيل : سمي المسيح لمسْحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان . لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أُمه عليهما السلام ، وقيل : لأنه كان ممسوح القدمين .

وقال تعالى : ﴿ ثم قفينا على آثارهم بُرسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾[3] والآيات في ذلك كثيرة جداً .

وقد تقدَّم ما ثبت في الصحيحين : « ما من مولود إلا والشيطان يطَعن في خاصرته حين يُولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها ، ذهب يطعن فطعن في الحجاب » . وتقدم حديث عمير بن هانيء عن جنادة ، عن عبادة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبد الله ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنةُ حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان مِن العمل » .

رواه البخاري وهذا لفظه ، ومسلم .

وروى البخاري ومسلم من حديث الشعبي ، عن أبي بردة بن أبي موسى ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أدَّب الرجل أمتَه فأحسن تأديبها وعلَّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران ، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بي فله أجران ، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران » .

هذا لفظ البخاري .

---

(١) سورة المائدة الآية ٧٥ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٧ .

(٣) سورة البقرة الآيتان ٨٧ و٢٥٣ .

وقال البخاري : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أنبأنا هشام ، عن مَعْمر وحدثني محمود ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن الزهري ، أخبرني سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « ليلة أُسري بي لقيتُ موسى . قال فنعَته فإذا رجل حسبته قال مُضْطرب رَجِل الرأس كأنه من رجال شنوءة . قال : ولقيت عيسى فنَعَته النبي ﷺ فقال : « رَبْعة أحمر كأنما خرج من ديماس ، يعني الحمَّام ، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به » الحديث .

وقد تقدم في قصتي إبراهيم وموسى .

ثم قال : حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا اسرائيل ، عن عثمان بن المغيرة ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قال : قال النبي ﷺ : « رأيت عيسى وموسى وإبراهيم ، فأما عيسى فأحمر جَعْد[1] عريض الصدر . وأما موسى فآدم جَسِيم سَبْط كأنه من رجال الزُّط » .

تفرد به البخاري .

وحدثنا ابراهيم بن المنذر ، حدثنا أبو ضَمرة ، حدثنا موسى بن عقبة ، عن نافع ، قال : قال عبد الله بن عمر : ذكر النبي ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال : إن الله ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عِنبة طافية ، وأراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من أُدم الرجال تضرب لمته بين مَنْكبيه رَجِل الشعر يقطر رأسه ماء واضعاً يديه على منكَبي رجُلين ، وهو يطوف بالبيت فقلت : من هذا ؟ فقالوا : المسيح ابن مريم . ثم رأيت رجلاً وراءه جعداً قططاً أعور عين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قطن . واضعاً يده على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت : من هذا ؟ فقالوا : المسيح الدجال .

ورواه مسلم من حديث موسى بن عقبة . ثم قال البخاري : تابعه عبد الله بن نافع . ثم ساقه من طريق الزهري عن سالم بن عمر قال الزهري : وابن قطن رجل من خُزاعة هَلك في الجاهلية .

فبيَّن صلوات الله وسلامه عليه صفة المسيحين : مسيح الهُدَى ومسيح الضلالة ، ليُعرف هذا إذا نزل فيؤمن به المؤمنون ويُعرف الآخر فيحذره الموحدون .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا مَعْمر عن همَّام بن منبه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له : أسرقت ؟ قال : كلا والذي لا إله إلا هو . فقال عيسى : آمنتُ بالله وكذَّبتُ عيني » وكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق .

---

(١) جعد الشعر : كثيفه . والسبط : المسترسل غير المتموج .

وقال أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد الطويل ، عن الحسن وغيره ، عن أبي هريرة قال ، ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال : « رأى عيسى رجلاً يسرق فقال : يا فلان أسرقت ؟ فقال : لا والله ما سرقتُ . فقال : آمنتُ بالله وكذَّبتُ بَصري » .

وهذا يدل على سجيّة طاهرة ، حيث قدَّم حَلف ذلك الرجل فظن أن أحداً لا يحلف بعظمة الله كاذباً على ما شاهده منه عياناً ، فقبل عذره ورجع على نفسه فقال : آمنت بالله - أي صدَّقتك - وكذبت بصري لأجل حلفك .

وقال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن المغيرة بن النعمان ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تُحشرون حفاةً عراة غُرْلاً ثم قرأ : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾(١) . فأول الخلق يُكسىٰ إبراهيم ؛ ثم يُؤخذ برجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابي فيُقال : إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح عيسى ابن مريم : ﴿ وكنتُ عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيءٍ شهيدٌ * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ . (٢)

وقال أيضاً : حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي ، حدثنا سفيان ، سمعت الزهري يقول : أخبرني عبد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس سمع عمر يقول على المنبر سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تطْروني كما أطْرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله » .

وقال البخاري : حدثنا ابراهيم ، حدثنا جرير بن حازم ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جُريج يصلي إذ جاءته أمه فدعته فقال : أُجيبها أو أُصلي ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تُريه وجوه المومسات ، وكان جريج في صومعة فعرضت له امرأة وكلمته فأبى فأتت راعياً فأمْكنته من نفسها فولدت غلاماً فقيل لها : ممن ؟ قالت : من جُرَيج فأتوه وكسَروا صومعته فأنزلوه وسبُّوه فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : فلان الراعي . قالوا : أنبني صومعتك من ذهب ؟ قال : لا إلا من طين .

وكانت امرأة ترضع ابناً لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت : اللهم

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

(٢) سورة المائدة الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .

اجعل ابني مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلني مثله . ثم أقبل على ثديها يمصه . قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه . ثم مر بأَمَةٍ فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه . فترك ثديها فقال : اللهم اجعلني مثلها . فقالت : لِمَ ذلك ؟ فقال : الراكب جَبَّار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون سرقت وزنت . ولم تفعل » .

وقال البخاري : حدثنا أبو اليَمان ، حدثنا شُعيب ، عن الزهري ، أخبرني أبو سلمة ، أن أبا هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علَّات ليس بيني وبينه نبي » .

تفرَّد به البخاري من هذا الوجه .

ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي داود الحَفْري ، عن الثوري عن أبي الزناد ، عن أبي سَلمة ، عن أبي هريرة .

وقال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، هو الثوري ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام والأنبياء إخوة أولاد علات ، وليس بيني وبين عيسى نبي » .

وهذا إسناد صحيح على شرطهما ولم يخرجوه من هذا الوجه . وأخرجه أحمد عن عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همَّام ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه وأخرجه ابن حبان من حديث عبد الرزاق نحوه .

قال أحمد : حدثنا يحيى ، عن ابن أبي عَرُوبة ، حدثنا قتادة ، عن عبد الرحمن بن آدم ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الأنبياء إخوة لعلَّات ، ودينهم واحد وأمهاتهم شتى ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مَرْبوع إلى الحُمْرة والبياض ، سَبْط كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلل بين مُخْصرتين[1] ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجِزْية ويعطِّل المِلَل حتى تهلك في زمانه كلها غير الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكَذاب ، وتقع الآمَنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه » .

ثم رواه أحمد عن عفان ، عن همام ، عن قتادة ، عن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، فذكر

---

(١) المخصر : العصا القصيرة .

نحوه . وقال : فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون . ورواه أبو داود عن هُدْبة ابن خالد ، عن همام بن يحيى به نحوه .

وروى هشام بن عروة ، عن صالح مولى أبي هريرة عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « فيمكث في الأرض أربعين سنة » وقد بينا نزوله عليه السلام في آخر الزمان في كتاب الملاحم ، كما بسطنا ذلك أيضاً في التفسير عند قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً** ﴾[1] . وقوله : ﴿ **وإنه لعلمٌ للساعة** ﴾[2] الآية . وأنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق ، وقد أُقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين : تقدَّم يا روح الله فَصَلِّ . فيقول : لا . . . بعضكم على بعض أمراء مَكْرمة الله هذه الأمة .

وفي رواية : فيقول له عيسى : إنما أُقيمت الصلاة لك . فيصلي خلفه . ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لُدّ فيقتله بيده الكريمة .

وذكرنا أنه قَوِي الرجاء حين بُنيت هذه المنارة الشرقية بدمشق التي هي من حجارة بيض ، وقد بُنيت أيضاً من أموال النصارى حين حَرقوا التي هدمت وما حولها ، فينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، وأنه يخرج من فجّ الرَّوحاء حاجاً أو معتمراً أو لِثْنتيهما ، ويقيم أربعين سنة ، ثم يموت فيدفن فيما قيل في الحجرة النبوية عند رسول الله ﷺ وصاحبيه .

وقد ورد في ذلك حديث ذكره ابن عساكر في آخر ترجمة المسيح عليه السلام ، في كتابه عن عائشة مرفوعاً ، أنه يدفن مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر في الحجرة النبوية ولكن لا يصح إسناده .

وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا زيد بن أخزم الطائي ، حدثنا أبو قتيبة مسلم بن قتيبة ، حدثني أبو مودود المدني ، حدثنا عثمان بن الضحاك ، عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن أبيه ، عن جده قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم عليهم السلام يدفن معه . قال أبو مودود : وقد بقي من البيت موضع قبر .

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن . كذا قال . والصواب : الضحاك بن عثمان المدني .

وقال البخاري : هذا الحديث لا يصح عندي ولا يُتابَع عليه .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٩ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٦١ .

وروى البخاري عن يحيى بن حماد ، عن أبي عوانة ، عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان ، قال : الفترة ما بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة ، وعن قتادة خمسمائة وستون سنة وقيل خمسمائة وأربعون سنة ، وعن الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة . والمشهور ستمائة سنة . ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة بالقمرية ، لتكون ستمائة بالشمسية . والله أعلم .

وقال ابن حبان في صحيحه : « ذكر المدة التي بقيت فيها أُمة عيسى على هَدْيه » : حدثنا أبو يعلى ، حدثنا أبو همام ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن الهيثم بن حميد ، عن الوضين بن عطاء ، عن نصر بن علقمة ، عن جُبَير بن نَفير ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد قَبض الله داودَ من بين أصحابه فما فُتنوا ولا بَدَّلوا ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وَهَدْيه مائتي سنة » .

وهذا حديث غريب جداً ، وإن صححه ابن حبان .

وذكر ابن جرير عن محمد بن إسحاق ، أن عيسى عليه السلام قبل أن يرفع وصَّى الحواريين بأن يَدْعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له وعيَّن كُلَّ واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام والمشرق وبلاد المغرب ، فذكروا أنه أصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسله المسيح اليهم[1] .

وذكر غير واحد أن الإنجيل نقله عنه أربعة : لوقا ، ومَتى ومُرْقس ويوحنا ، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كثير بالنسبة الى كل نسخة ونسخة ، وزيادات كثيرة ونقص بالنسبة الى الأُخرى ، وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح وراءه وهما متى ويوحنا ، ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا .

وكان ممن آمن بالمسيح وصدقه من أهل دمشق رجل يقال له ضينا ، وكان مختفياً في مغارة داخل الباب الشرقي قريباً من الكنيسة المصلبة خوفاً من بولس اليهودي ، وكان ظالماً غاشماً مُبْغضاً للمسيح ولما جاء به . وكان قد حلق رأس ابن أخيه حين آمن بالمسيح وطاف به في البلد ثم رجمه حتى مات رحمه الله .

ولما سمع بولس أن المسيح عليه السلام قد توجه نحو دمشق جهز بغاله وخرج ليقتله ، فتلقاه عند كوكبا ، فلما واجه أصحابَ المسيح جاء إليه ملك فضرب وجهه بطرف جناحه فأعماه ، فلما رأى ذلك وقع في نفسه تصديقُ المسيح فجاء إليه واعتذر مما صنع ، وآمن به فقبل منه وسأله

(١) في الأناجيل الأربعة .

أن يمسح عينيه ليرد الله عليه بصره ، فقال : اذهب إلى ضينا عندك بدمشق في طرف السوق المستطيل من المشرق فهو يدعو لك . فجاء إليه فدعا فردّ عليه بصره وحَسُن إيمان بولس بالمسيح عليه السلام أنه عَبْد الله ورسوله وبنيت له كنيسته باسمه فهي كنيسة بولس المشهورة بدمشق من زمن فتحهَا الصحابة رضي الله عنهم حتى خربت .

* * *

فصـــل

اختلف أصحـاب المسيح عليـه السلام بعـد رفعه إلى السـماء فيـه عـلى أقـوال ، كـما قـالـه ابن عباس وغيره من أئمـة السلف كما أوردنـاه عند قـوله : ﴿ **فـأيّدنـا الذين آمنـوا عـلى عـدوِّهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾[1] .

قال ابن عباس وغيره : قال قائلون منهم : كان فينا عبد الله ورسوله فرفع الى السماء .

وقال آخرون : هو الله . وقال آخرون : هو ابن الله .

فـالأول هو الحق والقـولان الآخران كفـر عظيم ، كـما قال تعـالى : ﴿ **فـاختلف الأحـزاب من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيمٍ** ﴾[2] .

وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل .

ثم بعـد المسيح بثـلاثمائـة سنة حـدثت فيه الـطامَّة العـظمى والبليّة الكبـرى اختلف البطاركـة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمـامسة والـرهبان في المسيح على أقـوال متعددة لا تنحصر ولا تنضبط ، واجتمعـوا وتحاكمـوا الى الملك قسطنـطين باني القسـطنـطينيـة وهم المجمـع الأول ، فصـار الملك إلى قـول أكثر فرقـة اتفقت على قـول من تلك المقالات ، فسمُّـوا الملكية[3] ودَحض من عـداهم وأبعدهـم ، وتفردت الفـرقة التـابعة لعبـد الله بن آريوس الـذي ثبت على أن عيسى عبـد من عباد الله ورسوٰل من رسله فسكنوا البراري والبوادي وبنوا الصوامـع والديـارات والقلايـات ، وقنعوا بـالعيش الزهيد ولم يخالطوا أُولئـك الملل والنحل وبنت الملكيـة الكنائس الهـائلة ، عمدوا إلى مـا كان من بنـاء اليونان فحوَّلوا محاريبها إلى الشرق وقد كانت إلى الشمال إلى الجَدْي .

***

(١) سورة الصف الآية ١٤ .

(٢) سورة مريم الآية ٣٧ .

(٣) وهم المعروفون في كتب النحل بالملكانية

بيان بناء بيت لحم والقمامة

وبنى الملك قسطنطين بيتَ لحم على محل مولد المسيح ، وبنت أمه هيلانة القِمامة ، يعني على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح .

وقد كفرت هؤلاء وهؤلاء ووضعوا القوانين والأحكام . ومنها مخالف للعتيقة التي هي التوراة ، وأحلُّوا أشياء هي حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير ، وصلُّوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس ، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى ، ومحمد خاتم النبيين صلى اليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حوَّل إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل .

وصوَّروا الكنائس ولم تكن مصوَّرة قبل ذلك ، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة ، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة .

وجميع الملكية والنسطورية أصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني ، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعي أصحاب المجمع الثالث ، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها .

وها أنا أحكيها وحاكي الكفر ليس بكافر لابث ، على ما فيها من ركة الألفاظ وكثرة الكفر والخبال المُفضِي بصاحبه إلى النار ذات الشواظ فيقولون :

« نؤمن بإله واحد ضابط الكل خالق السموات والأرض كل ما يرى وكل ما لا يرى ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور نور من نور إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق مساوٍ للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء ، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نَزل من السماء وتجسَّد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد ملاطس البنطي وتألَّم وقُبر وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب ، وأيضاً فسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه ، وروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب مع الأب ، والأبن مسجود له ويمجد الناطق في الأنبياء كنسبة واحدة جامعة

مقدسة يهولية ، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وأنه حي قيامة الموتى وحياة الدهر العتيد كونه . . . آمين . » .

* * *

وإلى هنا ينتهي كتاب قصص الأنبياء للإمام أبي الفداء إسماعيل ابن كثير ، والحمد لله على نعمته .

الفهرس

الموضوع	الصفحة